



تشيماماندا
نغوزي أديتشي

أمريكانا

ترجمة بثينة الإبراهيم

تشيماماندا نغوزي أديتشي

أمريكانا

عالم يتأمْرَك

ترجمة بثينة الإبراهيم

أمريكانا

هذا الكتاب بدعم من:



أمريكانا

تأليف: تشيماماندا نغوزي أديتشي
ترجمة: بثينة الإبراهيم
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-24-171-3



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام
المرجع: MC-02-01-8219521





إلى تِس غالاغر

هذا الكتاب للجيل القادم:

توكس، وتشيزوم، وأمراكا، وتشايندم، وكامسيوتا، وآرينز

وإلى أبي في عامه الثمانين هذا

وإلى إيفارا، كالعادة

الجزء الأوّل

الفصل الأوّل

لا تفوح من برنستن أية رائحة في الصيف. ورغم حب إفيملو للخضرة الرائقة للأشجار الكثيرة، والشوارع النظيفة والمنازل الفخمة، والمتاجر الأنيقة الباهظة الأثمان، ومسحة السكون الدائمة للفتنة المستَحقة، فإن أكثر ما فتنها ذلك الافتقار إلى الرائحة. ربما لأن لكل المدن الأمريكية الأخرى التي عرفتها رائحة مميزة. فرائحة التاريخ العطِنة تنبعث من فيلادلفيا، ورائحة الإهمال من نيوهفن، ورائحة الماء الأجاج من بالتيمور، ورائحة القمامة التي سفعتها الشمس من بروكلِن. لكنّها وجدت برنستن دون رائحة. أحبّت إفيمِلو استنشاق الهواء بعمق هنا، ومراقبة السكان الذين يقودون بكياسة واضحة، ويوقفون سياراتهم ذات الطراز الأحدث خارج متجر المنتجات العضوية في شارع ناسو، أو مطاعم السوشي، أو متجر المثلجات الذي يقدم خمسين نكهة من بينها نكهة الفلفل الأحمر، أو خارج مكتب البريد حيث يخرج الموظفون المتملقون لتحيتهم عند المدخل. أحبت الحرم الجامعي المكتسي بوقار بالمعرفة، والمباني القوطية ذات الجدران المزخرفة بالدوالي، والطريقة التي يتحول بها كل شيء في ضوء الليل الخافت إلى مشهد رهيب. غير أنها أحبت، أكثر من أي شيء آخر، قدرتها على التظاهر بأنها شخص مختلف في هذا المكان الرغِد الهادئ، وأنها شخص مقبول في الطائفة الأمريكية المقدسة تحديدًا؛ شخص يتحلى باليقين.

لكنها كرهت اضطرارها للذهاب إلى ترنتن لضفر شعرها. ومن الغريب أن

تفترض العثور على مركز لضفر الشعر في برنستن؛ فقد كان السكان السود القليلون الذين رأتهم ذوي بشرة فاتحة جدًا وشعر مسترسل ولا يمكنها تخيلهم ضافري شعورهم. ولكنها مع ذلك، وفي أثناء انتظارها القطار في محطة الوصل في برنستن في وهج حرارة بعد الظهيرة، تعجبت من عدم وجود مكان تضفر فيه شعرها. ذاب لوح الشوكولاته في حقيبتها. انتظر على رصيف المحطة أشخاص قليلون آخرون، كلهم بيض ونحيلون، يرتدون ثيابًا رقيقة قصيرة. وكان الرجل الواقف قربها يأكل قمعًا من المثلجات. وجدت ذلك وقحًا قليلًا، أي تناول الرجال الأمريكيين البالغين لأقماع المثلجات، وبخاصة تناول الرجال الأمريكيين البالغين للمثلجات في الأماكن العامة. التفت ناحيتها حين صرّ القطار وقال بالألفة التي يتسمّ بها الغرباء عندما يتشاطرون يأسهم من الخدمات العامة: «في الوقت المحدد»، فابتسمت له. لقد سُحب الشعر الرمادي في مؤخرة رأسه إلى الأمام، في تدبير مضحك لإخفاء صلعته. لا بد أنه أكاديميّ، لكنه ليس أكاديميًا في العلوم الإنسانية، وإلا كان أكثر وعيًا بذاته. ولعلّه أكاديمي في علم جامد مثل الكيمياء. كانت في السابق ستقول: "أعرف"، هذا التعبير الأمريكي المميز الذي يُظهر الموافقة أكثر من المعرفة، ومن ثم تبدأ حوارًا معه، لترى إن كان سيقول شيئًا يمكنها استخدامه في مدونتها. يشعر الناس بالإغراء للحديث عن أنفسهم وإن لم تقل شيئًا بعد كلامهم، فسيغريهم ذلك بالكلام أكثر. إنهم مهيؤون لملء الصمت. ولو سألوها عن عملها، لقالت بغموض: «أكتب مدونة عن نمط الحياة»، لأن قولها "أكتب مدونة مغفلة من اسم كاتبها تدعى رشة عنصرية **أو ملاحظات منوعة حول الأمريكيين السود (أولئك الذين كانوا يسمون بالزنوج سابقًا) من سوداء ليست أمريكية**"[1] سيزعجهم. ومع ذلك فقد قالته مرات قليلة. قالته مرة لرجل أبيض مضفور الشعر جلس قربها في القطار، شعره مثل حبل رفيع قديم ينتهي بزغب أشقر، وقميصه سمِلٌ ارتداه بورعٍ كافٍ لإقناعها أنه ناشط اجتماعي، ويمكن أن يكون ضيفًا مناسبًا لمدونتها. قال لها بصراحة: "إنهم يبالغون كثيرًا في قضية الأصول العِرقية هذه الأيام. لا بد أن يكف السود عن التمركز على

---

1) تستخدم الكاتبة كلمة Raceteenth، وهي كلمة مركبة، يعني جزؤها الأول العرق وجزؤها الثاني هو 1/16 أوقية من المخدرات. ولذلك فضلت استخدام رشة عنصرية، لتكون وصفًا ملائمًا لمضمون المدونة.

ذواتهم، فالقضية الآن قضية الطبقية، أي ما تملك وما لا تملك». واستخدمت عبارته بمثابة جملة افتتاحية لمنشور بعنوان «ليس كل الرجال الأمريكيين البيض مضفوري الشعر ودودين". ثم لذلك الرجل من أوهايو، الذي كان محشورًا إلى جانبها في الطائرة. كانت واثقة أنه مدير تنفيذي، من بزته ذات السترة الطويلة وياقته المختلفة اللون. أراد أن يعرف ما قصدته ب «مدونة عن نمط الحياة" فأخبرته، ظانة أنه سيبدي تحفظًا، أو ينهي الحوار بقوله شيئًا تافهًا بشكل دفاعي من قبيل «إن الجنس البشري هو الأصل العرقي الوحيد المهم". لكنه قال: "هل كتبت يومًا عن التبني؟ لا أحد يرغب بطفل أسود في هذه البلاد، ولا أعني طفلًا ثنائي العرق، بل أسود. فلا أحد يريده حتى العائلات السوداء».

أخبرها أنه وزوجته تبنيا طفلًا أسود ورأى جيرانهما أنهما اختارا التضحية من أجل سبب غامض. فكتبت في مدونتها عنه «ليس المدراء التنفيذيون البيض سيئو الهندام من أوهايو كما تظنهم دومًا"، وتلقت العدد الأكبر من التعليقات لذلك الشهر. وظلت تتساءل إن كان قد قرأ المنشور، وتمنت لو فعل. كانت كثيرًا ما تجلس في المقاهي أو المطارات أو محطات القطار، تراقب الغرباء وتتخيل حيواتهم، وتتساءل من منهم قد قرأ مدونتها، مدونتها السابقة حاليًا. فقد كتبت منذ بضعة أيام المنشور الأخير الذي نجم عنه مئتان وأربعة وسبعون تعليقًا حتى الآن. لقد أشعرها بالخوف والفرح دومًا كل هؤلاء القراء، المتزايدين شهرًا تلو آخر، الذين يشاركون رابط المدونة ويعيدون نشر المنشور، والذين يعرفون أكثر مما تعرف بكثير. كتبت دريدا السافوية (السحاقية)، وهي واحدة من أكثر المعلّقين زيارة: **"أنا مندهشة قليلًا لأخذي هذا الأمر على نحو شخصي. حظًا طيبًا لك وأنت تسعين نحو «الحياة المختلفة» المسرية، ولكن أرجو أن تعودي إلى فضاء التدوين قريبًا. لقد استخدمت صوتك الهازئ والمهوّل والطريف والمحرض على التفكير لخلق فضاء لحوارات حقيقية حول موضوع مهم"**. جعل القراء من أمثال دريدا السافوية، أولئك الذين يكتبون الإحصاءات ويستخدمون كلمات من مثل «يجسد"، إفيملو متوترة، ومتلهفة للاختلاف وإثارة الإعجاب، وهكذا أخذت تشعر بمرور الوقت مثل عُقاب يعتاش على جِيف قصص الناس من أجل شيء يمكنها استخدامه. كانت تشير إشارات ضعيفة حول الأصول العرقية أحيانًا،

ولا تصدق نفسها أحيانًا أخرى. وكلما كتبت أكثر قلّت ثقتها. كان كل منشور يجردها من طبقة من الذات حتى أخذت تشعر أنها عارية ومزيفة.

جلس الرجل آكل المثلجات قربها في القطار، وكي تحبط أي محاولة للحديث، حدقت ببقعة بنية قرب قدميها، كانت بقعة فرابتشينو مثلج مسكوب، حتى وصلوا إلى ترنتن. كان رصيف المحطة مكتظًا بالسود، كثيرون منهم بدناء، ويرتدون ثيابًا رقيقة قصيرة. ما زال ذلك يدهشها، مدى الاختلاف الذي أحدثته رحلة بالقطار دامت بضع دقائق. أثناء عامها الأول في أمريكا، حين استقلت قطار نيوجرسي ترانزيت إلى محطة بنسلفانيا، ثم قطار الأنفاق لزيارة العمة أوجو في فلاتلاندز، ذُهلت لمدى نحافة معظم البيض الذين ينزلون في الاستراحات في مانهاتن، وفي بروكلِن حين تقدم القطار أكثر، وكان الأشخاص الباقون من السّود هم البدن غالبًا. إلا أنها لم ترهم "بدنًا، بل وجدتهم «ضخامًا"، لأن أحد الأمور الأولى التي أخبرتها بها صديقتها جينيكا أن «بدين" كلمة سيئة في أمريكا، تجيش بالحكم الأخلاقي مثلها مثل «غبي" أو «وغد»، وهي ليست وصفًا مثل «قصير" أو «طويل». لذلك استبعدت كلمة «بدين" من مفرداتها. لكن الكلمة عادت إليها الشتاء الماضي، بعد ثلاثة عشر عامًا تقريبًا، حين غمغم رجل يقف خلفها في طابور وهي تدفع ثمن كيس كبير من رقائق التورتيلا «توستيتوس»: "لا يحتاج البدين إلى أكل هذا الهراء»، فنظرت إليه مندهشة، وشاعرة بالإهانة قليلًا، وخطر لها أن نظرة الغريب إليها على أنها بدينة مادة رائعة لمنشور في المدونة. وستصنف المنشور تحت علامة «الأصول العرقية والجنس وحجم الجسم». غير أنها حين عادت إلى منزلها ووقفت قبالة المرآة، أدركت أنها تجاهلت طويلًا الضيق الجديد لثيابها، واحتكاك المنطقة الداخلية لفخذيها، وأعضاءها الأكثر طراوة واستدارة التي ترتج حين تتحرك. لقد كانت بدينة.

نطقت كلمة «بدينة" ببطء، محركة إياها للخلف والأمام، وتذكرت كل الأمور الأخرى التي تعلمت ألا تقولها بصوت عالٍ في أمريكا. لقد كانت بدينة؛ ليست ممتلئة أو خشنة؛ بل بدينة. وهي الكلمة الوحيدة التي بدت صادقة. وقد تجاهلت أيضًا الجمود في روحها. أبلت مدونتها حسنًا، بآلاف من الزوار المميزين كل شهر، وجنت مالًا من المحاضرات التي تلقيها، كما أن لديها زمالة في برنستن وعلاقة مع بْلين- كتب

لها على بطاقة عيد ميلادها الأخير "إنك الحب المطلق في حياتي" - إلا أنها عانت جمودًا في روحها. لقد كانت تشعر به منذ مدة، في الإعياء الصباحي من الإنهاك، والكآبة واللاحدودية، صاحبته اشتهاءات بلا ملامح ورغبات بلا شكل، وأفكار خيالية موجزة عن حيوات أخرى يمكن أن تحياها. ذاب هذا الإحساس بمرور الشهور ليصبح حنينًا جارحًا للوطن. فأخذت تتفحص المواقع النيجيرية على الإنترنت، والصفحات النيجيرية على الفيسبوك، والمدونات النيجيرية، وكل نقرة تظهر قصة أخرى لشاب عاد مؤخرًا إلى الوطن، حاملًا شهادة جامعية بريطانية أو أمريكية، ليؤسس شركة استثمارية، أو شركة للإنتاج الموسيقي، أو علامة تجارية للثياب، أو مجلة، أو امتيازًا للوجبات السريعة. وشاهدت صور هؤلاء الرجال والنساء وشعرت بالألم الكئيب للخسارة، كأنهم أجبروها على بسط يدها وأخذوا شيئًا يخصها. لقد عاشوا حياتها، وأصبحت نيجيريا المكان الذي يفترض أن تكون فيه، المكان الوحيد الذي يمكنها أن تغرس جذورها فيه دون رغبة ملحّة لاقتلاعها ونفض التربة عنها. وكان هناك، طبعًا، أوبنز. حبها الأول، حبيبها الأول، الشخص الوحيد الذي لم تشعر معه أبدًا أنها بحاجة للتعبير عن نفسها. لقد أصبح زوجًا وأبًا الآن، ولم يتواصلا منذ سنوات، ورغم ذلك لم تستطع التظاهر أنه ليس جزءًا من حنينها، أو أنها لم تفكر به كثيرًا، متفكرة في ماضيهما، وباحثة عن بشائر لما لم تستطع تسميته.

لقد تعمد إهانتها الغريبُ الوقح في المتجر، الذي أدرك المشاكل التي يعانيها أعجف وسليط اللسان مثله، لكنه حثها على التيقظ بدلًا من ذلك.

أخذت تخطط وتحلم، وتتقدم بطلبات للعمل في ليغوس. لم تخبر بْلين في البداية، لأنها أرادت إنهاء زمالتها في برنستن، ثم لم تخبره بعد انتهائها، لأنها أرادت أن تمنح نفسها وقتًا للتأكد. لكنها عرفت بمرور الأسابيع أنها لن تتأكد أبدًا. لذا أخبرته أنها عائدة للديار، وأضافت: «أنا مضطرة لذلك»، مدركة أنه سيسمع في كلماتها صوت النهاية.

"لماذا؟" سأل بْلين بتلقائية وقد باغته تصريحها. كانا في غرفة معيشته في نيوهفن، يغمرهما الجاز الخفيف وضوء النهار. ونظرت إليه، إلى رجلها الحائر، وشعرت أن اليوم يتسم بطابع ملحمي حزين. لقد عاشا معًا لثلاث سنوات، ثلاث

سنوات بلا ثنيات، مثل شرشف مكويّ بأناقة، حتى نشب شجارهما الأول منذ بضعة أشهر، حين تجمدت عينا بْلين من اللوم ورفض الحديث معها. لكنهما تجاوزا هذا الشجار، بفضل باراك أوباما، وواصلا شغفهما المشترك مجددًا. في ليلة الانتخابات، قبل أن يقبلها بْلين ووجهه مخضلّ بالدموع، عانقها بقوة كأن انتصار أوباما انتصار شخصي لهما أيضًا. وها هي الآن تخبره أن الأمر انتهى، و"لماذا؟" سأل. درّس في صفوفه أفكارًا عن الفروق الدقيقة والالتباس وسألها رغم ذلك عن سبب واحد، عن العلة. ولكن لم يكن لديها كشف جَسور ولم تكن ثمة علة، بل الأمر ببساطة أن طبقة إثر طبقة من السأم قد احتلتها، وشكلت كتلة تسيّرها الآن. لم تخبره بهذا، لأنه قد يتألم لمعرفة أنها تشعر على هذا النحو منذ فترة، وأن علاقتها به كمن يكون مرتاحًا في بيت لكنه يجلس قرب النافذة دومًا وينظر نحو الخارج.

"خذي النبتة"، قال لها في آخر يوم رأته فيه، حين حزمت ثيابها التي أبقتها في شقته. لقد بدا مهزومًا، واقفًا في المطبخ متهدل الكتفين. لقد كانت نبتته المنزلية، أوراق خضراء واعدة تبرز من ثلاث سيقان من الخيزران، وحين أخذتها غمرتها وحدة ساحقة مفاجئة وظلت معها لأسابيع. لم تزل تشعر بها أحيانًا. كيف لك أن تفتقد شيئًا لم تعد ترغب فيه؟ كان بْلين بحاجة لما لم تكن قادرة على منحه، وهي بحاجة لما لم يستطع منحه، وقد أسفت لهذا، لخسارة ما هو ممكن الحدوث.

ها هي، في نهار مفعم بنُضرة الصيف، على وشك ضفر شعرها من أجل رحلة العودة للوطن. استقرت الحرارة الدبقة على بشرتها. وفي رصيف محطة ترنتن أشخاص يبلغ حجمهم ثلاثة أضعاف حجمها ونظرت بإعجاب إلى أحدهم: كانت امرأة ترتدي تنورة قصيرة جدًا. لم تكن ترى بأسًا في السيقان الرشيقة التي تظهرها التنانير القصيرة، لكن تصرّف المرأة البدينة ناجم عن قناعة تامة يتقاسمها المرء مع نفسه فقط، عن إحساس بالصواب عجز الآخرون عن رؤيته. كان قرارها بالعودة مماثلًا، وكلما شعرت أن الشكوك تحاصرها، تخيلت نفسها تقف وحيدة بشجاعة، بقدر بسالتها في قمع ارتيابها. كانت المرأة البدينة تساعد في تنسيق مجموعة مراهقين بدوا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من أعمارهم تجمعوا حولها، وعلى مقدمة قمصانهم الصفراء وظهورها إعلان لبرنامج صيفي، وهم يتحدثون ويضحكون. ذكّروا

إفيملو بابن عمتها دايك. كان أحد الأولاد، داكن البشرة وطويلًا، ذا قوام مفتول العضلات وطراوة جسد رياضي، يشبه دايك. لم يكن دايك ليرتدي تلك الأحذية التي تبدو مثل الصنادل القماشية. فقد وصفها بالأحذية الرديئة. إذ كان لديه زوج جديد؛ استخدمه أول مرة قبل بضعة أيام عندما أخبرها عن ذهابه للتسوق برفقة العمة أوجو. "أرادت أمي أن تشتري لي هذا الحذاء المجنون. بربك، يا ابنة الخال، تعرفين أنني لا أستطيع ارتداء حذاء رديء!".

انضمت إفيملو إلى طابور انتظار سيارات الأجرة خارج المحطة. وأملت ألا يكون سائقها نيجيريًا، لأنه ما إن يسمع لكنتها، حتى يصبح شديد اللهفة لإخبارها أنه يحمل درجة الماجستير، وأن سيارة الأجرة عمل ثانٍ، وأن ابنته على لائحة الشرف في روتجرز. أو أنه سيقود بصمت واجم، ويعطيها بقية المال متجاهلًا قولها «شكرًا»، متذكرًا الإذلال، لأن رفيقته النيجيرية، ولتكن فتاة صغيرة في هذه الحالة، ممرضة أو محاسبة أو حتى طبيبة تقلل من شأنه. يؤمن كل سائقي سيارات الأجرة النيجيريين في أمريكا أنهم ليسوا سائقي سيارات أجرة في الحقيقة. كانت التالية في الطابور، وسائق سيارتها أسود متوسط العمر. فتحت الباب وألقت نظرة على ظهر مقعد السائق، ميرفن سميث، ليس نيجيريًا، ولكن لا يمكنك أن تكون واثقا أبدًا، إذ يتخذ النيجيريون كل أنواع الأسماء هنا. حتى هي كانت شخصًا آخر يومًا.

"كيف حالك؟"، سأل الرجل.

وأمكنها القول إن لكنته كانت كاريبية.

"أنا بخير، شكرًا لك"، أعطته عنوان مارياما لضفر الشعر الإفريقي. كانت تلك المرة الأولى لها في هذا المركز - فقد أغلق مركزها المعتاد لأن مالكته عادت إلى ساحل العاج لتتزوج - لكنها واثقة أنه سيبدو مثل كل مراكز ضفر الشعر الإفريقي الأخرى التي عرفتها؛ الواقعة في ناحية المدينة التي تحوي كتابات على الجدران، مبانيَ رطبة، وليس فيها ناس بيض، وتُعرَض فيها لافتات مشعة تحمل أسماء مثل مركز عايشا وفاطمة لضفر الشعر الإفريقي، وفيها مشعاعات حارة للغاية في الشتاء، ومكيفات هوائية لا تبرّد في الصيف، كما أنها مكتظة بالنساء الفرانكفونيات ضافرات الشعر من غرب إفريقيا، وستكون إحداهن صاحبة المكان وأفضل من يتحدث الإنجليزية،

وترد على الهاتف وقد سمحت لها الأخريات بذلك. غالبًا، سيكون هناك طفل مربوط إلى ظهر إحداهن بقطعة من القماش. أو رضيع ينام على لحاف ممدود على أريكة بالية. وقد يمر بعض الأطفال الأكبر سنًا أحيانًا. وتكون المحادثات صاخبة وسريعة، بالفرنسية أو الولوفية أو الماننكية، وحين يتحدثن الإنجليزية مع الزبائن، تكون لغتهن مكسّرة وغريبة كأنهن لم يتمكنّ من اللغة نفسها قبل أن يشرعن بالحديث بالعامية المؤمركة، فتخرج الكلمات نصف مكتملة. قالت مرة ضافرة شعر غينية في فيلادلفيا: "فقال، يا إلهي، كنتَ غاضب»، لقد تطلب الأمر عدة إعادات لتفهم إفيملو أن المرأة كانت تقول: «قلت، يا إلهي، لقد كنت غاضبة».

كان ميرفن سميث متفائلًا وثرثارًا، ويتحدث، وهو يقود، عن مدى حرارة الجو وأن التقنين قادمٌ لا محالة.

"هذه هي الحرارة التي تقتل المسنين. إن لم يكن لديهم مكيفات هوائية، فعليهم التوجه إلى المجمعات التجارية، كما تعرفين. في المجمع التجاري يحصلون على تبريد مجاني. لكنهم ليس لديهم من يقلهم أحيانًا. على الناس الاعتناء بالمسنين"، قال، دون أن يؤثر صمت إفيملو في مزاجه المرح.

"ها قد وصلنا!" قال وهو يتوقف أمام مبنى قذر. كان المركز يقع في الوسط بين مطعم صيني يدعى هاي جوي ومحل خردوات يبيع بطاقات اليانصيب. كان المكان في الداخل بالغ الإهمال، فالطلاء متقشر وقد ألصق على الجدران ملصقات كبيرة لتسريحات شعر مضفور وملصقات أصغر تعلن عن استرجاع سريع للضرائب. وقفت ثلاث نساء، كلهن يرتدين قمصانًا قصيرة الأكمام وسراويل قصيرة تبلغ الركبة، يعملن على ضفر شعور زبونات جالسات. وعرَض التلفاز المركب على زاوية الجدار، بصوته المرتفع قليلًا، فيلمًا نيجيريًا؛ لرجل يضرب زوجته، والزوجة تنكمش خوفًا وتصرخ، وكانت جودة الصوت البائسة مزعجة.

"مرحبًا"، قالت إفيملو.

استدرن كلهن للنظر إليها، لكن واحدة فقط، التي لا بد أن تكون المدعوّة مارياما، قالت: «مرحبًا، أهلًا بك».

"أود ضفر شعري».

"ما نوع الضفائر التي ترغبين بها؟"

قالت إفيملو إنها تريد جدائل متوسطة التجعيد، وسألت كم تكلف.

"مئتان"، قالت مارياما.

"دفعت الشهر الماضي مئة وستين فقط». لقد ضفرت شعرها آخر مرة منذ ثلاثة أشهر.

لم تقل مارياما شيئًا لوهلة، وأعادت نظرها إلى الشعر الذي تضفره.

"مئة وستون إذًا؟"

هزت مارياما كتفيها وابتسمت: «حسن، لكن عليك العودة المرة القادمة. اجلسي. انتظري عايشا، سوف تنتهي سريعًا». أشارت مارياما إلى أصغر ضافرات الشعر، المصابة بمرض جلدي، وعلى ذراعيها وعنقها دوائرحلزونية من البقع لونها وردي وقشدي بدت معدية بشكل مقلق.

"مرحبًا عايشا"، قالت إفيملو.

نظرت عايشا إلى إفيملو، وهي تهز رأسها ببطء، ووجهها محايد، منيع خلف انعدام تعابيرها. كان فيها شيء غريب.

جلست إفيملو قرب الباب، وقد شُغّلت المروحة الموضوعة على الطاولة المكسورة إلى أقصاها، لكنها لم تجدِ نفعًا في الغرفة المكتومة. قرب المروحة أمشاط، وعلب من توصيلات الشعر، ومجلات سميكة بصفحات منفلتة، وأكداس من أقراص الفيديو الرقمية الملونة. وأُسندت مكنسة في إحدى الزوايا، قرب آلة الحلوى ومجفف الشعر الصدئ الذي لم يستخدم منذ مئة سنة. على شاشة التلفاز أب يضرب طفلين، بلكمات غبية أصابت الفراغ فوق رأسيهما.

"لا! أب سيّئ! رجل سيّئ!"، قالت ضافرة الشعر الأخرى، وهي تحدق بالتلفاز وتجفل.

"أنت من نيجيريا؟"، سألت مارياما.

"نعم"، قالت إفيملو، «من أين أنت؟»

"أنا وأختي حليما من مالي. عايشا من السنغال»، قالت مارياما.

لم ترفع عايشا نظرها، لكن حليما ابتسمت لإفيملو، ابتسامة - بفطنتها

الدافئة - رحبت برفيقة إفريقية، فلم تكن لتبتسم لأمريكية بالطريقة نفسها. كان حَوَل عينيها شديدًا، إذ كان البؤبؤان يتجهان إلى اتجاهين مختلفين، فشعرت إفيملو بالتشوش، دون أن تعرف أي عين من عيني حليما تنظر إليها.

هوّت إفيملو على نفسها بمجلة. «الجو حار جدًا»، قالت. على الأقل لن تقول لها هؤلاء النسوة: «أتشعرين بالحر؟ لكنك من إفريقيا!»

"موجة الحر هذه سيئة جدًا. آسفة لقد تعطل مكيف الهواء البارحة"، قالت مارياما.

عرفت إفيملو أن مكيف الهواء لم يتعطل البارحة، بل إنه معطل منذ وقت أطول، ربما كان معطلًا دائمًا؛ ومع ذلك هزت رأسها وقالت إنه ربما تعطل من فرط الاستعمال. رن الهاتف ورفعته مارياما وقالت بعد دقيقة: «تعالي الآن»، الكلمتان اللتان جعلتا إفيملو تتوقف عن حجز مواعيد في مراكز ضفر الشعر الإفريقي. تعالي الآن، هذا ما يقلنه دومًا، ثم تأتين لتجدي امرأتين تنتظران الحصول على ضفائر رفيعة، ومع ذلك تقول لك المالكة "انتظري، أختي قادمة للمساعدة". رن الهاتف ثانية وتحدثت مارياما بالفرنسية، وعلا صوتها، وتوقفت عن الضفر لتومئ بيدها وهي تصرخ في الهاتف. ثم بسطت استمارة ويسترن يونيون صفراء من جيبها وأخذت تقرأ الأرقام (بالفرنسية) «ثلاثة! خمسة! لا، لا، خمسة!»

قالت المرأة، التي تضفر شعرها بضفائر صغيرة مصفوفة [تظهر فروة الرأس] تبدو مؤلمة، بحدة «هيا! لن أمضي كامل النهار هنا!»

"آسفة، آسفة"، قالت مارياما. ومع ذلك أنهت تكرار أرقام إيصال الويسترن يونيون قبل أن تكمل الضفر، وقد وضعت الهاتف بين كتفها وأذنها.

فتحت إفيملو روايتها، رواية **قصب السكر** لجين تومر[2]، وقلّبت بضع صفحات. حاولت قراءتها منذ فترة، وظنت أنها ستحبها ما دامت لم تُعجب بْلين. وصفها بْلين بالعمل المتكلف، بنبرته الصبورة قليلًا التي يستخدمها حين يتحدثان عن الروايات، كأنه واثق أنها، بقليل من الوقت وقليل من الحكمة، ستتقبل أن

2) (1894-1967) شاعر وروائي إفريقي أمريكي، يربط عادة بحركة نهضة هارلم، رغم أنه رفض الحركة والحداثة بشدة.

الروايات التي أحبها هي الأعظم، الروايات التي كتبها شباب ورجال فتيون وتكتظ بالأشياء؛ في حشد فاتن ومدهش للفرق الموسيقية والموسيقى والكتب الهزلية والأيقونات، دون أن تتطرق للعواطف إلا قليلًا، وكل جملة مدركة بأناقة لأناقتها الخاصة. لقد قرأت عددًا منها، لأنه أوصى بها، لكنها مثل غزل البنات الذي يتبخر سريعًا من ذاكرتها اللسانية.

أغلقت الرواية، فالجو حار جدًا يمنعها عن التركيز. أكلت قليلًا من الشوكولاته الذائبة، وأرسلت رسالة نصية إلى دايك ليتصل بها حين ينتهي من تمرين كرة السلة، وهوّت نفسها. قرأت اللافتات على الجدار المقابل: لا نعدّل الضفائر بعد مرور أسبوع، لا نقبل الشيكات الشخصية، لا نرد المال - لكنها تحاشت بحذر النظر إلى زوايا الغرفة لأنها عرفت أن كتلًا من الصحف النتنة حشرت تحت الأنابيب السخام والأشياء المتعفنة منذ وقت طويل.

أخيرًا، انتهت عايشا من زبونتها وسألت إفيملو عن لون خصَل الشعر التي تريدها.

"لون أربعة".

"ليس لونًا جيدًا"، قالت عايشا بسرعة.

"هذا ما أستخدمه".

"إنه يبدو قذرًا. ألا تريدين رقم واحد؟"

"رقم واحد شديد السواد، ويبدو مزيفًا»، قالت إفيملو وهي تفتح وشاحها. «أستخدم رقم اثنين أحيانًا لكن رقم أربعة هو الأقرب للون شعري الطبيعي».

هزت عايشا كتفيها بحركة متعجرفة، كأنها لا تكترث إن كان لزبونتها ذوق سيئ. فتحت خزانة وأخرجت علبتين من وصلات الشعر، ودققت لتتأكد أن كليهما من اللون نفسه.

لمست شعر إفيملو، «لماذا لا تستخدمين كريم فرد الشعر؟»

"أحب شعري كما خلقه الرب".

"لكن كيف تمشطينه؟ يصعب تسريحه"، قالت عايشا.

جلبت إفيملو مشطها الخاص، وأخذت برفق تسرح شعرها الكثيف والسلس والملفلف، حتى أحاط رأسها مثل هالة. «لا يصعب تسريحه إن رطبتِه جيدًا»، قالت

مراوغة بنبرة الداعية المقنعة التي تستخدمها كلما حاولت إقناع امرأة سوداء أخرى بمزايا ترك شعورهن على طبيعتها. شخرت عايشا، من الواضح أنها لم تفهم لمَ يختار أحدهم أن يعاني أثناء تسريح شعر طبيعي، بدلًا من فرده ببساطة. قسمت شعر إفيملو وسحبت وصلة صغيرة من الكومة على الطاولة، وأخذت تجدلها برشاقة.

"إنها مشدودة جدًا»، قالت إفيملو، «لا تجعليها مشدودة". ولأن عايشا ظلت تجدل حتى النهاية، ظنت إفيملو أنها لم تفهم، لذا لمست إفيملو الضفيرة المزعجة، وقالت «مشدودة، مشدودة».

دفعت عايشا بيدها بعيدًا «لا، لا، دعيها، إنها جيدة».

"إنها مشدودة!"، قالت إفيملو، «أرخيها من فضلك».

راقبتهما مارياما التي استرسلت بالفرنسية، وأرخت عايشا الضفيرة.

"آسفة"، قالت مارياما، "لا تفهم جيدًا".

لكن إفيملو رأت، من وجه عايشا، أنها فهمت جيدًا. كانت عايشا ببساطة امرأة سوق حقيقية، محصنة ضد التفاصيل التجميلية لخدمة الزبائن الأمريكية. تخيلتها إفيملو تعمل في سوق في دكار، مثل ضافرات الشعر في ليغوس اللاتي قد يتمخطن ويمسحن أيديهن بأوشحة شعورهن، وينفضن رؤوس زبوناتهن بقسوة لتعديل وضعيتهن، متذمرات من كثافة شعورهن أو خشونتها أو قصرها، ويصرخن بالنسوة العابرات، وهن يتحدثن طوال الوقت بصوت عالٍ جدًا ويضفرن الشعر بإحكام شديد.

"هل تعرفينها؟"، سألت عايشا ناظرة إلى شاشة التلفاز.

"ماذا؟"

كررت عايشا كلامها، وأشارت إلى الممثلة على الشاشة.

"لا"، قالت إفيملو.

"لكنك نيجيرية".

"نعم، لكني لا أعرفها".

أومأت عايشا إلى كومة أقراص الفيديو الرقمية على الطاولة. "في الماضي كانت أفلام سحر الفودو كثيرة، وهي سيئة جدًا. الآن أفلام نيجيرية جيدة. بيوت كبيرة جميلة!»

فكرت إفيملو قليلًا بأفلام نوليوود، بتمثيلها المبالغ فيه وحبكاتها بعيدة الاحتمال، لكنها هزت رأسها موافقة، لأن سماع «نيجيريا" و»جيد" في الجملة نفسها مبهج، حتى وهو يصدر من هذه المرأة السنغالية الغريبة، واختارت أن ترى في هذا بشارة لعودتها إلى الديار.

فوجئ كل من أخبرته أنها عائدة إلى الوطن، متوقعًا تفسيرًا، وعلت خطوط الحيرة الجباهَ حين قالت إنها تفعل ذلك لأنها أرادته.

"تغلقين مدونتك وتبيعين شقتك لتعودي إلى ليغوس وتعملين لصالح مجلة لا تدفع جيدًا!»، قالت العمة أوجو وكررت كلامها، كأنما لتجعل إفيملو ترى خطورة حماقتها. وحدها صديقتها القديمة في ليغوس رانينودو جعلت من أمر عودتها أمرًا طبيعيًا، «تغص ليغوس الآن بالعائدين من أمريكا، لذا من الأفضل لك أن تعودي وتنضمي إليهم. ستريهم كل يوم يحملون قوارير المياه كأنهم سيموتون من الحرارة إن لم يشربوا الماء كل دقيقة»، قالت رانينودو. لقد ظلتا على تواصل، هي ورانينودو، على مرّ السنين. كانتا في البداية تكتبان رسائل غير منتظمة، ولكن بافتتاح مقاهي الإنترنت، وانتشار الهواتف الخلوية، وازدهار الفيسبوك، تواصلتا بشكل أكثر. كانت رانينودو هي من أخبرتها قبل سنوات أن أوبنز سيتزوج. «مؤخرًا، صار لديه مال وفير. هل رأيت ماذا ضيّعتِ؟!»، قالت رانينودو. وتظاهرت إفيملو بعدم الاكتراث لهذه الأنباء، فقد قطعت التواصل مع أوبنز في النهاية، إذ مر وقت طويل، وهي في بداية علاقتها مع بلين، تكيف نفسها بسعادة على الحياة المشتركة. ولكن بعد انفصالهما، فكرت بأوبنز باستمرار. أشعرها تصوره في حفل زفافه بشيء كالحزن، الحزن الخافت. لكنها قالت في نفسها إنها سعيدة من أجله، ولتثبت لنفسها أنها كذلك، قررت أن تكتب له. لم تكن واثقة إن لم يزل عنوانه القديم صالحًا، فأرسلت له بريدًا إلكترونيًا نصف واثقة أنه لن يرد، لكنه فعل. لم تكتب له مرة أخرى، لأنها أدركت عندها جذوتها الصغيرة التي لم تزل متقدة. كان من الأفضل ترك الأمور على حالها. في ديسمبر الماضي، أخبرتها رانينودو أنها صادفته في مجمع بالمز، مع طفلته (وما زالت إفيملو لا تستطيع تخيل هذا المجمع التجاري العصري الكبير الجديد في ليغوس، وكل ما خطر لها حين حاولت كان مجمع ميغا بلازا الصغير الذي تذكره)

قالت رانينودو إنه يبدو «نظيفًا جدًا، وابنته جميلة جدًا»، وشعرت إفيملو بغصة أمام التغييرات التي طرأت في حياته.

"السينما النيجيرية جيدة الآن»، قالت عايشا ثانية.

"نعم"، قالت إفيملو بحماس. هذا ما أصبحته، أصبحت باحثة عن الإشارات. كانت السينما النيجيرية جيدة، وستكون عودتها إلى الديار جيدة إذًا.

"أنت من يوروبا في نيجيريا"، قالت عايشا.

"لا، أنا إيبو».

"أنت إيبو؟»، ظهرت ابتسامة للمرة الأولى على وجه عايشا، ابتسامة أظهرت من أسنانها الصغيرة بقدر ما أظهرت من لثتها الداكنة. "ظننت أنك يوروبا لأنك داكنة والإيبو فاتحون. لدي رجلان من الإيبو. جيدان جدًا. يعتني رجال الإيبو بالنساء جيدًا حقًا».

همست عايشا تقريبًا، وفي نبرتها تلميح جنسي، وقد تحولت اللطخ على ذراعيها وعنقها في المرآة إلى دمامل مروّعة. تخيلت إفيملو بعضها ينفجر وينز وبعضها الآخر يتقشر، فأشاحت نظرها.

"يعتني رجال الإيبو بالنساء جيدًا»، كررت عايشا، «أريد أتزوج. إنهما يحباني لكنهما يقولان إن العائلة تريد امرأة من الإيبو، لأن الإيبو يتزوج من الإيبو دائمًا».

كتمت إفيملو رغبتها في الضحك، «أتريدين الزواج بالاثنين؟»

"لا"، أطلقت عايشا إيماءة برِمة، "أريد أتزوج واحدًا، ولكن هل هذا صحيح؟ الإيبو يتزوج الإيبو دائمًا؟»

"يتزوج الإيبو بالأشخاص من كل الأعراق. زوج ابنة عمي يوروبا، وزوجة عمي من اسكتلندا".

أوقفت عايشا تجديلها، مراقبة إفيملو في المرآة، وكأنها تقرر إن كانت ستصدقها.

"تقول أختي إن ذلك صحيح، الإيبو يتزوج من إيبو دائمًا»، قالت.

"كيف لأختك أن تعرف؟"

"إنها تعرف الكثير من الأشخاص الإيبو في إفريقيا. إنها تبيع الثياب».

"أين هي؟"

"في إفريقيا».

"أين؟ في السنغال؟"

"بنين".

"لماذا تقولين إفريقيا بدلًا من البلد الذي تعنينه؟»، سألت إفيملو.

غمغمت عايشا «أنت لا تعرفين أمريكا. تقولين السنغال ويقول الأمريكيون أين تقع هذه؟ صديقتي من بوركينا فاسو ويسألونها، بلادك في أمريكا اللاتينية؟»، استأنفت عايشا التجديل، وقد علت وجهها ابتسامة مراوغة، ثم سألت «منذ متى وأنت في أمريكا؟»، وكأنها خطر لها أن إفيملو لم تفهم كيف تجري الأمور هنا، «منذ متى وأنت في أمريكا؟»

أدركت إفيملو عندها أن عايشا لم تعجبها مطلقًا. لقد أرادت أن تبتر المحادثة، بحيث تكتفيان بقول ما تحتاجانه أثناء الساعات الست التي سيستغرقها تضفير شعرها، ولذا تظاهرت بعدم السماع وأخرجت هاتفها بدلًا من ذلك. لم يرد دايك على رسالتها بعد. كان يرد دومًا في غضون دقائق، أو لعله ما زال في تمرين كرة السلة أو مع أصدقائه، يشاهدون مقطع فيديو سخيفًا على اليوتيوب. اتصلت به وتركت رسالة طويلة، رافعة صوتها مسترسلة في الحديث عن تمرينه وإن كان الجو حارًا في ماساشوستس، وهل ما زال سيصطحب بيج إلى السينما اليوم. ثم كتبت رسالة إلكترونية إلى أوبنز، وقد شعرت بالاندفاع، وأرسلتها دون أن تتيح لنفسها إعادة قراءتها. كتبت أنها عائدة إلى نيجيريا وأنها تشعر فجأة للمرة الأولى أن الأمر حقيقي، رغم أن وظيفة تنتظرها، ورغم أنها شحنت سيارتها على سفينة متجهة إلى ليغوس. لقد قررت مؤخرًا العودة إلى نيجيريا.

لم تقنط عايشا، إذ حالما رفعت إفيملو نظرها عن هاتفها حتى سألت عايشا ثانية «منذ متى وأنت في أمريكا؟»

تمهلت إفيملو في إعادة هاتفها إلى حقيبتها. قبل سنوات، سئلت سؤالًا مماثلًا في حفل زفاف إحدى صديقات العمة أوجو، وقالت منذ سنتين، وهو ما كان حقيقيًا، لكن الاستهزاء على وجه النيجيرية علمها أنها لتكسب جائزة أن تؤخذ على محمل الجد بين النيجيريين في أمريكا، كانت بحاجة لمزيد من السنوات. وأخذت تقول ست

سنوات بينما كانت السنوات ثلاثًا ونصف، ثماني سنوات، حين كانت خمسًا. الآن صارت السنوات ثلاث عشرة، وبدا أنه لاحاجة بها للكذب لكنها كذبت على أية حال.

"خمس عشرة سنة"، قالت.

"خمس عشرة؟ هذا وقت طويل"، انساب احترام جديد من عيني عايشا.

"تعيشين هنا في ترنتن؟"

"أعيش في برنستن".

"برنستن؟"، سألت عايشا، "أنت طالبة؟"

"لقد أنهيت زمالتي منذ وقت قليل"، قالت مدركة أن عايشا لن تفهم ما هي الزمالة، وفي اللحظة النادرة التي بدت فيها عايشا مذعورة، شعرت إفيملو بسعادة شريرة. نعم، برنستن. نعم، المكان الذي يمكن لعايشا أن تتخيله فقط، المكان الذي لا يمكن أن ترى فيه لافتات تقول استرجاع سريع للضرائب؛ الناس في برنستن ليسوا بحاجة إلى استرجاع سريع للضرائب.

"لكني عائدة إلى نيجيريا»، أضافت إفيملو، وهي تشعر بالندم فجأة، «سأذهب الأسبوع المقبل».

"لتري العائلة".

"لا. أنا عائدة. لأعيش في نيجيريا".

"لماذا؟"

"ماذا تعنين بقولك لماذا؟ ولمَ لا؟"

"من الأفضل أن ترسلي المال، إلا إن كان والدك رجلًا كبيرًا؟ هل لديك ارتباطات؟"

"عثرت على عمل هناك"، قالت.

"تظلين في أمريكا لخمس عشرة سنة وتعودين من أجل العمل فقط؟»، ابتسمت عايشا بتكلف، «هل يمكنك البقاء هناك؟»

ذكّرتها عايشا بما قالته العمة أوجو، حين تقبلت أخيرًا جدية إفيملو في أمر العودة -هل ستسطيعين التأقلم؟ - والتلميح بأن أمريكا قد غيرتها قطعيًا، ونبتت لها أشواك على جلدها. تبين أن والديها أيضًا يظنان أنها لن تستطيع «التأقلم"مع

نيجيريا. «على الأقل أنت الآن مواطنة أمريكية لذا يمكنك العودة دومًا إلى أمريكا"، قال لها أبوها. سأل كلاهما إن كان بْلين آتيًا معها، وكان سؤالهما مثقلًا بالأمل. سرت لكثرة سؤالهما عن بْلين الآن، وقد استغرق منهما الأمر فترة ليتقبلا فكرة عشيقها الأمريكي الأسود، وتخيلتهما يعدان خططًا لحفل زفافها، فتفكر أمها بمتعهدي الطعام والألوان، ويفكر أبوها بصديق مميز يمكنه أن يكون الراعي. قالت لأبيها، وهي كارهة أن تحبط أملهما، لأن الأمر استغرق منها وقتًا قصيرًا لتبقيهما آملين، وبالتالي تبقيهما سعيدين، «قررنا أن أعود أولًا ثم سيأتي بْلين بعد بضعة أسابيع».

"رائع"، قال أبوها، ولم تقل شيئًا فمن الجيد أن تظل الأمور رائعة ببساطة.

شدت عايشا شعرها بشيء من القسوة، «خمس عشرة سنة في أمريكا وقت طويل»، قالت عايشا، كأنها تتأمل في هذا. «هل لديك حبيب؟ هل تزوجت؟»

"كما أنني عائدة إلى نيجيريا لرؤية رجلي»، قالت إفيملو مفاجئة نفسها. رجلي. كم يسهل الكذب واختلاق نسخ متخيلة من حيواتنا مع الغرباء.

"أوه! حسنٌ!»، قالت عايشا بحماس، فقد منحتها إفيملو أخيرًا سببًا مقنعًا للرغبة بالعودة للديار. «هل ستتزوجين؟»

"ربما، سنرى".

"أوه!»، توقفت عايشا عن التجديل وحدقت بها في المرآة بنظرة جامدة، وخشيت إفيملو أن لهذه المرأة قوى فراسة (عرافة) وأن بوسعها معرفة أنها تكذب.

"أريد منك أن تري رجليّ. سأتصل بهما. يأتيان وترينهما. سأتصل أولًا بتشيجيوك. يعمل سائقًا لسيارة أجرة. ثم إمكا، يعمل رجل أمن. وترينهما».

"ليس عليك دعوتهما لمجرد رؤيتي".

"لا، سأدعوهما. تخبرينهما أن الإيبو يتزوج بغير الإيبو. سيصغيان إليك».

"لا، حقًا، لا يمكنني فعل ذلك".

ظلت عايشا تتحدث وكأنها لم تسمع «تخبرينهما. سيصغيان إليك لأنك أختهما من الإيبو. أي واحد منهما يصلح. أريد أتزوج».

نظرت إفيملو إلى عايشا، المرأة السنغالية الصغيرة ذات الوجه العادي ببشرتها المبقعة لديها حبيبان من الإيبو، غير ممكن كما يبدو، وتلح على إفيملو للقائهما

ودفعهما للزواج بها. سيكون موضوعًا جيدًا لمنشور في المدونة: **حالة مميزة لسوداء ليست أمريكية، أو كيف تجعلك ضغوط حياة الهجرة تتصرف بجنون.**

الفصل الثاني

حين رأى أوبِنز رسالتها الإلكترونية أول مرة، كان يجلس في مؤخرة سيارته من طراز رنج روفر في شوارع ليغوس المزدحمة وسترته ملقاة على المقعد الأمامي، وقد التصق طفل متسول شعره بلون الصدأ خارج نافذته، وضغط بائع جوال قرصًا مضغوطًا ملونًا على النافذة الأخرى، والمذياع مشغل بصوت منخفض على أخبار البدجينية الإنجليزية على إذاعة وازوبيا إف إم، في الجو قتامة رمادية للمطر الوشيك. حدق بجهاز البلاك بيري وقد تصلب جسده فجأة. في بادئ الأمر مرّ على الرسالة سريعًا على نحو آلي، متمنيًا لو كانت أطول. **كيف حالك[3] يا سيلنغ؟ آمل أن كل شيء على ما يرام على صعيد العائلة والعمل. قالت رانينودو إنها صادفتك منذ بعض الوقت، وإن لديك طفلة الآن! تهانينا أيها الأب الفخور. قررت مؤخرًا العودة إلى نيجيريا وسأكون في ليغوس في غضون أسبوع. أود أن نبقى على اتصال. اعتن بنفسك. إفيملو.**

قرأها ثانية ببطء، وشعر بالحاجة لتمسيد شيء ما، مثل بنطاله أو رأسه الحليق الأصلع. لقد دعته بما كانت تدعوه عندما كانا حبيبَين، «سيلنغ"، في آخر رسالة إلكترونية منها أرسلتها قبل أن يتزوّج. ثمّ دعته باسمه «أوبِنز" واعتذرت عن

3) بلغة الإيبو.

صمتها لسنوات وتمنت له السعادة بجمل مبتهجة، وذكرت رجلًا أمريكيًا أسود تعيش معه. كانت رسالة لبقة كرهها، كرهها بشدة حتى إنه بحث في غوغل عن الأمريكي الأسود -ولمَ أعطته اسم الرجل كاملًا إن لم ترده أن يبحث عنه في غوغل؟- كان محاضرًا في جامعة ييل، ووجد أن عيشها مع رجل ينعت أصدقاءه في مدونته ب «القطط" لأمر مزعج. غير أن صورة الأمريكي الأسود، المثقف الناضج بالمعلومات الجذاب في بنطاله الجينز المهترئ والنظارات ذات الإطار الأسود، هي ما أغاظ أوبِنز، وجعله يرسل لها ردًا باردًا. فكتب: **شكرًا لأمنياتك الطيبة، لم أكن يومًا أكثر سعادة في حياتي.** وأمل أن تردّ بشيء ساخر- فلم يكن ذلك من طبعها، أن تكون جافة حتى في رسالتها الأولى تلك- لكنها لم تكتب قط، وحين كتب لها ثانية، بعد قضائه شهر العسل في المغرب ليخبرها أنه يود البقاء على تواصل معها، ويود التحدث إليها أحيانًا، لم ترد.

أخذت السيارات تتحرك، وهطل المطر خفيفًا، وقد جرى الطفل المتسول، ونظرة عينه الشبيهة بعين الظبي أكثر مبالغة وعواطفه مهتاجة، رافعًا يده إلى فمه مرة تلو الأخرى والأنامل مضمومة معًا. فتح أوبِنز النافذة وأعطاه ورقة نقدية من فئة مئة نايرا. وراقب سائقه، غابرييل، ذلك من المرآة العاكسة بامتعاض متجهم.

"باركك الرب يا سيدي!"، قال الطفل المتسول.

"لا تعطِ المال لهؤلاء المتسولين يا سيدي"، قال غابرييل، «كلهم أثرياء. إنهم يعملون في التسول لجمع ثروة كبيرة. سمعت عن واحد منهم بنى عمارة من ست شقق في إكيجا!».

"إذًا لمَ تعمل سائقًا بدل التسول يا غابرييل؟»، سأل أوبِنز وضحك بشيء من الحماسة. أراد أن يخبر غابرييل أن حبيبته من أيام الجامعة قد أرسلت له رسالة إلكترونية لتوها، إنها حبيبته من الجامعة والمدرسة الثانوية في الحقيقة. في المرة الأولى التي سمحت له بخلع حمالة صدرها، استلقت على ظهرها متأوهة بنعومة، وأصابعها تتحسّس رأسه. ثم قالت تاليًا: «عيناي مفتوحتان لكني لم أرَ السقف. لم يحدث هذا من قبل». زعمت الفتيات الأخريات أنهن لا يسمحن لفتى بلمسهن، لكنها لم تفعل، لم تفعل قط. بل كانت تتحلى بالصدق الشديد. أخذت تسمي ما فعلاه

معًا بالسقف، تشابكهما الدافئ على فراشه حين كانت أمه خارجًا، مرتديين الثياب الداخلية فحسب، ويتلامسان ويتبادلان القبل والمص، وأردافهما تتحرك معًا. أتوق للسقف، كتبت له مرة على ظهر دفتر الجغرافيا، ولم يستطع بعد ذلك النظر إلى هذا الدفتر دون الإحساس بقشعريرة غامرة وإحساس بإثارة خفية. في الجامعة، حين كفا عن التظاهر، صارت تدعوه سيلنغ[4]، بطريقة لعوب مُغوية. ولكنها تدعوه أوبنز حين يتشاجران ، ولم تسمّه أبدًا «ذا زِد" كما يناديه أصدقاؤه. «لماذا تسمينه سيلنغ على أية حال؟" سألها صديقه أكووديبا مرة في واحدة من تلك الأيام الباعثة على الكسل بعد امتحانات الفصل الأول، وقد انضمت إلى مجموعة من أصدقائه يجلسون حول طاولة بلاستيكية قذرة في حانة للجعة خارج الحرم الجامعي. وشربت من زجاجة مالتينا وازدردتها ونظرت إلى أوبنز وقالت: «لأنه طويل للغاية ويصل رأسه السقف، ألا ترى؟». كان بطؤها المتعمد والابتسامة الصغيرة التي ارتسمت على شفتيها قد أظهرا أنها تريدهم أن يعرفوا أن هذا لم يكن سبب دعوتها له سيلنغ، فهو لم يكن طويلًا. ركلته من تحت الطاولة وركلها بالمقابل، ناظرًا إلى أصدقائه الضاحكين، فهم جميعًا يخشونها قليلًا ويحبونها قليلًا. هل رأت السقف حين لمسها الأمريكي الأسود؟ هل استخدمت اسم «سيلنغ" مع الرجال الآخرين؟ أثار حنقه تصور أنها ربما فعلت. رن هاتفه، وظن للحظة مشوشة أنها إفيملو تتصل من أمريكا.

"أين أنت يا عزيزي؟"، كانت زوجته كوسي تبدأ اتصالاتها دومًا بقولها: أين أنت. لم يسألها أبدًا عن مكانها عندما يتصل بها، لكنها تخبره على أية حال: سأدخل مركز التجميل، أنا على الجسر الثالث للبر الرئيس. بدا الأمر وكأنها بحاجة إلى تأكيد تجسّدهما المادي حين لا يكونان معًا. كان لها صوت بناتي عالٍ. من المفترض بهما أن يصلا إلى منزل الزعيم لحضور الحفلة الساعة السابعة والنصف مساءً، والساعة السادسة الآن.

أخبرها أنه عالق في الزّحام، «لكن السيارات تتحرك وقد انعطفنا لتونا نحو أوزمبا مُبادوي، أنا قادم».

---

4) Ceiling بالإنجليزية تعني السقف، إشارة إلى ممارستهما الحب وقولها إنها لم تر السقف.

تحركت السيارات بسرعة في شارع ليكي السريع تحت المطر الخفيف، وسرعان ما أخذ غابرييل يُطلق بوق السيارة أمام البوابات السوداء العالية لمنزله. وثب محمد، البواب النحيل في قفطانه البيج أمام البوابة ورفع يده محييًا. نظر أوبِنز إلى المنزل ذي الأعمدة البنية الفاتحة. وفي الداخل أثاثه المستورد من إيطاليا، وزوجته وطفلته ذات العامين بوتشي، والمربية كريستيانا، وأخت زوجته تشيوما، التي تقضي إجازة اضطرارية لأن أساتذة الجامعة أضربوا ثانية، والخادمة الجديدة ماري التي استُقدمت من جمهورية بنين، بعد أن رأت زوجته أن الخادمات النيجيريات لسن مناسبات. كانت الغرف كلها باردة، وفتحات التكييف تتمايل بهدوء، وتفوح من المطبخ روائح الكاري والزعتر، والتلفاز على قناة سي إن إن في الطابق السفلي، أما تلفاز الطابق العلوي فعلى قناة كارتون نت وورك، وقد تخلل ذلك كله جو رائق من رغد العيش. كانت مشيته متصلبة ويصعب عليه رفع ساقيه. أخذ يشعر الأشهر الماضية بالزهو بكل ما جناه؛ من الأسرة والمنازل إلى السيارات والحسابات المصرفية، وقد يغلبه - بين حين وآخر- دافع إلى ثقب كل شيء بدبوس؛ أن ينفّس كل شيء، ليغدو حُرًّا. لم يعد واثقًا، ولم يكن في الحقيقة واثقًا أبدًا، إن أحب حياته لأنه يحبها، أو إن أحبها لأنه يُفترض به ذلك.

"عزيزي"، قالت كوسي وهي تفتح الباب قبل أن يصله. كانت مستعدة تمامًا، وبشرتها تلمع. وخطر له، كما يحدث دومًا، كم كانت امرأة جميلة، لها عينان لوزيتا الشكل وتقاطيع مذهلة في تناسقها. كان ثوبها الحريري المجعد محزم بإحكام عند الخصر، فجعل قوامها يبدو شبيهًا بالساعة الرملية. عانقها حذرًا، متفاديًا شفتيها المطليتين باللون الوردي والمحددتين بدرجة أغمق.

"ضوء النهار مساء! جميلتي الغالية[5]".

ضحكت، بالطريقة ذاتها التي تضحك بها بفرح واضح متقبّل لمظهرها حين يسألها الناس: هل أمك بيضاء؟ هل أنت مختلطة الأعراق؟ لأنها فاتحة البشرة للغاية، والسرور الذي تبديه حين يظنون خطأ أنها مختلطة الأعراق يحبطه جدًا.

---

5) تستخدم الكاتبة هنا عبارة "Asa ugo"وهي تعني حرفيًا نسرتي الغالية، باعتبار أن النسر طائر غالٍ لندرته وجماله، ويعتبر ريشه الأبيض رمزًا للجمال. (قاموس الإيبو، كاي وليامسن، الطبعة الثانية 1972)

"بابا بابا!"، قالت بوتشي وهي تجري نحوه بهيئة الأطفال المختلة التوازن قليلًا. كانت منتعشة بعد حمامها المسائي وقد ارتدت منامتها المزهرة، وفاحت منها رائحة كريم الأطفال العذبة. «بوتشي- بوتش، فتاة أبيها!"، أرجحها وقبلها ومرغ أنفه في عنقها لأن ذلك يضحكها دومًا، وتظاهر برميها على الأرض.

"هل ستستحم، أم ستكتفي بتغيير ثيابك؟"، سألت كوسي، وهي تتبعه إلى الطابق العلوي حيث وضعت قفطانًا أزرق على فراشه. كان يفضل ارتداء ثوب أو قفطانٍ أبسط، بدلًا من هذا ذي التطريز المفرط، الذي اشترته كوسي مقابل مبلغ باهظ من أحد مصممي الثياب الطموحين الجدد في ذا آيلاند. لكنه سيرتديه لإسعادها.

"سأغير ثيابي فحسب"، قال.

"كيف كان العمل؟"، سألت بالطريقة المبتهجة المبهمة التي تسأل بها دومًا. أخبرها أنه يفكر بالمجمع السكني الجديد الذي أنهاه في بارك فيو، ويأمل أن تستأجره شركة شِل، لأن شركات النفط أفضل المستأجرين دومًا، فلا تشتكي من ارتفاع الأسعار الكبير، وتدفع بالدولار الأمريكي بحيث لا يضطر أحد إلى التعامل بالنايرا المتذبذبة.

"لا تقلق»، قالت وهي تلمس كتفه، «سيُحضر الرّبّ شِل، ستكون على ما يرام يا عزيزي».

كانت الشقق قد أُجرت مسبقًا لشركة نفط، لكنه يخبرها أحيانًا أكاذيب لا معنى لها، مثل هذه، لأن جزءًا منه يأمل في أن تطرح عليه أسئلة أو تتحداه، رغم يقينه أنها لن تفعل، فكل ما أرادته هو التأكد من أن تظل ظروف حياتهما مستقرة، وتترك له فعل ذلك تمامًا.

سيشعر بالسأم في حفلة الزعيم كالعادة، لكنه ذهب لأنه يذهب إلى كل حفلات الزعيم، وفي كل مرة يوقف سيارته أمام منزل الزعيم الكبير، يتذكر المرة الأولى التي جاء فيها هنا مع ابنة خاله نِيوما. لقد عاد حديثًا من إنجلترا، وقضى في ليغوس أسبوعًا واحدًا فقط، لكن نِيوما تذمرت من اكتفائه بالاستلقاء في شقتها والقراءة والتنظيف.

"يا إلهي! ما الأمر؟ هل أنت أول امرئ يواجه هذه المشاكل؟ عليك بالنهوض والاحتيال، الكل يحتال، وليغوس قائمة على الاحتيال»، قالت نِيوما. كانت لها

يدان ماهرتان متينتان والكثير من الاستثمارات، فقد سافرت إلى دبي لشراء الذهب، وإلى الصين لشراء ثياب نسائية، وصارت مؤخرًا موزعة لشركة دجاج مثلج. «كنت سأدعوك لمساعدتي في عملي، لكن لا، أنت رخو جدًا وتتحدث الإنجليزية كثيرًا، أحتاج شخصًا ذا بأس".

لم يزل أوبنز مضطربًا مما حدث له في إنجلترا، وما زال منعزلًا تحت طبقات من الشفقة على الذات، وضايقه سماعه سؤال نِيوما المعنِّف "هل أنت أول امرئ يواجه هذه المشكلة؟». لم يكن لديها فكرة، هذه القريبة التي نشأت في قرية، وتنظر إلى العالم بعينين متقدتين وقاسيتين. لكنه أدرك تدريجيًا أنها محقة؛ فلم يكن الأول ولن يكون الأخير. بدأ يقدم على الوظائف المذكورة في الصحف، ولكن لم يتصل به أحد من أجل المقابلة، وأخذ أصدقاؤه من أيام الدراسة، الذين يعملون الآن في شركات ومصارف ويحملون هواتف نقالة، يتحاشونه، خشية أن يضع في أيديهم نسخة أخرى من سيرته الذاتية.

قالت نِيوما ذات يوم: «أعرف رجلًا غنيًا للغاية. إنه الزعيم. كان الرجل يغرقني بالمال، لكني رفضت. إنه يعاني مشكلة خطيرة مع النساء، كما أنه قد يُعدي أي أحد بالأيدز. لكنك تعرف هؤلاء الرجال، لا ينسون المرأة التي تصدهم. لذا يتصل بي بين الفينة والأخرى وأذهب لتحيته. لقد ساعدني برأس المال لبدء تجارتي بعد أن سرق أولاد الشيطان أولئك نقودي العام الماضي. وما زال يظن أنني قد أوافق على طلبه يومًا. يا سلام! من أين خطر له ذلك؟ سآخذك إليه. إن الرجل سخي إن كان في مزاج طيب. وهو يعرف الجميع في هذه البلاد، وربما يعطينا توصيته لمدير إدارة في مكان ما».

أدخلهما خادم، جلس الزعيم على كرسي مذهب بدا مثل عرش، يرشف الكونياك محاطًا بالضيوف، فوثب ناهضًا. كان رجلًا صغير البنية وقحًا ومندفعًا. «نِيوما! هل هذه أنت؟ تذكرتني اليوم إذًا!»، قال. عانق نِيوما، وتراجع للخلف ناظرًا بوقاحة إلى ردفيها المحددين بالتنورة الضيقة، وجديلتها الطويلة المتدلية على كتفيها. «تريدين أن تتسببي لي بنوبة قلبية، ها؟»

"كيف أتسبب لك بنوبة قلبية؟ ماذا أفعل دونك؟»، قالت نِيوما بشكل لعوب.

"تعرفين ما تفعلين"، قال الزعيم وضحك ضيوفه، وهم ثلاثة رجال فطنين ضاحكين.

"أيها الزعيم، هذا ابن عمتي أوبِنز، أمه تكون شقيقة أبي، الأستاذة»، قالت نِيوما، «هي التي دفعت رسوم دراستي من البداية حتى النهاية. لولاها ما عرفت أين سأصبح اليوم».

"رائع، رائع"، قال الزعيم ناظرًا إلى أوبِنز كأنه مسؤول بطريقة ما عن هذا الكرم.

"مساء الخير يا سيدي"، قال أوبِنز. فاجأه أن الزعيم غندور قليلًا، بهيئته المتبرجة النيقة؛ فالأظافر مدرّمة ولامعة، وقد ارتدى خُفّين من القطيفة السوداء، وتدلى صليب كبير من الماس حول عنقه، لقد توقع رجلًا أضخم وأخشن مظهرًا.

"اجلسا. ماذا أقدم لكما؟»

لا يتحدث الرجال المهمون والنساء المهمات إلى الناس، كما عرف أوبِنز لاحقًا، لكنهم بالأحرى يتحدثون أمام الناس، وفي تلك الليلة تحدث الزعيم وتحدث واعظًا في السياسة، بينما هتف ضيوفه، «تمامًا! إنك محق أيّها الزّعيم! شكرًا لك!" كانوا يرتدون ثياب أهل ليغوس صغار السن والثروة - أحذية جلدية وسراويل جينز وقمصانًا ضيقة مفتوحة عند العنق، كلها تحمل شعارات مصممين معروفين- لكن في أسلوبهم تعطش جارف لرجال يعانون عوزًا.

بعد أن غادر ضيوفه، استدار الزعيم نحو نِيوما. «هل تعرفين تلك الأغنية: لا أحد يعرف ما يجلبه الغد؟»[6]، ثم بدأ يغني الأغنية بمتعة طفولية. **لا أحد يعرف ما يجلبه الغد! ال غد! لا أحد يعلم ما يجلبه الغد!** وصب جرعة سخية من الكونياك في كأسه. «هذا هو المبدأ الوحيد الذي تقوم عليه هذه البلاد، المبدأ الرئيس، لا أحد يعرف ما يأتي به الغد. هل تذكرين أولئك المصرفيين الكبار أثناء حكم أباتشا[7]؟ ظنوا أنهم تملكوا هذه البلاد، وما عرفوه تاليًا أنهم كانوا في السجن. انظري إلى

6) أغنية للمغنية الفرنسية النيجيرية آشا (ولدت عام 1982).

7) سَني أباتشا (1943-1998) قائد عسكري نيجيري، حكم البلاد بعد انقلاب عسكري واستمر حكمه من عام 1993 إلى عام 1998.

الفقير الذي لم يستطع دفع إيجاره قبلًا، ثم أعطاه بابانغيدا[8] بئر نفط، وها هو يملك طائرة خاصة!». تحدث الزعيم بنبرة منتصرة، وقد قيلت ملاحظاته البسيطة كأنها اكتشافات عظيمة، نِيوما تصغي وتبتسم وتوافق. كانت حيويتها مبالغًا فيها، كأن الابتسامة الأكبر والضحكة الأسرع، وكل منهما تلمّع الكبرياء أكثر من الأخرى، ستضمن مساعدة الزعيم لهما. كان أوبِنز مستمتعًا بمدى وضوح الأمر، ومدى صراحتها في توددها. لكن الزعيم أهداهما صندوقًا من النبيذ الأحمر، وقال لأوبِنز على نحو غامض: "تعال لرؤيتي الأسبوع المقبل".

زار أوبِنز الزعيم الأسبوع التالي ثم الذي يليه؛ وأخبرته نِيوما أن يظل يتردد عليه إلى أن يفعل الزعيم شيئًا من أجله. كان خادم الزعيم يقدم دومًا حساء الفلفل الطازج، وقطع السمك الشهية في مرقة تجعل أنف أوبِنز يسيل دومًا، وتصفي ذهنه وتفتح المستقبل وتملؤه بالأمل. هكذا يجلس راضيًا، مصغيًا للزعيم وضيوفه. فقد سحروه؛ بذلك الجبن الخفي لشبه الغني في حضرة الغني، والغني في حضرة الغني جدًا؛ وعنى امتلاك المال، فيما يبدو، أن يستنزفك المال. شعر أوبِنز بالنفور والاشتهاء؛ وأشفق عليهم، لكنه تخيل أيضًا أن يكون مثلهم. شرب الزعيم يومًا الكونياك أكثر من المعتاد، وتحدث عشوائيًا عن الأشخاص الذين يطعنون المرء في ظهره والصبيان الصغار الذين تنمو لهم أذناب والحمقى الجاحدين الذين يظنون فجأة أنهم أذكياء. لم يكن أوبِنز واثقا مما حدث، لكن أحدهم ضايق الزعيم، وسنحت فرصة، وحالما صارا وحيدين قال: «أيها الزعيم، أخبرني به من فضلك إن كان بوسعي المساعدة، ويمكنك الاعتماد علي». لقد فوجئ هو نفسه بكلماته، إذ خرج عن طوره، وقد انتشى من حساء الفلفل. وكان هذا معنى أن يحتال، فقد كان في ليغوس وعليه أن يحتال.

نظر إليه الزعيم نظرة طويلة متبصرة، "نحتاج إلى مزيد من الأشخاص مثلك في هذه البلاد. أشخاص من أسر صالحة، بنشأة منزلية صالحة، أنت رجل نبيل، أرى ذلك في عينيك. وأمك أستاذة جامعية، ذلك ليس سهلًا».

ابتسم أوبِنز نصف ابتسامة، ليبدو متواضعًا في مواجهة هذا الثناء الغريب.

---

8) إبراهيم بابانغيدا: (1941) قائد عسكري نيجيري سابق، حكم البلاد إبان الفترة الواقعة بين عامي 1985 و1993، بانقلاب عسكري أيضًا.

"أنت جائع ومخلص، هذا نادر جدًا في هذه البلاد. أليس هذا صحيحًا؟"، سأل الزعيم.

"نعم"، قال أوبنز وكأنه ليس واثقًا إن وافقه على اتسامه بهذه الصفة، أو على ندرة هذه الصفة. لكن ذلك ليس مهمًا، لأن الزعيم بدا واثقًا.

"الجميع جائعون في هذه البلاد، حتى الأغنياء منهم جائعون، لكن لا أحد صادق».

هز أوبِنز رأسه موافقًا، ونظر إليه الزعيم نظرة طويلة أخرى قبل أن يستدير عائدًا إلى الكونياك بصمت. في زيارته التالية، عاد الزعيم إلى طبيعته المهذارة المعتادة.

قال: "كنت صديقًا لبابانغيدا. وصديقًا لأباتشا. والآن وقد رحل الجيش، فإن أوباسانجو[9] هو صديقي، هل تعرف لمَ؟ هل ذلك لأنني غبي؟»

"بالطبع لا أيها الزعيم"، قال أوبِنز.

"يقولون إن مؤسسة دعم الزراعة الوطنية مفلسة وأنهم سيخصخصونها، هل تعرف هذا؟ لا. وكيف عرفت هذا؟ لأن لدي أصدقاء. في الوقت الذي ستعرف فيه ذلك أكون قد تسلمت منصبًا واستفدت من موازنة سعر الصرف، هذه هي سوقنا الحرة!»، ضحك الزعيم، «تأسست المؤسسة في الستينيات ولها أملاك في كل مكان. المنازل متعفنة تمامًا والأَرَضة تأكل السطوح. لكنهم يبيعونها، وسأشتري سبعة عقارات مقابل خمسة ملايين لكل منها. هل تعرف كم قُيمت في السجلات؟ بمليون، هل تعرف ما قيمتها الحقيقية؟ خمسون مليونًا»، توقف الزعيم ليحدق بأحد هواتفه الخلوية الذي يرن - كانت أربعة موضوعة أمامه على الطاولة- ثم تجاهله وأسند ظهره إلى الأريكة. «أريد أحدًا في الواجهة من أجل هذه الصفقة».

"نعم سيدي، يمكنني فعل ذلك"، قال أوبِنز.

جلست نِيوما على فراشها لاحقًا، متحمسة من أجله ناصحة إياه، وهي تهرش رأسها من حين لآخر؛ كانت فروة رأسها تحكها تحت عمامتها وكان هذا أقرب شيء وصلت يدها إليه.

---

9) أولوسيجون أوباسانجو: (1937) رئيس نيجيري، وقد حكم البلاد مرتين، الأولى بوصفه حاكمًا عسكريًا في الفترة الواقعة بين عامي 1976 و1979، ثم بوصف رئيسًا منتخبًا في الفترة من 1999 حتى 2007، وتحتفل نيجيريا بعيد الديمقراطية في ذكرى توليه للرئاسة بعد 16 عامًا من الحكم العسكري.

"هذه فرصتك! يا ذا زد، افتح عينيك، إنهم يسمونها أسماء كبيرة؛ من مثل استشارات تقييمة، لكن الأمر ليس صعبًا. تبخس العقارات أثمانها وتحرص على أن يبدو الأمر كأنك تتبع أمرًا قضائيًا. ثم تحصل على العقار، وتبيعه بنصف السعر لتسدد سعر الشراء، وها قد دخلت عالم التجارة! ستسجل شركتك الخاصة، وستكون الخطوة التالية بأن تبني بيتًا في ليكي، وتشتري بعض السيارات، وتطلب من قريتنا الأم أن تمنحك بعض الألقاب، ومن أصدقائك أن ينشروا بعض التهاني في الصحف من أجلك، وقبل أن تدرك الأمر، ستسعى إليك المصارف، وسيرغبون بإعداد قرض على الفور ومنحك إياه، لأنهم يظنون أنك لست بحاجة للمال! وبعد أن تسجل شركتك الخاصة، عليك أن تعثر على رجل أبيض. اعثر على واحد من أصدقائك البيض في إنجلترا، وأخبر الجميع أنه مديرك العام، وسترى كيف تفتح الأبواب لك لأن لديك مديرًا عامًا أويِنبو[10]. حتى الزعيم لديه بعض الرجال البيض الذين يحضرهم للتباهي حين يحتاجهم، هذه هي الطريقة التي تسير بها الأمور في نيجيريا، كما أقول لك".

وقد كانت، في الحقيقة، هذه هي الطريقة التي نجحت مع أوبنز ولم تزل تنجح. لقد أدهشته سهولتها. شعر بالسرياليّة في المرة الأولى التي أخذ فيها رسالة عرضه إلى المصرف وهو يقول «خمسين" و»خمسة وخمسين»، متجاهلًا كلمة «مليون" لعدم وجود ضرورة لشرح الواضح. لقد أدهشه، أيضًا، كم أصبح الكثير من الأمور سهلًا، وكم يسّر مظهر الثراء وحده دربه بسلاسة. كان عليه أن يقود سيارته من طراز بي إم دبليو حتى البوابة فيحييه البواب ويفتحها له، دون طرح أسئلة. حتى السفارة الأمريكية كانت مختلفة. رُفض منحه تأشيرة قبل سنوات، حين كان حديث التخرج وثملًا بالآمال الأمريكية. ولكنه حصل عليها بسهولة مع حساباته المصرفية الجديدة. في رحلته الأولى، في مطار أتلانتا، كان مسؤول الهجرة ثرثارًا دافئًا، وسأله «كم تملك من المال؟»، وحين أجاب أوبِنز بأنه لا يملك الكثير، ودهش الرجل «أرى نيجيريين مثلك يتحدثون عن الآلاف والآلاف من الدولارات طوال الوقت».

---

10) كلمة تستخدم بالنيجيرية المختلطة من الإيبو واليوروبا للإشارة إلى البيض القوقازيين. تستخدم في نيجيريا عادة للإشارة إلى الأشخاص المنحدرين من أصول أوروبية أو الأشخاص الذين لا يعدون أفارقة خالصين.

هذا ما أصبح عليه الآن، النيجيري الذي يتوقع أن يُظهر الكثير من المال في المطار. لقد جعله في حالة غريبة مربكة، لأن ذهنه لم يتغير بالسرعة ذاتها التي تغيرت فيها حياته، وشعر بفراغ أجوف بين ذاته والشخص الذي يفترض به أن يكونه.

ما زال لم يفهم لمَ قرر الزعيم مساعدته، وأن يستخدمه، متجاهلًا، بل وراعيًا، المنافع المذهلة المصاحبة لذلك. ففي منزل الزعيم على أية حال صف من الزوار الرابضين، من أقارب وأصدقاء يجلبون أقارب وأصدقاء آخرين، جيوبهم ملأى بالطلبات والالتماسات. فتساءل أحيانًا إن كان الزعيم سيطلب منه أمرًا يومًا، وهو الصبي الجائع الصادق الذي جعله كبيرًا، وفي أكثر لحظاته ميلودرامية، تخيل أن الزعيم سيطلب منه أن يرتب لاغتيال.

—

حالما وصلا حفلة الزعيم، شقت كوسي طريقها في الغرفة، تعانق رجالًا ونساء بالكاد تعرفهم، داعية الأكبر سنًا ب «سيدتي" و»سيدي" باحترام مفرط، متنعمة بالانتباه الذي يجذبه وجهها، لكنها تظهر شخصيتها بحيث لا يكون جمالها محل تهديد. فمدحت شعر امرأة، وثوب أخرى، وربطة عنق رجل. وتقول «حمدًا للرب" كثيرًا. ولما سألتها امرأة بنبرة اتهامية «ما نوع الدهان الذي تستخدمينه على وجهك؟ كيف يتسنى لامرأة أن تحظى ببشرة رائعة كهذه؟"، ضحكت كوسي بلطف ووعدت أن ترسل للمرأة نظام عنايتها ببشرتها برسالة نصية.

أدهش أوبِنز دومًا حجم اهتمامها بأن تكون شخصًا مقبولًا أخلاقيًا، وأن تكون لطيفة. ففي أيام الأحد، تدعو أقاربه إلى البطاطا الحلوة المهروسة وحساء الأونغبو ومن ثم تراقب لتتأكد أن الجميع قد أتخم. **عمي، عليك أن تأكل! لدينا المزيد من اللحم في المطبخ، دعني أجلب لك زجاجة غينيس أخرى!** في المرة الأولى التي اصطحبها فيها إلى بيت والدته، قبل أن يتزوجا، نهضت لتساعد في تقديم الطعام، وحين أرادت أمه أن تنظف بعد العشاء نهضت مستاءة، وقالت «كيف أكون هنا يا أمي وتقومين أنت بالتنظيف؟". وكانت تنهي كل جملة تقولها لأعمامه بقولها «سيدي»، وتضع شرائط في شعر بنات أنسبائه. لقد بدا في تواضعها شيء من الادعاء إذ كان واضحًا.

انحنت للسيدة أكين كول وحيتها، هذه العجوز المعروفة من عائلة عريقة

مشهورة، لها ملامح متعجرفة، وحاجباها مرفوعان دومًا، وكثيرًا ما تخيّلها أوبنز تتجشأ فقاعات الشمبانيا لأنها شخص اعتاد تلقي الإجلال..

سألت السيدة أكين كول "كيف طفلتك؟ هل بدأت تذهب إلى المدرسة؟ عليك إرسالها إلى المدرسة الفرنسية. إنها جيدة جدًا وصارمة. صحيح أن التعليم سيكون باللغة الفرنسية، ولكن من المفيد للطفلة أن تتعلم لغة متحضرة أخرى، بما أنها تتعلم الإنجليزية في المنزل».

"حسن يا سيدتي، سأبحث عن المدرسة الفرنسية»، قالت كوسي.

"المدرسة الفرنسية ليست سيئة، لكني أفضل مدرسة سيدكوت هول، فهم يدرسون كامل المنهج البريطاني»، قالت امرأة أخرى، نسي أوبِنز اسمها، علم أنها كونت ثروة كبيرة إبان فترة حكومة الجنرال أباتشا. لقد كانت قوادة، كما تقول الرواية، وتقدم الفتيات لضباط الجيش الذين منحوها بدورهم عقود تجهيزات هائلة. لقد أصبحت الآن، بثوبها اللماع الضيق الذي يحدد انتفاخ بطنها، امرأة متوسطة العمر معروفة في ليغوس، أيبستها الإحباطات، وأتلفتها المرارة، وقد لطخت البثور الرطبة على جبهتها بكريم الأساس الكثيف.

"أوه أجل، سيدكت هول. إنها على رأس القائمة لدي لأنهم يعلمون المنهج البريطاني» قالت كوسي.

لم يكن أوبِنز يقول شيئًا في العادة، بل يكتفي بالمراقبة، لكنه اليوم، لسبب ما، قال: «ألم نذهب كلنا إلى المدارس الابتدائية التي تعلم المنهج النيجيري؟»

نظرت إليه النسوة، وقد أوحت ملامحهن المختارة أنهن لا يصدقن أنه جاد. وبطريقة ما، لم يكن. فقد أراد هو أيضًا الأفضل لابنته طبعًا. وفي أوقات مثل هذه، يشعر أنه دخيل في محيطه الجديد، على الأشخاص الذي يظنون أن أحدث المدارس وأحدث المناهج ستضمن الكمال لأبنائهم. لم يشاطرهم يقينهم، فقد أمضى وقتًا طويلًا في النواح على ما كان، والتساؤل عما يجب أن يكون.

حين كان أصغر سنًا، أعجب بالأشخاص الذين يعيشون طفولة مرفهة ولكناتهم أجنبية، لكنه أخذ يشعر أنهم يتحسرون بصمت، ويبحثون بحزن عن شيء ما لم يعثروا عليه قط. لم يرد طفلًا ذا تعليم جيد عالقًا في شرك الخوف. ولهذا لن

تذهب بوتشي إلى مدرسة فرنسية، لقد كان واثقًا من هذا.

"إن قررت الإضرار بطفلتك بإرسالها إلى واحدة من تلك المدارس ذات المعلمين النيجيريين الحمقى، فعليك عندئذ أن تلوم نفسك فقط»، قالت السيدة أكين كول. كانت تتحدث باللكنة الأجنبية العنيدة، بلكنة بريطانية وأمريكية ولكنة أخرى ، لنيجيرية ثرية لا تريد للعالم أن ينسى ثقافتها، وكم تغص بطاقة الخطوط الجوية البريطانية الخاصة بها بالأميال!

"واحدة من صديقاتي، ذهب ابنها إلى مدرسة في البر الرئيس، وهل تعلمون أنهم يملكون خمسة أجهزة حاسوب فقط في المدرسة كلها. خمسة فقط!»، قالت المرأة الأخرى. وقد تذكر أوبِنز اسمها؛ أداما.

قالت السيدة أكين كول: «لقد تغيرت الأمور».

"أوافقك»، قالت كوسي، «لكني أفهم ما الذي يعنيه أوبِنز".

لقد كانت تقف على الجانبين في الوقت نفسه، لترضي الجميع، لأنها دومًا تفضل السلام على الحقيقة، وتميل دومًا إلى التكيف. شعر بالذنب بفعل أفكاره، بعد أن راقبها وهي تحدث السيدة أكين كول، وقد تلألأ الظل الذهبي على جفنيها. لقد كانت امرأة مخلصة، امرأة مخلصة بمعنى الكلمة، فتقدم وأمسك بيدها.

"سنذهب إلى سيدكت هول والمدرسة الفرنسية، وسنبحث أيضًا عن بعض المدارس النيجيرية مثل كراون داي»، قالت كوسي ونظرت إليه بتوسل.

"أجل"، قال ضاغطًا على يدها. وعرفت أن هذا اعتذار، وأنه سيعتذر إليها بشكل لائق لاحقًا. كان عليه أن يظل صامتًا وألا يتدخل في حديثها. كثيرًا ما قالت له إن صديقاتها يحسدنها، ويقلن إنه يتصرف مثل زوج أجنبي، بالطريقة التي يعد بها الإفطار لها في إجازات نهاية الأسبوع، والبقاء في المنزل كل ليلة. ورأى نسخة أفضل من نفسه وأكثر لمعانًا في عينيها الفخورتين. أوشك أن يقول شيئًا للسيدة أكين كول، شيئًا فارغًا مهدئًا، حين سمع صوت الزعيم يعلو خلفه: «ولكن تعلمون أنه في الوقت الذي نتحدث فيه، يسيل النفط عبر أنابيب غير شرعية ويباع في زجاجات في كوتونو! أجل! أجل!"

كان الزعيم أمامهم.

"أميرتي الجميلة!"، قال الزعيم لكوسي، وعانقها ضاغطًا إياها بقوة، وتساءل أوبِنز إن سبق للزعيم أن تحرش بها. لن يفاجئه ذلك، فقد كان يومًا في منزل الزعيم حين أحضر رجل حبيبته للزيارة، وحين غادرت الغرفة للذهاب إلى دورة المياه، سمع الزعيم يقول للرجل: «تعجبني هذه الفتاة، أعطها لي وأنا سأعطيك رقعة أرض جميلة في إكِجا!»

"تبدو بحال جيدة أيها الزعيم»، قالت كوسي، «دائم الشباب!".

"آه يا عزيزتي، أنا أحاول، أنا أحاول»، شد الزعيم مازحًا ياقته السوداء الحريرية. وقد بدا بحال جيدة فعلًا، نحيلًا ومنتصب القامة، بعكس الكثير من أقرانه الذين يبدون مثل رجال حوامل.

"فتاي!"، قال لأوبِنز.

"مساء الخير أيها الزعيم"، صافح أوبِنز يده بكلتا يديه منحنيًا قليلًا. لقد رأى الرجال الآخرين في الحفلة ينحنون أيضًا، محتشدين حول الزعيم متدافعين للتبارز بالضحك حين يلقي الزعيم طرفة.

كانت الحفلة مزدحمة أكثر، ورفع أوبِنز نظره ورأى فرديناند، أحد معارف الزعيم، ممتلئ الجسم، دخل الانتخابات الماضية لمنصب الحاكم، وخسر. وكما يفعل كل السياسيين الخاسرين، اتجه إلى المحكمة للطعن بالنتائج. كان لفرديناند وجه فولاذي لا أخلاقي، ولو تفحص أحدهم يديه، فلربما عثر على دم أعدائه مثل طبقة تحت أظافره. التقت عينا فرديناند بعينيه فأشاح أوبِنز نظره. لقد خشي أن يأتي فرديناند ويتحدث عن صفقة الأرض المشبوهة التي ذكرها في آخر لقاء لهما، لذا غمغم أنه متجه إلى دورة المياه وانسل بعيدًا عن المجموعة.

رأى عند طاولة العشاء (البوفيه)، شابًا ينظر بخيبة أمل حزينة إلى اللحم البارد والمعجنات. انجذب أوبِنز إلى حماقته، ففي ثياب الشاب وفي الطريقة التي وقف بها غُربة لم يستطع درأها وإن أراد ذلك.

"في الطرف الآخر طاولة أخرى عليها أطعمة نيجيرية»، أخبره أوبِنز، ونظر إليه الشاب وضحك بامتنان. كان اسمه ييمي وهو صحافي. وليس ذلك بالغريب فصور حفلات الزعيم متناثرة في صحف نهاية الأسبوع.

درس ييمي الإنجليزية في الجامعة وسأله أوبنز عن الكتب التي يفضلها، حريصًا على الحديث عن شيء ما مثير للاهتمام أخيرًا، لكنه سرعان ما أدرك أن كتابًا، بالنسبة لييمي، لا يعتبر أدبًا ما لم يحتوِ كلمات متعددة المقاطع ومقاطع غير مفهومة.

"المشكلة أن الرواية بسيطة جدًا، فالرجل لا يستخدم كلمات كبيرة"، قال ييمي.

فوجئ أوبنز بضحالة ثقافة ييمي، وأنه لا يعرف أنه ضحل الثقافة، فقد جعله ذلك يرغب أن يكون معلمًا. تخيل نفسه يقف أمام صف ملئ بالييميين ليعلمهم. إن حياة التدريس تناسبه، كما ناسبت أمه. وكثيرًا ما تخيل الأمور الأخرى التي كان يمكنه فعلها، أو التي ما زال بإمكانه فعلها؛ مثل التعليم في جامعة، أو التحرير في صحيفة، أو التدريب على كرة الطاولة المحترفة.

"لا أعلم مجال تجارتك يا سيدي، لكني أبحث دومًا عن عمل أفضل. أنا أكمل دراسة الماجستير حاليًا»، قال ييمي بأسلوب رجل ليغوسي حقيقي يحتال دومًا، وعيناه متيقظتان على الدوام إلى الألمع والأفضل؛ أعطاه أوبنز بطاقته قبل أن يعود للبحث عن كوسي.

"كنت أبحث عنك"، قالت كوسي.

"آسف، صادفت أحدهم"، قال أوبنز. مد يده في جيبه ولمس جهاز البلاك بيري خاصته. سألته كوسي إن أراد مزيدًا من الطعام، لكنه لم يرغب. بل أراد أن يذهب إلى المنزل، فقد غمرته لهفة مندفعة لدخول مكتبه، والرد على رسالة إفيملو بشيء كتبه في ذهنه بلا وعي. إن كانت تفكر بالعودة إلى نيجيريا، فهذا يعني أنها لم تعد مع الأمريكي الأسود. ولكنها قد تحضره معها؛ فهي على أية حال من النساء اللاتي تجعلن الرجل يجتث حياته ببساطة، النمط الذي يجعل نوعًا معينًا من التأكيد يصبح ممكنًا، لأنها لا تتوقع اليقين ولا تطلبه. حين تمسك بيده أثناء دراستهما الجامعية، كانت تعصرها حتى تصبح كلتا راحتي يديها لزجة من العرق، فتقول لتغيظه: «احتياطًا لأن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي تتشابك فيها أيدينا، لنمسك بأيدينا فعلًا، لأن دراجة نارية أو سيارة قد تقتلنا الآن، أو قد أقابل رجل أحلامي الحقيقي آخر الشارع وأتركك، أو قد تلتقي بامرأة أحلامك الحقيقية وتتركني». قد يعود الأمريكي الأسود إلى نيجيريا أيضًا، متشبثًا بها. ومع ذلك، فقد أحس من رسالتها أنها وحيدة. أخرج البلاك بيري

ليحسب وقت إرسالها بتوقيت أمريكا حين أرسلت، كان أول العصر. وكانت جملها مستعجلة، فتساءل عما فعلته عندئذٍ. كما تساءل عن الأمور الأخرى التي أخبرتها بها رانينودو عنه.

حين صادف رانينودو يوم السبت في ديسمبر في مجمع بالمز التجاري، كان يحمل بوتشي بأحد ذراعيه، منتظرًا غابرييل قرب المدخل ليقرّب السيارة، ويمسك بيده الأخرى كيسًا فيه بسكويت بوتشي. "ذا زد!"، صاحت رانينودو، التي كانت في أيام الدراسة الثانوية الفتاة المسترجلة الحيوية، طويلة ونحيلة وصريحة، ولا تتحلى بغموض الفتيات. وقد أحبها كل الفتيان لكنهم لم يلاحقوها أبدًا، بل سمّوها تحبّبًا «دعني في سلام»، لكثرة ما تقولها كلما سئلت عن اسمها الغريب. «أجل، إنه اسم من الإيبو ويعني دعنا في سلام، لذا عليكم أن تتركوني في سلام!". فوجئ بأنها تبدو أنيقة ومختلفة، بشعرها المشوّك القصير والجينز الضيق وجسدها الممتلئ والجميل.

"ذا زد! ذا زد! يا له من وقت طويل! لم تسأل عنا ثانية. هل هذه ابنتك؟ أوه، يا لجمالها! لقد كنت ذلك اليوم مع صديق لي، ديلي. أنت تعرف ديلي من مصرف هيل؟ قال إنك تملك ذلك المبنى قرب مكتب أيس في جزيرة بانانا؟ تهانينا. لقد أبليت حسنًا، وقال ديلي إنك متواضع جدًا».

استاء من تدليلها المفرط والاحترام الذي يرشح من مسامها ببراعة. لم يكن في نظرها ذا زد من أيام الثانوية، وجعلتها قصص ثرائه تفترض أنه تغير أكثر من تغيره حقيقة. كثيرًا ما أخبره الناس بمدى تواضعه، لكنهم لم يقصدوا التواضع الحقيقي. فقد عنى ذلك أنه لم يتباهَ بعضويته في نادي الأثرياء، ولم يمارس الحقوق التي تمنحها العضوية؛ بأن يكون وقحًا، وأن يكون لامباليًا، وأن يتلقى التحية أكثر من أن يلقيها. ولأن الكثيرين مثله مارسوا هذه الحقوق، فقد فسرت خياراته على أنها تصاغر. كما أنه لم يتفاخر، أو يتحدث عن الأشياء التي يملكها، ما جعل الناس يفترضون أنه يملك أكثر مما يملك. حتى أقرب أصدقائه، أوكوديبا، أخبره أنه متواضع، وأتعبه ذلك قليلًا، لأنه تمنى أن يفهم أوكوديبا أن نعته بالتواضع يعني أن تصبح الوقاحة هي القاعدة. كما أن التواضع بدا له دومًا أمرًا خادعًا، وأنه أُختلق لراحة الآخرين. فيثني عليك الناس بالتواضع لأنك لم تشعرهم بافتقارهم لأي شيء أكثر مما يفعلون. لقد

ثمّن الصدق؛ وتمنى لنفسه دومًا أن يكون صادقًا، وخشي دائمًا ألا يكون كذلك.

في السيارة في طريق العودة من حفلة الزعيم، قالت كوسي: «لا بد أنك جائع يا عزيزي، لم تأكل شيئًا سوى لفافات الربيع".

"والكباب".

"عليك أن تأكل. حمدًا للرب أنني طلبت من ماري أن تطبخ»، قالت وأضافت ضاحكة، «أما أنا، فكان علي أن أحترم نفسي وأترك تلك الحلازين وشأنها! أظنني أكلت عشرة. لقد كانت لذيذة جدًا ومتبلة بالفلفل".

ضحك أوبِنز، ضجرًا قليلًا، لكنه سعيد لسعادتها.

—

كانت ماري بسيطة، ولم يعرف أوبِنز إن كانت حيية، أم أن إنجليزيتها المتلعثمة جعلتها كذلك. لقد جاءت إليهم منذ شهر فقط. كانت آخر خادمة جلبها قريب لغابرييل، أكثر بدانة وأتت حاملة حقيبة قماشية. لم يكن موجودًا حين فتشتها كوسي- وهي تفعل ذلك بانتظام مع كل العمالة المنزلية لأنها أرادت أن تعرف ما يدخل بيتها- لكنه خرج عندما سمع كوسي تصرخ بذلك الأسلوب الهلع الحاد الذي تستخدمه مع العمالة لتفرض سلطتها، وتتحاشى الازدراء. كانت حقيبة الفتاة على الأرض، مفتوحة منثورة الثياب، ووقفت كوسي قربها، تحمل بأطراف أصابعها علبة من الواقيات الذكرية.

"لأي شيء هذا؟ إه؟ هل أتيت إلى منزلي لتصبحي عاهرة؟»

نظرت الفتاة إلى الأسفل بادئ الأمر، صامتة، ثم نظرت إلى كوسي في وجهها وقالت بهدوء «في عملي السابق، كان زوج سيدتي يجبرني دومًا».

جحظت عينا كوسي. تقدمت إلى الأمام للحظة، كما لو أنها ستهاجم الفتاة بطريقة ما، ثم توقفت.

"احملي حقيبتك من فضلك واذهبي الآن الآن"، قالت.

استدارت الفتاة، وهي تبدو متفاجئة قليلًا، ثم رفعت حقيبتها واتجهت نحو الباب. بعد أن غادرت قالت كوسي «هل تصدق هذا الجنون يا عزيزي؟ أتت هنا تحمل واقيات ذكرية، وتفتح فمها لتقول هذا الهراء. هل تصدق هذا؟»

"لقد اغتصبها مخدومها السابق فقررت أن تحمي نفسها هذه المرة»، قال أوبِنز.

حدقت كوسي به «هل تشعر بالأسى من أجلها؟ أنت لا تعرف هؤلاء الخادمات، كيف يمكنك أن تشعر بالأسى من أجلها؟»

لقد أراد أن يسأل كيف يمكنك ألا تفعلي؟ لكن الخوف المتردد في عينيها أخرسه. قلقها، الكبير جدًا والعادي جدًا، أخرسه. لقد قلقت من خادمة لم يخطر له إغواؤها ولن يفعل. يمكن أن تفعل ليغوس هذا بامرأة متزوجة بشاب وثري؛ وقد عرف مدى سهولة الانزلاق نحو الارتياب من الخادمات، والسكرتيرات، وفتيات ليغوس، أولئك الوحوش الخبيرات بالفتنة، اللاتي يبتلعن الأزواج بكاملهم، مزحلقات إياهم عبر حناجرهن المرصعة بالجواهر. ومع ذلك تمنى لو أن كوسي أقل خشية، وأقل تكيفًا.

أخبرها قبل سنوات عن موظفة مصرف جذابة جاءت إلى مكتبه لتحدثه عن فتح حساب، وهي امرأة شابة مرتدية قميصًا مناسبًا بزر إضافي مفتوح، محاولة إخفاء اليأس في عينيها «عزيزي، يتعين على سكرتيرتك ألا تدخل موظفات التسويق المصرفي هؤلاء إلى مكتبك!»، قالت كوسي وكأنها لم تعد تراه أوبِنز، ورأت بدلًا منه أشكالًا ضبابيًا ونمطًا كلاسيكيًا؛ رجل ثري، وموظفة مصرفية أعطيت مبلغ الإيداع المطلوب، مقايضة سهلة. توقعت كوسي خيانته، وكان هدفها أن تقلل احتمالات فعله لذلك. «كوسي، لا شيء يحدث ما لم أرغب بذلك، ولن أرغب أبدًا»، قال فيما كان طمأنة وتقريعًا في آن معًا.

كانت قد نمّت على مرّ السنوات منذ زواجهما، بغضًا مفرطًا للنساء العازبات وحبًا مفرطًا للرب. قبل أن يتزوجا، اعتادت الذهاب إلى القداس مرة في الأسبوع في الكنيسة الأنجليكانية في مارينا، في روتين الإرضاء ليوم الأحد الذي تمارسه لأنها نشأت على هذا النحو. ولكن بعد زفافهما، انتقلت إلى بيت داوود لأنها كانت الكنيسة المؤمنة بالإنجيل كما قالت له. وشعر بالقلق لاحقًا حين عرف أن بيت داوود لديهم قداس صلاة خاص ل الحفاظ على زوجك. ولما سألها مرة لماذا لا تزورهم أقرب صديقاتها من أيام الجامعة، إلوهور، إلا لمامًا، قالت كوسي «إنها ما زالت عازبة»، كأن ذلك سبب واضح.

قرعت ماري باب مكتبه ودخلت حاملة صينية من الأرز وموز الجنة المقلي. أكل ببطء، وشغل قرصًا مضغوطًا لفيلا[11]، ثم أخذ يكتب الرسالة على حاسوبه. كانت لوحة المفاتيح في جهاز البلاك بيري ستقيد أصابعه وذهنه. لقد عرّف إفيملو على فيلا في الجامعة، وقد تخيلت قبل ذلك أن فيلا مدخن حشيش مجنون يرتدي ثيابًا داخلية في حفلاته الموسيقية، لكنها صارت تحب الأفروبيت[12]، وكانا يستلقيان على فراشه في نسوكا ويستمعان إليه، ومن ثم تبدأ بالقفز مؤدية حركات بذيئة رشيقة بوركيها حين تبدأ الجوقة بترديد اجر- اجر- اجر. وتساءل إن كانت تذكر ذلك. وتساءل إن كانت تذكر أن ابن عمه أرسل ستة أشرطة من الخارج، وأنه صنع نسخًا لها في متجر الإلكترونيات الشهير في السوق؛ حيث تصدح الموسيقى طوال اليوم، وترن في أذنك حتى بعد مغادرتك. لقد أرادها أن تملك الموسيقى التي يملكها، لم تبدِ اهتمامًا ب بيغي ووارن جي ود. دري وسنوب دوغ[13] يومًا، لكن فيلا مختلف، لقد اتفقا على فيلا.

كتب الرسالة، دون أن يذكر زوجته، مستخدمًا ضمير المتكلم المفرد، محاولًا الموازنة بين الجد والهزل. ولم يرغب في إبعادها، بل أراد أن يتأكد أنها سترد عليه هذه المرة. نقر على زر الإرسال وتفحص بريده بعد دقائق ليرى إن ردت. لقد كان متعبًا، لم يكن إنهاكًا جسديًا - فقد أخذ يتردد على النادي الرياضي بانتظام وشعر أنه أفضل مما كان عليه منذ سنوات- بل كان إعياء مستنزِفًا خدّر حواشي عقله. نهض وخرج إلى الشرفة؛ فصفا ذهنه بسبب الهواء الحار المفاجئ، وصوت المولدة الكهربائية لدى جيرانه، ورائحة أبخرة عوادم الديزل. رفرفت الحشرات المجنحة بهياج قرب المصباح الكهربائي، وشعر وهو ينظر إلى العتمة الرطبة في البعيد، أن بوسعه التحليق، وكل ما عليه فعله هو أن يطلق العنان لنفسه.

---

11) فيلا كيوتي (1938-1997) موسيقي ومغنٍ نيجيري وناشط في حقوق الإنسان.

12) نوع من الموسيقى وهو مزيج من الجاز والفانك.

13) مغنو راب أمريكيون.

الجزء الثاني

الفصل الثالث

فرغت ماriaما من شعر زبونتها، ورشت عليه ملمّعًا، وبعد أن غادرت الزبونة قالت: «سأذهب لشراء الطعام الصيني».

أخبرتها عايشا وحليما ما تريدان، طبق دجاج الجنرال تسو الحار جدًا، وأجنحة الدجاج، والدجاج بالبرتقال، بسهولة وسرعة أشخاص يقولون ما يريدون كل يوم.

"هل تريدين شيئًا؟"، سألت مرياما إفيملو.

"لا، شكرًا"، قالت إفيملو.

"سيستغرق شعرك وقتًا. لا بد أن تأكلي"، قالت عايشا.

"أنا بخير، لدي لوح من الغرانولا"، قالت إفيملو. كانت تحتفظ ببعض الجزر الصغير في كيس بلاستيكي أيضًا، رغم أن كل ما تناولته حتى الآن هو لوح الشوكولاته الذائبة.

"أي لوح؟"، سألت عايشا.

أرتها إفيملو اللوح، عضوي ومن حبوب كاملة مئة بالمئة مع فاكهة حقيقية.

"هذا ليس طعامًا!"، أنبتها حليما، مبعدة نظرها عن التلفاز.

"إنها هنا منذ خمسة عشر عامًا يا حليما"، قالت عايشا، وكأن السنوات الطويلة في أمريكا شرحت تناول إفيملو للوح الغرانولا.

"خمسة عشر؟ وقت طويل"، قالت حليما.

انتظرت عايشا حتى غادرت مرياما قبل أن تخرج هاتفها الخلوي من جيبها. «آسفة، أجري اتصالًا سريعًا»، قالت وتنحت جانبًا. أشرق وجهها حين عادت، وأظهرت تلك المكالمة حُسنًا باسمًا لم تره إفيملو قبلًا.

"إميكا يعمل لوقت متأخر اليوم، لذا سيأتي تشيجوك فقط لرؤيتك، قبل أن ننتهي»، قالت كأنها وإفيملو قد خططتا الأمر برمته معًا.

"اسمعي، ليس عليك أن تطلبي منهما القدوم. لست أدري ما أقوله لهما"، قالت إفيملو.

"أخبري تشيجيوك أن الإيبو يمكنه الزواج بغير الإيبو».

"لا يمكنني أن أملي عليه أن يتزوجك يا عايشا. سيتزوجك إن أراد ذلك».

"يريدان الزواج بي، لكني لست إيبو»، لمعت عينا عايشا. لا بد أن المرأة مختلة عقليًا قليلًا.

"هل هذا ما قالاه لك؟"، سألت إفيملو.

"إميكا قال إن أمه أخبرته أنها ستقتل نفسها إن تزوج أمريكية"، قالت عايشا.

"هذا ليس جيدًا".

"لكن أنا، أنا إفريقية».

"إذًا قد لا تقتل نفسها إذا تزوجك".

نظرت عايشا إليها بحيرة، «هل أم حبيبك تريده أن يتزوجك؟»

فكرت إفيملو ببلين أولًا، ثم أدركت أن عايشا تقصد حبيبها الخيالي طبعًا.

"نعم. إنها تستمر في سؤالنا عن موعد زواجنا». تعجبت من طلاقتها، وبدا الأمر كأنها أقنعت حتى نفسها أنها لا تعيش على الذكريات التي أفسدتها السنوات الثلاثة عشرة الماضية. ولكن قد يكون صحيحًا، فقد أحبتها أم أوبِنز في النهاية.

"آه!"، قالت عايشا بحسد حسن النية.

دخل رجل ذو بشرة رمادية جافة وكتلة شعر بيضاء حاملًا صينية بلاستيكية عليها مشروبات عشبية.

"لا، لا، لا"، قالت عايشا رافعة راحة يدها كأنها تصده. تراجع الرجل، فشعرت

إفيملو بالأسى من أجله، إذ بدا جائعًا في قميصه الداشيكي البالي، وتساءلت عما يجنيه من مبيعاته. توجب عليها أن تشتري شيئًا.

"تحدثي بالإيبو مع تشيجيوك، سيستمع إليك»، قالت عايشا، «تتحدثين الإيبو؟»

"طبعًا أتحدث الإيبو»، قالت إفيملو مدافعة، متسائلة ثانية إن كانت عايشا تلمح أن أمريكا غيرتها. «هوني عليك!»، أضافت، لأن عايشا مررت مشطًا صغير الأسنان في أحد أقسام شعرها.

"شعرك جاف"، قالت عايشا.

"إنه ليس جافًا"، قالت إفيملو بحزم، «أنت تستخدمين المشط الخطأ»، وجذبت المشط من يد عايشا ووضعته على الطاولة.

—

نشأت إفيملو في ظِلّ شَعْر أمها. لقد كان فاحم السواد، كثيفًا جدًا يستنزف علبتي مملّس في مركز التجميل، وثقيلًا جدًا يستغرق ساعات تحت قبعة التجفيف، وحين يتحرر أخيرًا من اللفّافات الوردية البلاستيكية، يثب حرًا وطويلًا وينسدل على ظهرها مثل احتفال. سماه أبوها تاج المجد، ويسألها الغرباء "هل هو شعرك الحقيقي؟"، ثم يقتربون للمسه بتبجيل. ويسأل آخرون «هل أنت من جامايكا؟»، كأن الدم الأجنبي وحده قادر على تفسير شعر غزير كهذا لا يقل عند الفودين. كانت إفيملو، على مر سنوات طفولتها، تنظر في المرآة كثيرًا وتجذب شعرها، وتفصل الخصل ليصبح مثل شعر أمها، لكنه ظل أهلب ونما على مضض؛ وقالت ضافرات الشعر إنه يجرحهن مثل سكين.

ذات يوم، في العام الذي أتمت فيه إفيملو عامها العاشر، عادت أمها من العمل وهي تبدو مختلفة. كانت ثيابها ذاتها، الفستان البني المحزم عند الخصر، لكنّ وجهها محتقنٌ، وعينيها شاردتان. سألت "أين المقص الكبير؟"، وحين جلبته إفيملو لها، رفعته إلى رأسها وجزت شعرها كاملًا، حفنة تلو أخرى. حدقت إفيملو مذهولة، وارتمى الشعر على الأرض مثل عشب ميت، «اجلبي لي كيسًا كبيرًا،" قالت أمها. فأطاعت إفيملو، شاعرة أنها في غيبوبة بفعل الأمور التي تحدث ولا تفهمها. راقبت أمها تتجول في أرجاء الشقة، وتجمع كل الأغراض الكاثوليكية؛ من الصلبان

على الجدران، والسُّبّح الملتفة في الجوارير، وكتب القداس على الأرفف. وضعتها أمها كلها في كيس بلاستيك حملته إلى الفناء الخارجي. كانت خطواتها سريعة، ونظرتها الشاردة حازمة. أشعلت نارًا قرب مكب النفايات، في البقعة ذاتها التي تحرق فيها فوطها الصحية، ثم ألقت بشعرها أولًا، ملفوفًا بصحيفة قديمة، وبعدها أمتعة الإيمان واحدًا إثر واحد. التف دخان أسود داكن في الهواء. وأخذت إفيملو تبكي من الشرفة، لأنها أحست أن أمرًا ما قد حدث، والمرأة التي تقف قرب النار وترش المزيد من الكيروسين حين تخبو النار، وتتراجع حين تلهب، المرأة الصلعاء والخاوية ليست أمها، لا يمكن أن تكون أمها.

حين عادت أمها إلى الداخل، تراجعت إفيملو، لكن أمها عانقتها بقوة.

"لقد أُنقِذت»، قالت، «لقد وعظتني السيدة أوجو عصر اليوم أثناء استراحة الأطفال، وقد آمنت بالمسيح. لقد مضت الأمور القديمة وأصبحت كل الأشياء جديدة. حمدًا للرب. سنبدأ منذ الأحد بالذهاب إلى كنيسة ريفايفل سانتس [قدّيسو النهضة]. إنها كنيسة مؤمنة بالإنجيل وحيوية، ليست مثل كنيسة القديس دومينيك». لم يكن ما قالته أمها من كلماتها، إذ قالته بسرعة شديدة بسلوك يعود إلى شخص آخر. حتى صوتها، حاد النبرة والأنثوي عادة، صار عميقًا وغليظًا. شهدت إفيملو، بعد الظهيرة تلك، روح أمها تهرب. في الماضي، تلت أمها التسابيح بين الحين والآخر، وصلّبت قبل الأكل، ووضعت صورة جميلة للقديسين حول عنقها، وغنت الأغنيات اللاتينية وضحكت حين يضايقها والد إفيملو حول لفظها الفظيع. وضحكت أيضًا حين قال: «أنا لا أدريّ أحترم الأديان»، فتقول له إنها محظوظة بزواجه منها، لأنه حتى إن كان يذهب إلى الكنيسة في حفلات الزفاف أو الجنائز، فإنه سيدخل الجنة على أجنحة إيمانها. لكن ربها تغير بعد تلك العصرية، لقد أصبح متطلبًا، وكان الشعر المملس يزعجه، والرقص يزعجه. فصارت تقايضه، عارضة الطوى مقابل الرفاهية، أو مقابل ترقية عمل، أو مقابل صحة جيدة. وأخذت تصوم حتى صارت عظامًا: صيامًا عن الماء في نهاية الأسبوع، وصيامًا عن الطعام فتبقى على الماء حتى المساء في بقية أيام الأسبوع. كان والد إفيملو يلاحقها حاضًا إياها على تناول طعام أكثر قليلًا، وأن تصوم أقل قليلًا، ويتحدث إليها بحذر دومًا، حتى لا تدعوه وكيل الشيطان

وتتجاهله، كما فعلت مع قريب يقيم معهم. «أنا أصوم لأجل تغيير والدك»، تقول لإفيملو كثيرًا. وصار الجو في شقتهم يشبه الزجاج المصدع طوال أشهر. وأخذ الجميع يمشي على أطراف أصابعه قرب أمها، التي أصبحت غريبة ونحيلة وبارزة المفاصل وصارمة، وخشيت إفيملو أنها يومًا ستنقصف ببساطة إلى قطعتين وتموت.

ثم، في سبت الفصح، في يوم قاس، وهو أول سبت فصح هادئ في حياة إفيملو، خرجت أمها من المطبخ وقالت"رأيت ملاكًا!". كانوا في السابق يطبخون ويمرحون، وتُرى الكثير من القدور في المطبخ والكثير من الأقارب في الشقة، وتذهب إفيملو وأمها إلى صلاة الليل، وتحملان شموعًا مضاءة، وتغنيان في بحر من اللهب المرتعش، ثم تعودان إلى البيت لتواصلا إعداد غداء الفصح الكبير. لكن الشقة باتت صامتة، فقد ابتعد أقاربهم، وكان الغداءُ الأرزَ واليخنة المعتادين. كانت إفيملو مع والدها في غرفة المعيشة، وحين قالت أمها «رأيت ملاكًا!»، رأت إفيملو غيظًا في عينيه، في لمحة قصيرة قبل أن يتلاشى.

"ما الذي حدث؟"، سأل بنبرة مسترضية تستخدم مع الأطفال، وكأن ملاطفة جنون زوجته ستجعله يتبدد سريعًا.

قصّت أمها عليهما رؤيا رأتها لتوها، لِطيْف متوهج قرب موقد الغاز، لملاك يحمل كتابًا مزركشًا بخيط أحمر، يأمرها بترك كنيسة ريفايفل سانتس، لأن القس ساحر يحضر في الليل اجتماعات شيطانية تحت البحر.

"عليك الإصغاء للملاك»، قال أبوها.

وهكذا تركت أمها الكنيسة وأخذت تطيل شعرها ثانية، لكنها كفت عن ارتداء العقود والأقراط لأن الجواهر، بحسب قس ميركل سبرنغ [ربيع المعجزات]، إثم ولا تليق بامرأة فاضلة. بعد ذلك بوقت قصير، في اليوم نفسه الذي حدث فيه الانقلاب الفاشل، في الوقت الذي كان فيه الباعة قاطني الطابق السفلي يبكون لأن الانقلاب كان بإمكانه إنقاذ نيجيريا، وكان يمكن لنساء السوق أن يمنحن مناصب في مجلس الوزراء، رأت أمها رؤيا أخرى. هذه المرة، ظهر الملاك في غرفة نومها، فوق خزانة الثياب، وأمرها بترك كنيسة ميركل سبرنغ، والانضمام لكنيسة غايدنغ أسيمبلي [جماعة الإرشاد]. في منتصف القداس الأول الذي حضرته إفيملو مع أمها، في قاعة

اجتماع ذات أرضية رخامية، محاطة بأناس معطرين وصدى الأصوات الصافية، نظرت إفيملو إلى أمها ورأتها تبكي وتضحك في الوقت نفسه.

في كنيسة الأمل الموّار هذه، في الخبط والصفق، حيث تخيلت إفيملو دوامة من الملائكة المنعمين في الأعلى، وجدت روح أمها سكنًا. كانت كنيسة غاصة بمحدثي الثراء، وبدت سيارة أمها الصغيرة هي الأقدم في موقف السيارات، بطلائها الباهت وخدوشها الكثيرة. لو أنها صلت مع الموسرين، كما قالت، لأنعم الرب عليها كما أنعم عليهم. ثم عادت لارتداء الحليّ ثانية، ولشرب جعة غينيس، وصارت تصوم يومًا واحدًا في الأسبوع فقط وكثيرًا ما تقول: «قال لي الرب»، و«يقول كتابي المقدس»، وكأن الأشخاص الآخرين ليسوا مختلفين فحسب، بل ضالين أيضًا. كانت إجابتها على «صباح الخير» أو«عصرًا طيبًا» بقولها «باركك الرب!» بابتهاج. صار ربها معتدلًا ولا يمانع في أن يُأمر. كانت توقظ أهل المنزل كل صباح لأداء الصلاة، فيركعون على السجادة الخشنة لغرفة المعيشة، يغنون ويصفقون ويغطون النهار مسبقًا بدم المسيح، وتثقب كلمات أمها سكون الفجر. «إلهي، أبي المقدس، آمرك أن تملأ هذا اليوم بالبركة وتثبت لي أنك الرب! يا إلهي، أنتظرك لأنال ثرائي! لا تجعل الأشرار يفوزون، لا تجعل أعدائي ينتصرون علي!». قال والد إفيملو مرة إن الصلوات كانت معارك وهمية ضد خونة خياليين، ومع ذلك أصر على إفيملو أن تنهض باكرًا للصلاة دومًا، قائلًا «هذا يسعد أمك».

في الكنيسة في وقت الشهادة، كانت أمها أول من يسرع نحو المذبح، فتقول «أصبت بنزلة تنفسية هذا الصباح، ولكن ما إن بدأ القس غيدوين بالصلاة حتى زالت. لقد ذهبت الآن، حمدًا للرب!» ويصيح الجميع «هللويا!»ثم تتوالى شهادات أُخَر. **لم أدرس لأني كنت مريضًا ومع ذلك فقد اجتزت الاختبارات بسهولة وامتياز! أصبت بالملاريا وصليت لأشفى منها فشفيت! لقد اختفى سعالي حين بدأ القس بالصلاة!** لكن أمها كانت الأولى دومًا، تتسلل وتبتسم، مطوقة بوهج الخلاص. لاحقًا في القداس، حين يقفز القس ببدلته ذات الأكتاف الحادة وحذائه المدبب ويقول «ربنا ليس ربًا فقيرًا، أليس كذلك؟ إن نصيبنا هو الازدهار، صحيح؟»، ترفع أم إفيملو ذراعها عاليًا، نحو السماء، وهي تقول «آمين، يا أبانا الرب، آمين».

لم تر إفيملو أن الرب قد منح القس غيدوين المنزل الكبير وكل هذه السيارات، لقد اشتراها حتمًا بمال من المجموعات الثلاثة من كل قداس، ولم تر أن الرب سيفعل للجميع ما فعله للقس غيدوين، لأن ذلك مستحيل، لكنها سعدت بانتظام أكل أمها. لقد عاد دفء عينيها، وظهر في مشيتها فرح جديد، وصارت تمكث مرة أخرى مع أبيها على طاولة الطعام بعد الوجبات، وتغني بصوت عال وهي تستحم. لقد غمرتها كنيستها الجديدة لكنها لم تحطمها. بل جعلتها ساذجة ويسهل خداعها. «أنا ذاهبة لدراسة الكتاب المقدس» و«سأذهب إلى المجموعة»، كانتا أسهل الطرق لإفيملو لتخرج بلا سؤال في سنوات مراهقتها. لم تكن إفيملو مهتمة بالكنيسة، ونفرت من بذل أي جهد ديني، ربما لأن أمها قد بذلت الكثير مسبقًا. ورغم ذلك فقد أراحها إيمان أمها، لقد كان- في خيالها- غيمة بيضاء تتحرك برفق فوقها أينما ذهبت. حتى دخل الجنرال حياتهم.

—

صلت أم إفيملو كل صباح من أجل الجنرال، فتقول: «أبانا المقدس، آمرك أن تبارك عراب أوجو. فلا ينتصر عليه أعداؤه أبدًا!»، أو تقول «نغطي عراب أوجو بالدم الغالي للمسيح!»، وتغمغم إفيملو بشيء هرائي عوضًا عن قول «آمين». كانت أمها تلفظ كلمة «عراب» لفظًا جسورًا، وبنبرة شديدة، وكأن قوة نطقها ستحول الجنرال إلى عراب حقًا، وتعيد خلق العالم أيضًا ليكون مكانًا يمكن للأطباء الشباب فيه أن يشتروا مثل سيارة العمة أوجو من طراز مازدا، تلك السيارة الخضراء اللامعة الانسيابية بشكل رهيب.

سألت شيتاتشي، التي تعيش في الطابق العلوي، إفيملو «قالت أمك إن عراب العمة أوجو قد منحها قرضًا للسيارة أيضًا؟»

«أجل».

«إه! إن العمة أوجو محظوظة!»، قالت تشياتشي.

لم تغفل إفيملو عن الابتسامة الفطنة على وجهها. لا بد أن تشيتاتشي وأمها قد تبادلتا النميمة عن السيارة، فقد كانتا حسودتين وثرثارتين تزوران الآخرين لرؤية ما يملكون فقط، ولتفحص الأثاث الجديد أو الأجهزة الإلكترونية الجديدة.

«ليبارك الرب الرجل. بالنسبة لي آمل أن ألتقي أيضًا بعراب عندما أتخرج»، قالت تشيتاتشي، وحنقت إفيملو لهمزها. إلا أن ذلك كان خطأ أمها، أن تحكي للجيران بلهفة حكاية عرابها. ما كان عليها أن تفعل، فلم يكن ما فعلته العمة أوجو يعني أحدًا. سمعتها إفيملو كثيرًا وهي تقول لأحدهم في الفناء الخلفي «كما ترى، لقد أراد الجنرال أن يصبح طبيبًا في شبابه، ولهذا فإنه يساعد الأطباء الشباب، إن الرب يسخره حقًا في حياة الناس». وتبدو صادقة، ومبتهجة ومقنعة. وقد صدقت كلماتها، ولم تستطع إفيملو فهم قدرة أمها على إخبار نفسها بحكايات عن واقعها لم تمثل واقعها. حين أخبرتهم العمة أوجو عن عملها الجديد أول مرة: «لم يكن في المستشفى شواغر، لكن الجنرال جعلهم يخلقون واحدًا من أجلي» حسب قولها، قالت أم إفيملو على الفور «هذه معجزة!»

ابتسمت العمة أوجو، ابتسامة هادئة أدامت صمتها، فلم تر أنها معجزة بطبيعة الحال، لكنها ما كانت لتقول ذلك. أو لعل في عملها الجديد شيء من المعجزة بوصفها مستشارة في المستشفى العسكري في فكتوريا آيلند، ومنزلها الجديد في مجمع دولفين، مجمع الشقق المزدوجة الذي اكتسى بطراز أجنبي حديث، طُليَ بعضه بالزهريّ، وبعضه الآخر بالأزرق السماوي الدافئ، يطوقه متنزه ذو عشب مخضر مثل بساط جديد، ومقاعد يمكن للناس الجلوس عليها، فكل ذلك نادر على الجزيرة. قبل أسابيع قليلة، كانت حديثة التخرج وكل زملائها في الدراسة يتحدثون عن السفر للخارج لاجتياز امتحانات الطب الأمريكية أو البريطانية، لأن الخيار الآخر هو الانهيار في أرض يباب ظمأى من العطالة. فالبلاد تتضوّر أمَلًا، والسيارات تظل عالقة لأيام في صفوف الوقود الطويلة المرهقة، والمتقاعدون يرفعون لافتات ذاوية للمطالبة بأجورهم، وأساتذة الجامعات يتجمعون لإعلان إضراب آخر. لكن العمة أوجو لم ترغب بالمغادرة، فقد حلمت، بقدر ما يمكن لإفيملو أن تتذكر، بامتلاك عيادة خاصة، وتمسكت بهذا الحلم بقوة.

«لن تكون نيجيريا هكذا إلى الأبد. أنا واثقة أنني سأعثر على عمل بدوام جزئي وسيكون شاقًا. هذا صحيح، ولكني سأفتتح عيادتي الخاصة يومًا ما، وفي الجزيرة!»، قالت العمة أوجو لإفيملو. ثم ذهبت إلى حفل زفاف صديقة. كان والد العروس لواءً

طيارًا، وأشيع أن رئيس الدولة قد يحضر، ومزحت العمة أوجو بقولها إنها ستطلب منه أن يجعلها طبيبة في آسو روك. لم يحضر الرئيس، لكن العديد من ضباطه حضروا، وطلب أحدهم من ضابطه المرافق أن يستدعي العمة أوجو، ليطلب منها الحضور إلى سيارته في موقف السيارات بعد حفل الاستقبال. وحين وصلت إلى السيارة الداكنة من طراز بيجو التي تحمل علمًا صغيرًا يرفرف على مقدمتها، وقالت «مساء الخير يا سيدي» للرجل الجالس في الخلف، قال لها «إنك تعجبيني، وأود أن أعتني بك». خطر لإفيملو أن في هذه الكلمات شيئًا من المعجزة: **تعجبيني، وأود الاعتناء بك**، ولكن ليس بالطريقة التي قصدتها أمها. «معجزة! الرب صادق!»، قالت أمها ذلك اليوم وعيناها تفيضان بالإيمان.

—

قالت بنبرة مألوفة: «الشيطان كاذب. يريد أن يبدأ بتثبيط نعمنا. لكنه لن ينجح»، حين خسر والد إفيملو عمله في الوكالة الفدرالية. فقد طرد لرفضه مناداة رئيسته الجديدة بأمي. عاد إلى المنزل في وقت أبكر من المعتاد، محطمًا من الإنكار المرير، ورسالة إنهاء خدماته في يده، متذمرًا من عبثية أن يدعو رجل بالغ امرأة بالغة بالأم، لأنها قررت أن هذه هي الطريقة المثلى لإظهار الاحترام. قال»اثنا عشر عامًا من العمل المخلص. ذلك ظلم». وربتت أمها على ظهره، وأخبرته أن الرب سيمنحه عملًا آخر، وحتى ذلك الوقت سيتدبرون أمرهم اعتمادًا على أجرها بوصفها نائبة مدير مدرسة. كان يخرج كل صباح بحثًا عن عمل، صارًّا أسنانه وعاقدًا ربطة عنقه بإحكام، وتساءلت إفيملو إن كان يكتفي بدخول شركات عشوائية ليجرب حظه، لكن سرعان ما بدأ يمكث في البيت مرتديًا قميصًا تحتيًا وإزارًا، ضاحكًا على الأريكة البالية قرب جهاز الستريو. «ألم تستحم صباحًا؟» سألته أمها ذات عصر، حين عادت من عملها وهي تبدو مستنزفة، تمسك بملفات قرب صدرها، وتظهر بقعتان رطبتان تحت إبطيها. ثم أضافت بانزعاج «إن كان عليك أن تنادي احداهن أمي للحصول على راتبك، فعليك أن تفعل إذًا!»

لم يقل شيئًا لوهلة، وبدا ضائعًا، منكمشًا وضائعًا. وشعرت إفيملو بالأسى من أجله، فسألته عن الكتاب الموضوع مقلوبًا في حِجره، بدا كتابًا مألوفًا تعرف أنه

قرأه سابقًا. وأملت أن يبدأ معها واحدًا من أحاديثه الطويلة عن شيء ما مثل تاريخ الصين، وستصغي إليه جزئيًا كعادتها، وهي تبهجه. لكنه لم يكن في مزاج يسمح بالكلام، لقد ابتسم وكأنه يقول إن بوسعها النظر بنفسها إلى الكتاب إن أرادت ذلك. لقد جرحته كلمات أمها بسهولة شديدة. وصار حذرًا جدًا معها، وأذناه تصغيان لصوتها دومًا، وعيناه تستقران عليها. مؤخرًا، قبل أن يُفصل، قال لإفيملو «حالما أحصل على ترقيتي سأشتري لأمك شيئًا لافتًا»، وحين سألته ما هو، ابتسم وقال بغموض «ستعرفين حينئذٍ».

فكرت وهي تنظر إليه جالسًا بصمت على الأريكة، كم يبدو مثلما كان، رجلًا ذا رغبات باهتة، موظّفًا مدنيًا متوسط الثقافة أراد حياة مختلفة عن حياته، وتاق لتعليم أكثر مما استطاع الحصول عليه. وكثيرًا ما تحدث عن كونه لم يتمكن من ارتياد الجامعة لأنه اضطر للعثور على عمل لإعالة إخوته، وأن أشخاصًا يفوقهم ذكاء في المدرسة الثانوية حصلوا على شهادة الدكتوراه. كانت ميزته في الإنجليزية الراقية الرسمية. ونادرًا ما فهمته خادمات المنزل لكنهن أعجبن به جدًا. ومرة دخلت خادمتهم السابقة جسينتا إلى المطبخ وأخذت تصفق بهدوء، وقالت لإفيملو «عليك أن تسمعي كلمات أبيك الكبيرة! رائعة!». تخيلته إفيملو أحيانًا في صف مدرسي في الخمسينيات، مثل أحد رعايا الاستعمار المتعصبين للغاية، يرتدي زيًا مدرسيًا ضيقًا من القطن الرخيص، وينافس لإثارة إعجاب مدرسيه المبشرين. وكان متأنقًا حتى في خط يده بكل انحناءات الحروف وذيولها المزخرفة، باتساق أنيق للحد الذي تبدو فيه مطبوعة. وبخ إفيملو حين كانت طفلة لأنها حرون متمردة عنيدة، بكلمات جعلت أفعالها الصغيرة تبدو ملحمية وجديرة بالفخر غالبًا. لكن إنجليزيته المتكلفة أزعجتها حين كبرت، لأنها قناع، لأنها درعه ضد الخوف. لقد كان مسكونًا بما افتقر إليه- بالدرجة الجامعية، وحياة الطبقة الراقية- ولذلك صارت كلماته المؤثرة درعه. آثرت حديثه بالإيبو، فقد كان ذلك الوقت الوحيد الذي يبدو فيه غافلًا عن توتراته الخاصة.

جعله فقدان عمله أكثر هدوءًا، ونشأ جدار رقيق بينه وبين العالم. لم يعد يهمهم بقول «شعب متملق عنيد»، حين تبدأ الأخبار الليلية على قناة إن تي أي ، ولم

يعد يسرد مناجاة طويلة عن تحويل حكومة نابانغيدا النيجيريين إلى حمقى طائشين، ولم يعد يضايق أمها. وعلاوة على ذلك، بدأ بالانضمام لصلوات الصباح. لم يسبق له أن فعل، وقد أصرت أمها مرة عليه ليفعل، قبل مغادرتهم لزيارة بلدتهم الأم. «دعنا نُصلّي ونغطي الطرق بدم المسيح»، قالت، وأجاب بأن الطرق ستكون أكثر أمانًا وأقل انزلاقًا إن لم تتغط بالدم، وهذا ما جعل أمها تتجهم وإفيملو تضحك وتضحك.

ما زال لا يتردد على الكنيسة رغم ذلك. اعتادت إفيملو العودة إلى البيت من الكنيسة مع أمها لتجده جالسًا على الأرض في غرفة المعيشة، يدقق في كومة إسطواناته ويغني مع أغنية في جهاز الستريو. كان يبدو نشطًا ومرتاحًا دومًا، كأن البقاء وحيدًا مع موسيقاه قد أفعمه بالقوة. غير أنه لم يستمع إلى الموسيقى بعد خسارته لعمله إلا نادرًا. عادتا إلى البيت ورأتاه جالسًا إلى طاولة الطعام، منكبًا على صفحات متفرقة، يكتب رسائل للصحف والمجلات. وعرفت إفيملو أنه سيدعو رئيسته بالأم إن أعطي فرصة ثانية.

—

كان الوقت باكرًا من صباح الأحد، وأحدهم يخبط على الباب الأمامي. أحبت إفيملو أصباح الأحد، والمرور البطيء للوقت، حين ترتدي ثيابها للذهاب إلى الكنيسة وتجلس في غرفة المعيشة مع أبيها بانتظار أن تستعد أمها. كانا يتحدثان أحيانًا، هي وأبوها، وفي أوقات أخرى يظلان صامتين، صمتًا مشتركًا ومريحًا، كما فعلا هذا الصباح. من المطبخ، كان طنين الثلاجة الصوت المسموع الوحيد، حتى قرع الباب، في مقاطعة وقحة. فتحته إفيملو ورأت مالك المنزل واقفًا هناك، رجل ممتلئ الجسم ذو عينين محمرتين جاحظتين، قيل إنه يبدأ نهاره بكأس من الجن القوي. نظر خلف إفيملو إلى والدها وصاح: «إنها ثلاثة أشهر الآن! ما زلت بانتظار نقودي!» كان صوته مألوفًا لإفيملو، وذلك الصراخ الصفيق الذي يأتي دومًا من شقق الجيران، من مكان آخر، لكنه الآن هنا في شقتهم، وقد ضايقها المشهد، فالمالك يصرخ عند بابهم، ويدير والدها وجهًا صامتًا صلبًا له. لم يسبق لهم أن كانوا مدينين بالإيجار، لقد عاشوا في هذه الشقة طوال حياتها. كانت شقة ضيقة وجدران المطبخ اسودت من دخان الكيروسين، تشعرها بالحرج كلما جاء أصدقاؤها في المدرسة لزيارتها، ولكن لم يسبق

لهم ألا يسددوا الإيجار أبدًا.

«يا له من رجل متبجح!»، قال أبوها عندما غادر المالك، ولم يقل شيئًا آخر بعدها. ليس من شيء آخر لقوله، لم يسددوا الإيجار.

ظهرت أمها تغني مضمخة بالعطر، ووجهها جاف ولامع من البودرة التي كانت أفتح من لون بشرتها بدرجة واحدة. ومدت معصمها نحو والد إفيملو، وتدلى سوارها الذهبي الرفيع مفتوحًا.

«ستأتي أوجو بعد الكنيسة لاصطحابنا لرؤية البيت في حي دولفين»، قالت أمها، «هل ستلحق بنا؟»

«لا»، قال باختصار وكأن حياة العمة أوجو الجديدة موضوع يفضل تفاديه.

«عليك أن تأتي»، قالت لكنه لم يجب، حين أغلق السوار حول معصمها بحذر وقال إنه تفحص الماء في سيارتها.

«الرب صادق. انظر إلى أوجو، التي صارت تستطيع الدفع لبيت في الجزيرة!»، قالت أمها بسعادة.

«أمي، لكنك تعلمين أن العمة أوجو لا تدفع كوبو واحدًا للعيش هناك»، قالت إفيملو.

نظرت أمها إليها، «هل كويت هذا الثوب؟»

«ليس بحاجة للكي».

«إنه مجعد. اذهبي واكويه بسرعة. ما دامت الكهرباء موصولة، أو بدليه بشيء آخر».

نهضت إفيملو معترضة «هذا الثوب ليس مجعدًا».

«اذهبي واكويه. لا داعي لأن نظهر للعالم صعوبة أمورنا. ليس وضعنا هو الأسوأ. اليوم هو أحد العمل مع الأخت إبنابو، لذا أسرعي ولنذهب».

—

كانت الأخت إبنابو قوية، ولأنها تتظاهر بارتداء قوتها بخفة، جعلها ذلك أكثر قوة. كان القس، كما قيل، يفعل ما تطلبه منه. ولم يكن السبب واضحًا، وقال البعض إنها أسست الكنيسة معه، وقال آخرون إنها تعرف سرًا رهيبًا من ماضيه،

فيما قال آخرون إنها ببساطة تتمتع بقوى روحانية أكثر منه، ولكن ليس بمقدورها أن تكون راعية لأنها امرأة. كان بإمكانها منع الموافقة الكنسية على زواج إن أرادت ذلك، وهي تعرف الجميع وكل شيء، وبدا أنها في كل مكان في الوقت نفسه، بهيئتها التي سفعها الطقس، وكأن الحياة ألقت بها منذ وقت طويل. كان تخمين عمرها أمرًا صعبًا، في الخمسين أو الستين، فقد بدا جسدها نحيلًا، ووجهها مُغلقًا مثل قوقعة. لم تضحك أبدًا لكنها تبتسم كثيرًا، وجلبوا لها هدايا صغيرة، وقدموا بناتهم لها بحماس للعمل يوم الأحد. الأخت إبنابو، مخلّصة الإناث. طُلب منها التحدث إلى الفتيات المزعجات والمكدرات. وسألت بعض الأمهات إن كان بإمكان بناتهن العيش معها في الشقة الواقعة خلف الكنيسة. لكن إفيملو شعرت دومًا، في الأخت إبنابو، ببغضاء جياشة محفورة عميقًا للفتيات الصغيرات. لم تحبهن الاخت إبنابو، بل اكتفت بمراقبتهن وتحذيرهن، وكأنها تشعر بالإهانة من وجود شيء فيهن لم يزل طريًا، وقد يبس فيها منذ زمن طويل.

«رأيتك ترتدين بنطالًا ضيقًا السبت الماضي»، قالت الأخت إبنابو لفتاة تدعى كريستي، بهمس مرتفع، منخفض بما يكفي للتظاهر أنه همس، لكنه عالٍ كفاية ليسمعه الجميع. «كل شيء مباح، لكن ليس كل شيء نافعًا. أي فتاة ترتدي بنطالًا ضيقًا ترغب بارتكاب خطيئة الإغواء. من الأفضل تجنبها».

هزت كريستي رأسها موافقة، بذل وتهذيب، حاملة عارها.

في الغرفة الخلفية من الكنيسة، لم تسمح النافذتان الصغيرتان بدخول الكثير من الضوء، لذا كان المصباح الكهربائي مُنارًا طوال النهار. كومت أظرف التبرعات على الطاولة، وبقربها كومة من المناديل الملونة، مثل قماش رقيق. أخذت الفتيات ينظمن أنفسهن. سريعًا، بدأت بعضهن بالكتابة على المغلفات، وأخريات يقصصن قطعًا من المناديل ويلففنها، ويلصقنها بأشكال الزهور، ويربطنها بهيئة أكاليل منفوشة. الأحد التالي، في قداس خاص في عيد الشكر، ستُعلّق الأكاليل حول الرقبة الثخينة للزعيم أومينكا والأعناق الأصغر لأفراد عائلته. لقد تبرع بشاحنتين جديدتين للكنيسة.

«انضمي إلى تلك المجموعة يا إفيملو»، قالت الأخت إبنابو .

طوت إفيملو ذراعيها، وكما يحدث كثيرًا أوشكت أن تقول شيئًا عرفت أنه لا

يجدر بها قوله. ثم اندفعت الكلمات في حلقها «لمَ يتعيّن علي صنع زينة من أجل لص؟»

حدقت الأخت إبنابو في ذهول، وخيم الصمت، ونظرت الفتيات الأخريات بترقب.

«ماذا قلت؟»، سألت الأخت إبنابو بسرعة، مانحة إفيملو فرصة للاعتذار، ولتعيد الكلمات إلى فمها ثانية. لكن إفيملو شعرت بنفسها عاجزة عن التوقف، فأخذ قلبها يدق، مندفعًا على درب للحركة السريعة.

«الزعيم أومينكا محتال والجميع يعرف ذلك»، قالت، «وهذه الكنيسة تغص بالرجال المحتالين. لم علينا التظاهر أن هذه القاعة لم تبنَ بمال قذر؟»

«هذا عمل الرب»، قالت الأخت إبنابو بهدوء، «إن كنت لم تستطيعي القيام بعمل الرب فاذهبي، اذهبي».

أسرعت إفيملو بالخروج من الغرفة واجتازت البوابة نحو محطة الحافلات، موقنة أن القصة ستصل إلى أمها في غضون دقائق داخل المبنى الرئيس للكنيسة. لقد أفسدت اليوم. إذ كانتا ستذهبان لرؤية منزل العمة أوجو وتناول غداء لطيف. لكن أمها ستكون الآن حانقة ونزقة. تمنت لو أنها لم تقل شيئًا، فقد انضمت في الماضي لصنع الأكاليل لرجال محتالين آخرين، رجال لهم مقاعد خاصة في الصفوف الأمامية، رجال تبرعوا بسيارات بالسهولة نفسها التي يتخلص بها الناس من العلكة. لقد حضرت استقبالاتهم بسعادة، وأكلت الأرز واللحم وسلطة الكولسلو، الطعام الذي يلوثه الاحتيال، وقد أكلت وهي تعلم بهذا ولم تغص، ولم تفكر بالغصة أصلًا. ومع ذلك، ثمة أمر مختلف اليوم. حين تحدثت الأخت إبنابو إلى كريستي، بضغينة مسمومة زعمت أنها إرشاد ديني، نظرت إفيملو إليها ورأت فجأة شيئًا ما من أمها. كانت أمها شخصًا ألطف وأبسط، لكنها مثل الأخت إبنابو، شخص ينكر وجود الأشياء كما هي، شخص يتعين عليه بسط عباءة الدين على رغباته الخاصة الوضيعة.

وفجأة، غدا آخر ما أرادته إفيملو أن تكون في غرفتها الصغيرة المكتظة بالظلال. لقد كان كل شيء يبدو لطيفًا من قبل، إيمان أمها المغمور كله بالرحمة، وفجأة لم يعد كذلك. تمنت بسرعة، لو أن أمها لم تكن أمها، ولم تشعر بالذنب والحزن حيال هذا، بل كانا شعورًا واحدًا، مزيجًا من الذنب والحزن.

كانت محطة الحافلات فارغة على نحو غريب، وتصورت أن كل الناس الذين كانوا سيحتشدون هنا هم في الكنائس الآن، يغنون ويصلون. انتظرت الحافلة، مترددة بين الذهاب للبيت أو إلى مكان آخر لتنتظر لوهلة. كان من الأفضل الذهاب للبيت، ومواجهة ما عليها مواجهته أيًا كان.

—

شدت أمها أذنها، بقرصة لطيفة قليلًا، وكأنها تنفر من التسبب بألم حقيقي. كانت تفعل هذا منذ طفولة إفيملو. «سأضربك!»، تقول حين ترتكب إفيملو خطأ ما، لكنها لم تضربها قط. تشد شحمة الأذن فقط، وها قد جذبتها مرتين الآن، مرة تلو أخرى لتؤكد كلماتها «الشيطان يستغلك. عليك أن تصلي لهذا. لا تحكمي، دعي الحكم للرب!»

قال أبوها «عليك الإحجام عن نزعتك المعتادة في الاستفزاز يا إفيملو، لقد جعلت نفسك وحيدة في المدرسة لأنك معروفة بالتمرد. ولقد أخبرتك أن ذلك قد لطخ سجلك الدراسي الفريد مسبقًا. لا داعي لخلق نمط مماثل في الكنيسة».

«حاضر يا أبي».

حين وصلت العمة أوجو، أخبرتها أم إفيملو بما حدث. «اذهبي وتحدثي إلى إفيملو. أنت الشخص الوحيد الذي تصغي إليه. اسأليها ما الذي فعلته بها وجعلها ترغب بإحراجي في الكنيسة هكذا. لقد أهانت الأخت إبنابو! هذا مثل إهانة القس! لمَ يتعين على هذه الفتاة أن تكون مشاغبة؟ قلت دومًا، من الأفضل لو أنها ولد يتصرف على هذا النحو».

«أختي، تعرفين أن مشكلتها في جهلها دومًا متى عليها إبقاء فمها مغلقًا. لا تقلقي، سأتحدث إليها». قالت العمة أوجو، ممارسة دور الوسيط، مهدئة زوجة ابن عمها. كانت تنسجم دومًا مع أم إفيملو، في علاقة مريحة بين شخصين يتجنبان بحرص الأحاديث العميقة. لعل العمة أوجو شعرت بالامتنان لأم إفيملو لاحتضانها وقبولها على أنها القريبة المقيمة المميزة. ولم تشعر إفيملو، أثناء نموها، أنها طفلة وحيدة، بسبب أبناء العمومة والعمات والأعمام الذين عاشوا معهم. ففي الشقة دومًا أكياس وحقائب سفر، وقد ينام قريب أو اثنان على أرض غرفة المعيشة لأسابيع، وهم في

معظمهم من أقرباء أبيها، جيء بهم إلى ليغوس ليتعلموا حرفة، أو يرتادوا المدرسة أو يبحثوا عن عمل، حتى لا يتحدث هؤلاء حين يعودون إلى القرية بسوء عن أخيهم الذي له طفلة واحدة ولا يريد أن يساعد في تربية آخرين. شعر والدها بالتزام نحوهم، وألح على الجميع أن يكون في البيت قبل الثامنة مساء، وحرص على أن يكون الطعام كافيًا للجميع، وأقفل باب غرفة نومه حتى إن ذهب إلى الحمام، لأن أيًا منهم قد يتجول ويسرق شيئًا. لكن العمة أوجو كانت مختلفة، فهي شديدة الذكاء ولا ينبغي أن تضيع في تلك المناطق النائية كما قال. لقد سماها أخته الصغرى رغم أنها ابنة عمه، وقد كان أكثر صونًا وأقل تحفظًا معها. كلما صادف إفيملو والعمة أوجو ملتفتين في الفراش تتحدثان، قال بحب «أنتما الاثنتان». بعد أن رحلت العمة أوجو لتذهب للجامعة في إبادان، قال لإفيملو، بشيء من الحزن «لقد تركت أوجو أثرًا بارزًا فيك»، إذ رأى في تقاربهما دليلًا على خياره الصائب، وكأنه جلب متعمدًا هدية لعائلته، كأنه جلب دارئًا بين زوجته وابنته.

وهكذا، قالت العمة أوجو لإفيملو في غرفة النوم «كان عليك أن تكتفي بصنع الإكليل. أخبرتك أنك لست مضطرة لقول كل شيء، عليك أن تتعلمي هذا، ليس عليك قول كل شيء».

«لماذا لا يمكن لأمي أن تحب الأشياء التي يمنحها الجنرال لك دون الادعاء أنها من الرب؟»

«من قال إنها ليست من الرب؟»، سألت العمة أوجو، وصنعت تعبيرًا على وجهها، وقلبت شفتيها للأسفل، فضحكت إفيملو.

وفقًا لأسطورة العائلة، كانت إفيملو في الثالثة من عمرها تصرخ إن اقترب منها غريب، لكنها حين رأت العمة أوجو لأول مرة، وهي فتاة في الثالثة عشرة وذات وجه مبثر، مشت نحوها وتسلقت حجرها وظلت هناك. لا تعرف إن حدث ذلك، أو أصبح حقيقة فقط جرّاء تكراره مرة تلو أخرى. كانت حكاية فاتنة عن بداية تقاربهما، وكانت العمة أوجو هي من تخيط ثياب إفيملو حين كانت صغيرة، وحين كبرت، كانتا تمعنان النظر في مجلات الأزياء، منتقيتين النماذج معًا. علمتها العمة أوجو أن تسحق ثمرة الأفوكادو وتمددها على وجهها، وأن تذيب مسحوق روب في ماء

ساخن وتقرب وجهها من البخار، وأن تجفف البثور باستخدام معجون الأسنان. جلبت لها العمة أوجو روايات جيمس هادلي تشيس[14] ملفوفة بورق الصحف؛ لإخفاء النساء شبه العاريات على الغلاف، وجففت شعرها بمجفف الشعر حين انتقل لها القمل من الجيران، وتحدثت إليها أثناء دورتها الشهرية الأولى، وأكملت محاضرة أمها المفعمة بالاقتباسات من الكتاب المقدس عن الفضيلة لكنها تفتقر للمعلومات المفيدة عن الفوط الصحية والطمث. حين التقت إفيملو بأوبنز، أخبرت العمة أوجو أنها عثرت على حب حياتها، وأخبرتها العمة أوجو أن تسمح له بتقبيلها ولمسها، دون أن تسمح له بوضع شيئه في الداخل.

14) (1906-1983) كاتب إنجليزي اشتهر بالروايات الرومانسية والبوليسية.

الفصل الرابع

قررت الآلهة والأرباب المُحَوّمون الذين يمنحون حب المراهقة ويأخذونه، أن يخرج أوبِنز مع جينيكا. كان أوبِنز الفتى الجديد، ولدًا وسيمًا رغم قصره. وقد انتقل من ثانوية الجامعة في نسوكا، وبعد أيام قليلة فقط، عرف الجميع بأمر الشائعات المنتشرة عن أمه. لقد تشاجرت مع رجل، أستاذ آخر في نوسكا، شجارًا حقيقيًا فيه لكم وضرب، وفازت أيضًا، ومزقت ثيابه، فأوقفت عن العمل لعامين واضطرت للانتقال إلى ليغوس حتى تتمكن من العودة. كانت قصة غريبة، إذ تتشاجر نساء السوق، وتتشاجر المجنونات، لكن ليس الأستاذات. جعل أوبِنز بهيئته الهادئة واستبطانيته الأمرَ أكثر إثارة للفضول. لقد انضم سريعًا إلى زمرة المتبجحين، من الذكور الجذابين بلا اكتراث، عصبة الرجال الكبار. فيجلس في الممرات معهم، ويقف معهم آخر القاعة أثناء الطابور. لم يكن أي منهم يدخل قميصه في بنطاله، ولذا تعرضوا للمتاعب، متاعب طريفة مع المدرسين، لكن أوبِنز يأتي إلى المدرسة كل يوم وقميصه مثني للداخل وسرعان ما أخذ الرجال الكبار يفعلون ذلك أيضًا، حتى كِيود داسيلفا، أكثرهم جاذبية.

أمضى كِيود كل إجازة في منزل والديه في إنجلترا، الذي بدا كبيرًا وباردًا في الصور التي شاهدتها إفيملو. كانت خليلته ينكا مثله؛ تذهب إلى إنجلترا كثيرًأو تعيش في إكويي وتتحدث بلكنة بريطانية. وكانت الفتاة الأكثر شعبية في صفهم، وحقيبتها

مصنوعة من الجلد السميك الموسوم بأحرف اسمها، وتختلف صنادلها دومًا عما ترتديه الأخريات. وكانت جينيكا صديقة إفيملو المقربة ثاني أكثر الفتيات شعبية. ولم تسافر جينيكا إلى الخارج كثيرًا، ولهذا لم يكن لها هيئة المغتربين مثل بِنكا، ولكن لها بشرة بلون الكراميل، وشعر متموج ينحدر على عنقها ما لم يكن مضفورًا، بدلًا من أن ينتصب مثل اللبدة. وقد انتخبت كل سنة بوصفها الفتاة الأجمل في صفهم، فتقول بسخرية: «هذا لأني مختلطة العرق، كيف لي أن أكون أجمل من زينب؟»

وكانت السيرورة الطبيعية للأحداث أن توفّق الآلهة بين أوبِنز وجينيكا. أقام كِيود حفلة سريعة في منزلهم المخصّص للضيوف حين كان والداه في لندن. وقال لجينيكا: «سأعرفك على صديقي ذا زد في الحفلة». «ليس سيئًا»، قالت جينيكا باسمة.

«آمل ألا يكون قد ورث جينات الشجار من أمه»، ضايقتها إفيملو.

كان من اللطيف رؤية جينيكا مهتمة بشاب، فقد حاول كل الرجال الكبار في المدرسة تقريبًا معها ولم يستمر أحدهم لوقت طويل، لكن أوبِنز بدا هادئًا ورفيقًا مناسبًا.

وصلت إفيملو وجينيكا معًا، والحفلة لم تزل في بدايتها، وساحة الرقص خاوية، والفتية يركضون في الأنحاء حاملين أشرطة الكاسيت، ولم يذب الخجل والغربة بعد. تتخيّل إفيملو كلّما زارت منزل كِيود كيف تبدو الحياة هنا في إكويي، في منزل أنيق ساحته مفروشة بالحصى و فيه خدم يرتدون الأبيض.

«انظري إلى كِيود ومعه الفتى الجديد»، قالت إفيملو.

«لا أريد النظر»، قالت جينيكا، «هل هما قادمان؟»

«أجل».

«حذائي ضيق للغاية».

«يمكنك الرقص بحذاء ضيق»، قالت إفيملو.

كان الفتيان أمامهما، وبدا أوبِنز شديد التأنق، مرتديًا سترة سميكة من القطيفة، في حين ارتدى كِيود قميصًا قصير الأكمام وبنطال جينز.

«مرحبًا يا حلوتيّ!»، قال كِيود. كان طويلًا وممشوقًا، له أسلوب الأثرياء البسيط. «جينيكا، أقدم لك صديقي أوبِنز، هذه جينيكا يا زِد، الملكة التي خلقها الرب

من أجلك إن كنت مستعدًا للعمل من أجل ذلك!» وقد تصنع الابتسام، فقد كان ثملًا قليلًا، فالفتى الذهبي يصنع توافقًا ذهبيًا.

«مرحبًا»، قال أوبِنز لجينيكا.

«هذه إفيملو»، قال كِيود، «وتعرف أيضًا بِاسم إفمسكو. إنها ذراع جينيكا اليمنى. فإن أسأت التصرف جَلَدَتْك». وضحكوا جميعًا على عباراته.

«مرحبًا»، قال أوبِنز، والتقت عيناه بعيني إفيملو ومكثتا وتاقتا.

تحدث كِيود بهمس، مخبرًا أوبِنز أن أبوي جينيكا أستاذان جامعيان أيضًا، «ولذا فإن كليكما كُتُبيّان»، قال كِيود. كان على أوبنز أن يبادر ويتحدث إلى جينيكا، ثم يغادر كِيود، فتتبعه إفيملو، فتتحقق إرادة الآلهة. لكن أوبِنز قال القليل، واضطر كِيود أن يواصل الحديث، وأخذ صوته يهتاج وهو ينظر بين الفينة والأخرى إلى أوبِنز، كأنه يحضه على المتابعة. لم تكن إفيملو واثقة متى حدث الأمر، لكن في تلك اللحظات، حين تحدث كِيود، حدث شيء غريب. ثمة إثارة داخلها، أو تجلٍ. وأدركت فجأة أنها أرادت أن تتنفس الهواء ذاته الذي يتنفسه أوبِنز، وصارت واعية بدقة للحاضر أيضًا، للآن، لصوت توني بركستن المنبعث من جهاز المسجل: *سواء أكان سريعًا أم بطيئًا، فهو لا يرحل أو يهزني*. ورائحة البراندي الخاص بوالد كِيود، التي تسللت من المنزل الرئيس، والقميص الأبيض الضيق الذي قرّح إبطيها. جعلتها العمة أوجو تعقده في ربطة فراشة متدلية عند سرتها، وأخذت تتساءل إن كان أنيقًا حقًا أم أنها تبدو سخيفة.

توقفت الموسيقى بشكل مفاجئ، فقال كِيود أنا قادم، وذهب ليعرف المشكلة، وفي الصمت الجديد، عبثت جينيكا بالسوار المعدني الذي طوق معصمها. والتقت عينا أوبِنز بعيني إفيملو ثانية.

«ألا تشعر بالحر وأنت ترتدي هذه السترة؟»، سألت إفيملو. خرج السؤال قبل أن تتمكن من كبح نفسها، فقد اعتادت على شحذ كلماتها، ورؤية الخوف في عيون الفتية، لكنه ابتسم. إذ بدا مستمتعًا، ولم يخشها.

«أشعر بالحر كثيرًا»، قال، «لكني فتى من الأرياف وهذه أول حفلة أحضرها في المدينة، لذا عليك أن تغفري لي». ببطء خلع سترته، الخضراء والمبطنة عند المرفقين،

التي ارتدى تحتها قميصًا بأكمام طويلة، «والآن علي حمل السترة معي أينما ذهبت».

«يمكنني حملها من أجلك»، اقترحت جينيكا، «ولا تكترث لإفيم، فالسترة جميلة».

«شكرًا، ولكن لا تقلقي، علي حملها عقابًا على ارتدائها في المقام الأول»، ونظر إلى إفيملو بعينين متلألئتين.

«لم أقصد هذا»، قالت إفيملو، «لكن هذه الغرفة حارة وهذه السترة تبدو ثقيلة».

«يعجبني صوتك»، قال مقاطعًا إياها تقريبًا.

أما هي، التي لم تشعر بالتيه قط، قالت بصوت خفيض: «صوتي؟»

«أجل».

بدأت الموسيقى، «هلا رقصنا؟»

فهزت رأسها موافقة.

أخذ يدها وابتسم عندها لجينيكا، وكأنه يبتسم لناظورة انتهت مهمتها. خطر لإفيملو أن رومانسيات ميلز وبون سخيفة، وقد مثلتها هي وصديقاتها أحيانًا، وتلعب إفيملو أو رانينودو دور الرجل، وجينيكا أو بري دور المرأة: يجذب الرجل المرأة، فتعترض المرأة اعتراضًا واهنًا، ثم تنهار أمامه ببكاء حاد، وتنفجرن جميعًا ضاحكات. ولكن على أرضية ساحة الرقص المكتظة لحفلة كِيود، أربكتها حقيقة صغيرة في هذه الرومانسيات. لقد كان صحيحًا حقًا أنه بسبب ذكر، قد تتصلب معدتك وترفض تطرية نفسها، ويمكن لمفاصل جسدك أن تتصلب، وتعجز أطرافك عن الحركة مع الموسيقى، وتصبح كل الأشياء اللا إرادية فجأة موجهة. رأت جينيكا بطرف عينها، وهي تتحرك بتوتر، وتراقبهما، وتعبيرها ذاهلٌ، فالفم منفرج قليلًا، وكأنها لم تصدق ما حدث.

«لقد قلت فتى من الأرياف»، قالت إفيملو وصوتها أعلى من الموسيقى.

«ماذا؟»

«لا أحد يقول فتى من الأرياف، هذا أمر تقرأه في الكتب».

«عليك أن تخبريني ما الكتب التي تقرأينها».

كان يغيظها، ولم تفهم المزحة تمامًا، لكنها ضحكت على أية حال. لاحقًا، تمنت لو أنها تذكرت كل كلمة قالاها لبعضهما وهما يرقصان. وتذكرت، عوضًا عن ذلك، شعورها بالهيام. حين أطفئت المصابيح وبدأ رقص البلوز، رغبت أن تكون بين ذراعيه في زاوية مظلمة، لكنه قال «لندخل ونتحدث».

جلسا على قرميدات خرسانية خلف منزل الضيوف، قرب ما بدا مثل دورة مياه الحارس، وهي مقصورة ضيقة، تفوح منها رائحة البول حين تهب الريح. تحدثا وتحدثا، تائقين لمعرفة بعضهما. فأخبرها أن أباه مات حين كان في السابعة، وأنه يذكر بوضوح تعليم والده له ركوب الدراجة على شارع تحفّه الأشجار قرب سكنهما الجامعي، لكنه سيعرف مذعورًا في وقت ما، أنه لن يتذكر وجه أبيه وغمره إحساس بالخيانة، وبادر لتفحص صورة أبيه المؤطرة المعلقة على جدار غرفة المعيشة.

«ألم ترغب أمك بالزواج ثانية أبدًا؟»

«حتى لو أرادت ذلك، لا أظنها تفعل بسببي. أريدها أن تكون سعيدة، لكني لا أريدها أن تتزوج ثانية».

«سينتابني الإحساس نفسه. هل تشاجرت حقًا مع أستاذ آخر؟»

«لقد سمعت بالقصة إذًا؟»

«يقولون إن هذا سبب اضطرارها لترك جامعة نسوكا».

«لا لم تتشاجر. كانت عضوة في لجنة واكتشفوا أن هذا الأستاذ استغل الأموال واتهمته أمي علنًا فغضب وصفعها وقال إنه لا يحتمل أن تحدثه امرأة على هذا النحو. لذا نهضت أمي وأغلقت باب غرفة الاجتماعات ووضعت المفتاح في حمالة صدرها. أخبرته أنها لن تتمكن من رد الصفعة إليه لأنه أقوى منها، ولكن يتعين عليه الاعتذار علنًا، أمام الأشخاص الذين شاهدوه يصفعها، ففعل. لكنها عرفت أنه لم يكن يعني الاعتذار. قالت إنه فعلها وكأنه يقول «حسن أنا آسف إن كان هذا ما ترغبين بسماعه وأخرجي المفتاح فقط». عادت إلى البيت ذلك اليوم غاضبة فعلًا، وظلت تتحدث عن تغير الأمور، وما معنى أن يستطيع شخص ما صفع آخر ببساطة. كتبت مذكرات ومقالات عن الأمر، وتدخل اتحاد الطلبة. وقال الناس أوه لماذا صفعها وهي أرملة، وهذا ما أزعجها أكثر. قالت إنها يجب ألا تصفع لأنها كائن بشري كامل، لا

لأنها ليس لها زوج ليتحدث نيابة عنها. لذا ذهب عدد من الطالبات وطبعن عبارة كائن بشري كامل على قمصان قصيرة الأكمام، وأظن أن ذلك جعلها شهيرة. فهي في العادة شخص هادئ جدًا وليس لها أصدقاء كثر».

«ألهذا السبب جاءت إلى ليغوس؟»

«لا، لقد كان مقررًا أن تحصل على إجازة لفترة. أذكر المرة الأولى التي أخبرتني بها أننا سنسافر في إجازتها التي تبلغ سنتين، وتحمست لأني ظننت أننا مسافران إلى أمريكا، كان والد أحد أصدقائي قد ذهب لأمريكا، فقالت عندئذ إننا سنذهب لليغوس، وسألتها عن المغزى، يمكننا البقاء في نسوكا إذًا».

ضحكت إفيملو: «لكنك ما زلت بحاجة لركوب الطائرة للقدوم إلى ليغوس على الأقل».

«صحيح، لكننا جئنا برًا»، قال أوبِنز ضاحكًا، «لكني سعيد الآن أنها ليغوس وإلا ما كنت سألتقيك».

«أو تلتقي جينيكا»، قالت.

«توقفي».

«سيقتلك رفاقك. من المفترض أن تغازلها».

«أنا أغازلك».

ستذكر دومًا هذه اللحظة، وهذه الكلمات *أنا أغازلك*.

«رأيتك في المدرسة قبل وقت. حتى إنني سألت كِي عنك».

«هل أنت جاد؟»

«رأيتك تحملين كتاب جيمس هادلي تشيس، قرب المختبر، وقلت آه صحيح، ثمة أمل، إنها تقرأ».

«أظنني قرأت أعماله كاملة».

«أنا أيضًا، ما هو المفضل لديك؟»

«الآنسة شمي تلوح بالعصا».

«أما أنا فأفضل رواية تريد البقاء حيًا؟ ظللت مستيقظًا إحدى الليالي لإنهائها.»

«نعم، أحب هذه أيضًا».

«ماذا عن الكتب الأخرى؟ ما هو المفضل لديك من الكلاسيكيات؟»

«الكلاسيكيات، أيضًا؟ أفضل أدب الجريمة والإثارة، شيلدون، لدلوم، آرتشر[15]».

«لكن عليك أن تقرأي كتبًا لائقة أيضًا».

نظرت إليه، معجبة بجديته: «ولد منعّم! فتى الجامعة! لا بد أن هذا ما علمتك إياه أمك الأستاذة».

«لا، حقًّا»، صمت، «سأعطيك بعضها لتجربيها. أحب الكتب الأمريكية».

«عليك أن تقرأي كتبًا لائقة»، قلّدته.

«ماذا عن الشعر؟»

«ماذا كان آخر ما درسناه في الصف، البحار القديم؟ إنها مملة جدًا»

ضحك أوبِنز وسألت إفيملو غير مهتمة بمتابعة الحديث عن الشعر «ما الذي قاله كِيود عني إذًا؟»

«لم يقل شيئًا سيئًا، إنه يحبك».

«لا تريد أن تخبرني بما قال».

«قال إفيملو فتاة جميلة لكنها مزعجة جدًا، إنها تجادل، وتتحدث وتعترض دومًا. لكن جينيكا فتاة حلوة»، توقف ثم أضاف، «لم يعلم أن هذا بالضبط ما وددت معرفته. أنا لست مهتمًا بالفتيات شديدات اللطف».

«آها، أتهينني؟»، وكزته بغضب زائف.

أحبت دائمًا هذه الصورة عن نفسها بكونها مثيرة للمتاعب، بكونها مختلفة، ورأتها أحيانًا قوقعة تُبقيها بأمان.

«تعلمين أنني لا أهينك»، لف ذراعًا حول كتفيها وجذبها نحوه بلطف. كانت المرة الأولى التي يتلامس فيها جسداهما وشعرت أنها متصلبة. «أراك جميلة جدًا، ولكن ليس هذا فحسب، لقد بدوت الشخص الذي يفعل شيئًا لأنه يرغب بذلك، وليس لأن الجميع يفعله».

أراحت رأسها مقابل رأسه وشعرت، للمرة الأولى، بما ستشعر به كثيرًا معه،

---

15) سدني شلدون (2007-1917) كاتب أمريكي. روبرت لدلوم (1927-2001) كاتب أمريكي. جيفري آرتشر (1940) كاتب إنجليزي.

بالاعتداد بالنفس. لقد جعلها تحب ذاتها، وكانت معه على طبيعتها، وبدا جلدها بقياسه يناسبها. أخبرته كم أرادت أن يوجد الرب لكنها خشيت ألا يكون موجودًا، وكم قلقت لأن عليها أن تعرف ماذا تود أن تفعل في حياتها، لكنها لم تعرف ما أرادت دراسته في الجامعة. بدا الحديث معه عن أمور غريبة عاديًا جدًا، ولم يسبق لها أن فعلت هذا من قبل. وقد أفزعتها الثقة السريعة جدًا، والتامة جدًا رغم ذلك، والحميمية. لم يعرف أحدهما شيئًا عن الآخر قبل ساعات، ومع ذلك نشأت معرفة مشتركة بينهما في هذه اللحظات قبل أن يرقصا، وها هي تفكر الآن فقط بكل الأمور التي تود إخباره بها، وتود فعلها معه. أصبحت التماثلات في حياتيهما بشائر طيبة، أنهما طفلان وحيدان، وأعياد ميلادهما بفارق يومين، وتقع بلدتاهما الأم في ولاية أنامبرا، فهو من أبا وهي من أوموناتشي والبلدتان تبعدان دقائق فقط عن بعضهما.

«يا إلهي! يذهب أحد أعمامي إلى قريتك دائمًا!»، قال لها، «ذهبت معه عددًا من المرات. لديكم طرق مريعة يا قوم».

«أعرف أبا، والطرق فيها أسوأ».

«متى تذهبين إلى قريتك؟»

«كل عيد ميلاد».

«مرة في العام فقط؟ أذهب كثيرًا مع أمي، خمس مرات في العام على الأقل».

«لكن أراهنك أني أتحدث الإيبو أفضل منك».

«مستحيل»، قال وانتقل للحديث بالإيبو، «آما م أتو إنو. أنا أعرف الأمثال أيضًا».

«صحيح، الأساسيات التي يعرفها الجميع، لا يجري الضفدع في الظهيرة بلا هدف».

«لا، أعرف أمثالًا جادة. إن كان ثمة شيء أكبر من حفر المزرعة، فستباع الحظيرة»

«آه، هل تريد اختباري؟»، سألت ضاحكة، «حقيبة رجل الطب تحوي كل شيء».

«ليس سيئًا»، قال، «إن قتلت محاربًا في شجار محلي، ستتذكره حين تقاتل الأعداء».

تباريا في معرفة الأمثال، واستطاعت أن تُعدّد أُخرى قبل أن تستسلم، مع توقه للاستمرار.

«كيف تعرف كل هذا؟»، سألت معجبة، «لا يتحدث الكثير من الفتيان الإيبو،

ناهيك عن معرفة الأمثال».

«أكتفي بالاستماع حين يتحدث أعمامي، أظن أن أبي سيحب هذا».

كانا صامتين. انبعث دخان السجائر من مدخل منزل الضيوف، حيث تجمع بعض الأولاد. طاف ضجيج الحفلة في الهواء، الموسيقى الصاخبة والأصوات العالية والضحك الصاخب للأولاد والبنات، كلهم أكثر حرية وراحة مما سيكونون عليه في اليوم التالي.

«ألن نُقبّل بعضنا؟»، سألت.

بدا مندهشًا، «من أين أتى ذلك؟»

«كنت أسأل فقط. نحن نجلس هنا منذ وقت طويل».

«لا أريدك أن تظني أن هذا كل ما أريده».

«ماذا عما أريد؟»

«ماذا تريدين؟»

«ماذا تظن أنني أريد؟»

«سترتي؟»

ضحكت، «نعم، سترتك الشهيرة».

«لقد أخجلتني»، قال.

«هل أنت جاد؟ لأنك جعلتني أخجل».

«لا أظن أن شيئًا يخجلك»، قال.

تبادلا القُبَل، وضغطا جبينيهما ببعضهما، وأمسك كُلّ منهما يد الآخر. كانت قبلته ممتعة مُسكرة، ولا تشبه قبل صديقها السابق موفي، الذي رأت قبلاته لعابية للغاية.

حين قالت هذا لأوبِنز بعد أسابيع- قالت «أين تعلمت التقبيل إذًا؟» لأن الأمر لا يشبه أبدًا تلعثم صديقي السابق اللعابي، فضحك وكرر»تلعثم لعابي!»، ومن ثم أخبرها إنها ليست مسألة تقنية، بل عاطفة. لقد فعل ما فعله صديقها السابق لكن الاختلاف في هذه الحالة هو الحب.

«تعلمين أنه حب من النظرة الأولى لكلينا»، قال.

«لكلينا؟ هل الأمر بالإكراه؟ لماذا تتحدث بالنيابة عني؟»

«أنا أذكر حقيقة فقط، كفي عن النزاع».

جلسا متجاورين على مقعد في آخر قاعة صفه الفارغة تقريبًا. أخذ جرس نهاية الاستراحة يرن، مصلصلًا وصاخبًا.

«نعم، إنها حقيقة».

«ماذا؟»

«أنا أحبك». كم كان خروج الكلمات سهلًا وصاخبًا. لقد أرادته أن يسمع، وأرادت الأولاد الجالسين في المقدمة، المجتهدين ذوي النظارات، أن يسمعوا، وأرادت الفتيات المجتمعات في الممر خارجًا أن يسمعن.

«حقيقة»، قال أوبِنز بابتسامة.

انضم إلى نادي المناظرة من أجلها، وبعد أن تحدثت صفق أعلى وأطول من الجميع، حتى قال أصدقاؤها «أوبِنز من فضلك، هذا يكفي». ومن أجله انضمت إلى نادي الرياضة، وشاهدته يلعب كرة القدم، جالسة قرب الخطوط الجانبية وتحمل له قنينة ماء. لكنه أحب كرة الطاولة، وهو يتعرق ويصرخ أثناء اللعب، مفعمًا بالطاقة، ضاربًا الكرة البيضاء الصغيرة. وأعجبت بمهارته، بوقوفه بعيدًا عن الطاولة ونجاحه في ضرب الكرة رغم ذلك. لقد كان بطل المدرسة الذي لا يُهزم، مثلما كان في مدرسته السابقة، كما أخبرها. حين تلعب معه، يضحك ويقول «لا يمكنك الفوز بضرب الكرة بغضب!». وبسببها، سماه أصدقاؤه «زير النساء». مرة، حين كان يتحدث هو وأصدقاؤه عن اللقاء بعد المدرسة للعب كرة القدم، سأل أحدهم «هل أعطتك إفيملو الإذن بالقدوم؟»ورد أوبِنز بسرعة «نعم، لكنها قالت إن لدي ساعة فقط». أحبت إفصاحه عن علاقتهما بجسارة، مثل قميص ذي لون فاقع. وساورها القلق أحيانًا لأنها سعيدة جدًا، فتغرق في المزاجية، وتغضب من أوبِنز، أو تبتعد. ويصبح فرحها مضطربًا، ويبسط أجنحته داخلها، وكأنه يبحث عن فتحة ليطير بعيدًا.

الفصل الخامس

صارت جينيكا متحفظة بعد حفلة كِيود، ونشأ بينهما ارتباك غريب.

"تعرفين أنني لم أظن أن الأمر سيمضي هكذا"، قالت لها إفيملو. "لقد نظر إليك منذ البداية يا إفيم"، قالت جينيكا، ثم أخذت تغيظ إفيملو لسرقتها فتاها دون أدنى جهد، لتظهر أنها لا تبالي، وكان ابتهاجها مصطنعًا مبالغًا فيه. وشعرت إفيملو أنها مثقلة بالإحساس بالذنب والرغبة في المبالغة في المواساة. بدا في الأمر خطأ، أن تكون صديقتها المقربة جينيكا الجميلة المرحة المحبوبة في المدرسة التي لم تتشاجر معها يومًا، مكرهة على التظاهر بأنها لا تبالي، رغم نبرة الحزن الظاهرة في صوتها كلما تحدثت عن أوبِنز وتسألها: «هل سيكون لديك وقت اليوم لنا يا إفيم، أم أنه كله لأوبِنز؟".

وحين جاءت جينيكا إلى المدرسة ذات صباح بعينين محمرتين تحيطهما الهالات، وقالت لإفيملو «قال أبي إننا ذاهبون إلى أمريكا الشهر القادم»، شعرت إفيملو بالراحة. ستفتقد صديقتها، لكن سفر جينيكا أجبر كلتيهما على عصر صداقتهما ونشرها خارجًا في الهواء الطلق لتجف، ولتعودا إلى حيث كانتا دومًا. تحدث والدا جينيكا منذ فترة عن الاستقالة من الجامعة والبدء من جديد في أمريكا، وسمعت إفيملو مرة والد جينيكا يقول حين زارتهم «نحن لسنا خرافًا، وهذا النظام يعاملنا كالخراف، وقد أخذنا نتصرف كالخراف. لم أتمكن من إنجاز أي بحث حقيقي منذ

سنوات، لأنني أنظم الإضرابات كل يوم وأتحدث عن الأجور غير المدفوعة ونقص الطباشير من قاعات الدراسة». كان رجلًا داكنًا ضئيلًا، ويبدو أصغر قوامًا وأكثر دكنة حين يقف قرب أم جينيكا الضخمة ذات الشعر الرمادي، وله هيئة مرتبكة وكأنه يتردد دومًا بين الخيارات. حين أخبرت إفيملو والديها أن عائلة جينيكا سترحل نهائيًا، تنهد أبوها وقال «إنهم محظوظون لأن لديهم هذا الخيار على الأقل"، وقالت أمها "إنهم مباركون".

لكن جينيكا تذمرت وبكت، وهي ترسم صورًا لحياة حزينة بلا صديقات في أمريكا الغريبة. «أتمنى لو أن بمقدوري أن أعيش معكم يا رفاق وهما يسافران»، قالت لإفيملو. اجتمعت إفيملو ورانينودو وبري وتوتشي في بيت جينيكا، وكن في غرفتها ينتقين الثياب التي لن تأخذها معها.

"احرصي فقط على أن تظلي قادرة على الحديث إلينا حين تعودين يا جينيكا"، قالت بري.

"ستعود وتصبح أمريكانا[16]رزينة مثل بيسي»، قالت رانينودو.

فانفجرن بالضحك على كلمة «أمريكانا»، المغلفة بالجذل والمطوطة في المقطع الرابع منها، وعلى ذكرى بيسي الفتاة التي تصغرهن بصف، وعادت من رحلة قصيرة إلى أمريكا بحالة غريبة، مدعية أنها لا تفهم لغة اليوروبا ومضيفة حرف راء غائم لكل كلمة إنجليزية تقولها.

"ولكن يا جينيكا، حقًا، سأهب أي شيء لأكون مكانك الآن»، قالت بري، «لست أدري لم لا ترغبين بالذهاب، يمكنك العودة دومًا».

اجتمع الأصدقاء حول جينيكا في المدرسة، وقد أرادوا جميعهم أخذها إلى المقصف ورؤيتها بعد المدرسة، وكأن سفرها الوشيك قد جعلها محبوبة أكثر. جلست إفيملو وجينيكا في الممر، أثناء استراحة قصيرة، حين انضم إليهما الرجال الكبار: كِيود، وأوبنِز، وأحمد، وإمينايك وأوساهون.

"إلى أين ستذهبين في أمريكا يا جينيكا؟»، سأل إمينايك الذي يعجب دومًا بمن

---

16) هذا اللفظ الذي يعني تأمرك الشخص في نيجيريا، وفضلت إبقاءه لإشارة الكاتبة إلى ذلك في إحدى حواراتها، أنها اختارت هذا الاسم لأنه لن يتغير أيًا تكن اللغة التي يترجم إليها العمل.

يسافرون للخارج. بعد أن عاد كِيود من رحلة إلى سويسرا مع أبويه، انحنى إمينايك ليربّت على حذاء كِيود قائلًا «أود لمسه لأنه لمس الثلج».

"مِزوري"، قالت جينيكا، "حصل أبي على عمل في التدريس هناك".

"أمك أمريكية، أليس كذلك؟ لذا فإنك تملكين جواز سفر أمريكي؟" سأل إمينايك.

"أجل، لكننا لم نسافر منذ أن كنت في الصف الثالث الابتدائي".

"الجواز الأمريكي هو الأفضل"، قال كِيود، "سأغير جوازي البريطاني غدًا».

"وأنا أيضًا"، قالت بِنكا.

"كان لدي واحد تقريبًا"، قال أوبِنز، «كان عمري ثمانية أشهر حين أخذني والداي إلى أمريكا، وأظل أقول لأمي إنها كان عليها الذهاب في وقت أسبق لتلدني هناك!»

"حظ سيّئ يا رجل»، قال كِيود.

"ليس لدي جواز سفر، حين سافرنا آخر مرة، كنت ملحقًا في جواز سفر أمي"، قال أحمد.

"كنت أنا ملحقًا في جواز سفر أمي حتى الصف الثالث الابتدائي، ثم قال أبي إن علينا الحصول على جوازاتنا الخاصة"، قال أوساهون.

"لم يسبق لي السفر للخارج، لكن أبي وعدني أني سأسافر للدراسة الجامعية. أتمنى لو أن بإمكاني التقدم للحصول على التأشيرة بدلًا من الانتظار حتى الانتهاء من الثانوية"، قال إمينايك، وخيم صمت مطبق بعد حديثه.

"لا تتركنا الآن، انتظر حتى تنهي الثانوية"، قالت بِنكا أخيرًا، وانفجرت هي وكِيود بالضحك. ضحك الآخرون أيضًا، حتى إمينايك نفسه، ولكن ثمة صدى مؤلم تحت ضحكهم. لقد عرفوا أنه يكذب، وكان إمينايك، الذي اختلق حكايا عن والديه الثريين اللذين يعرف الجميع أنهما ليسا كذلك، منغمسًا في رغبته باختلاق حياة ليست حياته. تراجع الحديث، ثم تغير إلى مدرس الرياضيات الذي لا يعرف كيف يحل المعادلات المترابطة. أخذ أوبنز يد إفيملو وسارا مبتعدين. كانا يفعلان هذا كثيرًا، ينسلّان ببطء من أصدقائهما ليجلسا في زاوية قرب المكتبة أو يتجولان في الحديقة خلف المختبرات. أرادت أن تخبر أوبِنز، وهما يمشيان، أنها لا تعرف ما

معنى «أن تكون ملحقًا بجواز سفر أمك»، وأن أمها لا تملك جواز سفر أصلًا. لكنها لم تقل شيئًا وسارت إلى جانبه في صمت. كان ينسجم في المدرسة أكثر منها. كانت محبوبة، ويَرِد اسمها على قائمة المدعوين لكل حفلة، ويعلن دومًا في طابور الصباح أنها «من بين الثلاثة الأوائل"في صفها، ومع ذلك شعرت أنها مكسوة بسديم شفاف من الاختلاف. ما كان لها أن ترتاد هذه المدرسة هنا لولا اجتيازها اختبارات القبول، ولولا أن والدها أصر على ذهابها إلى مدرسة «تبني الشخصية والمستقبل في آن معًا». كانت مدرستها الابتدائية مختلفة، مكتظة بأطفال مثلها آباؤهم معلمون أو موظفون في الخدمة المدنية، يستقلون الحافلات وليس لديهم سائقون. تذكرت الدهشة على وجه أوبِنز، الدهشة التي أخفاها سريعًا، حين سألها «ما رقم هاتفكم؟"، وردت «ليس لدينا هاتف».

أمسك بيدها وضغطها بلطف. فقد أعجب بها لصراحتها واختلافها، ولكن يبدو أنه لم يرَ ما تحت ذلك. أن تكون هنا، بين أشخاص سافروا للخارج، كان أمرًا طبيعيًا بالنسبة له. وقد كان غزير المعرفة بالأمور الأجنبية، وخاصة الأمور الأمريكية. فالجميع يشاهدون أفلامًا أمريكية ويتبادلون المجلات الأمريكية، لكنه يعرف تفاصيل عن الرؤساء الأمريكيين منذ مئة سنة. والجميع يشاهدون المسلسلات الأمريكية، لكنه يعلم بأمر ترك ليزا بونيت لمسلسل **ذا كوزبي شو** وتمثيلها لمسلسل **آنجل هارت**، وعن ديون ويل سميث الكبيرة قبل أن يوقع العقد لتمثيل **ذا فرش برنس أف بل أير**[17]. كانت عبارة "تبدو مثل أمريكي أسود"، أفضل إطراء يقوله، ويقولها لها حين ترتدي ثوبًا جميلًا، أو حين تضفر شعرها في جدائل كبيرة. كانت مانهاتن هي القمة عنده، فيقول دومًا «لا يعني هذا أنها مثل مانهاتن»، أو «اذهب وانظر كيف تجري الأمور في مانهاتن». أعطاها مرة نسخة من هكلبري فِن[18]، صفحاتها مجعدة من تقليبه، وأخذت تقرأها في الحافلة في طريق العودة للبيت لكنها توقفت بعد بضعة

17) ليسا بونت (1967) ممثلة أمريكية مثلت دور الابنة الكبرى في مسلسل ذا كوزبي شو، وهو مسلسل فكاهي أمريكي استمر عرضه من عام 1984 حتى عام 1992. ذا فرش برنس أف بل أير مسلسل كوميدي أيضًا استمر عرضة من عام 1990 حتى عام 1996، بطولة ويل سميث (1968).

18) رواية لمارك توين.

فصول. ووضعتها اليوم التالي على طاولته بخبطة قوية، «هراء لا يطاق»، قالت.

«إنها مكتوبة بلهجات أمريكية مختلفة»، قال أوبِنز.

«وماذا يعني ذلك؟ ما زلت لا أفهمها».

«عليك أن تتحلي بالصبر يا إفيم. إن تعمقت فيها حقًا فإنها مسلية للغاية، ولن ترغبي بالتوقف عن القراءة».

«لقد أوقفت القراءة. احتفظ بكتبك اللائقة من فضلك ودعني والكتب التي أحب. وبالمناسبة ما زلت أفوز حين نلعب السكرابل، يا سيد اقرئي كتبًا لائقة».

سلت يدها من يده وهما يسيران عائدين للصف. كلما شعرت على هذا النحو، انساب الهلع داخلها لأبسط الأمور، وتغدو الأحداث العادية وسيطًا لقدر مشؤوم. كانت جينيكا هي الزناد هذه المرة، فقد وقفت بالقرب من السلم، حاملة حقيبتها على كتفها ووجهها مخطط بالذهبي في ضوء الشمس، وخطر لإفيملو فجأة القواسم المشتركة الكثيرة بين جينيكا وأوبِنز. فمنزل جينيكا يقع في جامعة ليغوس، منزل هادئ ذو طابق واحد، وفناؤه متوج بشجيرات البوغنفيلية، يشبه منزل أوبِنز في نسوكا، وتخيلت أن أوبِنز يدرك كم أن جينيكا أكثر ملاءمة له، وعندها سيتلاشى هذا الفرح، هذا الشيء الهش الوامض بينهما.

أخبرها أوبِنز ذات صباح بعد الطابور أن أمه تريدها أن تزورها.

«أمك؟»، سألته مشدوهة.

«أظنها تود لقاء كنتها المستقبلية».

«كن جادًا يا أوبِنز».

«أذكر في الصف السادس الابتدائي، اصطحبت فتاة إلى حفلة توديع وأوصلتنا أمي وأعطت الفتاة منديلًا. وقالت «تحتاج السيدة إلى منديل دومًا». قد تكون أمي غريبة، ربما أرادت إعطاءك منديلًا».

«أوبِنز مادويويسي!»

«لم تفعل هذا من قبل، لكني لم أحظ بفتاة جادة قبلًا. أظنها تريد رؤيتك فحسب، قالت إن عليك المجيء لتناول الغداء».

نظرت إليه إفيملو. أي نوع من الأمهات تتمتع بعقل سليم تطلب من خليلة

ابنها أن تزورها؟ لقد كان الأمر غريبًا، وحتى عبارة «تعالي على الغداء» كانت أمرًا يقوله الناس في الكتب. إن كان لك خليلة فأنتما لا تتزاوران في منزليكما، بل تسجلان معًا في صفوف بعد المدرسة، لنادي اللغة الفرنسية أو أي شيء يعني رؤية بعضكما خارج المدرسة. لم يعلم والداها، طبعًا، بأمر أوبِنز. وقد أخافتها دعوة أم وبِنز وأثارتها لأيام، وقلقت حول ما سترتديه.

«كوني على طبيعتك فقط»، قالت لها العمة أوجو وردت إفيملو «كيف يمكنني أن أكون على طبيعتي فحسب؟ ماذا يعني هذا أصلًا؟»

ذهبت بعد الظهر، ووقفت أمام باب شقتهم لوهلة قبل أن تضغط الجرس، متمنية بقوة وفجأة أنهما خرجا. فتح أوبِنز الباب.

«أهلًا، لقد عادت أمي من العمل لتوها».

كانت غرفة المعيشة طلقة الهواء، والجدران خالية من الصور باستثناء لوحة باللون الفيروزي لامرأة طويلة العنق ترتدي التربان.

«هذا الشيء الوحيد الذي يخصنا، كل شيء جاء مع أثاث الشقة»، قال أوبِنز.

«إنها جميلة»، همهمت.

«لا تتوتري، تذكري أنها تريدك هنا». همس أوبِنز، قبل أن تظهر أمه. كانت تشبه أونِكا أونونيو. وكان الشبه مذهلًا، جمال الأنف العريض والشفاه الممتلئة، ووجهها المدور المؤطر بلبدة شعر رقيق، والبشرة الصافية ذات اللون البني الداكن للكاكاو. كانت موسيقى أونِكا أونونيو إحدى المباهج الساطعة في طفولة إفيملو، وظلت لم تخفت في الفترة التي أعقبت الطفولة. وستظل تذكر يوم جاء أبوها إلى البيت حاملًا الألبوم الجديد في نور الصباح، كان وجه أونِكا أونونيو على غلافه ملهمًا، وبقيَت تتحسّس تلك الصورة بإصبعها لوقت طويل. جعلت الأغاني شقتهم مفعمة بالمرح في كل مرة يشغلها أبوها، وجعلت منه شخصًا أكثر انطلاقًا يغني مع الأغاني المغرقة بالأنثوية، وتتخيل إفيملو شاعرة بالذنب أنه متزوج بأونِكا أونونيو بدلًا من أمها. حين حيّت والدة أوبِنز بقولها «مساء الخير يا سيدتي»، توقعت أن تضج بالغناء بصوت لا يقارن مثل صوت أونِكا أونونيو ردًا عليها. لكن صوتها خفيض ومهمهم.

«يا له من اسم جميل اسمك، إفيملوناما»، قالت.

وقفت إفيملو معقودة اللسان للحظات، «شكرًا لك يا سيدتي»، قالت.

«ترجميه»، قالت.

«أترجم؟»

«أجل، كيف تترجمين اسمك؟ هل أخبرك أوبِنز أنني أترجم؟ من الفرنسية، أنا أستاذة في الأدب، ليس الأدب الإنجليزي، بل الآداب المكتوبة بالإنجليزية، وأمارس الترجمة على سبيل الهواية. والآن ترجمة اسمك من الإيبو للإنجليزية قد تعني: خلقت في أوقات طيبة، أو: خلقت بجمال، أو ماذا ترين".

لم تستطع إفيملو التفكير. ثمة شيء في المرأة جعلها ترغب بقول أشياء ذكية، لكنّ عقلها فارغ.

«أمي، لقد جاءت لتحيتك لا لترجمة اسمها»، قال أوبِنز بسخط لعوب.

«هل لدينا مشروب غازي نقدمه لضيفتنا؟ هل أخرجت الحساء من المجمدة؟ لنذهب إلى المطبخ»، قالت أمه. تقدمت وأخذت قطعة من النسالة من شعره، ثم ضربت رأسه بخفة. لم تُشعِر علاقتهما السلسة المازحة إفيملو بالراحة. فقد كانت خلية من الكبت وخلية من الخوف من العواقب، وليس لها الشكل المألوف للعلاقة بوالدين. كانا يطهوان معًا، أمه تقلب الحساء وأوبِنز يعد المنيهوت، في حين وقفت إفيملو جانبًا تشرب الكوكا. عرضت المساعدة، لكن أمه قالت لها «لا يا عزيزتي، ربما في المرة القادمة»، وكأنها لا تسمح لأي أحد بمساعدتها في المطبخ. كانت مرحة وواضحة ودافئة، لكنها كان تتسم بالخصوصية، وبالنفور من أن تكشف نفسها كليًا للعالم، ويتمتع أوبِنز بالصفة نفسها. لقد علمت ابنها القدرة على أن يكون مرتاحًا داخل نفسه، حتى وسط الحشود.

«ماهي رواياتك المفضلة إفيملوناما؟»، سألت أمه. «أتعرفين أن أوبِنز يقرأ الكتب الأمريكية فقط؟ آمل أنك لست بهذا الغباء».

«أمي، إنك تحاولين إرغامي على أن أحب هذا الكتاب»، وأومأ للكتاب الموضوع على طاولة المطبخ، **جوهر المسألة**[19] لغراهام غرين، «تقرأ أمي هذا الكتاب مرتين في

---

19) رواية لغراهام غرين تتحدث عن أزمة تغير الأخلاق لدى بطلها، نشرت عام ، 1948 صدرت عام 2005 بترجمة سليم عبد الأمير حمدان عن دار المدى.

العام، لا أدري لمَ»، قال لإفيملو.

«إنه كتاب حكيم. والقصص الإنسانية المهمة هي التي تدوم، أما الكتب الأمريكية التي تقرأها فخفيفة الوزن»، استدارت نحو إفيملو، «هذا الولد مخبول بأمريكا».

«أقرأ الكتب الأمريكية لأن أمريكا هي المستقبل يا أمي، وتذكري أن زوجك تلقى تعليمه هناك».

«حدث هذا حين ذهب الحمقى فقط إلى الجامعات في أمريكا. وقد اعتبر مستوى الجامعات الأمريكية بمستوى المدارس الثانوية البريطانية عندئذ. لقد شذّبت ذلك الرجل كثيرًا بعد زواجي منه».

«حتى أنك تركت متاعك في شقته لتبعدي صديقاته الأخريات؟»

«لقد أخبرتك ألا تلقي بالًا لقصص عمك الكاذبة».

وقفت إفيملو هناك مفتونة. لم تكن أم أوبنز، بوجهها الجميل وهيئتها الرفيعة الثقافة وارتدائها المئزر الأبيض في المطبخ، تشبه أي أم أخرى عرفتها إفيملو. هنا، كان أبوها سيبدو أحمق بكلماته الكبيرة الفارغة، وأمها ساذجة وضئيلة.

«يمكنك غسل يديك في المغسلة»، قالت لها أم أوبنز، «أظن الماء ما زال جاريًا».

جلسوا إلى طاولة الطعام يتناولون المنيهوت والحساء، وإفيملو تحاول جاهدة أن تكون «على طبيعتها» كما أخبرتها العمة أوجو، رغم أنها لم تعد تعرف ما «طبيعتها». وشعرت بالوضاعة والعجز عن الانغماس مع أوبنز وأمه في جوهما.

«الحساء رائع للغاية يا سيدتي»قالت بتهذيب.

«أوه، أعده أوبنز»، قالت أمه، «ألم يخبرك أنه يطهو؟»

«بلى، ولكني لم أظن أن باستطاعته صنع الحساء يا سيدتي»، قالت إفيملو.

ابتسم أوبنز.

«هل تطبخين في المنزل؟»، سألت أمه.

أرادت إفيملو أن تكذب، أن تقول إنها تطهو وتحب الطبخ، لكنها تذكرت كلمات العمة أوجو. «لا يا سيدتي»، قالت، «لا أحب الطبخ. يمكنني أن آكل شعيرية الإندومي طوال الليل والنهار».

ضحكت أمه، وكأنها فتنت بالصراحة، وحين ضحكت بدت شبيهة بأوبِنز ولكن بوجه ألطف. تناولت إفيملو طعامها ببطء، وهي تفكر بمدى رغبتها في البقاء هناك معهما، في جذلهما، للأبد.

تضوع رائحة الفانيلا من شقتهم في إجازات نهاية الأسبوع، حين تخبز أم أوبِنز. فتتلألأ شرائح المانغو على فطيرة، أو كعكات صغيرة بنية منتفخة بالزبيب. وكانت إفيملو تقلّب المخيض وتقشر الفاكهة، فأمها لا تخبز، وفرنهم مأوى للصراصير.

«قال أوبِنز للتو «جذع» يا سيدتي. قال إنه في جذع[20] سيارتك»، قالت. لقد أخذت جانب أمه دومًا في صراعهما الأمريكي البريطاني.

«الجذع جزء من شجرة وليس جزءًا من سيارة يا ولدي العزيز»، قالت أمه. وحين يلفظ أوبِنز جدول باللكنة الأمريكية، تقول أمه «إفيملوناما من فضلك أخبري ابني أنني لا أتحدث الأمريكية، هل يمكنه قول ذلك بالإنجليزية؟»

كانوا يشاهدون أفلامًا في الفيديو في إجازات نهاية الأسبوع، فيجلسون في غرفة المعيشة، وعيونهم مصوبة إلى الشاشة، وأوبِنز يقول «انتظري يا أمي، دعينا نسمع»، حين تعلق أمه بين الحين والآخر على مشهد مقنع، أو قرب حدوث أمر، أو إن كان ممثل يضع شعرًا مستعارًا. في يوم أحد، في منتصف فيلم، ذهبت أمه إلى الصيدلية لشراء دواء الحساسية .«نسيت أنهم يغلقون باكرًا اليوم»، قالت. وحالما اشتغل محرك سيارتها بدورة محرك خافتة، هرعت إفيملو وأوبِنز إلى غرفة نومه وغاصا في فراشه، يتبادلان القبل ويتلامسان، وثيابهما مدحرجة للأعلى، مائلة جانبًا ومسحوبة جزئيًا. اشتعل جلداهما. لقد تركا الباب وفرج النوافذ مفتوحة، وكلاهما متيقظ لصوت سيارة أمه. وفي غضون ثوانٍ، ارتديا ثيابهما وعادا إلى غرفة المعيشة وضغطا زر التشغيل في جهاز الفيديو.

دخلت أم أوبِنز ونظرت إلى التلفاز، «كنتما تشاهدان هذا المشهد حين خرجت»، قالت بهدوء. ثم خيم صمت جامد، حتى من الفيلم. ثم طافت صيحات بائع مكسرات جوال من النافذة.

---

20) تشير الكاتبة إلى كلمة Trunk التي تعني جذع أو ساق، لكنها بالإنجليزية الأمريكية تشير إلى صندوق السيارة.

«إفيملوناما، تعالي من فضلك»، قالت أمه وهي تتجه للداخل.

نهض أوبِنز لكن إفيملو أوقفته «لا، لقد دعتني أنا».

طلبت منها أمه أن تدخل غرفة نومها، وطلبت منها أن تجلس على فراشها.

«إن حدث شيء بينك وبين أوبِنز، فكلاكما مسؤول. غير أن الطبيعة ليست عادلة مع المرأة. إنه فعلٌ يقوم به شخصان، لكن إن كانت ثمة عواقب، فسيتحملها شخص واحد فحسب، هل تفهميني؟»

«نعم»، ظلت إفيملو تتحاشى النظر لأم أوبِنز، وثبتت نظرها بقوة على أرضية اللينوليوم ذات اللونين الأبيض والأسود.

«هل فعلت أي شيء جدي مع أوبِنز؟»

«لا».

«لقد كنت شابة يومًا. أعرف معنى أن يحب المرء في شبابه. أريد نصحك، أنا أدرك أنك في النهاية ستفعلين ما تريدين، لكن نصيحتي لك أن تنتظري. يمكنك أن تحبي دون أن تمارسي الحب. إنها طريقة جميلة لإظهار مشاعرك لكنها تحملك المسؤولية، مسؤولية كبيرة، وما من داع للعجلة. أنصحك بالانتظار حتى تدخلي الجامعة على الأقل، انتظري حتى تملكي نفسك أكثر بقليل، هل تفهمين؟»

«نعم»، قالت إفيملو، لكنها لم تعرف ما معنى «تملكي نفسك».

«أعلم انك فتاة ذكية. والنساء أكثر عقلانية من الرجال، وسيكون عليك أن تكوني العاقلة، أقنعيه. يجب أن تتفقا على الانتظار فلا ترزحان تحت أي ضغط».

توقفت أم أوبِنز وتساءلت إفيملو إن كانت قد انتهت، ورن الصمت في ذهنها.

«شكرا لك يا سيدتي»، قالت إفيملو.

«وحين تبدأان، أريد منك المجيء لرؤيتي. أود التأكد أنكما مسؤولان».

هزت إفيملو رأسها موافقة. كانت تجلس على فراش أم أوبِنز، في غرفة نوم المرأة، تهز رأسها وتوافق على إخبارها متى ما بدأت بممارسة الجنس مع ابنها. مع ذلك شعرت بغياب الخجل، لعل ذلك بفعل نبرة أم أوبِنز، وسلاستها وطبيعيتها.

«شكرًا لك يا سيدتي،»قالت إفيملو ثانية وهي تنظر هذه المرة إلى وجه أم أوبِنز، الذي كان متفهمًا، وليس مختلفًا عما كان عليه دومًا. «سأفعل».

عادت إلى غرفة المعيشة، وبدا أوبِنز متوترًا، مقرفصًا على حافة طاولة القهوة، «انا آسف، سأتحدث إليها عن هذا بعد رحيلك. إن أرادت الحديث لأحد، فعليها التحدث معي».

«قالت إنني يجب ألا آتي ثانية، وإنني أضلل ابنها».

رمش أوبِنز «ماذا؟»

ضحكت إفيملو. حين أخبرت أوبِنز بما قالته أمه في وقت لاحق، هز رأسه «هل علينا أن نخبرها متى نبدأ؟ أي هراء هذا؟ هل تريد شراء واقيات ذكرية لنا؟ ماذا دهى تلك المرأة؟».

«ولكن من قال لك إننا سنبدأ أي شيء؟»

الفصل السادس

كانت العمة أوجو تهرع إلى المنزل لتستحم وتنتظر الجنرال في أيام الأسبوع، وفي إجازة نهاية الأسبوع تسترخي في قميص نومها، تقرأ أو تطهو أو تشاهد التلفاز، لأن الجنرال يكون في أبوجا مع زوجته وأولاده. كانت تتفادى الشمس وتستخدم دهانات ذات زجاجات أنيقة، حتى تغدو بشرتها، الفاتحة بطبيعتها أصلًا، أفتح وأكثر ألقًا ولها بريق. أحيانًا، حين تعطي أوامر لسائقها سولا، أو لبستانيها بابا فلور، أو عاملتيها المنزليتين إنيينغ التي تنظف وتشيكوديلي التي تطهو، تتذكر إفيملو العمة أوجو فتاة القرية التي جاءت إلى ليغوس قبل عدة سنوات، التي تذمّرت منها والدة إفيملو لأنها كانت محدودة التفكير للغاية وتظل تتحسس الجدران، ثم ما خطب كل القرويين الذين لا يستطيعون النهوض دون بسط أيديهم لطبع راحاتها على الجدار؟ تساءلت إفيملو إن سبق للعمة أوجو أن نظرت إلى نفسها في عيون الفتاة التي كانتها، ربما لا. ثبتت العمة أوجو نفسها في حياتها الجديدة برقة لمساتها التي استهلكها الجنرال نفسه، أكثر مما فعلت ثروتها الجديدة.

حين رأت إفيملو منزل العمة أوجو في منطقة دولفين أول مرة، لم ترغب بالمغادرة. فتنها الحمام ببلاطه الوردي وصنبور المياه الساخنة، ومرشه المتدفق. وكانت ستائر غرفة النوم من الحرير الخالص، وقالت للعمة أوجو «يا إلهي، إنها خسارة أن تستخدمي هذا القماش ستارة! لنخِط به فستانًا ». كان لغرفة المعيشة

أبواب زجاجية تنزلق فتُفتح بلا ضجيج وتُغلق بهدوء. وكان المنزل مُكيّفًا حتى المطبخ. لقد أرادت العيش هناك، إذ سيعجب المنزل أصدقاءها، وتخيلتهم جالسين في الغرفة الصغيرة خارج غرفة المعيشة، التي تسميها العمة أوجو غرفة التلفاز، لمشاهدة البرامج على القمر الصناعي. لذا سألت والديها إن كان بإمكانها البقاء مع العمة أوجو في أيام الأسبوع. «إنه أقرب للمدرسة، ولن أكون بحاجة لاستقلال حافلتين. يمكنني الذهاب يوم الإثنين والعودة أيام الجمعة»، قالت إفيملو، «ويمكنني مساعدة العمة أوجو أيضًا في المنزل».

«ما أعرفه أن أوجو لديها ما يكفي من الخدم»، قال أبوها.

«إنها فكرة جيدة»، قالت أمها لأبيها، «يمكنها أن تدرس جيدًا هناك، فالكهرباء موصولة طوال اليوم على الأقل، ولن تكون بحاجة للدراسة على مصابيح الكيروسين».

«يمكنها زيارة العمة أوجو بعد المدرسة وفي إجازة نهاية الأسبوع. لكنها لن تعيش هناك»، قال أبوها.

صمتت أمها ثم قالت وقد فوجئت بحزمه «حسن»، بنظرة عاجزة لإفيملو.

تجهمت إفيملو لأيام. كان والدها يدللها كثيرًا مانحًا إياها ما تريد، لكنه هذه المرة تجاهل عبوسها، وصمتها المتعمد على مائدة العشاء. وتظاهر بأنه لم ينتبه حين جلبت لهم العمة أوجو جهاز تلفاز جديد. وجلس على أريكته البالية يقرأ كتابه البالي، حين وضع سائق العمة أوجو أرضًا صندوق سوني البني. أخذت أم إفيملو تغني أغنية كنسية، «الرب منحني النصر، سأرفع اسمه عاليًا»، التي تُغنّى في وقت الحصاد عادة.

«اشترى الجنرال أكثر مما أحتاجه في منزلي. ولا مكان لوضع هذا»، قالت العمة أوجو، بعبارة عامة لم يقصد بها أحد بالتحديد، في طريقة لا تنتظر الشكر. فتحت أم إفيملو الصندوق، وأزالت التغليف الفلّيني بلطف.

«لم يعد جهازنا القديم يظهر شيئًا»، قالت رغم علمهم جميعًا أنه ما زال يعمل.

«انظر إلى مدى رشاقته» أضافت، «انظر!»

رفع أبوها نظره من الكتاب «أجل، إنه كذلك»، قال ثم خفض نظره ثانية.

—

جاء المالك ثانية، لقد اقتحم الشقة متجاوزًا إفيملو، إلى داخل المطبخ، ومد

يده إلى ساعة الكهرباء، منتزعًا القابس، قاطعًا الكهرباء الضئيلة التي كانت لديهم.

بعد أن غادر قال والد إفيملو «يا له من عار. أن يطلب منا دفع إيجار سنتين، لقد كنا ندفع إيجار سنة».

«لكن حتى إيجار هذه السنة الواحدة لم ندفعه»، قالت أمها وفي نبرتها اتهام ضئيل.

«تحدثت مع أكوني ليقرضني» قال أبوها. لم يكن يحب أكوني، ابن عمه تقريبًا، الرجل الناجح من قريتهما، الذي يتجه إليه الجميع بمشاكلهم. كان يدعوه الأُمّي الشنيع، والنقود التي ضلت طريقها.

«ماذا قال؟»

«قال إن علي الذهاب لرؤيته الجمعة القادمة»، ارتجفت أصابعه، فقد حاوَل، كما يبدو، كبح مشاعره. أشاحت إفيملو نظرها بعيدًا بسرعة، آملة أنه لم يرها تراقبه، وسألته إن كان يستطيع شرح مسألة صعبة في واجبها المنزلي لتلهيه ولتجعل الأمر يبدو كأن الحياة يمكن أن تستمر ثانية.

—

لم يطلب أبوها المساعدة من العمة أوجو، ولكن لو عرضت العمة أوجو المال عليه لمّا رفض. فذلك أفضل من أن يكون مدينًا لأكوني. أخبرت إفيملو العمة أوجو كيف قرع المالك بابهم قرعًا عاليًا لا داعي له ليسمع الجيران، وهو يلقي بالإهانات على أبيها «ألست رجلًا حقًا؟ ادفع لي مالي. سأرميك خارج هذه الشقة ما لم أحصل على الإيجار الأسبوع القادم!»

حين قلدت إفيملو المالك، عبر حزن سقيم وجه العمة أوجو «كيف يمكن لهذا المالك التافه أن يحرج أخي هكذا؟ سأطلب من أوغا أن يعطيني المال».

توقفت إفيملو «أليس لديك مال؟»

«حسابي خالٍ تقريبًا، لكن أوغا سيعطيه لي. وهل تعلمين أنني لم أتقاض أجري منذ بدأت العمل؟ ثمة قصة جديدة كل يوم من قسم المحاسبة. بدأت المشكلة بمنصبي الذي ليس له وجود رسميًا، رغم أنني أعالج المرضى يوميًا».

«لكن الأطباء مضربون»، قالت إفيملو.

«ما زالت المستشفيات العسكرية تدفع. لكن أجري لن يكفي لدفع الإيجار، عذرًا».

«أليس لديك مال؟»سألت إفيملو ثانية ببطء لتستوضح، ولتتأكد، «آه يا عمتي لكن كيف يمكن ألا تملكي المال؟»

«لا يعطيني أوغا مبالغ كبيرة أبدًا. فهو يدفع كل الفواتير، ويريدني أن أطلب كل شيء أحتاجه. بعض الرجال هكذا».

حدقت إفيملو. العمة أوجو في منزلها الوردي الكبير، ذي الصحن اللاقط الكبير اللامع على سطحه، ومولدتها الكهربائية الطافحة بالديزل، ومجمدتها المكتظة باللحم، وليس لديها مال في حسابها المصرفي.

«إفيم، تبدين كأن أحدهم قد مات!»ضحكت العمة أوجو ضحكتها الظريفة. بدت ضئيلة ومرتبكة بين فتات حياتها الجديدة، من علبة الحلي التي لها لون صغير الظبي على طاولة الزينة، والمبذل الحريري الملقى على سريرها، وشعرت إفيملو بالخوف من أجلها.

«لقد أعطاني أكثر مما طلبت بقليل»، أخبرت العمة أوجو إفيملو في نهاية الأسبوع، بابتسامة صغيرة، وكأنها فرحة بما فعله الجنرال. «سنذهب للبيت من مركز التجميل فأعطي المال لأخي».

لقد أدهشت إفيملو تكلفة تعديل تمليس الشعر في مركز تجميل العمة أوجو، إذ تقيّم مصففات الشعر كل زبونة، وعيونهن تتفحصها من الرأس حتى الحذاء، لتقرر حجم الاهتمام الذي تستحقه. كن يحمن حول العمة أوجو ويتذللن لها، منحنيات بقوة وهن يحيينها، مبالغات في إطراء حقيبتها وحذائها. شاهدت إفيملو ذلك مفتونة. فمن الممكن في مركز تجميل في ليغوس، فهم الطبقات المختلفة من الأنثوية الفخمة على نحو أفضل.

«يا لهن من فتيات، كنت أنتظرهن أن يبسطن أيديهن ويتوسلن إليك لتتغوطي فيها ليتمكن من عبادة هذا أيضًا»، قالت إفيملو وهما تغادران مركز التجميل.

ضحكت العمة أوجو وربتت على وصلة الشعر الحريرية التي تدلت على كتفيها، كانت وصلة صينية، من أحدث طراز، لامعة وملساء كما يمكن للأملس أن

يكون، فهي لا تتشابك أبدًا.

«تعلمين أننا نعيش في بلد يقوم اقتصاده على لعق المؤخرات. ليس الفساد هو المشكلة العظمى في هذا البلد، بل المشكلة أن فيه العديد من الأشخاص ذوي الكفاءات الذين ليسوا في المكان الذي يفترض بهم أن يكونوا فيه، لأنهم لا يلعقون مؤخرة أحد، أو لأنهم لا يعلمون أي مؤخرة يلعقون، أو لأنهم لا يعرفون كيف تلعق المؤخرة. أنا محظوظة لأنني ألعق المؤخرة الصحيحة». ابتسمت، «إنه الحظ فقط، أوغا قال إنني حسنة النشأة، وإنني لم أكن مثل كل فتيات ليغوس اللاتي ينمن معه في الليلة الأولى، وفي الصباح التالي يعطينه قائمة بما يردن منه أن يشتريه لهن. نمت معه في الليلة الأولى لكني لم أطلب شيئًا، وكان ذلك غباء مني حين أذكر الأمر الآن. لكني لم أنم معه لأني أريد شيئًا ما. آه، هذا يسمى السلطة. لقد انجذبت إليه رغم أن أسنانه مثل أسنان دراكولا، لأنني انجذبت لسلطته».

أحبت العمة أوجو الحديث عن الجنرال، ساردة نسخًا مختلفة للقصص المكرورة التفهة نفسها. أخبرها سائقها - الذي كسبت ولاءه بترتيب زيارات زوجته لعيادة الأمومة ولقاحات طفله- أن الجنرال سأله عن تفاصيل الأماكن التي تذهب إليها ومدة مكوثها، وكل مرة تقول فيها العمة أوجو القصة لإفيملو، تنهيها بتنهيدة «هل يظن أنني لا أستطيع لقاء رجل آخر دون معرفته، إن أردت ذلك؟ لكني لا أريد».

كانتا في سيارة المازدا الباردة، وحين رجع السائق بالسيارة خارجًا من بوابة مركز التجميل، أومأت العمة أوجو إلى حارس البوابة، وأنزلت نافذتها وأعطته بعض المال.

«شكرًا لك سيدتي»، قال وحياها.

لقد دست أوراق نايرا في أيدي كل العاملات في المركز، ولرجال الأمن، والشرطي الواقف في تقاطع الشارع.

«إنهم لا يتقاضون أجورًا تكفي لدفع رسوم المدرسة حتى لطفل واحد»، قالت العمة أوجو.

«لن يساعده هذا المبلغ الضئيل الذي أعطيته إياه على دفع رسوم المدرسة»، قالت إفيملو.

«لكن يمكنه شراء شيء إضافي وسيكون في مزاج أفضل ولن يضرب زوجته

هذه الليلة»، قالت العمة أوجو، ونظرت خارج النافذة وقالت «خفف السرعة يا سولا»، بحيث يمكنها إلقاء نظرة على حادث على طريق أوزبورن. فقد تصادمت حافلة وسيارة، وغدت مقدمة الحافلة ومؤخرة السيارة شيئين معدنيين مشوهين، وتبادل كلا السائقين الصراخ، يفرقهما جمع محتشد. «من أين يأتون؟ أولئك الذين يظهرون حالما يقع حادث؟» مالت العمة أوجو للوراء في مقعدها. «هل تعرفين أنني نسيت كيف يبدو ركوب الحافلة؟ من السهل جدًا اعتياد هذا كله».

«يمكنك فقط الذهاب إلى فالومو الآن وتستقلي حافلة»، قالت إفيملو.

«لكن الأمر لن يكون نفسه، لن يكون نفسه أبدًا حين يكون لديك خيارات أخرى»، نظرت إليها العمة أوجو، «إفيم، كفي عن القلق بشأني».

«أنا لست قلقة».

«لقد كنت قلقة منذ أخبرتك عن حسابي».

«لو فعلت امرأة أخرى هذا، لقلت إنها غبية».

«لن أشير عليك بأن تفعلي ما أفعله أبدًا»، استدارت العمة أوجو نحو النافذة، «سيتغير، أنا سأغيره. أحتاج أن أفعل هذا ببطء».

في الشقة، ناولت العمة أوجو والد إفيملو كيسًا بلاستيكيًا منتفخًا من النقود «إنه إيجاركم لسنتين يا أخي»، قالت بألفة محرجة، ثم مزحت بشأن الثقب في قميصه التحتاني. لم تنظر إليه في وجهه ولم ينظر إليها في وجهها وهو يشكرها.

—

كان للجنرال عينان مصفرتان، ما أوحى لإفيملو أنه أُسيئت تغذيته في طفولته، وله جسد ضخم يوحي بالشجارات التي افتعلها وربحها، وجعلته السن الناتئة التي أحدثت ثغرة في شفتيه يبدو مخيفًا على نحو غامض. فوجئت إفيملو بجلافته المرحة «أنا رجل قروي!»، قال بسعادة كأنه يبرر قطرات الحساء التي حطت على قميصه وعلى الطاولة وهو يأكل، أو تجشؤه العالي بعد ذلك. كان يأتي في الأمسيات، مرتديًا بذلته الخضراء حاملًا مجلة منوعات أو اثنتين، ومرافقه الضابط يمشي خلفه بخطوات خانعة، يحمل حقيبته ويضعها على طاولة الطعام. لم يغادر آخذًا مجلات المنوعات معه إلا قليلًا، فتكدست أعداد من **فينتج بيبل** و**برايم بيبل** و**ليغوس لايف**،

في منزل العمة أوجو بصورها اللامعة وعناوينها المبهرجة.

قالت العمة أوجو لإفيملو، ناقرة على صورة مجلة بإظفرها المطلي على الطراز الفرنسي: «لو أخبرتك بما يفعل هؤلاء الناس. إن قصصهم الحقيقية ليست ما يرد في المجلات، بل أوغا هو من يعرف الحقيقة». ثم تتحدث عن الرجل الذي مارس الجنس مع جنرال بارز ليحصل على حقل نفط، أوالمسؤولين العسكريين الذين كان أولادهم أولادًا لآخرين، والعاهرات الأجنبيات اللاتي يأتين للبلاد أسبوعيًا من أجل رئيس البلاد. كانت تكرر القصص بضحكة حنون، كأنها تظن أن رغبة الجنرال في الثرثرة القذرة متعة فاتنة مقبولة. «هل تعلمين أنه يخاف الحقن؟ إنه جنرال ذو سطوة، لكنه يخاف إن رأى حقنة!»، قالت العمة أوجو، بالنبرة نفسها. لقد كان تفصيلًا ساحرًا وفقًا لها. ولم تستطع إفيملو أن ترى سحر الجنرال، بأسلوبه الصاخب الجلف، والطريقة التي يمد بها يده ليصفع مؤخرة العمة أوجو وهما يصعدان الدرج قائلًا «كل هذا لي؟»، والطريقة التي يتحدث ويتحدث بها دون الانتباه إلى المقاطعات حتى ينهي قصته. كانت إحدى القصص المفضلة لديه، التي يرددها على مسامع إفيملو كثيرًا، وهو يشرب جعة ستار بعد العشاء، قصة اختلاف العمة أوجو. فيحكيها بنبرة تهنئة للذات، كأن اختلافها أظهر ذوقه الجيد. «حين أخبرتها في المرة الأولى أنني ذاهب إلى لندن، وسألتها ماذا تريد، أعطتني قائمة. قبل النظر إليها قلت إني أعرف مسبقًا ما تريد. لا بد أنها ترغب بعطر أو حذاء أو حقيبة أو ساعة أو ثياب، فأنا أعرف بما ترغبه فتيات ليغوس، ولكن هل تعلمين ما في القائمة؟ عطر واحد وأربعة كتب! لقد ذهلت ، يا سلام! أمضيت ساعة جميلة في المكتبة في بيكاديللي، وجلبت لها عشرين كتابًا! هل تعرفين أي فتاة في ليغوس تطلب كتبًا؟»

ضحكت العمة أوجو ضحكة فجائية بناتية ومطواعة، وابتسمت إفيملو بإذعان. ورأت في حكاية هذا الرجل الهرم المتزوج وقاحة ووضاعة، وبدا الأمر مثل عرض ثيابه الداخلية الوسخة عليها. وقد حاولت أن تراه بعيني العمة أوجو، رجلًا للعجائب، رجلًا للإثارة الحسية، فلم تستطع. لكنها فهمت خفة الكائن والمرح الذي حظيت به العمة أوجو في أيام الأسبوع، فهذا ما تشعر به حين تترقب رؤية أوبِنز بعد المدرسة. لكنه بدا خطأ وخسارة أن تشعر العمة أوجو على هذا النحو تجاه الجنرال.

كان حبيب العمة أوجو السابق، أولوجيمي، مختلفًا وحسن الطلعة وناعم الصوت، ويمور بتهذيب هادئ. كانا معًا معظم سنوات الجامعة وحين تراهما تعرف لم كانا معًا. «لقد هجرتُه»، قالت العمة أوجو.

«ألا تهجرين شيئًا لتحصلي على شيء أفضل؟» سألت إفيملو، وضحكت العمة أوجو كأن تلك دعابة حقيقية.

في يوم الانقلاب، اتصل صديق مقرب للجنرال بالعمة أوجو ليسألها إن كانت معه. كان الجو مضطربًا، فقد ألقي القبض على بعض ضباط الجيش. لم تكن العمة أوجو مع الجنرال، ولم تعرف أين هو، وصعدت إلى الأعلى ثم هبطت الدرج قلقة، وهي تجري مكالمات هاتفية لم تسفر عن شيء. وسرعان ما أخذت ترتعش، وتجد صعوبة في التنفس، وتحول هلعها إلى ربو. ثم أمسكت ذراعها وهزتها وثقبتها بإبرة، محاولة حقن نفسها بالدواء، فبقعت قطرات من الدم أغطية الفراش، حتى ركضت إفيملو إلى الشارع لتقرع باب جارة كانت أختها طبيبة أيضًا. ثم اتصل الجنرال أخيرًا ليقول إنه بخير، وإن الانقلاب فشل ورئيس الدولة على ما يرام، فكفت العمة أوجو عن الارتجاف.

—

وعدها الجنرال بزيارتها في إحدى عطلات المسلمين، عطلة تستغرق يومين يقول فيها غير المسلمين في ليغوس «صلاة سعيدة» لكل من يفترضون أنه مسلم، وهم غالبًا حراس البوابات من الشمال، وتعرض شبكة إن تي أي المشهد تلو الآخر لرجال يذبحون الكباش. وتلك أول عطلة عامة يقضيها مع العمة أوجو. فقضت كامل الصباح في المطبخ تشرف على تشيكوديلي، وتغني بصوت عال من حين لآخر، وبدت أليفة قليلًا مع تشيكوديلي، وسريعة جدا في الضحك معها. انتهى إعداد الطعام أخيرًا وفاحت رائحة التوابل والصلصات في البيت، وصعدت العمة أوجو للاستحمام.

«إفيملو من فضلك، تعالي وساعديني في حلق شعري في الأسفل هناك، قال أوغا إنه يزعجه!»، قالت العمة أوجو ضاحكة، ثم استلقت على ظهرها مباعدة ساقيها وتحتها مجلة منوعات، وقد حملت إفيملو أداة الحلاقة. انتهت إفيملو وأخذت العمة أوجو تضع قناعًا مقشرًا على وجهها، حين اتصل الجنرال ليقول إنه لا يستطيع

القدوم. أغلقت العمة أوجو السماعة، ووجهها كوجه الغول مغطى بمعجون أبيض بلون الطباشير باستثناء دائرتين من الجلد حول عينيها، ودخلت المطبخ وأخذت تضع الطعام في حافظات بلاستيكية لوضعه في المجمدة. راقبتها تشيكوديلي محتارة. عملت العمة أوجو بحنق، هازة حجيرات المجمدة وصافقة أبواب الخزائن وحين دفعت قدر أرز الجولوف، سقطت قدر حساء بذور القرع من فوق الموقد. حدقت العمة أوجو بالصلصة الخضراء المصفرة المتمددة على أرضية المطبخ، وكأنها لم تعرف كيف حدث ذلك. استدارت نحو تشيكوديلي وصرخت، «لماذا تنظرين مثل البلهاء؟ هيا، نظفيه!»

كانت إفيملو تراقب من مدخل المطبخ «عمتي، الشخص الذي يتعين عليك الصراخ في وجهه هو الجنرال».

توقفت العمة أوجو، وعيناها جاحظتان وساخطتان. «هل تتحدثين إلي بهذه الطريقة؟ هل أنا لدّتك؟»

ثم انقضت العمة أوجو عليها. لم تتوقع إفيملو أن تضربها العمة أوجو، وبرغم ذلك لم تفاجأ حين حطت الصفعة على جانب وجهها، محدثة صوتًا بدا لها قادمًا من مكان بعيد، وبرزت خطوط بشكل الأصابع على وجنتها. فتبادلتا النظرات، وفتحت العمة أوجو فمها كأنها تنوي قول شيء ما، ثم أغلقته واستدارت وصعدت للأعلى، وكل منهما مدركة أن شيئًا ما بينهما قد اختلف. لم تنزل العمة أوجو حتى المساء، حين جاءت أديسِوا وأوتشي لزيارتها. كانت تدعوهما «صديقتاي» وتصنع علامتي التنصيص بأصابعها، فتقول «أنا ذاهبة إلى مركز التجميل مع صديقتي» صانعة الحركة بأصابعها، وفي عينيها ضحكة حزينة، لأنها تعلم أنهما صديقتاها فقط لأنها عشيقة الجنرال. لكنهما تسليانها، إذ تزورانها باستمرار، لتبادل الملاحظات عن التسوق والسفر، وتطلبان منها مرافقتهما إلى الحفلات. قالت لإفيملو مرة إن ما تعرف عنهما وما لا تعرفه غريب، فقد عرفت أن أديسِوا تملك أرضًا في أبوجا، منحت لها حين واعدت رئيس الدولة، وأن رجلًا فاحش الثراء من الهاوسا قد اشترى متجرًا لأوتشي في سورلير، لكنها لم تعلم كم عدد إخوة كل منهما، أو أين يعيش والدا أي منهما، أو إن كانتا ارتادتا الجامعة.

أدخلتهما تشيكوديلي. كانتا ترتديان قفطانين مزركشين، وتضعان عطورًا لاذعة، وخصل شعرهما الصينية تتدلى على ظهريهما، وأحاديثهما محددة بأمور شديدة الحسية، وضحكتاهما قصيرة وهازئة. **قلت له إن عليه شراءه باسمي، آه، أعرف أنه لن يجلب لي المال ما لم أقل إن أحدًا مريض. لا يعلم أنني فتحت حسابًا مصرفيًا حتى اللحظة.** لقد كانتا ذاهبتين إلى حفلة العيد في فكتوريا آيلاند وجاءتا لاصطحاب العمة أوجو.

«لا أشعر برغبة في الذهاب»، أخبرتهما العمة أوجو، حين قدمت تشيكوديلي لهما عصير البرتقال، واضعة العلبة في صينية وقربها كأسان.

«يا إلهي، لمَ لا؟»، سألت أوتشي.

قالت أديسِوا: «سيحضر الكثير من الرجال الكبار المهمين، ولعلك تلتقين بأحد ما، من يدري؟»

«لا أريد لقاء أحد»، قالت العمة أوجو، وخيم الهدوء كأن كل واحدة تود التقاط أنفاسها. كانت كلمات العمة أوجو ريحًا عصفت بافتراضاتهما، إذ يفترض بها أن ترغب بلقاء الرجال، وأن تبقي عينيها مفتوحتين، ويفترض بها النظر إلى الجنرال بوصفه خيارًا يمكن تجاوزه إلى الأفضل. أخيرًا، قالت واحدة منهما، أديسِوا أو أوتشي: «عصير البرتقال الذي تشترينه هو النوع الرخيص! ألا تشترين جست جوس؟»، كانت مزحة فاترة لكنهما ضحكتا لإنقاذ الموقف.

بعد أن غادرتا جاءت العمة أوجو إلى طاولة الطعام حيث جلست إفيملو لتقرأ.

أمسكت بمعصم إفيملو ثم مررت يدها بتأمل على العنوان الناتئ لرواية سدني شلدون الخاصة بإفيملو، «إفيم، لا أعرف ماذا دهاني، أنا آسفة. لا بد أنني مجنونة. إن له بطنًا مليئًا بالجعة وأسنان دراكولا وزوجة وأطفالًا وهو هرِم».

شعرت إفيملو للمرة الأولى أنها أكبر من العمة أوجو، وأكثر حكمة وقوة من العمة أوجو، وتمنت لو أن باستطاعتها دفع العمة أوجو بعيدًا، وتحويلها إلى ذات واعية لن تضع آمالها على الجنرال، وهي تتذلل وتحلق شعر عانتها من أجله، وتتحمس دومًا للتقليل من عيوبه. لم يكن الأمر كما ينبغي أن يكون عليه. لكن شعرت إفيملو بقليل من الرضا لسماع العمة أوجو تصرخ في الهاتف لاحقًا: «هراء! تعلم أنك ذاهب

إلى أبوجا منذ البداية، فلماذا جعلتني أضيع وقتي في الاستعداد لك؟!»

كان للكعكة التي سلمها سائقٌ صباح اليوم التالي مكتوب عليها بزخرفة زرقاء عبارة «أنا آسف يا حبي» طعم مرٌّ بشع، لكن العمة أوجو احتفظت بها في المجمدة لأشهر.

—

حدث حمل العمة أوجو مثل صوت مفاجئ في ليلة هادئة. وصلت إلى الشقة مرتدية ثوب بوبو مترتر يعكس الضوء، وهي تلمع مثل طيف سماوي فاتن، وقالت إنها تود إخبار والدي إفيملو بأمره قبل أن يسمعا الشائعات. «أنا حامل»قالت ببساطة.

انفجرت أم إفيملو في بكاء دراماتيكيّ عالٍ، ناظرة حولها كأنها ترى القطع المتناثرة لقصتها مترامية حولها «يا إلهي، لماذا تخليت عني؟»

قال العمة أوجو: «لم أخطط لهذا، لقد حدث فحسب. حملت من أولوجيمي أيام الجامعة وخضعت لعملية إجهاض ولن أفعلها ثانية». تركت كلمة إجهاض، بفجاجتها، ندوبًا في الغرفة، لأنهم عرفوا جميعًا أن ما لم تقله أم إفيملو هو وجود طرق حتمًا للاعتناء بهذا. وضع والد إفيملو كتابه جانبًا ورفعه ثانية. ثم تنحنح، وهدأ زوجته.

وقال في النهاية للعمة أوجو: «حسن لا يمكنني سؤال الرجل عن نواياه، لذا علي أن أسألك عن نواياك».

«سأحتفظ بالطفل».

انتظر ليسمع أكثر، لكن العمة أوجو لم تقل شيئًا آخر، لذا استرخى، شاعرًا بالاستياء «إنك راشدة، ليس هذا ما تمنيته لك يا أوبيانوجو، لكنك راشدة».

ذهبت العمة أوجو وجلست على ذراع أريكته. وتحدثت بصوت هادئ خفيض غريب عن صوتها المعتاد، لكن الجدية على وجهها جنبتها الكذب: «ليس هذا ما تمنيته لنفسي أيضًا يا أخي، لكنه حدث. أنا آسفة لأني خيبت أملك، بعد كل ما فعلته من أجلي، وأتوسل إليك أن تغفر لي. لكني سأستفيد من هذا الوضع. الجنرال رجل مسؤول، وسيعتني بطفله».

ابتسم والد إفيملو دون أن ينبس بكلمة، ووضعت العمة أوجو ذراعًا حوله

كأنه هو من يحتاج المواساة.

ستعتبر إفيملو في وقت لاحق الحمل رمزًا، فقد وضع علامة البداية للنهاية، وجعل كل شيء آخر يبدو سريعًا، فالأشهر تمضي بسرعة، والوقت يسرع بالتقدم. وها هي العمة أوجو، تعلو خدها غمازة الحيوية، ووجهها متورد وذهنها مشغول بالتخطيط وبطنها يكبر بارزًا. كانت تأتي كل بضعة أيام باسم فتاة جديد للطفلة وتقول: «أوغا سعيد. إنه سعيد لمعرفته أنه ما زال قادرًا على تسديد الأهداف بالنسبة لرجل مسن في عمره!». وأخذ الجنرال يتردد عليها أكثر حتى في بعض إجازات نهاية الأسبوع، جالبًا لها قناني الماء الساخن، وأقراص الأعشاب وأشياء سمع أنها مفيدة للحمل.

قال لها «ستلدين في الخارج طبعًا»، وسألها أيهما تفضل أمريكا أم بريطانيا. هو أراد بريطانيا، بحيث يمكنه السفر معها، لأن الأمريكان منعوا دخول ذوي الرتب العالية في الحكومة العسكرية. لكن العمة أوجو اختارت أمريكا، لأنه يمكن لطفلتها أن تحصل على المواطنة تلقائيًا هناك. وأُعدت الخطط واختير المستشفى واستؤجر منزل مفروش في أطلنطا. «ما هي الشقة المزدوجة على أية حال؟»، سألتها إفيملو. ابتسمت العمة أوجو وقالت: «وما يدريني ما يعنيه الأمريكيون؟ عليك أن تسألي أوبِنز، وسيخبرك. إنه على الاقل مكان للعيش، ولأوغا أصدقاء هناك سيساعدوني». وَهَنَ عزم العمة أوجو حين أخبرها السائق أن زوجة الجنرال علمت بحملها وغضبت. لقد أقام أقاربها وأقاربه، فيما يبدو، اجتماعًا متوترًا للعائلة. نادرًا ما تحدث الجنرال عن زوجته، لكن العمة أوجو عرفت ما يكفيها. فقد كانت محامية تركت العمل لتربية أطفالهما الأربعة في أبوجا، وهي امرأة تبدو بدينة ولطيفة في صور الصحف. «أتساءل بما تفكر به»، قالت العمة أوجو بحزن متأملة. حين كانت في أمريكا، أعاد الجنرال طلاء إحدى الغرف بالأبيض اللامع، واشترى مهدًا له أرجل تشبه الشموع الأنيقة. واشترى دمى محشوة والكثير من الدببة، وضعتها إنينغ في المهد وبعضها على الرف، وربما أخذت دبًا إلى غرفتها في الخلف، لأنها ظنت أن أحدًا لن يلاحظ. ولدت العمة أوجو صبيًا، وبدت منتشية وجذلة على الهاتف «إفيم له شعر غزير جدًا، هل تتخيلين ذلك؟ يا لها من خسارة!»

سمته دايك، تيمنًا باسم أبيها، ومنحته اسم عائلتها، ما ضايق والدة إفيم وأحنقها.

«يجب أن يحمل الطفل اسم أبيه، أم هل يحاول الرجل إنكار طفله؟»، سألت والدة إفيملو وهم يجلسون في غرفة معيشتهم، وهي لم تزل تحاول استيعاب أخبار الولادة.

قالت إفيملو: «العمة أوجو قالت إن منحه اسم عائلتها أسهل. وهل يتصرف مثل رجل سينكر طفله؟ لقد أخبرتني العمة أوجو أنه قادم ليدفع مهرها».

«لا سمح الله»، قالت والدة إفيملو وهي تبصق الكلمات، وتذكرت إفيملو كل تلك الصلوات المتحمسة لعراب العمة أوجو. حين عادت العمة أوجو أقامت والدة إفيملو في منطقة دولفين لفترة، تحمم الطفل المقرقر ذا الجلد الناعم وتطعمه، لكنها قابلت الجنرال بألفة باردة. وكانت تجيبه بمقاطع أحادية كأنه غدر بها حين كسر قوانينها في التظاهر. لقد قبلت علاقته بالعمة أوجو، لكنها لم تقبل دليلًا أثيمًا على العلاقة كهذا. فاحت رائحة بودرة الأطفال في المنزل. وكانت العمة أوجو سعيدة، وكثيرًا ما حمل الجنرال دايك، مشيرًا أنه ربما بحاجة للغذاء ثانية، أو إلى ضرورة أن يرى الطبيب الطفح على عنقه.

جلب الجنرال فرقة موسيقية من أجل حفلة عيد الميلاد الأول لدايك الأول. وقد وقف أعضاؤها في الحديقة الأمامية، قرب غرفة المولدة الكهربائية، وظلوا حتى غادر آخر الضيوف، وكلهم خاملون ومتخمون، آخذين معهم طعامًا ملفوفًا بورق القصدير. جاء أصدقاء العمة أوجو، وأصدقاء الجنرال أيضًا، يكسو الحزم قسماتهم، كأنما يقولون إن ابن صديقهم هو ابنه مهما كانت الظروف. تهادى دايك، الذي تعلم المشي حديثًا، هنا وهناك ببذلة وربطة عنق فراشة حمراء، والعمة أوجو تلاحقه محاولة جعله يهدأ لبضع لحظات مع المصور. في النهاية شرع بالبكاء بعد أن شعر بالتعب وانتزع ربطة العنق، فرفعه الجنرال وحمله من مكان لآخر. كانت تلك صورة الجنرال التي ستبقى في ذهن إفيملو، وذراعا دايك حول عنقه، ووجهه متوهج، وسنه الأمامية تبرز خارجًا كلما ابتسم، قائلًا «إنه يشبهني، لكن حمدًا للرب أنه ورث أسنان أمه».

مات الجنرال في الأسبوع التالي، في تحطم طائرة عسكرية. «في اليوم ذاته، في اليوم ذاته الذي جلب فيه المصور صور عيد ميلاد دايك»، قالت العمة أوجو كثيرًا،

في سرد الحكاية، كأن لهذا أهمية خاصة.

كان اليوم يوم سبت، وكان أوبِنز وإفيملو في غرفة التلفاز، وإنينغ في الأعلى مع دايك، والعمة أوجو في المطبخ مع تشيكوديلي عندما رن الهاتف. رفعته إفيملو، لسوء الاتصال، قرقع الصوت على الطرف الآخر، صوت الضابط المرافق للجنرال، لكنه كان واضحًا بما يكفي لإعطائها التفاصيل. حدث التحطم على بعد أميال قليلة خارج جوس، وقد تفحمت الجثث، وشاعت أقاويل إن رئيس الدولة دبره للتخلص من الضباط الذين خشي أنهم يخططون للانقلاب. أمسكت إفيملو بالهاتف بإحكام شديد، مذهولة. وذهب أوبِنز إلى المطبخ معها ووقف قرب العمة أوجو حين رددت إفيملو كلمات الضابط المرافق.

قالت العمة أوجو: «أنت تكذبين. إنها كذبة».

خطت باتجاه الهاتف، كأنها تتحداه أيضًا، ثم انهارت على الأرض، انهيارًا رخوًا ثاكلًا وأخذت تندب. أمسكتها إفيملو وحضنتها، وكلهم ليسوا واثقين مما يتوجب فعله، وبدت السّكتات بين فترات نشيجها صامتة جدًّا. ثم جلبت إنينغ دايك إلى الأسفل.

«ماما؟»، قال دايك ناظرًا بحيرة.

«خذي دايك للطابق العلوي»، قال أوبِنز لإنينغ.

سُمِع قرع على البوابة. لقد تنمر رجلان وثلاث نساء من أقارب الجنرال على أدامو ليفتح البوابة، ووقفوا أمام الباب الأمامي يصرخون «أوجو! احزمي أمتعتك واخرجي حالًا! أعطينا مفاتيح السيارة!». كانت إحدى النسوة نحيلة هائجة محمرة العينين، وحين صاحت «أيتها البغي الرخيصة! يحرّم الرب أن تلمسي ممتلكات أخينا! عاهرة! لن تعيشي في سلام في ليغوس أبدًا!» وقد جذبت غطاء شعرها من رأسها وعقدته بإحكام حول خصرها، استعدادًا للشجار. لم تقل العمة أوجو شيئًا في البداية، وهي تنظر إليهم واقفة بجمود عند الباب. ثم طلبت منهم المغادرة بصوت أجش بفعل البكاء، لكن صراخ الأقارب اشتد، ولذا استدارت العمة أوجو لتعود للداخل. «حسن، لا تذهبوا»، قالت، «ابقوا هناك. ابقوا هناك حتى أنادي فتيتي من ثكنات الجيش».

حينها غادروا قائلين لها «سنعود مع فتياننا». وحينئذ فقط أخذت العمة أوجو تنشج ثانية، «لا أملك شيئًا، كل شيء باسمه. إلى أين سآخذ ابني الآن؟»

رفعت سماعة الهاتف من حاملها ونظرت إليها دون أن تعرف بمن ستتصل.

«اتصلي بأوتشي وأدِيسوا، فهما تعرفان ما يجب فعله»، قالت إفيملو.

اتصلت العمة أوجو، ضاغطة زر مكبر الصوت ثم اتكأت على الجدار.

قالت أوتشي: «عليك الرحيل فورًا. احرصي على إفراغ المنزل، خذي كل شيء. افعلي ذلك سريعًا سريعًا قبل أن يعود أهله. اجلبي شاحنة قطر وخذي المولدة الكهربائية. احرصي على أخذ المولدة الكهربائية».

«لا أعرف أين أجد شاحنة»، غمغمت العمة أوجو بعجز غريب عليها.

«سنؤمن واحدة لك سريعًا سريعًا. عليك أخذ المولدة الكهربائية. هذا ما سيؤمن لك عيشك حتى تتمالكي نفسك. عليك الذهاب لمكان ما لفترة، فلا يسببون لك المتاعب. اذهبي إلى لندن أو أمريكا، هل لديك تأشيرة أمريكية؟»

«أجل».

تذكرت إفيملو اللحظات الأخيرة بضبابية؛ قول أدامو إن هناك صحفيًا من سيتي يبل عند البوابة، وحشر إفيملو وتشيكوديلي الثياب في الحقائب، وحمل أوبِنز الأمتعة إلى الشاحنة، ومشي دايك بتمايل من مكان لآخر وغنائه. صارت الغرف في الطابق الأعلى حارة حرارة لا تطاق، فقد توقفت مكيفات الهواء فجأة عن العمل، كأنها عزمت في اتساق بينها أن تساهم في النهاية.

الفصل السابع

رغب أوبِنز في ارتياد جامعة إبادِن بسبب قصيدة.

قرأ لها القصيدة، قصيدة جي بي كلارك «إبادِن»، وتمهل في قراءة الكلمات، «نُثار متدفق من الصدأ والذهب[21]».

سألته: «هل أنت جاد؟ أبسبب هذه القصيدة؟»

«إنها جميلة جدًا».

هزت إفيملو رأسها بسخرية، مبالغة في عدم تصديقها، لكنها أرادت أن تذهب إلى إبادِن أيضًا، لأن العمة أوجو قد ارتادتها. ملأا نماذج للتقدم إلى هيئة امتحانات القبول معًا، جالسين إلى طاولة الطعام حين كانت أمه تحوم هنا وهناك، قائلة «هل تستخدمان أقلام الرصاص المناسبة؟ ضعا علامة على كل شيء. لقد سمعت عن أغرب الأخطاء لدرجة لا تتخيلانها».

قال أوبِنز: «أمي، يمكننا أن نملأها دون أخطاء إن توقفت عن الكلام».

«عليكما على الأقل جعل نسوكا خياركما الثاني»، قالت أمه. لكن أوبِنز لم يرغب بالذهاب إلى نسوكا، فقد أراد الفرار من الحياة التي عاشها دومًا، وبدت نسوكا

21) جون بيبر كلارك بكدريمو: (1935) شاعر وكاتب مسرحي نيجيري، وقصيدته هذه يتحدث فيها عن مدينة إبادِن مستاء من عشوائية المدينة القديمة وتناثر بيوتها ذات السطوح الصدئة. يقول فيها إبادِن، نثار متدفق من الصدأ والذهب المرشوش والمتناثر بين التلال السبعة مثل خزف مكسور تحت نور الشمس.

لإفيملو، بعيدة وقذرة. فاتفق كلاهما على جعل جامعة ليغوس خيارهما الثاني.

في اليوم التالي، وقعت أم أوبِنز مغشيًا عليها في المكتبة. إذ وجدها أحد الطلاب ممددة على الأرض مثل خرقة، ونتأ من رأسها ورم صغير وقال أوبِنز لإفيملو «حمدًا للرب أننا لم نسلم أوراق هيئة الامتحانات».

«ماذا تعني؟»

«ستعود أمي إلى نسوكا في نهاية هذا الفصل، وعلي أن أكون قربها. قال الأطباء إن هذا الأمر سيحدث دومًا»، صمت قليلًا ثم واصل: «يمكننا رؤية بعضنا أثناء عطلات نهاية الأسبوع الطويلة. سآتي إلى إبادِن وأنت تأتين إلى نسوكا».

قالت له: «يا لك من خفيف ظل! هون عليك، سأحول إلى نسوكا أيضًا».

أسعد التغيير أباها. فقد قال إنه لأمر مشجع أن تذهب للجامعة في أرض إيبو بما أنها عاشت كل حياتها في الغرب. أما أمها فقد حزنت، لأن إبادِن تبعد ساعة فحسب، أما نسوكا فتعني رحلة يوم كامل في الحافلة.

"إنها ليس يومًا يا أمي، إنها سبع ساعات فحسب"، قالت إفيملو.

"وما الفرق بين الساعات السبع واليوم؟"، سألتها أمها.

تطلعت إفيملو إلى الابتعاد عن البيت، والاستقلالية في إدارة وقتها، وشعرت بالارتياح لأن رانينودو وتوتشي ذاهبتان إلى نسوكا أيضًا. وكذا فعل إمِنايك الذي سأل أوبِنز إن كان يمكنهما السكن معًا، في الملحق في منزل أوبِنز. وافق أوبِنز، وتمنت إفيملو لو أنه لم يفعل، وقالت له: «ثمة أمر مريب في إمينايك، لكن لا بأس، ما دام سيكون بعيدًا حين ننشغل 'بالسقف'».

في وقت لاحق سأل أوبِنز، نصف جاد، إن كانت إفيملو تظن إغماء أمه متعمدًا، وخطة لإبقائه قريبًا. تحدث لوقت طويل بتوق عن إبادِن حتى زار الحرم الجامعي من أجل دوري كرة مضرب الطاولة، وعاد ليقول لها على استحياء: «لقد ذكرتني إبادِن بنسوكا».

كان الذهاب إلى نسوكا يعني رؤية منزل أوبِنز أخيرًا، وهو بيت يقع في محيط مليء بالزهور. تخيّلته إفيملو، راكبًا دراجته على الشارع المنحدر، عائدًا إلى المنزل

من مدرسته الابتدائية حاملًا حقيبته وقنينة الماء. لكن نسوكا حيرتها، فقد وجدتها بطيئة جدًا، ووجدت الترابَ شديدَ الحمرة والناسَ قانعين جدا بضآلة حياتهم. لكنها ستحبها، حبًا مترددًا في بادئ الأمر. استطاعت أن تطل على قاعة بيلو من نافذة غرفتها في سكن الطالبات، حيث حشرت أربعة أسرّة في مساحة تكفي لاثنين. وقد تمايلت أشجار الزان الباسقة مع الريح، تحتها الباعة المتجولون يحرسون صينياتهم الملأى بالموز والفول السوداني، وقد رُكنت الدراجات النارية كلها بعضها جوار بعض، يتحدث سائقوها ويضحكون، لكنهم جميعًا متيقظون للزبائن. وضعت ورق جدران أزرق مشرق في ركنها، وشعرت أنها محظوظة بشريكاتها، لأنها سمعت عن شجارات شريكات السكن؛ فقد سكبت طالبة في السنة النهائية، كما قيل، الكيروسين في درج طالبة من السنة الأولى لأنها «داعرة» كما سمتها. كانت شريكاتها سلسات، وسرعان ما أخذت تشاطرهن الأشياء التي تنفد سريعًا وتستعيرها منهن مثل معجون الأسنان، ومسحوق الحليب وشعيرية الإندومي ودهان الشعر. كانت تستيقظ معظم الصباحات على همهمات الأصوات المدمدمة في الممر، أصوات الطلاب الكاثوليك وهم يتلون صلوات التسبيحات، فتهرع إلى الحمام لتملأ دلوها بالماء قبل أن ينقطع ماء الصنبور، ولتحتل المرحاض قبل أن يصبح مزدحمًا بشكل لا يطاق. وحين تتأخر أحيانًا، وتصبح المراحيض دوامات من اليرقات، تذهب إلى منزل أوبِنز حتى إن لم يكن موجودًا، وحالما تفتح العاملة المنزلية أوغستينا الباب الأمامي تقول «كيف حالك يا تينا تينا؟ جئت لاستخدام دورة المياه».

كثيرًا ما تناولت طعام الغداء في منزل أوبِنز، أو كانا يذهبان إلى المدينة، أو إلى أونيكازولو، ويجلسان على مقاعد خشبية في أضواء المطاعم الخافتة يأكلان في أطباق مطلية بالمينا، أكثر اللحوم طراوةً وأطيب اليخنات مذاقًا. أمضت بعض الليالي في الملحق في بيت أوبِنز مسترخية على فراشه على الأرض مستمعة للموسيقى. كانت ترقص أحيانًا بثيابها الداخلية مؤرجحة ردفيها وهو يغيظها لصغر مؤخرتها «كنت سأقول لك هزيها، لكن ليس لديك ما يُهز».

كانت الجامعة أكبر وأوسع، وفيها مساحات كثيرة للاختباء، ولم يراودها شعور بالغربة، لأن لديها الكثير من الخيارات للانسجام. أغاظها أوبِنز مرة عن حجم

الشعبية التي حظيت بها، إذ اكتظت غرفتها أثناء حفلات تعارف السنة الأولى، وأتى طلاب السنة الأخيرة متلهفين لتجربة حظهم، حتى رغم وجود صورة كبيرة لأوبِنز فوق وسادتها. كان الأولاد يُسَلّونها، فيأتون ويجلسون على فراشها عارضين عليها برزانة اصطحابها في جولة في الجامعة، وتخيلتهم يقولون الكلمات نفسها بالنبرة نفسها لطالبة السنة الأولى في الغرفة الأخرى. ووجدت أحدهم مختلفًا، اسمه أودين. أتى إلى غرفتها ليس بوصفه جزءًا من حفلات تعارف السنة الأولى، بل ليتحدث إلى شريكاتها في السكن عن اتحاد الطلبة، وبعد ذلك سيأتي لزيارتها ولتحيتها، جالبًا علبة من الكباب أحيانًا، ساخنًا وحريفًا ملفوفة بصحيفة مبقعة بالزيت. فوجئت إفيملو بنشاطه - فقد بدا مهذبًا قليلًا وجذابًا قليلًا، ليكون في مجلس اتحاد الطلبة- لكنه أعجبها أيضًا. كان له شفتان غليظتان رائعتا الشكل، فالسفلى بحجم العليا تمامًا، شفتان مفكرتان وحسيتان في آن معًا. وحين يتحدث - فيقول «لن يصغي إلينا أحد ما لم يتحد الطلبة»- تتخيل إفيملو أنها تقبله، بطريقة تصورت فيها فعل شيء تعلم أنها لن تفعله أبدًا. ومن أجله انضمت إلى الاحتجاج، وأقنعت أوبِنز بالانضمام أيضًا. فكرروا هتافات من مثل: «لا كهرباء! لا ماء!» و«نائب رئيس أبله!» ووجدوا أنفسهم يمضون مع الحشد المزمجر الذي وقف أخيرًا أمام منزل نائب الرئيس. فكُسرت الزجاجات، وأُضرمت النار في سيارة وخرج نائب الرئيس صغيرًا، محشورًا بين رجال الأمن وتحدث بنبرة واهنة.

قالت أم أوبِنز في وقت لاحق «أفهم مظالم الطلاب، لكننا لسنا العدو، بل العدو هو الجيش. إنهم لم يدفعوا أجورنا منذ أشهر، فكيف يمكننا التدريس ما لم نأكل؟». وانتشرت الأخبار لاحقًا في أرجاء الجامعة عن إضراب المحاضرين، وتجمّع الطلبة في ردهات السكن غاضبين مما يعرفون وما يجهلون. كان ذلك صحيحًا، فقد أكدت الأخبار ممثلة الجامعة، وتنهدوا جميعًا وهم يفكرون بهذه الإجازة المفاجئة غير المرغوبة، وعادوا إلى غرفهم لحزم أمتعتهم، لأن السكن سيغلق في اليوم التالي. سمعت إفيملو فتاة قريبة منها تقول «لا أملك من النقود عشرة كوبو أجرة المواصلات للعودة إلى البيت».

—

استمر الإضراب طويلًا، ومرت الأسابيع. وكانت إفيملو قلقة ونافدة الصبر، تسمع الأخبار كل يوم، بأمل أن تسمع خبر انتهاء الإضراب. وأوبِنز يتصل بها في بيت رانينودو، فتصل قبل اتصاله ببضع دقائق وتجلس قرب الهاتف الرمادي ذي القرص، منتظرة رنينه. شعرت أنها انتزعت منه، وأن كلًا منهما يعيش ويتنفس في جو منفصل؛ هو يشعر بالضجر والكآبة في نسوكا، وهي تشعر بالضجر والكآبة في ليغوس وكل شيء تجمد وأصابه النوام. وغدت الحياة فيلمًا مملًا معلقًا. سألتها أمها إن كانت راغبة بالانضمام إلى صف الخياطة في الكنيسة، لتبقيها مشغولة. وقال أبوها إن هذا الإضراب اللانهائي في الجامعة سبَبُ تحول الشباب إلى لصوص مسلحين. عم الإضراب كل أنحاء البلاد، وكل أصدقائها في بيوتهم، حتى كِيود كان في البلاد، عائدًا في إجازة من جامعته الأمريكية. زارت الأصدقاء وذهبت للحفلات متمنية لو أن أوبِنز يعيش في ليغوس. كان أودين، الذي يملك سيارة، يصطحبها ويوصلها إلى حيث تريد. «صديقك هذا محظوظ»، قال لها فضحكت، مداعبة إياه. ما زالت تتخيل تقبيله، أودين ذي العينين الداكنتين والشفتين الغليظتين.

جاء أوبِنز في عطلة نهاية الأسبوع، وأقام عند كِيود.

«ماذا يجري مع أودين هذا؟»، سألها أوبِنز.

«ماذا؟»

«قال كِيود إنه أوصلك إلى البيت بعد حفلة أوساهون. لم تخبريني بذلك».

«نسيت».

«نسيتِ».

«أخبرتك أنه أوصلني قبل بضعة أيام، أليس كذلك؟»

«ما الذي يحدث يا إفيم؟»

تنهدت «سيلينغ، لا شيء يحدث. أشعر بالفضول حياله فقط. لن يحدث شيء أبدًا، لكني فضولية، ألا يراودك الفضول حيال فتيات أخريات؟»

لم يكن ينظر إليها، وعيناه خائفتان وقال ببرود: «كلا. لا أشعر بالفضول».

«كن صريحًا».

«أنا صريح. المشكلة أنك تظنين الجميع مثلك. تظنين أنك القاعدة لكنك

لست كذلك».

«ماذا تعني؟»

«لا شيء. انسي الأمر فقط».

لم يرغب بمتابعة الحديث، لكن الجو بينهما قد تكدر وظل متعكرًا لأيام، حتى بعد أن عاد. وحين انتهى الإضراب («لقد أعلن المحاضرون نهايته، حمدًا للرب»، صاحت شيتاتشي من شقتهم ذات صباح) وعادت إفيملو إلى نسوكا، كانا رسميين أحدهما مع الآخر في الأيام القليلة الأولى، وحواراتهما مقتضبة وعناقهما قصيرًا.

فوجئت إفيملو بمدى افتقادها لنسوكا ذاتها، وروتين الخطو الوئيد، وتجمّع الأصدقاء في غرفتها حتى ما بعد منتصف الليل، والأقاويل التافهة المَقولة والمكررة، وصعود الدرج وهبوطه ببطء كأنه استيقاظ تدريجي، وبياض كل صباح بالحرمتان[22]. كانت رياح الحرمتان في ليغوس مجرد غطاء من الضباب، لكنها في نسوكا طيفًا غاضبًا متقلب المزاج. تبدأ الصباحات ناضرة وتصبح أوقات بعد الظهيرة رمادية من الحر، أما الليالي فلا يعرف كيف تبدو، إذ تبدأ دوامات الغبار من مسافة بعيدة، جميلة عند النظر إليها مادامت بعيدة، وتدوم حتى تغطي كل شيء، حتى الرموش، باللون البني. ويغدو الرطب في كل مكان شديد البلل، وتتقشر القشرة الخشبية للمناضد وتتجعد، وتتغضن صفحات الدفاتر وتجف الثياب بعد دقائق من نشرها خارجًا، وتتشقق الشفاه وتنزف، ويظل دهان روب ومنتولتوم[23] في متناول اليد، وفي الجيوب وحقائب اليد. وتلمع البشرة من الفازلين، أما المناطق المنسية بين الأصابع أو المرفق فتتحول إلى لون الرماد الكامد. وتتعرى أغصان الشجر وتكتسي بسقوط أوراقها حزنًا فخورًا. وتجعل دكاكين الكنيسة الهواء عابقًا مدخنًا برائحة الطبخ الجماعي. وتغدو الحرارة في بعض الليالي كثيفة مثل منشفة، وفي ليالٍ أخرى تهب ريح حادة باردة، فتهجر إفيملو حجرتها في السكن، وتتكوم قرب أوبِنز على مرتبته، تصغي إلى حفيف الصنوبر الصافر خارجًا في عالم هش وقابل للكسر على حين غرة.

—

22) رياح صحراوية شديدة الحرارة والجفاف تهب من الصحراء الكبرى على مناطق غربي إفريقيا.

23) دهانات للتخفيف من أعراض الزكام، مثل الفكس.

تألّم أوبنز من عضلاته، فاستلقى على بطنه ومسدته إفيملو ودلكت ظهره وعنقه وفخذيه بأصابعها وبراجمها ومرفقيها، إذ كانت عضلاته مشدودة على نحو مؤلم. صعدت على ظهره، ووضعت قدمًا واحدة بحذر شديد على مؤخرة الفخذ ثم وضعت الأخرى، «هل تشعر بارتياح؟»

«أجل»، ابتسم في ألم لذيذ. ضغطت ببطء، وجلده دافئ تحت باطن قدميها، وعضلاته المشدودة لا تسترخي، فثبتت نفسها بوضع يد على الجدار وحفرت بكعبيها أعمق، متحركة بوصة فبوصة وهو ينخر «آه يا إفيم، هناك، آه».

«عليك أن تمارس تمارين الاستطالة بعد لعب الكرة، يا زعيم»، قالت ثم استلقت على ظهره وهي تدغدغ إبطيه وتقبّل عنقه.

فقال: «لدي اقتراح لتدليك أفضل»، وحين عراها، لم يتوقف كالعادة عند سروالها الداخلي، جذبه للأسفل فرفعت ساقيها لتساعده.

«سيلنغ» قالت مترددة. لم ترده أن يتوقف لكنها تخيلت هذا على نحو مختلف وافترضت أنهما سيحتفلان به احتفالًا يخططان له بعناية.

«سأقذف خارجًا».

«تعلم أن الأمر لا ينجح دومًا».

«إن لم ينجح فمرحبًا بالصغير».

«كف عن ذلك».

رفع نظره «لكننا سنتزوج على أية حال يا إفيم».

«يا للثقة! قد ألتقي رجلًا وسيمًا ثريًا وأتركك».

«مستحيل. سنذهب إلى أمريكا حين نتخرج لنربي أطفالنا الجميلين».

«يمكنك قول أي شيء الآن، لأن عقلك بين فخذيك».

«لكن عقلي هناك دائمًا!»

ضحك كلاهما، ثم سكنت الضحكة مفسحة الطريق لألم جديد غريب ومنعَطف زلق. فقد بدا لإفيملو نسخة هزيلة، ومحاكاة متخبطة لما تخيلت حدوثه. واستولى عليها الاستياء بعد أن أخرج عضوه، مرتعشًا ولاهثًا وقد تمالك نفسه. كانت متوترة أثناء الأمر كله عاجزة على الاسترخاء. فقد تخيلت أمه تراقبهما وفرضت

الصورة نفسها على ذهنها، والأغرب أنها صورة مزدوجة لأمه وأونِكا أونونيو، كلاهما تراقب بعيون لا ترمش. عرفت أنها لن تستطيع إخبار أم أوبِنز بما حدث، رغم وعدها بذلك، وقد تأكدت حينها أنها ستفعل. لكنها لم تعرف كيف تفعل ذلك، فماذا ستقول؟ وما الكلمات التي ستستخدمها؟ هل تتوقع أم أوبِنز سماع التفاصيل؟ تعين عليها هي وأوبِنز التخطيط للأمر على نحو أفضل، وكانت عندها ستعرف ما تقوله لأمه. ولكن انعدام التخطيط للأمر كله جعلها مهزوزة قليلًا وخائبة الأمل قليلًا أيضًا. فقد تبين أن الأمر لا يستحق العناء في النهاية.

حين استيقظت متألمة، بعد أسبوع أو نحوه، وتشعر بوخز حاد في جنبها وإحساس رهيب مقرف بالغثيان يعم جسدها، شعرت بالهلع ثم تقيأت فازداد هلعها.

«لقد حدث»، قالت لأوبِنز،»أنا حامل»، التقيا كالعادة أمام قاعة الطعام بعد محاضرتهما الصباحية، وقد تجول الطلاب هنا وهناك، وقربهم مجموعة من الطلاب يدخنون ويضحكون، فبدت ضحكاتهم منصبة عليها لوهلة.

عقد أوبِنز حاجبيه، ولم يفهم ما تقول، «لكن يا إفيم، لا يمكن أن يحدث هذا، فالوقت باكر جدًا، إضافة إلى أنني قذفت خارجًا».

«قلت لك إنه لا ينجح!»، قالت. بدا فجأة ولدًا صغيرًا مشوشًا ضئيلًا ينظر إليها بعجز. فازداد هلعها، وأوقفت دراجة نارية فجأة، وقفزت إليها وأخبرت السائق إنها ذاهبة إلى المدينة.

«ما الذي تفعلينه يا إفيم؟ إلى أين تذهبين؟»، سأل أوبنز.

«لأتصل بالعمة أوجو»، قالت.

أوقف أوبِنز الدراجة التالية وسرعان ما صار خلفها، فتجاوزا بوابات الجامعة باتجاه مكتب الاتصالات الدولية، حيث أعطت إفيملو الرجل الجالس خلف المنضدة المقشرة قطعة من ورق فيها الرقم الأمريكي للعمة أوجو. على الهاتف تحدثت بالألغاز التي زادتها كلما مضت في حديثها، بسبب الناس الواقفين هناك بعضهم ينتظر إجراء مكالمته، وآخرون يتسكعون فقط، لكنهم جميعًا يصغون باهتمام واضح ووقح لأحاديث الآخرين.

قالت إفيملو: «أظن أن ما حدث لك قبل قدوم دايك قد حدث لي يا عمتي.

لقد تناولنا الطعام قبل أسبوع».

«أسبوع فحسب؟ كم عدد المرات؟»

«مرة واحدة».

«اهدئي يا إفيم لا أظنك حاملًا. لكن عليك إجراء الفحص. لا تذهبي إلى المركز الطبي في الجامعة، اذهبي إلى المدينة، حيث لا يعرفك أحد. لكن اهدئي أولًا، ستكون الأمور على ما يرام، هل سمعتِ؟»

جلست إفيملو في وقت لاحق على كرسي متقلقل في غرفة الانتظار في المختبر، جامدة وصامتة متجاهلة أوبِنز. كانت غاضبة منه، وقد عرفت أن هذا ليس عدلًا، لكنها كانت غاضبة منه. حين دخلت دورة المياه القذرة حاملة علبة صغيرة أعطتها لها فتاة المخبر، سألها، وقد نهض، «هل علي القدوم معك؟»، وردت بحدة، «تأتي معي لأي شيء؟»، وأرادت أن تصفع فتاة المخبر. كانت فتاة فارعة الطول مصفرة الوجه ازدرتها وهزت رأسها حين قالت لها إفيملو «اختبار حمل»، وكأنها لا تصدق أنها تواجه حالة أخرى من انعدام الأخلاق. فأخذت تراقبهما وتبتسم وتهمهم بلامبالاة.

«ظهرت النتيجة»، قالت بعد فترة، حاملة الورقة المفضوضة. وبدت ملامحها خائبة الأمل لأن النتيجة سلبية. أصاب الذهول إفيملو كثيرًا حتى أنها لم تشعر بالراحة، ومن ثم احتاجت أن تتبول ثانية.

«يجب على الناس احترام أنفسهم والعيش مثل مسيحيين لتجنب المتاعب»، قالت فتاة المخبر بعد أن غادرا.

تقيأت إفيملو في المساء ثانية. كانت في غرفة أوبِنز مستلقية تقرأ، وما زالت باردة معه، حين ملأت دفقة لعاب مالحة فمها وقفزت وجرت نحو الحمام.

قالت: «لا بد أنه شيء أكلته. ربما حساء البطاطا الحلوة الذي اشتريته من الأم أويري».

دخل أوبِنز البيت الرئيس وعاد ليقول إن أمه ستأخذها إلى الطبيب. كان الوقت آخر المساء ولم تحب أمه الطبيب الشاب المناوب في الطوارئ في المركز الطبي في الأمسيات، فقادت السيارة إلى منزل الطبيب أشوفوسي. حين تجاوزوا المدرسة الابتدائية بشجيرات الصنوبر الصافرة التي تحفها، تخيلت إفيملو أنها حامل حقًا،

وأن الفتاة استخدمت مواد كيمائية منتهية الصلاحية في ذلك المختبر القذر. قالت فجأة: «لقد مارسنا الجنس يا خالتي، مرة واحدة «، وشعرت بتوتر أوبِنز. نظرت إليها أمه في المرآة العاكسة وقالت: «لنرَ الطبيب أولًا». كان الطبيب أشوفوسي رجلًا محبوبًا ولطيفًا، ضغط على جانب إفيملو وقال: «إنها الزائدة الدودية، إنها ملتهبة جدًا ولا بد من استئصالها بسرعة»، ثم استدار إلى أم أوبِنز وقال «يمكنني أن أضعها على جدول العمليات غدًا بعد الظهر».

«شكرا جزيلا لك أيها الطبيب»، قالت أم أوبِنز.

في السيارة قالت إفيملو «لم أجرِ عملية من قبل يا خالتي».

فأجابت أم أوبنز بحيوية: «إنها عملية بسيطة، وأطباؤنا هنا جيدون جدًا. اتصلي بوالديك وأبلغيهما ألا يقلقا. سنعتني بك. ويمكنك البقاء في المنزل بعد خروجك من المستشفى حتى تستعيدي قوتك».

اتصلت إفيملو بزميلة أمها، الخالة بونمي، وتركت رسالة بالإضافة إلى رقم هاتف منزل أوبِنز، لتبلغها لأمها. اتصلت أمها ذلك المساء، وبدت منقطعة الأنفاس وهي تقول: «الرب في التدبير يا غاليتي. شكرًا للرب على صديقتك هذه، سيباركها الرب ويبارك أمها».

«يباركه، إنه ولد».

«أوه»، ثم صمتت أمها وتابعت: «اشكريهما من فضلك، ليباركهما الرب. سنستقل أول حافلة قادمة إلى نسوكا صباح الغد».

تذكرت إفيملو المرضة وهي تحلق لها شعر عانتها بجذل، والخدش الخشن لنصل الموسى، ورائحة المعقم. ثم ملأ ذهنها الفراغ والمحو، وحين خرجت منه، مترنحة ومتمايلة على حافة الذاكرة، سمعت والديها يتحدثان إلى أم أوبِنز. كانت أمها تمسك يدها. في وقت لاحق، طلبت منهما أم أوبِنز أن يمكثا في منزلها، فلا داعيَ لتبديد المال على الفندق، وقالت: «إفيملو مثل ابنتي». وقال والدها بذلك الإجلال الغريب الذي ينتابه أمام الأشخاص ذوي التعليم العالي، قبل أن يغادرا عائدين إلى ليغوس، «تحمل شهادة من لندن بتقدير ممتاز»، وقالت أمها «أوبِنز ولد محترم جدًا، يتمتع بتربية حسنة، وقريتهم ليست بعيدة عن قريتنا».

انتظرت أم أوبِنز بضعة أيام، ريثما تستعيد إفيملو عافيتها، قبل أن تستدعيهما وتطلب منهما الجلوس وإطفاء التلفاز.

«يرتكب الناس الأخطاء يا أوبِنز ويا إفيملو، لكن بعض الأخطاء يمكن تفاديها».

ظل أوبِنز صامتًا، وقالت إفيملو «أجل يا خالتي».

«عليك دومًا استخدام الواقي الذكري، وإن أردت ألا تكون مسؤولًا، فانتظر إذًا حتى لا تعود في رعايتي»، صارت نبرتها أقسى وغدت لوامة ، «إن اخترتما أن تكونا نشيطين جنسيًا، فعليكما اختيار حماية نفسيكما. وعليك يا أوبِنز أخذ مصروفك وشراء واقيات ذكرية. وأنت أيضًا يا إفيملو. لا يهمني إن شعرتما بالحرج، عليكما الذهاب إلى الصيدلية وشراءها. عليك ألا تجعلي الولد مسؤولًا عن حمايتك. إن لم يرغب باستخدامه فهذا يعني أنه لا يهتم بك كفاية وعليك تركه. ربما لست الشخص الذي سيحمل الطفل في أحشائه يا أوبِنز، ولكن إن حدث فسيغير حياتك كلها، ولا يمكنك إلغاؤه. وليبق كل منكما الأمر بينكما من فضلكما، فالأمراض منتشرة، والإيدز حقيقة».

كانا صامتين.

«هل سمعتماني؟»، سألت أم أوبِنز.

«أجل يا خالتي»، قالت إفيملو.

«وأنت يا أوبِنز؟»، قالت أمه.

«سمعتك يا أمي»، قال أوبِنز مضيفًا بحدة، «أنا لست ولدًا صغيرًا». ثم نهض ومشى خارجًا من الغرفة.

الفصل الثامن

أصبحت الإضرابات متكررة. وفي الصحف عدّد أساتذة الجامعة مطالبهم والاتفاقيات التي مرغها في التراب رجال الحكومة الذين يدرس أبناؤهم في الخارج. كانت مباني الجامعات خاوية، وقاعات الصفوف مجردة من الحياة. وتمنى الطلاب إضرابات قصيرة، فليس بوسعهم تمني ألا تقوم إضرابات على الإطلاق. تحدث الجميع عن الرحيل، حتى إميناايك قد غادر إلى إنجلترا. ولا أحد يعلم كيف تمكن من الحصول على تأشيرة. «ألم يخبرك إذًا؟»، سألت إفيملو أوبِنز الذي قال: «تعرفين إميناايك». قدمت رانينودو، التي لها ابن عم يدرس في أمريكا، للحصول على التأشيرة، غير أن أمريكيًا أسود في السفارة رفضها، قالت إنه مصاب بالزكام وكان مهتمًا بمخط أنفه أكثر من النظر في وثائقها. أقامت الأخت إبنابو صلوات معجزة تأشيرة الطلاب أيام الجمعة، وهو تجمع للشباب يحمل فيه كل منهم مغلفًا في يده يحوي طلب التأشيرة، وكانت الأخت إبنابو تضع يدها عليه للمباركة. حصلت فتاة في السنة النهائية في جامعة إفي على تأشيرة أمريكية من أول محاولة، وقدمت شهادة باكية متحمسة في الكنيسة قائلة: «حتى إن كان علي البدء من جديد في أمريكا، فإنني سأعرف متى سأتخرج على الأقل».

اتصلت العمة أوجو يومًا. لم تعد تتصل بانتظام. كانت في السابق تتصل بمنزل رانينودو إن كانت إفيملو في ليغوس أو بمنزل أوبِنز إن كانت في الجامعة. لكن

اتصالاتها قلّت، فهي تعمل في ثلاث وظائف، ولم تحصل على الترخيص لمزاولة الطب في أمريكا. تحدثت عن الامتحانات التي عليها اجتيازها، وخطوات عديدة تعني أمورًا عديدة لم تفهمها إفيملو. كلما اقترحت والدة إفيملو الطلب من العمة أوجو أن ترسل لهم شيئًا ما من أمريكا، من فيتامينات منوعة، أو أحذية، رفض والد إفيملو، إذ عليهم أن يدعوا أوجو تثبت أقدامها أولًا، وتقول أمها بلمحة من الخبث في ابتسامتها، إن أربع سنوات كافية ليثبت المرء أقدامه.

«كيف حالك يا إفيملو؟»، سألتها العمة أوجو، «ظننتك في نسوكا، اتصلت بمنزل أوبِنز لتوي».

«الأساتذة مضربون».

«يا إلهي! ألم ينته الإضراب؟»

«لا، ذاك الأخير انتهى، وعدنا للجامعة، ومن ثم بدأوا إضرابًا آخر».

«أي هراء هذا؟»، قالت العمة أوجو، «بصراحة عليك القدوم والدراسة هنا. أنا واثقة أنك ستحصلين على منحة دراسية بسهولة. ويمكنك مساعدتي في رعاية دايك. أقول لك إن النقود القليلة التي أجنيها تذهب كلها لجليسته، وبرحمة الرب وبالوقت الذي ستأتين فيه سأجتاز كل امتحاناتي وأصبح طبيبة مقيمة». بدت العمة أوجو متحمسة على نحو غامض حتى قالتها، ولم تلق بالًا للفكرة.

ربما تركت إفيملو الأمر عند هذا الحد، فيظل فكرة تطفو بلا شكل لكن يمكنها الغوص ثانية، إن لم يكن من أجل أوبِنز الذي قال: «عليك فعل ذلك يا إفيم، فليس لديك ما تخسرينه. اخضعي لاختبار السات وحاولي الحصول على منحة. يمكن لجينيكا أن تساعدك في التقديم للجامعات، والعمة أوجو هناك فيكون لديك أساس على الأقل لتنطلقي منه. أتمنى لو أن باستطاعتي فعل الأمر نفسه، لكني لا أستطيع النهوض والرحيل فحسب، ومن الأفضل لي إنهاء دراستي الجامعية ثم آتي لأمريكا للدراسات العليا. يمكن للطلاب الأجانب الحصول على تمويل ومعونة مالية للدراسات العليا».

لم تدرك إفيملو تمامًا معنى ذلك كله، لكنه بدا صائبًا لأنه صدر منه، وهو الخبير بأمريكا، الذي يقول بسهولة «دراسات عليا» بدلًا من دراسات ما بعد الجامعة،

وبدأت تحلم. رأت نفسها في منزل من مسلسل ذا كوزبي شو، في مدرسة مع طلاب يحملون دفاتر خالية من التجعيد والبلى على نحو مدهش. فخضعت لاختبارات السات في مركز في ليغوس، وقد حشرت مع أشخاص آخرين، كلهم مدججون بطموحاتهم الأمريكية. قدمت جينيكا التي تخرجت لتوها في الجامعة، الطلبات نيابة عنها، واتصلت لتقول «أردتك أن تعلمي أنني أركز على منطقة فيلادلفيا لأنني ذهبت إليها». كأن إفيملو تعرف أين تقع فيلادلفيا، فقد كانت أمريكا بالنسبة إليها هي أمريكا.

انتهى الإضراب وعادت إفيملو إلى نسوكا، وانسجمت مع حياة الجامعة، وحلمت بأمريكا ومن وقت لآخر. حين اتصلت العمة أوجو لتخبرها عن رسائل القبول والمنح الدراسية، كفت عن الحلم، فقد خافت من الأمل الذي صار ممكنًا الآن.

«اضفري ضفائر صغيرة للغاية تدوم طويلًا، فتصفيف الشعر مكلف هنا»، أخبرتها العمة أوجو.

«دعيني أحصل على التأشيرة أولًا يا عمتي!»، قالت إفيملو.

تقدمت للحصول على التأشيرة، واثقة أن أمريكيًا وقحًا سيرفض طلبها، فهذا ما يحدث كثيرًا على أية حال. غير أن المرأة ذات الشعر الرمادي التي تضع مشبك القديس فنسنت دي بول على طية سترتها ابتسمت لها وقالت «تعالي لأخذ تأشيرتك في غضون يومين، حظًا طيبًا في دراستك».

بعد ظهيرة اليوم الذي استلمت فيه جواز سفرها، والتأشيرة الفاتحة اللون على الصفحة الثانية، نظمت إفيملو الطقس الاحتفالي، الذي حدد بداية حياة جديدة وراء البحار، من تقسيم الممتلكات الشخصية على الأصدقاء. جلست رانينودو وبري وتوتشي في غرفتها يشربن الكولا وثيابها مكومة على الفراش، وأول ما انتقينه جميعًا فستانها البرتقالي، فستانها المفضل، الذي كان هدية من العمة أوجو، وتنورته بشكل حرف A رائعة الخياطة، وله سحاب يمتد من العنق حتى حاشية الفستان، جعلها تشعر دومًا أنها فاتنة وخطيرة. يقول أوبِنز قبل أن يبدأ بفتح سحّابه ببُطْء إنه يسهل الأمور عليه. لقد أرادت الاحتفاظ بالفستان لكن رانينودو قالت: «تعلمين يا إفيم أنك ستملكين أي نوع من الثياب تريدين في أمريكا، وفي المرة القادمة التي نراك فيها ستكونين أمريكانا حقيقية».

قالت أمها إن المسيح أخبرها بنجاح إفيملو في أمريكا، ووضع أبوها مغلفًا منتفخًا في يدها، قائلًا «أتمنى لو كان لدي أكثر»، وأدركت بحزن أنه لا بد قد اقترض المال. وراودها شعور مفاجئ بالخوف والهمود، أمام حماس الآخرين.

«ربما علي البقاء وإنهاء دراستي هنا»، أخبرت أوبنز.

«لا يا إفيم، عليك الذهاب. بالإضافة إلى أنك لا تحبين الجيولوجيا. يمكنك دراسة شيء آخر في أمريكا».

«لكن المنحة جزئية. أين سأجد المال لدفع الرسوم؟ لا يمكنني العمل بتأشيرة الدراسة».

«يمكنك أن تعثري على عمل أثناء الدراسة[24] في الجامعة، ستعثرين على طريقة. إن تغطية المنحة لخمسة وسبعين بالمئة من رسومك أمر رائع «.

هزت رأسها موافقة، راكبة موجة إيمانه. وزارت أمه لوداعها.

«نيجيريا تطرد أفضل مواردها البشرية»، قالت أم أوبنز باستسلام وهي تعانقها.

«سأفتقدك يا خالتي، شكرًا جزيلا لكل شيء».

«اعتني بنفسك يا ابنتي، وأبلي حسنًا. اكتبي لنا، واحرصي على أن تظلي على اتصال».

هزت إفيملو رأسها باكية. حين أوشكت على المغادرة وقد أبعدت الستارة عند الباب الأمامي قالت أم أوبنز «واحرصي على أن يكون لديكما أنت وأوبنز خطة»، رفعت كلماتها المفاجئة جدًا، والصائبة جدًا، معنويات إفيملو. صارت خطتهما أن يذهب إلى أمريكا ما إن يتخرج، وسيعثر على طريقة للحصول على التأشيرة. لعلها ستكون عندئذٍ قادرة على مساعدته بأمر التأشيرة.

في السنوات التالية، ورغم أنها لم تعد على اتصال معه، ستتذكر كلمات أمه، *احرصي على أن يكون لديكما أنت وأوبنز خطة*، وتشعر بالراحة.

24) نظام عمل بدوام جزئي لطلاب الجامعات الذين يواجهون صعوبات مالية، وغالبًا تكون هذه الوظائف في مجال تخصص الطالب، مما يعد تدريبًا مدفوع الأجر.

الفصل التاسع

عادت مارياما حاملة أكياسًا ورقية بنية اللون مبقعة بالزيت من المطعم الصيني، جاذبة خلفها روائح الدهن والتوابل في المحل فاسد الهواء.

«انتهى الفيلم؟»، نظرت إلى شاشة التلفاز الفارغة، ثم قلبت كومة الأقراص الرقمية لتختار واحدًا.

«اسمحي لي من فضلك لآكل»، قالت عايشة لإفيملو. جثمت على كرسي في الخلف وأكلت أجنحة الدجاج المقلية بأصابعها، وعيناها على شاشة التلفاز. بدأ الفيلم بمقطع ترويجي من مشاهد سيئة التقطيع تتخللها ومضات ضوئية، كل منها ينتهي بصوت ذكوري نيجيري مسرحي وعالٍ يقول «احصل على نسختك الآن!». أكلت مارياما واقفة، وقالت شيئًا لحليما.

«سأنتهي أولًا ثم آكل»، ردت حليما بالإنجليزية.

«يمكنك الذهاب للأكل إن أردت»، قالت زبونةُ حليما، وهي امرأة شابة ذات صوت عال وأسلوب لطيف.

«لا، سأنتهي. قليلًا بعد»، قالت حليما. بقي في رأس زبونتها خصلة واحدة في الأمام فقط، تنتصب مثل فراء حيوان، في حين ضُفرت البقية بجدائل صغيرة جميلة انحدرت على عنقها.

«لدي ساعة قبل أن يتعين علي الذهاب لأخذ بناتي»، قالت الزبونة.

«كم لديك؟»، سألت حليما.

«اثنتان، لدي ابنتان جميلتان»، قالت الزبونة التي تبدو في السابعة عشرة.

بدأ الفيلم الجديد، وقد ملأ الشاشة الوجه الباسم للممثلة المتوسطة العمر.

قالت حليما: «أوه، نعم! أنا أحبها. صبرًا، إنها لا تقبل التصرفات السخيفة!»

«هل تعرفينها؟»، سألت ماریاما إفيملو مشيرة إلى شاشة التلفاز.

«لا»، قالت إفيملو. لماذا يكثرن من سؤالها إن كانت تعرف ممثلي نوليوود؟ فاحت في المكان رائحة الطعام بشكل قوي جدًا، جعلت الهواء الفاسد ينتن بالدسم، ومع ذلك جعلتها تشعر بالجوع قليلًا، فأكلت بعض جزراتها. أدارت زبونة حليما رأسها إلى هذا الجانب وذاك أمام المرآة وقالت «شكرًا جزيلًا لك، إنه فاتن!»

بعد أن غادرت، قالت ماریاما: «فتاة صغيرة جدًا ولديها طفلتان».

قالت حليما: «أوه يا إلهي من هؤلاء القوم. ما إن تبلغ الفتاة الثالثة عشرة، حتى تكون عارفة لكل الوضعيات. لا يحدث هذا في إفريقيا أبدًا!»

«أبدًا!»، وافقتها ماریاما.

نظرتا إلى إفيملو متوقعتين موافقتها وإقرارها. لقد توقعتا موافقتها في هذه المساحة المشتركة من الأفريقانية، لكن إفيملو لم تقل شيئًا وقلبت صفحة من روايتها. وعرفت أنهن سيتحدثن عنها بعد مغادرتها: تلك الفتاة النيجيرية، تظن نفسها مهمة جدًا بسبب برنستن، انظري إلى لوح طعامها، لم تعد تأكل غذاء حقيقيًا. وسيضحكن بسخرية، لكنها سخرية معتدلة فقط، لأنها ما زالت أختهن الإفريقية، حتى إن ضلت طريقها لوقت قصير. طافت رائحة الزيت في الغرفة من جديد حين فتحت حليما علبة طعامها البلاستيكية، وأخذت تأكل وتتحدث إلى شاشة التلفاز.

«أوه، رجل غبي! ستأخذ مالك!»

أبعدت إفيملو بعض الشعر الدبق عن عنقها، والغرفة تغلي من الحرارة «هل يمكن ترك الباب مفتوحًا؟»، سألت.

فتحت ماریاما الباب وأسندته بكرسي، «هذه الحرارة سيئة فعلًا».

—

ذكّرت كُلُّ مَوْجة حَرٍّ إفيملوَ بموجتها الأولى، في الصيف الذي وصلت فيه. لقد

عرفت أن الفصل هو الصيف في أمريكا، لكنها ظنت طوال حياتها أن «وراء البحار» مكان بارد فيه المعاطف الصوفية والثلج، ولأن أمريكا تقع «وراء البحار» ولأن تهيؤاتها قوية جدًا بحيث لم يدحضها منطق، اشترت أسمك كنزة عثرت عليها في سوق تيجوشو من أجل الرحلة. وارتدتها في السفر، مغلقة سحابها إلى الأعلى داخل الطيارة الطنانة ومن ثم فتحت السحاب وهي تغادر مبنى المطار مع العمة أوجو. أيقظتها الحرارة الرطبة وشاحنة العمة أوجو القديمة من طراز تويوتا، المبقعة بالصدأ على جانبها والمقاعد المتقشرة القماش. حدقت بالمباني والسيارات واللافتات، كلها معدنية، معدنية على نحو مخيب للآمال، ففي المناظر التي تخيلتها اكتست الأشياء العادية في أمريكا بلمعان شديد الألق. لكن أكثر ما أدهشها رؤيتها مراهقًا يرتدي قبعة بيسبول يقف قرب جدار قرميدي، ووجهه للأسفل وجسده مائل للأمام ويداه بين ساقيه، فاستدارت لتنظر ثانية.

قالت: «انظري إلى ذاك الولد! لم أعلم أن الناس يفعلون أمورًا كهذه في أمريكا».

«ألم تعلمي أن الناس يتبولون في أمريكا؟»، سألت العمة أوجو وقد رمت الصبي بنظرة سريعة قبل أن تستدير معيدة نظرها إلى حركة المرور.

«يا إلهي يا عمتي! أقصد أنهم يفعلونها في الخارج، هكذا».

«لا يفعلون. الأمر هنا ليس كما في البلاد حيث يفعلها الجميع. قد يقبض عليه بسبب هذا، لكن هذا ليس حيًا جيدًا على أية حال». قالت العمة أوجو باختصار. كان فيها شيء مختلف لاحظته إفيملو على الفور في المطار، شعرها المضفور بإهمال، وأذناها المجردتان من الأقراط، وعناقها السريع البارد، كأنهما لم تريا بعضهما منذ أسابيع وليس منذ سنوات.

قالت العمة أوجو وعيناها مثبتتان على الطريق: «يفترض بي أن أكون مع كتبي الآن، فقد اقترب امتحاني كما تعرفين».

لم تعلم إفيملو أن لديها امتحانًا آخر، فقد ظنت أن العمة أوجو تنتظر النتائج. لكنها قالت «نعم أعرف».

كان صمتهما مليئًا بالحجارة، وانتابت إفيملو الرغبة بالاعتذار، رغم أنها ليست واثقة تمامًا عن أي شيء تعتذر. ربما حزنت العمة لوجودها، وأنها الآن في

سيارتها الصافرة.

رن هاتف العمة أوجو الخلوي، «نعم أنا يوجو»، ولفظت الاسم يوجو بدلًا من أوجو.

«هل تلفظين اسمك هكذا الآن؟»، سألت إفيملو لاحقًا.

«هكذا ينادوني».

ابتلعت إفيملو عبارة «حسن، هذا ليس اسمك»، لكنها قالت بالإيبو بدلًا من ذلك، «لم أعلم أن الجو حار هنا».

«نمر بموجة حر، إنها الأولى هذا الصيف» قالت العمة أوجو، وكأن موجة الحر أمر يجدر بإفيملو معرفته. لم تشعر أبدًا أن الحرارة حارة جدًا، حرارة خانقة لا تطاق. كان مقبض باب العمة أوجو حارًا عندما وصلتا شقتها ذات غرفة النوم الواحدة. قفز دايك من الأرضية المفروشة بالسجاد في غرفة الجلوس، وقد تناثرت عليها دمى السيارات ودمى الشخصيات، وعانقها كأنه يتذكرها. «ألما، هذه قريبتي!» قال لجليسته، التي كانت امرأة ذات بشرة فاتحة ووجه متعب وشعر أسود مربوط على شكل ذيل حصان قذر. لو التقت إفيملو بألما في ليغوس، لاعتبرتها بيضاء، لكنها عرفت أن ألما هسبانو، وهي فئة أمريكية تمثل عرقًا وإثنية على نحو يثير الحيرة، وستتذكر ألما حين تكتب، بعد سنوات، منشورًا في مدونتها بعنوان «**فهم أمريكا للسود من غير الأمريكيين: ماذا تعني هسبانو**[25]»:

> *تعني الملازم الدائم للسود الأمريكيين في تصنيف الفقر، وتعني عتبة أعلى بقليل من السود الأمريكيين في سلم الأعراق الأمريكي، وتعني امرأة ذات بشرة بلون الشوكولاته من بيرو، وأهل المكسيك، والناس ذوي الهيئة الثنائية العرق من بورتوريكو، كما تعني الرجل الأشقر ذا العينين الزرقاوين من الأرجنتين. كل ما عليك أن تكون ناطقًا بالإسبانية لكنك لست من أسبانيا، وها أنت ذا، أنت من عرق يدعى هسبانو.*

لكنها بعد الظهيرة تلك، بالكاد انتبهت إلى ألما أو غرفة المعيشة المؤثثة بأريكة

25) مصطلح يشير إلى الشعوب والثقافات التي ارتبطت بعلاقة وثيقة مع إسبانيا، كالبلدان التي استعمرتها الإمبراطورية الإسبانية قديمًا.

وتلفاز فقط، أو الدراجة المسندة في الزاوية، لأنها انشغلت بدايك. فقد رأته آخر مرة يوم رحيل العمة أوجو السريع من ليغوس، وكان عمره عامًا واحدًا، ويبكي بلا نهاية في المطار كأنه أدرك الانعطافة التي اجتازها. وها هو الآن في الصف الأول وله لكنة أمريكية غير محكمة وسعادة ومرح، ها هو الطفل الذي لا يمكنه الجلوس ساكنًا والذي لا يبدو حزينًا أبدًا.

«لماذا ترتدين كنزة؟ الجو حار جدًا على ارتداء كنزة!»، قال متهلّلًا، وهو لم يزل متشبثًا بها بعناق طويل. ضحكت، فقد كان صغيرًا جدًا وبريئًا للغاية، ومع ذلك كان فيه شيء من النضج. لكنه مرح، ولا يبدو أنه يحمل نوايا سيئة تجاه البالغين في هذا العالم. تلك الليلة، بعد أن خلد هو والعمة أوجو إلى الفراش، ونامت إفيملو على بطانية على الأرض قال «لمَ عليها النوم على الأرض يا أمي؟ يمكن للفراش أن يكفينا جميعًا»، كأنه أحس بما شعرت به إفيملو. ليس في الترتيب المُتّبع أيّ عيب، فقد نامت على مرتبة حين زارت جدتها في القرية، لكن هذه أمريكا أخيرًا، أمريكا العظيمة أخيرًا، ولم تتوقع أن تنام على الارض.

«أنا بخير يا دايك»، قالت إفيملو.

نهض وجلب لها وسادته، «خذي. إنها ناعمة ومريحة».

قالت العمة أوجو، «تعال يا دايك واستلق، دع خالتك تنام».

لم تستطع إفيملو النوم، فقد كان ذهنها متيقظًا جدًا لحداثة الأشياء، وانتظرت لتسمع شخير العمة أوجو قبل أن تتسلل خارج غرفة النوم وتشعل مصباح المطبخ. حط صرصور سمين قرب الخزائن، وهو يتحرك ببطء نحو الأعلى والأسفل كأنه يجد صعوبة في التنفس. لو كانت في مطبخهم في ليغوس لعثرت على مكنسة وقتلته، لكنها تركت الصرصور الأمريكي وشأنه، وذهبت للوقوف قرب نافذة غرفة المعيشة. قالت العمة أوجو إن هذا الجزء من بروكلِن يدعى فلاتلاندز. كان الشارع في الأسفل ضعيف الإنارة، ولا تحيط به أشجار مورقة، بل سيارات مركونة على نحو متقارب، ولا يشبه الشارع الجميل في ذا كوزبي شو في شيء. وقفت إفيملو هناك لوقت طويل، وجسدها يفتقر للثقة ومأخوذ بإحساس الحداثة. لكنها شعرت بقشعريرة الترقب، وباللهفة لاكتشاف أمريكا أيضًا.

قالت العمة أوجو في الصباح التالي: «أظن أن من الأفضل لو اعتنيتِ بدايك هذا الصيف، ووفرتِ علي نقود جليسة الأطفال ثم تبدأين البحث عن عمل عندما تذهبين لفيلادلفيا». وأيقظت إفيملو معطية إياها تعليمات سريعة، قائلة إنها ستذهب إلى المكتبة للدراسة بعد العمل. تدفقت كلماتها سريعًا وتمنت إفيملو لو تمهلت.

«لا يمكنك العمل بتأشيرة الدراسة، والعمل أثناء الدراسة هراء، فهم لا يدفعون شيئًا، وعليك أن تتمكني من تغطية إيجارك وأجرة دروسك. أنا، كما ترين، أعمل في ثلاث وظائف ومع ذلك ليس الأمر سهلًا. تحدثت إلى إحدى صديقاتي، لا أدري إن كنت تذكرين نغوزي أوكونكوو؟ إنها الآن مواطنة أمريكية وقد عادت إلى نيجيريا لفترة لتؤسس شركة، وتوسلت إليها فوافقت أن تعملي ببطاقة الرعاية الاجتماعية خاصتها».

«كيف؟ هل سأستخدم اسمها؟»، سألت إفيملو.

«طبعًا ستستخدمين اسمها»، قالت العمة أوجو وقد رفعت حاجبيها، كأنها منعت نفسها قسرًا من سؤال إفيملو إن كانت غبية. على شعرها نقطة من دهان الوجه، ملتصقة بجذر ضفيرة، وأوشكت إفيملو على إخبارها لتمسحها، لكنها غيرت رأيها ولم تقل شيئًا، وشاهدت العمة أوجو تهرع نحو الباب. لقد شعرت بلسع من توبيخ العمة أوجو، وكأنما الحميمية القديمة بينهما قد انمحت. جعل بَرَم العمة أوجو، وهذا النزق الجديد فيها، إفيملو ترى أنها (العمّة). تعيّن عليها معرفة بعض الأمور من قبل، لكنها لم تفعل بسبب عيوبها الشخصية. «لدينا لحم بقري مملح يمكنك إعداد الشطائر منه»، قالت العمة أوجو، كأن هذه الكلمات طبيعية جدًا ولا تستلزم تمهيدًا ساخرًا عن تناول الأمريكيين للخبز على الغداء. لكن دايك لم يرغب بشطيرة، بعد أن أراها كل ألعابه وشاهدا حلقات من توم وجيري، وهو يضحك مهتاجًا لأنها شاهدتها كلها من قبل في نيجيريا، وأخبرته بما سيحدث قبل حدوثه. فتح الثلاجة وأشار إلى ما أرادها أن تعد له: «النقانق». تفحصت إفيملو بفضول حبل سجق طويل ثم أخذت تفتح الخزائن بحثًا عن الزيت.

«قالت أمي إن علي أن أناديك خالتي إفيم، لكنك لست خالتي، أنت ابنة خالي».

«إذًا ادعني ابنة خالي».

«حسن يا ابنة الخال»، قال دايك وضحك، ضحكة دافئة جدًا وصريحة جدًا. عثرت على زيت الخضار.

«لا تحتاجين للزيت، يمكنك طهو النقانق بالماء»، قال دايك

«بالماء؟ كيف يمكن طهو السجق بالماء؟"

«إنها نقانق وليست سجقًا».

لقد كانت سجقًا طبعًا، سواء أسموْها الاسم الغريب «نقانق» أم لا، وقَلَت اثنتين بقليل من الزيت كما اعتادت أن تفعل بسجق ساتيس. نظر دايك مذعورًا، وأطفأت الموقد. فتراجع للخلف وقال «ياخ». ثم وقفا ينظران لبعضهما، وبينهما طبق فيه شطيرة وقطعتين ذابلتين من النقانق، فأدركت أنها وجب عليها الإصغاء إليه.

«هل يمكنني تناول شطيرة زبدة الفول السوداني والهلام بدلًا منها؟»، سأل دايك، واتبعت تعليماته لإعداد الشطيرة، مزيلة قشرة الخبزة، وممددة زبدة الفول السوداني أولًا كاتمة ضحكتها لمراقبته لها عن كثب، فلربما قررت فجأة قلي الشطيرة.

حين أخبرت إفيملو ذلك المساء العمة أوجو بحادثة النقانق، قالت العمة أوجو دون شيء من الضحك الذي توقعته إفيملو، «إنها ليست سجقًا، إنها نقانق».

«إنه مثل قول إن البيكيني لا يشبه الثياب الداخلية، هل سيعرف الفرق زائرٌ من الفضاء؟»

رفعت العمة أوجو كتفيها، وقد جلست إلى طاولة الطعام، وأمامها كتاب طبي، تتناول الهمبرغر من كيس ورقي مجعد. بدت بشرتها جافة وعيناها محاطتين بهالات، وروحها كامدة؛ وبدت كأنما تحدق بالكتاب بدلًا من قراءته.

—

في متجر البقالة، لم تشتر العمة أوجو أبدًا ما تحتاجه، بل تشتري ما يكون في التخفيضات وتجبر نفسها عليه. كانت تأخذ المنشور الملون عند مدخل كي فود، وتذهب للبحث عن سلع التخفيضات، رفًا بعد آخر، وإفيملو تدفع العربة ودايك يمشي قربها.

«لا أحب هذا يا أمي، اشتري الأزرق»، قال دايك حين وضعت العمة أوجو علبًا

من حبوب الإفطار في العربة.

«هذا 'اشتر واحدًا واحصل على واحد مجانًا' «، قالت العمة أوجو.

«لكن طعمه سيّئ».

«طعمه مثل طعم حبوب الإفطار المعتادة يا دايك».

«لا»، أخذ دايك علبة زرقاء من الرف، وأسرع نحو منضدة الحساب.

«أهلًا أيها الرجل الصغير! هل تساعد ماما؟»، كانت أمينة الصندوق ضخمة ومرحة، ووجنتاها محمرتين ومتقشرتين من حروق الشمس.

«أعدها يا دايك»، قالت العمة أوجو بلكنة أنفية سلسة تتحدث بها حين تتكلم مع أمريكيين بيض، وفي حضور أمريكيين بيض، وتحت أسماع أمريكيين بيض، «أعدهاااا». ومع اللكنة الجديدة ظهرت شخصية جديدة نادمة ومذلة للذات. لقد بالغت في أسفها لأمينة الصندوق قائلة «آسفة، آسفة»، وهي تفتش بحثًا عن بطاقتها الائتمانية في محفظتها. وسمحت العمة أوجو لدايك بالاحتفاظ بالعلبة، لأن أمينة الصندوق كانت تراقبها، لكنها شدت أذنه اليسرى في السيارة ولوتها وقرصتها.

«أخبرتك ألا تأخذ شيئًا في البقالة! هل تسمعني؟ أم تريدني أن أصفعك قبل أن تسمع؟»

ضغط دايك راحة يده على أذنه.

استدارت العمة أوجو نحو إفيملو، «هكذا يحب الأطفال إساءة التصرف في هذه البلاد. أخبرتني جين أن ابنتها تهددها بالاتصال بالشرطة عندما تضربها. تخيلي، أنا لا ألوم الفتاة، فقد جاءت إلى أمريكا وتعلمت الاتصال بالشرطة». مسدت إفيملو على ركبة دايك، ولم ينظر إليها. وقادت العمة أوجو السيارة بسرعة.

—

خرج دايك من الحمام، حيث أُرسل لغسل أسنانه قبل النوم.

«هل انتهيت يا دايك؟»، سألته إفيملو [بالإيبو].

«لا تحدثيه بالإيبو من فضلك، ستربكه اللغتان»، قالت العمة أوجو.

«ما الذي تقولينه يا عمتي؟ لقد نشأنا ونحن نتحدث لغتين».

«هذه أمريكا، الأمر مختلف».

أمسكت إفيملو لسانها، وأغلقت العمة أوجو كتابها الطبي وحدقت بالفراغ، كان التلفاز مطفأً وصوت الماء الجاري أتى من الحمام.

سألت إفيملو: «ما بك يا عمتي؟ ما خطبك؟»

تنهدت العمة أوجو: «ماذا تقصدين؟ ليس ثمة خطب. لقد رسبت بامتحاني الأخير، ظهرت النتيجة قبل قدومك».

«أوه»، نظرت إفيملو إليها.

«لم أرسب في امتحان في حياتي، لكنهم لم يختبروا المعرفة الحقيقية، بل قدرتي على الإجابة عن أسئلة مخادعة متعددة الخيارات ليس لها علاقة بالمعلومات الطبية الحقيقية»، نهضت وذهبت إلى المطبخ، «أنا متعبة، متعبة جدًا، ظننت أن الأمور ستتحسن بالنسبة لي ولدايك. لم يساعدني أحد، وما زلت لا أصدق كيف تختفي النقود سريعًا، إنني أدرس وأعمل بثلاث وظائف، أعمل بائعة في المركز التجاري، وأساعد في بحث، كما أنني عملت بدوام جزئي في بيرغر كنغ».

«ستتحسن الأمور»، قالت إفيملو بعجز، فقد أدركت كم بدت كلماتها جوفاء. لم يكن أي شيء مألوفًا، وهي عاجزة عن تهدئة العمة أوجو لأنها لم تعرف كيف تفعل ذلك. حين تحدثت العمة أوجو عن صديقاتها اللاتي جئن إلى أمريكا في وقت أسبق واجتزن الاختبارات - نكيشي في ماريلاند أرسلت لها طقم العشاء، وكيمي في إنديانا اشترت لها السرير، وأوزافيسا أرسلت لها آنية فخارية وثيابًا من هارتفورد- قالت إفيملو «باركهن الرب»، وبدت الكلمات رزينة وتافهة في فمها.

افترضت من اتصالات العمة بهم في الديار، أن الأمور ليست سيئة، رغم إدراكها غموض العمة أوجو دومًا وهي تذكر «العمل» و«الامتحان» دون تفاصيل. أو ربما كان ذلك لأنها لم تسأل عن تفاصيل، ولم تتوقع أن تفهم التفاصيل، وخطر لها أن العمة أوجو، بمراقبتها لها، لم تكن لتجدل شعرها في ضفائر بالية كهذه، أو تتجاهل الشعر الغارز (النامي نحو الداخل) الذي نما مثل الزبيب على ذقنها، أو ترتدي سراويل تنتفخ بين ساقيها، فقد قهرتها أمريكا.

الفصل العاشر

كان ذلك الصيف الأول صيف انتظار إفيملو، إذ شعرت أن أمريكا الحقيقية قرب الزاوية الأخرى التي ستنعطف إليها. حتى النهارات، المنسلة واحدًا تلو الآخر، الموهنة والرائقة، والشمس التي تدوم حتى وقت متأخر، بدا أنها تنتظر. ثمة سمة ناقصة من حياتها، فهي إقفار مضطرم بلا والدين أو أصدقاء أو منزل، وقد صنعت منها المناظر المألوفة ما كانت عليه، ولذا انتظرت، كاتبة رسائل طويلة مفصلة لأوبِنز، متصلة به بين الحين والآخر- مكالمات ظلت قصيرة لأن العمة أوجو قالت إنها لا تستطيع تبديد المال على بطاقة الهاتف- وقضاء الوقت مع دايك. كان مجرد طفل، لكنها معه شعرت بقرابة شبيهة بالصداقة، إذ تابعا الرسوم المتحركة المفضلة لديه، *رغراتس* و*فرانكلن*، وقرأا الكتب معًا، واصطحبته للعب مع أطفال جين. أقامت جين هي وزوجها مارلون من غرينادا في الشقة المجاورة، وهما يتحدثان دومًا بلكنة عاطفية كأنهما سيبدأان الغناء. «إنهما مثلنا، فهو لديه عمل جيد ولديه طموح وهما يصفعان أطفالهما»، قالت العمة أوجو موافقة.

ضحكت إفيملو وجين حين اكتشفتا مدى تشابه طفولتيهما في غرينادا ونيجيريا، مع كتب إنيد بلايتون[26] ومعلمات محبات للإنجليز وآباء يعبدون شبكة

---

26) (1897-1968) كاتبة إنجليزية للأطفال.

بي بي سي. كانت تكبُر إفيملو بخمس سنوات فقط. «تزوجت صغيرة جدًا، وقد أحب الجميع مارلون فكيف لي أن أرفض؟»، قالت بشيء من الغيظ. كانتا تجلسان معًا على العتبات الأمامية للمبنى وتراقبان دايك وطفلي جين، إليزابث وجونيور، يقودون دراجاتهم حتى نهاية الشارع ويعودون. كانت إفيملو تصيح بدايك كثيرًا لئلا يبتعد، وصراخ الأطفال والأرصفة الخرسانية تلمع تحت الشمس الساخنة، وركود الصيف يمزقه الارتفاع المفاجئ لموسيقى من سيارات عابرة وانخفاضها.

«لا بد أن الأمور لم تزل غريبة عليك»، قالت جين.

هزت إفيملو رأسها موافقة، «أجل».

مرت عربة المثلجات في الشارع، ومعها أنغام رنانة.

قالت جين: «هل تعرفين أن هذه سنتي العاشرة هنا وما زلت أشعر كأنني أتأقلم. إن تربية الأطفال هي الأصعب، انظري إلى إليزابيث، علي أن أكون حذرة جدًا معها. إن لم تكوني حذرة في هذه البلاد سيصبح أولادك شيئًا لا تعرفينه. ويختلف الأمر في الديار لأن باستطاعتك السيطرة عليهم، أما هنا فلا». علت مسحة من السلام وجه جين، بوجهها المحايد وذراعيها المرتجين، لكن ثمة يقظة باردة تحت ابتسامتها الحاضرة.

«كم عمرها؟ عشرة؟»، سألت إفيملو.

«تسعة أعوام، وتحاول منذ الآن أن تكون ملكة الدراما. ندفع مالًا كثيرًا لتذهب إلى مدرسة خاصة لأن المدارس العامة هنا عديمة الجدوى. يقول مارلون إننا سننتقل إلى الضواحي قريبًا ليتمكنا من الذهاب إلى مدارس أفضل، وإلا فستبدأ التصرف مثل هؤلاء الأمريكيين السود».

«ماذا تعنين؟»

«لا تقلقي، ستفهمين بمرور الوقت»، قالت جين ونهضت لتجلب بعض المال لشراء المثلجات للأطفال.

تطلعت إفيملو دومًا للجلوس خارجًا مع جين، حتى عاد مارلون من عمله مساء، وأخبر إفيملو بهمس سريع بعد أن ذهبت جين لإحضار بعض عصير الليمون للأطفال، «كنت أفكر بك، وأود التحدث إليك»، لم تخبر جين، فلم تكن جين لتعتبر

مارلون مسؤولًا عن أي شيء، مارلونها ذا البشرة الفاتحة والعينين البندقيتين، الذي يحبّها، فأخذت إفيملو تتحاشى كليهما، لتصمم ألعابًا لوحية معقدة يمكنها أن تلعبها مع دايك في الداخل.

سألت دايك مرة عما فعله في المدرسة قبل الصيف، فقال «دوائر». فقد جلسوا على الأرض في دوائر يتشاطرون أمورهم المفضلة.

فقالت مذعورة: «هل تعرف القسمة؟»

نظر إليها مستغربًا، «أنا في الصف الأول فحسب يا ابنة الخال».

«حين كنت في عمرك كنت أستطيع حل القسمة البسيطة».

كانت القناعة الراسخة في ذهنها، بأن الأطفال الأمريكيين لا يتعلمون شيئًا في المدرسة الابتدائية، وقد تعززت حين أخبرها أن معلمته تعطيهم أحيانًا قسائم واجبات منزلية، فإن حصلت على واحدة ستحصل على يوم بلا واجبات منزلية. دوائر، وقسائم الواجبات، ما الحماقة التي ستسمعها تاليًا؟ لذا بدأت تدريسه الرياضيات؛ كانت تسميها رياضيات ويسميها هو رياضة لذا اتفقا على ألا يختصرا الكلمة. لم تعد تتذكر ذلك الصيف دون أن تتذكر القسمة المطولة، ودايك يعقد حاجبيه حيرة، حين يجلسان جنبًا إلى جنب عند طاولة الطعام، وأرجحتها بين رشوته والصراخ عليه. «حسن، جرّب مرة أخرى ويمكنك الحصول على مثلجات، لن تلعب ما لم تحلها كلها بشكل صحيح». لاحقًا، حين يكبر، سيقول إنه يرى الرياضيات سهلة بسبب قضائها الصيف في تدريسه، فتقول «لا بد أنك تقصد صيف تعذيبك»، فيما تحول إلى مزحة مألوفة سيذكرانها من وقت لآخر، مثل طعام يجلب السعادة.

قضت صيفها في الأكل أيضًا، فقد استمتعت بالطعم الجديد -هامبرغر ماكدونالد بقطع المخلل الصغيرة اللاذعة- الذي أحبته يومًا وكرهته في اليوم التالي، واللفائف التي تجلبها العمة أوجو إلى البيت، مبللة بتتبيلة حريفة، وسجق بولونيا والبيروني التي تركت طبقة من الملح في فمها. حيّرها خُلوّ الفاكهة من الطعم، كأن الطبيعة نسيت أن تذر شيئًا من النكهة على البرتقال والموز، لكنها أحبت النظر إليها ولمسها، لأن الموز كبير جدًا وأصفر فاقع، فغفرت لها خلوها من الطعم، سألها دايك مرة «لماذا تفعلين ذلك؟ أتتناولين الموز مع زبدة الفول السوداني؟»

«هذا ما نفعله في نيجيريا، هل تريد أن تجرب؟»

فقال بحزم: «لا. لا أظنني أحب نيجيريا يا ابنة الخال».

لم يتغير طعم المثلجات، لحسن الحظ. كانت تأخذ من العلب الكبيرة في مجمدات عروض 'اشتر واحدة واحصل على الأخرى مجانًا'، وتتناول كرات من الفانيلا والشوكولاته، وهي تشاهد التلفاز. تابعت مسلسلات شاهدتها في نيجيريا - ذا فرش بر نس أف بل إير، وعالم مختلف- وتعرفت إلى مسلسلات جديدة لم تعرفها مثل فريندز وآل سبمسون، لكن أكثر ما أحبته الإعلانات التجارية، فقد تاقت إلى الحياة التي تعرضها؛ حياة زاخرة بالنعم، تحل فيها المشاكل بحلول سحرية بالشامبو والسيارات والطعام المعلب، وصارت في ذهنها أمريكا الحقيقية، أمريكا التي ستراها حين تنتقل إلى الجامعة في الخريف. في البداية، أربكتها أخبار المساء، التي كانت سردًا مطولًا من النيران وإطلاق النار، لأنها اعتادت أخبار شبكة نيجيريا، حيث يقص ضباط الجيش المهمين شرائط أو يلقون خطابات. لكنها رأت، يومًا بعد يوم، صور رجال مسوقين بالأصفاد، وعائلات مضطربة أمام منازل محترقة مدخنة، وحطام السيارات المسحوقة في مطاردات الشرطة، ومقاطع فيديو غير واضحة للصوص مسلحين في المتاجر، فنضجت حيرتها لتصبح خوفًا. فصارت تصاب بالهلع إن سمعت صوتًا عند النافذة، أو حين يقود دايك دراجته في الشارع، وكفت عن إخراج القمامة بعد ما يخيم الظلام، لأن رجلًا يحمل سلاحًا قد يتربص في الخارج. قالت العمة أوجو ضاحكة ضحكة قصيرة، «إن ظللت تشاهدين التلفاز، فستظنين أن هذه الأمور تحدث طوال الوقت، هل تعرفين كم جريمة ترتكب في نيجيريا؟ ألأننا لا نبلّغ عنها كما يفعلون هنا؟»

الفصل الحادي عشر

عادت العمة أوجو إلى البيت بوجه جاد ومتوتر، والشوارع مظلمة وقد خلد دايك إلى النوم، لتسأل، «هل وصلني بريد؟ هل وصلني بريد؟» السؤال المكرر دومًا، فكامل وجودها على شفا جرف، ويوشك أن يقع. كانت تتحدث على الهاتف، بعض الليالي، لوقت طويل وصوتها هادئ كأنها تحمي شيئًا ما من نظرة العالم المفترسة. أخيرًا، أخبرت إفيملو عن بارثولوميو «إنه محاسب مطلّق ويبحث عن الاستقرار. هو من إيزيَوِل، وهي قريبة منا جدًا».

لم تقل إفيملو، التي سمّرتها كلمات العمة أوجو، شيئًا سوى «أوه، جيد» ولا شيء آخر. فالأسئلة من قبيل «ماذا يعمل؟» و«من أين هو؟» أسئلة تسألها أمها، ولكن متى بدأت العمة أوجو تهتم بكون الرجل من قرية قريبة من قريتهما؟

في يوم سبت زارهم بارثولوميو من ماساتشوستس. وقد أعدت العمة أوجو القوانص المتبلة بالفلفل، ووضعت البودرة على وجهها، ووقفت قرب نافذة غرفة المعيشة، بانتظار رؤيته يركن سيارته. راقبها دايك وهو يلعب بفتور مع دمى الشخصيات، حائرًا لكنه متحمس أيضًا لأنه استطاع الشعور بترقبها. حين رن جرس الباب، قالت لدايك بإلحاح «أحسن التصرف».

ارتدى بارثولوميو سروالًا كاكي اللون مرفوعًا حتى بطنه، وتحدث بلكنة أمريكية بالية وبكلمات مبتورة بات فهمها مستحيلًا. وأدركت إفيملو من سلوكه،

نشأته الريفية المحرومة التي حاول تعويضها بكلامه الأمريكي ولزماته.

نظر إلى دايك وقال دون مبالاة: «أوه، أجل، ولدك، كيف حالك؟»

«بخير»، غمغم دايك.

أزعج إفيملو لا مبالاة بارثولوميو بابن المرأة التي يواعدها، ولم يكلف نفسه عناء التظاهر أنه يفعل. لم يكن ملائمًا ولا جديرًا بالعمة أوجو، وأي رجل أذكى منه سيدرك هذا فيعدل سلوكه، لكن ليس بارثولوميو. لقد تصرف بتكلف كأنه جائزة خاصة كانت العمة أوجو محظوظة بالفوز بها، وقد دللته العمة أوجو. وقبل أن يتذوق القوانص قال «دعيني أر إن كان هذا جيدًا».

ضحكت العمة أوجو وكانت ضحكتها موافقة مؤكدة، لأن عبارته «دعيني أر إن كان هذا جيدًا»، تتعلق بكونها طاهية ماهرة، وبالتالي كونها زوجة صالحة. لقد انغمست بالطقوس، مبتسمة ابتسامة تعد بأن تكون رزينة معه لا مع العالم، مندفعة لالتقاط شوكته حين انزلقت من يده، ومقدمة له الجعة. راقب دايك بهدوء من طاولة الطعام، دون أن يمس ألعابه، وأكل بارثولوميو القوانص وشرب الجعة، وتحدث عن السياسة النيجيرية بحماس متقد لشخص يتابع من بعيد، فقد قرأ مقالات على شبكة الإنترنت وأعاد قراءتها. «لن يذهب موت قُدرت[27] سدى، سيثير غضب الحركة الديمقراطية غضبًا لم تثره حياتها! لقد كتبت في مدونتي **قرية نيجيرية** مقالًا عن هذه المسألة». هزت العمة أوجو رأسها وهو يتحدث، متفقة مع كل ما قال، وكثيرًا ما اتسع الصمت بينهما. كانوا مرة يشاهدون مسلسلًا دراميًا أحداثه متوقعة مليئًا بالمشاهد الملتقطة بذكاء، أحدها يصور فتاة ترتدي ثوبًا قصيرًا.

قال بارثولوميو: «لن ترتدي فتاة في نيجيريا هذا النوع من الثياب أبدًا. انظروا إلى هذا. ليس لهذه البلاد بوصلة أخلاقية».

لم يكن على إفيملو أن تتحدث، لكن شيئًا ما في بارثولوميو جعل صمتها مستحيلًا، مظهره المفرط في هزليته، وقصة شعره العمودية من الخلف، التي لم

---

27) الحاجة قدرت أبيولا (1951-1996) زوجة موشود أبيولا الذي فاز في الانتخابات النيجيرية واعتقل إثر فوزه. قتلت قدرت في سيارتها بطلق ناري وقتل سائقها أيضًا ولم يتعرض مساعدها الشخصي لأذى مما أدى للاشتباه بتورطه في مقتله. لم يطلق سراح زوجها بعد مقتلها، ولكنه مات في ظروف مثيرة للريبة قبل إطلاق سراحه بوقت قصير عام 1998.

يغيرها منذ مجيئه إلى أمريكا قبل ثلاثين عامًا وأخلاقياته الحماسية الزائفة. كان واحدًا من أولئك الأشخاص الذين يُدعون في قريته في الديار بالـ«تائهين». ممن يقول عنهم قومه: ذهب إلى أمريكا وتاه، أو ذهب إلى أمريكا ورفض العودة.

«ترتدي الفتيات في نيجيريا فساتين أقصر من هذا بكثير. وفي المدارس الثانوية، تغير بعضنا ثيابهن في منازل صديقاتهن فلا يعرف أهلهن». قالت إفيملو.

استدارت العمة أوجو نحوها بعينين ضيقتين مهددتين، ونظر إليها بارثولوميو ورفع كتفيه كأنها لا تستحق الرد عليها. وغلت بينهما البغضاء، فتجاهلها طوال ما بعد الظهيرة، تجاهلها، وسيتجاهلها كثيرًا في المستقبل. وقرأت في وقت لاحق منشوراته على الشبكة في مدونة قرية نيجيرية، كلها ذات نبرة حانقة وطنانة تحت لقب «محاسب من الإيبو في ماساشوستس»، وفوجئت بغزارة كتابته، وبحثه المجدّ عن جدالات ساكنة.

لم يذهب إلى نيجيريا منذ سنوات، ولعله بحاجة لعزاء من هذه المجموعات على الشبكة، حيث تندلع ملاحظات صغيرة وتضطرم إلى هجمات، وتُتراشق الإهانات الشخصية. تخيلت إفيملو كتّابها: نيجيريّون في منازل كئيبة في أمريكا، يخمد العمل حياتهم، ويحفظون مدخراتهم الشحيحة خلال العام ليتمكنوا من زيارة البلاد لأسبوع في شهر ديسمبر، حين يذهبون حاملين حقائب من الأحذية والثياب والساعات الرخيصة، فيرون في عيون أقاربهم صورًا مصقولة لامعة عن ذواتهم. بعد ذلك يعودون إلى أمريكا للقتال على الشبكة حول أساطيرهم عن الوطن، لأن الوطن صار الآن مكانًا ضبابيًا بين هنا وهناك، ويمكنهم على الأقل على الشبكة تجاهل إدراك مدى لامنطقيتهم.

جاءت النساء النيجيريات إلى أمريكا وصرن متوحشات، كتب «محاسب من الإيبو في ماساشوستس» في أحد منشوراته، وهذه حقيقة مُرّة لكن المرء مكره على الاعتراف. ما الذي يفسر إذًا معدلات الطلاق العالية بين النيجريين في أمريكا مقابل المعدلات المنخفضة بين النيجيريين في نيجيريا؟ ردت حورية دلتا أن للنساء حقوقًا تحميهن تمامًا في أمريكا، وأن معدلات الطلاق ستكون بالقدر نفسه إن طُبقت هذه القوانين في نيحيريا. فرد محاسب من الإيبو في ماساشوستس «لقد غسل الغرب دماغك، عليك أن تخجلي قبل أن تسمي نفسك نيجيرية». وردًا على إيز هيوستن

الذي كتب أن الرجال النيجيريين أنانيون حين يعودون إلى نيحيريا للزواج بطبيبات وممرضات، فتتمكن الزوجات الجديدات من كسب المال من أجلهم عند العودة إلى أمريكا، كتب محاسب من الإيبو في ماساشوستس «ما العيب في رغبة الرجل بأمان مالي من زوجته؟ ألا تريد النساء الشيء نفسه؟»

بعد أن غادر ذلك السبت، سألت العمة أوجو إفيملو «ما رأيك؟»

«يستخدم دهانات تفتيح بشرة».

«ماذا؟»

«ألم تري؟ وجهه ذو لون مضحك. لا بد أنه يستخدم نوعًا رخيصًا بلا حماية من الشمس. أي نوع من الرجال هذا الذي يفتح بشرته بريك؟»

ابتسمت العمة أوجو، وكأنها لم تلحظ اللون الأصفر المخضر لوجه الرجل، وأسوأ ما يكون عند الصدغين.

«إنه ليس سيئًا، ولديه عمل جيد»، صمتت قليلًا ثم قالت، «لم أعد شابة. أريد أن يكون لدايك أخ أو أخت».

«في نيجيريا، لن يمتلك رجل مثله الجرأة لمجرد الحديث إليك!»

«لسنا في نيجيريا يا إفيم».

قبل أن تذهب العمة أوجو إلى غرفة النوم، قاطِرةً خلفها عددًا من المخاوف، قالت «صلي من فضلك لينجح الأمر فحسب».

لم تصلِ إفيملو، ولكن لو فعلت، لما احتملت الصلاة لتكون العمة أوجو مع بارثولوميو. أحزنها أن تخضع العمة أوجو ببساطة للمألوف.

—

شعرت إفيملو بالرهبة من مانهاتن بفضل أوبِنز. وفي المرة الأولى التي استقلت فيها قطار الأنفاق من بروكلن إلى مانهاتن، مشت في الشوارع تراقب وتتأمل وراحتا يديها متعرّقتين. فهذه امرأة هيفاء تجري بكعبين عاليين، وثوبها القصير يطير خلفها، حتى تعثرت وكادت أن تسقط، وهذا رجل مكتنز يسعل ويبصق على حاجز الرصيف، وتلك فتاة ترتدي الأسود ترفع يدًا لسيارات الأجرة التي تمر بها. وهذه ناطحات السحاب اللانهائية التي علت إلى السماء، لكن نوافذ المباني علاها الغبار.

لكن العيوب الفاتنة لهذا كله قد هدّأت من روعها، وقالت لأوبنز: «إنها رائعة لكنها ليست الجنة». لم تطِق الانتظار حتى يرى مانهاتن هو أيضًا. وتخيلت أنهما يمشيان يدًا بيد، ويتوقفان لقراءة لوائح الطعام الملصقة على أبواب المطاعم، ثم يقفان قرب عربة طعام لشراء زجاجتين باردتين من الشاي المثلج. «قريبًا»، قال في رسالته، وكثيرًا ما ردّد هذه الكلمة أحدهما للآخر، وقد منحت خططهما أثر أمر واقعي.

—

وصلت نتائج العمة أوجو أخيرًا. جلبت إفيملو المظروف من صندوق البريد، كان نحيلًا جدًا، وعاديًا جدًا، كتب عليه **امتحان الرخصة الطبية في الولايات المتحدة** مطبوعة بخط عادي، وحملته في يدها لوقت طويل، آملة أن تكون أخبارًا طيبة. رفعته حالما دخلت العمة أوجو، فلهثت العمة أوجو وسألت: «هل هو سميك؟»

«ماذا؟ ماذا تعنين؟»، سألت إفيملو.

«هل هو سميك؟»، سألت العمة أوجو ثانية، تاركة حقيبتها تنزلق إلى الأرض وتقدمت للأمام، يدها ممدودة، ووجهها مخيف من الأمل. فأخذت المظروف وصاحت «لقد فعلتها!»، ثم فتحته لتتأكد، مسترقة النظر إلى ورقة رقيقة، «إنهم يرسلون مظروفًا سميكًا عند الرسوب، ليتمكن المرء من التسجيل».

«عمتي! كنت واثقة من ذلك! تهانينا!»، قالت إفيملو.

عانقتها العمة أوجو، كلاهما تميل على الأخرى، مستمعتين إحداهما لأنفاس الأُخرى، وعادت لإفيملو ذكرى دافئة من ليغوس.

«أين دايك؟»، سألت العمة أوجو، كأنه لا يكون في فراشه حين تعود من عملها الثاني. دخلت المطبخ، ووقفت تحت مصباح السقف المضيء ونظرت إلى النتيجة ثانية، بعينين مخضلتين، وقالت بصوت يشبه الهمس: «سأكون إذًا طبيبة عائلة في أمريكا هذه». وفتحت علبة كولا وتركتها لم تُمسّ.

قالت لاحقًا: «علي أن أفك ضفائري وأن أملس شعري من أجل المقابلات، فقد أخبرتني كيمي أنه ينبغي ألا أضفر شعري في المقابلة، فإن ضفرته سيظنونك قليلة الخبرة».

«هل هذا يعني أنه ليس في أمريكا طبيبات مضفورات الشعر؟» سألت إفيملو.

«أخبرتك بما قالوه لي. أنت في بلد ليست بلادك، فإن أردت النجاح افعلي ما ينبغي لك فعله».

وها هي مرة أخرى السذاجة الغريبة التي لفت بها العمة أوجو نفسها مثل بطانية. ويتضح لإفيملو أثناء الحوار أحيانًا أن العمة أوجو قد تركت عامدة شيئًا من ذاتها، شيئًا جوهريًا، في مكان بعيد ومنسي. قال أوبِنز إن هذا هو الامتنان المفرط الذي يصاحب قلق المهاجر، فقد قدم أوبِنز تفسيرًا كعادته، أوبِنز الذي هدّأها أثناء صيف الانتظار ذاك - بصوته الواثق في الهاتف، ورسائله الطويلة في المغلفات البريدية الزرقاء- وفسّر لها الانزعاج الجديد في معدتها حين أوشك الصيف على الانتهاء. فقد رغبت ببدء الدراسة، لتعثر على أمريكا الحقيقية، ومع ذلك ظهر هذا الانزعاج في معدتها من القلق والحنين الجديد الموجع لصيف بروكلن الذي ألفته مع الأطفال على الدراجات، والرجال السود مفتولي العضلات الذين يرتدون بلوزات بيضاء ضيقة بلا أكمام، وعربات المثلجات الرنانة، والموسيقى العالية من السيارات المكشوفة، وضياء الشمس في الليل وتعفّن الأشياء ونتانتها في الحرارة الرطبة. لم ترغب بترك دايك، فقد أشعرها التفكير بذلك بمثل شعور فقدان كنز. غير أنها أرادت مغادرة شقة العمة أوجو وبدء حياة ترسم فيها حدودها وحدها.

أخبرها دايك ذات مرة بحزن عن صديقه الذي ذهب إلى كوني آيلاند وعاد بصورة التقطت له على مزلقة شديدة الانحدار، ففاجأته في نهاية الأسبوع التي سبقت سفرها قائلة «نحن ذاهبان إلى كوني آيلاندا». أخبرتها جين أي قطار تستقل، وما عليها فعله وكم يكلّف ذلك، وقالت العمة أوجو إنها فكرة جيدة، لكنها لم تعطها المال فتضيفه إلى ما لديها. غير أنها لم تبال بما أنفقته حين شاهدت دايك، هذا الولد الصغير المنفتح على العالم تمامًا، على المزلقة يصرخ خوفًا وحماسة. وتناولا النقانق والحليب المخفوق وغزل البنات. «لا أستطيع الانتظار حتى لا يكون بوسعي القدوم معك إلى حمام السيدات»، قال لها فضحكت وضحكت. وفي قطار العودة كان متعبًا وناعسًا وقال هو يتكئ عليها: «كان هذا أفضل يوم معك يا ابنة الخال».

غمرها الوهج الحلو المر لنهاية المرحلة الانتقالية بعد أن قبّلت دايك قبلة الوداع بأيام، مرة ثم اثنتين ثم ثلاثًا وهو يبكي، هذا الطفل الذي لم يعتد البكاء،

وابتلعت دموعها وقالت العمة أوجو مرة بعد أخرى إن فيلادلفيا ليست بعيدة جدًا. دحرجت إفيملو حقيبتها إلى قطار الأنفاق، واستقلته إلى المبنى الواقع في شارع اثنين وأربعين، واستقلت حافلة للسفر إلى فيلادلفيا. جلست قرب النافذة، وقد ألصق أحدهم قطعة من العلكة على إطارها، وقضت دقائق طويلة في النظر ثانية إلى بطاقة الرعاية الاجتماعية ورخصة القيادة التي تعود لنغوزي أوكونكوو. كانت تكبرها بعشر سنوات على الأقل، لها وجه صغير وحاجبين يبدآن مثل كرتين قبل أن يصبحا شعاعين، وفك له شكل حرف ٧.

«أنا لا أشبهها مطلقًا»، قالت إفيملو عندما أعطتها العمة أوجو البطاقة.

«كلنا نبدو متشابهين للبيض».

«بربك يا عمتي!»

«لست أمزح. ابنة عم أمارا جاءت العام الماضي ولم يكن لديها وثائق بعد، وأخذت تعمل بهوية أمارا. هل تذكرين أمارا؟ قريبتها فاتحة جدًا ونحيلة. إنهما لا تتشابهان مطلقًا، غير أن أحدًا لم يلحظ. وقد عملت مساعدة صحية في منزل بفرجينيا. احرصي فقط على أن تتذكري اسمك الجديد. لدي صديقة نسيت وناداها أحد زملائها وناداها لكنها لم تتحرك. ثم شكوا في الأمر وبلّغوا عنها إدارة الهجرة».

الفصل الثاني عشر

وقفت جينيكا في محطة الحافلات الصغيرة المكتظة، مرتدية تنورة قصيرة وبلوزة ضيقة غطت صدرها لكنها لا تغطي أوسط جذعها، تنتظر لترى إفيملو وفي أمريكا الحقيقية. كانت جينيكا أكثر نحولًا، بنصف وزنها السابق، وبدا رأسها أكبر، متناغمًا مع عنق طويل يذكّر بحيوان مبهم غريب. بسطت ذراعيها، كأنها تحرض طفلًا على العناق، وهي تضحك وتصيح «إفيمسكو، إفيمسكو!»، وعادت إفيملو لوهلة إلى المدرسة الثانوية؛ فرأت فتيات يثرثرن مرتديات الزي المدرسي بلونيه الأبيض والأزرق، وتجثم على رؤوسهن قبعات اللباد المسطحة، متجمعات في ممرات المدرسة. فعانقت جينيكا، وقد جعل عناقهما الحميم الدرامي، والانفكاك ثم التلاحم ثانية، عينيها تغرورقان بالدموع، وهو ما فاجأها قليلًا.

«انظري إليك! هل هذه أنت حقًا؟»، قالت جينيكا مخشخشة الأساور الفضية الكثيرة حول معصمها.

«منذ متى توقفت عن الأكل وصرت تشبهين سمكة قديد مجففة؟»، سألت إفيملو.

ضحكت جينيكا، وأخذت الحقيبة واستدارت نحو الباب، «هيا بنا، لنذهب. ركنت السيارة بشكل مخالف».

وقفت سيارة الفولفو الخضراء عند زاوية الشارع الضيق، فتقدمت نحوهما

امرأة متجهمة ترتدي زيًا رسميًا وتحمل دفتر مخالفات في يدها، حين قفزت جينيكا وشغلت السيارة. «كان ذلك وشيكًا!»، قالت ضاحكة. توقف رجل متشرد يرتدي قميصًا رثًا بأكمام قصيرة ويدفع عربة تسوق مملوءة بالعلب قرب السيارة كأنما ليرتاح قليلًا، محدقًا في الفراغ، ونظرت إليه جينيكا وهي تحرك السيارة في الشارع. قادتا السيارة بنوافذ مفتوحة. فاحت من فيلادلفيا رائحة شمس الصيف، والأسفلت المحروق، واللحم الذي يئز في عربات الأطعمة في زوايا الشوارع، وقد احدودب داخلها رجال ونساء سمر أجانب. ستحب إفيملو شطائر اللحم من هذه العربات، من الخبز المسطح ولحم الغنم والصلصة المتقاطرة، كما أنها ستحب فيلادلفيا نفسها. إذ لم ترفع لديها مؤشرالرهبة كما فعلت مانهاتن، وهي مدينة حميمية لكنها ليست ريفية، بل مدينة يمكن أن تكون لطيفة معك. رأت إفيملو نساء على الرصيف ذاهبات لاستراحة الغداء من العمل، يرتدين الأحذية الرياضية، في علامة لتفضيل الأمريكيين للراحة على الأناقة، ورأت أزواجًا شبابًا يتعانقون ويتبادلون القُبَل من حين لآخر، كأنهم يخشون ذوبان حبهم وانصهاره للعدم إن ترك بعضهم أيدي بعض.

«استعرت سيارة صاحب العمل. لم أرغب بالقدوم لأخذك في سيارتي الخَردة. لا أصدق يا إفيمسكو، أنت في أمريكا!»، قالت جينيكا. ثمة سحر غريب رنان في نحولها، وفي بشرتها الزيتونية اللون، وفي تنورتها القصيرة التي ارتفعت للأعلى، وبالكاد غطت منفرج ساقيها، وشعرها الأملس الذي ظلت تثبته خلف أذنيها، بخصله الشقراء اللامعة في ضوء الشمس.

«سندخل المدينة الجامعية، وهنا يقع مبنى وِلسن الجامعي، هل تعرفين يا حلوة؟ يمكننا الذهاب لرؤية الجامعة أولًا، ثم نذهب إلى بيتي، إنه في الضواحي، ثم يمكننا الذهاب إلى بيت صديقتي مساء، إنها تقيم «جَمعة». انتقلت جينيكا إلى النيجيرية الإنجليزية، التي بدت نسخة بالية محترقة وهي تتوق لإثبات أنها لم تتغير. لقد ظلت على اتصال بمرور السنوات بإخلاص شديد، فتتصل وتكتب رسائل وترسل كتبًا وسراويل قبيحة تسميها بنطلونات فضفاضة. وها هي الآن تقول «هل تعرفين يا حلوة»، ولم تملك إفيملو الشجاعة لإخبارها أنه لم يعد أحد يقول «حلوة».

سردت جينيكا حكايا عن تجاربها الأولى في أمريكا، كأنها كلها زاخرة بالحكمة

الثاقبة التي تحتاجها إفيملو.

«لو رأيت كيف سخروا مني في المدرسة الثانوية عندما قلت إن أحدهم «يسخر مني»، لأنها تعني ممارسة الجنس! لذا علي أن أشرح دائمًا أنها في نيجيريا تعني يتصنع. وهل يمكنك أن تتخيلي أن «مختلط العرق» كلمة سيئة هنا؟ قلت لجمع من أصدقائي في سنتي الجامعية الأولى إنني انتخبت أجمل فتاة في المدرسة في الديار، هل تذكرين؟ ذاك لأنني مختلطة الأعراق. هنالك ما هو أكثر من هذا، هناك بعض الهراء الذي ستعرفينه من البيض في هذه البلاد الذي لا أود معرفته. لكن على أية حال، أخبرتهم عن الديار وملاحقة الفتيان لي لأنني مختلطة العرق، فقالوا إنني أحط من قدر نفسي. لذا أقول الآن إنني مزدوجة العرق، وعلي أن أشعر بالاستياء إن دعاني أحدهم بمختلطة العرق. التقيت بالكثير من الأشخاص الذين أمهاتهم من البيض ويواجهون الكثير من المشاكل، آه. لم أعرف أنني سأتعرض للمتاعب حتى قدمت لأمريكا. بصراحة، إن أراد أحد تربية أطفال ثنائيي الأعراق فليفعل ذلك في نيجيريا.»

«طبعًا، حيث سيلاحق كل الفتية البنات مختلطات العرق».

«ليس كل الفتيان، بالمناسبة»، ثم أومأت جينيكا، «ينبغي على أوبِنز أن يسرع بالقدوم إلى أمريكا قبل أن يسرقك أحدهم. هل تعلمين أن قوامك من النوع المفضل هنا؟».

«ماذا؟»

«أنت نحيلة ولك صدر كبير».

«أرجوك أنا لست نحيلة، أنا رشيقة».

«الأمريكيون يقولون نحيلة، ونحيلة هنا كلمة جيدة».

«ألهذا توقفت عن الأكل؟ لقد انمسحت مؤخرتك كلها. تمنيت دومًا أن يكون لي مؤخرة كمؤخرتك»، قالت إفيملو.

«هل تعلمين أنني أخذت أفقد وزني حين وصلت هنا؟ لقد أوشكت على الإصابة بالأنوركسيا. فقد سماني الأولاد في المدرسة بالخنزيرة. حين يقول لك أحدهم إنك خسرت وزنًا في الديار، فهذا يعني شيئًا سيئًا كما تعلمين. لكن إن قال لك أحدهم هنا إنك خسرت وزنًا فلا بد أن تشكريه. إن الأمر مختلف هنا». قالت جينيكا، بشيء

من الحزن، كأنها هي أيضًا حديثة عهد بأمريكا.

لاحقًا، راقبت إفيملو جينيكا في شقة صديقتها ستيفاني، وزجاجة جعة تتأرجح بين شفتيها، وكلماتها ذات اللكنة الأمريكية تنساب من فمها، وفوجئت بمدى تشابه جينيكا مع صديقاتها الأمريكيات. كانت جيسيكا، اليابانية الأمريكية، جميلة ومفعمة بالحيوية، تلعب بالمفتاح ذي الشعار لسيارتها المرسيدس. وتيريزا الفاتحة البشرة، ذات الضحكة العالية وتضع أزرارًا ماسية، وترتدي حذاء بالياً مهترئًا. وستيفاني الصينية الأمريكية ذات الشعر الرائع المتدلي المقصوص قصيرًا والذي يلتف للداخل عند الذقن، التي تمد يدها من حين لآخر إلى حقيبتها التي تحمل حروف اسمها لتخرج سيجارة وتخرج للتدخين. وهاري ذات البشرة بلون القهوة والشعر الأسود التي ترتدي قميصًا ضيقًا بأكمام قصيرة قالت «أنا هندية، لكني لست هندية أمريكية»، حين عرفتهن جينيكا على إفيملو. ضحكوا جميعًا في الوقت نفسه على الأشياء نفسها وقالوا «يا للهول!»، عن الشيء نفسه تقريبًا، وقد انسجموا كثيرًا. أعلنت ستيفاني أن لديها جعة منزلية الصنع في ثلاجتها، فهتف الجميع «يا سلام!»، ثم قالت تيريزا «هل يمكنني شرب الجعة المعتادة، ستيف؟»، بصوت خفيض لشخص يخشى التوبيخ. جلست إفيملو على كرسي مفرد بذراعين في طرف الغرفة، تشرب عصير البرتقال، وتصغي لحديثهن. **الشركة فاسدة جدًا. يا إلهي، لا أصدق أن في هذا الشيء كل هذا الكم من السكر. سيغير الإنترنت العالم تمامًا.** سمعت جينيكا تسأل «هل تعرفن أنهم يستخدمون شيئًا ما من عظام الحيوانات لصنع معطر الأنفاس بنكهة النعناع؟»، فكشرت الباقيات. ثمة شفرات تعرف بها جينيكا أنها سيطرت على الجو. على عكس العمة أوجو، جاءت جينيكا إلى أمريكا بمرونة الشباب وانسيابه، فتسللت العلامات الثقافية تحت جلدها، وها هي تذهب للعب البولينغ، وتعرف ما سيمثله توبي مغواير[28]، وترى أن التغميس في صحن مرتين مقرف. تكومت زجاجات الجعة وعلبها، واسترخين جميعًا على الأريكة وعلى البساط في كسل، وقد علت موسيقى الروك الصاخبة، التي وجدتها إفيملو نشازًا، من مشغل الأقراص المضغوطة. كانت

28) (1975): ممثل أمريكي، بطل أفلام الرجل العنكبوت.

تيريزا الأسرع في الشرب مدحرجة كل علبة فارغة على الأرضية الخشبية، وتضحك الأخريات في حماس أثار حيرة إفيملو، لأن الأمر ليس مضحكًا، فكيف يعرفن متى يضحكن، وعلام يضحكن؟

اشترت جينيكا ثوبًا لحفلة عشاء، يقيمها المحامون الذين تتدرب لديهم.

«عليك ابتياع أشياء يا إفيم».

«لن أنفق عشرة قطع كوبو ما لم أضطر لذلك».

«عشرة سنتات».

«عشرة سنتات».

«سأعطيك سترة وأغطية السرير، لكنك بحاجة على الأقل للسراويل الضيقة، فالبرد قادم».

«سأتدبّر أمري»، قالت إفيملو. وستفعل حتى تعثر على عمل، فقد شعرت بالذعر لتبديد المال.

«أنا سأدفع لك يا إفيم».

«كأنك تجنين الكثير».

«لكني أجني بعض المال على الأقل»، مازحتها جينيكا.

«آمل حقًا أن أجد عملًا قريبًا».

«ستفعلين، لا تقلقي».

«لا أدري كيف يمكن لأحد أن يصدق أنني نغوزي أوكونكوو».

«لا تظهري لهم الرخصة حين تذهبين للمقابلة، أظهري بطاقة الرعاية الاجتماعية فقط. ربما لن يسألوك حتى، أحيانًا لا يطلبونها لأعمال صغيرة كهذه».

أخذتها جينيكا إلى متجر الثياب، الذي وجدته إفيملو مشعًا جدًا. لقد ذكرها بملهى ليلي، ترتفع فيه موسيقى الديسكو بصوت عال وداخله معتم. والبائعتان، امرأتان شابتان نحيلتا الأذرع ترتديان الأسود بالكامل، تتحركان للأعلى والأسفل بسرعة شديدة. لإحداهما لون الشكولاته، يشع شعرها الأسود الطويل بالحمرة، أما الأخرى فبيضاء ذات شعر فاحم السواد ينساب خلفها وهي تصعد وتنزل.

«أهلًا يا سيدتيّ، كيف حالكما؟ هل يمكنني مساعدتكما؟»، سألت بصوت

رتيب رنان. جذبت ثيابًا من علاقاتها وفتحتها من الرفوف لتريها لجينيكا. وأخذت إفيملو تنظر إلى بطاقات الأسعار، محولة إياها إلى النايرا، متعجبة «يا إلهي، كيف لهذا الشيء أن يكون بهذا السعر؟» أخذت بعض الثياب وتفحصتها بحذر، لتعرف ماهيتها، إن كانت ثيابًا داخلية أم بلوزة، قميصًا أم فستانًا، وظلت غير واثقة أحيانًا.

«هذا وصل للتو فعليًا»، قالت البائعة عن فستان لامع، كأنها تفشي سرًا كبيرًا، وقالت جينيكا بدهشة كبيرة: «أوه يا إلهي، حقًا؟». جربت جينيكا الفستان تحت المصباح المشع للغاية في غرفة القياس، وهي تمشي على أطراف أصابعها وتقول «أحبه».

«لكنه قبيح»، قالت إفيملو، فقد بدا لها مثل جراب مستطيل ألصق عليه شخص سئم بعض الترتر كيفما اتفق.

«إنه مابعد حداثي»، قالت جينيكا.

تساءلت إفيملو، وهي تراقب تهندم جينيكا أمام المرآة، إن كانت ستشاطر جينيكا ذوقها أيضًا في الثياب البشعة، وإن كان هذا ما تفعله أمريكا بك.

عند الحساب، سألت أمينة الصندوق الشقراء: «هل ساعدك أحد؟»

«أجل»، قالت جينيكا.

«تشيلي أم جنيفر؟»

«آسفة، لا أذكر الاسم»، نظرت جينيكا حولها لتشير الى من ساعدتها، لكن كلتا الشابتين اختفت في غرف القياس في الخلف.

«هل كانت ذات الشعر الطويل؟»، قالت أمينة الصندوق.

«حسن، كلاهما لها شعر طويل».

«ذات الشعر الداكن؟"

«كلاهما داكنة الشعر».

ابتسمت جينيكا ونظرت إلى أمينة الصندوق، فابتسمت ونظرت إلى شاشة حاسوبها، ومرت ثانيتان من الصمت قبل أن تقول بمرح «لا بأس، سأعرف لاحقًا وأحرص على أن تحصل على عمولتها».

حين خرجتا من المتجر قالت إفيملو «كنت أنتظر سؤالها 'هل هي ذات العينين

والساقين؟' لماذا لم تسأل هل كانت فتاة سوداء أم بيضاء فحسب؟»

ضحكت جينيكا «لأن هذه أمريكا، يفترض بك أن تتظاهري أنك لا تلاحظين أشياء بعينها».

—

طلبت جينيكا من إفيملو أن تمكث معها، لتوفر نقود الإيجار، لكن شقتها بعيدة جدًا ، تقع في نهاية الخط الرئيس، وسيكلفها كثيرًا قطار النقل الذي ستستقله يوميًا في فيلادلفيا. فبحثتا عن شقة معًا في غرب فيلادلفيا، وفوجئت إفيملو بالخزائن المتعفنة في المطبخ والفئران التي تتجول في أرجاء الغرف الفارغة.

«كان بيت الطالبات في نسوكا قذرًا، لكنه خالٍ من الجرذان».

«إنه فأر»، قالت جينيكا.

أوشكت إفيملو على توقيع العقد - فإن كان العيش مع الفئران يعني توفير النقود، فليكن إذًا-حين أخبرتهما صديقة جينيكا عن غرفة للإيجار، وهي صفقة رائعة كما تقتضي حياة الجامعة. كانت شقة من أربع غرف نوم ذات سجاد رطب، تقع فوق محل للبيتزا في جادة باولتن، في الزاوية حيث يتعاطى مدمنو المخدرات أحيانًا أنابيب الكوكايين، وقطع من المعدن المتمعج تتلألأ تحت نور الشمس. كانت غرفة إفيملو الأرخص والأصغر، مقابلة لجدران من القرميد البالي للبناء المجاور. وقد تناثر شعر كلب في كل مكان، وبدت شريكاتها في السكن، كاتي وإلينا وأليسن متشابهات تمامًا، فقد كنّ جميعًا صغيرات العظام ونحيلات الأوراك، وشعرهن بندقي اللون مملس، وقد تكدست مضاربهن اللكروس خاصتهن في الردهة الضيقة. يتجول كلب إلينا هنا وهناك بزهو، ضخمًا وأسود، مثل حمار قذر، وتظهر بين الفينة والأخرى رابية من روث الكلاب أسفل الدرج فتصرخ إلينا «إنك في ورطة كبيرة يا صاح!» كأنها تمثل أمام شريكاتها، مؤدية دورًا يعرف الجميع سطوره. تمنت إفيملو لو أبقين الكلب في الخارج، حيث تنتمي الكلاب. حين سألت إلينا لمَ لا تربت إفيملو على كلبها أو تحك رأسه منذ انتقالها قبل أسبوع، قالت «لا أحب الكلاب».

«هل هذا راجع لأمر ثقافي؟»

«ماذا تقصدين؟»

«أعني مثلما أعرف أنهم في الصين يأكلون لحم القطط ولحم الكلاب».

«صديقي في الديار يحب الكلاب، لكني لا أحبها فحسب».

«أوه»، قالت إلينا ونظرت إليها بحاجبين معقودين، كما نظرت إليها كل من جاكي وأليسن في وقت أسبق حين قالت إنها لم تلعب البولينغ قط، كأنهن يتعجبن كيف أصبحت كائنًا بشريًا طبيعيًا دون لعب البولينغ على الإطلاق. لقد وقفت على حافة حياتها الخاصة، متشاطرة الثلاجة والمرحاض في حميمية فارغة مع أشخاص لا تعرفهم مطلقًا؛ أشخاص يكثرون من عبارات التعجب «رائع!» ويقولون كثيرًا «هذا رائع!»، أشخاص لا يفركون أنفسهم أثناء الاستحمام، لقد تراكمت علب الشامبو والبلسم وسائل الاستحمام لكن لم تعثر على أي ليفة، وجعلهم هذا، غياب الليفة، يبدون غرباء عنها إلى حد بعيد. (إحدى ذكرياتها القديمة كانت لأمها، وبينهما دلو ماء في الحمام قائلة لها «سريعًا، افركي ما بين ساقيك جيّدًا جيّدًا جيّدًا...» وقد جهدت إفيملو كثيرًا في الدعك بالليفة، لتظهر لأمها كم صارت نظيفة، وظلت تمشي بساقين منفرجتين لأيام لاحقة). كان ثمة شيء غير قابل للشك في حياة شريكاتها، من افتراض اليقين الذي فتنها، فيقلن «لنذهب ونجلب بعضًا» مما يحتجنه أيًا كان- المزيد من الجعة، أو البيتزا، أو بوفالو وينغز أو الكحول- كأن جلب هذا لا يتطلب المال. لقد اعتادت في الديار أن يسأل الناس أولًا هل تملك المال؟ قبل أن يضعوا خططًا كهذه. كن يتركن علب البيتزا على طاولة المطبخ، والمطبخ نفسه في فوضى لامبالية تستمر لأيام، وفي نهاية الأسبوع يجتمع أصدقاؤهن في غرفة المعيشة، وقد رصت صناديق من الجعة في الثلاجة، وغطت خطوط من البول الجاف كرسي المرحاض.

«نحن ذاهبات إلى حفلة، تعالي معنا. سيكون وقتًا ممتعًا!»، قالت جاكي، وارتدت إفيملو سروالها الضيق وبلوزة عالية القبة استعارتها من جينيكا.

«ألن تتأنقن؟»، سألت شريكاتها قبل المغادرة، وقد ارتدين كلهن سراويل الجينز الواسع، وقالت جاكي بضحكة أوحت بظهور شذوذ غريب: «نحن متأنقات، ما الذي تتحدثين عنه؟». ذهبن إلى بيت أَخَوِيّة في شارع تشست نت، حيث وقف الجميع يشربون البَنش المطعم بالفودكا من أكواب بلاستيكية، إلى أن فهمت إفيملو أنه ليس في الحفلة رقص، وأن الاحتفال هنا يعني الوقوف والشرب. كانوا جميعًا خليطًا

من الأقمشة البالية والياقات الفضفاضة، وقد بدت ثياب الطلاب كلهم في الحفلة رثة عمدًا (بعد سنوات، سيقول منشور في المدونة: حين يتعلق الأمر بالهندام، تعد الثقافة الأمريكية شديدة الواقعية بحيث أنها لم تتجاهل تمثيل الذات فحسب، بل حولت هذا التجاهل إلى فضيلة. «نحن شديدو التميز/ الانشغال/ الجاذبية/ ولسنا محدودي التفكير لنهتم بمظهرنا أمام الآخرين، لذلك يمكننا ارتداء المنامات إلى المدرسة والثياب الداخلية إلى المركز التجاري»). وما إن يثملون أكثر فأكثر، حتى يسقط بعضهم على الأرض فاقد الوعي، فيخرج الآخرون أقلامًا برؤوس من لبّاد ويكتبون على الجلد المكشوف لفاقد الوعي: «الْعَقني، هيا يا عاشق الجنس!»

«قالت جاكي إنك من إفريقيا»، سألها فتى يرتدي قبعة بيسبول.

«أجل».

«هذا رائع حقًا!»، قال، وتخيلت إفيملو إخبار أوبِنز عن هذا، والطريقة التي ستقلد بها الفتى. سحب أوبِنز منها كل خيوط قصصها، معرجًا على التفاصيل وطارحًا الأسئلة، وقد يضحك أحيانًا، فيتردد صدى الصوت في الخط. أخبرته عن قول أليسن «هي، سنخرج لتناول الطعام، تعالي معنا!»، فظنتها دعوة وأن أليسن أو واحدة من الأخريات ستدفع ثمن وجبتها، مثلما تكون الدعوة في الديار. لكن حين جلبت النادلة الفاتورة، بدأت أليسن بحرص تفرز عدد المشروبات لكل شخص طلبها، ومن تناول طبق مقبلات الكالماري، لتتأكد ألا يدفع أحد عن أحد. وجد أوبِنز هذا مسليًا جدًا وقال أخيرًا «هذه أمريكا التي تناسبك!».

كان الأمر مضحكًا بالنسبة لها حين تتذكره فقط، فقد جاهدت لإخفاء ارتباكها أمام حدود الضيافة، وفي أمر البقشيش - دفع خمسة عشر أو عشرين بالمئة إضافية من قيمة الفاتورة للنادل- الذي بدا مثل رشوة على نحو مريب، ونظامًا إجباريًا وفعالًا من الارتشاء.

الفصل الثالث عشر

نسيت إفيملو في بادئ الأمر أنها شخص آخر، حين فتحت امرأة منهكة الوجه الباب في شقة جنوب فيلادلفيا، وقادتها في نتانة بول قوية. كانت غرفة المعيشة معتمة فاسدة الهواء، وتخيلت كامل المبنى منقوعًا لأشهر ولسنوات في البول المتراكم، وهي تعمل في هذه الغيمة من البول. داخل الشقة، ثمة رجل يئن بأصوات عميقة ومخيفة، أنين شخص كان الأنين خياره الأخير، وأرعبها.

قالت المرأة، ناظرة إليها بعينين ثاقبتين متفحصتين: «هذا أبي. هل أنت قوية؟»

شدد الإعلان في صحيفة سيتي على القوة، **مطلوب مساعدة صحية منزلية قوية، الدفع نقدًا.**

«أنا قوية بما يكفي لأداء العمل»، قالت إفيملو، كابحة الرغبة للخروج من الشقة والجري والجري.

«هذه لكنة جميلة. من أين أنت؟»

«نيجيريا».

«نيجيريا. أليس فيها حرب دائرة هناك؟»

«لا».

«هل يمكنني رؤية هويتك؟»، سألتها المرأة ثم أضافت حين نظرت إلى الرخصة

«كيف تلفظين اسمك ثانية؟»

«إفيملو».

«ماذا؟»

غصت إفيملو «نْغوزي، تدغمين النون في أول الاسم».

«حقًا». علت وجه المرأة مسحة من الإنهاك اللانهائي، وقد كانت متعبة جدًا لترتاب بأمر اللفظين المختلفين، «هل يمكنك العيش هنا؟»

«العيش هنا؟»

«نعم، تعيشين هنا مع أبي. توجد غرفة إضافية. ستعملين ثلاثة ليال في الأسبوع. عليك تنظيفه في الصباح»، توقفت المرأة، «أنت نحيلة جدًا، اسمعي ما زال لدي شخصان لمقابلتهما ثم أعود إليك».

«حسن، شكرًا لك»، أدركت إفيملو أنها لن تحصل على العمل وشعرت بالامتنان لهذا.

رددت «أنا نغوزي أوكونكوو» أمام المرآة قبل مقابلتها التالية، في مطعم سيفيو. «هل يمكنني أن أناديك نغوز؟»، سأل المدير بعد أن تصافحا، وقالت نعم، ولكنها صمتت قبل موافقتها، أقصر اللحظات وأسرعها، لكنها ما زالت صمتًا. وتساءلت إن كان هذا سبب عدم حصولها على العمل.

قالت لها جينيكا لاحقًا «بإمكانك القول إن نغوزي هو اسمك القَبلي، وإفيملو هو اسمك في الغابة وتخترعي اسمًا ثالثًا ليكون اسمك الروحي. إنهم يصدقون كل هذا الهراء عن إفريقيا».

ضحكت جينيكا ضحكة واثقة عميقة، وضحكت إفيملو أيضًا، رغم أنها لم تفهم المزحة تمامًا. وراودها شعور مفاجئ بالضبابية، بشبكة بيضاء حاولت التشبث بها. لقد بدأ خريف الرؤية الغائمة: خريف الحيرة والتجارب التي علمت أن فيها طبقات زلقة من المعاني التي ضللتها.

—

لف السديم العالم من حولها، فكانت ترى أشكال الأشياء لكنها لم ترها بوضوح كافٍ، ليس كافيًا أبدًا. أخبرت أوبِنز عن أشياء كان ينبغي لها أن تتعلم كيف

تفعلها، لكنها لم تتعلم، وتفاصيل تعين عليها أن تمارسها في فضائها لكنها لم تفعل. وذكرها بنبرته الهادئة والمواسية دومًا بأنها سريعة التكيف. قدمت طلبات لتعمل نادلة، ومضيفة، وساقية، وأمينة صندوق، ومن ثم انتظرت عروض عمل لم تأت أبدًا، ولامت نفسها على هذا. فلا بد أن شيئًا ما لم تقم به بشكل صحيح، غير أنها لم تعلم ماهو. حل الخريف رطبًا ورمادي السماء. وقد تسرب المال من حسابها المصرفي الضئيل، وما زالت أسعار الكنزات الأرخص من روس مروعة بتكلفتها الباهظة، إلى جانب تذاكر القطار والحافلة، وأحدثت البقالة فراغات في حسابها المصرفي، رغم أنها وقفت متيقظة عند المحاسبة، تراقب الشاشة الإلكترونية وتقول «توقفي من فضلك، لن آخذ بقية الأغراض» حين يصل المبلغ ثلاثين دولارًا. كانت تجد رسالة لها كل يوم على طاولة المطبخ، وبداخلها فاتورة الرسوم، وكلمات مطبوعة في حروف كبيرة **سيُلغى تسجيلك ما لم يُسدد المبلغ في التاريخ المدون أسفل هذا الإشعار.**

أصابها ثخن الحروف الكبيرة بالذعر أكثر مما فعلت الكلمات، فخشيت من العواقب المحتملة، خوفًا مبهمًا لكنه دائم. ولم يخطر في ذهنها أن تلقي الشرطة القبض عليها لعدم دفعها رسوم الجامعة، لكن ما الذي يحدث إن لم تدفع رسوم الجامعة في أمريكا؟ أخبرها أوبِنز أن لا شيء سيحدث، واقترح عليها أن تتحدث إلى أمين الصندوق في الكلية حول وضعها خطةً للدفع بحيث يمكنها فعل شيء على الأقل. كثيرًا ما اتصلت به ببطاقات هاتفية رخيصة تشتريها من محل مزدحم في محطة وقود في جادة لانكاستر، فتحك الغبار المعدني لتكشف الرقم تحته، يغمرها الترقب لسماع صوت أوبِنز مرة أخرى. كان يهدئها، واستطاعت معه أن تترك العنان لمشاعرها أيًا كانت، ولا تضطر لإضفاء بعض المرح على صوتها كما تفعل مع والديها، قائلة لهم إنها بخير، وإنها متفائلة جدًا للحصول على عمل النادلة، وتبلي بلاء حسنًا في صفوفها.

كان الحديث إلى دايك نور أيامها، إذ يجعلها صوته حاد النبرة في الهاتف تشعر بالدفء، وهو يخبرها بما حدث في مسلسله التلفزيوني، وكيف أنه انتقل إلى مستوى أعلى في جهاز ألعاب غيم بوي، ويكرر عليها السؤال بقوله «متى ستأتين لزيارتنا يا ابنة الخال؟ أتمنى لو كنت ترعيني، لا أحب الذهاب إلى منزل الآنسة براون. حمامها نتن».

افتقدته، وأخبرته أحيانًا بأمور عرفت أنه لن يفهمها، لكنها تخبره على أية حال. فقد أخبرته عن أستاذها الذي يجلس على العشب في استراحة الغداء لتناول شطيرة، ذاك الذي طلب منها أن تناديه باسمه الأول آل، الذي يرتدي سترة جلدية مرصعة ويملك دراجة نارية. في اليوم الذي وصلتها فيه رسالة في البريد المهمل قالت له «خمن ما حدث؟ وصلتني رسالة اليوم»، كانت الرسالة التي تسبق الموافقة على البطاقة الائتمانية، باسمها مكتوبًا بتهجئة سليمة ومطبوعًا بأناقة، قد رفعت معنوياتها، وجعلتها أقل هامشيّة، وأكثر حضورًا، فأحدهم يعرفها إذًا.

الفصل الرابع عشر

ثم ظهرت كريستينا توماس، كريستينا توماس بهيئتها النظيفة، وعينيها الزرقاوين المخضلتين، وشعرها الباهت وبشرتها الشاحبة. جلست كريستينا توماس في المقعد الأمامي مبتسمة، وقد ارتدت سراولًا ضيقًا ضاربًا إلى البياض جعل ساقيها تبدوان كساقي ميت. كان نهارًا دافئًا، ومشت إفيملو وهي تمر بطلاب ممددين على المروج الخضراء، وقد تكومت بالونات براقة تحت لافتة مرحبًا بالطلاب المستجدين.

«مساء الخير، هل هذا هو المكان الصحيح للتسجيل؟»، سألت إفيملو كريستينا توماس، التي لم تكن تعرف اسمها عندئذ.

«أجل. والآن، هل أنت طالبة أجنبية؟»

«أجل».

«عليك أولًا أن تحصلي على رسالة من مكتب الطلاب الأجانب».

ابتسمت إفيملو شفقةً، لأن كريستينا توماس مصابة بمرض جعلها تتحدث ببطء، وشفتاها تطقطقان وتزمان، وهي تبين لها الاتجاهات نحو مكتب الطلاب الأجانب. وحين عادت إفيملو بالرسالة، قالت كريستينا «أريدك أن تملئي نموذجين، هل تعرفين كيف تملئين هذه؟» وأدركت أن كريستينا توماس تتحدث على هذا النحو بسببها، بسبب لكنتها الأجنبية، وشعرت لوهلة أنها طفلة صغيرة، رخوة الأطراف يسيل منها اللعاب.

«أنا أتحدث الإنجليزية»، قالت.

قالت كريستينا: «أعرف أنك تفعلين. لكني لا أعرف مدى إتقانك لها».

أجفلت إفيملو، وانكمشت في تلك اللحظة المتوترة الصامتة التي التقت فيها عيناها بعيني كريستينا توماس قبل أن تأخذ الأوراق، انكمشت مثل ورقة شجر يابسة. تحدثت الإنجليزية طوال حياتها، وترأست نادي المناظرة في المدرسة الثانوية، وظنت دومًا أن اللكنة الأمريكية ناقصة، ما كان عليها أن تجفل وتجبن، لكنها فعلت. حين انخفضت برودة الخريف في الأسابيع التالية، أخذت تتمرن على اللكنة الأمريكية.

—

كانت الدراسة الجامعية في أمريكا سهلة، فالفُروض تُرسَل بالبريد الإلكتروني، وقاعات الدراسة مكيّفة، والأساتذة مستعدون لإعطاء امتحان إكمال. لكنها لم تشعر بالراحة بما يدعوه الأساتذة بـ «المشاركة»، ولم تفهم لمَ يجب أن يكون جزءًا من الدرجة النهائية، فهذا يجعل الطلاب يتحدثون ويتحدثون، ويضيع وقت الدرس على عبارات واضحة، وكلمات جوفاء، وأحيانًا بلا معنى. لا بد أن الأمريكيين يتعلمون منذ المدرسة الابتدائية أن يقولوا شيئًا في الصف دومًا، أيًا يكن. لذا جلست منعقدة اللسان، محاطة بطلاب يجلسون باسترخاء في مقاعدهم، متوهّجون بالمعرفة، وليست معرفة بموضوعات المحاضرات، بل كيف تكون في الصفوف الدراسيّة. فهم لا يقولون «لا أعرف» أبدًا، بل يقولون عوضًا عنها «لست واثقًا» التي لا تقدّم أيّ معلومات لكنها توحي مع ذلك باحتمال المعرفة. يسير هؤلاء الأمريكيون بتمهّل، دون إيقاع. ويتحاشون إعطاء تعليمات مباشرة، فلا يقولون «اسأل أحدًا ما في الطابق الأعلى» بل يقولون «ربما تودّ سؤال أحد في الطابق الأعلى؟». وحين تزل وتسقط، وحين تختنق، وحين يحل عليك سوء الحظ لا يقولون «آسف»، بل يقولون «هل أنت بخير؟» في حين أن من الواضح أنك لست كذلك. وحين تقول لهم «آسف»عندما يختنقون أو يزلون أو يصيبهم مكروه، يجيبونك بعيون متسعة من الدهشة «أوه، هذا ليس خطؤك». ويفرطون في استخدام كلمة «متحمس»، فالأستاذ متحمس لكتاب جديد، والطالب متحمس لصف، والسياسي على التلفاز

متحمس للقانون، وكان هذا كله حماسًا كثيرًا. أثارت دهشتها بعض التعابير التي تسمعها يوميًا وضايقتها، وتساءلت عن رأي والدة أوبنز بها: **لا يجب عليك فعل هذا، أمامك ثلاث أشياء، تتواجد لدي تفاحة، بضع أيام، أريد أضطجع**[29]. وقالت لأوبنز: «لا يمكن لهؤلاء الأمريكيين الحديث بالإنجليزية». في يومها الأول في الجامعة، زارت المركز الطبي، وحدقت طويلاً بسلة مملوءة بالواقيات الذكرية المجانية في الزاوية. وقالت لها موظفة الاستقبال بعد الفحص الطبي: «أنت جاهزة تمامًا!»، وتساءلت ببلاهة عما يعني أنت جاهزة حتى أدركت أنها تعني طبعًا أنها فعلت كل تحتاجه.

كانت تستيقظ كل صباح وهي تشعر بالقلق بشأن المال، فإن اشترت كل الكتب الدراسية التي تحتاجها، لن يبقى لديها المال لدفع الإيجار، لذا استعارت الكتب أثناء المحاضرة وكتبت ملاحظات متوترة تحيرها أحيانًا عندما تقرأها لاحقًا. سمحت لها سمانثا زميلتها الجديدة في الدراسة، وهي امرأة نحيلة تتحاشى الشمس وكثيرًا ما تقول «أنا أحترق بسهولة»، بأخذ الكتاب الدراسي للبيت من وقت لآخر، قائلة: «احتفظي به حتى الغد واكتبي ملاحظات إن أردت. أعرف مدى صعوبة الأمور، ولهذا السبب تركت الجامعة قبل سنوات لأعمل». كانت سامنثا أكبر سنًا، ومريحة في صداقتها، لأنها ليست فتاة مرتخية الفك في الثامنة عشرة مثل الكثير من الآخرين في تخصصها في الاتصالات. مع ذلك لم تحتفظ إفيملو بالكتب أكثر من يوم، ورفضت أخذها للبيت أحيانًا. فقد أوجعها أن تضطر للاستجداء. كانت تجلس أحيانًا بعد الصفوف على مقعد في الساحة، وتراقب الطلاب يمشون متجاوزين التمثال الرمادي الكبير في المنتصف وفوقهم ترفرف بهدوء أعلام على أعمدة الإنارة، فيبدو أن لديهم جميعًا حياة كما يرغبون، ويمكنهم الحصول على عمل إن أرادوا.

—

تاقت لمعرفة كل شيء عن أمريكا، وأن تضع طبقة جديدة من الوعي بسرعة، وأن تشجع فريقًا في المباراة النهائية لدوري كرة القدم، وتفهم ما هو التوينكي، وما معنى تعليق المباريات في الرياضة، والقياسات بالأونصة والقدم المربعة، وطلب كعك

29) كتبت هذه العبارات بحسب اللغة الإنجليزية الأمريكية، ولتقريب المعنى للقارئ- تبعًا لاختلاف اللغات- كتبتها بأخطاء نحوية.

المَفِن دون التفكير فعليًا أنها كعكة وقول «تسوقت» دون أن تشعر بالسخافة.

اقترح عليها أوبِنز قراءة كتب أمريكية، من روايات وكتب تاريخية وسير ذاتية. وأشار عليها بقائمة من الكتب في رسالته الإلكترونية الأولى، إذ أُفتتِح مقهى للإنترنت في نسوكا. كان كتاب *النار في المرة المقبلة*[30] الكتاب الأول. وقفت قرب رف المكتبة وتصفحت الفصل الافتتاحي، متأهبة للملل، لكنها تقدمت ببطء نحو أريكة وجلست، وظلت تقرأ حتى أنهت ثلاثة أرباع الكتاب، ثم توقفت وأخذت كل كتاب لجيمس بالدوين على الرف، وصارت تمضي ساعات فراغها في المكتبة، ذات الإنارة الرائعة، وصفوف الحواسيب، ومساحات القراءة الواسعة الحسنة التهوية النظيفة، وبدا البريق المبهج لكل ذلك مثل سقوط مذنّب. فقد اعتادت على أية حال قراءة الكتب ذات الصفحات المفقودة التي سقطت أثناء مرورها على الكثير من الأيدي، وها هي الآن في موكب الكتب ذات البنية السليمة.

كتبت لأوبِنز عن الكتب التي قرأتها، رسائل واعية طويلة أنشأت بينهما حميمية جديدة، فقد بدأت أخيرًا تلتمس السطوة التي تتمتع بها الكتب عليه. لقد حيرها توقه لإبادِن من أجل إبادِن، فكيف يمكن لسلسلة من الكلمات أن تجعل شخصًا يتوق لمكان لم يعرفه؟ لكنها فهمت أخيرًا في هذه الأسابيع حين اكتشفت صفوفًا وصفوفًا من الكتب التي تفوح منها رائحة الجلد، والوعد بلذة مجهولة، عندما جلست تضم ساقيها تحتها على كرسي بذراعين في الطابق السفلي، أو إلى طاولة في الأعلى، عليها مصباح مشع ينير صفحات الكتاب. فقرأت الكتب الواردة في لائحة أوبِنز، لكنها أيضًا جذبت، بعشوائية، كتابًا إثر كتاب، قارئة فصلًا قبل أن تقرر أيها ستقرأه سريعًا في المكتبة، وأيها ستستعيره. وأثناء قراءتها أخذت أساطير أمريكا تتخذ معنى واحدًا، وقد اتضحت قَبَلية أمريكا، المؤلفة من الأصل العرقي والعقيدة والإقليم، فسرّت بمعرفتها الجديدة.

—

30) كتاب لجيمس بالدوين (1924-1987)، ويتضمن مقالين الأول بعنوان "أضلاع زنزانتي: رسالة إلى ابن أخي في الذكرى المئة للتحرر" ويناقش فيه الدور المركزي للعرق في تاريخ أمريكا، والثاني بعنوان «تحت الصليب" ويناقش فيه علاقة العرق بالدين.

سأل أوبنز يومًا بصوت فرح: «هل تعلمين أنك قلت 'متحمسة'؟ قلت إنك متحمسة لصف الإعلام».

«هل فعلت؟»

انسابت كلمات جديدة من فمها، وتلاشت أعمدة الضباب. في الديار، اعتادت في الديار أن تغسل ثيابها الداخلية كل ليلة وتنشرها في زاوية خفية في الحمام. أما الآن فهي تكومها في سلة وترمي بها في الغسالة أمسيات الجمعة، وصارت ترى أكوام الملابس الداخلية القذرة هذه أمرًا عاديًا. تحدثت علانية في الصف مستندة إلى الكتب التي قرأتها، مبتهجة لكونها تعارض الأساتذة، ولا تتلقى توبيخًا في المقابل لقلة تهذيبها، بل تحصل على هزة رأس مشجعة.

«إننا نشاهد الأفلام في قاعة الصف. يتحدثون عن الأفلام هنا، كأن الأفلام مهمة بقدر الكتب، لذا نشاهد أفلامًا ومن ثم نكتب ورقة رأي ويحصل الجميع تقريبًا على علامة A. هل تتخيل؟ هؤلاء الأمريكيون ليسوا جادين»، قالت لأوبنز.

في محاضرة التاريخ، عرضت الأستاذة مور، وهي امرأة ضئيلة مترددة لها هيئة المتعطش عاطفيًا لشخص ليس له أصدقاء، بعض المشاهد من مسلسل ***الجذور***[31]، فأومضت الصور على اللوح في الفصل المعتم، وحين أطفأت جهاز العرض تذبذبت بقعة بيضاء ضبابية على الجدار للحظة قبل أن تختفي. شاهدت إفيملو مسلسل الجذورعلى الفيديو أول مرة مع أوبِنز وأمه، وهم يسترخون على الأريكة في غرفة معيشتهم في نسوكا. حين جُلد كونتاكنتي ليقبل اسم عبوديته، نهضت أم أوبِنز بسرعة شديدة حتى أنها تعثرت بحشية من الجلد وغادرت الغرفة، لكن إفيملو رأت عينيها المحمرتين. وقد حيرها بكاء أم أوبِنز لمشاهدة فيلم، وهي الكتومة تمامًا في انطوائها على ذاتها وخصوصيتها الشديدة. والآن، حين رفعت ستائر النوافذ وغمر الضوء قاعة الصف ثانية، تذكرت إفيملو بعد ظهيرة السبت تلك، وشعورها بالنقص وهي ترى أم أوبِنز وتتمنى أن تبكي هي أيضًا.

«لنتحدث عن التجسيد التاريخي في الفيلم»، قالت الأستاذة مور.

---

31) مسلسل تلفزيوني مقتبس عن رواية بالعنوان نفسه لأليكس هيلي.

سأل صوت أنثوي حاد من آخر الصف بلكنة ليست أمريكية، «لماذا غطيت كلمة «زنجي»؟»

وهبت تنهيدة جماعية، مثل ريح خفيفة في قاعة الصف.

«حسن، كان هذا تسجيلًا من شبكة تلفزيونية، وأحد الأمور التي أردت أن نتحدث عنها كيفية تمثيل التاريخ في الثقافة الشعبية، واستخدام كلمة «زنجي» جزء هام من ذلك بلا شك»، قالت الأستاذة مور.

«لا يبدو هذا منطقيًا لي»، قال الصوت الحاد، فاستدارت إفيملو. كان شعر المتحدثة مقصوصًا قصة قصيرة مثل شعر الولد ووجهها النحيل الجميل ذو الجبهة العريضة، ذكّر إفيملو بسكان شرق إفريقيا الذين يفوزون دومًا بسباقات المسافات الطويلة على التلفاز.

«أعني أن كلمة 'زنجي' موجودة. يستخدمها الناس. إنها جزء من أمريكا. لقد سببت الكثير من الألم لأشخاص، وأظن أن تغطيتها بصفارة أمر مهين».

«حسن»، قالت الأستاذة مور ناظرة حولها، كأنها تبحث عن مساعدة.

فجاء صوت أجش من منتصف قاعة الصف «إذًا، بسبب الألم الذي سببته هذه الكلمة عليك ألا تستخدميها!»، طافت كلمة عليك في الهواء بشكل لاذع، وكانت المتحدثة فتاة إفريقية أمريكية تضع أقراطًا مدورة من الخيزران.

«الحقيقة أنك تسبب الأذى للإفريقيين الأمريكيين في كل مرة تقولها» قال ولد شاحب أشعث الشعر في المقدمة.

رفعت إفيملو يدها، وقد تذكرت رواية فوكنر نور في آب[32]، التي قرأتها مؤخرًا، «لا أظنها مؤلمة دومًا. أظن الأمر يعتمد على القصد وعلى من يستخدمها أيضًا».

انفجرت فتاة بجانبها، وجهها أحمر فاقع، «لا! للكلمة المعنى ذاته عند كُلّ مَن يقولها».

«هذا هراء!»، قال الصوت الحاد ثانية.، وكان صوتًا جريئًا، «لو ضربتني أمي بعصا وضربني غريب بعصا، فلن يكون الأمر نفسه».

---

32) رواية لوليم فوكنر (1897-1962)، ترجمها عطا عبدالوهاب، وصدرت بترجمة توفيق الأسدي عن وزارة الثقافة السورية عام 1994 .

نظرت إفيملو إلى الأستاذة مور لترى كيف تلقت كلمة «هراء». لا يبدو أنها لاحظت، وعوضًا عن ذلك، جمّد رعب غامض تقاسيمها في ابتسامة متكلفة.

«أتفق أنها مختلفة حين يقولها الإفريقيون الأمريكيون، لكني لا أحبذ استخدامها في الأفلام، فإذ يمكن هكذا للأشخاص الذين لا يتعين عليهم استخدامها قولها وإيذاء مشاعر الأشخاص الآخرين». قالت فتاة إفريقية أمريكية فاتحة البشرة، الأخيرة من أربعة أشخاص سود في آخر الصف، ترتدي كنزة ذات درجة مزعجة من الفوشيا.

«لكن هذا مثل الإنكار. إن استُخدمت هكذا، فلا بد من تمثيلها هكذا، وإخفاؤها لا يجعلها تختفي»، قال الصوت الحاد.

«حسن، لو أنكم جميعًا لم تبيعونا، ما كنا لنتحدث عن أي من هذا»، قالت الفتاة الإفريقية الأمريكية ذات الصوت الأجش، بنبرة خفيضة لكنها مسموعة رغم ذلك.

غلف الصمت قاعة الصف. ثم ارتفع ذلك الصوت ثانية. «عذرًا لكن حتى إن لم يبع إفريقيون إفريقيين آخرين، كانت ستقوم تجارة العبيد العابرة للأطلسي. لقد كانت استثمارًا أوروبيًا، فالأوروبيون يبحثون عن عمالة لمزارعهم».

قاطعت الأستاذة مور بصوت ضئيل، «حسن، لنتحدث الآن عن الطرق التي يمكن بها التضحية بالتاريخ لصالح الإمتاع».

بعد المحاضرة، سارت إفيملو وصاحبة الصوت الحاد تجاه بعضهما.

«مرحبًا أنا وامبوي، أنا من كينيا. أنت نيجيرية أليس كذلك؟»، كان لها هيئة مهيبة لشخص عزم على وضع الجميع وكل الأمور في نصابها في العالم.

«أجل، أنا إفيملو».

تصافحتا، وستنشأ بينهما في الأسابيع المقبلة صداقة دائمة. كانت وامبوي رئيسة اتحاد الطلبة الأفارقة.

«ألا تعرفين اتحاد الطلبة الأفارقة؟ عليك حضور الاجتماع القادم يوم الخميس»، قالت.

عقدت الاجتماعات في قبو قاعة وارتن، في غرفة سيئة الإنارة بلا نوافذ، تكومت فيها الأطباق الورقية وعلب البيتزا وزجاجات الصودا على طاولة معدنية، ووضعت مقاعد قابلة للطي في شبه دائرة مترهلة. جلس نيجيريون وأوغنديون وكينيون

وغانيون وجنوب إفريقيون وتنزانيون وزمبابويون وواحد من الكونغو وواحد من غينيا حولها يأكلون، ويتحدثون ويرفعون المعنويات، وشكلت لكناتهم المختلفة شبكة من الأصوات البهيجة. كانوا يقلدون ما يقوله الأمريكيون لهم : **تتحدث إنجليزية جيدة، ما حجم انتشار الإيدز في بلادك؟ من المحزن أن يعيش الناس بأقل من دولار في اليوم في إفريقيا**، وسخروا هم أنفسهم من إفريقيا متبادلين الحكايا عن السخافة والغباء، وشعروا بالأمان في سخريتهم، لأنها سخرية ولّدها الحنين والرغبات الفاطرة للقلب لرؤية مكان يسعدهم ثانية. هنا شعرت إفيملو بإحساس لطيف متأرجح من التعافي، فليس عليها شرح نفسها هنا.

—

أخبرت وامبوي الجميع أن إفيملو تبحث عن عمل. قالت دوروثي، البنوتة الأوغندية ذات الضفائر الطويلة التي تعمل نادلة في سنتر سيتي، إن مطعمها يطلب موظفين. لكن موومبكي، التنزاني الذي يدرس اختصاصين في الهندسة والعلوم السياسية، رأى سيرتها أولًا وطلب منها حذف عبارة ثلاث سنوات جامعية في نيجيريا: لا يحب أصحاب العمل الأمريكيون أن يكون موظفو الوظائف الدنيا متعلمين. ذكرها موومبكي بأوبِنز، بتلك الراحة التي يتمتع بها وتلك القوة الهادئة. كان يُضحك الجميع في الاجتماعات فيردد كثيرًا «تلقيت تعليمًا ابتدائيًا جيدًا بفضل اشتراكية نييري[33]، وإلا لكنت في دار السلام الآن، أنحت زرافات قبيحة للسياح». حين جاء طالبان جديدان أول مرة، أحدهما من غانا والآخر من نيجيريا، ألقى عليهم موومبكي ما يسميه خطاب الترحيب.

«لا تذهب إلى كي مارت وتشترِ عشرين سروال جينز، لأن ثمن الواحد منها خمسة دولارات، فلن تنفد سراويل الجينز. بل ستظل موجودة هناك غدًا بسعر أكثر تخفيضًا. أنت الآن في أمريكا، فلا تتوقع الحصول على طعام ساخن على الغداء، يجب أن تتخلى عن الذائقة الإفريقية. وحين تزور منزل أمريكي يملك شيئًا من المال، سيعرض عليك أن يريك بيته. انس أن أباك في بيتك في الديار سينفجر غضبًا إن

---

33) (1922-1999) ناشط سياسي تنزاني مناهض للاستعمار إلى جانب كونه منظرًا سياسيًا.

اقترب أحدهم من غرفة نومه. كلنا نعلم أن الجولة ستتوقف في غرفة المعيشة، وإن كان ضروريًا حتمًا فستصل دورة المياه. لكن من فضلك ابتسم واتبع الأمريكي وشاهد البيت واحرص على قولك إنك تحب كل شيء. ولا تفاجأ باللمسات العادية للأزواج الأمريكيين. ففي صف أمام الكافتيريا، ستلمس الفتاة ذراع الولد وسيضع الولد ذراعه على كتفيها وسيفركان الأكتاف وظهري بعضهما ويفركان ويفركان، لكن من فضلك لا تحاول تقليد هذا السلوك».

فضحكوا جميعًا، وهتفت وامبوي شيئًا بالسّاحليّة.

«ستبدأ قريبًا بالتحدث باللكنة الأمريكية، لأنك لا تريد لموظفي خدمة العملاء على الهاتف أن يرددوا على مسامعك: ماذا؟ ماذا؟ وستبدأ الإعجاب بالأفارقة الذين لديهم لكنة أمريكية رائعة، مثل أخينا هنا كوفي. جاء والدا كوفي من غانا حين كان في الثانية من عمره، لكن لا تنخدعوا بمظهره. فإن ذهبتم إلى بيته فستجدونهم يأكلون الكنكي[34] كل يوم. لقد صفعه أبوه مرة لأنه حصل على درجة 70 في إحدى المواد. ولن تجد الهراء الأمريكي في ذاك البيت، وهو يعود إلى غانا كل سنة. نسمي الأشخاص من أمثال كوفي أمريكيين أفارقة، لا أفارقة أمريكيين، التي نسمي بها إخوتنا وأخواتنا الذين كان أجدادهم عبيدًا».

«كانت الدرجة 80 - وليست 70»، قال كوفي مازحًا.

«جرب وصادق إخوتنا وأخواتنا الأفارقة الأمريكيين الذين يتمتعون بروح جامعة إفريقية حقيقية. لكن احرص على أن تظل صديقًا لأفارقة، لأن هذا سيساعدك على الاحتفاظ بمنظورك. احضر اجتماعات اتحاد الطلبة الأفارقة دومًا، لكن إن اضطررت، فجرب اتحاد الطلبة السود أيضًا. لاحظ أن الأفارقة الأمريكيين يذهبون إلى اتحاد الطلبة السود والأفارقة إلى اتحاد الطلبة الأفارقة. يتداخل الاتحادان أحيانًا، لكن ليس كثيرًا. فالأفارقة الذين يذهبون إلى اتحاد الطلبة السود هم أولئك الذين يفتقرون للثقة، والذين يقولون لك سريعًا «أصلي من كينيا»، رغم أن كينيا تقفز خارجًا في اللحظة التي يفتحون فيها أفواههم. والأفارقة الأمريكيون

---

34) طبق أساسي في غانا، يتألف من العجين المختمر المطهو في صلصة.

الذين يحضرون اجتماعاتنا؛ هم أولئك الذين يكتبون قصائد عن إفريقيا الأم، ويظنون أن كل إفريقية هي ملكة نوبية. إن دعاك إفريقي أمريكيٌ بصاحب العضو الكبير أو ماسح المؤخرات، فهو يهينك لأنك إفريقي. سيسألك البعض أسئلة مزعجة عن إفريقيا، لكن الآخرين سيصاحبونك. وستجد أيضًا أنّه بوسعك عقد صداقات بسهولة مع أجانب آخرين، من كوريين، أو هنود أو برازيليين أو أيٍّ كانوا، أكثر من الأمريكيين سودهم وبيضهم، إذ يدرك معظم الأجانب ألم محاولة الحصول على تأشيرة أمريكية وهذه نقطة جيدة لعقد صداقة».

ازداد الضحك، وضحك موومبكي نفسه عاليًا كأنه لم يسمع نكاته من قبل.

لاحقًا، بعدما غادرت إفيملو الاجتماع، فكرت بدايك، وإلى أيهما سيذهب حين يدخل الجامعة؛ اتحاد الطلبة الأفارقة أو اتحاد الطلبة السود، وماذا سيُعتبر: أمريكيٌ إفريقي، أم إفريقي أمريكي؟ سيتعين عليه اختيار ما يكونه، أو بالأحرى سيُختار له ما يكونه.

—

ظنت إفيملو أن المقابلة في المطعم الذي تعمل فيه دوروثي قد سارت جيدًا. كانت مقابلة من أجل وظيفة مضيفة، فارتدت قميصها الجميل وابتسمت بدفء وصافحت بحرارة. كان المدير امرأة مرحة مفعمة بسعادة منفلتة فيما يبدو، قالت لها «رائع! جميل التحدث إليك! سأتصل بك قريبًا!»، وهكذا حين رن هاتفها ذاك المساء رفعته آملة أن يكون عرض عمل.

«كيف حالك يا إفيم؟»، قالت العمة أوجو.

كثيرًا ما اتصلت العمة أوجو لتسأل إن حصلت على عمل، «ستكونين أول من سأتصل به حين أفعل يا عمتي»، قالت إفيملو في المكالمة الأخيرة البارحة، وها هي العمة أوجو تسأل ثانية.

«بخير»، قالت إفيملو وأوشكت أن تقول، «لم أعثر على شيء بعد»، عندما قالت العمة أوجو «حدث أمر لدايك».

«ماذا حدث؟»، سألت إفيملو.

«أخبرتني الآنسة براون أنها رأته في خزانة مع فتاة. الفتاة في الصف الثالث، من

الواضح أنهما يُريان بعضهما أعضاءهما الحميمة».

خيم صمت.

«هل هذا كل ما في الأمر؟»، سألت إفيملو.

«ماذا تعنين بقولك هل هذا كل ما في الأمر؟ إنه لم يبلغ السابعة حتى! أي نوع من الأمور هذا؟ هل هذا ما جئت إلى أمريكا من أجله؟»

«قرأنا شيئًا عن هذا في أحد الصفوف قبل أيام. هذا طبيعي، إذ يشعر الأطفال بالفضول عن أمور كهذه في سن باكرة، لكنهم لا يفهمونها فعلًا».

«طبيعي أيضًا؟ إنه ليس طبيعيًا على الإطلاق».

«عمتي كلنا كنا فضوليين في طفولتنا».

«ليس بعمر السابعة! يا للقرف! من أين تعلم هذا؟ هل تعلمها من مركز الرعاية النهارية الذي يرتاده؟ لقد تغير منذ أن رحلت ألما وبدأ يذهب إلى الآنسة براون. إنه يلتقط الهراء من كل هؤلاء الأطفال الصاخبين عديمي التربية المنزلية. قررت الانتقال إلى ماساشوستس في نهاية هذا الفصل الدراسي».

«يا إلهي!»

«سأنهي فترة تدريبي هناك وسيذهب دايك إلى مدرسة أفضل ورعاية نهارية أفضل. سينتقل بارثولوميو من بوسطن إلى بلدة صغيرة تدعى وارنغتن ليبدأ تجارته، لذا ستكون بداية جديدة لكلينا. المدرسة الابتدائية هناك جيدة جدًا، وطبيب المنطقة يبحث عن شريك لأن عيادته تكبر، تحدثت إليه وبدا متحمسًا لانضمامي إليه عندما أنتهي».

«هل ستتركين نيويورك للذهاب إلى قرية في ماساشوستس؟ هل يمكنك ترك فترة التدريب هكذا؟»

«طبعًا، صديقتي أولغا، المرأة من روسيا؟ ستغادر أيضًا، لكن سيتعين عليها إعادة سنة في برنامجها الجديد. تريد ممارسة طب الجلد ومعظم مرضانا هنا من السود، وقالت إن أمراض الجلد تبدو مختلفة على البشرة السوداء، وتعرف أنها لن تنهي تدريبها في منطقة للسود، لذا تريد الانتقال إلى حيث يكون المرضى من البيض. أنا لا ألومها. صحيح أن برنامجي أعلى درجة، لكن فرص العمل أفضل أحيانًا في

المناطق الأصغر. إلى جانب أنني لا أريد أن يظنني أنني لست جادة. فأنا لست صغيرة، وأود أن أبدأ المحاولة».

«ستتزوجينه فعلًا».

قالت العمة أوجو بسخط ساخر،»أظننا تجاوزنا هذه المرحلة يا إفيم. حالما أنتقل، سنذهب إلى المحكمة ونتزوج، ويمكنه أن يتصرف مثل أب شرعي لدايك».

سمعت إفيملو صفير مكالمة واردة، «دعيني أعاود الاتصال بك يا عمتي»، قالت وانتقلت دون انتظار جواب العمة أوجو، كانت مديرة المطعم.

«آسفة يا نغوزي. لكننا قررنا توظيف شخص أكثر خبرة، حظًا طيبًا!»، قالت.

أغلقت إفيملو الهاتف وفكرت بأمها، كم ستلوم الشيطان كثيرًا. **الشيطان كاذب، يريد الشيطان إعاقتنا.** حدقت بالهاتف، ومن ثم بالفواتير على طاولتها، وانتابها شعور بضغط خانق في صدرها.

الفصل الخامس عشر

كان الرجل قصيرًا، وله جسد مفتول العضلات، وشعر خفيف ومشقر من الشمس. حين فتح الباب، نظر إليها يتفحّصها بضراوة، ثم ابتسم وقال «ادخلي، مكتبي في القبو». اقشعر بدنها، واستولى عليها القلق. ثمة شيء فاسد في وجهه رفيع الشفتين، وله هيئة رجل رفيقه الفساد. «أنا رجل مشغول جدًا»، قال مومئًا إلى الكرسي في مكتبه النتن الذي تفوح منه رائحة البول قليلًا.

«أدركت ذلك من الإعلان»، قالت إفيملو. **مساعدة شخصية لمدرب رياضي مشغول في أردمور، مهارات التواصل والعلاقات مطلوبة.** جلست على الكرسي، بل جثمت بالأحرى، وخطر لها، بعدما تذكرت فجأة الإعلان المنشور في صحيفة سيتي، أنها الآن وحدها مع رجل غريب في قبو منزل غريب في أمريكا. غاصت يداه عميقًا في جيوب سروال الجينز، ومشى جيئة وذهابًا بخطوات قصيرة سريعة، متحدثًا عن حجم الطلب عليه بوصفه مدرب تنس، وخطر لإفيملو أنه قد يتعثر بأكداس المجلات الرياضية على الأرض، وشعرت بالدوار من مجرد مشاهدته. لقد تحدث بسرعة بقدر حركاته، وملامحه متيقظة تيقظًا غريبًا، وظلت عيناه واسعتين لا ترمشان لوقت طويل.

«حسن إليك الأمر. لدي وظيفتان، واحدة لعمل المكتب والأخرى للمساعدة على الاسترخاء. وقد أُخذ عمل المكتب، إذ بدأت الموظفة الجديدة البارحة وستذهب إلى برين مور، وتقضي الأسبوع كاملًا في إنجاز الأعمال المتراكمة. أشك أن لدي فراغًا

في مكان ما»، سحب يدًا ليومي نحو مكتبه الغارق في الفوضى، «وما أحتاجه الآن هو المساعدة على الاسترخاء. إن أردت العمل فهو لك، سأدفع لك مئة دولار، مع إمكانية الزيادة، وستعملين عند الحاجة وليس في جدول محدد».

مئة دولار في اليوم تكفي لدفع إيجارها تقريبًا. عدلت جلستها على الكرسي، «ما الذي تعنيه بالضبط بقولك مساعدة على الاسترخاء؟»

راقبته منتظرة تفسيره. وأخذ الأمر يزعجها، وهي تفكر بما دفعته لتذكرة قطار الضواحي.

فقال: «اسمعي، أنت لست طفلة. أنا أعمل جاهدًا للحد الذي أعجز فيه عن النوم. لا أستطيع الاسترخاء، ولا أتعاطى المنومات، لذا وجدت أني بحاجة للمساعدة على الاسترخاء. يمكنك أن تدلكيني، وتساعديني على الاسترخاء. كانت امرأة تفعل ذلك لي قبلًا، لكنها انتقلت إلى بيترسبرغ. إنه حافز رائع أو على الأقل هذا ما ظننته. ساعدها كثيرًا في رسوم جامعتها»، يمكنها معرفة أنه قال هذا لنساء كثيرات أخريات بسبب السرعة المتقنة التي خرجت بها الكلمات. لم يكن رجلًا لطيفًا، ولم تعرف ما قصده تمامًا، ولكن أيًا كان ذلك، فقد ندمت لمجيئها.

نهضت،»هل يمكنني التفكير بهذا والاتصال بك؟»

«طبعًا»، رفع كتفيه الثخينتين من الضيق المفاجئ، كأنه لم يصدق أنها لم تثمن حظها السعيد. حين قادها للخروج، أغلق الباب سريعًا دون الرد على عبارة «شكرًا لك» الأخيرة منها. عادت إلى المحطة، باكية على أجرة القطار. غمرت الألوان الأشجار، فلونت أوراقها الحمراء والصفراء الهواءَ باللون الذهبي، وتذكرت الكلمات التي قرأتها في مكان ما مؤخرًا **الذهب باكورة خضرة الطبيعة**[35]. ذكّرها الهواء المنعش الجاف العطِر بنسوكا أثناء موسم الحرامتان، وجلب معه طعنة مفاجئة من الحنين، حادة جدًا ومفاجئة جدًا غمرت عينيها بالدموع.

—

قالت لنفسها كل مرة ذهبت فيها لمقابلة عمل أو أجرت مكالمة هاتفية عن عمل،

---

35) من قصيدة للشاعر الأمريكي روبرت فروست.

إن هذا سيكون يومها أخيرًا، وستكون وظيفة النادلة أو المضيفة أو جليسة الأطفال لها هذه المرة. غير أن شيئًا من الكآبة تراكم في الزاوية البعيدة لعقلها حتى وهي تتمنى لنفسها الحظ الطيب. «ما هو الخطأ الذي أرتكبه؟»، سألت جينيكا، وقالت لها جينيكا أن تصبر وأن تتحلى بالأمل. طبعت سيرتها الذاتية وأعادت طباعتها، اختلقت خبرة سابقة في العمل نادلة في ليغوس، وكتبت اسم جينيكا بوصفها جليسة أطفالها، ووضعت اسم صاحبة بيت وامبوبي مرجعًا. ابتسمت بدفء وصافحت بحرارة في كل مقابلة، وفعلت كل الأمور التي وردت في كتاب قرأته عن مقابلات العمل في أمريكا، ولم تحصل على عمل رغم ذلك كله. هل ذلك بسبب لكْنتها الأجنبية؟ قلة خبرتها؟ لكن أصدقاءها الأفارقة لديهم أعمال جميعًا، ويحصل طلاب الجامعة على العمل طوال الوقت دون الحاجة إلى خبرة. ذهبت مرة إلى محطة وقود قرب شارع تشست نت، وقال رجل مكسيكي ضخم وعيناه على صدرها «أنت هنا لوظيفة المرافق؟ يمكنك أن تعملي لأجلي بطريقة أخرى»، ثم قال بابتسامة، والنظرة الخبيثة لا تفارق عينيه، «إن الوظائف أخذت». أخذت تفكر أكثر بشيطان أمها، وتتخيل كيف يمكن للشيطان أن يكون له يد في هذا. جمعت وطرحت بلا نهاية، محددة ما تحتاج وما لا تحتاج، فتطهو الأرز والفاصولياء كل أسبوع، وتسخن حصصًا صغيرة في المايكرويف للغداء والعشاء. عرض أوبِنز أن يرسل لها بعض المال، فقد جاء قريبه من لندن وأعطاه بعض الجنيهات الاسترلينية، وسيحولها إلى دولارات في إنوغو.

«كيف يمكنك أن ترسل المال لي من نيجيريا؟ يجب أن يكون الأمر بالعكس»، قالت، لكنه أرسل لها على أية حال، أكثر من مئة دولار بقليل مختومات بحرص داخل بطاقة.

—

كانت جينيكا مشغولة، تعمل ساعات طويلة لتدريبها وتدرس لامتحانات كلية الحقوق، لكنها تتصل كثيرًا لتسأل عن بحث إفيملو عن عمل، ودائمًا بالصوت الصاخب، كأنها تدفع إفيملو نحو الأمل، «هذه المرأة تدربت في جمعيتها الخيرية، تدعى كمبرلي، اتصلت بي لتقول إن جليسة الأطفال ستترك العمل، وإنها تبحث عن بديل. أخبرتها عنك وقالت إنها تود لقاءك، إن وظفتك ستدفع لك نقدًا خفية، لذا لن يكون

عليك استخدام ذاك الاسم المزيف. متى تنتهين غدًا؟ يمكنني القدوم وأخذك إليها من أجل المقابلة».

«إن حصلت على هذا العمل، سأعطيك أجر الشهر الأول»، قالت إفيملو وضحكت جينيكا.

ركنت جينيكا السيارة في ممر دائري لبيت يشي بثرائه، فالكساء الخارجي الصخري متين وفخم، وانتصبت أربعة أعمدة بيضاء عجيبة عند المدخل. فتحت كمبرلي الباب الأمامي.

كانت رشيقة وممشوقة، ورفعت كلتا يديها لتدفع شعرها الأشقر الكثيف عن وجهها، كأن يدًا واحدة لن تتمكن من ترويض كل ذلك الشعر.

«سعيدة بلقائك»، قالت لإفيملو مبتسمة وهما تتصافحان. وكانت يدها صغيرة وأصابعها رفيعة وهشة، وبدت في كنزتها الذهبية المزنرة عند خصر نحيل للغاية، وشعرها الذهبي وحذائها المنبسط الذهبي، مثل نور الشمس على نحو لا يصدق.

«هذه أختي لورا، جاءت لزيارتي. نحن نزور بعضنا كل يوم تقريبًا! تسكن لورا فعليًا في المنزل المجاور. أما الأطفال ففي بوكونو حتى الغد، مع أمي. وجدت أنه من الأفضل فعل هذا في غيابهم على أية حال».

«مرحبا»، قالت لورا. كانت نحيلة وطويلة وشقراء مثل كمبرلي. قالت إفيملو، عندما وصفتهما لأوبنز، إن كمبرلي تذكّر بطير صغير له هيكل جميل يسهل سحقه، أما لورا فتذكّر بالصقر ذي المنقار الحاد والحسود.

«مرحبا، أنا إفيملو».

قالت كمبرلي: «يا له من اسم جميل! هل يعني شيئًا؟ أحب الأسماء متعددة الثقافات لأن لها معاني رائعة من ثقافات رائعة غنية». وابتسمت كمبرلي الابتسامة اللطيفة لأشخاص يظنون «الثقافة» هي التراث الغريب الملون لأشخاص ملونين، وهي كلمة ستوصف دومًا بالغنية. لكنها لن ترى النرويج «ثقافة غنية».

«لا أعرف ما يعني»، قالت إفيملو وأحست بسرور صغير على وجه جينيكا، أكثر من كونها رأته.

«هل تودون شرب الشاي؟»، سألت كمبرلي، مصطحبة إياهن إلى مطبخ من

الكروم اللامع والغرانيت وفيه مساحة فارغة كبيرة «نحن شاربو شاي، لكن ثمة خيارات أخرى طبعًا».

«الشاي رائع»، قالت جينيكا.

«وأنت يا إفيملو؟ أعلم أنني أفسد اسمك، لكنه اسم جميل حقًا، جميل حقًا»، سألتها كمبرلي.

«لا، لقد لفظته صحيحًا. أرغب ببعض الماء أو عصير البرتقال من فضلك».

أدركت إفيملو لاحقًا أن كمبرلي تستخدم كلمة جميل بطريقة معينة فتقول: «ألتقي أصدقائي الجميلين من الجامعة»، أو «نحن نعمل مع هذه المرأة الجميلة في مشروع المدينة الداخلية»، ودائمًا المرأة التي تشير إليها يتضح أنها عادية الهيئة، لكنها سوداء دومًا. يومًا، في آخر ذلك الشتاء، عندما كانت تجلس مع كمبرلي إلى طاولة المطبخ الكبيرة، تشرب الشاي وتنتظر عودة الأطفال من نزهة مع جدتهم، قالت كمبرلي «أوه، انظري إلى هذه المرأة الجميلة»، وأشارت إلى عارضة عادية في مجلة ملمحها المميز الوحيد هو بشرتها الداكنة جدًا، «أليست مذهلة؟»

«لا، ليست كذلك»، ثم صمتت إفيملو، «تعرفين أن بإمكانك قول سوداء فحسب، وليست كل سوداء جميلة».

تراجعت كمبرلي، وساد وجهها شيءٌ لا يقال ثم ابتسمت، ووجدتها إفيملو اللحظة التي أصبحتا فيها صديقتين حقًا. لكنها في اليوم الأول أحبت كمبرلي بجمالها الهش، وعينيها الأرجوانيتين المليئتين بتعبير يستخدمه أوبِنز كثيرًا لوصف الناس الذين يحبهم، بـ'قلب أبيض'، بطهر القلب. سألت كمبرلي إفيملو أسئلة عن خبرتها مع الأطفال، مصغية باهتمام كأنها أرادت سماع ما قد لا يقال.

«ليس لديها شهادة إسعاف في الإنعاش الرئوي القلبي يا كيم»، قالت لورا والتفتت إلى إفيملو «هل لديك استعداد للتسجيل في دورة لهذا؟ هذا مهم جدًا إن كنت سترعين أطفالًا».

«أنا مستعدة».

«قالت جينيكا إنك تركت نيجيريا لأن أساتذة الجامعة في إضراب دائم هناك؟»، سألت كمبرلي.

«أجل».

هزت لورا رأسها بدراية، «فظيع ما يحدث في دول إفريقيا».

«كيف وجدت الولايات حتى الآن؟»، سألت كمبرلي.

أخبرتها إفيملو عن الارتباك الذي شعرت به أول مرة ذهبت فيها إلى المتجر، عند رف حبوب الإفطار، فقد أرادت أن تشتري رقائق الذرة التي اعتادت تناولها في الديار، ولكن واجهتها فجأة مئة علبة مختلفة من حبوب الإفطار، في دوامة من الألوان والصور، فقاومت الدوار. سردت هذه الحكاية لأنها ظنتها طريفة، فهي تدغدغ الكبرياء الأمريكي بلا إهانة.

ضحكت لورا، «أفهم سبب شعورك بالدوار!»

قالت كمبرلي: «أجل، نحن منغمسون بالإفراط في هذه البلاد. واثقة أنكم في دياركم تتناولون الكثير من الأطعمة والخضار العضوية الرائعة، لكنك سترين أن الأمر مختلف هنا».

«لو أنها تأكل كل هذا الطعام اللذيذ العضوي في نيجيريا، فلم ستأتي إلى الولايات يا كيم؟»، سألت لورا. لا بد أن لورا لعبت، في الطفولة، دور الأخت الكبرى التي تكشف غباء الأخت الصغرى، بلطف وابتهاج حسن النية دومًا، وغالبًا ما يحدث ذلك في رفقة الأقارب البالغين.

«حسن، حتى إن كان لديهم طعام قليل، فلا بد أنه كله من الخضار العضوية، ولا شيء من فرانكنفود الذي نأكله هنا»، قالت كمبرلي، وشعرت إفيملو بوجود سخط واخز يطفو في الهواء بينهما.

«لم تخبريها عن التلفاز»، قالت لورا، والتفتت إلى إفيملو «يشاهد أطفال كيم التلفاز برقابة، شبكة الخدمات الإذاعية العامة[36] فحسب، إذا وظّفتك فإنّ عليك أن تكوني حاضرة بالكامل وتراقبي ما يجري، خاصة مع مورغان».

«حاضر».

«ليس لدي جليسة أطفال»، قالت لورا، والأهمية الأخلاقية تشع من الضمير:

---

36) PBS شبكة تعليمية وقومية لا ربحية تأسست عام 1957.

أنا. «أنا أم حنون بوقت كامل، وظننت أنني سأعود للعمل حين بلغت أثينا عامها الثاني، لكني لم أحتمل تركها. كيم أم حنون أيضًا لكنها مشغولة أحيانًا، فهي تقوم بعمل رائع في جمعيتها الخيرية، لذلك أقلق كثيرًا بشأن جليسات الأطفال. كانت الأخيرة، مارثا، رائعة، لكننا تساءلنا إن كانت التي سبقتها- ماذا كان اسمها ثانية- تسمح لمورغان بمشاهدة برامج غير لائقة. أنا لا أسمح لابنتي بمشاهدة التلفاز أبدًا. أرى أن فيه الكثير من العنف. وقد أسمح لها بمشاهدة الرسوم المتحركة عندما تكبر قليلًا».

«لكن العنف موجود في الرسوم المتحركة أيضًا»، قالت إفيملو.

بدت لورا منزعجة، «إنها رسوم متحركة، لكن الأمور الحقيقية هي ما يؤذي الأطفال».

نظرت جينيكا إلى إفيملو عاقدة حاجبيها كأنما تقول: لا تهتمي بذلك. في المدرسة الابتدائية شاهدت إفيملو كتيبة إطلاق النار التي قتلت لورنس أنيني[37]، مفتونة بالأساطير حول سطوه المسلح، والرسائل التحذيرية التي أرسلها للصحف، وإطعامه الفقراء مما يسرق، فاختفى حين جاءت الشرطة. قالت أمها «اذهبي للداخل، هذا ليس للأطفال»، لكنها قالتها ببرود، بعد أن شاهدت إفيملو إطلاق النار على أية حال. شُد جسد أنيني إلى عمود بعنف، فتمزق حين اخترقته الرصاصات، قبل أن ينهار على حبل القفز [الذي لف حوله]. تذكرت هذا، فكم بدا مؤثرًا وعاديًا في آن معًا.

«دعيني أريك البيت يا إفيملو. هل قلته صحيحًا؟»، قالت كمبرلي.

تنَقّلن من غرفة لأخرى، بين غرفة الابنة ذات الجدران الوردية وغطاء السرير المكشكش، وغرفة الولد وفيها طقم من الطبول، وغرفة المعيشة ذات البيانو الذي ازدحم غطاؤه الخشبي اللامع بصور العائلة.

«التقطنا هذه في الهند»، قالت كمبرلي. كانوا واقفين قرب عربة ريكشو فارغة، مرتدين قمصانًا قصيرة الأكمام وشعر كمبرلي الذهبي مربوط للخلف، وقد حمل زوجها الطويل النحيل، وابنها الأشقر الصغير، وابنتها الأكبر ذات الشعر الأحمر

---

37) (1960-1987)، قاطع طريق نيجيري أرعب مدينة بينين في ثمانينيات القرن الماضي إلى أن اعتقل وأعدم.

زجاجات ماء ويبتسمون. إنهم يبتسمون دومًا في الصور التي يلتقطونها، عند الإبحار والمشي وزيارة الأماكن السياحية، يُمسك بعضهم بعضًا، وكلهم لهم أطراف رشيقة وأسنان بيضاء. فذكّروا إفيملو بالإعلانات التجارية في التلفاز، لأشخاص يعيشون حيواتهم دومًا في أضواء متلألئة، وتظل فوضاهم تسر الناظرين.

«لم يمتلك بعض الأشخاص الذين التقيناهم شيئًا، لا شيء مطلقًا لكنهم كانوا سعداء للغاية»، قالت كمبرلي. وانتقت صورة من الخلفية المزدحمة للبيانو، لابنتها مع امرأتين هنديتين، لهما بشرة داكنة ومسمرة من الطقس، وتُظهر ابتساماتهما أسنانًا مفقودة «هاتان المرأتان رائعتان جدًا»، قالت.

أدركت إفيملو أيضًا أن اللوم لا يقع على الفقراء بالنسبة لكمبرلي. وكان الفقر أمرًا براقًا، ولم تصدق أن الفقراء منهم الخبيث والمؤذي، لأن فقرهم يقدسهم، ولأن أعظم القديسين أجانب فقراء.

«تحب مورغان هذا. إنه أمريكي من السكان الأصليين، لكن تايلور يراه مخيفًا»، أشارت كمبرلي إلى منحوتة صغيرة في وسط الصورة.

«أوه»، لم تتذكر إفيملو فجأة أيهما الصبي وأيهما البنت، فقد بدا كلا الاسمين مورغان وتايلور كُنى.

عاد زوج كمبرلي قبل مغادرة إفيملو.

«أهلًا! أهلًا!»، قال وهو يدخل المطبخ طويلًا ومسمرًا ولبقًا. خمنت إفيملو، من طوله الفارع قليلًا، والتموجات شبه الكاملة التي مست ياقته، إنه يعتني بشعره عناية نيقة.

«لا بد أنك صديقة جينيكا من نيجيريا»، قال مبتسمًا، مترعًا بإدراكه لسحره. كان ينظر للناس في عيونهم، لا لاهتمامه بهم، بل لأنه عرف أن ذلك يشعرهم باهتمامه بهم.

بظهوره، صارت كمبرلي منقطعة النفس قليلًا، وتغير صوتها، فقد صارت تتحدث الآن بصوت حاد لأنثى واعية بذاتها. «عدت باكرًا يا عزيزي دون»، قالت وهما يقبلان بعضهما.

نظر دون في عيني إفيملو وقال لها إنه أوشك على زيارة نيجيريا تقريبًا، بعد

انتخاب شاغاري[38]، حين عمل مستشارًا لشركة تطوير عالمية، لكن الرحلة ألغيت في الدقيقة الأخيرة وشعر بالاستياء، لأنه تطلع للذهاب إلى المعابد وحضور حفلة فيلا. وقد ذكر فيلا ببساطة حميمية كأنها أمر معروف وسرّ يتقاسمانه. كان في حكايته ترقّب لإغواء ناجح. نظرت إليه إفيملو ونطقت بالقليل، رافضة أن تقع في الشرك، وشاعرة بالأسف بشكل مفاجئ من أجل كمبرلي، لأنها مبتلاة بأخت مثل لورا وزوج مثل هذا.

«دون وأنا مشاركان في جمعية خيرية جيدة حقًا في مالاوي، في الحقيقة دون أكثر مني مشاركة»، نظرت كمبرلي إلى دون الذي امتعض وقال «نحن نبذل جهدنا، لكننا نعرف جيدًا أننا لسنا المسيح».

«علينا أن نخطّط رحلة للزيارة، إنه مَيْتم. لم نذهب يومًا إلى إفريقيا. أحب أن أفعل شيئًا عبر جمعيتي الخيرية في إفريقيا».

لان وجه كمبرلي واغرورقت عيناها، وشعرت إفيملو لوهلة بالأسى لأنها جاءت من إفريقيا، لتكون السبب الذي ستشعر من أجله هذه المرأة الجميلة ذات الأسنان المبيضة والشعر الوافر، بشفقة كهذه وبعجز كهذا. فابتسمت ابتسامة مشرقة، آملة أن تجعل كمبرلي تشعر على نحو أفضل.

«سأقابل شخصًا آخر ثم سأعلمك، لكني أظنك مناسبة جدًا لنا»، قالت كمبرلي وهي تقود إفيملو وجينيكا إلى الباب الامامي.

«شكرا لك. يسعدني العمل لديك»، قالت إفيملو.

في اليوم التالي، اتصلت جينيكا وتركت رسالة، ونبرتها خفيضة «آسفة يا إفيم، عينت كمبرلي شخصًا آخر، لكنها قالت إنها ستبقيك في بالها. سينجح الأمر قريبًا، لا تقلقي كثيرًا، سأتصل بك لاحقًا».

أرادت إفيملو أن ترمي الهاتف بعيدًا. **تبقيني في بالها**. لماذا تكرر جينيكا تعابير فارغة كهذا 'تبقيني في بالها؟'

—

38) (1925) الرئيس الأول والوحيد للجمهورية النيجيرية الثانية، وقد حكم بعد تسليم الجنرال أوباسانجو السلطة له في الفترة ما بين 1979 و1983.

كان الوقت أواخر الخريف، وصارت الأشجار مثل قرون الوعل، والأوراق اليابسة تدخل إلى الشقة أحيانًا، وقد حان موعد الإيجار. وُضعت شيكات زميلاتها في السكن على طاولة المطبخ واحدًا فوق الآخر، كلها وردية ومؤطرة بالأزهار. رأت أن الشيكات المزهرة في أمريكا بهرجة مفرطة، لأنها تقلل من جدية الشيك. وإلى جانب الشيكات تُركت ملاحظة بخط جاكي الطفولي **إفيملو لقد تأخرنا أسبوعًا تقريبا عن سداد الإيجار**. كانت كتابة الشيك ستفرغ حسابها المصرفي. لقد أعطتها أمها علبة صغيرة من منتولاتوم في اليوم الذي سبق مغادرتها ليغوس قائلة «ضعي هذه في حقيبتك، واستخدميها حين تصابين بالزكام»، نقبت في حقيبتها بحثًا عنها، وفتحتها وتنشقتها ووضعت بعضًا منها تحت أنفها. جعلتها الرائحة ترغب بالبكاء. أومض جهاز الرد لكنها لم تتفحصه لأنها رسالة أخرى من رسائل العمة أوجو «هل عاود أحد الاتصال بك؟ هل جربت فرع ماكدونالد وبيرغر كنغ القريبين؟ لا يعلنون دومًا لكنهم قد يعينون. لا أستطيع إرسال شيء لك حتى الشهر القادم، فحسابي المصرفي فارغ، فأن تكون طبيبًا مقيمًا يعني أن تعمل بالسخرة حقًا».

كومت الصحف على الأرض، ووضعت دوائر حول إعلانات العمل. التقطت واحدة وتصفحتها، باحثة عن إعلانات رأتها قبلًا. ولفت نظرها إعلانات المرافقة ثانية. قالت لها جينيكا «انسي أمر المرافقة. يقولون إنها ليست دعارة لكنها كذلك، والأسوأ أنك ربما تحصلين على ربع ما تجنين، لأن الوكالة تأخذ الباقي. أعرف فتاة فعلت ذلك في السنة الأولى». قرأت إفيملو الإعلان وفكرت بالاتصال لكنها لم تفعل، لأنها أملت أن تثمر المقابلة الأخيرة لوظيفة نادلة في مطعم صغير لا يدفع أجرًا بل البقشيش فحسب. قالوا إنهم سيتصلون بها في نهاية اليوم إن عينوها، وانتظرت حتى وقت متأخر ولم يتصلوا.

—

ثم أكل كلب إلينا قطعة لحم إفيملو المقدّد. كانت قد سخنتها على منشفة ورقية، ووضعتها على الطاولة، واستدارت لتفتح الثلاجة، فابتلع الكلب اللحم والمنشفة الورقية. حدقت بالمساحة الفارغة حيث وضعت قطعة لحمها، ثم نظرت إلى الكلب، واستشاطت غضبًا بسبب نظرة الاعتداد بالذات على وجهه وكل إحباطات

حياتها. هذا كلب يأكل لحمتها، كلب يأكل طعامها وهي بلا عمل.

«أكل كلبك قطعة لحمي»، أخبرت إلينا، التي كانت تقطع موزة في الطرف الآخر من المطبخ، والقطع تسقط في طبق الحبوب.

«أنت تكرهين كلبي فحسب».

«عليك تدريبه على نحو أفضل. ينبغي ألا يأكل طعام الآخرين من طاولة المطبخ».

«من الأفضل ألا تقتلي كلبي بسحر الفودو».

«ماذا؟»

«أمزح فحسب»، قالت إلينا. كانت إلينا تبتسم، وذيل كلبها يهتز وشعرت إفيملو بالمرارة في عروقها، فتقدمت نحو إلينا بيد مرفوعة مستعدة لإنزالها على وجه إلينا، قبل أن تتمالك نفسها، فتوقفت واستدارت وصعدت للأعلى. جلست على فراشها وضمت ركبتيها إلى صدرها، مصدومة من ردة فعلها، وكيف ثار غضبها سريعًا. في الأسفل، كانت إلينا تصرخ على الهاتف «أقسم بالرب، لقد حاولت العاهرة ضربي!». أرادت إفيملو صفع شريكتها الوقحة، لا لأن الكلب المريّل قد أكل قطعة لحمها، بل لأنها في حرب مع العالم، وتستيقظ كل يوم وتشعر بالكدمات، متخيلة حشدًا من أشخاص بلا وجوه كلهم ضدها. أفزعها ألا تكون قادرة على تصور الغد. حين اتصل والداها وتركا رسالة صوتية، حفظتها خوفًا من أن تكون هذه آخر مرة تسمع فيها صوتيهما. أن تكون هنا وتعيش في الخارج، دون أن تعلم متى تعود للوطن ثانية، يعني أن تشاهد الحب يتحول إلى قلق. فإن اتصلت بصديقة أمها، الخالة بونمي، ورن الهاتف حتى النهاية دون إجابة، أصيبت بالهلع والقلق أن يكون والدها قد مات ولم تعرف الخالة بونمي كيف تخبرها.

—

طرقت أليسن بابها «إفيملو؟ أردت تذكيرك فقط بأن شيك الإيجار ليس على الطاولة، نحن متأخرات أصلًا».

«أعلم، أنا أكتبه»، استلقت مقلوبة على فراشها. لم ترغب أن تكون شريكة السكن التي تعاني مشاكل في سداد الإيجار، ولم يعجبها أن تجلب لها جينيكا مؤونة

البقالة الأسبوع الماضي. وأمكنها سماع صوت جاكي من الأسفل، «ماذا علينا أن نفعل؟ نحن لسنا والديها اللعينين».

أخرجت دفتر الشيكات. وقبل أن تكتبه، اتصلت بمنزل العمة أوجو لتتحدث إلى دايك. وبعد أن أنعشتها براءته، اتصلت بمدرب التنس في أردمور.

«متى أستطيع بدء العمل؟»

«تريدين المجيء حالًا؟»

«حسن»، قالت.

حلقت إبطيها، ونقبت عن أحمر الشفاه الذي لم تضعه منذ أن غادرت ليغوس، الذي تلطخ معظمه على عنق أوبنز في المطار. ماذا سيحدث مع مدرب التنس؟ لقد قال «إنه تدليك»، لكن أسلوبه ونبرته قد أظهرت إيحاء ما. ربما كان واحدًا من أولئك الرجال البيض الذين قرأت عنهم، ذوي الذائقة الغريبة، الذين يريدون أن تمرر النساء ريشة على ظهورهم أو تتبولن عليهم. باستطاعتها فعل هذا بلا شك، أن تتبول على رجل مقابل مئة دولار. أعجبتها الفكرة، وابتسمت ابتسامة صغيرة خبيثة. مهما حدث، ستقدم عليه بأقصى جهدها، ستشرح له أن ثمة حدودًا لا يمكن تجاوزها. ستقول منذ البداية، «إن كنت تتوقع الجنس، فلا أستطيع مساعدتك إذًا»، أو ربما تقولها بلطف أكثر، وبإيحاء أكثر، «أنا لست مرتاحة للمضي بعيدًا». ربما كانت تمعن في الخيال، ربما لا يرغب بسوى التدليك فحسب.

حين وصلت بيته، كان أسلوبه جافًا. «ادخلي»، قال لها وقادها نحو غرفة نومه العارية إلا من فراش ولوحة كبيرة لعلبة من حساء الطماطم على الجدار. عرض عليها أن تشرب شيئًا بطريقة لا مبالية توحي بتوقعه رفضها، ثم خلع قميصه واستلقى على السرير. ألن يكون في الأمر تمهيد؟ تمنت لو أنه فعل الأمور ببطء أكثر. لقد هجرتها كلماتها.

قال: «تعالي هنا. أحتاج الدفء».

عليها أن تغادر، لقد مال ميزان القوى لصالحه، مال لصالحه منذ أن دخلت بيته. عليها أن تغادر، فنهضت.

«لا يمكنني ممارسة الجنس»، قالت وبدا صوتها صريرًا مرتبكًا ثم كررت «لا

يمكنني ممارسة الجنس معك».

«أوه لا، لا أتوقع ذلك منك»، قال بسرعة شديدة. تقدمت ببطء نحو الباب، متسائلة إن كان مقفلًا، إن أقفله، وتساءلت إن كان لديه سلاح.

قال: «تعالي هنا واستلقي فحسب. أبقيني دافئًا. سألمسك قليلًا، لكن لا شيء سيزعجك. أحتاج شيئًا من الاتصال البشري لأسترخي».

كان في نبرته وملامحه ثقة كاملة، فشعرت بالانهزام. شعرت بالدناءة لأنها هنا مع غريب يعرف مسبقًا أنها ستبقى. عرف أنها ستبقى لأنها جاءت، وها هي هنا أساسًا، وقد تلوثت مسبقًا. خلعت حذاءها وصعدت إلى سريره. لم ترغب في أن تكون هنا، ولم ترغب بإصبعه النشط بين ساقيها، ولم ترغب بتأوهاته العالية في أذنها، ومع ذلك شعرت أن جسدها يستثار في بلل مقرف. استلقت بعد ذلك بسكون ملتفة ومخدرة. لم يجبرها، فقد جاءت هنا بنفسها. استلقت على فراشه، وحين وضع يدها بين ساقيه، التفت وحركت أصابعها. الآن، وحتى بعد أن غسلت يديها، وهي تحمل حزمة الأوراق النقدية الجديدة والمنتفخة التي تبلغ مئة دولار أعطاها لها، شعرت بأصابعها دبقة ولم تعد تنتمي إليها.

«هل يمكنك القدوم مرتين في الأسبوع؟ سأدفع أجرة قطارك»، قال متمططًا ومزدريًا، فقد أرادها أن تغادر.

لم تقل شيئًا.

«أغلقي الباب»، قال وأدار لها ظهره.

مشت إلى القطار شاعرة بالثقل والبطء، وذهنها يغص بالوحل، وأخذت تبكي حين جلست قرب النافذة. شعرت أنها مثل كرة صغيرة هائمة ووحيدة. كان العالم مكانًا كبيرًا كبيرًا وهي ضئيلة للغاية، وحقيرة للغاية، تتحرك في الأنحاء خاوية. حين عادت إلى شقتها، غسلت يديها بماء ساخن جدًا أحرق أصابعها، وتبرعمت حُبار صغيرة على إبهامها. خلعت كل ثيابها وكورتها في كرة مجعدة ورمتها في زاوية ناظرة إليها لوهلة. لن ترتدي هذه الثياب ثانية، ولن تلمسها أبدًا. وجلست عارية على فراشها ونظرت إلى حياتها، في هذه الغرفة الصغيرة ذات السجادة الرطبة، وأوراق الدولارات المئة على الطاولة، وجسدها يزيد اشمئزازها. لم يكن عليها الذهاب هناك أبدًا، كان

عليها الرحيل. أرادت أن تستحم وتفرك نفسها، لكنها لم تحتمل فكرة لمس جسدها، لذا ارتدت منامتها بسرعة، لتلمس أقل ما يمكن من نفسها. وتصورت أنها تحزم أمتعتها وتشتري تذكرة بطريقة ما، وتعود إلى ليغوس. التفت على فراشها وبكت، متمنية أن تدخل إلى نفسها وتنتزع ذكرى ما حدث. كان نور بريدها الصوتي يومض، إنه أوبِنز على الأرجح. لم تطق التفكير به الآن، وفكرت بالاتصال بجينيكا، ثم اتصلت بالعمة أوجو.

«ذهبت للعمل لدى رجل في الضواحي اليوم، ودفع لي مئة دولار».

«حقًا؟ هذا جيد جدًا، لكن عليك البحث عن شيء دائم. انتبهت لتوي أن علي الحصول على تأمين صحي لدايك لأن الذي تقدمه هذه المستشفى الجديدة في ماساشوستس هراء، فهي لا تغطيه. ما زلت مصدومة من المبلغ الذي سأدفعه».

«ألن تسأليني ماذا فعلت يا عمتي؟ ألن تسأليني ماذا فعلت قبل أن يدفع لي الرجل مئة دولار؟»، سألت إفيملو، وقد اجتاحها غضب جديد، مجررًا نفسه عبر أصابعها فارتعشت.

«ماذا فعلت؟»، سألت العمة أوجو ببرود.

أغلقت إفيملو الهاتف. ضغطت على رسالة جديدة في جهازها. كانت الرسالة الأولى من أمها متحدثة بسرعة لتقلل تكلفة المكالمة، «كيف حالك يا إفيم؟ نتصل للاطمئنان عليك، لم نسمع أخبارك منذ مدة، أرجوك أرسلي رسالة. نحن جميعًا بخير، باركك الرب».

ثم صوت أوبِنز، وقد طفت كلماته في الهواء، وفي رأسها «أحبك يا إفيم»، قال في النهاية، بذاك الصوت الذي بدا بعيدًا جدًا بشكل مفاجئ، وبدا جزءًا من زمان ومكان آخرين. استلقت متصلبة على السرير، ولم تستطع النوم، ولم تستطع إلهاء نفسها، وأخذت تفكر في قتل مدرب التنس. ستضربه على رأسه مرة بعد مرة بفأس. ستغرس سكينًا في صدره المفتول العضلات. إنه يعيش وحده، ولديه في الغالب نساء أخريات يأتين إلى غرفته لفتح سيقانهن أمام إصبعه الطاعن بأظفره المقضوم. لن يعلم أحد أيهن قامت بذلك، وستترك السكين مغروسة في صدره وتبحث بعدها في أدراجه عن حزمة الأوراق النقدية من فئة المئة، فتتمكن من سداد إيجارها ورسوم دراستها.

أثلجت تلك الليلة، أول ثلج تشهده، وفي الصباح شاهدت العالم خارج نافذتها. صارت السيارات المركونة كتلًا عشوائية الشكل بفعل الثلج المتراكم. وكانت شاحبة لامبالية طافية في عالم تهبط فيه العتمة سريعًا ويمشي الجميع مثقلين بالمعاطف وهامدين في غياب الضوء. انسلت الأيام واحدًا تلو الآخر، وتحول الهواء الرقيق إلى هواء مثلج يؤلم عند استنشاقه. اتصل أوبنز عددًا من المرات لكنها لم ترفع السماعة. وحذفت رسائله الصوتية دون سماعها ورسائله الإلكترونية دون قراءتها، وشعرت بنفسها تغوص وتغوص سريعًا، وتعجز عن انتشال نفسها.

—

كانت تستيقظ خدرة كل صباح، يبطئها الحزن ويخيفها امتداد اليوم الذي يكمن في الأمام. صار كل شيء كثيفًا، وكانت مغمورة تائهة في ضباب دبق، وملفوفة بسحاب من العدم. كان ثمة هوة بينها وبين ما عليها الإحساس به، فلم تبال بشيء. أرادت أن تهتم لكنها لم تعد تعرف كيف تفعل، فقد انزلقت من ذاكرتها القدرة على الاهتمام. كانت تستيقظ أحيانًا متخبطة وعاجزة، وهي ترى أمامها وخلفها وفي كل ما حولها، يأسًا مطلقًا. وعرفت أنه لا مغزى من الوجود هنا ومن البقاء على قيد الحياة، لكنها ليس لديها القدرة على التفكير بتركيز كيف تقتل نفسها. كانت تستلقي في الفراش وتقرأ الكتب ولا تفكر بشيء، وتنسى أن تأكل أحيانًا وفي أحيان أخرى تنتظر حتى منتصف الليل لتأوي شريكاتها إلى غرفهن، قبل تسخين طعامها، وتترك الأطباق المتسخة تحت فراشها، حتى ينمو عفن مخضر على البقايا المزيتة للأرز والفاصولياء. كثيرًا ما انتابتها، في منتصف الأكل أو القراءة، رغبة ساحقة في البكاء فتنهمر الدموع ويؤذي النشيج حلقها. أخرست رنين هاتفها، ولم تعد تذهب للصفوف. وكانت أيامها مسكونة بالصمت والثلج.

—

قرعت أليسن بابها ثانية «هل أنت بالداخل؟ لديك مكالمة هاتفية! إنها تقول إنها حالة طارئة حبًا بالله! أعرف أنك بالداخل، سمعتك تدفعين ماء المرحاض منذ دقيقة!»

لم يثر إفيملو القرع الرتيب الممل كأن أليسن تطرق الباب براحة يد مفتوحة بدلًا من البراجم. «إنها لا تفتح»، سمعت أليسن تقول، ومن ثم استمر القرع،

وحين ظنت أن أليسن قد غادرت، نهضت من فراشها، حيث تستلقي وتبادل بين قراءة روايتين فصلًا بفصل، ومشت نحو الباب بتثاقل. أرادت أن تمشي بسرعة، بشكل طبيعي، لكنها لم تستطع. فقد تحولت قدماها إلى حلزونتين، وفتحت الباب. فوضعت أليسن الهاتف في يدها محملقة.

«شكرًا»، قالت بوهن، وأضافت بهمهمة أخفض «آسفة». لقد أنهكها الحديث ورفع الكلمات من حنجرتها وخروجها من فمها.

«آلو؟»، قالت في الهاتف.

«ما الذي يحدث يا إفيم؟ ما الذي يحدث لك؟»، سألت جينيكا.

«لا شيء»، قالت.

«كنت قلقة للغاية عليك. حمدًا للرب أنني وجدت رقم هاتف زميلتك! اتصل بي أوبنز. إنه قلق للغاية. وحتى العمة أوجو اتصلت لتسأل إن كنت رأيتك»، قالت جينيكا.

«كنت مشغولة»، ردت إفيملو بغموض.

ران صمت، فرقت نبرة جينيكا «أنا موجودة يا إفيم، تعرفين ذلك، صحيح؟»

أرادت إفيملو إن تغلق الهاتف وتعود لفراشها.

«لدي أخبار جيدة، اتصلت بي كمبرلي لتطلب رقم هاتفك. لقد رحلت جليسة الأطفال التي عينتها، وتريد تعيينك. تريد منك البدء يوم الإثنين، قالت إنها أرادتك منذ البداية، لكن لورا تحدثت إليها لتعيين أخرى. لذا يا إفيم صار لديك عمل الآن! نقدًا! خفية! هذا رائع يا إفيمسكو، ستدفع لك مئتين وخمسين دولارًا في الأسبوع، أكثر من جليسة الأطفال السابقة، نقدًا تمامًا من تحت الطاولة! كمبرلي امرأة رائعة حقًا. سآتي غدًا لآخذك إليها لتريها».

لم تقل إفيملو شيئًا، فقد جهدت لتفهم، واستغرقت الكلمات وقتًا طويلًا ليكون لها معنى.

قرعت جينيكا في اليوم التالي وقرعت على بابها قبل أن تفتح إفيملو الباب أخيرًا، ورأت أليسن تقف على بسطة الدرج في الخلف تراقب بفضول.

«نحن متأخرتان أساسًا، ارتدي ثيابك»، قالت جينيكا بحزم وبسلطة دون

مجال للاعتراض. ارتدت إفيملو سروال جينز، وشعرت أن جينيكا تراقبها. ملأت موسيقى الروك الصمت بينهما في السيارة. كانتا في جادة لانكستر، على وشك الخروج من غرب فيلادلفيا، بمبانيها ذات الأبواب والنوافذ المغطاة، وأغلفة الهمبرغر المكومة، وفي الضواحي النظيفة الممتلئة بالأشجار في مين لاين، قالت لها جينيكا «أظنك تعانين من الاكتئاب».

هزت إفيملو رأسها واستدارت نحو النافذة. الاكتئاب هو ما يحدث للأمريكيين، مع حاجتهم المتسامحة مع الذات لتحويل كل شيء إلى مرض. لم تعانِ من الاكتئاب، بل كانت متعبة قليلًا وبطيئة قليلًا فحسب. «لست أعاني اكتئابًا»، قالت. وستكتب بعد سنوات في مدونتها عن هذا «**حول موضوع معاناة السود غير الأمريكيين من أمراض يرفضون معرفة أسمائها**». كتبت امرأة كونغولية تعليقًا طويلًا ردًا على ذلك: انتقلت إلى فرجينيا من كنشاسا، وأخذت تشعر بالدوار صباحًا، وبقلبها ينبض بقوة كأنه يفر منها، وبمعدتها مضطربة من الغثيان، وأصابعها تخز لأشهر في فصلها الدراسي الأول. ذهبت لرؤية طبيب، وحتى عندما وضعت علامة صح أمام الأعراض على البطاقة التي أعطاها لها الطبيب، رفضت قبول التشخيص بأنه نوبة هلع لأن نوبات الهلع تحدث للأمريكيين فقط. ولم تسمّ باسم آخر حتى، إنها لا تسمى مطلقًا. هل تبدأ الأشياء بالحدوث فقط عندما تُسَمّى؟

«هذا أمر يمر به الكثير من الأشخاص يا إفيم، وأعلم أنه ليس سهلًا عليك أن تتكيفي مع مكان جديد وما زلت لا تعملين. نحن لا نتحدث عن أمور مثل الاكتئاب في نيجيريا لكنه حقيقي. عليك رؤية أحد في المركز الطبي، ففيه دومًا معالجون نفسيون».

أبقت إفيملو وجهها نحو النافذة، وشعرت ثانية بالرغبة الساحقة بالبكاء، وأخذت نفسًا عميقًا، آملة أن تزول. تمنت لو أخبرت جينيكا عن مدرب التنس، ولو أنها أخذت القطار للذهاب لشقة جينيكا، ولكن فات الأوان، فقد تصلب داخلها الاشمئزاز من النفس. لن تتمكن من صياغة الجملة لتحكي حكايتها.

«شكرًا لك يا جينيكا»، قالت بصوت أجش، وانهمرت الدموع ولم تستطع كبحها. توقفت جينيكا في محطة وقود وأعطتها منديلًا ورقياً، وانتظرت حتى يتوقف نشيجها قبل أن تشغل السيارة وتقودها نحو بيت كمبرلي.

الفصل السادس عشر

سمتها كمبرلي مكافأة التوقيع وقالت: «أخبرتني جينيكا أنك تمرين ببعض الصعوبات، فلا ترفضي أرجوك».

لم يخطر ببال إفيملو رفض الشيك، إذ يمكنها الآن سداد بعض الفواتير وإرسال شيء لوالديها في الديار. أحبت أمها الحذاء الذي أرسلته، كان مستدقًا وله شرابة، من النوع الذي يمكنها ارتداءه إلى الكنيسة. «شكرًا»، قالت أمها، ثم أضافت وهي تتنهد بقوة على خط الهاتف «جاء أوبِنز لرؤيتي».

صمتت إفيملو.

«أيًا كانت مشكلتك، أرجوك ناقشيها معه»، قالت أمها.

قالت إفيملو «حسن»، وأخذت تتحدث عن أمر آخر. حين قالت أمها إن الكهرباء قطعت لأسبوعين، بدا لها ذلك غريبًا عليها فجأة، وبدت الديار نفسها مكانًا بعيدًا. لم تعد تذكر كيف يبدو قضاء أمسية على ضوء الشموع، ولم تعد تقرأ الأخبار على موقع نيجيريا دُتْ كوم لأن كل عنوان، حتى أكثرها بعدًا، يذكّرها بأوبِنز.

في البداية، منحت نفسها شهرًا: شهرًا لتمحو اشمئزازها من نفسها، ثم تتصل بأوبِنز. لكن الشهر مر وما زالت تُبقي أوبِنز مختومًا بالصمت، وأسكتت عقلها بحيث لا تفكر فيه إلا بأقل ما يمكن. ما زالت تحذف رسائله الإلكترونية دون قراءتها. بدأت الكتابة له عددًا من المرات، وصاغت رسائل إلكترونية ومن ثم توقفت وحذفتها.

توجب عليها أن تخبره بما حدث، ولم تطق فكرة إخباره ما حدث. لقد شعرت بالخزي، لأنها أخفقت. وظلت جينيكا تسألها عما بها، وعن سبب إقصائها لأوبنز، وقالت إن الأمر ليس بذي بال. لقد أرادت بعض المساحة فقط، ونظرت إليها جينيكا فاغرة فاها غير مصدقة، **تريدين بعض المساحة فقط؟**

في بداية الربيع وصلت رسالة من أوبِنز. لقد تطلب حذف رسائله الإلكترونية نقرة، وبعد النقرة الأولى، صارت الأخرى أسهل لأنها لم تتصور قراءة الثانية ما لم تقرأ الأولى. لكن هذه الرسالة مختلفة، إذ حملت لها أعظم حزن شعرت به. وغاصت في فراشها حاملة المظروف في يدها، وتشممته وحدقت بخط اليد المألوف. لقد تخيلته جالسًا إلى مكتبه في الملحق قرب ثلاجته الصغيرة التي تئز، يكتب بأسلوبه الهادئ ذاك. أرادت أن تقرأ الرسالة، لكنها لم تستطع فتحها. وضعتها على الطاولة، وستقرأها في غضون أسبوع، وقالت في نفسها إنها تحتاج أسبوعًا لتستجمع قواها، وسترد عليها أيضًا. ستخبره بكل شيء، ولكن بعد أسبوع، لم تزل الرسالة جاثمة هناك، ووضعت كتابًا فوقها، ثم كتابًا آخر، ويومًا ضاعت تحت الملفات والكتب ولن تقرأها أبدًا.

—

كان تايلور سلسًا، طفلًا صبيانيًا لعوبًا، يكون ساذجًا جدًا أحيانًا، بحيث ظنته إفيملو غبيًا بلا إحساس بالذنب. لكن مورغان، التي تكبر تايلور بأعوام ثلاثة فقط، قد اتخذت مسبقًا سلوك المراهِقة الشكّاءة. كانت تقرأ ما هو أكبر من عمرها بمراحل، ومنغمسة بصفوف تطوير المواهب، وتراقب البالغين بنظرات مقنّعة، كأنها مطلعة على العتمة التي تكمن في حياتهم. في البداية، كرهت إفيملو مورغان، مستجيبة لما ظنته كراهية مورغان التي تكبر على نحو مزعج. كانت فاترة أحيانًا وحتى باردة تجاه مورغان أثناء أسابيعها الأولى معهم، عاقدة العزم على ألا تدلل هذه الطفلة المدللة المترفة التي انتثر النمش البورغندي على أنفها. لكنها غدت، بمرور الأشهر، تهتم بمورغان بعاطفة حرصت على ألا تظهرها لمورغان. كانت عوضًا عن ذلك حازمة ومحايدة، تضع عينها في عين مورغان. ربما لهذا أطاعت موررغان ما تقوله إفيملو، فتقوم به ببرود واستياء وحقد لكنها تفعله. ودائمًا تتجاهل أمها، وقد تحولت رقابتها المتأملة إلى سم مع أبيها. يأتي دون للبيت ويدخل غرفة المعيشة،

متوقعًا أن يتوقف كل شيء من أجله. فيتوقف كل شيء، باستثناء ما تفعله مورغان أيًا كان. فتسأله كمبرلي، بغزل وحماسة عن يومه، مندفعة لإسعاده، كأنها لا تصدق أنه عاد ثانية إليها. كان تايلور يقذف نفسه بين ذراعي دون، وترفع مورغان نظرها عن التلفاز أو الكتاب أو اللعبة لتراه كأنها ترى عبره، فيتظاهر دون بعدم الارتباك من نظرتها الثاقبة. تساءلت إفيملو أحيانًا، هل كان ذلك بسبب دون؟ هل هو خائن واكتشفت مورغان أمره؟ كانت الخيانة أول ما يفكر به المرء لرجل مثل دون، بهالته الفاسقة تلك. لكنه قد يرتوي بمجرد الإيحاء، فقد يغازل بفحش لكنه لن يفعل أكثر، لأن العلاقة ستحتاج جهدًا، وهو من الرجال الذين يأخذون ولا يعطون.

كثيرًا ما تذكرت إفيملو بعد الظهيرة تلك في أيام مجالستها الأولى، حين كانت كمبرلي في الخارج، وتايلور يلعب ومورغان تقرأ في غرفة المعيشة. وضعت مورغان كتابها جانبًا فجأة ، وصعدت إلى الأعلى بهدوء ومزقت ورق الجدران في غرفتها، ودفعت طاولة الزينة، وانتزعت غطاء سريرها، ومزقت الستائر وجثمت على ركبتيها تسحب وتسحب وتسحب السجادة الملصقة بالغراء، عندما ركضت إفيملو لإيقافها. كانت مورغان مثل رجل آلي صغير فولاذي يتوق ليتحرر بقوة أرعبت إفيملو. قد ينتهي الأمر بالطفلة لتصبح قاتلة متسلسلة، مثل أولئك النسوة في الوثائقيات التلفزيونية عن الجريمة، اللاتي يقفن نصف عاريات في الطرق المظلمة لإغواء سائقي الشاحنات ومن ثم يخنقنهم. حين تركتها إفيملو في النهاية، مرخية قبضتها ببطء عن مورغان الهادئة، عادت مورغان ثانية للأسفل لقراءة كتابها.

سألتها كمبرلي باكية في وقت لاحق، «حبيبتي أرجوك، أخبريني ما بك».

وقالت مورغان «أنا كبيرة جدًا على كل ذلك اللون الوردي في غرفتي».

أخذت كمبرلي مورغان مرتين في الأسبوع إلى معالج في بالا سينويد. وكانت هي ودون مترددين بشأنها، وأكثر جبنًا تحت نظرتها المهينة.

حين فازت مورغان في مسابقة كتابة مقالة في المدرسة، عاد دون حاملًا هدية لها. وقفت كمبرلي بقلق أسفل السلم حين صعد دون ليقدم الهدية الملفوفة بورق لامع، وعاد بعد دقيقة.

قال: «لم تنظر إليها حتى. لقد نهضت وذهبت إلى الحمام وظلت هناك»،

فتركتها على السرير».

«لا بأس يا عزيزي، ستخرج»، قالت كمبرلي معانقة إياه وممسدة على ظهره.

قالت كمبرلي لإفيملو على انفراد في وقت لاحق، «مورغان تقسو عليه كثيرًا، يحاول جاهدًا ولا تتقبّله، ولن تفعل».

«مورغان لا تتقبل أحدًا»، قالت إفيملو، «على دون أن يتذكر أن مورغان هي الطفلة، لا هو».

«إنها تصغي إليك»، قالت كمبرلي بقليل من الحزن.

أرادت إفيملو أن تقول «أنا لا أمنحها خيارات كثيرة»، لأنها تمنت ألا يكون إذعان كمبرلي شديد الوضوح، فلعل مورغان تريد أن تشعر أن أمها تدعمها. بدلًا من ذلك قالت «هذا لأني لست من عائلتها، إنها لا تحبني ولا تشعر بكل تلك الأمور المعقدة تجاهي. أنا مجرد شخص بغيض في أحسن الأحوال».

«لا أعرف فيما أخطئ»، قالت كمبرلي.

«إنها مرحلة وستتجاوزها. سترين»، شعرت أنها حامية لكمبرلي، وأرادت أن تصون كمبرلي.

«الشخص الوحيد الذي تهتم به فعلًا هو قريبي كيرت، إنها تعبده. إن كان لدينا اجتماع أسري فستختبئ ما لم يكن كيرت موجودًا. سأرى إن كان بإمكانه القدوم للزيارة والحديث معها».

—

جلبت لورا مجلة.

قالت: «انظري إلى هذا يا إفيملو. إنها ليست نيجيريا، لكنها قريبة منها. أعلم أن المشاهير متهورون أحيانًا، لكن يبدو لي أن هذه تقوم بعمل جيد».

نظرت إفيملو وكمبرلي إلى الصفحة معًا، إلى امرأة بيضاء نحيلة تبتسم للكاميرا وتحمل طفلًا إفريقيًا داكن البشرة بين ذراعيها، وفي كل مكان حولها انتشر أطفال أفارقة داكنو البشرة مثل بساط. أطلقت كمبرلي صوتًا، همهمة كأنها لم تكن واثقة من شعورها.

«إنها مذهلة أيضًا»، قالت لورا.

«أجل إنها كذلك. كما أنها نحيلة مثل الأطفال، سوى أن نحولها باختيارها ونحولهم ليس كذلك»، قالت إفيملو.

فرقعت ضحكة عالية من لورا «إنك مضحكة! أحب وقاحتك!»

لم تضحك كمبرلي. قالت لاحقًا حين صارت وحدها مع إفيملو «أعتذر عن قول لورا ذلك، لم تعجبني كلمة وقح أبدًا. إنها كلمة تستخدم لأشخاص بعينهم دون سواهم». هزت إفيملو كتفيها وابتسمت وغيرت الموضوع. لم تفهم لمَ تبحث لورا عن معلومات حول نيجيريا، سائلة إياها عن المحتالين الغشاشين، ومخبرة إياها عن حجم الأموال التي يرسلها النيجيريون في أمريكا إلى ديارهم كل عام. لقد كان اهتمامًا عدائيًا كارهًا غريبًا في الحقيقة، أن تولي كثيرًا من الاهتمام لأمر لا تحبه. ربما كان الأمر يتعلق بكمبرلي، وكانت لورا بطريقة مشوهة تستهدف أختها بقول أمور قد تجعل كمبرلي تعتذر. وقد بدا جهدًا كبيرًا لمكسب صغير رغم ذلك. في البداية ظنت إفيملو اعتذار كمبرلي عذبًا وليس ضروريًا، لكنها أخذت تشعر بومضة من نفاد الصبر من اعتذارات كمبرلي المكررة، لأنها مشوبة بانغماس ذاتي، كأنها تؤمن أنها تستطيع باعتذارها تمليس كل الأسطح الناتئة في العالم.

—

بعد بضعة أشهر من مجالستها سألتها كمبرلي «هلا فكرت بالعيش معنا؟ القبو يعد شقة بغرفة نوم واحدة وله مدخل خاص، وسيكون بلا إيجار طبعًا».

كانت إفيملو أصلًا تبحث عن استديو، متلهفة لترك شريكاتها في السكن لأنها تستطيع تحمل التكلفة الآن، ولم ترغب بالاشتباك في حياة آل تيرنر أكثر، لكنها مع ذلك فكرت بالموافقة، لأنها سمعت التماسًا في صوت كمبرلي. في النهاية قررت أنها لا تستطيع العيش معهم. وحين رفضت، عرضت عليها كمبرلي أن تستخدم سيارتهم الإضافية، وقالت «ستسهل عليك الأمر كثيرًا لتصلي هنا بعد صفوفك. إنها قديمة، وننوي التبرع بها، آمل ألا تتوقف في الطريق»، كأن سيارة الهوندا القديمة بضع سنوات فحسب، وهيكلها بلا خدوش، يمكن أن تتوقف في الطريق.

«ليس عليك أن تثقي بي لأخذ سيارتك إلى البيت، ماذا لو أنني لم أعد يومًا؟»، قالت إفيملو.

ضحكت كمبرلي ،»إنها لا تساوي كثيرًا».

«ليس لديك رخصة قيادة أمريكية أليس كذلك؟ أعني هل تستطيعين القيادة بشكل قانوني في هذا البلد؟»، سألتها لورا.

«تستطيع طبعًا يا لورا»، قالت كمبرلي، «ما كانت لتقبل السيارة لو أنها لا تستطيع؟»

«كنت أتأكد فحسب»، قالت لورا كأن كمبرلي لا يمكن الاعتماد عليها في طرح الأسئلة الهامة على المواطنين غير الأمريكيين. راقبتهما إفيملو؛ إذ كانتا متشابهتين كثيرًا في مظهريهما، وتعستين. لكن تعاسة كمبرلي داخلية، غير واضحة، مدرعة بالرغبة لتكون الأمور كما يجب أن تكون، وبالأمل أيضًا، فهي تؤمن بسعادة الأشخاص الآخرين، لأنها تعني أنها أيضًا قد تحظى بها يومًا. أما تعاسة لورا فمختلفة، واخزة، لأنها تمنت لو أن الجميع من حولها تعس لأنها أقنعت نفسها أنها ستكون كذلك دومًا.

«لدي رخصة أمريكية»، قالت إفيملو، ثم بدأت تتحدث عن صفوف القيادة الآمنة التي تلقتها في بروكلن قبل أن تحصل على رخصتها، وغش المدرب، وهو رجل نحيل أبيض له شعر باهت بلون القش. في غرفة القبو المعتمة المكتظة بالأجانب، التي كان مدخلها سلالم ضيقة أكثر عتمة، قد جمع المدرب كل المبالغ النقدية قبل عرض فيلم القيادة الآمنة على جهاز العرض على الجدار. وبين الفينة والأخرى يلقي دعابة لم يفهمها أحد ويضحك لنفسه. ارتابت إفيملو قليلًا بأمر الفيلم، فكيف يمكن لقيادة السيارة بهذا البطء أن تحدث كل هذا الدمار في حادث، مسببة كسرًا في عنق السائق؟ بعد ذلك قدم أوراق الاختبار، ووجدتها إفيملو سهلة وظلّلت الإجابات بالقلم الرصاص بسرعة. ظل رجل ضئيل من جنوب آسيا، في الخمسين من عمره ربما، ينظر إليها وعيناه تتوسلان، لكنها تظاهرت بعدم فهمها أنه يريد مساعدتها. جمع المدرب الأوراق، وأخرج ممحاة بلون الصلصال وأخذ يمسح بعض الإجابات ويظلل أخرى. نجح الجميع، هز الكثيرون رؤوسهم قائلين «شكرًا لك، شكرًا لك»، بمدى واسع من اللكنات قبل أن يهرعوا للخارج. أصبح بإمكانهم الآن التقدم للحصول على رخصة القيادة الامريكية. سردت إفيملو الحكاية بصراحة زائفة، كأنه أمر غريب عليها فقط لا أمرًا اختارت أن تغيظ به لورا.

«كانت لحظة غريبة بالنسبة لي، لأنني ظننت حتى ذلك الوقت أن لا أحد يغش في أمريكا»، قالت إفيملو.

قالت كمبرلي «أوه يا إلهي».

«هل حدث هذا في بروكلن؟»، سألت لورا.

«أجل».

رفعت لورا كتفيها كأنها تقول إنه يحدث طبعًا في بروكلن لكن ليس في أمريكا التي تعيش فيها.

—

مرة، كانت برتقالة موضوع الحديث. برتقالة مدورة بلون اللهب جلبتها إفيملو معها للغداء، مقشرة ومقطعة بأرباع ومحفوظة في كيس بلاستيكي بشريط لاصق. تناولتها وهي تجلس إلى طاولة المطبخ، حيث جلس تايلور قربها يكتب واجباته المنزلية.

«هل تريد بعضًا يا تايلور؟»، سألت وقدمت له قطعة.

«شكرًا»، قال ووضعها في فمه، فتغضن وجهه.

«إنها سيئة الطعم، فيها شيء!»

«هذه البذور»، قالت وهي تنظر إلى ما بصقه في يده.

«البذور؟»

«نعم بذور البرتقال».

«ليس في البرتقال شيء داخله».

«بلى فيها. ارمها في سلة القمامة. سأضع الفيديو التعليمي لك».

«ليس في البرتقال شيء داخله»، كرر.

أكل البرتقال دون بذور طوال حياته. تكبر البرتقالة لتكون برتقالية بلون رائع ولها قشر بلا عيوب ولا بذور، لذا في عمر الثامنة لم يعرف بوجود شيء مثل برتقالة ببذور. وذهب إلى غرفة المعيشة ليخبر مورغان عن الأمر. فرفعت نظرها عن كتابها ورفعت يدًا بطيئة ضجرة وثبتت شعرها الأحمر خلف أذنها.

«طبعًا للبرتقال بذور، أمي تشتري النوع الذي بلا بذور. لم تشتر إفيملو النوع المناسب»، ونظرت إلى إفيملو نظرات اتهام.

«هذا البرتقال هو النوع المناسب لي يا مورغان. نشأت وأنا آكل برتقالًا ببذور»، قالت إفيملو مشغلة الفيديو.

«حسن» رفعت مورغان كتفيها. لم تكن لتقول شيئًا مع كمبرلي، بل ستكتفي بالحملقة.

رن جرس الباب؛ لا بد أنه عامل تنظيف السجاد. سيقيم كمبرلي ودون حفل كوكتيل لجمع الأموال في اليوم التالي، لأحد أصدقائهم الذي قال دون «إنها حفلة تقدير له لترشحه للكونغرس، لكنه لن يقترب من النجاح حتى»، وفوجئت إفيملو أن باستطاعته إدراك كِبر الآخرين، لكنّ ضباب كِبره يعميه. ذهبت إلى الباب، وعنده وقف رجل محمر الوجه ضخم الجسم، حاملًا عدة تنظيف، وشيئًا ملقى على كتفه وشيئًا آخر مثل جزازة العشب مستندًا إلى قدميه.

توتر عندما رآها، وطافت الدهشة على ملامحه في البداية ثم تحولت إلى عداء.

"هل طلبت عاملًا لتنظيف السجاد؟"، سأل كأنه لا يهتم، وكأنها يمكن أن تغير رأيها، وكأنه أرادها أن تغير رأيها. نظرت إليه بتوبيخ في عينيها، مطيلة لحظة مثقلة بالتظاهر؛ فقد ظنها صاحبة البيت، ولم تكن من توقع رؤيته في هذا المنزل الحجري الكبير ذي الأعمدة البيضاء.

"أجل"، قالت أخيرًا وقد تعبت فجأة، «أخبرتني السيدة تيرنر بقدومك».

كانت حيلة سحرية، فقد اختفت العدائية سريعًا، وغرق وجهه في ابتسامة. لقد كانت هي أيضًا عاملة، وها قد عاد الكون ثانية إلى ما يجب أن يكون عليه.

"كيف حالك؟ هل تعرفين من أين تريدني أن أبدأ؟"، سأل.

"الطابق الأعلى"، قالت وقد أدخلته، متساءلة ما ضرّ لو حلت كل هذه البهجة جسده في وقت أسبق. لن تنساه أبدًا. لقد علقتْ نتف من الجلد الجاف على شفتيه المتقشرتين المشقوقتين، وستستهل منشورًا في مدونتها بعنوان "**أحيانًا في أمريكا، الأصل العرقي يعني الطبقة**" بقصة تغيره الدراماتيكي إذ لم يكن يعنيه مقدار ما أملك من مال. لكني برأيه لست مناسبة لأكون صاحبة ذلك المنزل الفخم بسبب مظهري. في الخطاب العام الأمريكي يُجمَع «السود" إجمالًا مع «الفقراء البيض»، ليس السود الفقراء والبيض الفقراء، بل السود والبيض الفقراء. إنه أمر غريب حقًا.

كان تايلور متحمسًا «هل يمكنني المساعدة؟"، سأل منظف السجاد.

"لا، شكرًا يا صاح. سأتدبر أمري"، قال.

"آمل ألا يبدأ من غرفتي"، قالت مورغان.

"لماذا؟"، سألت إفيملو.

"لا أريده أن يفعل فحسب".

—

أرادت إفيملو أن تخبر كمبرلي عن منظف السجاد، لكن كمبرلي قد ترتبك وتعتذر لإفيملو عما لم يكن خطأها كما تعتذر كثيرًا، كثيرًا جدًا عن لورا.

من المزعج رؤية هزيمة كمبرلي وهي متحمسة للصواب دون أن تعرف ما هو الصواب. لو أخبرت كمبرلي عن منظف السجاد، فلا حاجة للقول كيف ستتصرف، فستضحك وتعتذر وتلتقط الهاتف للاتصال بالشركة والشكوى.

ولذا، عوضًا عن هذا، أخبرت كمبرلي عن تايلور والبرتقال.

"هل حقًا ظن أن البذور تعني أنها سيئة؟ يا له من أمر مضحك".

"لقد صححت له مورغان سريعًا بالطبع"، قالت إفيملو.

"أوه، إنها تفعل».

"حين كنت فتاة صغيرة اعتادت أمي أن تخبرني أن البرتقالة يمكن أن تنمو في رأسي إن ابتلعت بذرة. قضيت صباحات قلقة عديدة وأنا أنظر في المرآة. على الأقل لن يعاني تايلور معضلة الطفولة هذه».

ضحكت كمبرلي.

"مرحبًا!"، كانت لورا، وقد دخلت من الباب الخلفي مع أثينا، الطفلة الهزيلة الضئيلة ذات الشعر الخفيف جدًا بحيث تظهر منه جلدة رأسها، كانت طفلة نحيلة. ربما أصابت خضراوات لورا المخلوطة وأنظمتها الصارمة في الحمية الطفلة بسوء التغذية.

وضعت لورا مزهرية على الطاولة، «ستبدو هذه رائعة في الغد».

"إنها جميلة"، قالت كمبرلي منحنية لتقبيل رأس أثينا. «هذه قائمة طعام المتعهد. يظن دون أن اختيار المقبلات متواضع جدًا. لست واثقة».

"هل يريد منك إضافة المزيد؟"، قالت لورا متفحصة القائمة.

"يرى فقط أنها بسيطة قليلًا. كان عذبًا في قولها".

أخذت أثينا تبكي في غرفة المعيشة، وذهبت إليها لورا، وسرعان ما بدأت سلسلة من المفاوضات «هل تريدين هذه يا حلوتي؟ الصفراء أم الزرقاء أم الحمراء؟ أيها تريدين؟»

قالت إفيملو في نفسها: أعطِها واحدة فحسب. أن تغمر طفلة في الرابعة بالخيارات، وتثقلها بعبء اتخاذ قرار، تجريد لها من نعمة الطفولة. سيكون عليها في مرحلة البلوغ، التي تلوح في الأفق، اتخاذ قرارات مقيتة أكثر وأكثر.

"تبدو نكدة اليوم"، قالت لورا عائدة إلى المطبخ، بعد تهدئة بكاء أثينا، «أخذتها للمراجعة بسبب التهاب الأذن وكانت مزعجة حقًا طوال اليوم. وقد التقيت بذلك الرجل النيجيري اليوم. وصلنا هناك وتبين أن طبيبًا جديدًا قد انضم للعيادة مؤخرًا وكان نيجيريًا وجاء وحيّانا. ذكّرني بك يا إفيملو. قرأت على شبكة الإنترنت أن النيجيريين أكثر جماعة متعلمة من المهاجرين في هذه البلاد. طبعًا لم يذكر شيئًا عن الملايين الذين يعيشون بأقل من دولار في اليوم في ديارك، لكني فكرت بذلك المقال وبك وبأفارقة موسرين هنا في هذه البلاد حين التقيت الطبيب وبك بأفارقة آخرين".

صمتت لورا وشعرت إفيملو، كالعادة، أن لورا لديها ما تضيفه لكنها ترددت. بدا غريبًا، أن توصف بالموسرة. كان الأشخاص الموسرون من أمثال كِيود داسيلفا، الذي وهن جوازه سفره تحت ثقل أختام التأشيرات، الذي يذهب إلى لندن لقضاء الصيف وإلى نادي إكويي للسباحة، الذي يمكنه ببساطة النهوض وقول «سنذهب إلى فرينشير لشراء المثلجات».

"لم أُدعَ موسرة أبدًا في حياتي! تبدو كلمة جيدة»، قالت إفيملو.

"أظنني سأطلب تغييرًا ليكون هو طبيب أثينا. كان رائعًا، حسن الهندام وحسن الحديث. لم أكن راضية جدًا عن د. بينغهام منذ رحيل د. هوفمان على أية حال»، رفعت لورا القائمة ثانية «عرفت امرأة في الجامعة من إفريقيا مثل هذا الطبيب تمامًا، أظنها من أوغندا، كانت رائعة ولم تكن تتعاطى مع النساء الإفريقيات الأمريكيات في صفوفنا مطلقًا. ولم يكن لديها كل هذه القضايا».

"ربما ترشّح والد الأوغندية للبرلمان أو درس في أوكسفورد، في الوقت الذي لم يكن يسمح فيه لوالد الإفريقية الأمريكية بالتصويت لأنه أسود"، قالت إفيملو.

نظرت إليها لورا وتعبير ساخر على وجهها «انتظري، هل فوتّ شيئًا؟»

"أظنها مقارنة تبسيطية. عليك أن تفهمي التاريخ أكثر"، قالت إفيملو.

تدلت شفتا لورا وترنحت ثم تمالكت نفسها.

"حسن، سآخذ ابنتي وسأذهب للعثور على بعض كتب التاريخ من المكتبة، إن كنت سأعرف كيف تبدوا!"، قالت لورا ومضت خارجة.

سمعت إفيملو تقريبًا قلب كمبرلي ينبض بعنف.

"أنا آسفة"، قالت إفيملو.

هزت كمبرلي رأسها وهمهمت وعيناها على طبق السلطة الذي تخلطه: «أعرف أن لورا صعبة".

هرعت إفيملو صاعدة إلى لورا.

"أنا آسفة لوقاحتي قبل قليل، وأعتذر"، لكنها كانت آسفة من أجل كمبرلي، والطريقة التي تخلط بها السلطة كأنها تود تحويلها إلى عجينة.

"لا بأس"، نشقت لورا ممسدة شعر ابنتها، وعرفت إفيملو أنها لن تخلع عنها معطف المجروح.

—

لم تتحدث إليها لورا في الحفلة في اليوم التالي باستثناء كلمة «مرحبًا" جافة. كان المنزل مفعمًا بهمهمة أصوات لطيفة والضيوف يرفعون كؤوس النبيذ إلى شفاههم. كلهم متشابهون، وملابسهم أنيقة وآمنة، وحِسّ دعابتهم أنيق وحذر، ويكثرون من ترديد كلمة رائع مثل الأمريكيين الآخرين من الطبقة الراقية. «ستأتين وتساعديني في الحفلة، أليس كذلك؟". كمبرلي سألت إفيملو كما تفعل دومًا في اجتماعاتهم. لم تكن إفيملو واثقة كيف تساعد، باعتبار أن الحفلات كان تموّن ويذهب الأطفال إلى النوم باكرًا، لكنها أحست تحت خفة دعوة كمبرلي بشيء قريب من الحاجة. وقد بدا حضورها للاعتناء بكمبرلي بطريقة ما لم تفهمها تمامًا، ولكن إن أرادتها كمبرلي هنا فعليها أن تكون هنا.

"هذه إفيملو جليسة أطفالنا وصديقتي"، قدمتها كمبرلي إلى ضيوفها.

"أنت جميلة جدًا. إن النساء الإفريقيات فاتنات وبخاصة الأثيوبيات»، قال لها رجل مبتسمًا وأسنانه بيضاء على نحو صاعق.

تحدث ثنائي عن رحلة سفاري لهما في تنزانيا، "كان لدينا مرشد رحلة رائع ونحن ندفع الآن نفقات تعليم ابنته الأولى». وتحدثت امرأتان عن التبرعات لجمعية خيرية رائعة في مالاوي تحفر آبارًا، وعن ميتم رائع في بوستوانا، وشركة برأس مال صغير رائعة في كينيا. حدقت بهم إفيملو. ثمة ترف أكيد في الأعمال الخيرية لم تستطع الاستجابة له ولم تشعر به. ربما جاء الإيمان ب"الإحسان"، والاستمتاع بهذا الإحسان نحو أناس لا تعرفهم، من كونهم لديهم ماض ولديهم حاضر ويتوقعون أن يكون لديهم غد، فحسدتهم على هذا.

قالت امرأة ضئيلة ترتدي سترة زهرية بسيطة «أنا رئيس هيئة جمعية خيرية في غينيا. نحن نعمل مع النسوة الريفيات، ونهتم بطاقم عمل إفريقي، ولا نريد أن نكون جمعية غير حكومية لا تعيّن عمالة محلية. لذا إن كنت تبحثين عن عمل بعد التخرج وتريدين العودة للعمل في إفريقيا، اتصلي بي».

"شكرًا لك"، أرادت إفيملو فجأة بشدة أن تكون من البلد الذي يعطي شعبه لا الذي يأخذ، وأن تكون واحدة من أولئك الذين يملكون ويمكنهم لذلك أن ينعموا بنعمة العطاء، وأن تكون بين أولئك الذين يمكنهم تقديم الشفقة والتعاطف السخيين. ذهبت إلى الخارج إلى السقيفة لتستنشق شيئًا من الهواء النقي. وتمكنت عبر السياج من رؤية المربية الجامايكية لأطفال الجيران تمشي في الممر، تلك التي تتحاشى نظرات إفيملو ولا ترغب بإلقاء التحية. ثم لاحظت حركة على الجانب الآخر من السقيفة. كان دون، وفيه ثمة شيء ماكر، وشعرت -أكثر من كونها رأت -أنه أنهى لتوه مكالمة هاتفية.

"حفلة رائعة. لقد كان ذريعة لكيم ولي لنجمع الأصدقاء. كان روجر مشغولًا جدًا وقلت له إنه ليس هناك مجال...»، قال لها.

ظل دون يتحدث، وصوته موشّى جدًا بالمرح، ونفورها يخمشها من حلقها. لا تتحدث هي ودون على هذا النحو، ففي حديثه الكثير من الأخبار، والكثير من الكلام.

أرادت أن تقول له إنها لم تسمع شيئًا من حديثه الهاتفي، إن كان ثمة ما يسمع على الإطلاق، وإنها لا تعرف شيئًا ولا تريد أن تعرف.

"لا بد أنهم يبحثون عنك"، قالت.

"نعم، علينا العودة للداخل"، قال وكأنهما خرجا معًا. بالعودة للداخل رأت إفيملو كمبرلي واقفة في وسط غرفة المعيشة، مبتعدة قليلًا عن دائرة أصحابها، إذ تبحث في الجوار عن دون وحين رأته ثبتت عينيها عليه، ولان وجهها لينًا وصار خلوًّا من القلق.

—

غادرت إفيملو الحفلة باكرًا، فقد أرادت مكالمة دايك قبل موعد نومه. رفعت العمة أوجو السماعة.

"هل نام دايك؟"، سألت إفيملو.

"إنه يغسل أسنانه"، قالت، ثم أضافت بصوت أخفض «كان يسألني عن اسمه ثانية».

"ماذا قلت له؟"

"الأمر نفسه. تعلمين أنه لم يسألني عن هذه الأمور قبل أن ننتقل إلى هنا».

"ربما بسبب وجود بارثولوميو في الصورة، والبيئة الجديدة. اعتاد أن تكوني له وحده".

"هذه المرة لم يسأل لمَ كان يحمل اسمي، بل سألني إن حمله لأن أباه لم يحبه».

"عمتي ربما حان الوقت لإخباره أنك لم تكوني زوجة ثانية»، قالت إفيملو.

"لقد كنت زوجة ثانية فعلًا"، بدت العمة أوجو متحدية، بل نزقة وهي تحكم قبضتها بقوة حول قصتها. لقد أخبرت دايك أن أباه كان في الحكومة العسكرية، وأنها زوجته الثانية، وأنهم منحوه اسم عائلتها لحمايته لأن بعض الأشخاص في الحكومة، وليس أباه، ارتكبوا أمورًا سيئة.

"حسن، هذا دايك"، قالت العمة أوجو بصوت طبيعي.

"أهلًا يا ابنة الخال! كان عليك مشاهدة مباراة كرة القدم اليوم!"، قال دايك.

"كيف أحرزت كل هذه الأهداف وأنا لست موجودة؟ هل سددت هذه الأهداف

في أحلامك؟"، سألت إفيملو.

ضحك. ما زال يضحك بسهولة. لقد تمتع بحس فكاهة كبير، لكنه منذ انتقالهما إلى ماساشوستس، لم يعد شفافًا. لقد لف شيءٌ نفسَه حوله، مُصعّبًا فهمه، ورأسه منكب دومًا على لعبته غيم بوي، ويرفع نظره بين الحين والآخر لمشاهدة أمه، والعالم، بإنهاك شديد جدًا بالنسبة لطفل. تراجعت درجاته، وتوعدته العمة أوجو كثيرًا. في آخر مرة زارتهم فيها إفيملو أخبرته العمة أوجو «سأرسلك إلى نيجيريا إن فعلت هذا ثانية!"، وهي تتحدث بالإيبو كما تفعل حين تغضب فقط، وخشيت إفيملو من أن تصبح لغة الصراع لديه.

لقد تغيّرت العمة أوجو أيضًا. في البداية بدت فضولية ومترقبة لحياتها الجديدة. قالت "هذا المكان 'أبيض' جدًا، هل تعلمين أنني ذهبت الصيدلية لشراء أحمر شفاه بسرعة لأن المركز التجاري على بعد ثلاثين دقيقة، وكانت كل الدرجات فاتحة! لكنهم لا يستطيعون جلب ما لا يمكنهم بيعه! غير أن هذا المكان هادئ ومريح على الأقل، وأشعر بالأمان لشرب مياه الصنبور، وهو أمر لن أجربه حتى في بروكلن».

ببطء، بمرور الأشهر، صارت نبرتها مريرة.

"قالت معلمة دايك إنه عدائي"، أخبرت إفيملو يومًا بعد أن استُدعيت لرؤية المدير. «عدائي نحو كل الأشياء، تريده أن يذهب إلى ما يسمونه تعليمًا خاصًا، حيث سيضعونه وحيدًا في صف ويحضرون له مدرّبًا للتعامل مع الأطفال ذوي المشاكل النفسية. أخبرت المرأة أن هذا ليس ابني، وأن أباها هو العدائي. انظري إليه، فحين يفعل ما يفعله باقي الأولاد، يصبح عدائيًا، لأنه مختلف فقط. ثم قال لي المدير «دايك واحد منا، نحن لا نود رؤيته مختلفًا أبدًا"، أي تظاهر هذا؟ أخبرته أن ينظر إلى ابني. في المدرسة بأكملها اثنان منهما، والطفل الآخر مختلط العرق، وفاتح جدًا بحيث أنك لو نظرت إليه من بعيد لن تعرف مطلقًا أنه أسود. أما ابني فيفرق فورًا، فكيف تقول لي إذًا إنك لا ترى فرقًا؟ رفضت مطلقًا أن يضعوه في صف خاص. إنه أكثر ذكاء منهم جميعًا مجتمعين. يريدون الآن أن يبدؤوا بوصمه، حذرتني كيمي من ذلك، قالت إنهم حاولوا فعلها لابنها في إنديانا».

تحولت شكاوى العمة أوجو، لاحقًا، إلى برنامج امتيازها، فهو بطيء وضئيل

والتقارير الطبية ما زالت تكتب بخط اليد، وتحفظ في ملفات مغبرة. ومن ثم بعدما أنهت امتيازها، اشتكت من المرضى الذين يظنون أنهم يسدون إليها صنيعًا برؤيتها. نادرًا ما ذكرت بارثولوميو، كأنها عاشت مع دايك فقط في منزل ماساشوستس قرب البحيرة.

الفصل السابع عشر

قررت إفيملو أن تكف عن تصنع اللكنة الأمريكية في يوم مشمس من أيام يوليو، في اليوم نفسه الذي رأت فيه بْلين. كانت اللكنة مقنعة، فقد أتقنتها من مراقبة الأصدقاء ومذيعي الأخبار، من تخفيف حرف التاء، واللف السلس لحرف الراء، والجمل التي تبدأ بقول «إذًا»، والجواب السهل بقول "أوه حقًا». لكن اللكنة بهتت بعد وعيها، وكان ذلك فعلًا إراديًا. لقد تطلب الأمر جهدًا في زم الشفاه واعوجاج اللسان، وإن أصيبت بالهلع أو الخوف أو انتفضت في غفوتها أثناء نشوب حريق، فلن تذكر كيف تنطق هذه الأصوات الأمريكية. لذا قررت التوقف، في ذلك اليوم الصيفي، في إجازة نهاية الأسبوع لعيد ميلاد دايك. وقد حرّض قرارَها مكالمةٌ من مُسَوّق هاتفي، حين كانت في شقتها الكائنة في شارع سبرنغ غاردن، أول شقة حقيقية لها في أمريكا، لها وحدها، وهي استديو له حنفيات تخر وسخان مزعج. شعرت في الأسابيع التي تلت انتقالها، بالخفة مغمورة بالرفاه، لأنها تفتح الثلاجة عارفة أن كل ما فيها لها، وتنظف حوض الاستحمام عارفة أنها لن تجد في المصرف خصلًا مزعجة من شعر شريكاتها الغريبات. «إنها تبعد حيين عن مناطق العنف رسميًا"، كان ما قاله المراقب جمال، حين أخبرها أن تتوقع سماع طلق ناري بين الحين والآخر، ورغم أنها فتحت نافذتها كل مساء متوترة ومصغية، إلا أن كل ما سمعته هي أصوات أواخر الصيف، والموسيقى من السيارات العابرة، والضحكات المتفائلة لأطفال يلعبون،

وصراخ أمهاتهم.

في صباح يوليو ذاك، كانت تُعدّ بيضًا مقليًا، وقد حزمت حقيبة إجازة نهاية الأسبوع للسفر إلى ماساشوستس، حين رن الهاتف. ظهرت هوية المتصل «غير معروف"، وظنت أنها مكالمة من والديها في نيجيريا. لكنها كانت من مُسَوّق هاتفي، أمريكي شاب يعرض أسعارًا أفضل للمكالمات الدولية ومكالمات المسافات البعيدة. كانت دومًا تغلق السماعة مع موظفي التسويق الهاتفي، لكن في صوته شيئًا جعلها تطفئ الموقد وتمسك بالسماعة، شيئًا شابًا يثير الحزن، غِرًّا وبِكرًا، وتهدّجًا خفيفًا في الصوت، وتودُّد موظفي خدمة العملاء العدائيين الذي لم يكن عدائيًا قط؛ بدا كأنه يقول ما تدرب على قوله لكنه قلق حتى الموت حول إزعاجه لها.

سألها عن حالها، وكيف الطقس في مدينتها، وأخبرها أن الطقس حار جدًا في فونيكس. ربما كان يومه الأول في العمل، وسماعته تنكز في أذنه نكزًا مزعجًا وهو يأمل قليلًا ألا يكون الأشخاص الذين يتصل بهم في المنزل فيرفعون السماعة. فسألته إن كان لديهم أسعار أفضل من خمسين سنتًا للدقيقة إلى نيجيريا، لأنها شعرت بالأسى من أجله فجأة.

"انتظري لحظة لأرى لك نيجيريا»، قال وعادت هي لتقليب البيض الذي تعده.

عاد وقال إن أسعاره كانت نفسها، ولكن ألا تتصل ببلد آخر؟ المكسيك؟ كندا؟

"حسن، أتصل بلندن أحيانًا"، قالت، لأن جينيكا تقضي الصيف هناك.

"حسن، انتظري ريثما أرى لك سعر مكالمة فرنسا"، قال.

انفجرت ضاحكة.

"هل في الأمر ما يضحك؟"، سأل.

ضحكت بصوت أعلى، وفتحت فمها لتخبره، بصراحة، أن من المضحك أن يبيع أسعار مكالمات دولية ولا يعرف أين تقع لندن. لكن شيئًا ما منعها؛ صورتها عنه، لعله في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، بدين وردي الوجه أخرق بشؤون الفتيات وذكي بألعاب الفيديو، وليس لديه أدنى فكرة عن التناقضات المزعجة في العالم. لذا قالت «تعرض على التلفاز كوميديا قديمة مضحكة".

"أوه، حقًا؟"، قال وضحك أيضًا. فطر قلبها ببساطته حين عاد إليها ليقول

لها أسعار فرنسا، فشكرته وقالت إنها أفضل من الأسعار التي لديها وإنها ستفكر بتغيير الشركة.

"متى يكون الوقت مناسبًا لأعاود الاتصال بك؟ إن كان هذا مناسبًا..."، قال. تساءلت إن كانوا سيدفعون عمولة له، وهل سيكون أجره أكبر إن انتقلت إلى شركة اتصالاته؟ لأنها ستفعل ما دام الأمر لا يكلفها شيئًا.

"مساءً"، قالت.

"هل لي أن أسأل عن اسمك؟"

"اسمي إفيملو".

كرر اسمها بحرص مفرط ،"هل هو اسم فرنسي؟"

"لا، نيجيري".

"هل أسرتك من هناك؟"

"نعم"، ثم غرفت البيض في طبق وقالت "لقد نشأت هناك».

"أوه، حقًا؟ منذ متى وأنت في الولايات؟»

"منذ ثلاث سنوات».

"واو. جميل. تبدين أمريكية تمامًا".

"شكرًا لك".

وما إن أغلقت الهاتف حتى أخذت تشعر بألم الخزي المضاعف يتمدد داخلها، لأنها شكرته وحوّلت عبارته «تبدين أمريكية" إلى سلسلة تتدلى حول عنقها. لمَ كان ذلك إطراء وإنجازًا، أن تبدو أمريكية؟ لقد انتصرت كريستينا توماس، كريستينا توماس ذات الوجه الشاحب التي انكمشت تحت نظرتها مثل حيوان صغير مهزوم، ستتحدث إليها على نحو طبيعي الآن. لقد انتصرت، حقًا، لكن نصرها بلا معنى. لقد خلّف نصرها العابر في أثره فضاء فارغًا له صدى، لأنها تصنعت ولوقت طويل جدًا نبرة صوت ليست لها. وهكذا فرغت من تناول البيض وقررت أن تكف عن تصنع اللكنة الأمريكية. فتحدثت أول مرة بلا لكنة أمريكية عصر ذلك اليوم في محطة الشارع الثلاثين، منحنية نحو المرأة خلف منضدة أمتراك.

"هل يمكنني حجز تذكرة ذهاب وإياب إلى هافرهيل من فضلك؟ سأعود

عصر الأحد. لدي بطاقة الطالب"، قالت، وشعرت بدفقة من المتعة من نطق حرف التاء كاملًا في بطاقة، ودون راء سلسة في هافرهيل. كانت هذه هي حقًا، هذا الصوت الذي ستتحدث به إن أيقظوها من نوم عميق أثناء زلزال. ومع ذلك، قررت إن ردت المرأة من شركة أمتراك على لكنتها ببطء شديد وكأنها تتحدث إلى بلهاء، فستتحدث بصوت السيد آغبو، المهذب الحريص على اللفظ الذي تعلمته أثناء لقاءات المناظرة في المدرسة الثانوية حين يشغّل السيد آغبو ذو اللحية، المتشبث بربطة عنقه، تسجيلات بي بي سي على جهاز الكاسيت، ثم يجعل كل الطلاب يلفظون الكلمات مرة بعد أخرى حتى يبتسم ويهتف «صحيح!". كما ستضع أيضًا، بصوت السيد آغبو، رفعًا خفيفًا لحاجبها إلى ما تصورته وضعية أجنبية متكبرة. لكن لم يكن ثمة داعٍ لأي من هذا لأن موظفة أمتراك تحدثت بشكل طبيعي «هل يمكنني رؤية هويتك يا آنسة؟»

ولم تستخدم صوت السيد آغبو إذًا حتى التقت ببْلين.

كان القطار مكتظًا، والمقعد المجاور لبْلين هو المقعد الشاغر الوحيد في تلك العربة، حسبما أمكنها أن ترى، وبدت الصحيفة وزجاجة العصير الموضوعتان عليه تخصانه. توقفت مومية نحو المقعد، لكنه أبقى نظرته إلى الأمام بهدوء. وخلفها تجر امرأة حقيبة ثقيلة وجامع التذاكر يشير إلى إزالة الممتلكات من المقاعد الشاغرة، ورآها بْلين تقف هناك - كيف أمكنه ألا يراها؟- ولم يفعل شيئًا مع ذلك. لذا ظهر صوت السيد آغبو «عفوًا، هل هذه لك؟ هل يمكنك أن تبعدها؟»

وضعت حقيبتها على الرف العلوي وجلست على المقعد بتوتر، حاملة مجلتها، وجسدها مائل نحو الممر وبعيد عنه. أخذ القطار يتحرك حين قال «أنا آسف حقًا، لم أرك تقفين هناك».

فاجأها اعتذاره، فقد كان تعبيره جادًا وصادقًا بحيث بدا كأنه ارتكب شيئًا أكثر وضاعة، فقالت: «لا بأس» وابتسمت.

"كيف حالك؟"، سأل.

تعلمت أن تقول «بخير، كيف حالك أنت؟"، بتلك الطريقة الأمريكية الرتيبة، لكنها قالت، «أنا بخير شكرًا لك».

"اسمي بْلين"، قال ومد يده.

بدا رجلًا طويلًا ذا بشرة لها لون كعك الزنجبيل وجسد نحيل حسن التقاطيع ملائم لزي رسمي، أي زي. عرفت فورًا أنه إفريقي أمريكي، وليس من الكاريبي ولا من إفريقيا، وليس ابنًا لمهاجرين من أي من المكانين، لم تكن دومًا قادرة على التخمين. وقد سألت مرة سائق سيارة أجرة «من أين أنت؟"، بنبرة أليفة واثقة أنه من غانا، وقال «من ديترويت" بابتسامة. لكن كلما مر عليها زمن أطول في أمريكا، صارت أفضل في التمييز من النظرة والمشية أحيانًا، ولكن من الوقفة والمظهر معظم الأحيان، تلك العلامات الدقيقة التي تطبعها الثقافة على الناس. شعرت بالثقة حيال بْلين، وبأنه سليل رجال ونساء سود جاؤوا إلى أمريكا منذ مئات السنين.

"أنا إفيملو، يسعدني التعرف إليك"، قالت.

"هل أنت نيجيرية؟"

"أجل".

"نيجيرية بورجوازية"، قال وابتسم. ثمة أُلفة سريعة مفاجئة في إغاظته لها، وأن يدعوها موسرة.

"بورجوازية بقدرك"، قالت. كانا في غزل صريح الآن. نظرت إليه بهدوء، إلى قميصه ذي اللونين الكاكي والأزرق البحري الفاتحين، إنها ثياب منتقاة بقدر مناسب من التفكير. بدا رجلًا ينظر إلى نفسه في المرآة لكنه لا يطيل النظر. وقال لها إنه يعرف نيجيريين، وهو أستاذ مساعد في جامعة ييل، ورغم أن اهتمامه يتركز غالبًا على إفريقيا الجنوبية، فكيف له ألا يعرف نيجيريين وهم في كل مكان.

"كيف يكون الأمر إن كان واحد من بين كل خمسة إفريقيين نيجيريًا؟"، سأل وما زال مبتسمًا. فيه شيء ساخر ولطيف في آن معًا، كأنه صدق أنهما يتشاطران سلسلة من الدعابات الموروثة التي ليست بحاجة لأن تُقال.

"أجل، النيجيريون في كل مكان. علينا ذلك، فنحن كثيرون جدًا ولا مساحة كافية"، قالت، وفاجأها قربهما، إذ يفصلهما فقط ذراع مقعد. تحدث الإنجليزية الأمريكية التي هجرتها منذ قليل، النوع الذي يجعل مستطلعي الرأي على الهاتف حول الأصل العرقي يفترضون أنك أبيض ومتعلم.

"إذًا هل إفريقيا الجنوبية هي تخصصك؟»

"لا، بل السياسة المقارنة. لا يمكنك دراسة إفريقيا فقط في كليات العلوم السياسية في هذه البلاد. يمكنك مقارنة إفريقيا ببولندا أو إسرائيل، أما التركيز على إفريقيا نفسها، فلن يسمحوا لك بذلك».

استخدامه ل «هم" أوحى بوجود «نحن" التي تعني كليهما. كانت أظافره نظيفة، ولا يضع خاتم زواج. أخذت تتخيل علاقة، كلاهما ينهض في الشتاء، ملتفًا في البياض الساطع لضوء الصباح، شاربًا شاي الإفطار الإنجليزي، وتمنت أن يكون من أولئك الأمريكيين الذين يحبون الشاي. كان عصيره، الزجاجة المحشورة في الحقيبة أمامه، رمانًا عضويًا؛ زجاجة بنية بسيطة بعلامة بنية بسيطة، أنيقة وصحية معًا. لا يوجد مواد كيميائية في العصير ولا حبر مهدور على البطاقة المزينة. من أين جلبه؟ فهو ليس من الأشياء التي تباع في محطة القطار. ربما كان نباتيًا ولا يثق بالشركات الكبرى ويتبضع من محلات المزارعين فقط وجلب عصيره العضوي من بيته. كانت نافدة الصبر مع أصدقاء جينيكا، الذين كان معظمهم هكذا؛ وقد جعلها صدقهم تشعر بالضيق والنقص في آن معًا، لكنها على استعداد للصفح عن قناعات بْلين. كان يحمل كتاب مكتبة سميك الغلاف لم تستطع رؤية عنوانه وحشر في صحيفة **نيويورك تايمز** قرب زجاجة العصير. حين نظر إلى مجلتها، تمنت لو أنها أخرجت ديوان إسيابا إيروي[39] الذي خططت لقراءته في القطار في رحلة العودة. فقد يظن أنها لا تقرأ إلا مجلات الأزياء الضحلة، وشعرت برغبة مفاجئة ولامعقولة بأن تقول له كم تحب شعر يوسف كومونيكا[40] لتنقذ نفسها. في البداية غطت أحمر الشفاه اللامع على وجه فتاة الغلاف. ثم مالت للأمام ودفعت المجلة في الحقيبة أمامها وقالت بنشقة خفيفة إن من السخيف أن تفرض المجلات النسائية صورة لنساء بيضاوات صغيرات البنية صغيرات الصدور على بقية عالم النساء ذوات البنيات المختلفة والإثنيات المتعددة لتقليدها.

"لكني أواصل قراءتها. إنها مثل التدخين، فهو ضار لك لكنك تدخن على أية حال»، قلت.

---

39) (1960-2010) شاعر نيجيري.

40) (1947) شاعر أمريكي يدرّس في جامعة نيويورك، فاز بجائزة البولتزر للشعر عام 1994.

"القوام المتعدد والإثنيات المتعددة"، قال مبتسمًا وعيناه دافئتان باهتمام واثق، وفتنها أنه لم يكن من الرجال الذين يظهرون برودًا أكيدًا ويتظاهرون باللامبالاة حين تعجبهم امرأة.

"هل أنت طالبة جامعية؟"، سأل.

"أنا في السنة الثالثة في ويلسن".

هل خيمت الخيبة على وجهه من المفاجأة أم أنها تخيلت ذلك؟ «حقًا؟ تبدين أكثر نضجًا».

"أنا كذلك. لقد درست في الجامعة في نيجيريا قبل أن أتركها وآتي إلى هنا»، عدلت جلستها في مقعدها، عاقدة العزم للعودة إلى ملعب الغزل البارد.

"أنت، من جانب آخر، تبدو صغيرًا جدًا على أن تكون أستاذًا. لا بد أن طلابك محتارين عمن يكون الأستاذ».

"أظنهم محتارين حول الكثير من الأمور. هذه سنتي الثانية في التدريس"، صمت، «هل تفكرين بالدراسات العليا؟»

"نعم، لكني أخشى أن أتخرج وأفقد قدرتي على التحدث بالإنجليزية. أعرف امرأة في الجامعة، صديقة لصديق، ومجرد الاستماع إليها أمر مرعب. الجدل السيميائي للحداثة التناصية، التي لا تعني شيئًا على الإطلاق. أحيانًا أشعر أنهم يعيشون في عالم موازٍ من الباحثين الذين يتحدثون الأكاديمية بدلًا من الإنجليزية، ولا يعرفون ما الذي يحدث فعلًا في العالم الحقيقي».

"هذا رأي قوي للغاية".

"لا أعرف كيف يكون لي رأي آخر".

ضحك وأسعدها أن تضحكه.

قال: "لكني أفهمك. تضمن اهتماماتي البحثية الحركات الاجتماعية، والاقتصاد السياسي للديكتاتورية، وحق التصويت والتمثيل الأمريكي، أو الأصل العرقي والإثنية في السياسة، وتمويل الحملات. هذا خطابي الكلاسيكي. معظمه هراء على أية حال. أدرّس صفوفي وأتساءل إن كان أي منها يعني هؤلاء الصغار».

"أوه، أنا واثقة أنها تهمّهم. أحب أن أنضمّ إلى أحد صفوفك»، تحدثت بلهفة،

لم تظهر كما أرادت. لقد ألقت نفسها، دون قصد، في دور طالبة محتملة. بدا متحمسًا لتغيير اتجاه المحادثة، ربما لم يرغب أن يكون أستاذها أيضًا. أخبرها أنه عائد إلى نيوهفن بعد أن زار أصدقاء في واشنطن العاصمة، «أين تذهبين إذًا؟»

"وارنغتن. على بعد مسافة من بوسطن. تعيش عمتي هناك".

"هل جئت إلى كونيكتكت من قبل؟»

"ليس كثيرًا. لم أذهب إلى نيوهفن أبدًا، لكني ذهبت إلى المراكز التجارية في ستامفورد وكلنتن».

"أوه صحيح، المراكز التجارية"، تدلت شفته قليلًا عند الجانبين.

"لا تحب المراكز التجارية؟"

"عدا عن كونها بلا روح وتفهة؟ إنها جيدة تمامًا».

لم تفهم أبدًا كره المراكز التجارية، وفكرة العثور على المحلات نفسها فيها جميعًا، فقد رأت المراكز التجارية مريحة في تشابهها. ومع ثيابه المنتقاة بعناية، لا بد أنه يتسوق في مكان ما؟

"إذًا هل زرعت القطن وصنعت ثيابك؟"، سألت.

ضحك، وضحكت أيضًا. تخيلت كلًا منهما، يدًا بيد، ذاهبين إلى المركز التجاري في ستامفورد، وهي تغيظه مذكرة إياه بحوارهما في اليوم الذي التقيا فيه، ورافعة وجهها لتقبيله. لم يكن من طبعها التحدث للغرباء في المواصلات العامة - فعلتها أكثر حين أنشأت مدونتها قبل بضع سنوات- لكنها تحدثت وتحدثت، ربما بسبب جِدة صوتها. كلما تحدثا أكثر قالت لنفسها إن هذه ليست صدفة، بل كان مُهمًّا لها لقاء هذا الرجل في اليوم الذي بدأت فيه استخدام صوتها. أخبرته بالضحكة المكتومة لشخص نافد الصبر في طابور ثقب التذاكرعن مزحتها، وعن مسوق الهاتف الذي ظن لندن في فرنسا. لم يضحك لكنه هز رأسه عوضًا عن ذلك.

"لا يدربون هؤلاء المسوقين جيدًا أبدًا. أراهن أنه موظف مؤقت بلا تأمين صحي ولا علاوات».

"أجل"، قالت بتهذيب، "شعرت بشيء من الأسى من أجله».

"إذًا بدأ قسمي بالانتقال إلى مبنى جديد منذ بضعة أسابيع. وعيّنت الجامعة

ناقلين محترفين وأخبرتهم أن يحرصوا على نقل كل شيء من المكتب القديم لكل شخص إلى البقعة نفسها تمامًا في المكتب الجديد. وفعلوا، وكانت كل كتبي مرصوصة على الرف في الوضع الصحيح. لكن أتعرفين ما الذي لاحظته لاحقًا؟ معظم الكتب مقلوبة"، نظر إليها كأنما ليجرب البوح المشترك، وللحظة صامتة، لم تكن واثقة من معنى القصة.

"أوه، يجهل عمال النقل القراءة"، قالت أخيرًا.

هز رأسه موافقًا. «كان في الأمر شيء قتلني حقًا..."، سمح لصوته أن ينساب بعيدًا.

بدأت تتخيل كيف يكون في الفراش، سيكون عاشقًا يقظًا يهمه الإرواء العاطفي بقدر القذف. لن يحكم على جسدها المترهل، وسيستيقظ رائق المزاج كل صباح. نظرت إليه بسرعة خشية أن يكون قد قرأ أفكارها، فقد كان الخيال واضحًا جدًا هناك.

"هل ترغبين بشرب الجعة؟"، سأل.

"جعة؟»

"أجل، يقدم المقهى الجعة. هل تريدين واحدة؟ أنا ذاهب لأحضر واحدة».

"أجل، شكرًا لك».

نهضت، واعية بذاتها، لتسمح له بالمرور وتمنت أن تشم شيئًا منه، لكنها لم تفعل. لا يضع الكولونيا. ربما كان مقاطعًا للكولونيا لأن مصنعيها لا يعاملون موظفيهم جيدًا. شاهدته وهو يمشي في الممر، واثقة أنه يعلم أنها تراقبه. لقد أسعدها عرض الجعة، إذ خشيت أن يكون كل ما يشربه هو عصير الرمان العضوي، لكن فكرة عصير الرمان العضوي صارت مبهجة، ما دام يشرب الجعة أيضًا. حين عاد حاملًا الجعة والأكواب البلاستيكية، سكب لها بتأنق بدا لها مثقلًا بالرومانسية. لم تحب الجعة مطلقًا، فقد نشأت على كونها مشروبًا كحوليًا خشنًا وفظًا خاصًا بالذكور. ها هي، جالسة قرب بْلين، تضحك وهو يخبرها عن المرة الأولى التي ثمل فيها فعلًا في سنته الجامعية الأولى، وانتبهت أنها قد تحب الجعة، وتخمة الجعة المحببة.

تحدث عن سنوات دراسته الجامعية، والحماقة في تناول شطائر السائل

المنوي أثناء طقوس تكريسه في الأخوية، وتسميته على الدوام بمايكل جوردان في الصين في سنته الثالثة الجامعية عندما سافر عبر آسيا، وموت أمه بالسرطان بعد أسابيع من تخرجه.

"شطائر السائل المنوي؟"

"لقد استمنوا على قطعة من خبز البيتا، وعليك أن تأخذي قضمة، لكن ليس عليك بلعها».

"أوه يا إلهي».

"حسن، يفعل المرء أشياء غبية في شبابه على أمل ألا يفعلها حين يكبر"، قال.

حين أعلن جامع التذاكر أن المحطة التالية كانت نيوهفن، شعرت إفيملو بطعنة من الفقد. مزقت صفحة من مجلتها وكتبت رقم هاتفها «هل لديك بطاقة؟"، سألت.

تحسس جيوبه، «ليس لدي أي واحدة معي».

ساد صمت وهو يلملم أغراضه. ثم صرير مكابح القطار. شعرت وتمنت أنها مخطئة بأنه لا يريد إعطاءها رقمه.

"حسن، هل ستكتب رقم هاتفك إن كنت تذكره؟"، سألت. كانت دعابة معطوبة، فقد دفعت الجعة هذه الكلمات من فمها.

كتب رقمه على مجلتها «اعتني بنفسك" قال. لمس كتفها برقة وهو يغادر وكان ثمة شيء في عينيه، شيء حزين ورقيق في آن معًا، جعلها تقول لنفسها إنها مخطئة للإحساس بتجاهله. لقد افتقدته منذ الآن. وانتقلت إلى مقعده، مستمتعة بالدفء الذي خلّفه جسده في يقظته، وراقبته من النافذة وهو يمشي على رصيف المحطة.

حين وصلت منزل العمة أوجو، كان أول ما رغبت بفعله الاتصال به. لكنها رأت أن من الأفضل أن تنتظر بضع ساعات. بعد ساعة قالت "اللعنة" واتصلت. لم يجب، فتركت رسالة. اتصلت مرة أخرى لاحقًا، اتصلت واتصلت واتصلت، ولا رد. اتصلت منتصف الليل، لم تترك رسائل. اتصلت طوال إجازة نهاية الأسبوع واتصلت ولم يرفع السماعة أبدًا.

—

كانت وارنغتن بلدة خاملة، بلدة منطوية على نفسها، لها شوارع متعرجة تخترق

الغابات الكثيفة، وحتى الشارع الرئيس- الذي لم يرغب السكان بتوسعته خشية أن يجلب الغرباء من المدينة- كان متعرجًا وضيقًا، وفيه منازل ناعسة محصنة بالأشجار، وفي نهاية الأسبوع كانت البحيرة الزرقاء ترقطها الزوارق. من نافذة غرفة الطعام في منزل العمة أوجو، لمعت البحيرة، في زرقة ساكنة للغاية تخطف البصر. وقفت إفيملو قرب النافذة بينما جلست العمة أوجو إلى الطاولة تشرب عصير البرتقال وتبث شكاواها مثل الجواهر. لقد صار روتينًا في زيارات إفيملو، إذ تجمع العمة أوجو كل سخطها في محفظة حريرية، ترعاه وتلمعه، ومن ثم يوم السبت في زيارة إفيملو حين يكون بارثولوميو خارجًا ودايك في الأعلى، تدفقه على الطاولة، وتقلب كل واحد في هذا الاتجاه وذاك، ليلتقط الضوء.

كانت أحيانًا تقول القصة نفسها مرتين. كيف ذهبت إلى المكتبة العامة ذلك اليوم ونسيت إخراج كتاب لم تعده من حقيبة يدها، فقال لها الحارس «أنتم قوم لا تفعلون شيئًا بالشكل الصحيح أبدًا"، وكيف أنها دخلت إلى غرفة الفحص وسألتها المريضة «هل الطبيب قادم؟"، وحين قالت إنها الطبيبة تغير وجه المريضة إلى صلصال مشوي.

"هل تعلمين أنها اتصلت عصر ذلك اليوم لتحويل ملفها إلى عيادة طبيب آخر! هل يمكنك أن تتخيلي؟»

"ما هو رأي بارثولوميو في كل هذا؟"، أومأت إفيملو لتدخل إلى الغرفة منظر البحيرة والبلدة.

"هذا الإنسان مشغول جدًا بملاحقة تجارته. يغادر باكرًا ويعود متأخرًا كل يوم. أحيانًا لا يراه دايك لأسبوع كامل".

"أنا متفاجئة أنك ما زلت هنا يا عمتي"، قالت إفيملو بهدوء، وبقولها «هنا"عرفت كلتاهما أنها لا تقصد وارنغتن.

"أريد طفلًا آخر. نحن نحاول"، جاءت العمة أوجو ووقفت بجانبها قرب النافذة.

كان على السلالم الخشبية وقع أقدام، ودخل دايك إلى المطبخ، مرتديًا قميصًا باهتًا وسروالًا قصيرًا، حاملًا جهاز اللعب غيم بوي. في كل مرة تراه إفيملو يبدو لها أنه صار أطول وأكثر تحفظًا.

"هل سترتدي هذا السروال القصير إلى المخيم؟"، سألته العمة أوجو.

"نعم يا أمي"، قال وعيناه على الشاشة الوامضة في يده.

نهضت العمة أوجو لتتفقد الفرن. لقد وافقت هذا الصباح على مخيمه الصيفي الأول، وأن تعد له قطع الدجاج على الإفطار.

"يا ابنة الخال، ما زلنا سنلعب كرة القدم لاحقًا، صحيح؟"، سأل دايك.

"أجل"، قالت إفيملو وأخذت قطعة دجاج من صحنه ووضعتها في فمها «قطع الدجاج على الإفطار أمر غريب، لكن هل هذا دجاج أو بلاستيك فقط؟»

"بلاستيك حريف"، قال.

مشت معه نحو الحافلة وشاهدته يدخل، ورأت الوجوه الفاتحة للأطفال الآخرين قرب النافذة، وسائق الحافلة يلوح لها بمرح. وقفت هناك منتظرة حين أعادته الحافلة عصرًا، وقد ارتسم على وجهه شيء من الحزن.

"ما الأمر؟"، سألته واضعة ذراعها حول كتفه.

"لا شيء"، قال، «هل يمكننا أن نلعب الكرة الآن؟»

"بعد أن تخبرني بما حدث".

"لم يحدث شيء".

"أظنك بحاجة لشيء من السكر. لا بد أنك ستحصل على الكثير منه غدًا في كعكة عيد ميلادك، لكن لنأكل بسكويتة».

"هل ترشين الأطفال الذين تجالسينهم بالسكر؟ يا سلام، إنهم محظوظون".

ضحكت. أخرجت علبة من بسكويت الأوريو من الثلاجة.

"هل تلعبين الكرة مع الأطفال الذي تجالسينهم؟"، سأل.

"لا"، قالت، رغم أنها تلعب بين الحين والآخر مع تايلور، تركل له الكرة ذهابًا وإيابًا في فنائهم الخلفي الكبير المفروش بالخشب. حين يسألها دايك أحيانًا عن الأطفال الذين ترعاهم، تشبع اهتمامه الطفولي، مخبرة إياه عن دماهم وحياتهم، لكنها حريصة على ألا يبدوا مهمين لها.

"إذًا، كيف المخيم؟»

"جيد"، ثم صمت، «هل تعرفين هالي قائدة فريقي؟ أعطت دهانًا واقيًا من

الشمس للجميع لكنها لم تعطني، وقالت إنني لا أحتاجه».

نظرت خائفة إلى وجهه، الذي كان خلوًا من التعبير تقريبًا، ولم تعرف ماذا تقول.

"ظننت ذلك لأنك داكن ولا تحتاج حماية من الشمس، لكنك تحتاجها. لا يعرف الكثيرون أن الأشخاص الداكنين يحتاجون حماية من الشمس. سأحضر لك بعضًا لا تقلق"، تحدثت بسرعة شديدة، غير واثقة أنها تقول الصواب، أو ما الصواب لتقوله، وقلقت لأن هذا ضايقه بما يكفي لتراه على وجهه.

قال: "لا بأس. لقد كان الأمر طريفًا. ضحك منه صديقي داني».

"لماذا يظن صديقك أنه طريف؟"

"لأنه كذلك!"

"أردتها أن تعطيك الواقي من الشمس، صحيح؟"

قال رافعًا كتفيه: "أظن ذلك. لقد أردت أن أكون عاديًا فقط».

عانقته، وذهبت في وقت لاحق إلى المتجر واشترت له زجاجة كبيرة من دهان الوقاية من الشمس، وفي زيارتها التالية، رأتها تجثم على طاولة الزينة منسية وغير مستعملة.

فهم أمريكا للسود غير الأمريكيين القبلية الأمريكية

إن القبلية في أمريكا كثيفة ومستمرة، ولها أربعة أنواع: الطبقة والعقيدة والإقليم والأصل العرقي. أولًا الطبقة: إنها سهلة جدًا، إذ تعني القوم الأغنياء والقوم الفقراء.

ثانيًا العقيدة: أي المتحررون والمحافظون، وهم لا يتفقون في القضايا السياسية، وكل طرف يرى الآخر فاسدًا. ولا يحبذ الزواج المختلط بينهما، ويعد ذلك غريبًا وصادمًا في الحالات النادرة التي يحدث فيها. ثالثًا الإقليم: أي الشمال والجنوب، وهما الطرفان اللذان اشتركا في الحرب الأهلية وبقيت بقع يصعب إزالتها من تلك الحرب. إذ ينظر الشمال إلى الجنوب شزرًا، في حين

أن الجنوب يغتاظ من الشمال. وأخيرًا الأصل العرقي: ثمة سلم لتراتبية الأعراق في أمريكا. يأتي الأبيض في القمة دومًا، وتحديدًا الأبيض الأنغلوساكسوني البروتستانتي، الذي يعرف ب «واسب»، والأمريكيون السود في الأسفل دومًا، وما هو في المنتصف يعتمد على الزمان والمكان (أو كما يقول هذا النشيد المدهش: إن كنت أبيض فأنت محق دومًا، إن كنت أسمر فانتظر، أما إن كنت أسود فعد للوراء!) يفترض الأمريكيون أن الجميع يفهمون قبليتهم، لكن الأمر يستغرق وقتًا لفهمها. جاءنا في دراستنا الجامعية محاضر زائر وهمست زميلة لأخرى «أوه، يا إلهي يبدو يهوديًا للغاية» قالتها برجفة، رجفة حقيقية. كأن اليهودي شيء سيّئ. ولم أفهم الأمر. كان الرجل أبيض ولا يختلف كثيرًا عن الزميلة نفسها، حسبما أرى. إن اليهود بالنسبة لي شيء مبهم، شيء يرد في الكتاب المقدس. لكني فهمت سريعًا. في سلم الأعراق الأمريكي فإن اليهودي أبيض، كما ترى، لكنه في الوقت نفسه أدنى من الأبيض بضع درجات. إن هذا محير قليلًا لأني أعرف فتاة لها شعر فاتح بلون القش ونمش قالت إنها يهودية. كيف يمكن أن يميّز الأمريكيون اليهوديّ؟ كيف عرفت زميلتي أن الرجل يهودي؟ قرأت في مكان ما أن الكليات الأمريكية اعتادت سؤال المتقدمين عن أسماء عائلات أمهاتهم، للتأكد أنهم ليسوا يهودًا لأنهم لا يقبلون اليهود. أيمكنهم التخمين بهذه الطريقة؟ من أسماء الأشخاص؟ كلما مكثت هنا أكثر، بدأت بفهمها أكثر.

الفصل الثامن عشر

كانت زبونة مارياما الجديدة ترتدي سروالًا قصيرًا من الجينز، وقد التصق القماش بمؤخرتها، وترتدي حذاء رياضيًا لونه زهري مشرق بمثل لون بلوزتها، وقد احتلت وجهها أقراط حَلَق خيزران كبيرة. وقفت أمام المرآة، واصفة الضفائر الصغيرة التي تريدها.

"مثل الخط المائل بفرق على الجانب هنا، لكن لا تضيفي الشعر منذ البداية، بل أضيفيه حين تصلين ذيل الحصان". قالت متحدثة ببطء، مبالغة في اللفظ "هل فهمتني؟"، أضافت وهي واثقة، كما بدا، من عدم استيعاب مارياما.

"فهمت. هل تريدين رؤية صورة؟ لدي هذه التسريحة في ألبومي»، قالت مارياما بهدوء.

تصفحت الألبوم ورضيت الزبونة أخيرًا وأُجلست، وقد ربطت قطعة بلاستيكية بالية حول عنقها، وعُدل ارتفاع كرسيها، ومارياما تبتسم طوال الوقت ابتسامة مفعمة بالأمور المكبوتة.

قالت الزبونة: "تلك الضافرة الأخرى التي ذهبت إليها آخر مرة. كانت إفريقية أيضًا وأرادت أن تحرق شعري المتقصف! وأخرجت هذه الولاعة فقلت: لا تسمحي لتلك المرأة أن تقرب هذا الشيء من شعرك يا شونتاي وايت. لذا سألتها لأي شيء هذا؟ قالت أريد تنظيف ضفائرك فقلت ماذا؟ ثم حاولت أن تريني، حاولت تمرير

الولاعة على ضفيرة فجننت غضبًا عليها».

هزت مارياما رأسها «أوه هذا فظيع. الحرق ضار، نحن لا نفعل هذا هنا».

دخلت زبونة وشعرها ملفوف بعمامة صفراء فاقعة.

"مرحبًا. أود تضفير شعري»، قالت.

"ما نوع الضفائر التي تريدين؟"، سألت مارياما.

"ضفائر مربعة عادية، متوسطة الحجم".

"هل تريدينها طويلة؟"، سألت مارياما.

"ليست طويلة جدًا، حتى الكتف ربما".

"حسن، اجلسي من فضلك. ستصنعها لك"، قالت مارياما مشيرة إلى حليما، التي كانت تجلس في الخلف، وعيناها على التلفاز. وقفت حليما وتمططت لوقت طويل قليلًا، كأنها تظهر نفورها.

جلست المرأة وأومأت نحو أكداس الأقراص الرقمية، «هل تبعن الأفلام النيجيرية؟"، سألت مارياما.

"كنت أفعل ذلك، لكن الذي يزودني بها ترك العمل، هل تريدين الشراء؟»

"لا. لكن يبدو أن لديكن الكثير منها".

"بعضها جميل فعلًا"، قالت مارياما.

"لا يمكنني مشاهدة هذه الأشياء. أظنني متحيزة. في بلدي، جنوب إفريقيا، يشتهر النيجيريون بسرقة البطاقات الائتمانية وتعاطي المخدرات وكل تلك الأمور المجنونة. أظن أن الأفلام هكذا أيضًا».

"أنت من جنوب إفريقيا؟ لا لكنة في كلامك»، تعجبت مارياما.

رفعت المرأة كتفيها، «أنا هنا منذ وقت طويل. لا يحدث الأمر فرقًا».

"لا"، قالت حليما التي تحركت فجأة، وهي تقف خلف المرأة «حين جئت هنا مع ابني ضربوه في المدرسة بسبب اللكنة الإفريقية. في نيوارك. ولو رأيت وجه ابني، بدا أرجوانيًا كالبصل. ضربوه وضربوه وضربوه هكذا. الآن ذهبت اللكنة ولا مشاكل».

"آسفة لسماع هذا"، قالت المرأة.

"شكرًا لك"، قالت حليما مفتونة بالمرأة بسبب هذه المأثرة الخارقة: اللكنة

الأمريكية. "أجل، نيجيريا فاسدة جدًا. أسوأ بلد فاسد في إفريقيا. عني، أشاهد الأفلام لكن لا، لا أذهب إلى نيجيريا"، لوحت بيدها نصف تلويحة في الهواء.

"لا يمكنني الزواج بنيجيري ولن أسمح لأحد من عائلتي بالزواج بنيجيري"، قالت مارياما، وسددت نحو إفيملو نظرة معتذرة «ليس كلهم، لكن معظمهم يقومون بأمور سيئة. حتى القتل مقابل المال».

"حسن، لا أدري شيئًا عن هذا"، قالت الزبونة بنبرة معتدلة فاترة.

نظرت عايشا، هادئة ومتكتمة. همست لإفيملو لاحقًا وملامحها مرتابة، «قضيت خمسة عشر عامًا هنا لكنك لا تتحدثين بلكنة أمريكية، لماذا؟»

تجاهلتها إفيملو ومرة أخرى فتحت رواية جين تومر قصب السكر. نظرت إلى الكلمات وتمنت فجأة لو أنها تستطيع إعادة الزمن وتوقف هذا الانتقال للديار. ربما كانت متعجلة. لم يكن عليها بيع بيتها، وبل توجب عليها قبول عرض مجلة لترلي لشراء مدونتها وإبقائها بوصفها مدونة بأجر. ماذا لو عادت إلى ليغوس وأدركت فداحة الخطأ في العودة؟ حتى فكرة قدرتها على العودة إلى أمريكا لم تُرحها بقدر ما تمنت.

انتهى الفيلم، وفي الغرفة الهادئة من الضجيج قالت زبونة مارياما «هذه خشنة"، لامسة إحدى الضفائر الرفيعة التي شكلت خطوطًا مائلة على فروة رأسها، وصوتها أعلى مما تدعو إليه الحاجة.

"لا بأس، سأضفرها ثانية"، قالت مارياما. كانت سلسة وحلوة اللسان، لكن إفيملو خمنت أنها ترى زبونتها مثيرة للمتاعب، فليس من عيب في الضفيرة، لكن هذا جزء من ذاتها الأمريكية الجديدة، هذه الحماسة في خدمة الزبائن، وهذا الزيف اللامع في الوجوه، فقبلته واعتنقته. حين تغادر الزبونة قد تخلع تلك الذات وتقول شيئًا لحليما وعايشا عن الأمريكيين، إنهم مدللون وطفوليون ومنعمون، ولكن حين تدخل الزبونة التالية تصبح مرة أخرى نسخة كاملة من ذاتها الأمريكية.

قالت زبونتها "إنها جميلة"، حين دفعت لمارياما، وبعد أن غادرت بوقت قصير دخلت امرأة شابة بيضاء، نحيلة القوام ومسمرة، وشعرها مربوط للخلف في ذيل حصان.

"مرحبًا!"، قالت.

قالت مارياما «مرحبًا"، ثم انتظرت فاركة يديها مرارًا ومرارًا على مقدمة سروالها القصير.

"أريد تضفير شعري. يمكنك ضفر شعري، صحيح؟"

ابتسمت مارياما ابتسامة متلهفة بشدة «أجل، نصنع كل أنواع ضفائر الشعر. هل تريدين ضفائر ثخينة أم رفيعة؟"، وأخذت تنظف الكرسي بحيوية، «اجلسي من فضلك».

جلست المرأة وقالت إنها تريد ضفائر رفيعة. «مثل ضفائر بو ديريك في فيلم تِنْ[41]»، «هل تعرفين هذا الفيلم؟»

"أجل أعرفه»، قالت مارياما، وشكت إفيملو أنها تعرف.

"أنا كلسي"، أعلنت المرأة وكأنها تخبر الغرفة كلها، وكانت ودودة للغاية. سألت مارياما عن أصلها، ومنذ متى هي في أمريكا، وإن كان لديها أطفال، وكيف يجري عملها.

"العمل متأرجح لكننا نحاول"، قالت مارياما.

"لكن لا يمكنك الحصول على عمل كهذا في ديارك، صحيح؟ أليس من الرائع أنك تمكنت من المجيء إلى الولايات ويكون لأطفالك الآن حياة أفضل؟»

بدت مارياما متفاجئة ،»أجل".

"هل سمح للنساء بالتصويت في بلادك؟"، سألت كلسي.

صمت أطول من مارياما، "أجل".

"ماذا تقرأين؟"، استدارت كلسي نحو إفيملو.

أرتها إفيملو غلاف الرواية. لم ترغب ببدء حوار، وخاصة مع كلسي. ميزت في كلسي وطنية الأمريكي المتحرر الذي ينتقد أمريكا بغزارة، لكنه لا يحبك أن تفعل، ويتوقع منك أن تكون صامتًا وممتنًا، ويذكرك دومًا بأن مجيئك إلى أمريكا أفضل من المكان الذي كنت فيه أيًا يكن.

"هل هي جيدة؟"

"أجل".

---

41) (1956) ممثلة وعارضة أزياء أمريكية، اشتهرت بعد دورها الأول في فيلم 10 (1979)، وهو فيلم كوميديا رومانسية بطولة دودلي مور وجولي أندروز.

"إنها رواية، صحيح؟ عم تتحدث؟»

لماذا يسأل الناس عم تتحدث الرواية، كأنها يجب أن تدور حول أمر واحد. كرهت إفيملو السؤال، وستكرهه حتى إن لم تشعر ببداية صداع، إلى جانب شكها المحبط. «قد لا تكون النوع الذي تفضلين إن كان لك ذوق محدد، فهو يخلط بين النثر والشعر».

"لك لكنة رائعة من أين أنت؟"

"نيجيريا".

"أوه، رائع"، كان لكلسي أصابع ممتلئة مثالية للإعلان عن الخواتم ،"سأذهب إلى إفريقيا في الخريف. إلى الكونغو وكينيا وسأحاول الذهاب لرؤية تنزانيا أيضًا».

"هذا جميل".

"قرأت كتبًا لأستعد. نصحني الجميع بقراءة **الأشياء تتداعى**[42]، التي قرأتها في المدرسة الثانوية. إنها جيدة جدًا لكنها عتيقة الطراز، أليس كذلك؟ أعني أنها لم تساعدني على فهم إفريقيا الحديثة. لقد قرأت مؤخرًا الكتاب الرائع **في منعطف النهر**[43]. لقد مكنني حقًا من فهم كيف تجري الأمور في إفريقيا الحديثة».

أطلقت إفيملو صوتًا وسطًا بين المخطة والهمهمة، لكنها لم تقل شيئًا.

"إنها صادقة جدًا، أصدق كتاب قرأته عن إفريقيا"، قالت كلسي.

عدلت إفيملو جلستها، فقد أزعجتها نبرة كلسي العالمة، وصار صداعها أسوأ. لم تر أن الرواية عن إفريقيا مطلقًا، بل عن أوروبا، أو التوق إلى أوروبا. عن صورة الذات المهزوزة لرجل هندي يولد في إفريقيا، ويشعر بالوجع الكبير وبالضآلة الشديدة، لأنه لم يولد أوروبيًا وفردًا من عرق بجّله لقدرته على الابتكار، فجعل من عيوبه الشخصية المتخيلة ازدراء غاضبًا لإفريقيا، في موقفه العارف المزدري للأفارقة، إذ سيصبح أوروبيًا ولو على نحو عابر. مالت للوراء في مقعدها وقالت هذا في نبرات مدروسة. بدت كلسي مندهشة، لم تتوقع محاضرة مصغرة. ثم قالت بلطف «أوه،

---

42) رواية للكاتب النيجيري الشهير تشينوا أتشيبي، لها ترجمات عديدة أبرزها ترجمة عبد السلام إبراهيم عن الهيئة العامة لقصور الثقافة في مصر.

43) رواية للكاتب الفائز بجائزة نوبل في. س. نيبول، صدرت بترجمة محمد أحمد الجوادي في سلسلة روايات الهلال.

حسن، أفهم لما تقرأين الرواية على هذا النحو».

"وأنا أفهم لما قرأتها على النحو الذي فعلت"، قالت إفيملو.

رفعت كلسي حاجبيها وكأن إفيملو أحد هؤلاء الأشخاص المختلين الذين يفضل تجنبهم. أغمضت إفيملو عينيها. فقد شعرت بغيوم تتجمع في رأسها، وشعرت بالإعياء، بسبب الحرارة ربما. لقد أنهت علاقة لم تكن تعسة بها، وأغلقت مدونة استمتعت بها، وها هي الآن تطارد شيئًا لم تستطع تحديده بدقة، حتى لنفسها. كان يمكن أن تدون عن كلسي أيضًا، هذه الفتاة التي ظنت قليلًا أنها محايدة بشكل معجز في قراءتها للكتب، فيما يقرأها الآخرون بشكل عاطفي.

"هل تريدين أن تستخدمي شعرًا؟"، سألت مارياما كلسي.

"شعر؟"

حملت مارياما حزمة من الوصلات في تغليف بلاستيكي شفاف. اتسعت عينا كلسي، ونظرت حولها بسرعة إلى الحزمة التي أخذت منها عايشا أجزاء صغيرة لكل ضفيرة، وإلى الحزمة التي تفتحها حليما.

"أوه يا إلهي. هكذا تصنع إذًا. لقد ظننت دومًا أن النسوة الإفريقيات الأمريكيات ذوات الشعر المضفور لهن شعور كثيفة».

"لا، نحن نستخدم وصلات"، قالت مارياما باسمة.

"ربما في المرة القادمة. أظنني سأكتفي بشعري اليوم"، قالت كلسي.

لم يستغرق شعرها وقتًا طويلًا، سبع ضفائر رفيعة، وقد ازداد الشعر الجميل جدًا ارتخاء بالجدائل. «إنه رائع"، قالت بعد ذلك.

"شكرًا لك"، قالت مارياما، «أرجوك عودي ثانية. يمكنني صنع تسريحة أخرى لك في المرة القادمة».

"عظيم!"

راقبت إفيملو مارياما في المرآة، مفكرة بذواتها الأمريكية الجديدة. فقد كانت مع كيرت حين نظرت في المرآة أول مرة ورأت شخصًا آخر، بدفقة من النجاح.

—

أحَبّ كيرت القول إنّه حُبٌّ من الضحكة الأولى. كلما سألهما الناس كيف

التقيا، حتى الناس الذين يعرفونهما قليلًا، أخبرهم بقصة تعريف كمبرلي لهما، هو القريب الزائر من ماريلاند، وهي جليسة الأطفال النيجيرية التي تحدثت عنها كمبرلي كثيرًا، وكم كان مأخوذًا بصوتها العميق، وبالضفيرة التي فرت من ربطة شعرها المطاطية. لكن حين اندفع تايلور إلى غرفة المعيشة مرتديًا رداء أزرق وسروالًا داخليًا صارخًا «أنا الكابتن سروال!"، ودفعت رأسها للوراء وضحكت، قد وقع هو في حبها. كانت ضحكتها رنانة جدًا، فالكتفان تهتزان والصدر يلهث، إنها ضحكة امرأة حين تضحك تضحك حقًا. أحيانًا حين يكونان وحدهما وتضحك، يقول لإغاظتها «هذا ما أوقع بي. وهل تعرفين فيم فكرت؟ إن كانت تضحك هكذا، فكيف تفعل في الأمور الأخرى؟". قال لها أيضًا إنها تعرف أنه مغرم - وكيف لها ألّا تعرف - لكنه تظاهر بأنه ليس كذلك لأنها لا تريد رجلًا أبيض. في الحقيقة، لم تلاحظ اهتمامه. كانت دومًا قادرة على تحسس رغبة الرجال لكن ليس كيرت، ليس في البداية. ما زالت تفكر ببْلين، وهي تراه يمشي على رصيف محطة نيوهفن، ذلك الطيف الذي ملأها برغبة قاتلة. لم تكن منجذبة لبْلين فحسب، بل كانت مسحورة ببْلين وصار في خيالها الشريك الأمريكي المثالي الذي لن تحظى به أبدًا. ومع ذلك أُعجبَت بآخرين حينها إعجابًا ضئيلًا مقارنة بالشعلة في القطار، وقد شفيت لتوها من إعجاب بآبي زميلها في صف الأخلاقيات. كان آبي أبيض، آبي الذي أعجب بها كفاية، الذي رآها ذكية ومسلية وجذابة أيضًا. لكنه لم ينظر إليها باعتبارها أنثى. شعرت بالفضول والاهتمام بآبي، لكن لم ير في كل توددها أكثر من اللطف. لو كان لآبي صديق أسود لجمعها به. كانت غير مرئية عند آبي، فحطم هذا إعجابها، وربما جعلها تتجاهل كيرت. حتى عصر يوم كانت تلعب فيه رمي الكرة مع تايلور، الذي رمى الكرة عاليًا جدًا وسقطت في الأحراج قرب شجرة التوت لدى الجيران.

"أظننا فقدنا هذه الكرة"، قالت إفيملو. قبل أسبوع، ظهر قرص الفرزبي هناك. نهض كيرت من مقعد السقيفة (فقد راقب كل تحركاتها، كما أخبرها لاحقًا) ونزل على الشجيرات، وغاص تقريبًا كأنه في حوض، وخرج حاملًا الكرة الصفراء.

"مرحى! عمي كيرت!"، قال تايلور، لكن كيرت لم يعط الكرة لتايلور، بل مدها إلى إفيملو. رأت في عينيه ما أرادها أن ترى، فابتسمت وقالت «شكرًا لك". لاحقًا في

المطبخ بعد أن شغلت شريط فيديو لتايلور وهي تشرب كأسًا من الماء قال «علي هنا أن أدعوك إلى العشاء، لكني في هذه المرحلة سأكتفي بأي شيء أحصل عليه. هل يمكنني دعوتك للشراب، لتناول المثلجات، أو لوجبة، للسينما؟ هذا المساء؟ أو نهاية الأسبوع هذه قبل عودتي إلى ماريلاند؟»

نظر إليها بإعجاب، ورأسه منخفض قليلًا، وشعرت بشيء يتبرعم داخلها. من الرائع أن تشعر أنها مرغوبة جدًا من هذا الرجل الذي يضع حلقة معدنية رياضية حول معصمه ، ذي الغمازة في الذقن الوسيم وسامة عارضين في كتالوغات محلات التجزئة. أخذت تعجب به لأنه معجب بها، «تأكلين برقة للغاية"، أخبرها في موعدهم الأول في مطعم إيطالي في المدينة القديمة. ليس في رفعها شوكة إلى فمها شيء رقيق بالتحديد لكنها أحبت ظنه بوجود ذلك.

"إذًا، أنا رجل ثري أبيض من بوتوماك، لكني لست أحمق بقدر ما يفترض بي أن أكون"، قال بطريقة جعلتها تشعر أنه قال هذا من قبل، وأنه استقبل على نحو جيد حين فعل. «تقول لورا دومًا إن أمي أغنى من الرب، لكني لست واثقا أنها كذلك».

تحدث عن نفسه بشيء من اللذة، كأنه عقد العزم على إخبارها كل شيء يجب أن تعرفه، وكله دفعة واحدة. كانت أسرته من أصحاب الفنادق منذ مئات السنين، وارتاد كلية في كاليفورنيا للهرب منهم. تخرج وسافر عبر أمريكا اللاتينية وآسيا. ثم راح شيء يجذبه للعودة إلى الديار، ربما موت أبيه، أو ربما تعاسته في علاقة. لذا انتقل قبل سنوات عائدًا إلى ماريلاند، وأسس شركة برمجيات فقط لئلا يعمل في شركة العائلة، واشترى شقة في بالتيمور، وينزل إلى بوتوماك كل أحد ليتناول الفطور المتأخر مع أمه. تحدث عن نفسه ببساطة أنيقة ، مفترضًا أنها مستمتعة بسماع قصصه ببساطة، لأنه هو نفسه استمتع بها. وفتنها حماسه الصبياني، وكان جسده قويًا حين تعانقا عناق «ليلة سعيدة"، أمام شقتها.

"أنا على وشك أن أتقدم لأخذ قبلة في غضون ثلاث ثوانٍ بالضبط: قبلة حقيقية يمكنها أن تأخذنا إلى أماكن، لذا إن لم ترغبي بحدوث هذا فلعلك تودين التراجع الآن»، قال.

لم تتراجع. وكانت القبلة مثيرة بالشكل الذي تكون فيه الأشياء المجهولة

مثيرة. بعد ذلك قال بعجلة «علينا إخبار كمبرلي».

"إخبار كمبرلي عن أي شيء؟"

"أننا نتواعد".

"نحن نفعل؟"

ضحك وضحكت أيضًا، رغم أنها لم تمزح. كان صريحًا وفياض الشعور، ولا يفهم الملاحظة الساخرة. شعرت بالسحر والعجز تقريبًا في مواجهة حماسه هذا، ربما يتواعدان حقًا بعد قبلة واحدة ما دام واثقًا جدًا أنهما يتواعدان.

حيّتها كمبرلي في اليوم التالي بقولها "مرحبًا يا عصفور الحب".

"ستغفرين لابن عمك إذًا مواعدته عاملة؟"، سألت إفيملو.

ضحكت كمبرلي ثم عانقتها في تصرف فاجأ إفيملو وأثّر فيها في آن معًا، ثم افترقتا على استحياء. كانت أوبرا على الشاشة في غرفة المعيشة، وسمعت الجمهور ينفجر في التصفيق.

قالت كمبرلي وقد ارتبكت قليلًا من العناق: "حسن، أردت أن أقول فقط إنني... سعيدة من أجلكما».

"شكرًا لك، لكنه مجرد موعد واحد وما من لقاء جنسي».

قهقهت كمبرلي للحظة بدت كأنهما صديقتان من المدرسة الثانوية تثرثران عن الأولاد. شعرت إفيملو أحيانًا، تحت سيرورة حياة كمبرلي المرفهة، بوميض من الندم، ليس من أجل الأشياء التي تاقت لها في الحاضر فحسب، بل من أجل الأمور التي تاقت لها في الماضي.

"كان عليك أن تري كيرت هذا الصباح. لم أره هكذا من قبل! كان متحمسًا حقًا»، قالت كمبرلي.

"لأي أمر؟"، سألت مورغان، التي تقف قرب مدخل المطبخ، وجسدها الغض مفعم بالبغضاء. وخلفها تايلور يحاول تعديل ساقي رجُل آليّ صغير.

"حسن يا عزيزتي. عليك أن تسألي العم كيرت".

دخل كيرت المطبخ مبتسمًا بخجل، شعره مبلل قليلًا ويضع كولونيا منعشة خفيفة. «مرحبًا"، قال. اتصل بها ليلًا ليقول إنه لم يستطع النوم. «هذا مبتذل

حقًا لكني ممتلئ بك، كأنني أتنفسك، هل تفهمين؟"، قال، وظننت أن الروائيين الرومانسيين مخطئون وأن الرجال، لا النساء، هم العاطفيون حقًا.

"تسأل مورغان عن سبب حماسك الكبير"، قالت كمبرلي.

"حسن يا مورغ، أنا متحمس لأن لدي حبيبة جديدة، امرأة مميزة فعلًا قد تعرفينها».

تمنت إفيملو لو أن كيرت أبعد الذراع التي ألقاها على كتفها، فلن يعلنا خطوبتهما، حبًا لله. حدقت بهما مورغان، ورأت إفيملو في عينيها: العم المغامر الذي سافر حول العالم ويقول كل الدعابات المضحكة فعلًا في عشاء عيد الشكر، الرائع الشاب بما يكفي ليكون لها، لكنه كبير لتحاول وتجعل أمها تكتشف أمرها.

"إفيملو هي صديقتك"، سألت مورغان.

"أجل"، قال كيرت.

"هذا مقرف"، قالت مورغان وقد بدت مشمئزة فعلًا.

"مورغان!"، قالت كمبرلي.

استدارت مورغان وصعدت نحو الطابق الأعلى.

"تحمل إعجابًا للعم كيرت، وها هي جليسة الأطفال قد وطئت منطقتها. ليس ذلك سهلًا"، قالت إفيملو.

قال تايلور، الذي بدا سعيدًا بالأخبار ولأنه عدّل ساقيّ الرّجل الآلي «هل ستتزوجان أنت وإفيملو وتنجبان طفلًا يا عم كيرت؟»

"حسن يا صاح، في الوقت الحالي سنقضي الكثير من الوقت معًا، ليعرف أحدنا الآخر".

"أوه، حسن"، قال تايلور حزينًا قليلًا، ولكن حين عاد دون، ركض تايلور إلى ذراعيه وقال «إفيملو والعم كيرت سيتزوجان وينجبان طفلًا!»

"أوه"، قال دون.

ذكّرت دهشته إفيملو بآبي في صف الأخلاقيات. ظن دون أنها جذابة ومثيرة وأن كيرت جذاب ومثير، ولكن لم يخطر له أن يفكر بهما معًا متشابكين في خيوط الرومانسية الرقيقة.

لم يسبق لكيرت أن واعد امرأة سوداء، أخبرها بهذا بعد أن ناما معًا أوّل مرّة، في شقته في الطابق الأخير في بالتيمور، بحركة سخرية من الذات برأسه، كأن هذا أمرًا كان عليه فعله منذ وقت طويل لكنه تجاهله بطريقة ما.

"هذا نخب هذا الحدث"، قالت متظاهرة برفع كأس.

قالت وامبوي مرة، بعد أن عرّفتها دوروثي إلى حبيبها الألماني الجديد في اجتماع لاتحاد الطلاب الأفارقة «لا يمكنني مضاجعة رجل أبيض، سأذعر من رؤيته عاريًا بكل ذلك البياض، ما لم يكن إيطاليًا مسمرًا ربما، أو يهوديًا داكنًا». نظرت إفيملو إلى شعر كيرت الفاتح وبشرته البيضاء، والشامات التي بلون الصدأ على ظهره، والشعيرات الذهبية المتناثرة على صدره، وخطر لها أنها تعارض وامبوي بقوة في هذه اللحظة.

"أنت جذاب جدًا"، قالت.

"أنت أكثر".

أخبرها أنه لم يفتن بامرأة من قبل هكذا، ولم ير جسدًا جميلًا جدًا، بصدرها الرائع ومؤخرتها الرائعة. أعجبها ذلك، أنه يرى مؤخرتها، التي قال عنها أوبنز مؤخرة صغيرة، جميلة، ورأت أن نهديها ليسا سوى نهدين كبيرين عاديين ينحدران نحو الأسفل. لكن كلماته أسعدتها مثل هدية فخمة لا ضرورة لها. أراد أن يلعق أصابعها، وأن يلحس العسل من حلمتها، وأن يلطخ بطنها بالمثلجات، كأن الاستلقاء بجسد عارٍ قرب جسد عارٍ فحسب لم يكن كافيًا.

في وقت لاحق، أراد أن يمثل شخصيات - قال «ما رأيك أن تكوني فوكسي براون[44]»- ووجدت الأمر عذبًا، في قدرته على التمثيل وإغراق نفسه بالشخصية كليًا، ولعبت معه، مداعبة إياه وسعيدة بسعادته، رغم حيرتها بإثارة هذا له. كثيرًا ما وجدت نفسها، وهي عارية إلى جواره، تفكر بأوبنز، وجاهدت لئلا تقارن لمسات كيرت بلمساته. لقد أخبرت كيرت عن صديقها في المدرسة الثانوية موفي، لكنها لم تذكر شيئًا عن أوبنز، وكأن الحديث عن أوبنز تدنيس للمقدس، وأن تشير إليه ب «السابق»، تلك

---

44) (1978) مغنية راب أمريكية، اسمها الحقيقي إنغا دي كارلو فَنغ مارتشاند.

الكلمة الصفيقة التي لا تقول شيئًا ولا تعني شيئًا. شعرت، بكل شهر من الصمت مر بينهما، أن الصمت نفسه تكلس وغدا تمثالًا ضخمًا يستحيل هزيمته. ومع ذلك ظلت تبدأ الكتابة له كثيرًا، لكنها تتوقف دومًا، وتقرر دائمًا ألا ترسل له رسائل إلكترونية.

—

مع كيرت، أصبحت، في خيالها، امرأة خالية من العقد والمخاوف، امرأة تجري تحت المطر وفي فمها طعم الفراولة المملوحة بالشمس. وصار قول "شراب" جزءًا من هندسة حياتها، الموهيتو والمارتيني، الأبيض اللاذع والأحمر القوي النكهة. ذهبت معه للمشي الطويل (التسيار)، والإبحار في زورق والتخييم قرب منزل عطلات عائلته، وكل الأشياء التي لم تتصور نفسها تفعلها من قبل. وقد غدت أكثر خفة ونحولًا، فهي حبيبة كيرت، الدور الذي انزلقت فيه مثل فستان مفضل مرفرف. كانت تضحك أكثر لأنه يضحك كثيرًا، وقد أعماها تفاؤله، إذ لديه خطط دومًا، وكثيرًا ما يقول «لدي فكرة!". تخيلته طفلًا محاطًا بالكثير من الدمى المشرقة الألوان، ويشجع دومًا لبدء "مشاريع" ويقال له إن أفكاره التافهة أفكار رائعة.

قال ذات نهاية أسبوع: "لنذهب إلى باريس غدًا. أعلم أنها مبتذلة تمامًا، لكنك لم تريها من قبل، وأحب أن أريك باريس!»

"لا يمكنني الاستيقاظ والسفر إلى باريس. لدي جواز سفر نيجيري، وعلي التقديم للحصول على تأشيرة، مع كشف حساب بنكي وتأمين صحي وكل أنواع الأمور التي تثبت أنني لن أبقى هناك وأكون عبئًا على أوروبا».

"صحيح، نسيت ذلك. لا بأس، سنذهب نهاية الأسبوع القادم. سننهي أمور التأشيرة هذا الأسبوع، وسأحصل على نسخة من كشف حسابي غدًا».

"كيرتس"، قالت بشيء من التجهم لتجبره على التعقل، لكنها أصيبت بدوامة حماسه وهي تقف هناك وتنظر إلى الأسفل نحو المدينة من الأعلى. كان مبتهجًا، مصرًا على الابتهاج، بطريقة يكونها الأمريكيون من شاكلته فقط. وفي هذا سمة طفولية وجدتها محببة وبغيضة في آن. تنزها مرة في الشارع الجنوبي لأنها لم تر قبلًا ما أخبرها أنه الجزء الأفضل من فيلادلفيا، ووضع يده في يدها وهما يتجولان عابرين بمحلات الوشم وجماعات من الفتية لهم شعر وردي. قرب متجر الألعاب الجنسية مملكة

الكوندوم، انحنى لدخول متجر لقراءة الحظ بورق اللعب، جاذبًا إياها معه. قالت لهما امرأة تضع طرحة سوداء «أرى ضوءًا وسعادة طويلة المدى أمام كليكما»، وقال كيرت «ونحن كذلك!"، ونفحها بعشرة دولارات إضافية. لاحقًا حين صارت حماسته إغواء لإفيملو، بتلك البهجة المكبوتة التي جعلتها تريد ضربها وسحقها، ستكون هذه إحدى أفضل ذكرياتها عن كيرت، وهو في محل قراءة الحظ في الشارع الجنوبي في يوم مفعم بوعود الصيف، وسيمًا للغاية، وسعيدًا للغاية ومؤمنًا حقيقيًا. كان يؤمن بالبشائر والأفكار الإيجابية والنهايات السعيدة في الأفلام إيمانًا خاليًا من المشاكل، لأنه لم يفكر بها عميقًا قبل أن يختار الإيمان بها. لقد آمن بها ببساطة فحسب.

الفصل التاسع عشر

كان لأم كيرت أناقة باردة، وشعر لامع وقوام لا يُظهر عمرها، وثياب راقية ثمينة مصنوعة لتبدو راقية وثمينة، وبدت من الأشخاص الأثرياء الذين لا يدفعون بقشيشًا جيدًا. دعاها كيرت ب"الوالدة"، التي توحي بشيء من الرسمية وبرنين عتيق. تناولا الإفطار المتأخر معها في أيام الأحد، واستمتعت إفيملو بطقوس الأحد في هذه الوجبات في قاعة الطعام الفخمة في الفندق، الممتلئة بأزواج حسني الهندام لهم شعر فضي مع أحفادهم، ونسوة متوسطات الأعمار يضعن مشابك على ثنيات ستراتهن. أما الشخص الأسود الآخر الوحيد فقد ارتدى ثياب النادل عابسًا. تناولت البيض المقلي مع شرائح رفيعة من السلمون وأهلّة من البطيخ الأحمر الطازج، وهي تُراقب كيرت وأمه، وكلاهما أشقر الشعر لدرجة تعمي الأبصار. تحدث كيرت واستمعت أمه مبهورة، فهي تعبد ابنها الفاتن الذي تستسلم لمراوغاته، الطفل الذي جاء متأخرًا إلى الحياة في الوقت الذي لم تكن واثقة من قدرتها على إنجاب الأطفال. فهو المغامر الذي قد يعود إلى الديار حاملًا أجناسًا غريبة - فقد واعد فتاة يابانية وفتاة فنزويلية- لكنه سيهدأ بمرور الوقت على نحو ملائم. لقد قبلت أي شخص يحبه، لكنها لم تشعر بأيّ حاجة لإظهار إعجابها من عدمه.

"أنا جمهوريّة التحزُّب، وكل عائلتنا كذلك. نحن نعارض الخدمات الاجتماعية، لكننا ندعم الحقوق المدنية كثيرًا. أريدك أن تعرفي فقط أي نوع من الجمهوريين

نحن"، قالت لإفيملو في أول لقاء لهما، كأن هذا هو الأمر الأهم لإزاحتها من الطريق.

"وهل تريدين معرفة أي نوع من الجمهوررين أنا؟"، سألت إفيملو.

بدت أمه مندهشة في بادئ الأمر، ثم تمدد وجهها في ابتسامة مقتضبة «أنت مضحكة"، قالت.

مرّة قالت أمه لإفيملو "رموشك جميلة"، في كلمات عجولة غير متوقعة، ثم ارتشفت شراب البيليني، كأنها لم تسمع عبارة «شكرًا لك"، المتفاجئة من إفيملو.

في طريق العودة نحو بالتيمور قالت إفيملو «رموش؟ لا بد أنها حاولت جاهدة لتعثر على شيء تثني عليه!»

ضحك كيرت، «تقول لورا إن أمي لا تحب النساء الجميلات».

—

زارته مورغان ذات نهاية أسبوع.

أرادت كمبرلي ودون أخذ الأطفال إلى فلوريدا لكن مورغان رفضت الذهاب، فطلب منها كيرت أن تمضي نهاية الأسبوع في بالتيمور. خطط لرحلة في قارب، ورأت إفيملو أن عليه قضاء الوقت بمفرده مع مورغان. «ألن تأتي يا إفيملو؟"، سألت مورغان وقد بدت محبطة، «ظننت أننا ذاهبون جميعًا». قيلت كلمة «جميعًا" بكثير من الحيوية لم يسبق أن سمعتها إفيملو من مورغان "طبعًا أنا ذاهبة"، قالت. وحين وضعت الماسكارا وملمع الشفاه راقبتها مورغان.

"اقتربي يا مورغ"، قالت ومررت ملمع الشفاه على شفتي مورغان. «مطي شفتيك. جيد. والآن لمَ أنت جميلة للغاية يا آنسة مورغان؟"، ضحكت مورغان. على المرسى، مشت إفيملو وكيرت مُمْسكَين بيدَي مورغان. سُرّت مورغان بإمساك يديها، وتخيلت إفيملو، كما تفعل أحيانًا بشكل عابر، أنها تزوجت بكيرت، وأن حياتهما محفوفة بالراحة، فينسجم هو مع عائلتها وأصدقائها، وهي مع عائلته وأصدقائه، باستثناء أمه. كانا يتبادلان الدعابات بشأن الزواج، منذ أن أخبرته عن حفلات دفع المهر التي يقيمها شعب الإيبو قبل حمل النبيذ وزواج الكنيسة، وكان يمزح عن الذهاب إلى نيجيريا لدفع مهرها، واصلًا إلى موطن أسلافها، وجالسًا مع أبيها وأعمامها، ومصرًا على الحصول عليها مجانًا. وهي بدورها مزحت عن المشي في الممر في

الكنيسة في فيرجينيا، على لحن «ها هي العروس أتت"، بينما ينظر أقاربهم في رعب ويتساءلون بينهم بهمس لماذا ترتدي العاملة فستان العروس.

—

كانا مسترخيين على الأريكة، هي تقرأ رواية وهو يشاهد أخبار الرياضة. وجدت ذلك محببًا، استغراقه بمبارياته، وعيناه صغيرتان وثابتتان في تركيز. كانت تغيظه في فواصل الإعلانات التجارية: لم لا تتمتع كرة القدم الأمريكية بمنطق حقيقي، مجرد رجال بدينين يقفز بعضهم فوق بعض؟ ولمَ يمضي لاعبو البيسبول الكثير من الوقت في البصق ثم يقومون بجولات غير مفهومة؟ فضحك وحاول أن يشرح، مرة أخرى الضربة الرئيسة والنقاط الست[45]، لكنها لم تكن مهتمّة، لأن فهمها يعني أنها لن تستطيع إغاظته، ولذا عادت للنظر في روايتها، مستعدة لإغاظته ثانية في الفاصل الإعلاني التالي.

كانت الأريكة ناعمة، وبشرتها تلمع. وأحرزت نقاطًا إضافية ورفعت معدلها في الجامعة. امتد إنر هاربر في الأسفل، خارج النافذة الطويلة لغرفة المعيشة، وكان الماء يلمع والأضواء تتلألأ. فغمرها إحساس بالرضا، وهذا ما منحها إياه كيرت، هذه الهدية من الرضا والراحة. اعتادت سريعًا على حياتهما، وازدحم جواز سفرها بأختام التأشيرات، والحذر من مضيفي مقصورة الدرجة الأولى، وأغطية السرير المريشة في الفنادق التي أقاما فيها، والأشياء الصغيرة التي جمعتها: مرطبانات الفاكهة من صينية الإفطار، وزجاجات البلسم الصغيرة والخفافات المحوكة، وحتى مناشف الوجه إن كانت شديدة النعومة. لقد خرجت من جلدها. فأحبت الشتاء، وأحبت المعطف اللامع للجليد المتجمد على السيارات، والدفء الوثير لمعاطف الكشمير التي اشتراها لها كيرت. لم يكن السعر أول ما ينظر إليه في المتاجر. واعتاد أن يشتري لها البقالة وكتب الجامعة ويرسل لها بطاقات الهدايا لمتاجر التجزئة، ويصطحبها للتسوق بنفسه. وطلب منها أن تترك مجالسة الأطفال، إذ سيتمكنان من قضاء وقت أكبر

45) الضربة الرئيسة في كرة القاعدة أو البيسبول وتحتسب حين يضرب اللاعب الكرة خارج الحاجز فيستطيع الجري نحو كل القواعد دون مضايقات ويحرز نقطة. والنقاط الست في كرة القدم الأمريكية تحتسب حين يصل اللاعب خط هدف الفريق الخصم حاملًا الكرة، أو تلقفها في تلك المنطقة من لاعب آخر، فتحتسب ست نقاط في هذه الحالة.

مع بعضهما إن لم يكن عليها العمل كل يوم، لكنها رفضت «علي أن أعمل"، قالت.

ادخرت المال وأرسلت لأهلها. أرادت أن ينتقل والداها إلى شقة جديدة، فقد حدث سطو مسلح في حي الشقق المجاور لحيهم.

"شيء أكبر في حي أفضل"، قالت.

"نحن مرتاحان هنا. ليس المكان سيئًا. لقد بنوا بوابة جديدة في الشارع ومنعوا الدراجات النارية بعد السادسة مساء، لذا فالمكان آمن»، قالت أمها.

"بوابة؟"

"أجل، قرب الكشك».

"أي كشك؟"

"ألا تذكرين الكشك؟"، سألت أمها فصمتت إفيملو. خيم لون بني داكن على ذكرياتها، ولم تتذكر الكشك.

عثر أبوها أخيرًا على عمل، بوظيفة نائب مدير الموارد البشرية في واحد من المصارف الحديثة، واشترى هاتفًا جوالًا، وإطارات جديدة لسيارة أمها. وأخذ يعود إلى مناجاته حول نيجيريا شيئًا فشيئًا.

"لا يمكن للمرء وصف أوباسانجو بالرجل الصالح، لكن لا بد من الاعتراف أنه قام بأمور جيدة في هذا البلد، والمعنويات عالية"، قال.

بدا الاتصال المباشر بهم أمرًا غريبًا وأن تسمع أباها يقول «آلو؟" بعد الرنة الثانية، وحين يسمع صوتها يعيد قول هذا، صارخًا تقريبًا، كما يفعل دومًا في المكالمات الدولية. وأحبت أمها أخذ الهاتف إلى الشرفة لتتأكد أن الجيران قد سمعوا «كيف هو الطقس في أمريكا يا إفيم؟»

تطرح أمها أسئلة بسيطة وتقبل إجابات بسيطة. «كل شيء على ما يرام؟"، وليس لدى إفيملو خيار سوى قول نعم. أما أبوها فيتذكر الصفوف التي ذكرتها، ويسأل عن التفاصيل. فتنتقي كلماتها حريصة ألا تقول شيئًا عن كيرت، إذ الأسهل عدم إخبارهم بأمر كيرت.

"ما هي فرص تعيينك؟"، سأل أبوها، فقد أوشكت على التخرج وستنتهي تأشيرة الطالب.

"لقد حدد لي موعد مع مستشارة مهنية، وسأذهب للقائها الأسبوع القادم»، قالت.

"هل تحدد مواعيد لكل طلاب التخرج لرؤية مستشارين مهنيين؟"

"أجل".

أطلق أبوها صوتًا باحترام مشوب بالإعجاب "أمريكا بلد منظم، وفرص العمل وافرة هناك!»

"أجل، لقد عيّنوا العديد من الطلاب في وظائف جيدة"، قالت إفيملو. ليس ذلك صحيحًا، لكن هذا ما توقع أبوها سماعه. كان مكتب خدمات التوظيف غرفة مكتومة بلا هواء، وأكوامًا من الملفات تستقر على المكاتب ببؤس، ويُعرف باكتظاظه بالمستشارين الذين يراجعون السير الذاتية، ويطلبون منك تغيير الخط أو التنسيق، ويعطونك معلومات قديمة عن أشخاص لا يعاودون الاتصال أبدًا. في المرة الأولى التي ذهبت فيها إفيملو، سألتها مستشارتها روث، وهي امرأة إفريقية أمريكية ذات بشرة بلون الكراميل «ما الذي تودين القيام به حقًا؟»

"أريد عملًا".

"نعم، ولكن أي نوع من العمل؟"، سألت روث بارتياب.

نظرت إفيملو إلى سيرتها الذاتية على الطاولة. «أنا متخصصة في الاتصالات، لذا أي عمل في الاتصالات، في الإعلام».

"هل لديك شغف، وظيفة حلم؟"

هزت إفيملو رأسها نفيًا. شعرت بالضعف لأنها لا تملك شغفًا، لأنها ليست واثقة مما أرادت فعله، وكانت اهتماماتها مبهمة ومتنوعة. العمل في المجلات، والأزياء، والسياسة، والتلفاز، ولكن لا شيء منها له شكل واضح. حضرت معرض الوظائف الجامعي، حيث ارتدى الطلاب بدلات غريبة وملامح جادة، وحاولوا أن يظهروا بمظهر الراشدين الجديرين بالوظائف الحقيقية. الموظفون أنفسهم لم يتخرجوا منذ وقت طويل، وقد شرح لها الشاب الذي أرسل لاصطياد الشباب «فرص الازدهار" و»الملاءمة" و»الفوائد"، لكنها كلها صارت غير مضمونة حين عرفوا أنها ليست مواطنة أمريكية، وأنهم سيغوصون، إن عينوها، في النفق المظلم لعمل إدارة الهجرة الورقي.

«كان علي أن أدرس الهندسة أو شيئًا من هذا القبيل، فالمتخصصون في الاتصالات كثر"، أخبرت كيرت.

"أعرف أشخاصًا عمل أبي معهم، ربما يستطيعون المساعدة"، قال كيرت. ولم يمر وقت طويل بعد ذلك حتى أخبرها أن لديها مقابلة في مكتب في وسط مدينة بالتيمور لمنصب في العلاقات العامة وقال: «كل ما عليك فعله هو اجتياز المقابلة وستكون الوظيفة لك. كما أني أعرف أشخاصًا في مكان أكبر، لكن الأمر الجيد في هذه هو أنهم سيحصلون لك على تأشيرة عمل وتبدأين عملية الحصول على البطاقة الخضراء".

"ماذا؟ كيف فعلت ذلك؟"

ابتسم ،"أجريت بعض المكالمات".

"كيرت، لا أعرف كيف أشكرك حقًا".

"لدي بعض الأفكار"، قال وهو سعيد بصبيانية.

كانت أخبارًا طيبة، ومع ذلك غلفتها الوحدة. فوامبوبي تعمل بثلاث وظائف تحت الطاولة لتدخر خمسة آلاف دولار تحتاجها لتدفعها لرجل إفريقي أمريكي، لزواج من أجل البطاقة الخضراء. ومومبكي يسعى جاهدًا للعثور على شركة تعينه على تأشيرته المؤقتة. أما هي فقد طافت أعلاها بالونة زهرية خفيفة الوزن تدفعها أشياء من خارج ذاتها. وشعرت في غمرة امتنانها باستياء قليل بقدرة كيرت على إعادة ترتيب العالم بعدد من المكالمات، وأن يجعل الأشياء تسير إلى الأماكن التي أرادها لها.

حين أخبرت روث بأمر المقابلة في بالتيمور قالت روث «نصيحتي الوحيدة؟ فكي الضفائر وملسي شعرك. لا أحد يقول مثل هذه الأمور لكنها مهمة. نريدك أن تحصلي على العمل».

قالت العمة أوجو شيئًا مماثلًا في الماضي، وضحكت حينها. وها هي الآن تعرف ما يكفي لئلا تضحك «شكرًا لك"، قالت لروث.

منذ أن جاءت إلى أمريكا وهي تضفر شعرها دومًا بوصلات طويلة، متعجبة من تكلفتها، فتبقى بكل تسريحة طوال ثلاثة أشهر، أو حتى أربعة، حتى تأخذ فروة رأسها تخزها بشكل لا يطاق وينبت على الضفائر زغب من جذور الشعر الجديد.

وهكذا بات تمليس شعرها مغامرة جديدة. فكت ضفائرها حريصة على ألا تخدش فروة رأسها، وألا تمس القذارة التي تخفيها. ازدادت الملسات في تنوعها، فوجدت صناديق وصناديق في قسم «الشعر الإثني" في الصيدليات، عليها وجوه نساء سوداوات مبتسمات ذوات شعر أملس ولامع بشكل لا يصدق، إلى جانب كلمات مثل «نباتي" و»صبار" التي توحي بلطف المنتج. اشترت واحدًا ذا تغليف أخضر، ولطخت بحرص المرهم الواقي حول خط شعرها في حمامها، قبل أن تبدأ ببسط الملمس الناعم على شعرها، قسمًا فقسم، وأصابعها مرتدية قفازات بلاستيكية. ذكرتها الرائحة بمختبر الكيمياء في مدرستها الثانوية، لذلك فتحت نافذة الحمام، التي تعلق كثيرًا. وقتت العملية بحرص، غاسلة الملمس بعد عشرين دقيقة بالضبط لكن شعرها ظل مجعدًا، ولم تتغير كثافته. لم يفدها الملمس، كانت هذه هي الكلمة التي استخدمتها مصففة الشعر في فيلادلفيا الغربية، «أنت بحاجة لمحترف يا فتاة"، قالت مصففة الشعر وهي تضع مملسًا آخر. «يظن الناس أنهم يوفرون المال بالقيام به في البيت لكنهم لا يفعلون حقًا».

شعرت إفيملو بشيء من الحرق، في بادئ الأمر، لكن حالما غسلت مصففة الشعر المملس، ورأس إفيملو محني إلى الخلف على مغسلة بلاستيكية، شعرت بإبر من الألم الواخز في أنحاء مختلفة من فروة رأسها، تنزل إلى أجزاء مختلفة من جسدها، وتصعد إلى رأسها.

قالت مصففة الشعر "سيحرقك قليلًا فقط. لكن انظري كم يبدو جميلًا. عجبًا يا فتاة. لقد حصلت على نعومة شعر فتاة بيضاء!».

تدلى شعرها نحو الأسفل بدلًا من الانتصاب للأعلى، أملس وناعمًا، مفروقًا من الجانب ومنحنيًا في قوس بسيط قرب ذقنها. لقد ذهب الحماس، ولم تتعرف على نفسها في بادئ الأمر. غادرت مركز التجميل باكية، حين مددت المصففة الأطراف، وجعلتها رائحة حرق شيء عضوي يموت، ويجب ألا يموت، تشعر بإحساس الفقد. وبدا كيرت مرتابًا حين رآها.

"هل تحبينه يا حلوتي؟"، سأل.

"أرى أنك لا تحبه"، قالت.

لم يقل شيئًا، بل اقترب ليمسد شعرها وكأنه سيحبه حين يفعل ذلك.

دفعته بعيدًا. «آه. كن حذرًا ما زلت أعاني من حرق المملس».

"ماذا؟"

"ليس سيئًا جدًا، اعتدت وضعه طوال الوقت في نيجيريا. انظر إلى هذا».

أرته جُدرة خلف أذنها، انتفاخًا صغيرًا أحمر من الجلد ظهر بعد أن ملست العمة أوجو شعرها بمشط ساخن في المدرسة الثانوية. «اجذبي أذنك"، كرّرت العمة أوجو كثيرًا، وأمسكت إفيملو بأذنها متوترة ومنقطعة الأنفاس، مذعورة خشية أن يحرقها المشط الأحمر الساخن القادم توًا من الموقد، لكنها كانت متحمسة أيضًا بطيف الشعر الأملس المتمايل. وفي يوم حرقها تحركت قليلًا وتحركت يد العمة أوجو قليلًا ووسم المعدن الحار الجلد خلف أذنها.

"أوه يا إلهي!"، قال كيرت وعيناه متسعتان. أصر على النظر بلطف إلى فروة رأسها ليرى كم تأذت. «أوه يا إلهي!"

جعلها خوفه أكثر قلقًا مما كانت عليه عادة. ولم تشعر أبدًا بالقرب منه كما فعلت حينها، جالسة بهدوء في الفراش، ووجهها غائص في قميصه، ورائحة مُطَرّي الأقمشة في أنفها، وهو يفرق شعرها المملس حديثًا بلطف.

"لمَ ينبغي عليك فعل هذا؟ كان شعرك فاتنًا بالضفائر. أما آخر مرة حللت فيها الجدائل وتركته؟ فقد كان أكثر فتنة، كثيفًا جدًا وجذابًا".

"لو أجريت مقابلة لأكون مغنية مساعدة في فرقة جاز، لكان شعري الكثيف والجذاب مناسبًا. ولكن علي أن أبدو مهنية لهذه المقابلة، والمهنية تعني أن الأملس أفضل، ثم سيصبح الأملس مجعدًا، لكن لا بد أن يكون مجعدًا على طريقة البيض، تجعيدات رخوة، أو في أسوأ الأحوال تجعيدات حلزونية لكنها ليست مفتلة أبدًا».

"اضطرارك لفعل هذا خطأ لعين".

في الليل، جاهدت لتعثر على وضعية مريحة على وسادتها. وبعد يومين ظهرت جروح في فروة رأسها، وبعد ثلاثة أيام صارت ترشح صديدًا. أرادها كيرت أن ترى طبيبًا فضحكت منه. ستشفى، قالت له، وشفيت. لاحقًا، بعد أن اجتازت مقابلة العمل، وصافحتها المرأة وقالت إنها ستكون «مناسبة تمامًا" في الشركة، تساءلت إن

كانت المرأة ستشعر على النحو نفسه لو أنها دخلت المكتب بشعرها الكثيف المفتل مثل هالة من الرب، بشعرها الإفريقي.

لم تخبر والديها كيف حصلت على العمل، وقال أبوها «ليس لدي شك أنك ستبرعين. تخلق أمريكا فرصًا للناس لينجحوا. يمكن لنيجيريا أن تتعلم الكثير منها»، في حين أخذت أمها تغني حين قالت إفيملو إنها، في غضون سنوات قليلة، قد تصبح مواطنة أمريكية.

فهم أمريكا للسود غير الأمريكيين
ما الذي يطمح إليه البيض الأنغلوساكسون البروتستانت (الموسرون)

الأستاذ هَنك هو أستاذ زميل زائر، وهو رجل يهودي يتحدث بلكنة ثقيلة مثل لكنة البلد الأوروبي الذي يشرب فيه معظم الناس كأسًا من معاداة السامية عند الإفطار. تحدث الأستاذ هَنك عن الحقوق المدنية، وقال الرجل اليهودي «لم يعانِ السود مثلما عانى اليهود»، فرد الأستاذ هنك «بربك هل هذا أولمبياد الاضطهاد؟»

لم يعرف الرجل اليهودي هذا، لكن «أولمبياد الاضطهاد» هو ما يقوله الأمريكيون المثقفون المتحررون، ليجعلوك تشعر بالغباء وتخرس. لكن ثمة أولمبياد للاضطهاد يجري، إذ تتعرض كل الأقليات العرقية الأمريكية - من السود والهسبانيين والآسيويين واليهود - للإساءة من البيض، لأنواع مختلفة من الإساءة، لكنها تظل إساءة. يؤمن الجميع سرًا أنه يتعرض للإساءة الأسوأ. لذا، لا، ليس من عصبة متحدة للمضطهدين. على أية حال، يفكر كل الآخرين أنهم أفضل من السود لأنهم، حسن، ليسوا سودًا. إليك ليل على سبيل المثال، تتمتع المرأة ذات البشرة بلون القهوة والشعر الأسود والناطقة بالإسبانية التي تنظف منزل عمتي في مدينة في نيو إنغلند بغطرسة كبيرة. كانت قليلة الأدب، وتنظيفها سيئًا

ومتطلبة. ترى عمتي أن ليل لا تحب العمل لدى أشخاص السود. وقبل أن تطردها أخيرًا، قالت عمتي «امرأة غبية، تظن نفسها بيضاء». لذا فالبياض هو ما يُطمح إليه. ليس الجميع يفعل، طبعًا (من فضلكم أيها المعلقون لا تفسروا الماء بأنه الماء)، لكن معظم الأقليات لديها توق نزّاع لبياض البيض الأنغلو ساكسون البروتستانت، أو بشكل أكثر دقة، لامتيازات بياض هؤلاء. من المحتمل أنهم لا يحبون البشرة الفاتحة فعلًا، لكن من المؤكد أنهم يحبون دخول متجر دون أن يلحق بهم رجل الأمن. الأمر مثل أن تكره غير اليهودي وتأكله في الوقت نفسه، كما يصفه العظيم فيليب روث[46]. إذًا إلام يطمح الواسب؟ هل يعرف أحدكم؟

46) 1933، روائي أمريكي. المقصود هنا أن السود أو غيرهم من الأعراق الأخرى يكرهون البيض لكنهم يعجبون بهم، وفي قرارة أنفسهم يودون لو كانوا مثلهم. وردت هذه العبارة في رواية لروث بعنوان شكوى بورتنوي عن رجل يهودي نشأ في عائلة ملتزمة لكنه يتخذ في حياته خطًا مختلفًا، وهذا ما جعل اليهود يستاؤون من روث كثيرًا. يقول روي "Hating your goy and eating one too"، وهي بالمعنى الحرفي أن تكره اللايهودي وتأكله أيضًا، وربما يكون استوحى هذه- بحسب الباحث جي ل. هاليو- من رغبة شايلوك في احتزاز رطل من لحم أنتونيو (في مسرحية تاجر البندقية لشكسبير)، انتقامًا منه لتحقيره الدائم له.

الفصل العشرون

أخذت إفيملو تحب بالتيمور، لسحرها الفوضوي، وشوارعها ذات العظمة الباهتة، وأسواق مزارعيها التي تظهر في نهايات الأسبوع تحت الجسر، غاصة بالخضار الخضراء والفاكهة الناضجة والأرواح الفاضلة، رغم أنها لم تحبها بقدر فيلادلفيا حبها الأول، تلك المدينة التي حضنت التاريخ بيدين رقيقتين. ولكن حين وصلت بالتيمور مدركة أنها ستعيش هناك، وليست زيارة لكيرت فحسب، وجدتها بائسة ولا تحب. فالبنايات ملتصقة بعضها ببعض في صفوف متهالكة باهتة، وقد احدودب الناس بستراتهم المنتفخة في الزوايا المهملة، أشخاص سود يشعرون بالبرد وينتظرون الحافلات، والهواء من حولهم يهب بكآبة. وكان الكثير من السائقين خارج محطة القطار من أثيوبيا أو البنجاب.

قال سائق سيارة الأجرة الأثيوبي «لا يمكنني تحديد لكنتك، من أين أنت؟»

"نيجيريا".

"نيجيريا؟ لا تبدين إفريقية أبدًا».

"لماذا لا أبدو إفريقية؟»

"لأن بلوزتك ضيقة جدًا".

"ليست ضيقة جدًا".

"ظننتك من ترينيداد أو أحد هذه الأماكن"، ونظر في المرآة العاكسة بامتعاض

وقلق. «عليك أن تكوني حذرة جدًا وإلا أفسدك الأمريكيون". حين كتبت، بعد سنوات، منشورًا في مدونتها عن **الأقسام داخل عضوية السود من غير الأمريكيين في أمريكا**، كتبت عن سائق الأجرة هذا، لكنها كتبت عنه وكأنها تجربة شخص آخر، منتبهة لئلا تظهر إن كانت إفريقية أم كاريبية، لأن قراءها لم يعرفوا أيهما هي.

أخبرت كيرت بأمر السائق، وكم أغضبها صدقه وأنها ذهبت إلى دورة المياه في المحطة لترى إن كانت بلوزتها الوردية ذات الأكمام الطويلة ضيقة جدًا. ضحك كيرت وضحك، وصارت واحدة من القصص الكثيرة التي يحب حكايتها لأصدقائه. **لقد ذهبت فعلًا إلى دورة المياه لترى بلوزتها!** كان أصدقاؤه مثله، أشخاصًا مبتهجين وأثرياء يعيشون على التلميحات الظاهرية للأمور. أحبتهم وشعرت أنهم يحبونها. إذ كانت مسلية في نظرهم، وغير عادية في طريقة تعبيرها عن أفكارها بصراحة، وتوقعوا أشياء معينة منها، وغفروا لها أمورًا معينة، لأنها أجنبية. مرة، حين كانت جالسة معهم في حانة، سمعت كيرت يتحدث إلى براد، وقال كيرت «متبجح" وصعقتها الكلمة، صعقتها أمريكيتها المطلقة. «متبجح». كلمة ما كانت لتخطر لها أبدًا. أن تفهم هذا كان يعني أن تدرك أن كيرت وأصدقاءه لم يكونوا، بمستوى ما، يعرفونها تمامًا.

حصلت على شقة في تشارلز فيلج، مؤلفة من غرفة نوم واحدة ذات أرضية خشبية قديمة، رغم أنها قد تسكن مع كيرت أيضًا، فمعظم ثيابها في غرفة ثيابه المؤطرة بالمرايا. حين بدأت تراه كل يوم، وليس في نهايات الأسبوع فقط، أخذت ترى طبقات جديدة منه؛ كم يصعب عليه البقاء هادئًا، هادئًا ببساطة دون التفكير بما سيفعله تاليًا، وكيف اعتاد خلع سرواله وتركه على الأرض لأيام، حتى تأتي عاملة التنظيف. امتلأت حياتهما بالخطط التي أعدها - كوزوميل لليلة واحدة، ولندن لكامل نهاية الأسبوع - وكانت أحيانًا تستقل سيارة أجرة في أمسيات الجمعة بعد العمل لملاقاته في المطار.

"أليس هذا رائعًا؟"، يسألها فتجيب بنعم، إنه رائع. كان يفكر دومًا بما يفعله أيضًا وأخبرته أن ذاك غريب بالنسبة لها، لأنها نشأت دون القيام به. ورغم ذلك فقد أضافت سريعًا أنها أحبته لأنها أحبته، وعرفت جيدًا أنه بحاجة لسماع هذا. كان متوترًا في الفراش.

"هل تحبين هذا؟ هل تستمتعين معي؟"، يسأل كثيرًا. وتقول نعم، وهي الحقيقة، لكنها شعرت أنه لا يصدقها دومًا، أو أن تصديقه يدوم لوقت قصير قبل أن يحتاج لسماع تأكيدها ثانية. كان فيه شيء ما، أخف من الثقة ولكنه أعمق من القلق، وكان بحاجة للصقل والتلميع والتشميع.

—

ثم أخذ شعرها يتساقط عند الصدغين. صارت تغمره بمنعمات غنية كثيفة، وتجلس تحت أجهزة البخار حتى تسيل قطرات الماء على عنقها. ومع ذلك، ظل شعرها ينحسر إلى الوراء كل يوم.

قالت وامبوي: "إنها المواد الكيماوية. هل تعرفين مكونات الملسات؟ يمكن لتلك المواد أن تقتلك. عليك أن تقصي شعرك وتعتني به طبيعيًا».

كان شعر وامبوي خصلًا قصيرة، لم تعجب إفيملو. فهي تراها باهتة وخفيفة، وتقبح وجه وامبوي الجميل.

"لا أريد خصلًا"، قالت.

"لا ينبغي أن تكون خصلًا. يمكنك أن تسرحيه على هيئة لبدة، أو تضفريه كما اعتدت. لديك الكثير بما يمكنك فعله بالشعر الطبيعي».

"لا أستطيع قص شعري"، قالت.

"تمليس شعرك يشبه كونك في سجن. أنت محبوسة في الداخل، وشعرك يتحكم بك. لم تذهبي للجري مع كيرت اليوم لأنك لم ترغبي بالتعرق وإفساد هذه النعومة. وقد غطيت شعرك في القارب في تلك الصورة التي أرسلتها لي. إنك تجاهدين دومًا لجعل شعرك ما لا ينبغي له أن يكون. لن يتساقط مثلما يفعل الآن. يمكنني مساعدتك في قصه الآن، لا داعي للتفكير بالأمر كثيرًا».

كانت وامبوي واثقة، ومقنعة جدًا، فعثرت إفيملو على مقص، وقصت وامبوي شعرها، تاركة إنشين فقط، بطول الشعر الجديد منذ أن ملست شعرها. نظرت إفيملو في المرآة. كانت لها عينان كبيرتان ورأس كبير، وتبدو في أحسن الأحوال مثل صبي، وفي أسوئها مثل حشرة.

"أبدو قبيحة للغاية، أنا خائفة من نفسي".

"تبدين جميلة. تظهر بنية عظامك على نحو أفضل الآن. أنت لم تعتادي رؤية نفسك هكذا فحسب، ستعتادين الأمر"، قالت وامبوبي.

لم تزل إفيملو تحدق بشعرها. ما الذي فعلته؟ بدت بلهاء كأن شعرها نفسه، القصير والكثيف، يطلب منها اهتمامًا، وأن تفعل له شيئًا، وأن تفعل له المزيد. بعد أن غادرت وامبوبي ذهبت إلى الصيدلية وقد وضعت قبعة البيسبول الخاصة بكيرت، واشترت زيوتًا ودهانات، واضعة الواحد تلو الآخر، على الشعر الرطب ثم على الشعر الجاف، متمنية حدوث معجزة مجهولة؛ شيء ما، أي شيء، يمكن أن يجعلها تحب شعرها. فكرت بشراء شعر مستعار، لكن الشعر المستعار يورث القلق من الاحتمال الوارد دومًا لطيرانه عن الرأس. فكرت بمملس خفيف لتمليس لفافاتها الحلزونية وتمديد التجعيدات قليلًا، لكن المملس يظل مملسًا، باستثناء أنه أخف قليلًا، ويظل عليها تحاشي المطر.

قال لها كيرت «كفي عن التوتر يا حلوتي. إنه مظهر جذاب وجريء».

"لا أريد لشعري أن يكون جريئًا".

"أعني أنه أنيق وراقٍ"، صمت، «تبدين جميلة».

"أبدو مثل ولد".

لم يقل كيرت شيئًا. ثمة متعة خفية في هيئته، كأنه لا يعرف سبب غضبها الشديد لكنه فضل ألا يقول شيئًا.

في اليوم التالي، اتصلت لأخذ إجازة مرضية وعادت للفراش.

"لم تتصلي لتأخذي إجازة مرضية لنبقى في برمودا يومًا آخر، لكنك اتصلت لأخذ إجازة مرضية من أجل شعرك؟"، سأل كيرت متكئًا على الوسائد محاولًا كتم ضحكة.

"لا يمكنني الخروج هكذا"، أخذت تحفر نفقًا تحت الأغطية كأنها تختبئ.

"ليس سيئًا بقدر ما تظنين"، قال.

"على الأقل اعترفت أخيرًا أنه سيّئ".

ضحك كيرت، «تعرفين ما أعني. تعالي هنا».

عانقها وقبلها ثم انزلق وأخذ يدلك قدميها، فأحبت الضغط الدافئ والإحساس

بأصابعه، ولكنها لم تسترخ. أربكها شعرها في مرآة الحمام باهتًا ومتقلصًا من النوم، مثل خرقة من الصوف تنتصب على رأسها. فبحثت عن هاتفها وأرسلت لوامبوي رسالة نصية: **أكره شعري، لم أستطع الذهاب للعمل اليوم.**

جاء رد وامبوي بعد دقائق **اطلعي على موقع هابيلي كينكي نابي دُتْ كوم. إنها جماعة الشعر الطبيعي. ستعثرين على الأفكار.**

أرت الرسالة لكيرت، «يا له من اسم موقع سخيف».

"أعلم، لكنها تبدو فكرة جيدة. عليك الاطلاع عليه في وقت ما».

"مثل الآن"، قالت إفيملو وهي تنهض. كان حاسوب كيرت المحمول مفتوحًا على المكتب. وحين اتجهت إليه لاحظت تغيرًا في كيرت؛ سرعة مفاجئة متوترة، وحركته الهلعة الخائفة نحو الحاسب المحمول.

"ما الأمر؟"، سألت.

"إنها لا تعني شيئًا. الرسائل الإلكترونية لا تعني شيئًا».

نظرت إليه مجبرة عقلها ليعمل. لم يتوقع منها استخدام حاسوبه، لأنها نادرًا ما فعلت. لقد خانها. كم غريب أنها لم تفكر بهذا. فحملت الحاسب المحمول وأمسكت به بقوة، لكنه لم يحاول أخذه، فقد اكتفى بالوقوف والنظر. كانت صفحة بريد الياهو مصغرة، وإلى جانبها صفحة عن كرة السلة الجامعية. قرأت بعضًا من الرسائل الإلكترونية، وشاهدت الصور المرفقة. كانت رسائل المرأة - عنوان بريدها SparklingPola123 بولا المتألقة 123- مغرية بقوة، في حين أن رسائل كيرت مغرية بما يكفي ليضمن استمرارها. سأعد لك العشاء مرتدية ثوبًا أحمر ضيقًا وحذاء بكعب عالٍ جدًا، وأنت اجلب نفسك وزجاجة نبيذ فحسب. أجاب كيرت: سيبدو الأحمر رائعًا عليك. كانت المرأة في عمره تقريبًا، لكن ثمة مسحة من اليأس القاسي في الصور التي أرسلتها، فالشعر مصبوغ باللون الأشقر النحاسي، والعينان مثقلتان بكثير من الزينة، وقد ارتدت بلوزة بتقويرة كبيرة جدًا. فاجأ إفيملو أن يراها كيرت جذابة. كانت حبيبته السابقة البيضاء ذات صحة جيدة وهيئة تلميذة.

قال كيرت: "التقيت بها في ديلاور. هل تذكرين المؤتمر الذي أردتك أن تحضريه؟ أخذت تتودد إليّ مباشرة، وهي تلاحقني منذئذٍ. لم تتركني وشأني وهي تعرف

أن لدي حبيبة».

نظرت إفيملو إلى إحدى الصور، كانت صورة جانبية بالأبيض والأسود، ورأس المرأة ملقى إلى الوراء، وشعرها الطويل يتدلى خلفها. امرأة تحب شعرها وخطر لها أن كيرت يفعل أيضًا.

"لم يحدث شيء مطلقًا، رسائل إلكترونية فحسب. إنها تلاحقني فعلًا. أخبرتها عنك، لكنها لم تتوقف"، قال كيرت.

نظرت إليه، مرتديًا قميصًا بأكمام قصيرة وسروالًا قصيرًا، ثابتًا جدًا في تبرير ذاته. كان محببًا بهيئته التي تشبه هيئة الطفل؛ بسذاجة.

"لكنك كتبت إليها أيضًا"، قالت.

"لكن هذا لأنها لم تكف فقط".

"لا، هذا لأنك أردت ذلك".

"لم يحدث شيء".

"ليس هذا هو المحور".

"أنا آسف، أعرف أنك مستاءة أصلًا، وأكره أن أزيد الأمر سوءًا".

"كل صديقاتك لهن شعور طويلة متدلية"، قالت ونبرتها مثخنة بالاتهام.

"ماذا؟"

كانت سخيفة، لكن معرفة ذلك لم يجعلها أقل سخافة. فقد أزعجتها الصور التي رأتها لحبيباته السابقات، اليابانية الممتلئة ذات الشعر الأملس المصبوغ بالأحمر، والفنزويلية ذات البشرة الزيتونية والشعر الحلزوني الذي يصل حتى كتفيها، والفتاة البيضاء ذات الشعر المتموج باللون البني المحمر. والآن هذه المرأة، التي لم تأبه لمظهرها، لكن لها شعرًا طويلًا أملس. أغلقت الحاسب، وشعرت بالضآلة والقبح. قال كيرت «سأطلب منها ألا تتواصل معي أبدًا، لن يحدث هذا ثانية يا حلوتي، أعدك"، أدركت أنه يرى أن المرأة مخطئة، بدلًا من أن يكون هو المخطئ.

استدارت مبتعدة، وجذبت قبعة البيسبول الخاصة بكيرت على رأسها، وضعت أشياء في حقيبة وغادرت.

—

جاء كيرت لاحقًا، حاملًا الكثير من الأزهار حتى إنها بالكاد رأت وجهه حين فتحت الباب. كانت ستسامحه، تعرف ذلك، لأنها صدقته. فبولا المتألقة مغامرة أخرى صغيرة من مغامراته. لم يكن ليتمادى أكثر معها، لكنه سيظل يشجع اهتمامها، حتى يضجر. وبدت بولا المتلألئة مثل النجوم الفضية التي كانت معلمته تلصقها على صفحة واجبه المنزلي في المدرسة الابتدائية، مصدرًا للذة عابرة ضحلة.

لم ترغب بالخروج، لكنها لم ترغب بالوجود معه في حميمية شقتها، إذ ما زالت تشعر بالألم. لذا غطت شعرها بعمامة وخرجا للتنزه، وكان كيرت متوترًا ويكثر من الوعود، وسارا جنبًا إلى جنب لكن دون تلامس، طوال الطريق إلى ناصية شارع تشارلز وحديقة الجامعة، ومن ثم إلى منزلها.

—

أخذت إجازة مرضية لثلاثة أيام. وذهبت إلى العمل أخيرًا، وشعرها قصير جدًا، لبدة مسرّحة بإفراط ومدهنة بإفراط. «تبدين مختلفة"، قال لها زملاء عملها، وكلهم مترددون قليلًا.

"هل يعني شيئًا ما، شيئًا سياسيًا مثلًا؟"، سألت آمي. آمي التي تحتفظ بملصق لتشي غيفارا على جدار مكتبها الصغير.

"لا"، قالت إفيملو.

في المقصف، سألتها الآنسة مارغريت، المرأة الإفريقية الأمريكية ذات الصدر الكبير التي احتلت المنضدة - والشخص الأسود الوحيد الآخر في الشركة باستثناء حارسيْ الأمن - "لماذا قصصت شعرك يا عزيزتي؟ هل أنت سحاقية؟"

"لا يا آنسة مارغريت، ليس بعد على الأقل".

بعد بضع سنوات، في اليوم الذي استقالت فيه إفيملو، ذهبت إلى المقصف لغداء أخير. «هل أنت راحلة؟"، سألت الآنسة مارغريت محبطة. «آسفة يا عزيزتي. عليهم أن يعاملوا الناس على نحو أفضل هنا. هل تظنين أن شعرك جزء من المشكلة؟»

—

كان موقع هابيلي كنكي ناپي دُتْ كوم ذا خلفية صفراء فاقعة، ولوح الرسائل فيه مكتظ بالمنشورات، وأومضت في الأعلى صور صغيرة لنساء سوداوات، لهن

خصل طويلة ثقيلة، ولبدات صغيرة وكبيرة، ولفافات وضفائر وخصل وتجعيدات كبيرة خشنة. وقد سمين الملسات «الدمار الناعم"، لأنهن سئمن من التظاهر أن شعورهن كانت ما لم تكن عليه، وسئمن من الجري لتفادي المطر والانكماش من التعرق . بعضهن كُنّ يُطرين على صور بعض، وينهين التعليقات بـ «عناق». تذمرن من كون مجلات السود لا تضع نساء بشعر طبيعي على صفحاتها، أو اشتكين من المنتجات في الصيدلية المسممة بزيوت المعادن التي لا يمكنها ترطيب الشعر الطبيعي. وتبادلن الوصفات. لقد خلقن لأنفسهن عالمًا افتراضيًا كان فيه الشعر المجعد المفتل المخصل الصوفي طبيعيًا. وغرقت إفيملو في هذا العالم بامتنان مضطرب، ودعيت النساء ذوات الشعر القصير مثل شعرها بلبدة صغيرة ضئيلة. وعرفت من النساء اللاتي ينشرن إرشادات طويلة أن عليها تجنب الشامبو بالسليكون، وأن تستخدم بلسم بديل الزيت على الشعر الرطب، وأن تنام مرتدية وشاح حرير. وطلبت منتجات من نساء يصنعنها في مطابخهن ويقمن بشحنها مع إرشادات واضحة: **يفضل وضعها في الثلاجة مباشرة، لا تحتوي أي مواد حافظة**.كان كيرت يفتح الثلاجة ويحمل علبة كتب عليها 'زبدة للشعر'، ويسأل «هل من المناسب وضع هذا على شريحة خبزي؟"، قهقه كيرت على هذا كله بانبهار، وقرأ منشورات الموقع قائلًا: "أظن هذا رائعًا! إنه مثل حركة النساء السود تلك».

ذات يوم، حين وقفت يدًا بيد مع كيرت أمام صينية من التفاح في سوق المزارعين ، مر بها رجل أسود وغمغم «هل تساءلت يومًا لمَ يعجبه مظهرك بهذه الفوضى هكذا؟"، فتوقفت، غير واثقة لوهلة إن كانت قد تخيلت هذه الكلمات، ثم نظرت إلى الوراء إلى الرجل، الذي يمشي بكثير من الإيقاع في خطواته، ما أوحى لها بشخصية هوائية. إنه رجل لا يستحق أن تُلقي له بالًا، غير أن كلماته أزعجتها وحرضتها لفتح مزيد من أبواب الشك.

"هل سمعت ما قاله ذلك الرجل؟"، سألت كيرت.

"لا، ماذا قال؟"

هزت رأسها «لا شيء».

شعرت بالإحباط، وحين كان كيرت يتابع مباراة ذلك المساء، قادت السيارة

نحو متجر أدوات التجميل، ومررت أصابعها على حزم من وصلات الشعر الحريرية الملساء. ثم تذكرت منشورًا كتبته جميلة 1977 : ***أحب الأخوات اللاتي يحببن وصلاتهن الملساء، لكني لن أضع شعر حصان على رأسي ثانية***. وغادرت المتجر، متلهفة للعودة والدخول إلى شبكة الإنترنت وكتابة منشور على الموقع عن ذلك. كتبت: **كلمات جميلة جعلتني أتذكر أن لا شيء أجمل مما أعطانيه الرب.** كتبت أخريات ردودًا، واضعات علامات الإبهام المرفوع، وأخبرنها كم أحببن الصورة التي رفعتها. لم تتحدث عن الرب كثيرًا، وبدت الكتابة على الموقع مثل تقديم شهادة في الكنيسة، لكن ضجة الاستحسان المتكرر أنعشتها.

في يوم عادي أول الربيع، إذ لم يكن اليوم ملونًا بالبرونزي من الضوء الغريب، ولم يحدث شيء ذو بال، وربما كان الوقت فحسب، كما يفعل دومًا، قد غيّر شكوكها؛ نظرت في المرآة وغرست أصابعها في شعرها، الكثيف والإسفنجي والجميل، ولم تتخيله بأي شكل آخر. لقد وقعت ببساطة في غرام شعرها.

لماذا تحب النساء ذوات البشرة الداكنة
- الأمريكيات وغير الأمريكيات - باراك أوباما

يقول الكثير من السود بفخر إن فيهم عرقًا «هنديًا»، وهذا يعني حمدًا للرب أننا لسنا زنوجًا خالصين، ما يعني أنهم ليسوا داكنين جدًا. (للتوضيح، حين يقول البيض داكنون فهم يقصدون اليونانيين أو الإيطاليين لكن حين يقول السود داكن فهم يعنون غريس جونز[47]). يحب الرجال السود أن تكون لنسائهن السود حصة غريبة، كأن تكون نصف صينية أو إسبانية أو تشيروكي[48]. يحبون أن تكون نساؤهم فاتحات البشرة، ولكن انتبه إلى ما يعنيه السود الأمريكيون بكلمة «فاتح». بعض هؤلاء الأشخاص «الفاتحين»، في بلدان السود غير الأمريكيين، يدعون

47) (1948) مغنية وعارضة أزياء جامايكية.
48) قبيلة من الهنود الحمر.

ببساطة بيضًا. (أوه، ويكره الرجل الأمريكي الأسود الرجلَ الفاتح البشرة، لأنه يعجب السيدات بسهولة شديدة).

والآن، يا أصدقائي السود غير الأمريكيين، لا تشعروا بالفخر. لأن هذا الهراء يحدث في بلداننا الإفريقية والكاريبية. هل تقولون إنه ليس بالمقدار نفسه من السوء مع الأمريكيين السود؟ ربما، لكنه يحدث مع ذلك. بالمناسبة، ما رأيكم بقول الأثيوبيين إنهم ليسوا سودًا؟ وأهل الجزر الصغيرة المتلهفين للقول إن أصولهم مختلطة؟ لكن ليس علينا أن نعترض، فالبشرة الفاتحة مقدرة في مجتمعات السود الأمريكيين، إلا أن الجميع يتظاهرون بأن الأمر لم يعد كذلك. يقولون إن أيام اختبارات الأكياس الورقية (انظر في الأعلى) قد انتهت ولنتقدم نحو الأمام. لكن اليوم معظم السود الأمريكيين الناجحين بوصفهم فنانين وشخصيات مشهورة فاتحو البشرة وبخاصة النساء. والكثير من الرجال الأمريكيين السود الناجحين زوجاتهم بيض. أولئك الذين يصممون على الزواج بنساء سودوات يكن زوجات فاتحات (يعرفن أيضًا بالصفراوات الساطعات). وهذا السبب الذي من أجله تحب النساء السود باراك أوباما، فقد كسر القاعدة! لقد تزوج واحدة منهن. إنه يعرف ما يبدو أن العالم لا يعرفه: أن النساء السود فاتنات حقًا. يردن لأوباما الفوز لأنه قد يقوم أحدهم أخيرًا بتعيين امرأة جميلة بلون الشوكولاته في فيلم رومانسي كوميدي ضخم الميزانية يعرض في كل الصالات في كل أنحاء البلاد، وليس فقط الصالات ذات النجوم الثلاثة في مدينة نيويورك. كما ترى، في ثقافة البوب الأمريكية، تكون النساء السود الجميلات غير مرئيات. (الجماعة الأخرى اللامرئية بالقدر نفسه هم الرجال الآسيويون. لكنهم على الأقل يتمكنون من أن يكونوا فائقي الذكاء). تمثل المرأة السوداء في الأفلام دور الأم البدينة اللطيفة، أو القوية الوقحة وأحيانًا

المساعِدة التي تقف داعمة بالقرب. وينجحن في منح الحكمة والبصيرة، في حين أن النساء البيض يحصلن على الحب. لكنهن لا يكن أبدًا المرأة المثيرة الجميلة المرغوبة أبدًا. لذا تأمل النسوة السود أن يغير باراك أوباما هذا. أوه، والنساء السود الداكنات أيضًا من أجل تنظيف واشنطن ولبخروج من آثار العراق وغيرها.

الفصل الواحد والعشرون

كان صباح الأحد، واتصلت العمة أوجو، مستاءة ومتوترة.

"انظري إلى هذا الولد! تعالي وشاهدي الهراء الذي يريد ارتداءه إلى الكنيسة. لقد رفض ارتداء ما اشتريته له. تعلمين أنه ما لم يكن حسن الهندام، سيجدون شيئًا يتحدثون به عنا. إن كانوا قذرين، فتلك ليست مشكلة، ولكن إن كنا كذلك فهذا أمر آخر. ولهذا السبب نفسه أقول له أن يخفض صوته في المدرسة. قالوا قبل بضعة أيام إنه يتحدث في الفصل، وقال إنه تحدث لأنه أنهى عمله. عليه أن يخفض صوته لأنه يعتبر مختلفًا دائمًا، لكن الولد لا يفهم. أرجوك تحدثي إلى ابن عمتك!».

طلبت إفيملو من دايك أن يأخذ الهاتف إلى غرفته.

"أمي تريدني أن أرتدي ذلك القميص القبيح!"، كانت نبرته باردة وبلا حماس.

"أعلم أن ذلك القميص ليس جميلًا يا دايك، لكن البسه من أجلها، حسن؟ فقط إلى الكنيسة، اليوم فقط».

عرفت القميص، قميصًا مقلمًا رديئًا اشتراه بارثولوميو لدايك. إنه من القمصان التي قد يشتريها بارثولوميو، وذكرها بأصدقائه الذين التقتهم ذات نهاية أسبوع، زوجان نيجيريان جاءا للزيارة من ماريلاند، وولداهما جالسان إلى جوارهما على الأريكة، كلاهما مزرر القميص للأعلى ومتصلب، محبوس في الطموحات الخانقة لوالديهما المهاجرين. لم ترغب أن يكون دايك مثلهما، لكنها فهمت مخاوف العمة

أوجو، التي تشق طريقها في أراض مجهولة كما فعلت.

"لن ترى أحدًا تعرفه في الكنيسة على الأرجح. وسأتحدث إلى أمك لئلا تجعلك تلبسه ثانية»، قالت إفيملو.

تحايلت حتى وافق دايك أخيرًا، ما دام يستطيع ارتداء الحذاء الرياضي، لا الحذاء الجلدي ذا الخيوط الذي أرادته أمه.

—

كان كيرت مع العمة أوجو تواقًا ومبتهجًا بتلك الطريقة الثملة، وهذا ما أحرج إفيملو قليلًا. على العشاء تلك الليلة مع وامبوي وبعض الأصدقاء، مد كيرت يده وأعاد ملء كأس نبيذ هنا، وكأس ماء هناك. ساحر كان ما قالته إحدى الفتيات لاحقًا: إن صديقك ساحر جدًا. وخطر لإفيملو خاطر بأنها لا تحب السحر. ليس سحر كيرت، بل حاجته للفتنة والاستعراض. تمنت لو كان كيرت أكثر هدوءًا وأكثر جوانية. حين يبدأ أحاديث مع الناس في المصاعد، أو يطري الغرباء بسخاء، تحبس أنفاسها، واثقة أنهم سيقولون يا له من شخص مهتم محب. لكنهم دومًا ابتسموا له بالمقابل وردوا وسمحوا لأنفسهم بأن يحظوا بالغزل. كما فعلت العمة أوجو «كيرت ألن تتذوق الحساء؟ ألم تطبخ لك إفيملو هذا قبلًا؟ هل تذوقت موز الجنة المقلي؟»

راقب دايك، قائلًا القليل، وتحدث بتهذيب ولياقة، حتى عندما مازحه كيرت وتحدث عن الرياضة وحاول جاهدًا أن يفوز بإعجابه الذي خشيت إفيملو أن يكون له بعض العواقب. أخيرًا سأل كيرت «هل تريد أن تلعب كرة السلة؟»

هز دايك كتفيه «حسن».

رأتهما العمة أوجو يغادران.

"انظري إلى الطريقة التي يتصرف بها كأن كل ما يلمسه تفوح منه رائحة كالعطر. إنه يحبك حقًا"، قالت العمة أوجو ثم أضافت مغضنة الوجه «حتى مع كون شعرك هكذا».

"عمتي، أرجوك، دعي شعري وشأنه"، قالت إفيملو.

"إنه مثل ليف القنب"، غطست العمة أوجو يدها في لبدة شعر إفيملو.

سحبت إفيملو رأسها «ماذا لو أن كل مجلة تفتحينها وكل فيلم تشاهدينه كان

فيها نساء جميلات ذوات شعر كهذا؟ ستكونين معجبة بشعري عندها".

وبختها العمة أوجو «حسن، يمكنك الحديث بالإنجليزية عنه، لكني أقول ما هو حقيقي فقط. ثمة شيء رث وفوضوي في الشعر الطبيعي»، صمتت العمة أوجو «هل قرأت المقال الذي كتبه ابن عمتك؟»

"أجل".

"كيف أمكنه أن يقول إنه لا يعرف ما هو؟ منذ متى وهو في نزاع؟ وإن اسمه صعب أيضًا؟"

"عليك أن تتحدثي معه يا عمتي. إن كان هذا ما يشعر به فهذا ما يشعر به إذًا".

"أظنه كتب هذا لأن هذا النوع من الأشياء هو ما يعلمونهم إيّاه. الكل يعاني، هوية هذا، هوية ذاك. سيرتكب أحدهم جريمة قتل ويقول إن هذا لأن أمه لم تعانقه حين كان عمره ثلاثة أعوام. أو أنهم سيقومون بشيء سيّئ ويقولون إنه مرض يعانون منه». نظرت العمة أوجو خارج النافذة، كان كيرت ودايك يربتان على كرة السلة في الفناء الخلفي، وأبعد منهما كانت بداية الغابات الكثيفة. في زيارة إفيملو الأخيرة استيقظت لترى من نافذة المطبخ زوجًا من الغزلان يجري بشكل جميل.

"أنا متعبة"، قالت العمة أوجو بصوت منخفض.

"ماذا تقصدين؟"، عرفت إفيملو رغم ذلك أن الأمر سيكون مزيدًا من الشكاوى من بارثولوميو.

"كلانا يعمل، وكلانا يعود إلى المنزل في الوقت نفسه، وهل تعرفين ما الذي يفعله بارثولوميو؟ يكتفي بالجلوس فقط في غرفة المعيشة، ويدير التلفاز ويسألني ماذا سنأكل على العشاء». عبست العمة أوجو ولاحظت إفيملو كم زاد وزنها، ورأت بداية الذقن المزدوج، والعُرض الجديد لأنفها. «يريدني أن أعطيه راتبي، تخيلي! قال إن هذا هو الزواج وبما أنه رب الأسرة فعلي ألا أرسل المال لأخي دون إذنه، وإن علينا تحويل أقساط سيارته إلى راتبي. أريد العثور على مدرسة خاصة من أجل دايك، مع كل هذا الهراء الذي يجري في المدرسة الحكومية تلك، لكن بارثولوميو يقول إنها مكلفة جدًا. مكلفة جدًا! بينما يذهب أبناؤه إلى مدارس خاصة في كاليفورنيا. إنه غير مبال أصلًا بكل الهراء الذي يحدث في مدرسة دايك. ذهبت هناك ذات يوم وصرخت

علي مساعدة مدرس في القاعة. تخيلي! كانت وقحة جدًا، ولاحظت أنها لم تصرخ في القاعة على أولياء الأمور الآخرين، لذا ذهبت وتحدثت معها بغضب. يجعلك هؤلاء الناس عدائية من أجل حفظ كرامتك فقط"، هزّت العمة أوجو رأسها. «بارثولوميو ليس مهتمًا بأن دايك ما زال يدعوه عمي. أخبرته أن يشجع دايك ليدعوه أبي لكنه لم يكترث. كل ما يريده أن أسلمه راتبي وأعد القوانص المتبلة له أيام السبت حين يتابع الدوري الأوروبي على الطبق اللاقط. لم يتعين علي إعطاؤه راتبي؟ هل دفع رسوم دراستي في كلية الطب؟ يريد أن يؤسس تجارة لكنهم لن يعطوه قرضًا، ويقول إنه سيقاضيهم بتهمة التمييز العنصري، لأن وضعه المالي ليس سيئًا، وعرف أن رجلًا ممن يذهبون إلى كنيستنا حصل على قرض، مع أن وضعه المالي أسوأ بكثير. هل هو خطئي إن كان لا يستطيع الحصول على قرض؟ هل أجبره أحد على القدوم إلى هنا؟ ألم يعرف أننا قد نكون الأشخاص السود الوحيدين في المنطقة؟ ألم يأت هنا لأنه شعر أن هذا لمصلحته؟ كل شيء نقود نقود نقود. يظل يرغب باتخاذ قرارات عملي بدلًا مني. ما الذي يعرفه محاسب عن الطب؟ أريد أن أكون مرتاحة فقط. أريد أن أتمكن من دفع مصاريف دراسة ابني الجامعية. لست بحاجة للعمل ساعات أطول لجمع المال فقط، ولست أخطط لشراء قارب كما يفعل الأمريكيون». ابتعدت العمة أوجو عن النافذة وجلست إلى طاولة المطبخ. «أنا حتى لا أعرف لماذا جئت إلى هذا المكان. قالت الصيدلانية قبل بضعة أيام إنها لا تفهم لكنتي. تخيلي، رحت أطلب دواء فقالت لي إن لكنتي ليست مفهومة. وفي ذلك اليوم نفسه، كأن أحدًا أرسله، قال لي مريض، رجل تافه خامل يغطي الوشم كل أنحاء جسده، أن أعود إلى المكان الذي جئت منه. كل هذا لأني كنت أعرف أنه كان يتصنع الألم ورفضت إعطاءه المزيد من مسكنات الألم. لم علي قبول هذا الهراء؟ لكني ألوم بخاري[49] وبابانغيدا وأباتشا لأنهم دمروا نيجيريا».

من الغريب أن تتحدث العمة أوجو كثيرًا عن الرؤساء السابقين، مستحضرة أسماءهم بلوم مسموم، لكنها لم تذكر الجنرال أبدًا.

---

49) محمد بخاري: (1942)، الرئيس الحالي لنيجيريا، واستلم الحكم بعد انتخابات عام 2015.

عـاد كيرت ودايك إلى المطبخ. وكان دايك لامع العينين ومتعرقًا قليلًا وثرثارًا، فقد ابتلع نجم كيرت في فضاء كرة السلة.

"هل تريد بعضًا من الماء يا كيرت؟"، سأل.

"ادعه العم كيرت"، قالت العمة أوجو.

ضحك كيرت «أو ابن الخال كيرت. ماذا عن ابن الخال كيرت؟»

"لست ابن خالي"، قال دايك مبتسمًا.

"سأكون إن تزوجت ابنة خالك".

"يعتمد على المبلغ الذي ستدفعه لنا!"، قال دايك.

ضحك الجميع وبدت العمة أوجو مسرورة.

"هل تريد أن تجلب ذلك الشراب وتلاقيني خارجًا يا دايك"، سأله كيرت، «لدينا عمل لم ينته!»

لمس كيرت كتف إفيملو برفق وسألها إن كانت بخير قبل أن يعود للخروج.

"إنه يمسك بك مثل بيضة"، قالت العمة أوجو ونبرتها مفعمة بالإعجاب.

ابتسمت إفيملو. اهتم بها كيرت حقًا مثل بيضة، وشعرت معه بالقابلية للكسر وبأنها ثمينة. حين غادرا لاحقًا، وضعت يدها في يده وضغطت، وشعرت بالزهو أن تكون معه وله.

—

ذات صباح استيقظت العمة أوجو وذهبت إلى الحمام. كان بارثولوميو قد غسل أسنانه للتو، فتقدمت لتأخذ فرشاة أسنانها ورأت، في الحوض، كتلة سميكة من معجون الأسنان، كثيفة بما يكفي لتنظيف الفم بأكمله. كانت هناك، بعيدة عن المصرف طرية ورخوة، وأثارت اشمئزازها. كيف يمكن لشخص أن ينظف أسنانه ويترك هذا المقدار من معجون الأسنان في الحوض؟ ألم يرها؟ هل وضع المزيد على فرشاة أسنانه عندما سقطت الكتلة في الحوض؟ أم أنه مضى في غسل أسنانه على أية حال بفرشاة جافة تقريبًا؟ هذا يعني أن أسنانه ليست نظيفة. لكن أسنانه لا تهم العمة أوجو، بل الكتلة المتروكة في الحوض هي التي تهمها. في صباحات عديدة أخرى، تنظف بقع معجون الأسنان، وتشطف الحوض، لكن ليس هذا الصباح. لقد طفح

بها الكيل هذا الصباح. صاحت باسمه مرة ومرة، سألها ما المشكلة، فأخبرته أن معجون الأسنان في الحوض هو المشكلة. نظر إليها وهمهم أنه في عجلة من أمره، فقد تأخر عن العمل، فأخبرته أنها أيضًا عليها الذهاب للعمل، وأنها تجني أكثر مما يفعل، في حال أنه نسي، وأنها تدفع أقساط سيارته في نهاية الأمر. فخرج مسرعًا ونزل للأسفل. في هذه المرحلة من القصة صمتت العمة أوجو، وتخيلت إفيملو بارثولوميو في قميصه ذي الياقة المختلفة اللون وسرواله المرفوع عاليًا جدًا، والكسرات القبيحة في المقدمة، ومشيته المتقوسة وهو يسرع بالخروج. كان صوت العمة أوجو هادئًا على الهاتف بشكل غريب.

"لقد وجدت منزلًا من طابق واحد في مدينة تدعى ويلو. بيت جميل جدًا له بوابة قريب الجامعة. سنغادر أنا ودايك في نهاية الأسبوع هذه"، قالت العمة أوجو.

"يا إلهي! بهذه السرعة يا عمتي؟»

"لقد حاولت. هذا يكفي».

"ماذا قال دايك؟"

"قال إنه لم يحب أبدًا العيش في الغابات، ولم يقل كلمة واحدة عن بارثولوميو. ستكون ويلو أفضل بكثير له».

أحبت إفيملو اسم المدينة. ويلو، بدت لها مثل بدايات معصورة للتو.

إلى صحبي السود من غير الأمريكيين:
في أمريكا أنت أسود يا عزيزي.

عزيزي الأسود غير الأمريكي، حين تتخذ القرار بالقدوم إلى أمريكا، ستصبح أسود. توقف عن الجدل. توقف عن قول أنا جامايكي أو غاني، فالأمريكيون لا يهتمون. وماذا لو لم تكن «أسود» في بلدك؟ أنت في أمريكا الآن. كلنا مررنا بلحظات التكريس في جماعة الزنوج السابقين. كانت لحظتي في صف في دراستي الجامعية، حين طُلب مني أن أقدم وجهة نظر السود، سوى أنني لا أعرف ما كانت. لذا اختلقت شيئًا ما، وأنا أعترف بذلك. ستقول «إنني لست

أسود»، فقط لأنك تعلم أن السود في قاع سلم الأعراق الأمريكي، وأنت لا ترغب بشيء من هذا. لا تنكر الآن. ماذا لو أن كونك أسود يجعلك تحظى بكل امتيازات البيض؟ هل ستظل تقول «لا تسمني أسود، أنا من ترينيداد»؟، لا أظن ذلك. لذا فأنت أسود يا عزيزي. وإليك طريقة التعامل مع كونك أسود: عليك إظهار استيائك حين تستخدم كلمات من مثل "بطيخ أحمر"[50] أو "طفل القطران"في الدعابات حتى إن كنت لا تعرف عمّا يتحدثون بحق الجحيم، وما دمت أسود غير أمريكي، فالاحتمالات هي أنك لن تعرف. (في الجامعة سأل زميل دراسة إن كنت أحب البطيخ الأحمر فقلت أجل، فقال زميل آخر «أوه يا إلهي، هذا عنصري جدًّا» فاحترت وقلت «انتظر، كيف؟») عليك أن تومئ إن أومأ لك أشخص أسود في منطقة مكتظة بالبيض، وتدعى هذه الإيماءة السوداء، إنها طريقة السود للقول «إنك لست وحدك، أنا هنا أيضًا». حين تصف امرأة سوداء تعجبك استخدم دومًا كلمة «قوية»، لأن هذا ما يفترض بالنساء السود أن يكنه في أمريكا. إن كنت امرأة، أرجو ألا تفصحي عن أفكارك كما اعتدت فعله في بلدك. لأن النساء السوداوات ذوات الفكر القوي مخيفات في أمريكا. وإن كنت رجلًا، كن حيويًا ولا تكن متحمسًا جدًا أبدًا، وإلا سيخشى أحدهم أنك ستخرج سلاحًا. حين تشاهد التلفاز وتسمعهم يستخدمون «إهانة عنصرية»، عليك أن تظهر استياءك فورًا، حتى إن خطر لك «لكن لماذا لا يقولون ما قيل بالضبط؟»، وحتى إن وددت أن تكون قادرًا أن تحدد بنفسك مدى شعورك بالإهانة، أو إن شعرت بالإهانة أصلًا، عليك مع ذلك أن تكون مستاء جدًا.

حين يُبلّغ عن جريمة، صَلِّ لئلّا يكون مرتكبها شخصًا أسود،

50) لأنه نبات ينمو في المناطق الحارة، ولأن أصل ظهوره في إفريقيا الجنوبية ولأن البيض يظنون السود يحبون تناوله.

وإن تبين أن مرتكبها شخص أسود، فابقَ بعيدًا عن منطقة الجريمة لأسابيع، وإلا ستوقف للتأكد من هويتك. إن قدم أمين صندوق أسود خدمة بائسة لشخص غير أسود أمامك، فأثنِ على حذاء الشخص أو شيء ما، لتغطي على الخدمة السيئة، لأنك مذنب بجرائم أمين الصندوق. إن كنت في جامعة من رابطة اللبلاب وأخبرك شاب متحزّب جمهوري أنك تمكّنت من دخولها فقط بسبب قانون التميز الإيجابي[51]، فلا تعرض له درجاتك الكاملة من المدرسة الثانوية. بدلًا من ذلك، أشر بلطف أن أكبر المنتفعين بقانون التميز الإيجابي هن النساء البيضاوات. إن ذهبت لتناول الطعام في مطعم، اترك بقشيشًا سخيًا من فضلك، وإلا سيحصل الشخص الأسود التالي الذي يدخل المطعم على خدمة سيئة، لأن الندل يتجهمون عندما يخدمون طاولة للسود. كما ترى، لدى الأشخاص السود جينات كيلا يتركوا بقشيشًا جيدًا، لذا تغلّب على هذه الجينات من فضلك. إن كنت تخبر شخصًا غير أسود عن أمر عنصري حدث لك، احرص على ألا تكون مستاء. لا تتذمر، وكن متسامحًا، واجعل الأمر طريفًا إن أمكنك. والأهم من ذلك ألا تغضب، لا يفترض بالسود أن يغضبوا من العنصرية، وإلا لن تتلقى تعاطفًا. هذا ينطبق على المتحررين البيض فقط. بالمناسبة، لا تكلف نفسك عناء إخبار أبيض محافظ عن أي شيء عنصري حدث لك، لأن المحافظ سيقول لك إنك العنصري الحقيقي وستفغر فمك من الحيرة.

51) اعتماد مبدأ الأفضلية أو آليات إنعاش ملائمة في التعامل مع الأقليات.

الفصل الثاني والعشرون

رأت إفيملو كِيود داسيلفا ذات سبت في مجمع وايت مارش التجاري. كان الجو ماطرًا، وهي تقف بالداخل قرب المدخل بانتظار كيرت ليقرب السيارة، وأوشك كِيود على الاصطدام بها.

"إفيمسكوا!"، قال.

"أوه يا إلهي كِيود!"

وتعانقا ونظرا إلى بعضهما، وقالا كل الأشياء التي يقولها الأشخاص الذين لم يروا بعضهم منذ سنوات عديدة، وقد تلبّس كلاهما صوته النيجيري وذاته النيجيرية، أعلى وبصورة أكثر إشراقًا، مضيفًا «أو" إلى جملته. لقد غادر بعد المدرسة الثانوية مباشرة ليرتاد الجامعة في إنديانا وتخرج منذ سنوات.

"عملت في بيترسبرغ لكني انتقلت مؤخرًا إلى سلفر سبرنغ لبدء عمل جديد. أحب ماريلاند. وأصادف نيجيريين في البقالة والمجمع التجاري وفي كل مكان، إن الأمر يشبه العودة للديار، لكني أظنك تعرفين هذا مسبقًا».

"أجل"، قالت رغم أنها لم تعرف. إذ كانت ماريلاند بالنسبة لها عالمًا صغيرًا محدودًا بأصدقاء كيرت الأمريكيين.

"عقدت العزم على البحث عنك، بالمناسبة"، ونظر إليها كأنه يستوعب تفاصيلها مسترجعًا إياها، ليحكيها حين يسرد حكاية لقائه بها.

"حقًا؟"

"تحدثت أنا وصديقي زد قبل بضعة أيام، وخطرتِ لنا وقال إنه سمع أنك تعيشين في بالتيمور، وبما أنني كنت قريبًا سأل إن أمكنني العثور عليك والتأكد أنك بخير وإخباره كيف تبدين».

فانتابها الخدر سريعًا، وهمهمت «أوه، أنتما على تواصل؟»

"نعم، لقد عدنا للتواصل حين سافر إلى إنجلترا العام الماضي».

إنجلترا! كان أوبِنز في إنجلترا. كانت هي من خلق المسافة متجاهلة إياه، وقد غيرت عنوان بريدها الإلكتروني ورقم هاتفها، غير أنها شعرت بالخيانة لسماع هذه الأخبار. طرأت تغيرات في حياته لم تعرف بأمرها، إذ كان في إنجلترا. وقد ذهبت مع كيرت منذ أشهر قليلة إلى إنجلترا لمهرجان غلاستونبري؛ كان يمكن أن تصادفه وهي تمشي في شارع أكسفورد.

"إذًا ما الذي حدث؟ بصراحة لم أصدق ذلك عندما قال لي إنكما لا تتواصلان. آه! كنا جميعًا ننتظر بطاقات حفل الزفاف!"، قال كِيود.

رفعت إفيملو كتفيها، وفي داخلها تناثرت أشياء احتاجت إلى جمعها.

"إذًا كيف حالك؟ كيف هي الحياة؟"، سأل كِيود.

قالت ببرود: "جيدة. أنتظر قدوم حبيبي لاصطحابي. في الحقيقة أظنه جاء".

كان في سلوك كِيود، انسحاب في الروح، وانحسار في حجم دفئه، لأنه شعر جيدًا أنها قد اتخذت القرار بإخراسه. ومشت مبتعدة عنه، واستدارت نصف استدارة قائلة: «اعتنِ بنفسك». كان من المفترض أن تتبادل معه أرقام الهواتف، وتتحدث لوقت أطول وتتصرف بكل الطرق المتوقعة. لكن العواطف تعفنت داخلها، ووجدت كِيود مذنبًا لمعرفته بأمر أوبِنز، ولإعادة أوبِنز.

"لقد صادفت لتوي صديقًا قديمًا من نيجيريا، لم أره منذ المدرسة الثانوية".

"أوه حقًا؟ هذا لطيف. هل يعيش هنا؟»

"في واشنطن".

نظر كيرت إليها متوقعًا المزيد، فقد أراد أن يدعو كِيود لتناول شراب معهما، وأن يكون صديقًا لأصدقائها، وأراد أن يكون كريمًا كالعادة. وضايقتها هيئته المترقبة

هذه، لأنها أرادت الصمت، وقد أزعجها المذياع أيضًا. ما الذي سيقوله كِيود لأوبِنز؟ إنها تواعد رجلًا أبيض وسيمًا يقود سيارة بي إم دبليو، وإن شعرها لبدة، وإنها تضع زهرة حمراء خلف أذنها. ما الذي سيفهمه أوبِنز من هذا؟ ماذا كان يفعل في إنجلترا؟ مرت بخاطرها ذكرى واضحة، ليوم مشمس - الشمس مشرقة دومًا في ذكرياتها معه - فتذكرت حين جلب صديقه أوكوديبا جهاز فيديو إلى منزله، وقال أوبِنز «فيلم بريطاني؟ إنها مضيعة للوقت»، لأن الأفلام الأمريكية فحسب هي الجديرة بالمشاهدة بالنسبة له، وها هو الآن في إنجلترا.

نظر كيرت إليها «هل أزعجتك رؤيته؟»

"كلا».

"هل كان خليلًا أو شيئًا من هذا القبيل؟»

"كلا"، قالت وهي تنظر من النافذة.

في وقت لاحق من ذلك اليوم أرسلت رسالة إلى بريد أوبِنز الإلكتروني على الهوتميل: **سيلنغ، لا أدري من أين أبدأ. صادفت كِيود اليوم في المجمع التجاري. أعتذر لأن صمتي يبدو غبيًا حتى لي، لكني أفتقدك.** ولم يرد.

"حجزت تدليكًا سويديًا لك"، قال كيرت.

"شكرًا لك"، ثم أضافت بصوت أخفض لتغطي على ضيقها، «إنك عذب جدًا».

"لا أريد أن أكون عذبًا. أريد أن أكون الحب اللعين لحياتك"، قال كيرت بقوة أربكتها.

الجزء الثالث

الفصل الثالث والعشرون

في لندن، يحل الليل سريعًا، فيتأرجح في هواء الصباح مثل تهديد، ومن ثم يهبط غسق أزرق رمادي عصرًا، وتكتسي كل المباني الفكتورية بهيئة حزينة. في تلك الأسابيع الأولى، فاجأ البردُ أوبِنز بتحذيرات صغيرة، مجففًا منخريه ومضاعفًا قلقه، وجاعلًا إياه يتبول كثيرًا. كان يمشي على الرصيف، منكمشًا بشدة على نفسه، ويداه تغوصان عميقًا في المعطف الذي أعاره إياه ابن خاله؛ المعطف الصوفي الرمادي الذي التهمت أكمامُه أصابعه. كان يقف أحيانًا خارج محطة قطار الأنفاق قرب بائع أزهار أو صحف، ويراقب الناس مندفعين وهم يتجاوزونه. يمشي هؤلاء الناس بسرعة كأن لديهم وجهة هامة وهدفًا لحياتهم، وليس لديه هو. وتتبعهم عيناه بتوق تائه، فيقول في نفسه: يمكنك العمل، وضعك شرعي، أنت مرئي، وأنت لا تدري كم أنت محظوظ.

في محطة قطار الأنفاق التقى بالأنغوليين اللذين سيرتبان زواجه، بعد سنتين وثلاثة أيام بالضبط من وصوله إلى إنجلترا، فقد ظل يحسب الأيام.

"سنتحدث في السيارة"، قال أحدهما قبلًا على الهاتف. كانت سيارتهما المرسيدس السوداء عتيقة الطراز لها هيئة أنيقة، فسجادات الأرضية متموجة من الكنس بالمكنسة الكهربائية، والمقاعد الجلدية تتلألأ من الملمّع. كان الرجلان متشابهين، فلهما حواجب عريضة متلاصقة تقريبًا، رغم أنهما أخبراه أنهما صديقان فقط، ويرتديان الثياب نفسها أيضًا؛ سترتين جلديتين وسلاسل ذهبية واسعة.

أدهشته تسريحتا شعرهما المربعتان اللتان بدتا على رأسيهما مثل قبعتين طويلتين، ولكن ربما كانتا جزءًا من صورتهما الهيب هوبية؛ بأن يكون لهما تسريحتان قديمتان. تحدثا إليه بثقة الناس الذين فعلوا هذا من قبل، وبشيء من الازدراء، فمصيره في أيديهما على أية حال.

قال أحدهما: "لقد قررنا الذهاب إلى نيوكاسل لأننا نعرف أناسًا هناك، ولأن لندن تغلي في هذا الوقت، إن الكثير من الزواجات تعقد في لندن، أجل، ولذا لا نريد متاعب. سيجري كل شيء على ما يرام. احرص على البقاء هادئًا فحسب، حسن؟ لا تلفت الانتباه لنفسك حتى يعقد القران. ولا تتشاجر في الحانة، حسن؟»

"لم أكن يومًا معاركًا جيدًا"، قال أوبِنز مداعبًا، لكن الأنغوليين لم يبتسما.

"لديك المال؟"، سأل الآخر.

مد أوبِنز مئتي جنيه، كلها أوراق من فئة العشرين جنيهًا التي سحبها من آلة النقد على مدار يومين. وهذا عربون لإثبات جديته، وسيدفع ألفي جنيه لاحقًا عندما يرى الفتاة.

"يجب أن يكون الباقي مقدمًا، تمام؟ سندفع بعضه لإنجاز الإجراءات ويذهب الباقي إلى الفتاة. أنت تعرف يا رجل أننا لا نستفيد شيئًا من هذا. نطلب عادة أكثر لكننا نفعل هذا من أجل إيوبا»، قال الأول.

لم يصدقهما أوبِنز حينئذ. التقى الفتاة كليوتايد، بعد بضعة أيام، في مركز التسوق في مطعم ماكدونالد الذي تطل نوافذه على المدخل البارد لمحطة قطار الأنفاق في الشارع المقابل. جلس إلى الطاولة مع الأنغوليين، مراقبًا الناس المارين بعجلة، ومتسائلًا أيها هي، حين كان كلا الأنغوليين يهمس في هاتفه، ولعلهما يرتبان زواجات أخرى.

"مرحبًا!"، قالت.

لقد فاجأته، فقد توقع امرأة ذات بثور تغطيها زينة كثيفة؛ امرأة قوية وخبيرة. لكن ها هي، ساذجة وغرة، وتضع نظارات ولها بشرة زيتونية طفولية، وتبتسم بحياء له وتمص الحليب المخفوق من قصبة شرب، فبدت مثل طالبة جامعة مستجدة بريئة أو غبية أو كليهما.

"أودّ أن أعرف إن كنت واثقة من رغبتك بفعل هذا"، قال لها. ثم، أضاف بعد شعوره بالقلق من احتمال إخافتها «أنا ممتن جدًا، ولن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا منك، إذ سأحصل على وثائقي في غضون سنة وسنبدأ إجراءات الطلاق. لكني أردت لقاءك أولًا والتأكد من أنك لا تمانعين فعل هذا».

"أجل"، قالت.

نظر إليها متوقعًا أكثر. لعبت بالقصبة بحياء، دون النظر في عينيه، واستغرق منه الأمر وهلة ليدرك أن ردة فعلها هذه كانت بسببه أكثر منها بسبب الوضع، فقد انجذبت له.

"أريد أن أساعد أمي، فالأمور سيئة في الديار"، قالت وقد كسا كلماتها أثر من لكنة غير بريطانية.

"إنها معنا، أجل"، قال أحد الأنغوليين بنفاد صبر، كأن أوبِنز تجرأ على الشك بما قالاه له.

"أريه تفاصيلك يا كليو"، قال الرجل الآخر.

بدت دعوته لها بِاسم كليو زائفة، وشعر أوبِنز من الطريقة التي قالها ومن الطريقة التي سمعتها، بشيء من الدهشة على وجهها. كانت حميمية مصطنعة، فلم يدعها الأنغولي كليو من قبل. ولعله لم يسمِّها بشيء من قبل، فتساءل أوبِنز كيف تعرف إليها الأنغوليان. هل لديهما قائمة بالشابات صاحبات جواز الاتحاد الأوروبي المعوزات ؟ أرجعت كليوتايد شعرها، بخصله القوية الكثيرة، وعدلت نظارتها، كأنها تحضر نفسها أولًا قبل إخراج جوازها ورخصتها. تفحصهما أوبِنز، وقد ظنها أصغر من ثلاثة وعشرين عامًا.

"هل يمكنني أخذ رقم هاتفك ؟"، سأل أوبِنز.

"اتصل بنا فقط من أجل أي شيء"، قال الأنغوليان، في الوقت نفسه تقريبًا. لكن أوبِنز كتب رقمه على منديل ودفعه إليها. نظر إليه الأنغوليان نظرة خبيثة. لاحقًا، على الهاتف قالت له إنها تعيش في لندن منذ ست سنوات وتدخر المال لارتياد مدرسة تصميم الأزياء، رغم أن الأنغوليين أخبراه أنها عاشت في البرتغال.

سألها: "هل تودين أن نلتقي؟ سيكون الأمر أسهل بكثير إن تعرفنا على

بعضنا قليلًا».

"أجل"، قالت بلا تردد.

تناولا السمك ورقائق البطاطا في حانة، غطت فيها طبقة رقيقة من السخام جانبي الطاولة الخشبية، حين تحدثت عن حبها للأزياء وسألته عن ثيابه النيجيرية التقليدية. وبدت أكثر نضجًا بقليل، وقد لاحظ اللمعان على خديها، والتجعيدات الأكثر دقة لشعرها، وعرف أنها بذلت مجهودًا في زينتها.

"ما الذي ستفعله بعد الحصول على أوراقك؟ هل ستجلب حبيبتك من نيجيريا؟»، سألته.

أعجبه وضوحها، «ليس لدي حبيبة».

"لم أذهب يومًا إلى إفريقيا، وأود الذهاب"، ونطقت "إفريقيا" بحزن، مثل غريب معجب يثقل الكلمات بحماس غريب.

أخبرته أن أباها الأنغولي الأسود ترك أمها البرتغالية البيضاء حين كان عمرها ثلاث سنوات، ولم تره منذئذٍ، ولا ذهبت إلى أنغولا. قالت هذا بهزة من كتفيها ورفعٍ ساخر لحاجبيها، كأن الأمر لا يزعجها، وبدت محاولتها مصطنعة جدًا، ومزعجة جدًا بحيث أظهرت كم ضايقها ذلك بعمق. ثمة صعوبات في حياتها أراد أن يعرف عنها أكثر، وتاق للمس أجزاء من قوامها ذي المنحنيات، لكنه كان حذرًا من تعقيد الأمور. وسينتظر حتى إتمام الزواج، وحتى ينتهي الجانب التجاري من علاقتهما. بدا أنها تفهم هذا دون التحدث عنه. وراودهما إلحاح متنامٍ للرغبة المكبوتة بينهما في لقاءاتهما في الأسابيع التالية، وهما يتمرنان على إجابتهما عن الأسئلة أثناء مقابلتهما في دائرة الهجرة، وفي أحيان أخرى يتحدثان عن كرة القدم. فراودهما إلحاح الرغبة في وقوفهما قريبين من بعضهما، دون لمسات، وهما ينتظران في محطة قطار الأنفاق، وفي إغاظة بعضهما حول تشجيعه لنادي أرسنال وتشجيعها لنادي مانشستر يونايتد، في نظراتهما المتلهفة. وبعد أن دفع ألفي جنيه للأنغوليين نقدًا، أخبرته أنهما أعطياها خمسمئة فقط.

"أنا أعلمك فقط. أعلم أنك لا تملك مالًا أكثر. أردت أن أفعل هذا من أجلك»، قالت.

نظرت إليه، وعيناها تفيضان بأشياء لم تقل، وجعلته يشعر بالكمال ثانية، جعلته يشعر بلهفته لأمر بسيط ونقي. أراد تقبيلها، بشفتها العليا التي فاقت السفلى توردًا ولمعانًا بفضل ملمع الشفاه، وأن يحضنها، وأن يعبر لها عن امتنانه العميق غير المحدود. لم تكن لتضاعف أوجاعه يومًا، أو تلوح بسلطتها في وجهه، كما فعلت امرأة من أوروبا الشرقية إذ طلبت من الرجل النيجيري قبل ساعة من عقد قرانهما في المحكمة، أن يعطيها ألف جنيه إضافية وإلا رحلت، فبدأ الرجل يتصل بكل أصدقائه لجمع المال مذعورًا، كما أخبره إيوبا.

"قدمنا لك صفقة جيدة يا رجل"، كان كل ما قاله أحد الأنغوليين حين سأل أوبِنز كم أعطيا كليوتايد، بنبرتهما تلك، نبرة الأشخاص الذين يعرفون حجم الطلب عليهما. وعلى أية حال هما من أخذه إلى مكتب محامٍ نيجيري ذي صوت خفيض يجلس على كرسي دوار، منزلقًا للوراء للوصول إلى خزانة ملفات حين قال «ما زال بإمكانك الزواج حتى إن انتهت تأشيرتك. الزواج هو خيارك الوحيد في الحقيقة». وهما من جلب فواتير الماء والوقود، تعود إلى ستة أشهر للوراء، باسمه وبعنوان في نيوكاسل، وهما من عثر على رجل «يرتب" أمر رخصة القيادة له، رجل غامض يدعى براون. التقى أوبِنز ببراون في محطة قطار الأنفاق في باركينغ، ووقف قرب البوابة حسب الاتفاق، وسط حركة الناس، ناظرًا حوله ومنتظرًا رنين هاتفه، لأن براون رفض إعطاءه رقم هاتفه.

"هل تنتظر أحدًا؟"، وقف براون هناك، وكان رجلًا نحيلًا ينزل قبعته الشتوية حتى غطت حاجبيه.

"أجل، أنا أوبِنز"، قال، شاعرًا أنه شخصية في رواية جاسوسية مضطر للحديث بشفرة سخيفة. أخذه براون إلى ركن أهدأ، وسلمه مظروفًا فيه رخصته بصورته والمظهر الأصلي الرث قليلًا لشيء تعود ملكيته إلى عام. كانت بطاقة بلاستيكية رشيقة، غير أن لها ثقلها في جيبه. بعد أيام دخل بها إلى مبنى مهيب ذي برج في لندن، بدا من الخارج مثل كنيسة، لكنه قذر متهالك مكتظ بالناس. كُتبت الاتجاهات على الألواح بخط رديء: الولادات والوفيات من هذا الاتجاه، تسجيل الزواج هذا الاتجاه. سلم أوبِنز، ووجهه جامد من الحيادية، رخصة القيادة لموظف

التسجيل خلف المكتب.

كانت امرأة تسير باتجاه الباب، وتتحدث بصوت عالٍ لرفيقتها "انظري إلى ازدحام المكان. كلها زواجات زائفة، كلها، إن بلانكت يلاحقهم الآن".

ربما جاءت لتسجيل وفاة، فقالت كلماتها بدافع هجمة الحزن التي يشعر بها الوحيد، لكنه شعر بالضيق المعتاد بسبب الهلع في صدره. تفحص موظف التسجيل رخصته، مستغرقًا وقتًا طويلًا، استطالت الثواني وتكثفت، ورنت عبارة **كلها زواجات زائفة**، في رأس أوبنز. رفع موظف التسجيل نظره أخيرًا ودفع إليه استمارة.

"ستتزوج أليس كذلك؟ تهانينا!"، خرجت الكلمات ببهجة آلية من الترديد المتواصل.

"شكرًا لك"، قال أوبنز، وحاول أن يُلين ملامحه.

كان خلف المكتب لوح أبيض معلقًا على الجدار، كتبت عليه أماكن الزواجات القادمة ومواعيدها باللون الأزرق، ولفت نظره اسم في أسفلها، أوكالي أوكافور وكريستال سميث. كان أوكالي كافور زميله في المدرسة الثانوية والجامعة، ولد هادئ يتعرض للسخرية لأنه يتسمى باسم عائلة، وانضم لاحقًا إلى جماعة فاسدة في الجامعة، ومن ثم ترك نيجيريا أثناء واحد من الإضرابات الطويلة. وها هو الآن، طيف اسم، سيتزوج في إنجلترا. ربما كان زواجًا من أجل الوثائق أيضًا. أوكالي أوكافور، الذي يسميه الجميع في الجامعة بأوكالي باباراتزي. فقد تجمع عدد من الطلاب قبل محاضرة، يتحدثون عما سمعوه في الإذاعة ذلك الصباح مرددين «باباراتزي" مرة بعد مرة، وبدوا كلهم عارفين وواثقين. وفي لحظة صمتهم سأل أوكالي أوكافور بهدوء «لكن من هم الباباراتزي بالضبط؟ هل هم سائقو دراجات نارية؟"، وسرعان ما تسبب لنفسه بالاسم المستعار أوكالي باباراتزي.

أخذت الذكرى الواضحة أوبنز مثل شعاع ضوء إلى وقت لم يزل فيه يؤمن بأن الكون سيخضع لإرادته، وخيمت عليه الكآبة وهو يغادر المبنى. مرة أثناء سنته الأخيرة في الجامعة، في السنة التي رقص الناس فيها في الشوارع لأن الجنرال أباتشا مات، قالت أمه «سأنظر يومًا ما وسأجد كل الأشخاص الذين أعرفهم إما ماتوا أو هاجروا». تحدثت بوهن وهما يجلسان في غرفة معيشتهما يتناولان الذرة المسلوقة

والبطاطا الحلوة، فأحس في صوتها بحزن الانهزام، كأن أصدقاءها الذين سافروا لمناصب تدريس في كندا وأمريكا قد أثبتوا لها إخفاقها الشخصي الكبير. للحظة شعر أنه أيضًا خانها بخططه، في الحصول على شهادة الدراسات العليا من أمريكا، والعمل في أمريكا والعيش في أمريكا. كانت خطة أعدها منذ زمن طويل، وعرف طبعًا مدى لا عقلانية السفارة الأمريكية- رُفض منح نائب الرئيس مرة، من بين كل الناس، تأشيرة لحضور مؤتمر- لكنه لم يشك بخطته أبدًا. تساءل لاحقًا ما الذي جعله شديد الثقة، ربما لأنه لم يرغب بالاغتراب فحسب كما فعل الكثيرون، وقد سخر من توجه بعض الناس نحو جنوب إفريقيا. لقد كانت أمريكا، أمريكا على الدوام. ذلك توق رباه وغذاه على مدى سنوات عديدة، ومنح الإعلان على شبكة التلفزيون النيجيرية عن أندرو تشيكنغ أوت الذي شاهده في صغره، شكلًا لتوقه، إذ يقول البطل أندرو "أنا راحل يا رجال"، ثم يواصل ناظرًا إلى الكاميرا بثقة «لا طرق جيدة ولا كهرباء ولا مياه. يا رجال، لا يمكنكم الحصول حتى على زجاجة مشروبات غازية!" حين غادر آندرو كان جنود الجنرال بخاري يجلدون البالغين في الشوارع، وأضرب المحاضرون من أجل أجور أفضل، وقررت أمه أنه لن يشرب الفانتا كلما أراد إلا في أيام الأحد وبإذن منها. وهكذا صارت أمريكا مكانًا يمكنه فيه شرب زجاجات وزجاجات من الفانتا، دون إذن. كان يقف أمام المرآة ويردد كلمات آندرو «يا رجال، أنا مغادر!" واكتسى توقه بسمة غامضة قليلًا وصارت أمريكا المكان الذي قدر له أن يكون فيه في وقت لاحق، وهو يبحث عن مجلات وكتب وأفلام وكتب مستعملة عن أمريكا. رأى نفسه يسير في شوارع هارلم، مناقشًا مزايا مارك توين مع أصدقائه الأمريكيين، محدقًا بماونت رشمور. فتقدم بعد أيام من تخرجه من الجامعة، وقد أتخمته معرفته عن أمريكا، للحصول على تأشيرة من السفارة الأمريكية في ليغوس. لقد عرف من قبل أن أفضل موظفي المقابلة رجل ذو لحية شقراء، وكلما تقدم في الطابور، تمنى ألا تقابله امرأة بيضاء تمامًا مثل قصص الرعب معروفة بصراخها في مكبر الصوت وتهين الجميع حتى الجدات. جاء دوره أخيرًا وقال الرجل ذو اللحية الشقراء «التالي!". دخل أوبِنز ومرر أوراقه تحت الزجاج، فنظر الرجل إلى الاستمارات وقال بلطف «آسف، لست مؤهلًا. الشخص التالي!". ذهل أوبِنز، فذهب ثلاث مرات أُخَر في الأشهر القليلة

اللاحقة، وفي كل مرة يقال له دون النظر إلى وثائقه «آسف، لست مؤهلًا». وفي كل مرة يخرج من مبنى السفارة المكيف بالهواء البارد إلى ضوء الشمس القاسي، مذهولًا وغير مصدق.

قالت أمه: "إنه الخوف من الإرهاب، والأمريكيون الآن عدائيون مع الأجانب الشباب».

قالت له أن يعثر على عمل ويحاول ثانية في غضون عام. ولم تثمر طلبات العمل شيئًا. وسافر إلى ليغوس وبورت هاركورت وأبوجا لاجتياز امتحانات تقييم، وجدها سهلة، وذهب للمقابلات مجيبًا عن الأسئلة بطلاقة، ثم تبعها صمت طويل فارغ. لقد حصل بعض الأصدقاء على عمل، وهم أشخاص لم يحرزوا تقديره 'جيد جدًا مرتفع'، ولا يتحدثون بطلاقة مثله. تساءل إن أمكن لأصحاب العمل أن يشموا في أنفاسه ارتباطه بأمريكا، أو أحسوا ببحثه على المواقع الإلكترونية للجامعات الأمريكية بهوس. كان يعيش مع أمه ويقود سيارتها، وينام مع طلاب صغار يسهل قيادهم، ويتصفح شبكة الإنترنت طوال الليل في مقهى الإنترنت مع مميزات دائمة، ويمضي أيامًا أحيانًا في غرفته يقرأ ويتجنب أمه. لم يعجبه هدوؤها المبتهج الطيب، وكم تحاول جاهدة أن تكون إيجابية قائلة له إن الرئيس أوباسانجو تسلم السلطة، وستتغير الأمور، وبدأت شركات الهواتف النقالة والمصارف تتزايد وتوظف، وتعطي الشباب قروضًا للسيارات. ورغم ذلك تركته وشأنه معظم الوقت، فلم تقرع بابه، وطلبت من العاملة المنزلية آغنس أن تترك بعض الطعام في القدر من أجله، وأن تنظف الصحون الوسخة من غرفته. ذات يوم تركت له ملاحظة على حوض مغسلة الحمام: لقد دعيت إلى مؤتمر أكاديمي في لندن؛ علينا أن نتحدث. كان مرتبكًا، حين عادت إلى البيت من محاضرتها، فانتظرها في غرفة المعيشة.

"أهلًا يا أمي"، قال.

ردت على تحيّته بإيماءة ووضعت حقيبتها على طاولة بينهما، وقالت بهدوء "سأضع اسمك على طلب تأشيرتي البريطانية بوصفك مساعدي في البحث. سيمنحك هذا تأشيرة لستة أشهر. يمكنك الإقامة مع نيكولاس في لندن، فانظر ما الذي تود فعله في حياتك. ربما يمكنك الذهاب إلى أمريكا من هناك. أعلم أن عقلك لم يعد هنا».

نظر إليها.

"أعلم أن أمورًا مماثلة تحدث هذه الأيام»، قالت جالسة على الأريكة بجانبه، محاولة أن تبدو غير مبالية، لكنه شعر بضيقها في الحيوية غير المعتادة لكلماتها. لقد كانت من جيل المرتبكين الذين لم يعرفوا ماذا حدث لنيجيريا لكنهم سمحوا لأنفسهم بالانغماس. كانت امرأة كتومة ولا تطلب معروفًا من آخرين؛ امرأة لا تكذب ولا تقبل حتى بطاقة عيد الميلاد من طلابها لأن هذا قد يعرضها للشبهة، وتحسب كل كوبو ينفق في أي لجنة كانت عضوة فيها، وها هي تتصرف كأن قول الحقيقة صار رفاهية لا يمكنهما احتمالها بعد الآن. لقد كان الأمر متعارضًا مع كل ما علمته إياه، غير أنه عرف أن الحقيقة قد أصبحت رفاهية فعلًا في وضعهما. لقد كذبت من أجله، ولو كذب أي شخص آخر من أجله، لما بدا الأمر مهمًا هكذا أو لن يكون مهمًا مطلقًا، لكنها كذبت من أجله وحصل على تأشيرة ستة أشهر إلى المملكة المتحدة وشعر بالفشل حتى قبل مغادرته. لم يتصل بها منذ أشهر، لم يتصل بها لأنه ليس لديه ما يخبرها به. كان في إنجلترا منذ ثلاث سنوات وتحدث إليها بضع مرات فقط في مكالمات محدودة؛ تخيلها تتساءل أثناءها لمَ لم يفعل شيئًا لنفسه. لكنها لم تسأله عن تفاصيل مطلقًا، وانتظرت فقط لتسمع ما يرغب بإخبارها. لاحقًا، حين عاد للديار، شعر بالقرف من لهوه وعماه عنها، وقضى وقتًا كثيرًا معها، مصممًا على إصلاح علاقتهما القديمة واستعادتها، لكن عليه أولًا أن يحاول رسم خريطة لحدود جفوتهما.

الفصل الرابع والعشرون

سخر الجميع من الأشخاص الذين يسافرون للخارج لتنظيف المراحيض. وهكذا بدأ أوبِنز عمله الأول بسخرية، فقد كان مغتربًا لتنظيف المراحيض فعلًا، يرتدي قفازات مطاطية ويحمل دلوًا، في مكتب وساطة عقارية في الطابق الثاني من بناية في لندن. يبدو الباب المتأرجح للمقصورة كأنّه يتنهّد كلّما فتحه. كانت المرأة الجميلة التي تنظف مراحيض النساء من غانا، في عمره تقريبًا، تتحلى بالبشرة الداكنة الأكثر إشراقًا بين ما رآه في حياته كلّها. غير أنه شعر من طريقة كلامها ومشيتها، وخلفيتها التي تشبه خلفيته من الطفولة التي تعيلها الأسرة، والوجبات المنتظمة، والأحلام التي ليس فيها تصور لتنظيف المراحيض في لندن. تجاهلت إيماءاته الودودة، مكتفية فقط بعبارة «صباح الخير" جافة بقدر استطاعتها، لكنها ودودة مع المرأة البيضاء التي تنظف المكاتب في الأعلى، ورآهما مرة في مقهى مهجور تشربان الشاي وتتحدثان بأصوات خفيضة. وقف مراقبًا إياهما لوهلة، وقد أخذ غضب كبير يفجر عقله. فليس معنى ذلك أنها لم ترغب بالصداقة، بل بأنها بالأحرى لم ترغب بصداقته . ربما كانت الصداقة مستحيلة في ظروفهما الحالية لأنها من غانا وهو نيجيري قريب مما كانت عليه، ويعرف تفاصيلها، في حين أنها حرة بإعادة ابتكار نفسها أمام المرأة البولندية، وأن تكون ما أرادته أيًا يكن.

لم تكن المراحيض سيئة؛ بعض البول خارج المبولة، دفْع سيفون غير

مكتمل، وبدا تنظيفها أسهل مما عاناه عمال التنظيف لمراحيض الجامعة في نسوكا، وخطوط من الغائط تلوث الجدران مما جعله يتساءل دومًا لم قد يتكبد شخص كل هذا العناء. ولذا ذهل ذات مساء عندما دخل مقصورة واكتشف كومة غائط على غطاء المرحاض، صلبة مستدقة في وسط الغطاء، كأنها رتبت بعناية وقد درست البقعة بدقة، وبدت مثل جرو يلتف على بساط. كانت استعراضًا. وفكر بجفاء الإنجليز الشهير، فقد قالت زوجة ابن خاله أوجيوغو مرة «يسكن الإنجليز إلى جوارك لسنوات لكنهم لن يحيوك أبدًا. يبدو الأمر وكأنهم قد أخرسوا أنفسهم". لكن في هذا الاستعراض رسالة ما، أهو شخص فُصل من عمله؟ رُفض منحه علاوة؟ نظر أوبِنز إلى كومة الغائط لوقت طويل، شاعرًا بالضآلة أكثر وأكثر وهو ينظر، حتى صارت إهانة شخصية، ولكمة على فكه. وكل ذلك من أجل ثلاثة جنيهات في الساعة. فخلع قفازيه، ووضعهما قرب كتلة الغائط، وغادر المبنى. تلقى ذلك المساء رسالة إلكترونية من إفيملو: سيلنغ، **لا أدري كيف أبدأ. صادفت كِيود اليوم في المركز التجاري. أعتذر لأن صمتي يبدو غبيًا حتى لي لكني آسفة جدًا وأشعر بالغباء جدًا. سأخبرك بكل ما حدث. اِفتقدتك وأفتقدك.**

حدق بالرسالة. فسماع أخبارها هو ما تلهف له لوقت طويل. انتابه القلق والأرق لأسابيع حين توقفت عن التواصل معه في بادئ الأمر، وهو يتجول في المنزل منتصف الليل، متسائلًا عما حدث لها. لم يتشاجرا، وكان حبهما براقًا كالعادة، وخطتهما لم تفسد، وفجأة ساد صمت من طرفها، صمت قاس وكامل. اتصل واتصل حتى غيرت رقمها، وأرسل لها رسائل إلكترونية، واتصل بأمها، والعمة أوجو وجينيكا. كانت نبرة جينيكا حين قالت «تحتاج إفيم بعض الوقت، أظنها مصابة باكتئاب"، مثل ثلج ضغط على جسده. لم تكن إفيملو معاقة أو عمياء جراء حادث، ولا تعاني فجأة من فقدان الذاكرة، بل تتواصل مع جينيكا وأشخاص آخرين لكن ليس هو. لم ترغب باستمرار التواصل معه، فكتب لها رسائل إلكترونية، طالبًا منها أن تخبره السبب على الأقل، وما الذي حدث. وسرعان ما أخذت رسائله تعود إليه، دون تسليم. لقد أغلقت حسابها، فافتقدها، واشتاق إليها اشتياقًا مزقه عميقًا. واستاء منها، وتساءل على الدوام ما الذي حدث. ثم تغير وانطوى على نفسه أكثر. كان بدوره

مشتعلًا بالغضب ومنهكًا من الحيرة، ومنكمشًا من الحزن.

وها هي رسالتها الآن. كانت نبرتها هي نفسها، كأنها لم تجرحه ولم تتركه ينزف لأكثر من خمس سنوات. لماذا تكتب له الآن؟ ما الذي يمكنه إخبارها به، أنه ينظف المراحيض وقد صادف اليوم برازًا مكومًا؟ كيف عرفت أنه مازال على قيد الحياة؟ ربما مات أثناء صمتهما ولم تكن لتعرف. غمره إحساس غاضب بالخيانة، فضغط على زر الحذف وتفريغ سلة المهملات.

—

كان لابن خاله وجه ملغّد مثل وجه كلب بلدغ، إلا أنه استطاع بطريقة ما أن يكون جذابًا جدًا، أو ربما لم تكن ملامحه هي التي تجذب بل هالته، فقد كان طويلًا عريض الكتفين ويتمتع برجولة فياضة. في نسوكا، كان الطالب الأكثر شعبية في الجامعة، وقد ركن سيارة الخنفساء البالية من طراز فولكس فاغن خارج مقصف البيرة فتمنح الشاربين هناك زهوًا ساذجًا. تشاجرت فتاتان جذابتان علانية من أجله في بيلو هوستل، ممزقتين ثياب بعضهما، لكنه ظل حرًا بخبث حتى التقى أوجيوغو. كانت الطالبة المفضلة لدى أم أوبِنز، والوحيدة الجيدة لتكون مساعدة باحث. وقد مرت بمنزلهم ذات أحد لتناقش كتابًا، ومر نيكولاس أيضًا في عادته الأسبوعية لتناول أرز الأحد. وضعت أوجيوغو أحمر شفاه برتقالي وارتدت سروال جينز ممزق وتحدثت بصراحة، ودخنت في العلن، محرضة النميمة الخبيثة، واستياء الفتيات الأخريات، لا لفعلها هذه الأمور، بل لأنها تجرأت على فعل ذلك دون أن تسافر للخارج، أو أن يكون لها أب أجنبي، تلك الصفات التي قد تجعلهن يغفرن لها افتقارها للامتثال. تذكر أوبِنز انصرافها عن نيكولاس في البداية متجاهلة إياه، وهو يتحدث أكثر وأكثر بصوت عالٍ، لأنه لم يعتد تجاهل الفتيات. لكنهما في النهاية غادرا معًا في سيارته الفولكس فاغن. كانا يتجولان في أنحاء الجامعة بهذه الفولكس فاغن، فتقود أوجيوغو وذراع نيكولاس تتدلى من النافذة الأمامية، والموسيقى تهدر، والمنعطفات تأخذها بحدة، أو يرافقهما صديق يجلس في صندوق السيارة الأمامي المفتوح. كانا يدخنان ويشربان في العلن معًا، وشكلا أسطورتين جذابتين. وقد شوهدا مرة في مقصف البيرة، إذ ارتدت أوجيوغو قميص نيكولاس العريض الأبيض ولا شيء تحته، ونيكولاس يرتدي سروالًا

من الجينز ولا شيء فوقه. «الأمور صعبة، لذا نتقاسم طقمًا واحدًا"، قالا للأصدقاء بلا اكتراث.

لم يفاجأ أوبِنز بأن نيكولاس قد فقد سخطه اليافع،بل فاجأه فقدانه لأصغر ذكرى منه. كان نيكولاس، الزوج والأب، صاحب منزل في إنجلترا يتحدث بجدية عدائية بدت هزلية قليلًا. قال له نيكولاس: "إن جئت إلى إنجلترا بتأشيرة لا تسمح لك بالعمل، فليس الماء أو الطعام هو أول ما تبحث عنه، بل رقم التأمين الوطني لتتمكن من العمل. اقبل بكل الوظائف التي تستطيع، ولا تنفق شيئًا. تزوج بامرأة من الاتحاد الأوروبي واحصل على وثائقك. ثم يمكن لحياتك أن تبدأ». بدا أن نيكولاس شعر أنه أدى دوره، وألقى كلمات حكيمة، وفي الأشهر التالية، نادرًا ما تحدث إلى أوبِنز على الإطلاق. بدا الأمر كأنه لم يعد ابن الخال الكبير الذي عرض على أوبِنز، في عمر الخامسة عشرة سيجارة ليجربها، ومن رسم رسمًا توضيحيًا على قطعة ورق ليري أوبِنز ماذا يفعل حين تكون أصابعه بين ساقي فتاة. في نهايات الأسبوع، يمشي نيكولاس في أنحاء المنزل بغيمة كثيفة من الصمت، راعيًا مخاوفه. ويسترخي قليلًا عند مشاهدته مباريات أرسنال فقط، حاملًا علبة من ستيلا أرتيوس، هاتفًا «هيا يا أرسنال!"مع أوجيوغو وأطفالهما ننا ونني، ثم يتصلب وجهه ثانية بعد المباراة. كان يعود من العمل ويعانق أطفاله وأوجيوغو ويسأل «كيف حالكم؟ ماذا فعلتم اليوم يا قوم؟". وتعدد أوجيوغو ما فعلوه؛ من دروس تشيلو وبيانو وكمان، وواجبات منزلية وبرنامج كيومن[52]. "نني تتحسن حقًا في قراءتها المنظورة"، تضيف أو تقول «ننا مهمل في الكيومن ولديه خطآن»، فيمدح نيكولاس كل طفل أو يوبخه. ولننا وجه لحيم مثل وجه كلب البلدغ، أما نني فلها جمال وجه أمها الداكن العريض. تحدث إليهما بالإنجليزية فقط، إنجليزية حذرة، كأنما ظن أن الإيبو التي يتحدث بها مع أمهما قد تعديهما، وتجعلهما ربما يفقدان لكنتهما البريطانية النفيسة. ثم يقول «أحسنت يا أوجيوغو. أنا جائع».

"حاضر يا نيكولاس».

---

52) برنامج تعليمي لكنه في الأساس طريقة يابانية لتعليم الحساب والقراءة للطلاب الصغار، أسسه تورو كيومن.

كانت تقدم طعامه في صحن على صينية تأخذ له في مكتبه، أو أمام التلفاز في المطبخ. تساءل أوبِنز دومًا إن كانت تنحني حين تضعها، أو أن الانحناء في هيئتها فحسب، في هبوط كتفيها وانحناءة عنقها. تحدث إليها نيكولاس بالنبرة نفسها التي يتحدث بها إلى أطفاله، ومرة سمعه أوبِنز يقول «لقد أفسدتم مكتبي يا قوم، والآن غادروا مكتبي من فضلكم، كلكم».

"أجل يا نيكولاس"، قالت واصطحبت الطفلين للخروج. "حاضر يا نيكولاس"، هي إجابتها على كل شيء يقوله تقريبًا. أحيانًا، من وراء نيكولاس، تلتقي عينيها بعيني أوبِنز فتصنع وجوهًا مضحكة، نافخة خديها في بالونات صغيرة، أو مخرجة لسانها من زاوية فمها. ويذكّر هذا أوبِنز بالبهرجة السقيمة لأفلام نوليوود.

"أظل أتذكر كيف كنتما أنت ونيكولاس في نسوكا»، قال أوبِنز بعد الظهيرة يومًا، وهو يساعدها في تقطيع دجاجة.

"يا إلهي! هل تعرف أننا اعتدنا أن نتضاجع علنًا؟ فعلنا ذلك في مسرح الفنون، وحتى في مبنى الهندسة عصر يوم ما، في زاوية هادئة من الممر!"، ضحكت، "إن الزواج يغير الأمور. لكن هذا البلد ليس سهلًا. حصلت على أوراقي فقط لأنني درست الدراسات العليا هنا، لكنك تعرف أنه حصل على أوراقه قبل عامين فقط، وكان يعيش في خوف لوقت طويل، فعمل بأسماء أشخاص آخرين. يمكن لهذا الشيء أن يفعل الأعاجيب بعقلك، حقًا. لم يكن الأمر سهلًا عليه أبدًا. العمل الذي يعمل به الآن جيد جدًا لكنه بالتعاقد، ولا يعرف أبدًا إن كانوا سيجددونه له. حصل على عرض جيد في إيرلندا، كما تعرف فإيرلندا تزدهر حقًا الآن، وينجح مبرمجو الحاسوب هناك، لكنه لا يريدنا أن ننتقل هناك. إن تعليم الأطفال أفضل هنا».

انتقى أوبِنز بعض زجاجات التوابل من الخزانة، وذرها على الدجاجة، ووضع القدر على الموقد.

"هل تضع جوزة الطيب على الدجاج؟"، سألت أوجيوغو.

"أجل"، قال أوبِنز، «ألا تفعلين؟»

"أنا؟ وما الذي اعرفه أنا؟ من ستتزوج بك ستكون كمن ربح اليانصيب بصراحة. بالمناسبة ما الذي قلت إنه حدث بينك وبين إفيملو؟ لقد أحببتها كثيرًا».

"ذهبت إلى أمريكا، وفتحت عينيها ونسيتني».

ضحكت أوجيوغو.

رنّ الهاتف. وفي كل مرة يرن فيها الهاتف، يحتل صدر أوبِنز هلع معتدل، لأنه تمنى دومًا أن يتلقى اتصالًا من شركة التوظيف، وتقول أوجيوغو «لا تقلق. يا زد، ستسير الأمور على ما يرام معك. انظر إلى صديقتي بوز، هل تعلم أنها قدمت لتسكن في ملجأ، ورفضت ورأت الجحيم قبل أن تحصل على أوراقها أخيرًا؟ وها هي الآن تملك حضانتين ولديها منزل عطلات في أسبانيا. سيحدث ذلك لك، لا تقلق. ستكون الأمور على ما يرام". ثمة تأكيد باهت وطريقة آلية في التعبير عن النية الطيبة التي لا تتطلب أي جهود حقيقية من جانبها لمساعدته. فيتساءل أحيانًا، دون استياء، إن كانت حقًا تريد له أن يحصل على عمل، لأنه لن يتمكن من رعاية الأطفال حين تخرج إلى تيسكو لشراء الحليب، ولن يستطيع إعداد فطورهم أثناء إشرافها على تمرينهم قبل المدرسة، نني على البيانو أو الكمان وننو على التشيلو. ثمة شيء في تلك الأيام سيفتقده أوبِنز؛ دهن الخبز بالزبدة في الضوء الشاحب للصباح حين تنساب أصوات الموسيقى في البيت، وأحيانًا صوت أوجيوغو أيضًا، يرتفع بالثناء أو بالسخط قائلة «أحسنت! حاولي مرة أخرى!"، أو"أي هراء هذا الذي تفعله؟"

حين جلبت أوجيوغو الأطفال من المدرسة في وقت لاحق من بعد الظهيرة تلك، قالت لننا «أعد عمك أوبِنز الدجاج».

"شكرًا لك لمساعدة أمي يا عمي، لكني لا أظن أنني سأتناول الدجاج»، كان له أسلوب أمه اللعوب.

قالت أوجيوغو: "انظر إلى هذا يا ولد، إن عمك يطهو أفضل مني».

دوّر ننا عينيه «حسن يا أمي، كما ترين، هل يمكنني مشاهدة التلفاز عشر دقائق فقط؟»

"حسن، عشر دقائق".

كانت استراحة نصف الساعة بعد أداء فروضهما المنزلية، وقبل وصول مدرس الفرنسية، وأوجيوغو تعد شطائر المربى، وتقطع قشرة الخبز بعناية. أدار ننا التلفاز، إلى حفلة موسيقية لرجل يرتدي الكثير من السلاسل الكبيرة اللامعة حول عنقه.

"كنت أفكر بهذا يا أمي، أريد أن أكون مغني راب»، قال ننا.

"لا يمكنك أن تكون مغني راب يا ننا".

"لكني أريد ذلك يا أمي».

"لن تكون مغني راب يا عزيزي. لم نأت إلى لندن لتصبح مغني راب"، واستدارت إلى أوبنز كاتمة ضحكة، «هل رأيت هذا الولد؟»

دخلت ني المطبخ تحمل عصير كابري سن، «أمي هل يمكنني أخذ واحدة لو سمحت؟»

"أجل يا ني"، قالت والتفتت نحو أوبنز ورددت كلمات ابنتها بلكنة بريطانية مبالغة، «أمي هل يمكنني أخذ واحدة لو سمحت؟ هل ترى كم تبدو أنيقة؟ ها! سيكون لابنتي شأن، هذا هو سبب ذهاب كل أموالنا إلى مدرسة برنتوود». منحت أوجيوغو ني قبلة عالية على جبينها وأدرك أوبنز، وهو يراقبها تملس ضفيرة ضالة على رأس ني بكسل، أن أوجيوغو شخص قانع تمامًا. ثم طبعت قبلة أخرى على جبين ني، «كيف تشعرين أوينيا؟"سألت.

"بخير يا أمي".

"تذكري غدًا ألا تقرئي السطر الذي طلبوا منك قراءته فقط. اقرئي أكثر، اتفقنا؟»

"حسن يا أمي". كان لني السلوك الجاد لطفلة عقدت العزم على إسعاد البالغين في حياتها.

"اختبار الكمان غدًا كما تعلم، وهي تكافح في قراءة النوتة"، قالت أوجيوغو، كأن أوبنز قد ينسى، وكأنه من الممكن أن ينسى، في حين أن أوجيوغو تتحدث عن ذلك طوال الوقت. ذهب نهاية الأسبوع الماضية مع أوجيوغو والأطفال إلى حفلة عيد ميلاد في قاعة مستأجرة ذات صدى، يجري فيها أطفال هنود ونيجيريون في الأنحاء، حين همست له أوجيوغو عن بعض الأطفال، مَن منهم الذكي في الرياضيات لكنه لا يحسن التهجئة، ومن المنافس الأكبر لني. كانت تعرف درجات آخر الاختبارات لكل الأطفال الأذكياء. وحين لم تتذكر درجة طفلة هندية، هي صديقة ني المقربة، في اختبار أخير، نادت ني لتسألها.

"بربك يا أوجيوغو، دعيها تلعب"، قال أوبنز.

والآن طبعت أوجيوغو قبلة ثالثة عالية على جبين نني «يا غاليتي، ما زال علينا شراء فستان للحفلة».

"نعم يا أمي، فستان أحمر، وليس نبيذيًّا".

"تقيم صديقتها حفلة، هذه الفتاة الروسية، صارتا صديقتين لأن لهما معلمة الكمان نفسها. حين التقيت أم الفتاة أول مرة، أظنها ارتدت شيئًا غير قانوني، مثل فراء لحيوان مهدد بالانقراض، وحاولت أن تتظاهر أنها ليس لديها لكنة روسية، وأن تكون بريطانية أكثر من البريطانيين!»

"إنها لطيفة يا أمي"، قالت نني.

"لم أقل إنها ليست لطيفة يا غاليتي"، قالت أوجيوغو.

رفع ننا صوت التلفاز.

"أخفض الصوت يا ننا"، قالت أوجيوغو.

"أمي!"

"أخفض الصوت حالًا!"

"لكني لا أستطيع سماع شيء يا أمي!"

لم يخفض الصوت ولم تقل له شيئًا آخر، وعوضًا عن ذلك التفتت إلى أوبِنز لتواصل حديثها.

"بالحديث عن اللكنات"، قال أوبِنز، "لماذا نجا ننا من هذا مع أنه ليس لديه لكنة أجنبية؟"

"ماذا تعني؟"

"تعلمين السبت الماضي حين جلبت شيكا وبوز أطفالهما، خطر لي أن النيجيريين هنا يتساهلون مع أطفالهم كثيرًا لأن لهم لكنات أجنبية. القوانين مختلفة».

"لا، لا يتعلق الأمر باللكنة. بل يعود ذلك إلى أن الناس في نيجيريا يعلمون أولادهم الخوف بدلًا من الاحترام. نحن لا نريدهم أن يخشونا، لكن هذا لا يعني أننا نقبل هراءهم. نحن نعاقبهم، ويعرف الولد أنني سأصفعه إن قام بأي فوضى. أصفعه بقوة".

"إن السيدة تسرف في التأكيد فيما أرى».

"أوه، لكنها ستقيم على عهدها[53]"، ابتسمت أوجيوغو «هل تعرف أنني لم أقرأ كتابًا منذ قرون. ليس لدي وقت».

"اعتادت أمي أن تقول إنك ستصبحين ناقدة أدبية بارزة».

"أجل، قبل أن يجعلني ابن أخيها حاملًا»، صمتت أوجيوغو وما زالت تبتسم «الطفلان هما ما يهم الآن. أريد لننا أن يرتاد مدرسة ذا سيتي أوف لندن، ومن ثم بنعمة الله إلى مارلبورو أو إيتون. أما نني فلامعة أكاديميًا، وأعلم أنها ستحصل على منحة في كل الجامعات الجيدة. كل شيء يدور حولهما الآن».

"سيكبران يومًا ويتركان المنزل وستكونين مصدر إحراج وإزعاج لهما، ولن يردا على مكالماتك أو لن يتصلا بك لأسابيع"، قال أوبِنز. وحالما فرغ من قوله تمنى لو أنه لم يقل ذلك. من الواضح أنها لم تُقل كما قصد لها، لكن أوجيوغو لم تستأ، رفعت كتفيها وقالت «عندها سأحمل حقيبتي وسأذهب للوقوف أمام منزلهما».

أدهشه أنها لم تنح على كل الأشياء التي أمكنها أن تصبحها. هل كانت سمة متأصلة في النساء، أو أنهن تعلمن إخفاء ندمهن الشخصي، وأن يوقفن حياتهن، ويجندن أنفسهن لرعاية الأطفال؟ كانت تتصفح مواقع الإنترنت للبحث عن التعليم والموسيقى والمدارس، وأخبرته بما وجدت كأنها تشعر صدقًا أن باقي العالم لا بد أن يكون مهتمًا بقدرها بتطوير الموسيقى لمهارات الرياضيات عند الأطفال في عمر التاسعة. أو كانت تمضي ساعات على الهاتف تتحدث إلى أصدقائها عن أي معلمي الكمان جيد وأيهم معلم هدر للمال.

ذات يوم، حين هرعت لأخذ ننا إلى درس البيانو، اتصلت بأوبِنز لتقول ضاحكة «هل تصدق أنني نسيت أن أغسل أسناني؟". عادت إلى البيت من اجتماع مراقبة الوزن لتقول له كم خسرت أو زادت، مخبئة ألواح تويكس في حقيبة يدها ثم تسأله بضحكة إن كان يريد واحدًا. انضمت لاحقًا إلى برنامج آخر لخسارة الوزن، وحضرت اجتماعين صباحيين، وعادت للبيت لتقول له «لست ذاهبة هناك مرة أخرى. إنهم يعاملونك كأنك تشكو مشكلة عقلية. قلت لا، ليس لدي أي مشاكل داخلية، أرجوك

---

53) هذا من مسرحية هاملت لشكسبير، كان حوارًا بين هاملت ووالدته الملكة بعد عرض مسرحية صُوّر فيها مشهد قتل أبيه.

أنا أحب فقط نكهة الطعام، وتقول لي المرأة المتكبرة إنني أعاني شيئًا داخليًا وأنني أكبته. هؤلاء البيض يظنون أن الجميع يعاني مشاكلهم النفسية». لقد كانت أكبر من وزنها أيام الجامعة بضعفين، وإن لم تكن ثيابها أنيقة عندئذ، غير أن لها أسلوبًا مدروسًا في الثياب؛ سروال جينز مطوي عند الكاحلين، وبلوزة فضفاضة تظهر كتفًا واحدة، لكنهما صارتا متهدلتين. رفع سروال الجينز لحمًا طريًا فوق خصرها شوه قمصانها القصيرة الأكمام، كأن شيئًا غريبًا ينمو تحتها.

تزورها صديقاتها أحيانًا ويجلسن في المطبخ يتحدثن حتى يهرعن جميعًا لجلب أطفالهن. في تلك الأسابيع من انتظار رنين الهاتف، صار أوبنز يعرف أصواتهن جيدًا، إذ يمكنه سماعهن بوضوح من الغرفة الصغيرة في الطابق العلوي حيث يستلقي في فراشه ليقرأ.

قالت شيكا "التقيت رجلًا مؤخرًا. إنه لطيف لكنه يفتقر للياقة. لقد نشأ في أونتشا لذا يمكنك تخيل أي لكنة غير مهذبة له. إنه يخلط بين الضاد والدال؛ فيقول أريد الذهاب للتبدّع (التبضع)، أو أجلس على مقعض (مقعد)".

ضحكن.

"على أية حال، قال لي إنه راغب بالزواج مني وتبني تشارلز. راغب! كأنه يقوم بعمل خيري، راغب! تخيلن هذا. لكن هذا ليس خطأه، هذا لأننا في لندن. إنه من الرجال الذين لن أنظر إليهم أبدًا لو كنت في نيجيريا، ناهيك عن الخروج معه. المشكلة أن الماء لا يجد مجراه المناسب هنا في لندن أبدًا".

"لندن مساواتية. ونحن الآن كلنا في لندن ونحن كلنا متشابهون، يا له من هراء"، قالت بوز.

"ربما عليه البحث عن امرأة جامايكية»، قالت أمارا. فقد تركها زوجها من أجل امرأة جامايكية، واكتشفت أن له طفلًا منها عمره أربعة أعوام، وكانت تنجح بطريقة ما في تغيير اتجاه الحديث إلى موضوع الجامايكيات. "هؤلاء النسوة من غرب الهند يأخذن رجالنا، ورجالنا أغبياء كفاية فيلحقون بهن. وفي الخطوة التالية ينجبن منهم أطفالًا ولا يردن الزواج بهم، بل يردن دعمًا للطفل فحسب. كل ما يفعلنه هو تبديد مالك على تصفيف الشعر وتدريم الأظافر».

"أجل"، قالت بوز وتشيكا وأوجيوغو متّفقات موافقة روتينية آلية، فصِحّة أمارا العاطفية أهم مما يؤمن به حقًا.

رنّ الهاتف، وردت أوجيوغو على المكالمة، ثم عادت للقول «هذه المرأة التي اتصلت للتو. إنها غريبة. انضمت ابنتها ونني إلى الأوركسترا نفسها، والتقيت بها حين خضعت نني لاختبارها الأول. جاءت في سيارتها من طراز بنتلي، كانت امرأة سوداء لديها سائق وكل شيء. سألتني أين نسكن وحين أخبرتها، عرفت ما دار في ذهنها؛ فكيف يمكن لأحد في إسكس أن يفكر بأوركسترا الأطفال الوطنية؟ لذا قررت أن أفتعل مشكلة وأقول لها إن ابنتي تذهب إلى برنتوود، وكان عليكن رؤية وجهها! تعلمن أن الناس من أمثالنا لا يفترض بهم أن يتحدثوا عن المدارس الخاصة والموسيقى. فأفضل ماقد نطمح إليه مدرسة إعدادية جيدة. نظرت إلى المرأة وضحكت في سري. ثم أخذت تخبرني أن تعليم الموسيقى للأطفال مكلف جدًا، وظلت تقول لي كم هي مكلفة، وكأنها رأت حسابي المصرفي الخالي. تخيلن! إنها من أولئك السود الذين يريدون أن يكونوا السود الوحيدين في المكان، لذا سيكون أي أسود آخر تهديدًا مباشرًا لها. وقد اتصلت لتوها لتخبرني أنها قرأت على شبكة الإنترنت عن فتاة تبلغ أحد عشر عامًا حصلت على الدرجة الخامسة، ولم تدخل أوركسترا الأطفال الوطنية. لمَ تتصل بي لتخبرني بهذه القصة السلبية؟»

"عدو التطور"، قالت بوز.

"هل هي جامايكية؟"، سألت أمارا.

"إنها بريطانية سوداء. لا أعرف أصل أسلافها».

"لا بد أنها جامايكية".

الفصل الخامس والعشرون

ذكي، هي الكلمة التي يستخدمها الجميع لوصف إمينايك في المدرسة الثانوية. ذكي، مفعمة بالإعجاب المسموم الذي يحملونه له. شاب ذكي، رجل ذكي. إن تسربت أسئلة الامتحان، يعرف إمينايك كيف يحصل عليها، كما يعرف أي فتاة أجرت عملية إجهاض، ويعرف أملاك آباء الطلاب الأثرياء، وأي المعلمين يتضاجعون معًا. كان يتحدث سريعًا دومًا وبعدائية، وكأن كل محادثةٍ جدال، وتوحي السرعة والقوة في كلماته بالثقة وتحبط الاعتراض. كان يعرف، وكان مفعمًا بالتوق للمعرفة. كلما عاد كِيود من إجازة في لندن، متوردًا من الأهمية، سأله إمينايك عن آخر الأفلام والموسيقى، ثم يفحص ثيابه وحذاءه «هل هذه من مصمم واحد؟ ما اسم المصمم؟"، يسأل إمينايك، وعيناه متوحشتان من اللهفة. أخبر الجميع أن أباه أمير قريته، وأنه أرسله إلى ليغوس ليعيش مع عمه إلى أن يبلغ عامه الحادي والعشرين، لتجنبيه ضغط حياة الأمراء. غير أن رجلًا مسنًا جاء إلى المدرسة يومًا، مرتديًا سروالًا برقعة قرب الركبة، ووجهه مهزول وجسده منحنٍ بالذل الذي فرضه الفقر عليه. ضحك كل الأولاد بعد أن اكتشفوا أنه والد إمينايك حقًا. ثم سرعان ما نسيت الضحكة ربما لأن لا أحد صدق فعلًا حكاية الأمير، إذ كان كِيود في النهاية يسمي إمينايك من ورائه فتى الأدغال. أو ربما لأنهم بحاجة لإمينايك، الذي يملك معلومات لا يملكها أحد سواه. جذبت جسارته هذه أوبِنز، وكان إمينايك واحدًا من قلة لا تعني كلمة قراءة

الدراسة عندهم، ولذا يمضيان ساعات في الحديث عن الكتب مقايضيْن المعرفة بالمعرفة، ويلعبان السكرابل، وكبرت صداقتهما. في الجامعة حين سكن إمينايك معه في الملحق في منزل أمه، ظنه الناس قريبًا، فيسألون أوبنز «ماذا عن أخيك؟"، فيقول «إنه بخير"، دون أن يشرح أنه وإمينايك ليسا قريبين أبدًا. لكنه جهل أمورًا كثيرة عن إمينايك، أمورًا أدرك ألا يسأل عنها. وكثيرًا ما ترك إمينايك المدرسة لأسابيع، قائلًا بإبهام إنه «عاد لبيته" فقط، ودائمًا عن الأشخاص الذين نجحوا في السفر إلى الخارج. كان حديثه القلق الملح المضطرب لشخص يؤمن أن القدر قد منحه بطريق الخطأ مكانًا أدنى من قدره الحقيقي. وحين سافر إلى إنجلترا أثناء الإضراب في سنتهما الثانية، لم يعرف أوبِنز أبدًا كيف حصل على التأشيرة، إلا أنه سرّ لأجله. كان إمينايك ناضجًا متفجرًا بطموحه، وظن أوبِنز أن تأشيرته رحمة، ليجد ذاك الطموح متنفسًا أخيرًا. أرسل إمينايك أخبارًا مقتضبة عن تقدمه فحسب، فقد أنهى دراساته العليا، وعمل في دائرة الإسكان، وتزوج من امرأة إنجليزية تعمل محامية في المدينة.

كان إمينايك أول شخص اتصل به أوبِنز بعد وصوله إلى إنجلترا.

"ذا زد! يسرني سماع صوتك. دعني أعاود الاتصال بك. أنا ذاهب إلى اجتماع إداري»، قال إمينايك. وحين اتصل به أوبِنز للمرة الثانية بدا إمينايك مستعجلًا «أنا في هيثرو. جورجينا وأنا سنذهب إلى بروكسل لأسبوع. سأتصل بك حين أعود. لا أستطيع الانتظار للقائك يا رجل!". وجاء رد رسالته الإلكترونية على رسالة أوبِنز مشابهًا: سعيد أنك جئت هنا، يا رجل، لا يمكنني الانتظار لرؤيتك!" تخيل أوبِنز بغباء أن إمينايك سيحتويه ليريه الطريق، وعرف من القصص العديدة من الأصدقاء والأقرباء الذين صاروا في الضوء القاسي للحياة في الخارج، نزقين بل عدائيين، وباتوا نسخًا من ذواتهم السابقة. ولكن ماذا عن الأمل العنيد، والحاجة للإيمان باستثنائيتك، وأن هذه الأمور تحدث لأشخاص آخرين لم يكن أصدقاؤهم كأصدقائك؟ اتصل بأصدقاء آخرين، نوسا الذي سافر بعد التخرج مباشرة، فأخذه من محطة قطار الأنفاق وقاده إلى حانة حيث اجتمع أصدقاء آخرون سريعًا. تصافحوا وربّتوا على ظهور بعضهم وشربوا جعة براميل. وضحكوا على ذكريات المدرسة، وتحدثوا قليلًا عن تفاصيل تأشيراتهم الحالية. حين قال أوبِنز إنه بحاجة

للحصول على رقم التأمين الوطني وسأل «يا شباب كيف أحصل على عمل؟"، هزوا جميعًا رؤوسهم بإبهام.

"ابق متيقظًا لكل ما يجري من حولك يا رجل فقط"، قال تشيدي.

"عليك أن تقترب من وسط لندن، أنت بعيد جدًا عن الأشياء وأنت في إسكس"، قال وايل.

حين قاد نوسا السيارة ليعيد أوبِنز إلى المحطة لاحقًا، سأله أوبِنز «إذًا أين تعمل يا رجل؟»

"في قطار الأنفاق. إنه عمل خطير لكن الأمور ستتحسن"، قال نوسا. رغم أن أوبِنز عرف أنه يقصد المترو إلا أن كلمة قطار الأنفاق جعلته يفكر بأنفاق مشؤومة تدخل الأرض وتمضي إلى الأبد بالغة لا شيء.

"ماذا عن السيد إميانيك الذكي؟"، سأل نوسا، ونبرته مفعمة بالبغضاء. «إنه بخير ويسكن في إسلنغتون، مع زوجته القوقازية، الكبيرة بما يكفي لتكون أمه. لقد صار من الطبقة الراقية، ولم يعد يتحدث إلى الأشخاص العاديين. يمكنه أن يساعدك».

"يسافر كثيرًا، لم نلتق بعد"، قال أوبِنز سامعًا بوضوح شديد كلماته الشوهاء.

"وكيف قريبك إيوبا؟ رأيته السنة الماضية في حفل زفاف أخي إميكا»، سأل نوسا.

لم يتذكر أوبِنز أن إيوبا يعيش في لندن، إذ كانت آخر مرة رآه فيها قبل التخرج بأيام. كان إيوبا من قرية أمه، لكنه لم يكن سعيدًا جدًا بنسبهما، وأن الجميع في الجامعة يظنهما أبناء خؤولة. كان إيوبا يسحب كرسيًا، مبتسمًا وينضم دون دعوة إلى أوبِنز ورفاقه في حانة على الطريق، أو يظهر أمام باب أوبِنز عصر أيام الأحد حين يكون أوبِنز متعبًا من خمول عصر أيام الأحد. مرة أوقف إيوبا أوبِنز في ساحة الدراسات العامة مناديًا بمرح «يا قريبي!"، ومن ثم أعطاه موجزًا لقران أشخاص من قرية أمه ووفياتهم الذين لا يعرفهم إلا قليلًا. "مات أندوكبوني قبل بضعة أسابيع ألا تعرفه؟ يقع مسكنهم بالقرب من مسكن أمك"، هز أوبِنز رأسه وأطلق أصواتًا لائقة ممازحًا إيوبا، لأن سلوك إيوبا دومًا ممتع جدًّا وعفويّ. كان بنطاله ضيقًا جدًا وقصيرًا جدًا، يظهر كاحليه النحيلين، فتسبب له باسم «إيوبا يقفزعاليًا"، الذي سرعان ما اختصر إلى "يوبا يقفز".

حصل أوبِنز على رقمه من نيكولاس واتصل به.

"ذا زد! قريبي! لم تخبرني أنك قادم إلى لندن"، قال إيوبا، «كيف حال أمك؟ ماذا عن عمك الذي تزوج من أباغانا؟ كيف حال نيكولاس»، بدا إيوبا مفعمًا بسعادة بسيطة. ثمة أناس يولدون بعدم القدرة على الانغماس في العواطف القاتمة وفي التعقيدات، وكان إيوبا أحدهم. شعر أوبِنز تجاه أشخاص مثله بالإعجاب والضجر في آن. وحين سأله أوبِنز إن كان قادرًا على مساعدته للحصول على رقم التأمين الوطني، وسيتفهم قليلًا من الاستياء وشيئًا من الوقاحة - فقد تواصل مع إيوبا لأنه بحاجة شيء ما فقط- لكنه فوجئ بلهفة إيوبا الصادقة لمساعدته.

"كنت سأجعلك تستخدم رقمي، لكني لا أعمل به وهذا خطر"، قال إيوبا.

"أين تعمل؟"

"في وسط لندن. الأمن. ليست سهلة، هذه البلاد ليست سهلة. لكننا نتدبر أمرنا. أحب المناوبات الليلية لأنها تمنحني الوقت للقراءة من أجل دراستي. أنا أدرس الماجستير في الإدارة في كلية بري بيك. دعني أسأل وأبلغك».

عاود إيوبا الاتصال به بعد أسبوعين ليقول إنه عثرعلى شخص. «اسمه فنسنت أوبي. إنه من ولاية أبيا، وصلة الوصل بيننا صديق لي، وهو يود لقاءك مساء غد».

التقيا في شقة إيوبا. عمّ الشقة شعور برهاب الاحتجاز، في الحي الخرساني العاري من الأشجار، وجدران المبنى ذات الندوب، وبدا كل شيء صغيرًا جدًا وضيقًا جدًا.

"شقة جميلة يا إيوبا يقفز"، قال أوبِنز، لا لأن الشقة جميلة بل لأن إيوبا يملك شقة في لندن.

"كنت سأعرض عليك أن تأتي لتقيم عندي يا زد، لكني أسكن مع اثنين من أبناء عمومتي». وضع إيوبا زجاجات من الجعة وصحنًا صغير من معجنات تشن تشن المقلية على الطاولة. سفع هذا الطقس من الضيافة أوبِنز بحنين حاد، فقد ذكره بالذهاب إلى القرية مع أمه في عيد الميلاد، والخالات يعرضن عليه أطباقًا من التشن تشن.

كان فنسنت أوبي رجلًا بدينًا قصيرًا غائصًا في سروال كبير من الجينز ومعطف بشع. حين صافحه أوبِنز، تفحصا بعضهما بعضًا. وشعر أوبِنز، في هيئة كتفي

فنسنت وفي قسوة سلوكه، أن فنسنت تعلم باكرًا، بداعي الضرورة، أن يحل جميع مشاكله. تخيل أوبِنز حياته النيجيرية: مدرسة ثانوية أهلية مكتظة بالأولاد الحفاة، ومعهد العلوم التطبيقية دفعت رسومه بمساعدة عدد من الأعمام، وأسرة من أبناء كثيرين وحشد من العالات في قريته توقعوا أرغفة كبيرة من الخبز ومصروفًا يوزع عليهم باهتمام كلما زار القرية. رأى أوبِنز نفسه في عيني فنسنت: فتى جامعة نشأ يأكل الزبدة، وها هو الآن بحاجة لمساعدته. تصنع فنسنت اللكنة البريطانية في بادئ الأمر، قائلًا «أليس كذلك" كثيرًا.

"هذا عمل، أليس كذلك؟ لكني أساعدك. استخدم رقمي الوطني وادفع لي أربعين بالمئة مما تجنيه"، قال فنسنت، «إنه عمل، أليس كذلك. إن لم أحصل على ما اتفقنا عليه فسأبلغ عنك».

"يا أخي"، قال أوبِنز، «هذا كثير، أنت تعرف وضعي، فأنا لا أملك شيئًا. أرجوك حاول وخفض قليلًا".

"خمسة وثلاثون بالمئة هي أفضل ما يمكنني عرضه، هذه تجارة"، كان قد فقد لكنته وتحدث بالإنجليزية النيجيرية، «دعني أخبرك شيئًا، هناك الكثيرون في مثل وضعك».

تحدث إيوبا بالإيبو «يا فنسنت، يحاول أخي هنا ادخار المال لإنجاز أوراقه. خمسة وثلاثون كثيرة جدًا، باهظة جدًا، من فضلك. أرجوك حاول مساعدتنا».

"تعلمان أن بعض الأشخاص يتقاضون النصف، لديه ظروف صحيح، لكننا جميعًا لدينا ظروف. أنا أساعده لكن هذه تجارة». كانت لكنة فنسنت بالإيبو ريفية. وضع بطاقة التأمين الوطني على الطاولة وأخذ يكتب رقم حسابه المصرفي على قطعة ورق. ثم بدأ هاتف إيوبا الجوال بالرنين. وفي ذلك المساء، حين خيم الغسق، والسماء تتخفف إلى لون بنفسجي فاتح، صار أوبِنز فنسنت.

الفصل السادس والعشرون

أبلغ أوبِنز بوصفه فنسنت وكالتَه، بعد تجربته مع الغائط الملتف على غطاء كرسي المرحاض، أنه لن يعود إلى تلك الوظيفة. وتفحص صفحات الوظائف في الصحف، وأجرى اتصالات، وتمنى، إلى أن عرضت عليه الوكالة عملًا آخر في تنظيف ممرات عريضة في مستودع لتغليف المنظفات. كان رجل برازيلي فاتح البشرة وداكن الشعر ينظف المبنى المجاور لمبناه. «أنا فنسنت"، قال أوبِنز عندما التقيا في الغرفة الخلفية.

"أنا دي"، ثم صمت، «أنت لست إنجليزيًا. لذا يمكنك نطقه، اسمي الحقيقي ديوردنهيتو، لكن الإنجليز لا يستطيعون نطقه، لذا يسمونني دي».

"ديودرنهيتو"، كرر أوبِنز.

"أجل!"، بابتسامة مبتهجة، ورابطة صغيرة من الغربة. تحدثا وهما يفرغان مكنستيهما الكهربائيتين، عن أولمبياد عام 1996، إذ تباهى أوبِنز بهزيمة نيجيريا للبرازيل ومن ثم الأرجنتين.

"وجدتُ شخصيّة كَانو جيّدة جدًّا، أعترف له بهذا»، قال ديودرنهيتو، «لكن نيجيريا محظوظة».

غمر أوبِنز غبار كيميائي أبيض كل مساء، وتجمعت في أذنيه حبيبات، وحاول ألا يتنفس عميقًا أثناء التنظيف، متيقظًا لأخطار تطفو في الهواء، حتى أخبره مديره

أنه مفصول بسبب قلة الإنتاجية. وكان العمل التالي بديلًا مؤقتًا في شركة توصيل مطابخ، أسبوعًا بعد أسبوع من الجلوس قرب سائقين بيض يسمونه «العامل»، ومواقع بناء لا تنتهي مليئة بالضجيج والخوذات، ومن حمل ألواح الخشب إلى سلالم طويلة دون عون أو ثناء. شعر أوبنز بكراهية السائقين من الصمت الذي يقودون به السيارة، والنبرة التي ينطقون بها «عامل!". مرة حين تعثر وسقط على ركبتيه سقطة قوية جدًا جعلته يعرج عائدًا إلى الشاحنة، قال السائق للآخرين في المستودع «ركبته تؤلمه لأنه زنجي!»[54] فضحكوا. كانت عدائيتهم مزعجة، لكن قليلًا فقط. ما همّه أنه يجني أربعة جنيهات في الساعة، وأكثر من ذلك في الوقت الإضافي، وحين أرسل إلى مستودع جديد للتوصيل في غرب ثوروك، خشي ألا يحظى بفرص للعمل الإضافي.

بدا مدير المستودع الجديد مثل الرجل الإنجليزي النمطي الذي تخيله أوبِنز، طويلًا وهزيلًا، ذا شعر فاتح وعينين زرقاوين. لكنه كان رجلًا بشوشًا، ولم يكن الرجل الإنجليزي بشوشًا في خيال أوبِنز. اسمه روي سنِل، وصافح أوبِنز بحرارة.

"إذًا أنت من إفريقيا يا فنسنت؟" سأل، وقد اصطحب أوبِنز في جولة في المستودع، الذي يبلغ حجمه حجم ملعب كرة قدم، أكبر بكثير من المستودع الأخير، ويضج بالشاحنات التي تحمّل، وصناديق الورق المقوى المبسوطة التي تطوى لتصبح عميقة ، ورجال يتحدثون.

"أجل، ولدت في برمنغهام وعدت إلى نيجيريا حين بلغت السادسة»، كانت القصة التي اتفق هو وإيوبا أنها الأكثر إقناعًا.

"لمَ عدت؟ وما مدى سوء الوضع في نيجيريا؟"

"أردت أن أرى إن كنت سأحظى بحياة أفضل".

هز روي سنِل رأسه. وبدا أنه شخص تلائمه كلمة «مرح". "ستعمل مع نايجل اليوم، إنه أصغر موظفينا"، قال مشيرًا إلى رجل ذي جسد ممتلئ فاتح البشرة، وشعر داكن ملفلف، ووجه ممتلئ ملائكي. "أظنك ستحب العمل هنا، فيني بوي!"، لقد استغرق الأمر خمس دقائق كي يتحول من فنسنت إلى فيني بوي، وفي الأشهر

54) تستخدم الكاتبة تعبير Knee-grow وهو تعبير يستخدمه البيض على سبيل الإساءة للزنوج دون إيقاع أنفسهم بالمشاكل باستخدام الكلمة «negro».

اللاحقة حين لعبا تنس الطاولة أثناء استراحة الغداء، قال روي للرجال «تمكنت من هزيمة فيني بوي مرة واحدة!"، وضحكوا ضحكًا خافتًا وكرروا "فيني بوي».

أعجب أوبنز تصفّح الرجال لصحفهم تصفحًا ذكيًا كل صباح، متوقفين عند صورة المرأة ذات الصدر الكبير متفحصينها كأنها مقال ذو أهمية كبيرة، وكأنها تختلف عن الصورة على الصفحة نفسها اليوم السابق، والأسبوع السابق. كانت محادثاتهم، أثناء انتظارهم تحميل شاحناتهم، عن السيارات وكرة القدم والأكثر منها عن النساء، وكل رجل يحكي قصصًا تبدو كاذبة وشبيهة بالقصة التي قيلت قبل يوم، وقبل أسبوع، وفي كل مرة يذكرون فيها السروال الداخلي-اخترق العصفور سروالها النكرز- فيضحك أوبِنز أكثر، لأن السروال النكرز في الإنجليزية النيجيرية سروالًا قصيرًا لا سروالًا داخليًا، وتخيل هؤلاء النسوة العاتقات مرتديات سراويل قصيرة غير مناسبة باللون الكاكي، كالذي ارتداه في سنته قبل النهائية في المدرسة الثانوية.

كانت تحيّة روي الصّباحية هي لكمة على بطنه ويسأله "فيني بوي! هل أنت بخير؟ أنت بخير؟". ودائمًا ما يضع اسم أوبِنز للعمل الخارجي لأجره الأفضل، ويسأله دومًا إن كان يرغب بالعمل في نهاية الأسبوع، الذي كان أجره مضاعفًا، ويسأله عن الفتيات. بدا الأمر وكأن روي يحمل مشاعر خاصة تجاهه، حامية ولطيفة في آن معًا.

"لم تمارس الجنس منذ مجيئك إلى المملكة المتحدة، أليس كذلك يا فيني بوي؟ يمكنني إعطاؤك رقم تلك العصفورة»، قال ذات مرة.

"لدي حبيبة في الديار"، قال أوبِنز.

"إذًا ما العيب في قليل من العبث؟»

ضحك بضعة رجال بالقرب.

"لحبيبتي قوى سحرية»، قال أوبِنز.

رأى روي هذا مضحكًا أكثر مما ظن أوبِنز، فضحك وضحك. «إنها مشعوذة، أليس كذلك؟ حسن إذًا، لا عبث من أجلك. أردت دومًا الذهاب إلى إفريقيا، يا فيني بوي. أظنني سآخذ إجازة وأذهب إلى نيجيريا حين تعود للزيارة. يمكنك أن تكون دليلي، وأن تعثر لي على بعض العصفورات النيجيريات، يا فيني بوي، لكن بلا شعوذة!»

"أجل، يمكنني ذلك».

"أوه، أعلم أنك تستطيع! يبدو أنك تعرف ماذا تفعل بالعصفورات»، قال روي بلكمة أخرى على بطن أوبِنز.

كثيرًا ما وضع روي أوبِنز للعمل مع نايجل، ربما لأنهما أصغر الرجال في المستودع. ولاحظ أوبِنز في الصباح الأول أن الرجال الآخرين يتفقدون اللوح، وهم يشربون القهوة في أكواب ورقية، ليروا من يعمل مع من، ويسخرون من نايجل. لم يكن لنايجل حاجبان، فقد منحت رقعتان جلديتان ورديتان صغيرتان في مكان حاجبيه وجهَه الممتلئ هيئة مخيفة ناقصة.

"غضبت في الحانة وحلق رفاقي حاجبيّ"، قال نايجل لأوبِنز، بهيئة معتذرة تقريبًا، وهما يتصافحان.

"لا عبث من أجلك حتى ينمو حاجباك يا رفيق»، صاح أحد الرجال حين انطلق أوبِنز ونايجل نحو الشاحنة. أمّن أوبِنز غسالات الثياب في الخلف، وشد الأربطة حتى صارت محكمة، ثم صعد الشاحنة وتفحص الخريطة ليعثر على أقصر الطرق للوصول إلى العنوان. انعطف نايجل انعطافات حادة وغمغم حول طريقة قيادة الناس للسيارات هذه الأيام. ثم أخرج نايجل، وهما واقفان عند الإشارة الضوئية، زجاجة كولونيا من الحقيبة التي وضعها على قدميه، ورش منها على عنقه ثم قدمها لأوبِنز.

"لا شكرًا"، قال أوبِنز، فرفع نايجل كتفيه. عرضها عليه ثانية بعد أيام. كان الجو داخل الشاحنة كثيفًا برائحة الكولونيا، وأخذ أوبِنز، بين الفينة والأخرى، أنفاسًا عميقة من الهواء النقي من النافذة المفتوحة.

"جئت حديثًا من إفريقيا، ولم ترَ لندن، أليس كذلك يا رفيق؟»، سأل نايجل.

"كلا»، قال أوبِنز.

وهكذا، بعد توصيلة باكرة في وسط لندن، أخذه نايجل في جولة، وأراه قصر بكنغهام، ومجلس النواب، وجسر البرج، وهو يتحدث طوال الوقت عن التهاب المفاصل لدى أمه، وعن ثديي صديقته هالي. استغرق الأمر بعض الوقت لفهم ما يقوله نايجل تمامًا، بسبب لكنته التي كانت نسخة أثقل من لكنة الأشخاص الذين عمل معهم أوبِنز، فكل كلمة تلوى وتمطّ حتى تخرج من أفواههم وقد صارت شيئًا

آخر. قال نايجل مرة «ميْلًا"، وظنه أوبِنز يعني مِيلًا، وحين فهم أوبِنز أخيرًا ما قصده نايجل، ضحك نايجل وقال «أنت تتحدث لغة راقية أليس كذلك؟ إفريقي راقٍ».

قال نايجل يومًا ما، بعد مرور أشهر في عمله، وبعد تسليمهما ثلاجة جديدة إلى عنوان في كنزنغتن، عن الرجل المسن الذي دخل المطبخ، «إنه رجل حقيقي، إنه كذلك»، فقد كان نايجل معجبًا وخائفًا قليلًا. بدا الرجل مجعد الثياب وثملًا، وشعره أشعث ومبذله مفتوح عند الصدر وقال بقوة «تعرفان كيف تركبانها حقًا"، كأنه لم يظنهما قادرين. دهش أوبِنز، لأن نايجل ظن الرجل «رجلًا حقيقيًا»، لكنه لم يتذمر من المطبخ القذر، كما لا بد أن يفعل عادة. وإن تحدث الرجل بلكنة مختلفة، لسماه نايجل بخيلًا لأنه لم يعطهم بقشيشًا.

كانا يقتربان من عنوان التسليم التالي في جنوب لندن، فاتصل أوبِنز بصاحب البيت ليقول إنهما أوشكا على الوصول، حين قال نايجل فجأة «ماذا تقول لفتاة تعجبك؟»

"ماذا تعني؟"، سأل أوبِنز.

"الحقيقة أنني لا أضاجع هالي. تعجبني لكني لا أعرف كيف أخبرها. ذهبت ذلك اليوم إلى منزلها وكان هناك رجل آخر». صمت نايجل، وحاول أوبِنز أن يبقي وجهه محايدًا «يبدو أنك تعرف ما تقوله للعصفورات يا رفيقي»، أضاف نايجل.

"أخبرها أنها تعجبك فحسب"، قال أوبِنز، مفكرًا كم حكى نايجل باستمرار قصصًا عن مضاجعته لهالي، ومرة عن مضاجعته لصديقتها حين كانت هالي مسافرة أمام الرجال الآخرين في المستودع. "بلا ألعاب ولا أبيات شعر، فقط قل: اسمعي، إنك تعجبيني وأنا أراك جميلة».

نظر إليه نايجل نظرة جريحة. فقد بدا كأنه أقنع نفسه أن أوبِنز ماهر بفنون النساء وتوقع بعض العمق، الذي تمنى أوبِنز - وهو يحمل غسالة الصحون على عربة ودفعها باتجاه الباب- أنه تمتع به. فتحت امرأة هندية الباب، كانت ربة منزل لحيمة لطيفة، قدمت لهما الشاي. قدم الكثير من الناس الشاي أو الماء، ومرة قدمت امرأة حزينة المظهر لأوبِنز مرطبانًا من المربى المعدّة منزليًا فتردد، لكنه شعر أن الحزن العميق سيتضاعف إن رفض، وهكذا أخذ المربى وما زالت تتعفن في الثلاجة، دون أن يفتحها.

"شكرًا لكما، شكرًا لكما"، قالت المرأة الهندية حين ركب أوبِنز ونايجل غسالة الصحون وأخرجا القديمة.

عند الباب، أعطت نايجل بقشيشًا. كان نايجل هو السائق الوحيد الذي يقتسم البقشيش مع أوبِنز مناصفة، أما الآخرون فيتظاهرون بالنسيان. مرة حين عمل أوبِنز مع سائق آخر، دفعت امرأة مسنة جامايكية عشرة جنيهات في جيبه عندما كان السائق منشغلًا. "شكرًا لك يا أخي"، قالت، وجعله ذلك يرغب بالاتصال بأمه في نسوكا ويخبرها عنها.

الفصل السابع والعشرون

خيم الغسق الكئيب على لندن حين دخل أوبِنز مقهى للكتب، متناولًا الموكا وكعكة التوت الأزرق. وقد تألم من باطن قدميه ألمًا لذيذًا. لم يكن الجو شديد البرودة، وتصبب عرقًا في معطف نيكولاس الصوفي، الذي علقه على ظهر كرسيه. كانت هذه مكافأته الأسبوعية، أن يذهب إلى المكتبة ويبتاع شرابًا كثير الكافيين، ويقرأ قدر ما يريد مجانًا، ويعود ثانية. كان يطلب أحيانًا أن ينزل في وسط لندن بعد التسليم، ويتجول في الأرجاء ويأكل في مقهى الكتب، ويغوص إلى الأرض في ركن ما، بعيدًا عن ازدحام الناس. فقرأ الأدب الأمريكي المعاصر، لأنه تمنى أن يعثر على منطق وصياغة لرغباته، وإحساس بأمريكا التي تخيل نفسه جزءًا منها. وأراد أن يعرف عن الحياة اليومية في أمريكا، ماذا يأكل الناس وما الذي يستنزفهم، وما الذي يخجلهم وما الذي يعجبهم. لكنه قرأ رواية بعد أخرى وشعر بالإحباط، إذ لم يجد شيئًا عميقًا، لا شيء جدي، لا شيء ملحّ، ومعظمها ذاب في عدمية ساخرة. وقرأ الصحف والمجلات الأمريكية، لكنه اكتفى بتصفح الصحف البريطانية، لوجود المزيد والمزيد من المقالات عن المهاجرين، وكل واحد منها يغرس هلعًا جديدًا في قلبه. **استيلاء الباحثين عن مأوى على المدارس**. لم يعثر على أحد بعد. التقى الأسبوع الماضي برجلين نيجيريين، صديقين بعيدين لصديق قال إنهما يعرفان امرأة من أوروبا الشرقية، ودفع لهما ألفي جنيه. وها هما الآن لا يعاودان الاتصال به وتذهب مكالماتهما مباشرة إلى البريد

الصوتي. أكل نصف كعكته، ولم ينتبه إلى ازدحام المقهى سريعًا. فقد كان مرتاحًا، بل مسترخيًا ومستغرقًا في قراءة مقال في مجلة، حين اقتربت امرأة معها ولد لتسأل إن كانا يستطيعان مشاركته طاولته. كانا بلون البندق داكني الشعر، وتصور أنهما من بنغلاديش أو سيري لانكا.

"طبعًا"، قال، ونقل كومة من الكتب والمجلات، رغم أنه لم يكن جانب الطاولة الذي سيستخدمانه. بدا الصبي في الثامنة أو التاسعة من عمره، يرتدي كنزة ميكي ماوس ويمسك بلعبة غيم بوي زرقاء، والمرأة تضع خزامًا، شيئًا صغيرًا شبيهًا بالزجاج يلمع كلما حركت رأسها في هذا الاتجاه أو ذاك. سألته إن كان لديه مساحة كافية لمجلاته، وإن أرادها أن تحرك كرسيها قليلًا. ثم قالت لابنها، بنبرة ضاحكة من الواضح أن المقصود بها أوبِنز، إنها لم تكن يومًا واثقة إن كانت هذه الأعواد الخشبية الرفيعة الموضوعة قرب أكياس السكر تستخدم للتقليب.

"لست طفلًا!"، قال ابنها حين أرادت أن تقطع له كعكة المفن.

"ظننت أن الأمر سيكون أسهل عليك".

رفع أوبِنز نظره ورأى أنها تتحدث إلى ابنها لكنها تراقبه بشيء من الحزن في عينيها، فغمره باحتمالية ولقاء عرضي بغريبة، وفكر بالمسارات التي قد تأخذه إليها.

كان للصبي الصغير وجه بهيج فضولي. «هل تسكن في لندن؟"، سأل أوبِنز.

"أجل"، قال أوبِنز، لكن هذه الكلمة لم تحكِ قصته، وأنه يسكن لندن لكن دون أن يُرى، فوجوده مثل رسم قلم رصاص ممحي، وكلما رأى شرطيًا، أو أي أحد يرتدي زيًا رسميًا؛ أي أحد يتمتع بأدنى حد من السلطة، كافح الرغبة بالهرب.

"توفي أبوه العام الماضي"، قالت المرأة في صوت أخفض. "هذه أول عطلة لنا في لندن دونه. اعتدنا القيام بهذا كل عام قبل عيد الميلاد". هزت المرأة رأسها باستمرار وهي تتحدث وبدا الولد مستاء، كأنه لا يريد لأوبِنز أن يعرف ذلك.

"أنا آسف"، قال أوبِنز.

"لقد ذهبنا إلى معرض تيت»، قال الصبي.

"هل أعجبك؟"، سأل أوبِنز.

عبس «إنه ممل».

نهضت أمه، «علينا الذهاب، نحن ذاهبان لمسرحية». التفتت إلى ابنها وأضافت «لن تدخل الغيم بوي إلى الداخل، تعرف ذلك».

تجاهلها الولد وقال «إلى اللقاء" لأوبنز، واستدار ناحية الباب. نظرت الأم إلى أوبنز نظرة طويلة، أكثر حزنًا من ذي قبل. ربما أحبت زوجها بعمق، وكان وهذا أول إدراك لشعورها بالانجذاب ثانية، وكان حدثًا مفاجئًا. راقبهما يغادران، متسائلًا إن كان عليه النهوض وطلب رقمها للتواصل رغم يقينه بأنه لن يفعل. في المرأة شيء جعله يفكر بالحب، وخطرت إفيملو له، كالعادة، حين يفكر بالحب. ثم على نحو مفاجئ تمامًا، استحوذت عليه رغبة جنسية، وتيار من الشهوة، وأراد أن يضاجع إحداهن. فأرسل رسالة نصية لتنداي، التي التقاها في حفلة أخذه إليها نوسا، وانتهى به الأمر تلك الليلة في فراشها. تينداي المرأة الحكيمة ذات الأرداف الكبيرة من زمبابوي التي اعتادت الغطس في حوض الاستحمام لوقت طويل. نظرت إليه مندهشة حين نظف شقتها أول مرة وأعد لها أرز جولوف، فلم تعتد أن تلقى معاملة هكذا من رجل بحيث أنها راقبته بلا حد وبتوتر، وعيناها مغشيتان كأنها كانت تحبس أنفاسها بانتظار صدور الإساءة. لقد علمت أنه لم يحصل على أوراقه، وقالت له "وإلا كنت النيجيري الذي يعمل في تقنية المعلومات ويقود بي إم دبليو». كان لديها إقامة بريطانية، وستحصل على جواز السفر في غضون سنة، ولمحت إلى رغبتها بمساعدته. لكنه لم يرغب بتعقيدات الزواج منها من أجل أوراقه، لأنها ستستيقظ يومًا وتقنع نفسها أن الأمر ليس من أجل الأوراق فقط.

قبل أن يغادر المكتبة، أرسل رسالة نصية لتينداي: **هل أنت في البيت؟ فكرت بالمرور.** تساقط رذاذ متجمد حين مشى نحو محطة قطار الأنفاق، وقطرات صغيرة من المطر تتناثر على معطفه، وحين وصل هناك، أدهشته كتل اللعاب على السلالم. لماذا لا ينتظر الناس حتى يغادروا المحطة ثم يبصقوا؟ وجلس على المقعد المبقع للقطار المزعج، مقابل امرأة تقرأ صحيفة المساء، **تحدثوا الإنجليزية في منازلكم، بلانكيت**[55] ***يقول للمهاجرين***. تخيل المقال الذي تقرأه، إذ نشر الكثير منها

55) ديفد بلانكت: (1947)، سياسي بريطاني سابق.

في الصحف، وتتكرر في الإذاعة والتلفاز، وحتى في دردشة بعض الرجال في المستودع. عبقت الرياح التي تهب على الجزر البريطانية برائحة الخوف من الباحثين عن مأوى، معدية الجميع بعدوى الهلع من الهلاك الوشيك، ولذا تُكتب المقالات وتقرأ، ببساطة وبفظاظة، كأن الكتاب عاشوا في عالم لم يكن حاضره متصلًا بماضيه، ولم يظنوا أن يكون هذا مجرى طبيعيًا للتاريخ: تدفق السود والسمر إلى بريطانيا من بلدان أوجدتها بريطانيا. إلا أنه فهم الأمر. لا بد أن إنكار التاريخ هذا مريح. أغلقت المرأة الصحيفة ونظرت إليه. كان لها شعر بني أملس وعينان قاسيتان متشككتان، فتساءل عما تفكر فيه، هل خطر لها أنه أحد هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين الذين يزيدون اكتظاظ الجزيرة المكتظة مسبقًا؟ لاحقًا، في القطار إلى إسكس، انتبه إلى أن كل الأشخاص المحيطين به نيجيريون، وضجت العربة بمحادثات صاخبة باليوروبا والإنجليزية المبسطة، ورأى لوهلة حرية الأجانب غير البيض في هذا المشهد عبر عيني المرأة البيضاء المرتابتين في قطار الأنفاق. فكر ثانية بالمرأة البنغالية أو السريلانيكة وظلال الحزن التي كانت تخرج منها لتوها، وفكر بإفيملو وأمه، والحياة التي تخيلها لنفسه، والحياة التي يعيشها، مطلية كما كانت بالعمل والقراءة، بالهلع والأمل. ولم يشعر أبدًا بالوحدة هكذا.

الفصل الثامن والعشرون

ذات صباح أوائل الصيف، في دفء متجدد في الجو، وصل أوبِنز إلى المستودع وعرف على الفور أن ثمة خطبًا. تحاشى الرجال عينيه، وظهرت صلابة غريبة في حركاتهم، واستدار نايجل سريعًا، سريعًا جدًا باتجاه المرحاض حين رأى أوبِنز. لقد عرفوا، لا بد أنهم عرفوا بطريقة ما. لقد رأوا صفوف الباحثين عن المأوى تتدفق على إدارة الخدمات الطبية، وعرفوا بأمر القطعان التي تزيد من ازدحام الجزيرة المكتظة، وها هم عرفوا أنه واحد من اللعينين، ويعمل باسم آخر ليس اسمه. أين كان روي سنل؟ هل ذهب لاستدعاء الشرطة؟ هل كان رجال الشرطة هم المتصلون؟ حاول أوبِنز أن يتذكر تفاصيل من قصص الأشخاص الذين ألقي القبض عليهم وأبعدوا، لكن عقله كان خدرًا. فشعر بالعري، وأراد أن يستدير ويجري لكن جسده ظل يتحرك، ضد رغبته، باتجاه منطقة التحميل. ثم شعر بحركة خلفه، سريعة وعنيفة وقريبة، وقبل أن يلتفت، وضعت قبعة ورقية على رأسه. كان ذلك نايجل، ومعه جمع من الرجال الباسمين.

"عيد ميلاد سعيد، فيني بوي!»، قالوا جميعًا.

تجمد أوبِنز، مذعورًا من الفراغ التام لعقله، ثم فهم الأمر؛ إنه عيد ميلاد فنسنت. لا بد أن روي أخبر الرجال، لقد نسي أن يتذكر تاريخ مولد فنسنت.

"أوه!»، كانت كل ما قاله، شاعرًا بالغثيان من الراحة.

طلب منه نايجل أن يذهب إلى غرفة القهوة، حيث اتجه كل الرجال للداخل، وحين جلس أوبِنز معهم، كلهم من البيض باستثناء باتريك الذي كان من جامايكا، يمررون كعك المفن والكولا التي اشتروها بمالهم على شرف عيد ميلاد ظنوه عيد ميلاده، فجعل هذا الإدراك عينيه تخضلان بالدمع، إذ كان بأمان.

اتصل به فنسنت ذلك المساء، وفوجئ أوبِنز قليلًا، لأن فنسنت اتصل به مرة واحدة فقط، منذ أشهر، حين غير مصرفه وأراد إعطاءه رقم الحساب الجديد. تساءل إن كان عليه قول «عيد ميلاد سعيد" لفنسنت، أو إن كانت المكالمة متعلقة بطريقة ما بمناسبة عيد الميلاد.

"فنسنت، كيف حالك؟"، قال.

"أريد زيادة".

هل تعلم فنسنت هذا من فيلم؟ هذه الكلمات «أريد زيادة". بدت مضحكة ومصطنعة. «أريد خمسة وأربعين بالمئة، أعلم أنك تعمل أكثر حاليًا».

"فنسنت، آه. كم أجني أنا؟ تعلم أنني أدخر المال لإنهاء أمر الزواج هذا».

"خمسة وأربعون بالمئة"، قال فنسنت وأغلق الهاتف.

قرر أوبِنز أن يتجاهله، فهو يعرف الرجال من نمط فنسنت، إذ يضغطون كثيرًا ليروا إلى أين يصلون لكنهم يتراجعون. إن اتصل وحاول التفاوض، فقد يشجع فنسنت على الطلب أكثر، ولن يغامر فنسنت بخسارة ذهاب أوبِنز كل أسبوع إلى مصرفه وإيداع المال في حسابه. وهكذا، بعد أسبوع في الازدحام الصباحي للسائقين والشاحنات، قال روي "فيني بوي، تعال إلى مكتبي لدقيقة»، ولم يخطر ببال أوبِنز شيء عن الأمر. على مكتب روي كانت صحيفة، مطوية على الصفحة ذات صورة المرأة الكبيرة الصدر. ووضع روي ببطء كوب قهوته على الصحيفة، وبدا منزعجًا، ولا ينظر إلى أوبِنز مباشرة.

"اتصل شخص البارحة، وقال إنك لست من قلت إنك هو، وإنك غير شرعي وتعمل باسم مستعار"، ساد صمت، كان أوبِنز موجوعًا من الصدمة. رفع روي كوبه ثانية، «لم لا تجلب جواز سفرك غدًا ونوضح الأمور، حسن؟»

همهم أوبِنز بأول كلمات خطرت له «حسن، سأحضر جواز سفري غدًا». خرج

من المكتب موقنًا أنه لن يتذكر بما شعر قبل دقائق. أطلب روي منه إحضار جوازه ليجعل الطرد أسهل عليه، وليمنحه مخرجًا، أم أن روي واثق أن المتصل مخطئ؟ لم سيتصل أحدهم ليتحدث عن أمر كهذا ما لم يكن حقيقيًا؟ لم يبذل أوبِنز يومًا مجهودًا بقدر ما فعل هذا اليوم ليبدو طبيعيًا، وليروض الغضب الذي اجتاحه. ولم يكن ما أزعجه فكرة السلطة التي يملكها فنسنت عليه، بل الوضاعة التي مارسها بها. غادر المستودع ذلك المساء للمرة الأخيرة، متمنيًا لو أخبر روي ونايجل باسمه الحقيقي أكثر من أي شيء آخر.

بعد بضع سنوات في ليغوس، بعد أن أخبره الزعيم أن يعثر على رجل أبيض يمكنه تقديمه بوصفه مديرًا عامًا، اتصل أوبِنز بنايجل، الذي لم يتغير رقم هاتفه الخلوي.

"أنا فيني بوي».

"فنسنت! هل أنت بخير يا رفيق؟»

"أنا بخير، كيف حالك؟"، قال أوبِنز، ثم قال لاحقًا، "فنسنت ليس اسمي الحقيقي يا نايجل، اسمي أوبِنز. لدي عرض عمل لك في نيجيريا".

الفصل التاسع والعشرون

أخبره الأنغوليان كيف «سارت" الأمور، أو كانت أكثر «عسرًا»، بكلمات غائمة يفترض أن تشرح كل طلب جديد للمال.

"ليس هذا ما اتفقنا عليه»، فيقول أوبِنز أو «ليس لدي نقد إضافي الآن»، فيجيبان «لقد تحسنت الأمور، أجل"، بنبرة تخيل أنها مصحوبة بهزة أكتاف. كان الصمت يتلو ذلك، صمت على خط الهاتف قال له إنها مشكلته، لا مشكلتهما، «سأسدد المال يوم الجمعة»، فيقول أخيرًا قبل إغلاق الهاتف.

هدأه تعاطف كليوتايد اللطيف معه، «لقد أخذا جواز سفري"، ورأى هذا تلاعبًا مهمًا، يشبه احتجاز رهينة.

"وإلا كنا أتممنا الأمر بأنفسنا"، أضافت. لكنه لم يرغب بإتمام هذا بنفسه مع كليوتايد. لقد كان الأمر مهمًا جدًا، وبحاجة إلى ثقل خبرة الأنغوليين وتجربتهما، للتأكد من سير كل شيء على ما يرام. أقرضه نيكولاس بعض المال، ولم يكن راغبًا بالطلب أبدًا، بسبب محاكمة عيني نيكولاس المتجهمتين، كأنه يرى أن أوبِنز رخوٌ مدلل، وليس لدى الكثير من الأشخاص ابن خال يقرضهم المال. كان إميناايك الشخص الوحيد الآخر الذي قد يطلب منه. قال له إميناايك في آخر مرة تحدثا فيها «لست أدري إن كنت شاهدت تلك المسرحية في وست إند، لكن جورجينا وأنا شاهدناها وأحببناها»، كأن أوبِنز، في عمل التوصيل، الذي يدّخر بتقتير وتستنزفه

مخاوف المهاجرين، سيفكر في مشاهدة مسرحية. لقد أزعجته غفلة إمينايك، لأنها توحي بقلة احترام بل بكراهية نحوه، ولحياته الحالية. اتصل بإمينايك وقال، متحدثًا بسرعة، دافعًا الكلمات، إنه بحاجة لخمسمئة جنيه، سيسددها حالما يحصل على عمل آخر، ثم أخبر إمينايك ببطء أكثر أنه يتمم مراسيم الزواج، ولكن ظهرت الكثير من المصاريف الإضافية التي لم يحسب حسابها.

"لا بأس، دعنا نلتقي يوم الجمعة"، قال إمينايك.

جلس إمينايك مقابل أوبِنز في مطعم ذي إضاءة خافتة، بعد أن خلع معطفه لتظهر كنزته الكشميرية البنية التي تبدو كاملة. لم يزدد وزنه كما حدث مع معظم أصدقائه الذين يعيشون خارج البلاد، ولم يبد مختلفًا عما كان عليه حين رآه أوبِنز آخر مرة في نسوكا.

"يا رجل، يا زد، تبدو بحال جيدة»، قال وكلماته عامرة بالكذب. لم يبد أوبِنز بحال طيبة بالتأكيد، فقد احدودبت كتفاه من الضغط في ثياب استعارها من ابن خاله. «أعتذر، آسف أنني لم أحظ بوقت للقائك. جدول عملي مجنون وسافرنا كثيرًا. كنت سأطلب منك أن تأتي للإقامة معنا لكنه ليس قرارًا أتخذه وحدي. لن تفهم جورجينا. تعرف أن هؤلاء البيض لا يتصرفون مثلنا»، تحركت شفتاه مشكلتين شيئًا يشبه الابتسامة الهازئة. إنه يسخر من زوجته، لكن أوبِنز عرف من النبرة المندهشة في صوته أن تلك سخرية ملونة بالاحترام، سخرية مما ظنه، بغض النظر عنه هو نفسه، متفوقًا في جوهره. تذكر أوبِنز كم قال كِيود كثيرًا عن إمينايك في المدرسة الثانوية: إنه يستطيع قراءة كل الكتب التي يرغب لكن الجهل مازال في دمه.

"لقد عدنا من أمريكا مؤخرًا. يا رجل عليك الذهاب إلى أمريكا. ليس ثمة بلد مثلها في العالم. سافرنا إلى دنفر ومن ثم قدنا السيارة إلى ويومنغ. لقد انتهت جورجينا من قضية معقدة فعلًا، هل تذكر حين أخبرتك أنني ذاهب إلى هونغ كونغ؟ كانت هناك من أجل العمل وسافرت طوال نهاية الأسبوع. لذا خطر لي أننا نستطيع الذهاب إلى أمريكا، لقد كانت بحاجة للإجازة». رن هاتف إمينايك، فأخرجه من جيبه، ونظر إليه وعبس، كأنه يود أن يسأل عن فحوى الرسالة النصية، لكن أوبِنز لم يسأل. كان متعبًا؛ فقد أعطاه إيوبا بطاقة التأمين الوطني خاصته، رغم أن الأمر كان خطرًا

على كليهما أن يعملا في الوقت نفسه، لكن كل وكالات التوظيف التي ذهب إليها أوبِنز حتى الآن طلبت رؤية جواز السفر وليس البطاقة فقط. بدت جعته تفهة، وتمنى لو أعطاه إمينايك النقود فحسب. لكن إمينايك واصل حديثه، مومئًا، وحركاته سائلة وواثقة، وما زال أسلوبه أسلوب شخص مؤمن أنه يعرف أمورًا لن يعرفها الآخرون. ومع ذلك فيه شيء مختلف لم يستطع أوبِنز تحديده. تحدث إمينايك لوقت طويل، وكثيرًا ما استهل قصته بقوله «الأمر الذي عليك أن تدركه في هذه البلاد هو هذا». شرد ذهن أوبِنز بكليوتايد، فقد قال الأنغوليان إن على اثنين من طرفها على الأقل أن يحضرا إلى نيوكاسل، لتفادي أي ريبة، لكنها اتصلت به البارحة لتقترح جلب صديق واحد فقط، لذا لن يضطر لدفع أجور القطار والفندق لشخصين إضافيين. وجد ذلك لطيفًا، لكنه طلب منها إحضار اثنين على أية حال، فهو لن يغامر.

تحدث إمينايك عن أمر حدث في العمل، «وصلت الاجتماع أولًا، ووضعت ملفاتي، ومن ثم ذهبت إلى دورة المياه لأعود وأجد هذا الرجل الأبيض الغبي يقول لي أوه، أرى أنك ما زلت تتبع التوقيت الإفريقي. وهل تعرف؟ أخبرته أن يغرب عن وجهي. ومنذئذ وهو يرسل لي رسائل إلكترونية يدعوني فيها إلى شراب. شراب من أجل ماذا؟" رشف إمينايك جعته، وكانت كأسه الثالثة وقد أخذ يصبح أكثر تحررًا وصخبًا. بدت كل قصصه عن العمل متشابهة؛ إذ يقلل أحدهم من شأنه أو يزدريه في البداية، ثم ينهي الأمر منتصرًا، بكلمة أو تصرف أخير ذكي.

"أفتقد نايجا (نيجيريا). لقد مر وقت طويل ولكن لم يتسن لي الوقت للذهاب. بالإضافة إلى أن جورجينا لن تحتمل زيارة إلى نيجيريا!"، قال إمينايك وضحك. لقد جعل الديار غابة وهو مفسر الغابة.

"جعة أخرى؟"، سأل إمينايك.

هز أوبِنز رأسه نفيًا. أسقط رجل يحاول الوصول إلى الطاولة خلفهما سترة إمينايك من خلف كرسيه.

"ها، انظر إلى هذا الرجل. يريد أن يفسد سترتي من طراز أكواسكتوم. إنها هدية جورجينا لي في عيد ميلادي الماضي"، قال إمينايك وهو يعلق السترة على ظهر كرسيه ثانية. لم يعرف أوبِنز العلامة التجارية لكنه عرف من الابتسامة الواثقة على

وجه إمينايك أنه يجب أن يبدي إعجابه.

"هل أنت واثق أنك لا تريد جعة أخرى؟"، سأل إمينايك، باحثًا عن نادلة. «إنها تتجاهلني. هل لاحظت مدى وقاحتها قبلًا؟ هؤلاء الأوروبيات الشرقيات لا يفضلن خدمة السود».

بعد أن أخذت النادلة طلبه، أخرج إمينايك مظروفًا من جيبه. «خذ يا رجل، أعلم أنك طلبت خمسمئة جنيه لكن هذه ألف. هل تريد عدّها؟»

عدّها؟ أوشك أوبِنز على القول، لكن الكلمات لم تغادر فمه. أن تعطى مالًا وفق الأسلوب النيجيري يعني دفعه إلى يديك، بقبضتين مغلقتين، وعينين تتحاشيان عينيك، وإغفال شكرك الفياض- ولا بد أن يكون فياضًا- ولا تعد المال حتمًا، وأحيانًا لا تنظر إليه أيضًا حتى تكون وحدك. لكن ها هو إمينايك يطلب منه أن يعد المال. وقد فعل، ببطء، متعمدًا منقلًا كل ورقة نقدية بين يديه، متسائلًا إن كرهه إمينايك طوال هذه السنوات في المدرسة الثانوية والجامعة. لم يسخر من إمينايك كما فعل كِيود والأولاد الآخرون، لكنه لم يدافع عنه أيضًا، ولعله كره أوبِنز لحياديته.

"شكرًا يا رجل"، قال أوبِنز. كانت ألف جنيه طبعًا. هل ظن إمينايك أن خمسين جنيهًا قد سقطت في طريقه إلى المطعم؟

"إنه ليس قرضًا"، قال إمينايك، مسندًا ظهره إلى الكرسي مبتسمًا قليلًا.

"شكرًا يا رجل"، قال أوبِنز ثانية، ورغم ذلك كله فقد كان ممتنًا ومرتاحًا. لقد أقلقه كثرة الأشياء التي عليه أن يدفع لها قبل الزفاف، وإن كان هذا ما يتطلبه الأمر، أي عدّ الهدية النقدية تحت مراقبة نظرات إمينايك القوية، فليكن إذًا.

رن هاتف إمينايك. "جورجينا"، قال بسعادة قبل أن يرد على الاتصال. كان صوته عاليًا قليلًا، لصالح أوبِنز. "إن اللقاء به أمر رائع بعد كل هذا الوقت"، ثم بعد صمت، "طبعًا عزيزتي، لا بد أن نفعل هذا".

أنزل هاتفه وقال لأوبِنز «تود جورجينا اللقاء بنا خلال النصف الساعة القادمة فيمكننا أن نذهب جميعًا لتناول العشاء، هل هذا مناسب؟»

هز أوبِنز كتفيه، «أنا لا أرفض الطعام أبدًا».

قبل أن تصل جورجينا، أخبره إمينايك بنبرة خفيضة، «لا تذكر مسألة الزواج

هذه أمام جورجينا».

تخيل جورجينا، من الطريقة التي يتحدث بها إمينايك عنها، بريئة هشة، ومحامية ناجحة لم تعرف مع ذلك شرور هذا العالم. لكنها حين وصلت، رأى وجهًا مربعًا وجسدًا ضخمًا مربعًا، وشعرًا بنيًا مقصوصًا قصيرًا مانحًا إياها مسحة من التنظيم، فأدرك على الفور أنها صريحة، وخبيرة، بل وضجرة. وتخيل أن زبائنها يثقون بقدراتها سريعًا. لقد كانت هذه امرأة تتفقد الأموال التي تمنحها للصدقات، هذه امرأة يمكنها بلا شك أن تحتمل زيارة إلى نيجيريا. لماذا صورها إمينايك على أنها وردة إنجليزية عاجزة؟ ضغطت شفتيها على شفتي إمينايك، ثم التفتت لمصافحة أوبِنز.

"هل تفكر في شيء محدد؟"، سألت أوبِنز، وهي تفك أزرار معطفها الشاموا البني. «ثمة مطعم هندي قريب من هنا».

"أوه، هذا متداعٍ قليلًا»، قال إمينايك. لقد تغير، واتخذ صوته اعتدالًا غريبًا، وصار نطقه أبطأ، وغدت حرارة وجوده بأكمله أخفض بكثير، «يمكننا الذهاب إلى ذلك المطعم الجديد في كنزنغتن، إنه ليس بعيدًا».

"لست واثقة أنه سيعجب أوبِنز يا عزيزي»، قالت جورجينا.

"أوه، أظنه سيحبه»، قال إمينايك. إنه الرضا عن الذات، كان هذا ما اختلف فيه. فهو متزوج بامرأة بريطانية، ويسكن بيتًا بريطانيًا، ويعمل في وظيفة بريطانية، ويسافر بجواز سفر بريطاني، ويقول «أمارس" للإشارة إلى نشاط ذهني بدلًا من النشاط الجسدي. لقد تطلع إلى هذه الحياة، ولم يصدق أبدًا أنه سيحظى بها. وبدا ظهره مستقيمًا من الرضا عن الذات، وكان راضيًا. في المطعم في كنزنغتن، لمعت شمعة على الطاولة، وقدم النادل الأشقر الذي بدا شديد الطول والوسامة ليكون نادلًا، أطباقًا صغيرة لما بدا شبيهًا بالهلام الأخضر.

"شرابنا الجديد من الليمون والزعتر لفتح الشهية، مع تحيات الطاهي»، قال.

"رائع"، قال إمينايك، غارقًا على الفور في واحد من طقوس حياته الجديدة، من عقد الحاجبين، والتركيز الحاد، وشرب الماء الرقراق وتفحص قائمة الطعام. تناقش وجورجينا في المقبلات، واستدعي النادل ليجيبه عن سؤال. وأدهش أوبِنز كم حول إمينايك هذه المبادرة بحق إلى سحر الطعام الجيد، لأنه فرك راحتي يديه معًا

في لذة حين جلب له النادل ما بدا ثلاث قضمات أنيقة من الطحالب الخضراء، التي سيدفع ثمنها ثلاثين جنيهًا. قدمت برغر أوبِنز في أربعة أقسام، ورتبت في كأس مارتيني كبيرة. وحين وصل طلب جورجينا كان كومة من لحم البقر النيء، مدت عليها بيضة بأسلوب جميل، وتحاشى أوبِنز النظر إليها وهو يأكل، وإلا فإنه سيتقيأ.

كان إمينايك أكثر من تحدث، مخبرًا جورجينا عن أيامهما معًا في المدرسة، ونادرًا ما سمح لأوبِنز أن يقول شيئًا. في القصص التي حكاها، كان أوبِنز وهو المشاكسين المحبوبين اللذين يقعان دومًا في متاعب جميلة. راقب أوبِنز جورجينا، وقد أدرك الآن فقط كم كانت أكبر من إمينايك بكثير؛ بثماني سنوات على الأقل. أخذت تقاطيع وجهها الرجولية تلين بابتسامات متوالية، لكنها ابتسامات ذكية؛ ابتسامات متشككة فطرية، وتساءل عن مدى تصديقها لحكايات إمينايك، وكم عطل الحب عقلها.

"سنقيم حفلة عشاء غدًا يا أوبِنز، عليك أن تأتي»، قالت جورجينا.

"أجل، نسيت إخبارك»، قال إمينايك.

"عليك القدوم حقًا. سيأتي بضعة أصدقاء وأظنك ستستمتع بلقائهم»، قالت جورجينا.

"أحب ذلك"، قال أوبِنز.

—

عبق منزلهما ذو الشرفات في إسلنغتن، بسلالمه القصيرة ذات العتبات المعتنى بها جيدًا التي تؤدي إلى الباب الأخضر، برائحة الطعام المحمر حين وصل أوبِنز. أدخله إمينايك، «ذا زد! جئت باكرًا، نحن ننهي بعض الأمور في المطبخ. ادخل وابق في مكتبي حتى يأتي الآخرون»، أخذه إمينايك للطابق العلوي، وإلى المكتب. كان غرفة نظيفة مشرقة زادت إشراقها رفوف الكتب البيضاء والستائر البيضاء. احتلت النوافذ مساحات واسعة من الجدران، وتصور أوبِنز شكل الغرفة بعد الظهر، طافحة بنور بهي، وتخيل نفسه وقد غاص في الكرسي ذي الذراعين قرب الباب، تائهًا في كتاب.

«سآتي وأناديك بعد قليل»، قال إمينايك.

وضعت صور، على عتبة النافذة، لإمينايك مخزرًا عينيه أمام كنيسة سيستين، صانعًا علامة السلام في أكروبوليس، واقفًا قرب الكولوسيوم، وقميصه بلون جوزة

الطيب نفسه الذي لجدار الآثار. تخيله أوبِنز، مطيعًا ومصممًا، يزور الأماكن التي يفترض به زيارتها، ومفكرًا وهو يفعل ذلك، لا بالأشياء التي يراها؛ بل بالصور التي سيلتقطها لها والأشخاص الذين سيرون هذه الصور، الأشخاص الذين سيعرفون أنه شارك في هذه الانتصارات. لفت نظره غراهام غرين على رف الكتب، أخذ كتاب جوهر المسألة، وبدأ يقرأ الفصل الأول، شاعرًا بحنين مفاجئ لأيام مراهقته حين تعيد أمه قراءتها مرة كل بضعة أشهر.

دخل إمينايك، «هل هذا وا[56]؟»

«كلا»، وأراه غلاف الكتاب، «تحب أمي هذا الكتاب، وحاولت دومًا أن تجعلني أهوى الروايات الإنجليزية».

«وا أفضلهم، برايدزهيد أقرب ما قرأت من الرواية الكاملة».

«أظن وا هزليًا، أنا فقط لا أفهم ما يُدعى بالروايات الهزلية الإنجليزية. كأنهم عاجزون عن التعامل مع التعقيد الحقيقي والعميق لحياة البشر ولذا يلجؤون إلى كتابة هذا النوع الهزلي. غرين هو الاستثناء الآخر، إنه نكد للغاية».

«لا يا رجل. عليك قراءة وا ثانية، لا يعجبني غرين كثيرًا، لكن الجزء الأول من نهاية العلاقة كان رائعًا».

«هذا المكتب حلم»، قال أوبِنز.

رفع إمينايك كتفيه، «هل تريد أي كتاب؟ خذ ما شئت».

«شكرًا يا رجل»، قال أوبِنز موقنًا أنه لن يأخذ شيئًا.

نظر إمينايك حوله كأنه يرى المكتب بعين جديدة «عثرنا على هذا المكتب في إدنبره، تملك جورجينا بعض القطع الجيدة، لكننا عثرنا على أُخر معًا».

تساءل أوبِنز إن كان إمينايك مستغرقًا جدًا في قناعه للحد الذي يمكنه الحديث عن «الأثاث الجيد» حتى وهما وحيدان، كأن فكرة «الأثاث الجيد» ليست غريبة عن عالمهما النيجيري، الذي يتعين فيه على الأشياء الجديدة أن تبدو جديدة. كان أوبِنز سيقول شيئًا حيال الأمر لإمينايك لكن ليس الآن، فقد تغير الكثير أصلًا

---

56) إيفلن وا: (1903-1966) روائي وكاتب سير ذاتية وأدب رحلات إنجليزي.

في علاقتهما. تبعه أوبِنز إلى الطابق السفلي. كانت طاولة الطعام غزيرة الألوان، من صحون خزف لامعة متنافرة الألوان، بعضها محزز عند الحافة، وكؤوس نبيذ أحمر، ومناديل زرقاء داكنة. وفي طبق فضي وسط الطاولة طافت زهور ناعمة حليبية اللون في الماء. عرّفهم إمينايك بعضهم على بعض.

«هذا مارك صديق جورجينا القديم وهذه زوجته هانا التي تكمل رسالة الدكتوراه بالمناسبة عن نشوة الأنثى الجنسية، أو بالأحرى نشوة الأنثى الإسرائيلية الجنسية».

«حسن، ليس هذا الأمر الوحيد موضع التركيز»، قالت هانا، بضحكة كبيرة، وهي تصافح أوبِنز بحرارة. كان لها وجه معين مسمر عريض القسمات؛ وجه شخص لا يمكنه تحمل النزاع. أما مارك، الفاتح البشرة والأشعث، فقد ضغط على كتفها لكنه لم يضحك مع الآخرين. قال «كيف حالك» لأوبِنز بطريقة رسمية.

«هذا صديقنا العزيز فيليب، المحامي الأفضل في لندن، بعد جورجينا طبعًا»، قال إمينايك.

«هل كل الرجال في نيجيريا وسيمين مثلك ومثل صديقك؟»، سأل فيليب إمينايك، منتشيًا على نحو مضحك وهو يصافح أوبِنز.

«عليك الذهاب إلى نيجيريا لتتأكد»، قال إمينايك، وغمز بما بدا أنه غزل متواصل مع فيليب.

كان فيليب بدينًا وأنيقًا، وقميصه الحريري الأحمر مفتوح عند العنق. وذكرت حركاته، والإيماءات اللينة لمعصميه وأصابعه الملوحة في الهواء، أوبِنز بولد من المدرسة الثانوية- اسمه هادوم- قيل إنه يدفع لطلاب الصف الثالث ليلعقوا له قضيبه. مرة، استدرج إمينايك وولدان آخران هادوم إلى دورة المياه وضربوه، وانتفخت عين هادوم بسرعة حتى بدت بشعة قبل الانصراف من المدرسة، مثل باذنجانة أرجوانية كبيرة. وقف أوبِنز خارج دورة المياه مع أولاد آخرين، أولاد لم يشاركوا في الضرب لكنهم ضحكوا، وأولاد هتفوا وحمسوا وصاحوا «هومو! هومو!»

«هذه صديقتنا أليكس. انتقلت أليكس مؤخرًا إلى منزل جديد في هولاند بارك، بعد سنوات في فرنسا، ولذا، لحسن حظنا، سنراها كثيرًا. تعمل في إنتاج الموسيقى، كما أنها شاعرة رائعة»، قال إمينايك.

«أوه، كف عن ذلك»، قالت أليكس، ثم سألت ملتفتة نحو أوبِنز، «من أين أنت يا عزيزي؟»

«نيجيريا».

«لا، أعني في لندن يا عزيزي».

«أسكن في إسكس في الحقيقة»، قال.

«تمام»، قالت كأنها أصيبت بخيبة أمل. كانت امرأة صغيرة بوجه فاتح جدًا وشعر أحمر بلون الطماطم. «هلا تناولنا الطعام يا أولاد ويا بنات؟»، وأخذت أحد الأطباق وتفحصته.

«أحب هذه الأطباق. جورجينا وإمينايك لا يثيران الملل أبدًا، صحيح؟»، قالت هانا.

«اشتريناها من سوق في الهند»، قال إمينايك، «صنعتها نساء قرويات يدويًا، إنها جميلة جدًا، هل ترين إلى التفاصيل عند الحواف؟»، رفع أحد الصحون.

«فخمة»، قالت هانا ونظرت إلى أوبِنز.

«نعم، جميل جدًا»، غمغم أوبِنز. تلك الصحون، بلمساتها الناضجة، والتشوه الخفيف للحواف، لن تخرج في حضرة الضيوف في نيجيريا. لم يكن واثقا إن كان إمينايك قد صار شخصًا يؤمن بجمال شيء لأنه من صنع الناس الفقراء في بلد أجنبي، أو إن كان قد تعلم ببساطة التظاهر بذلك. سكبت جورجينا الشراب، وقدم إمينايك المقبلات، سلطعون مع بيض مسلوق. لقد اكتسى بفتنة حذرة ومدرجة. كان يقول «يا إلهي» كثيرًا كلما اشتكى فيليب من الزوجين الفرنسيين اللذين يبنيان منزلًا قرب منزله في كورنويل، سأل إمينايك «هل يحجبان عنك غروب الشمس؟»

هل يحجبان عنك غروب الشمس؟ لم يخطر ببال أوبِنز، أو أحد ممن نشأ معهم، أن يسأل سؤالًا كهذا.

«كيف كانت أمريكا؟»، سأل فيليب.

«بلد ساحر، حقًا. قضينا بضعة أيام مع هوغو في جاكسن في ويمينغ. التقيت بهوغو عيد الميلاد الماضي، أليس كذلك يا مارك؟»

«نعم، وما الذي يفعله هناك؟»، بدا مارك مستاء من الأطباق، فلم يرفع

واحدًا للنظر إليه كما فعلت زوجته.

«إنه منتجع للتزلج، لكنه ليس فخمًا. في جاكسن، يقولون إن الأشخاص الذين يذهبون إلى أسبن يتوقعون أن يربط أحد أحذية التزلج لأجلهم»، قالت جورجينا.

«تجعلني فكرة التزلج في أمريكا أشعر بالغثيان»، قالت أليكس.

«لماذا؟»، سألت هانا.

«هل كان لديهم متجر ديزني في المنتجع، وميكي ماوس يقود دراجة تزلج؟»، سألت أليكس.

«ذهبت أليكس إلى أمريكا مرة واحدة، حين كانت في المدرسة، لكنها تحب كرهها من بعيد»، قالت جورجينا.

«أحببت أمريكا على البعد طوال حياتي»، قال أوبنِز. التفتت إليه أليكس بشيء من الدهشة كأنها لم تتوقع منه أن يتحدث. تحت ضوء الثريا، اكتسى شعرها الأحمر بلمعة غريبة غير طبيعية.

«ما لاحظته هنا أن الكثير من الإنجليز يحملون إعجابًا بأمريكا لكنهم يكرهونها بقوة»، أضاف أوبنِز.

«صحيح تمامًا»، قال فيليب، هازًا رأسه موافقًا أوبنِز، «صحيح تمامًا. إنها كراهية أب صار ابنه أكثر جمالًا منه بكثير وله حياة ممتعة أكثر».

«لكن الأمريكيين يحبوننا، نحن البريطانيين، يحبون اللكنة والملكة والشطيرة المزدوجة»، قال إمينايك. هناك، كما يقال، اعتبر الرجل نفسه بريطانيًا.

قالت جورجينا باسمة: «وماذا عن الاكتشاف العظيم الذي عرفه إمينايك حين كنا هناك؟ إنه الاختلاف بين إلى اللقاء الأمريكية والبريطانية».

«إلى اللقاء؟»، سألت ألكس.

«نعم. يقول إن البريطانيين يمطونها أكثر، في حين أن الأمريكيين يجعلونها قصيرة».

«كان هذا اكتشافًا هائلًا. لقد فسر كل ما يتعلق بالاختلاف بين البلدين»، قال إمينايك واثقا أنهم سيضحكون، وضحكوا. «كما فكرت أيضًا بالاختلاف في معاملة الأجانب. يبتسم لك الأمريكيون ويكونون ودودين للغاية ، لكن إن كان اسمك كوريًا

أو تشاديًا، فلن يكلفوا أنفسهم عناء قوله صائبًا أبدًا. أما البريطانيون فسيفعلون بالتأكيد وسيرتابون إن كنت ودودًا جدًا، لكنهم يعاملون الأسماء الأجنبية كأنها أسماؤهم الصحيحة حقًا».

«هذا مهم»، قالت هانا.

قالت جورجينا «إنه لأمر مرهق قليلًا أن تتحدث عن محدودية تفكير الأمريكيين، ولا يمكننا الكف عن ذلك، فإن حدث أمر هائل حدث في أمريكا، سيكون العنوان الرئيس في بريطانيا، ولو حدث شيء كبير هنا، فسيكون على الصفحة الخلفية من الصحيفة في أمريكا، إن نشر أصلًا. لكني أظن الأمر المزعج فعلًا كان بهرجة الوطنية، ألا تظن ذلك يا عزيزي؟»، التفتت جورجينا نحو إمينايك.

«بلا شك»، قال إمينايك، «أوه، وقد ذهبنا للروديو أيضًا. ظن هوغو أننا قد نتخيل قليلًا من الثقافة».

سادت ضحكة عامة رنانة.

«ورأينا هذا الموكب العجيب للأطفال الصغار ذوي الوجوه المغطاة بالزينة الكثيفة، ثم الكثير من التلويح بالأعلام والكثير من عبارات «بارك الله أمريكا»، خشيت أن يكون هذا مكانًا لا تعرف فيه ما قد يحدث لك إن قلت فجأة لا أحب أمريكا».

«وجدت أمريكا شوفينية للغاية أيضًا، حين أجريت تدريب زمالتي هناك»، قال مارك.

«مارك جراح أطفال»، قالت جورجينا لأوبنز.

«يشعر المرء أن الشعب شعب تقدمي، هذا لأن المحافظين الأمريكيين جاؤوا من كوكب مختلف تمامًا بالنسبة لتوري هذا، شعرت أنهم قد ينتقدون بلادهم كثيرًا ولكن لا يعجبهم أبدًا أن تنتقدها»، قال مارك.

«أين كنت؟»، سأل إمينايك، كأنه يعرف أصغر زوايا أمريكا.

«فيلادلفيا. في مستشفى تخصصي يدعى مستشفى الأطفال. كان مكانًا بارزًا والتدريب جيدًا جدًا. ربما استغرق الأمر مني سنتين في إنجلترا لأرى الحالات النادرة التي عالجتها في شهر هناك».

«لكنك لم تبق»، قالت أليكس بشيء من الانتصار.

«لم أخطط للبقاء»، لم يلن وجه مارك أبدًا في أي تعبير.

«بالحديث عن ذلك، لقد شاركت مع تلك الجمعية الخيرية الرائعة التي تحاول إيقاف المملكة المتحدة من توظيف الكثير من موظفي الصحة الإفريقيين. لم يبق أطباء ولا ممرضات في تلك القارة، إنها مأساة حقيقية! على الأطباء الأفارقة أن يظلوا في إفريقيا»، قالت أليكس.

«لماذا يتعين عليهم ألا يرغبوا بمزاولة عملهم حيث تتوفر الكهرباء بانتظام، وتدفع الأجور بانتظام؟»، سأل مارك بنبرة محايدة. وشعر أوبِنز أنه لا يحب أليكس أبدًا، «أنا من غرمسبي ولا أود العمل حتمًا في مستشفى المقاطعة هناك».

«لكن الأمر ليس سيان، صحيح؟ نحن نتحدث عن بعض أكثر شعوب العالم فقرًا. تقع المسؤولية على الأطباء بوصفهم أفارقة. الحياة ليست عادلة فعلًا. إن كانوا يحملون امتياز الشهادة الطبية فهي مقرونة بمساعدة شعبهم»، قالت أليكس.

«فهمت. لا أفترض أن أيًا منا عليه حمل تلك المسؤولية من أجل البلدات المتدهورة في شمال إنجلترا؟»، قال مارك.

احمر وجه أليكس، ونهضت جورجينا، في الصمت المفاجئ المتوتر والهواء يتعكر بينهما، وقالت «هل الجميع مستعدون للحم الضأن المحمر؟»

أثنوا كلهم على اللحم، الذي تمنى أوبِنز لو أنه ظل في الفرن مدة أطول، قطع شريحته بعناية، آكلًا الجوانب التي صارت رمادية من الطهو، تاركًا في طبقه القطع المبقعة بدم وردي. أدارت هانا الحوار، كأنها تود تلطيف الجو، بصوتها المهدئ، مثيرة مواضيع يتفقون عليها جميعًا، ومنتقلة إلى موضوع آخر إن شعرت باعتراض وشيك.

كان حوارهم متناغمًا، أصوات تتداخل بعضها في بعض، في اتفاق، **من البغيض أن تعامل لاقطي الكوكل الصينيين هكذا، عبثية فكرة رسوم التعليم العالي، اقتحام مؤيدي صيد الثعالب للبرلمان منافٍ للمنطق.** وضحكوا حين قال أوبِنز «لا أفهم لماذا يكون صيد الثعالب قضية كبرى هكذا في البلاد، ألا توجد أشياء أكثر أهمية؟»

«ما الذي قد يكون أكثر أهمية؟»، سأل مارك بجفاف.

«حسن، إنها الطريقة الوحيدة التي نعرف بها كيف نكافح حرب الطبقات. تصطاد طبقة الملاك والأرستقراطيين، كما ترى، ونستشيط غضبًا نحن الطبقة

المتوسطة المتحررة. نريد سلبهم ألعابهم السخيفة الصغيرة»، قالت أليكس.

«نحن نفعل دون شك، فهذا وحشي»، قال فيليب.

«هل قرأت عن قول بلانكيت إنه لا يعرف عدد المهاجرين في البلد؟»، سألت أليكس، وتوتر أوبِنز على الفور، وضاق صدره.

«المهاجرون طبعًا هي شفرة يقصد بها المسلمون»، قال مارك.

«لو أراد أن يعرف لذهب إلى كل مواقع البناء في هذا البلد وأحصى الرؤوس»، قال فيليب.

«كان من المهم فعلًا رؤية كيف تجري هذه الأمور في أمريكا»، قالت جورجينا، «إنهم يثيرون جلبة حول المهاجرين أيضًا. رغم أن أمريكا كانت على الدوام ألطف مع المهاجرين من أوروبا بلا شك».

«حسن، صحيح، لكن هذا لأن البلدان في أوروبا بنيت على الإقصاء، لا على الاحتواء كما هو الحال في أمريكا»، قال مارك.

«لكنها نفسية مختلفة أيضًا، أليس كذلك؟»، قالت هانا. «الدول الأوروبية محاطة بدول تشبه بعضها بعضًا، في حين أن أمريكا لديها المكسيك وهي دولة نامية طبعًا، لذا تخلق نفسية مختلفة حول الهجرة والحدود».

«ولكن ليس لدينا مهاجرون من الدانمارك، لدينا مهاجرون من أوروبا الشرقية، وهي المكسيك خاصتنا»، قالت أليكس.

«باستثناء الأصل العرقي طبعًا»، قالت جورجينا، «الأوروبيون الشرقيون بيض والمكسيكيون ليسوا كذلك».

«كيف وجدت الأصل العرقي في أمريكا، يا إميفايك بالمناسبة؟»، سألت أليكس، «إنها بلد عنصري متعسف، صحيح؟»

«ليس عليه أن يذهب إلى أمريكا من أجل هذا يا أليكس»، قالت جورجينا.

«يبدو لي أن الأمريكيين سودهم وبيضهم يعملون معًا لكنهم لا يلعبون معًا، وهنا يلعب البيض والسود معًا لكنهم لا يعملون معًا»، قال إميفايك.

هز الآخرون رؤوسهم بوقار، كأنه قال شيئًا ذا أهمية، لكن مارك قال «لست واثقا أنني فهمت هذا تمامًا».

«أظن الطبقيّة في هذا البلد ممزوجة بالهواء الذي يتنفسه الناس. يعرف الجميع أماكنهم، حتى أولئك الغاضبون من الطبقية تقبلوا مكانهم بشكل ما»، قال أوبِنز، «ولد أبيض وفتاة سوداء نشأا معًا في مدينة الطبقة العاملة نفسها في هذه البلاد يمكنهما أن يتفقا معًا ويكون العرق أمرًا ثانويًا، ولكن في أمريكا حتى لو نشأ ولد أبيض وفتاة سوداء في الحي نفسه، سيكون العرق أولوية».

نظرت إليه أليكس نظرة مندهشة مرة أخرى.

«شرح مبسط قليلًا لكن نعم، هذا ما عنيته»، قال إمينايك ببطء مسندًا ظهره للوراء في كرسيه، وشعر أوبِنز بالصد؛ كان عليه أن يظل صامتًا فهذه منصة إمينايك.

«لكنك لم تضطر للتعامل مع أي عنصري، أليس كذلك يا إمينايك؟» قالت أليكس وبينت نبرتها أنها تعرف أن الجواب عن سؤالها مسبقًا كان لا. «طبعًا الناس ذوو كبرياء، ولكن ألسنا جميعًا هكذا؟»

«حسن، لا»، قالت جورجينا بحزم، «عليك أن تحكي قصة سائق الأجرة يا عزيزي».

«أوه، تلك القصة»، قال إمينايك حين نهض لتقديم صحن الجبن، هامسًا بشيء في أذن هانا جعلها تبتسم وتلمس ذراعه. كم كان متحمسًا للعيش في عالم جورجينا.

«احك»، قالت هانا.

وفعل إمينايك. حكى قصة سيارة الأجرة التي استوقفها ذات ليلة، في أبر ستريت، من بعيد كان مصباح السيارة مضاء، ولكنه أطفئ حين اقتربت منه السيارة، وافترض أن دوام السائق انتهى . بعد أن اجتازته سيارة الأجرة، نظر للخلف بكسل ورأى مصباح السيارة مضاء، وأنها توقفت لامرأتين بيضاوين على مسافة بعيدة قليلًا في الشارع.

حكى إمينايك هذه القصة لأوبِنز قبلًا وصدم بتغيير إمينايك لها الآن. لم يذكر الغضب الذي شعر به واقفًا في الشارع، وناظرًا إلى سيارة الأجرة، كان يرتجف، كما قال لأوبِنز، وظلت يداه ترتعشان لوقت طويل، مذعورًا قليلًا من مشاعره. لكنه الآن وهو يرشف آخر قطرات نبيذه الأحمر، والأزهار تطفو أمامه، تحدث بنبرة تطهرت من الغضب، مثخنة فقط بمتعة متفوقة، حين تتدخل جورجينا لتقول هل

تصدقون هذا؟

غيرت الموضوعَ أليكس، المحمرة من النبيذ الأحمر وعيناها حمراوان تحت شعرها القرمزي، «يجب أن يكون بلانكيت حساسًا ويحرص على أن تظل هذه البلاد ملاذًا. يجب أن يسمح للأشخاص الذين نجوا من حروب مرعبة بالدخول طبعًا!»، التفتت إلى أوبنز «ألا توافقني الرأي؟»

«بلى»، قال وشعر بالغرابة تغمره مثل قشعريرة.

ربما فهمت أليكس والضيوف الآخرين، وربما حتى جورجينا، الفرار من حرب من الفقر الذي يسحق أرواح البشر، لكنهم لن يفهموا الحاجة للهرب من البلادة الكابحة لانعدام الخيارات. لن يفهموا سبب أن يضطر أشخاص مثله، نشؤوا نشأة حسنة وأكلوا وشربوا لكنهم غرقوا في انعدام الرضا، محكومين منذ الولادة على النظر نحو اتجاه آخر، مقتنعين دومًا أن الحياة الحقيقية تجري في ذلك المكان الآخر، وإلى فعل أشياء خطيرة غير شرعية، ليغادروا، دون أن يكون أحدهم يتضور جوعًا، أو تعرض لاغتصاب، أو من قرى محروقة، لكنه فقط يتوق للخيار واليقين.

الفصل الثلاثون

أعطى نيكولاس أوبِنز بدلة لأجل الزفاف، قائلًا «إنها بدلة إيطالية جيدة. إنها صغيرة عليّ فلا بد أن تكون مناسبة لك». كان السروال كبيرًا وانتفخ حين ضيقه أوبِنز، لكن السترة، الكبيرة أيضًا، أخفت ثنيات القماش الخفيفة هذه عند خصره. لا يعني هذا أنه يبالي، فقد كان شديد التركيز على اجتياز النهار، ولبدء حياته أخيرًا، وكان سيلف أجزاءه السفلى في حفاض طفل لو اقتضى الأمر. التقى هو وإيوبا بكليوتايد قرب المركز المدني، وقد وقفت تحت شجرة مع صديقاتها، وشعرها مدفوع للوراء بربطة بيضاء، وعيناها مكحلتان بالأسود بكثافة، فبدت امرأة أكبر وأكثر فتنة. كان ثوبها العاجي ضيقًا عند الردفين. لقد دفع ثمن الثوب «ليس لدي ثوب خروج مناسب»، قالت معتذرة عندما اتصلت به لتخبره أنها لا تملك شيئًا يبدو مقنعًا كثوب عروس. عانقته، وبدت متوترة، وحاول أن يزيغ عن توتره بتخيلهما معًا بعد هذا، وأنه في أقل من ساعة سيكون حرًا في المشي بخطى أكثر ثقة في شوارع بريطانيا، وحرًا في تقبيلها.

«هل الخاتمان لديك؟»، سألها إيوبا.

«أجل»، قالت كليوتايد.

ابتاعتهما هي وأوبِنز قبل أسبوع، خاتمين متماثلين رخيصين بسيطين، من متجر في شارع جانبي، وبدت مسرورة للغاية، وهي تجرب ضاحكة خواتم مختلفة على

إصبعها ثم تخلعها، حتى تساءل إن تمنته زفافًا حقيقيًا.

«بقيت خمس عشرة دقيقة لنبدأ»، قال إيوبا. لقد عين نفسه منظمًا، والتقط الصور، وآلة تصويره بعيدة عن وجهه قائلًا، «اقتربا أكثر! حسن، واحدة أخرى!».
أزعجت معنوياته العالية المرحة أوبِنز. في القطار المتجه نحو نيوكاسل في اليوم السابق، حين قضى أوبِنز وقته ناظرًا من النافذة، عاجزًا حتى عن القراءة، تحدث إيوبا وتحدث، حتى صار صوته همهمة بعيدة، ربما لأنه حاول إبعاد أوبِنز عن الإفراط في القلق. وها هو يتحدث إلى صديقات كليوتايد بود سلس، عن مدرب تشيلسي الجديد، وعن الأخ الأكبر، كأنهم كانوا حاضرين جميعًا من أجل أمر عادي وطبيعي.

«حان الوقت»، قال إيوبا، فمشوا باتجاه المركز المدني. كان العصر مشرقًا بنور الشمس، وفتح أوبِنز الباب ووقف جانبًا ليدخل الآخرون إلى ممر قاحل، حيث توقفوا ليلتقطوا أنفاسهم، وليتأكدوا أي طريق عليهم سلكه للذهاب إلى مكتب التسجيل. وقف رجلا شرطة خلف الباب، يراقبانهم بعيون قاسية. فهدأ أوبِنز هلعه، وقال في نفسه لا داعي للقلق، لا داعي على الإطلاق، ولا بد أن وجود الشرطة في المركز المدني أمر روتيني، لكنه شعر في الضآلة المفاجئة للممر، والسماكة الفجائية للموت في الجو، أن ثمة خطبًا، وقبل أن ينتبه لرجل آخر يقترب منه مرفوع الأكمام وخداه شديدا الحمرة حتى بدا كأنه يضع زينة مخيفة.

«هل أنت أوبِنز مادويسوي؟»، سأل الرجل ذو الخدين الأحمرين، وفي يده حزمة أوراق واستطاع أوبِنز رؤية نسخة لصفحة من جواز سفره.

«أجل»، قال أوبِنز بهدوء، وعند هذه الكلمة، أدرك أن الرجل من مكتب الهجرة؛ لقد قضي الأمر بالنسبة لإيوبا ولكليوتايد ولنفسه.

«تأشيرتك منتهية، ولا يسمح لك بالوجود في المملكة المتحدة»، قال الرجل المحمر الخدين.

وضع شرطي الأصفاد حول معصميه. وشعر بنفسه كأنه يراقب مشهدًا من بعيد، مشاهدًا نفسه يمشي إلى سيارة الشرطة في الخارج، ويغوص في المقعد اللين جدًا في الخلف. في الماضي خشي من حدوث هذا مرات كثيرة، لحظات كثيرة صارت غشاوة هلع واحدة، وبدا الأمر الآن مثل الصدى الكئيب الذي يعقب الكارثة، وانهارت

كليوتايد على الأرض وأخذت تبكي. ربما لم تزر بلد والدها أبدًا، لكنها آمنت في تلك اللحظة بإفريقيتها، وإلا كيف تنهار على الأرض بهذا النجاح الدراماتيكي الباهر؟ تساءل إن بكت من أجله، أم من أجل نفسها أم لما كان سيحدث بينهما. لم يكن عليها أن تقلق، رغم ذلك، فباعتبارها مواطنة أوروبية بالكاد نظر إليها رجال الشرطة. لقد كان هو من شعر بثقل الأصفاد أثناء الرحلة إلى مخفر الشرطة، ومن سلم بصمت ساعته وحزامه ومحفظته، وراقب رجال الشرطة يأخذون هاتفه ويطفئونه. كان سروال نيكولاس الكبير ينزلق أسفل ردفيه.

«حذاءك أيضًا، اخلع حذاءك أيضًا»، قال رجل الشرطي.

خلع حذاءه، وأُخذ إلى زنزانة: صغيرة ذات جدران بنية، والقضبان المعدنية سميكة جدًا بحيث لا يمكن ليده أن تلتف على أحدها، ذكرته بقفص شمبانزي في حديقة الحيوانات المعتمة المهجورة في نسوكا. من السقف العالي جدًا تدلى مصباح وحيد محروق، وفي هذه الزنزانة سعة فارغة تُردّد الصدى.

«هل كنت تعرف أن تأشيرتك منتهية؟»

«أجل»، قال أوبِنز.

«هل كنت ستتزوج زواجًا زائفًا؟»

«لا، نتواعد أنا وكليوتايد منذ مدة».

«يمكنني تعيين محام لك، لكن من الواضح أنك سوف تبعد». قال مسؤول الهجرة بحيادية.

حين جاء المحامي، ذو الوجه الممتلئ والهالات السوداء تحت عينيه، تذكر أوبِنز كل الأفلام التي كان فيها محامي الدولة شاردًا ومنهكًا. جاء حاملًا حقيبة كبيرة لكنه لم يفتحها، وجلس قبالة أوبِنز، دون أن يحمل شيئًا، لا ملفًا ولا أوراقًا ولا قلمًا. كان سلوكه لطيفًا ومتعاطفًا.

«لدى الحكومة قضية قوية، ويمكننا الاستئناف ولكن بصراحة ستؤجل القضية فقط وستبعد عن المملكة المتحدة في نهاية الأمر»، قال، بهيئة رجل قال هذه الكلمات نفسها، بتلك النبرة نفسها مرات أكثر مما تمنى أن يفعل، أو يمكنه أن يتذكر.

«أود العودة إلى نيجيريا»، قال أوبِنز وقد كانت آخر كسرة من كرامته مثل

غلاف ينزلق عما حاول عقده يائسًا.

بدا المحامي متفاجئًا، «حسن إذًا»، قال ونهض بشيء من السرعة، كأنه ممتن لأن مهمته كانت أسهل. فرآه أوبِنز يغادر. كان سيضع إشارة 'صح' على استمارة تشير إلى رغبة موكله بالإبعاد. «إبعاد»، جعلت هذه الكلمة أوبِنز يشعر أنه جماد، شيء سينقل، شيء بلا نفَس ولا فكر، شيء.

كره الثقل البارد للأصفاد، والعلامة التي تصوَّر أنها تركتها على معصميه، ولمعان الحلقتين المعدنيتين المتصلتين اللتين سلبتا منه الحركة. كان هناك، مصفدًا ومقودًا عبر صالة مطار مانشستر، وفي برودة المطار وضجيجه، رجال ونساء وأطفال، مسافرون وعمال نظافة وحراس أمن، يراقبونه متسائلين عن الجريمة التي ارتكبها. أبقى نظرته على امرأة بيضاء طويلة، مستعجلة أمامهم، وشعرها يتطاير خلفها، وحقيبتها مكومة على ظهرها. لن تفهم قصته، لمَ يسير الآن في المطار بأصفاد معدنية حول رسغيه، لأن الناس أمثالها لا يفكرون بالسفر وهم يقلقون لأمر التأشيرة. قد ينتابها القلق حول المال، وحول مكان الإقامة وحول الأمان، وربما حتى حول التأشيرة لكنه لن يكون قلقًا مصحوبًا بتوتر يلتف حول عمودها الفقري.

أُخذ إلى غرفة، فيها أسرّة ضيقة مدفوعة ببؤس نحو الجدران، فيها ثلاثة رجال، أحدهم من جيبوتي تحدث قليلًا وهو مستلقٍ يحدق بالسقف كأنه يتابع رحلة كيف انتهى به الأمر في غرفة احتجاز في مطار مانشستر. كان الآخران نيجيريين، جلس الأصغر على سريره مفرقعًا أصابعه بلا نهاية، أما الأكبر فقد ذرع الغرفة ولم يكف عن الكلام.

«يا أخي، كيف جاؤوا بك هنا؟»، سأل أوبِنز، بألفة سريعة امتعض منها أوبِنز، وذكره شيء فيه بفنسنت. فرفع أوبِنز كتفيه ولم يخبره بشيء، لم يكن ثمة حاجة للباقة ببساطة لأنهم يتشاطرون زنزانة.

«هل من شيء يمكنني قراءته من فضلك؟»، سأل أوبِنز موظفة الهجرة حين جاءت لتأخذ الرجل الجيبوتي للقاء زائر.

«تقرأ»، كررت بحاجبين مرفوعين.

«أجل، كتاب أو مجلة أو صحيفة»، قال أوبِنز.

«تريد أن تقرأ»، قالت وعلى وجهها دهشة مهينة، «آسفة ولكن لدينا غرفة تلفاز ومسموح لك بالذهاب هناك لمشاهدة التلفاز بعد فترة الغداء».

في غرفة التلفاز جَمْع من الرجال، الكثير منهم من نيجيريا، يتحدثون بصوت عال. جلس الرجال الآخرون غارقين في أحزانهم، مستمعين إلى النيجيريين يتبادلون قصصهم، فيضحكون أحيانًا ويشفقون على ذواتهم أحيانًا أخرى.

«آه هذه المرة الثانية لي، جئت في المرة الأولى بجواز سفر مختلف». قال واحد منهم.

«قبضوا علي في العمل».

«أعرف رجلًا أبعدوه، لم يعد ليأخذ أوراقه، ساعدني بهذه الطريقة»، قال آخر. حسدهم أوبنز لما كانوه، رجال يغيرون الأسماء وجوازات السفر باستمرار، ويخططون للعودة وفعلها ثانية لأنهم ليس لديهم ما يخسرونه. لم يكن لديه مهاراتهم، فقد كان رخوًا، ولدًا نشأ يأكل رقائق الذرة ويقرأ الكتب، ربّته أُمّه في وقت لم يكن فيه قول الحقيقة قد صار رفاهية. وخجل من وجوده معهم وبينهم. لم يشعروا بخجله، وقد حسدهم لهذا أيضًا.

—

في الحجز، شعر أنه غِر، بلا جلد، وقد نزعت الطبقات الخارجية لذاته. كان صوت أمه على الهاتف غريبًا قليلًا، امرأة تتحدث بإنجليزية نيجيرية حيوية مخبرة إياه بهدوء أن يكون قويًا، وأنها ستكون في ليغوس لاستقباله. حين توقف الجنرال بخاري عن صرف البدلات الأساسية، أخذت تطحن فول الصويا في المنزل لصنع الحليب. قالت إن حليب الصويا أكثر في فوائده الغذائية من حليب البقر، ورغم رفضه شرب حليب الحبوب صباحًا، لكنه يراها تفعل ذلك بمنطق قانع. وهذا ما أظهرته على الهاتف، مخبرة إياه أنها ستأتي لأخذه، كأنها عاشت مع هذا الاحتمال، أن يكون ابنها محتجزًا، منتظرًا إبعاده عن بلد خلف البحار.

فكر كثيرًا بإفيملو، متخيلًا ما تفعله، وكم تغيرت حياتها. قالت له مرة في الجامعة «هل تعرف أكثر ما أعجبني فيك في المدرسة الثانوية؟ أنك لا تجد مشكلة في قول لا أدري. يتظاهر الأولاد الآخرون أنهم يعرفون ما لا يعرفون. لكنك تتمتع بالثقة

وبإمكانك الاعتراف أنك لا تعرف أمرًا ما». رأى الأمر على أنه إطراء غريب، وقدر هذه الصورة عن نفسه، ربما لأنه عرف أنها ليست صحيحة تمامًا. تساءل عما ستظنه لو عرفت أين هو الآن. وكان واثقًا أنها ستتعاطف معه، ولكن هل ستكون خائبة الأمل أيضًا بطريقة ما؟ أوشك أن يطلب من إيوبا الاتصال بها، ولن يكون العثور عليها أمرًا صعبًا، فهو يعرف أنها تعيش في بالتيمور، لكنه لم يطلب من إيوبا. حين زاره إيوبا تحدث عن المحامين، وقد جلس قبالة أوبِنز وأراح رأسه على يده. تساءل أوبِنز إن كان إيوبا يعرف بعض المحامين. «أعرف محاميًا في لندن، من غانا، قد مثّل رجلًا بلا أوراق، وكان الرجل على الطائرة تقريبًا للمغادرة، وما عرفناه تاليًا أن الرجل كان حرًا. إنه يعمل الآن في تقنية المعلومات». في مرات أخرى، كان إيوبا يجد راحة في شرح الواضح فيقول: «لو أن القران عقد قبل قدومهم! هل تعرف أنهم لو جاؤوا بعد إعلانكما زوجًا وزوجة ولو بثانية واحدة فلن يمسوك؟»، هز أوبِنز رأسه موافقًا. إنه يعرف وإيوبا يعرف أنه يعرف. في زيارة إيوبا الأخيرة، بعد أن أخبره أوبِنز أنهم سينقلونه إلى دوفر غدًا، أخذ إيوبا يبكي. «زد، لم يكن يفترض بهذا أن يحدث على هذا النحو».

«إيوبا؟ لمَ تردّد الهراء؟ كُفّ عن البكاء يا صديقي»، قال أوبِنز، مسرورًا لكونه في وضع يتيح له التظاهر بالقوة.

ومع ذلك حين زاره نيكولاس وأوجيوغو، كره محاولاتهما الجاهدة في أن يكونا إيجابيين، وأن يتظاهرا تقريبًا بأنه مريض في المستشفى وأنهما جاءا لزيارته. جلسا قبالته، وبينهما الطاولة العارية الباردة، وتحدثا عن أمور عادية، وأوجيوغو تتحدث بشيء من السرعة، ونيكولاس يقول في ساعة أكثر مما سمعه أوبِنز يقوله في أسابيع: قُبلت نني في أوركسترا الأطفال الوطنية، وفاز ننا بجائزة أخرى. جلبا له المال والروايات وحقيبة ملأى بالثياب اشتراها له نيكولاس، وكانت معظم الثياب جديدة وبمقاسه. كثيرًا ما سألته أوجيوغو «لكن هل تعاملهم جيد؟ هل يعاملونك جيدًا؟»، وكأن المعاملة مهمة، أكثر من الواقع المدمر للأمر كله، وأنه في مركز احتجاز، وعلى وشك ترحيله. لا أحد تصرف على نحو طبيعي، كلهم كانوا تحت تعويذة حظه السيء.

«إنهم بانتظار توفر مقاعد على الرحلة المتجهة إلى ليغوس. سيبقونني في دوفر حتى توفر المقاعد»، قال أوبنز.

قرأ أوبِنز عن دوفر في صحيفة، كانت لسجين سابق. بدا الأمر سرياليًا، أن يقتاد عابرًا البوابات الإلكترونية، والأسوار العالية والأسلاك. كانت زنزانته أصغر وأبرد من الأخرى في مانشستر، وأخبره زميله في الزنزانة، وهو نيجيري، أنه لن يسمح لهم بترحيله. كان له وجه متحجر بلا لحم. «سأخلع حذائي وقميصي حين يأخذوني للطائرة، سأسعى للجوء»، قال لأوبِنز، «إن خلعت قميصك وحذاءك، فلن يأخذوك على متن الطائرة»، وكرر هذا كثيرًا مثل لازمة. كان يتجشأ بصوت عالٍ من وقت لآخر، دون كلام، وبين الحين والآخر يجثو على ركبتيه في وسط زنزانتهما الصغيرة، ويداه مرفوعتان للأعلى نحو السماء ويصلي «أبانا الإله، أمجد اسمك! لا شيء يصعب عليك! تبارك اسمك!»، كانت راحتا يديه محفورتين بخطوط عميقة. وتساءل أوبِنز عن الفظاعات التي شهدتها يداه. شعر بالاختناق في تلك الزنزانة، وسمح له بالخروج للتريض والطعام فقط، الطعام الذي يذكره بطبق من الديدان المطبوخة. لم يستطع الأكل، وشعر بجسده يهزل ولحمه يتلاشى. وفي اليوم الذي اقتيد فيه في شاحنة ذات صباح باكر، واكتسى ذقنه بأكمله بشعر أشعث مثل وبر سجادة. لم يكن الفجر قد حل بعد، وكان مع امرأتين وخمسة رجال، كلهم مصفدون، وكلهم متجهون إلى نيجيريا، وأخذوا مشيًا في مطار هيثرو، عبر الأمن والهجرة ثم إلى الطائرة، تحت أنظار المسافرين الآخرين. أجلسوا في الخلف، في الصف الأخير من المقاعد، وأقرب إلى دورة المياه. فجلس أوبِنز بلا حراك أثناء الرحلة. لم يكن يرغب بصينية وجبته «لا، شكرًا لك»، قال لمضيفة الطيران.

قالت المرأة الجالسة قربه بلهفة «هل يمكنني الحصول على وجبته؟»، كانت في دوفر أيضًا، ولها شفتان داكنتان جدًا وأسلوب مرح غير مهزوم. كان واثقًا أنها ستحصل على جواز سفر جديد باسم آخر وتحاول ثانية.

حين بدأت الطائرة تحط في ليغوس، وقفت مضيفة الطيران قربهم وقالت «لا يمكنكم المغادرة. سيأتي موظف الهجرة ويتولى أمركم». كان وجهها عابسًا بالاشمئزاز، وكأنهم جميعًا مجرمون يسببون الخزي للنيجيريين المستقيمين أمثالها. فرغت

الطائرة. ونظر أوبِنز من النافذة إلى طائرة تقف تحت شمس العصر المعتدلة، حتى جاء رجل يرتدي بدلة رسمية ماشيًا في الممر. كان بطنه كبيرًا، لا بد أنه يكافح لإغلاق أزرار قميصه.

«أجل أجل، لقد جئت لأتولى أمركم! أهلًا بعودتكم!»، قال ضاحكًا، وذكر أوبِنز بالقدرة النيجيرية على الضحك، وبلوغ السرور بسهولة. لقد افتقد هذا، «نحن نضحك كثيرًا»، قالت أمه مرة، «ربما علينا أن نقلل من الضحك ونحل مشاكلنا أكثر».

أخذهم الرجل ذو الزي الرسمي إلى مكتب، وسلمهم استمارات. كتب فيها الاسم، والعمر والبلد التي جُلب كلّ واحد منها.

«هل عاملوك جيدًا»، سأل الرجل أوبِنز.

«أجل»، قال أوبِنز.

«إذًا هل تحمل شيئًا من أجل الأولاد؟»، نظر إليه أوبِنز للحظة، بوجهه البسيط ونظرته البسيطة نحو العالم. كان الترحيل يحدث كل اليوم وواصلت الحياة حياتها. أخرج أوبِنز من جيبه ورقة نقدية بعشر جنيهات، بقيّة المال الذي أعطاه نيكولاس، فأخذها الرجل مبتسمًا.

كان الأمر في الخارج يشبه استنشاق البخار، فشعر بالنشوة. وغلفه حزن جديد؛ حزن أيامه القادمة، حين سيشعر بالعالم المختل التوازن، ورؤيته دون تركيز. في المنطقة المسورة (ممنوع الاقتراب) قرب مبنى الواصلين في المطار، كانت أمه بانتظاره، تقف بعيدًا عن المستقبلين الآخرين.

الجزء الرابع

الفصل الواحد والثلاثون

بعد أن انفصلت إفيملو عن كيرت، قالت لجينيكا «ثمة شعور وددت الإحساس به، لكني لم أشعر به».

«ما الذي تتحدثين عنه؟ هل خنتِه؟»، هزت جينيكا رأسها كأن إفيملو مجنونة، «بصراحة لا أفهمك أحيانًا يا إفيم».

لقد كان ذلك صحيحًا، فقد خانت كيرت مع رجل أصغر يسكن في بنايتها في تشارلز فيلج ويعزف في فرقة. كما كان صحيحًا أنها تاقت مع كيرتِ أن تلمس بيدها العاطفةَ التي لم تجدها أبدًا. لم تصدق نفسها تمامًا حين كانت معه؛ كيرت السعيد الوسيم، الذي يستطيع أن يشكّل حياتها بالشكل الذي يريده. لقد أحبته وأحبت الحياة المريحة الحيوية التي منحها لها، غير أنها كثيرًا ما قاومت الرغبة في اختلاق بعض النقائص وسحق بهجته، حتى إن كان ذلك قليلًا.

«أظنك تهوين تدمير ذاتك، لهذا قطعت علاقتك بأوبِنز هكذا. وها أنت الآن تخونين كيرت لأنك بشكل ما ترين أنك لا تستحقين السعادة»، قالت جينيكا.

«والآن ستقترحين بعض الأقراص لعلاج اضطراب تدمير الذات. هذه سخافة»، قالت إفيملو.

«إذًا لمَ فعلت ذلك؟»

«كان خطأ، والناس يرتكبون الأخطاء، ويفعلون أشياء غبية».

في الحقيقة، لقد فعلت ذلك لأنها كانت فضولية، لكنها لن تقول هذا لجينيكا، لأن الأمر سيبدو تافهًا. لن تفهم جينيكا، إذ تفضل جينيكا سببًا هامًا وكئيبًا مثل تدمير الذات. لم تكن واثقة حتى أنه أعجبها، روب، الذي يرتدي سروال جينز قذرًا ممزقًا، وحذاء مغطى بالوحل، وقمصانًا مجعدة من الفلانل. لم تفهم نمط الغرنج[57]، وفكرة الظهور بمظهر رث ما دمت تستطيع ألا تظهر بهذه الهيئة، كان تقليدًا للرثاثة الحقيقية. جعله نمط ثيابه يبدو مصطنعًا له، ورغم ذلك كانت فضولية بشأنه، وكيف سيبدو عاريًا في السرير معها. كان الجنس جيدًا في المرة الأولى، إذ تعتليه، وتتمايل وتتأوه وتمسك بشعر صدره، وتشعر أنها ممثلة ساحرة قليلًا وهي تفعل ذلك. ولكن حين دخلت شقته في المرة الثانية وجذبها إلى ذراعيه، خيمت عليها بلادة كبيرة. حينئذ تنفس بصعوبة، وحاولت تخليص نفسها من عناقه وحمل حقيبة يدها والمغادرة. في المصعد، استولى عليها شعور مخيف بأنها تبحث عن شيء صلب، وكل ما لمسته ذاب إلى العدم. فذهبت إلى شقة كيرت وأخبرته.

«لم يعنِ الأمر شيئًا، فقد حدث مرة واحدة فحسب، وأنا آسفة».

«كفي عن التلاعب»، قال، لكنها أدركت من ريبته المذعورة التي تعمقت في عينيه الزرقاوين أنه يعرف أنها لم تكن تمزح. استغرق الأمر ساعات من تحاشي أحدهما الآخر، وشرب الشاي وتشغيل الموسيقى وتفقد البريد الإلكتروني، وكيرت مستلقٍ على الأريكة ووجهه للأعلى، صامت وهادئ، قبل أن يسأل، «من هو؟»

أخبرته أن اسم الرجل روب.

«هل هو أبيض؟»

فوجئت بسؤاله عن هذا سريعًا، «أجل». رأت روب أول مرة قبل أشهر، في المصعد، بثيابه المجعدة وشعره غير المغسول، وابتسم لها وقال «أراك في الجوار»، وبعد ذلك، كلما رأته نظر إليها بهذا الاهتمام الكسول، وكأن كليهما عرف أن شيئًا ما سيحدث بينهما وكانت مسألة وقت فحسب.

«من هو بحق الجحيم؟»، سأل كيرت.

---

57) نمط من موسيقى الروك.

أخبرته أنه يسكن في الطابق الأعلى من طابقها، وأنهما يتبادلان التحايا ولا شيء آخر حتى تلك الأمسية؛ حين رأته عائدًا من متجر الشراب وسأل إن كانت تود أن تشرب معه، وقد فعلت أمرًا غبيًا متهورًا.

«أعطيته ما أراد»، قال كيرت. وقد شدت عضلات وجهه. إنه أمر غريب يقوله كيرت، فهو الشيء الذي قد تقوله العمة أوجو التي ترى أن الجنس أمر تعطيه المرأة للرجل فتخسر نفسها.

صححت لكيرت، في نوبة واهنة مفاجئة من اللامبالاة، «أخذت ما أردت، وإن أعطيته شيئًا فهو نتيجة لما أخذت».

«اسمعي نفسك، اسمعي نفسك بحق الجحيم!»، صار صوت كيرت خشنًا، «كيف يمكنك فعل هذا بي؟ كنت طيبًا معك».

نظر إلى علاقتهما بعين الماضي، فحيرتها قدرة الحب الرومانسي على التحول، وكيف يصبح الحبيب غريبًا بسرعة. أين ذهب الحب؟ ربما كان الحب الحقيقي أسريًا، متصلًا بالدم بشكل ما، ما دام حب الأبناء لا يموت مثلما يفعل الحب الرومانسي.

«لن تغفر لي»، قالت بنصف سؤال.

«عاهرة»، قال.

أمسك بالكلمة مثل سكين، وخرجت من فمه حادة بالاشمئزاز. أن تسمع كيرت يقول «عاهرة» ببرود بدا سرياليًا، وتجمعت الدموع في عينيها، موقنة أنها حولته إلى رجل يمكنه قول «عاهرة» ببرود شديد، وتمنت لو كان رجلًا لا يقول «عاهرة» أيًا كان الأمر. فبكت وبكت وحيدة في شقتها، وتكورت على بساط غرفة المعيشة الذي استخدم قليلًا، حتى إنه ما زال يعبق برائحة المتجر. كانت علاقتها مع كيرت مثلما أرادتها، علامة أنيقة في حياتها، إلا أنها أخذت فأسًا وحطمتها. لماذا دمرتها؟ تخيلت أمها تقول إن ذلك بسبب الشيطان، وتمنت لو أنها آمنت بوجود الشيطان، وبكائن خارجي يغزو عقلها ويجعلها تدمر ما تهتم لأمره.

أمضت أسابيع تتصل بكيرت، وتنتظر أمام بنايته حتى يعود، قائلة مرة بعد أخرى إنها آسفة، وإنها أرادت أن يتجاوزا الأمر. وفي اليوم الذي استيقظت فيه وتقبلت أخيرًا أن كيرت لن يعاود الاتصال بها، ولن يفتح باب شقته لها مهما قرعت،

ذهبت وحيدة إلى حانتهما المفضلة في وسط المدينة. ابتسمت الساقية التي تعرفهما ابتسامة رقيقة لها، وابتسامة تعاطف. فابتسمت لها وطلبت شراب موهيتو آخر، ظانة أن الساقية ربما تناسب كيرت، بشعرها البني المجفف بالهواء ليصبح لامعًا، وذراعيها النحيلتين وملابسها السوداء الضيقة، وقدرتها دومًا أن تكون قانعة، وثرثارة دون أذى. ستكون هي أيضًا قانعة، مخلصة بلا أذى، لو كان لديها رجل مثل كيرت، فلن تكون مهتمة بمضاجعة فضولية مع غريب يعزف موسيقى نشاز. حدقت إفيملو بكأسها. ثمة خطب ما، لم تعرف ما هو لكنّ بها خطبًا. جوع وإنهاك ومعرفة ناقصة بذاتها، والإحساس بشيء أبعد، بعيدًا عن متناولها. ثم نهضت وتركت بقشيشًا كبيرًا على المنضدة. ظلت ذكراها عن انتهاء العلاقة مع كيرت لوقت طويل بعد ذلك كالتالي: المرور سريعًا بشارع تشارلز بسيارة أجرة، ثملة قليلًا ومرتاحة قليلًا ووحيدة قليلًا، مع سائق بنجابي يخبرها بفخر أن أولاده أفضل من الأطفال الأمريكيين في المدرسة.

—

بعد بضع سنوات، في حفل عشاء في مانهاتن، بعد اختيار باراك أوباما ليكون المرشح الديمقراطي لرئاسة الولايات المتحدة، محاطة بالضيوف، وكلهم مؤيدون مخلصون لأوباما، ثملون من النصر والنبيذ، قال رجل أبيض مصلوع: «سيقضي أوباما على العنصرية في هذه البلاد»، ووافقت شاعرة أنيقة كبيرة الردفين من هاييتي على ذلك، هازة لبدة أكبر من لبدة إفيملو، وقالت إنها واعدت رجلًا أبيض لثلاث سنوات في كاليفورنيا ولم يكن العِرق مهمًا بالنسبة لهما.

«هذه كذبة»، قالت لها إفيملو.

«ماذا؟»، سألت المرأة، كأنها لم تسمعها جيدًا.

«إنها كذبة»، كررت إفيملو.

جحظت عينا المرأة، «هل تخبرني كيف كانت تجربتي الخاصة؟»

رغم أن إفيملو أدركت حينها أن الناس أمثال المرأة يقولون ما يقولونه ليبقوا الآخرين مسرورين، ولإظهار تقديرهم لمدى ما بلغناه، ورغم أنها كانت حينئذ مستقرة بسعادة في دائرة أصدقاء بلين، وأحدهم صديق تلك المرأة، إلا أنها لم تفعل. لم تستطع، فقد غلبتها الكلمات مرة أخرى، واستحوذت على حنجرتها وتسللت خارجًا.

«السبب الوحيد الذي يدعوك لقول إن الأصل العرقي ليس مهمًا هو أمنيتك ألا يكون كذلك. نحن كلنا نتمنى ذلك، لكنها كذبة. جئت من بلد لم يكن العرق مهمًا فيه، لم أنظر لنفسي على أني سوداء بل أصبحت سوداء فقط حين جئت إلى أمريكا. حين تكونين سوداء في أمريكا وتقعين في غرام رجل أبيض، لا يهم العرق حين تكونان معًا وحدكما، لأنك أنت وحبيبك فقط. ولكنه يصبح مهمًا في اللحظة التي تخطين فيها خارجًا، غير أننا لا نتحدث عنه. نحن لا نخبر شركاءنا البيض الأشياء الصغيرة التي تزعجنا والأمور التي نتمنى لو فهموها فهمًا أفضل، لأننا نخشى من قولهم إننا نبالغ، أو إننا مفرطو الحساسية. ولا نريد لهم أن يقولوا، انظروا كم تقدمنا، فقبل أربعين عامًا فقط كان من غير القانوني أن نشكّل ثنائيًا وما إلى ذلك، هل تعلمين بم نفكر حين يقولون هذا؟ لمَ لا بد للأمر أن يكون مخالفًا للقانون بحق الجحيم؟ لكننا لا نقول هذه الأشياء، بل نجعلها تتراكم داخل رؤوسنا وحين نحضر عشاءات متحررة كهذه، نقول إن العرق ليس أمرًا مهمًا لأن هذا ما يفترض بنا قوله، لنبقي أصدقاءنا التحرريين مرتاحين. هذه حقيقة، أنا أتحدث من تجربتي».

نظرت المضيفة، وهي امرأة فرنسية، إلى زوجها الأمريكي، وابتسامة خبيثة مسرورة على وجهه؛ إذ تكون العشاءات أكثر متعة حين يقول الضيوف أمورًا مفاجئة ومهينة.

هزت الشاعرة رأسها نفيًا وقالت للمضيفة «أود أن آخذ معي للبيت بعضًا من الغموض الجميل إن بقي منه شيء»، ونظرت إلى الآخرين وكأنها لم تصدق أنهم يستمعون إلى إفيملو حقًا. لكنهم فعلوا، وكلهم صامتون، وعيونهم على إفيملو وكأنها على وشك إفشاء سر فاضح سيثيرهم ويورطهم في آن معًا. شربت إفيملو كثيرًا من النبيذ الأبيض، وشعرت بين الفينة والأخرى بإحساس يسبح في عقلها، وسترسل لاحقًا رسائل اعتذار للمضيفة والشاعرة. لكن الجميع نظروا إليها، حتى بْلين، الذي لم تستطع فهم تعبير وجهه بوضوح، لمرة، ولذا بدأت تتحدث عن كيرت.

لم يكن الأمر أنهما تجاوزا العرق هي وكيرت، فقد تحدثا عنه بتلك الطريقة المضللة التي لا تقر بشيء ولا تتصل بشيء وتنتهي بكلمة «جنون»، مثل قطعة دجاج غريبة الشكل، تفحص ثم تلقى جانبًا. أو مثل دعابة سببت لها خدرًا ضئيلًا ومزعجًا

لم تعترف له به أبدًا. ولم يكن الأمر أن كيرت تظاهر أن الأسود والأبيض متماثلان في أمريكا، فهو يعلم أنهما ليسا كذلك. بل كان الأمر، بدلًا من ذلك، أنها لم تدرك كيف يتمسك بأمر، لكنه يصم أذنيه تمامًا عن أمر مماثل آخر، وكيف يمكنه أن يقفز قفزة خيالية واحدة بسهولة، لكنه يُشلّ في مواجهة أخرى. قبل زفاف ابنة عمه آشلي، مثلًا، أخذها إلى مركز تجميل صغير قرب بيت طفولته، لتعديل حواجبها. دخلت إفيملو وابتسمت للمرأة الآسيوية خلف المنضدة.

«مرحبًا، أريد نتف حواجبي».

«نحن لا ننتف الشعر المجعد»، قالت المرأة.

«لا تنتفون الشعر المجعد؟»

«لا، آسفة».

نظرت إفيملو إلى المرأة طويلًا، فالأمر لا يستحق افتعال شجار. إن لم يكونوا ينتفون الشعر المجعد فهم لا يفعلون. فاتصلت بكيرت وطلبت منه أن يستدير ويعود لأخذها، لأن مركز التجميل لا ينتفون الشعر المجعد. دخل كيرت وعيناه الزرقاوان أكثر زرقة، وقال إنه يريد الحديث إلى المديرة الآن، «ستنتفون حواجب حبيبتي بحق الجحيم، وإلا سأغلق هذا المكان اللعين. لا تستحقون الحصول على الرخصة».

تحولت المرأة إلى مغناج مبتسمة «آسفة، لقد حدث سوء فهم»، قالت، يمكنهم نتف الحواجب، لكن إفيملو لم تعد راغبة وخشيت أن تحرقها المرأة، وتنتزع جلدها وتقرصها، لكن كيرت كان غاضبًا جدًا نيابة عنها، وغضبه يستشيط في الهواء المغلق للمركز فجلست متوترة والمرأة تنتف حاجبيها بالشمع.

سأل كيرت في طريق العودة «كيف يكون شعر حاجبيك مجعدًا على أية حال؟ وكيف يكون نتف هذا بالشمع صعبًا بحق الجحيم؟»

«ربما لم ينتفوا شعر امرأة سوداء من قبل فظنوا أنه مختلف، لأن شعرنا مختلف قليلًا، في الحقيقة، لكني أظنها أدركت الآن أن الحواجب لا تختلف».

شتم كيرت واقترب ليأخذ يدها، وكانت راحة يده دافئة. في حفل الاستقبال، أبقى أصابعه مشبوكة بأصابعها، وقد تجمعت إناث شابات في ثياب قصيرة، أنفاسهن وأحشاؤهن مبلوعة للداخل، لتحيته وللتودد إليه، سائلات إن كان يتذكرهن؛ أنا

صديقة آشلي من المدرسة الثانوية، وأنا شريكة آشلي في السكن في الجامعة. حين قال كيرت «هذه حبيبتي إفيملو»، نظرن إليها بدهشة، دهشة أخفاها بعضهن وبعضهن الآخر لم يفعل، وكان السؤال «لمَ هي؟» يكمن في ملامحهن. أسعد ذلك إفيملو، فقد رأت هذه النظرة من قبل على وجوه نساء بيضاوات غريبات في الشارع رأينها تمسك بيد كيرت فخيمت على وجوههن بسرعة تلك النظرة، نظرة أشخاص يواجهون فقدًا عظيمًا في القبيلة. لا لأن كيرت أبيض فقط، بل أبيض من نوع محدد، بالشعر الذهبي الفوضوي والوجه الوسيم والجسد الرياضي، وفتنة بريق المال ورائحته. ولو كان بدينًا، أو أكبر سنًا، أو غريب الأطوار أو ذا جدائل، لكان الأمر عندها أقل أهمية، ولهدأ حراس القبيلة. ولم يخفف من الأمر أنها فتاة سوداء جميلة، فهي ليست النوع الذي يمكنهن تخيله معه، بقليل من الجهد، فلم تكن فاتحة البشرة، ولم تكن ثنائية العرق. في الحفلة حين أمسك كيرت بيدها، وقبلها كثيرًا وقدّمها للجميع، تحولت متعتها إلى إرهاق. وأخذت النظرات تثقب جلدها، فقد سئمت من حاجتها للحماية، رغم حماية كيرت.

مال كيرت وهمس «أترين هذه، ذات رذاذ الاسمرار السيئ؟ لم تر أن صديقها اللعين يتفحصك منذ أن دخلنا».

إذًا فقد لاحظ وفهم سبب النظرات القائلة «لمَ هي؟»، وفاجأها. أحيانًا، كان ينتابه وميض من الحدس والملاحظة المفاجئة وسط طوافه في المرح والحيوية، فتتساءل إن كان ثمة أمور أولية أخرى لم تعرفها عنه. مثلما حدث حين قال لأمه، التي كانت تنظر إلى صحيفة الصنداي وتهمهم حول استمرار بعض الأشخاص في البحث عن أسباب للتذمر رغم أن أمريكا صارت ضد العنصرية «بربك يا أمي، ماذا لو أن عشرة أشخاص يشبهون إفيملو دخلوا هنا ليأكلوا؟ هل تدركين أن رفاقنا مرتادي المطعم سيشعرون بالاستياء؟»

«ربما»، قالت أمه على نحو ملتبس، ورفعت حاجب اتهام لإفيملو، كأنها تقول إنها تعرف جيدًا من غيّر ابنها ليصبح مدافعًا متحمسًا عن الأصل العرقي، فابتسمت إفيملو ابتسامة نصر صغيرة.

ومع ذلك، زارا عمته كلير في فيرمونت مرة، وهي امرأة تملك مزرعة عضوية

وتسير حافية القدمين وتقول إن ذلك يجعلها مرتبطة بالأرض. هل حظيت إفيملو بتجربة كهذه في نيجيريا؟ سألت، وبدت محبطة حين قالت إفيملو إن أمها كانت ستصفعها إن خرجت بلا حذاء. تحدثت كلير، طوال الزيارة، عن رحلتها السفاري في كينيا، وعن سمو مانديلا، وعن افتتانها بهاري بيلافونتي[58]، وخشيت إفيملو أن تنتقل إلى اللغتين الإيبونية[59] والسّاحليّة. حين غادرا منزلها المعرش، قالت إفيملو «أراهن أنها ستكون امرأة مثيرة للاهتمام لو أنها كانت نفسها فقط. لا أحتاج منها أن تبالغ في تأكيدها أنها تحب السود».

وقال كيرت إن الأمر لا يتعلق بالأصل العرقي، بل بأن عمته شديدة الوعي بالاختلاف، أي اختلاف.

«كانت ستفعل الأمر نفسه تمامًا لو أنني زرتها مع فتاة روسية شقراء»، قال.

لم تكن عمته لتفعل الشيء نفسه مع شقراء روسية بالطبع. فالشقراء الروسية بيضاء، ولن تشعر عمته بالحاجة إلى إثبات أنها تحب الأشخاص الذين يشبهون الروسية الشقراء. لكن إفيملو لم تقل هذا لكيرت لأنها تمنت أن يكون واضحًا له.

حين دخلا مطعمًا طاولاته مغطاة بالكتان الأبيض، ونظر إليهما المضيف وسأل كيرت «طاولة لشخص واحد؟»، قال لها كيرت بسرعة أن المضيف لم يقصد «هذا»، وأرادت أن تسأله «ماذا يمكن أن يكون قصد المضيف إذًا؟». وحين رفضت صاحبة النزل ذات الشعر الأشقر المائل للحمرة في مونتريال قبول حجزهما رفضًا حاسمًا، وهي تبتسم وتنظر لكيرت فقط، أرادت أن تقول لكيرت كم شعرت بالإهانة، والأسوأ لأنها لم تكن واثقة إن كانت المرأة تكره السود أو معجبة بكيرت. لكنها لم تفعل، لأنه سيقول لها إنها تبالغ أو متعبة أو كلهما، فثمة أوقات يرى فيها بوضوح وأوقات لا يستطيع أن يرى. وعرفت أن عليها إخباره بكل هذه الأفكار، وأن إخباره سيلقي بظلال عليهما معًا، ومع ذلك اختارت الصمت. حتى جاء اليوم الذي تجادلا فيه حول مجلتها. حمل نسخة من إسنس من كومة المجلات على طاولتها، في واحد

58) (1927) مغنٍ أمريكي من أصول جامايكية.

59) لهجة يتحدث بها السود في أمريكا.

من الصباحات النادرة التي يقضيانها في شقتها، وما زال الهواء مثقلًا برائحة الأومليت الذي أعدّته.

«كأن هذه المجلة متحيزة عنصريًا»، قال.

«ماذا؟»

«بريك، أليس فيها سوى صور نساء سوداوات فقط؟»

«أنت جاد»، قالت.

بدا محتارًا «أجل».

«سنذهب إلى المكتبة».

«ماذا؟»

«أريد أن أريك شيئًا. لا تسأل».

«حسن»، قال مرتابًا بأمر هذه المغامرة الجديدة لكنه متحمس للمشاركة ببهجة طفل.

قادت السيارة باتجاه المكتبة في إنر هاربر، وأخذت عددًا من المجلات النسائية المختلفة من رف العرض، وسارت نحو المقهى.

«هل تريدين لاتيه؟»، سأل.

«أجل، شكرًا».

بعد أن جلسا على الكراسي، وأمامهما كوبان ورقيان، قالت "لنبدأ بالأغلفة". بسطت المجلات على الطاولة، بعضها فوق بعض. "انظر، كلهن نساء بيضاوات، يفترض بهذه أن تكون هسبانو، ونعرف هذا لأنهم كتبوا كلمتين إسبانيتين هنا، لكنها تبدو تمامًا مثل هذه المرأة البيضاء، لا اختلاف في درجة لون بشرتها وشعرها وملامحها. والآن سأقلب صفحة بعد صفحة، وأخبرني كم امرأة سوداء سترى".

"حبيبتي بريك"، قال كيرت مبتهجًا، مسندًا ظهره للوراء، والكوب الورقي على شفتيه.

"جاريني فحسب"، قالت.

وبدأ العدّ، "ثلاث نساء سوداوات"، قال أخيرًا، "أو ربما أربع. يمكن أن تكون هذه سوداء".

«إذًا ثلاث نساء سوداوات في ألفي صفحة تقريبًا من المجلات النسائية، وكلهن

ثنائيات العرق أو عرقهن مجهول، فيمكن أن يكنّ هنديات أو من بورتوريكو أو غيرها، ولا واحدة منهن سوداء. ولا واحدة منهن تشبهني، لذلك لا أحصل على نصائح للزينة من هذه المجلات. انظر، يقول هذا المقال أن تقرصي خديك لتلوينهما لأنه يفترض بكل قرائهم أن يكون لهم وجنات تقرص لتلوينها. وهذا يخبرك عن مختلف منتجات الشعر للجميع؛ والجميع تعني الشقراوات والسمراوات وذوات الشعر الأحمر. وأنا لست واحدة منهن. وهذا يخبرك عن أفضل أنواع البلسم؛ للشعر المتموج والملتف، وليس الأجعد. أترى ما يقصدون بالملتف؟ لا يمكن لشعري أن يكون هكذا. وهذا يخبرك عن ملاءمة لون عينيك لظل الجفون، أزرق أو أخضر وعسلي. لكنّ عينيّ سوداوان لذا لا أعرف ما هو لون الظل المناسب لي. وهذا يقول إن أحمر الشفاه الوردي هذا عالمي، لكنهم يقصدون عالميًا إن كنت أبيض لأني سأبدو مثل الغلوغ[60] لو جربت هذه الدرجة من الوردي. أوه، انظر هنا بعض التقدم. إعلان لكريم الأساس، هناك سبع درجات مختلفة للبشرة البيضاء ودرجة واحدة عادية بلون الشوكولاته، لكن هذا تقدم. والآن دعنا نتحدث عن التحيز العنصري، هل تفهم لم توجد مجلات مثل إسنس؟»

«حسن يا حلوتي، حسن. لم أقصد أن يكون الأمر ذا أهمية كبيرة»، قال.

كتبت إفيملو تلك الليلة رسالة إلكترونية طويلة إلى وامبوي عن المكتبة والمجلات والأمور التي لم تقلها لكيرت، أمور لم تقل ولم تنته. كانت رسالة طويلة تحفر وتسأل وتقلب، وردت وامبوي بقولها «هذا مؤلم جدًا وحقيقي. لا بد أن يقرأ أشخاص أكثر هذا، عليك أن تنشئي مدونة».

كانت المدوّنات جديدة وغريبة عليها، لكن إخبار وامبوي بما حدث لم يكن مرضيًا بما يكفي لها، وتطلعت إلى مستمعين آخرين، وتطلعت لسماع قصص الآخرين. كم عدد الأشخاص الآخرين الذين اختاروا الصمت؟ كم عدد الأشخاص الآخرين الذين صاروا سودًا في أمريكا؟ كم عدد الذين شعروا كأن عالمهم مغلف بالسديم؟ انفصلت عن كيرت بعد أسابيع قليلة من هذا، ودخلت إلى موقع وورد

60) دمية تمثل رجلًا قصيرًا ذا شعر فاحم وشفتين حمراوين.

برس، وولدت مدونتها. غيرت الاسم لاحقًا، لكنها في بادئ الأمر سمتها **رشة عنصرية أو ملاحظات فضولية لسوداء ليست أمريكية حول موضوع السّود في أمريكا**. كان منشورها الأول نسخة محسنة من رسالتها لوامبويي. وأشارت إلى كيرت ب «صديقي السابق الأبيض الجذاب». بعد بضع ساعات تحققت من إحصاءات مدونتها، قرأها تسعة أشخاص. فحذفت المنشور هلعة، ثم أعادت نشره اليوم التالي بعد تعديله وتحريره، وأنهته بكلمات ما زالت تذكرها بسهولة. فقد تلت هذه الكلمات على طاولة عشاء الزوجين الفرنسية والأمريكي، بينما نظرت الشاعرة الهاييتية مصالبة ذراعيها.

ما الحل الأسهل لمشكلة الأصول العرقية في أمريكا؟ الحب الرومانسي. لا الصداقة، وليس الحب الآمن الضحل الذي يهدف إلى بقاء كلا الشخصين مرتاحًا، بل الحب الرومانسي العميق، الذي يغيرك ويضغطك ويجعلك تتنفس من منخري حبيبك. ولأن هذا الحب الرومانسي العميق نادر، ولأن المجتمع الأمريكي مهيأ لجعله أكثر ندرة بين الأمريكيين السود والأمريكيين البيض، فلن تلقى مشكلة العنصرية في أمريكا حلًا أبدًا.

«أوه! يا لها من قصة رائعة!»، قالت المضيفة الفرنسية، ويدها على صدرها بشكل دراماتيكي، منقلة نظرها بين الجالسين إلى الطاولة، كأنها تبحث عن ردة فعل. لكن البقية ظلوا صامتين، مشيحين بأنظارهم ومرتابين.

تحيّة لميشيل أوباما

والشّعر بوصفه استعارة عنصريّة

أنا وصديقتي البيضاء من المعجبين بميشيل أوباما. قلت لها ذات يوم أتساءل إن كانت ميشيل أوباما تضع وصلة شعر، فشعرها يبدو أكثف اليوم، وقد تتلفه كل تلك الحرارة كل يوم. فقالت هل تعنين أن شعرها ليس هكذا أصلًا؟ إذًا هل يتعلق الأمر بي أم أن ذلك استعارة مثالية للعنصرية في أمريكا؟ الشعر، إن كنت لاحظت برامج التغيير الجذري في التلفاز، كيف يكون للمرأة السوداء شعر طبيعي (خشن، أو لولبي، أو ملتف أو مفلفل) في

صورة «ما قبل» القبيحة، وفي صورة «ما بعد» الجميلة، فقد أخذ أحدهم قطعة معدنية ساخنة وجعل شعرها أملس؟ بعض النساء السوداوات، من الأمريكيات ومن غير الأمريكيات، يفضلن الجري عاريات في الشارع على الخروج على الملأ بشعر طبيعي. لأنه، كما ترى، ليس مهنيًا، ولا راقيًا أو أيًا كان، إنه ليس طبيعيًا. (من فضلكم أيها المعلقون لا تقولوا إن الأمر نفسه بالنسبة للمرأة البيضاء التي لا تصبغ شعرها). حين يكون لك شعر زنجي طبيعي، يظن الناس أنك فعلت شيئًا بشعرك. في الحقيقة الأشخاص ذوو اللبدة والجدائل هم الذين لم يفعلوا شيئًا بشعورهم. عليك أن تسأل بيونسيه ما الذي فعلته. (نحن نحب بي ولكن ماذا لو أرتنا، ولو لمرة، كيف يبدو شعرها حين ينمو من فروة رأسها؟) لي شعر مفلفل طبيعي. وسواء أكان مضفورًا بجدائل صغيرة أم لبدة أم جدائل، فلا، ليس الأمر سياسيًا. كلا لست فنانة ولا شاعرة ولا مغنية، ولست من محبي الطبيعة أيضًا. أنا لا أريد استخدام الملسات على شعري فحسب؛ هنالك الكثير من مصادر السرطان في حياتي كما أعيشها. (بالمناسبة، هل يمكننا حظر الشعر المستعار على هيئة اللبدة في الهالوين؟ فاللبدة ليست زيًا تنكريًا، حبًا بالله). تخيل لو أن ميشيل أوباما سئمت من كل الحرارة وقررت أن تترك شعرها كما هو وظهرت على التلفاز بكثير من الشعر المصوّف، أو اللفافات الصغيرة الحلزونية. (لا نعلم كيف سيبدو مظهرها. ليس من الغريب أن يكون للمرأة السوداء ثلاث تسريحات مختلفة على رأسها). لا بد أنها ستكون مذهلة حقًا، لكن أوباما المسكين سيخسر في التصويت المستقل، وحتى التصويت الديمقراطي غير النهائي.

تحديث: زورا نيل22: التي تود التغيير، وقد طلبت مني أن أنشر نظامي. تُستخدم زبدة الشيا الصافية بلسمًا يترك على

الشعر وهو يلائم الكثير من الشعور الطبيعية، لكنه لا يناسبني. أي شيء فيه الكثير من زبدة الشيا يجعل شعري ضاربًا إلى الرمادي ومائلًا للجفاف. والجفاف هو معضلة شعري الكبرى، أغسله مرة في الأسبوع بشامبو مرطب خالٍ من السليكون، وأستخدم بلسمًا مرطبًا، ولا أجفف شعري بالمنشفة، بل أتركه رطبًا، وأقسمه إلى أقسام، وأدهنه بمنتج ناعم يبقى (المفضل لدي حاليًا كيميت بيولوجكس، والعلامات المفضلة الأخرى هي أوين هاندميد، مرطب الشيا، باسك بيوتي، ودارسي بوتانيكال). ثم أفرق شعري إلى ثلاث أو أربع جدائل رفيعة ، وأربط وشاحي الحريري حول رأسي (الحرير جيد، يحفظ الرطوبة، والقطن سيّئ لأنه يمتص الرطوبة)، وأذهب للنوم. في اليوم التالي أفتح الجدائل وها قد حصلت على لبدة جميلة خفيفة. السر هو في وضع المنتج حين يكون الشعر رطبًا، أو مبلولًا أو مغرقًا تمامًا بمرطب كثيف. هذا النظام من وضع المنتج حين يكون الشعر رطبًا يمكن أن يلائم صديقاتنا البيضاوات ذوات الشعر الملفلف اللاتي تعبن من مكواة الشعر والمعالجة بالكيراتين. هل هناك أمريكية سوداء أو غير أمريكية سوداء ذات شعر طبيعي تود مشاركتنا نظامها؟

الفصل الثاني والثلاثون

سارت إفيملو باضطراب لأسابيع، محاولة تذكّر الشخص الذي كانته قبل كيرت. لقد حدثت حياتهما معًا لها، ولم يمكنها تخيلها إن حاولت، ولذا فإنها بلا شك ستعود إلى ما كانت عليه قبلًا. لكنّ الماضي ضباب رمادي اللون ولم تعد تعرف من كانت حينها، وما الذي أحبته وكرهته وأرادته. أضجرها عملها، فقد فعلت الأمور التفهة نفسها، من كتابة البيانات الصحفية، وتحرير البيانات الصحفية، وتدقيق البيانات الصحفية، وكانت حركاتها آلية ومخدرة. ربما كان الأمر كذلك دومًا ولم تلاحظ، لأنها كانت عمياء بنور كيرت. بدت شقتها مثل منزل غريب، فتذهب إلى ويلو في نهايات الأسبوع. يقع منزل العمة أوجو في جمع من البنايات المزخرفة بالجص، والحي منظم بعناية، والجلاميد موضوعة في الزوايا، وفي المساء يتزه أناس ودودون كلابهم الجميلة. اكتست العمة أوجو بجذل جديد، وارتدت خلخالًا صغيرًا في الصيف، في ومضة ذهب مفعمة بالأمل على ساقها. انضمت إلى منظمة أطباء إفريقيون من أجل إفريقيا، متطوعة بأسبوعين من وقتها لمهمات طبية، وفي رحلتها إلى السودان التقت بكويكو، وهو طبيب مطلق من غانا، «يعاملني مثل أميرة، كما يعاملك كيرت تمامًا»، قالت لإفيملو.

«أنا أحاول نسيانه يا عمتي. كفي عن التحدث عنه!»

«آسفة»، قالت العمة أوجو دون أن تبدو آسفة على الإطلاق. قالت لإفيملو أن تفعل كل شيء لتحافظ على العلاقة، لأنها لن تعثر على رجل آخر يحبها كما أحبها كيرت. حين قالت إفيملو لدايك إنها انفصلت عن كيرت قال «لقد كان لطيفًا جدًا، يا ابنة الخال، هل ستكونين بخير؟»

«أجل، طبعًا».

ربما أحس بالعكس، وعرف بالاضطراب الخفيف في روحها؛ إذ تستلقي في الفراش معظم الليالي وتبكي، معنفة نفسها على ما أفسدته، ثم تقول لنفسها إنه ليس من داع للبكاء، والبكاء لا يغير شيئًا. جلب دايك صينية إلى غرفتها، وضع فيها موزة وعلبة من زبدة الفول السوداني.

«وقت الوجبة الخفيفة!»، قال بابتسامة مزعجة، ما زال لا يفهم لمَ يرغب أي شخص بتناولهما معًا. حين أكلت إفيملو، جلس على الفراش وأخبرها عن المدرسة. صار يلعب كرة السلة وقد تحسنت درجاته، وأعجب بفتاة تدعى أوتم (الخريف).

«إنك تتأقلم هنا فعلًا».

«أجل»، قال وذكرتها ابتسامته بما كانت عليه في بروكلن، منفتحة وغير حذرة.

«هل تذكرين الشخصية غوكو في الأنمي الياباني؟»، سأل.

«أجل».

«تشبهين غوكو قليلًا بلبدتك هذه»، قال دايك ضاحكًا. قرع كويكو الباب وانتظر قولها «ادخل»، قبل أن يدفع رأسه، «هل أنت مستعد يا دايك؟»، سأل.

«أجل يا عمي»، نهض دايك، «لنذهب!».

«نحن ذاهبان إلى مركز المجتمع، هل تودين الانضمام إلينا؟»، سأل كويكو إفيملو مترددًا وبرسمية قليلًا. فقد عرف هو أيضًا أنها تعاني من آثار الانفصال. كان رجلًا ضئيلًا ويضع نظارات، مهذبًا ولطيفًا، وأحبته إفيملو لأنه يحب دايك.

«لا، شكرًا»، قالت إفيملو. كان يسكن في منزل قريب، لكن بعضًا من قمصانه في خزانة العمة أوجو، ورأت إفيملو غسول وجه للرجال في حمام العمة أوجو، وفي الثلاجة علب من الزبادي العضوي، الذي تعرف أن العمة أوجو لا تأكله. كان ينظر إلى العمة أوجو بعينين شفافتين، وبعيني رجل يريد للعالم أن يعرف حجم حبه. ذكر ذلك إفيملو بكيرت، وجعلها تشعر مرة أخرى بحزن كئيب.

سمعت أمها شيئًا في صوتها على الهاتف، «هل أنت مريضة؟ هل حدث خطب ما؟»

«أنا بخير، إنه العمل فقط»، قالت.

سأل أبوها أيضًا لمَ بدت مختلفة وإن كان كل شيء على ما يرام. أخبرته أن كل شيء على ما يرام، وأنها تقضي الكثير من وقتها بعد العمل في التدوين، وأوشكت أن تشرح هوايتها الجديدة له، لكنه قال: «لدي إلمام قليل بالفكرة. لقد خضعنا لتدريب دقيق لمحو الأمية في الحاسوب في الشركة».

«لقد وافقوا على طلب والدك. يمكنه أخذ إجازة في عطلتي المدرسية. لذا علينا التقديم للحصول على التأشيرة سريعًا»، قالت أمها.

حلمت إفيملو وتحدثت طويلًا عن الوقت الذي سيكونان فيه قادرين على زيارتها. يمكنها أن تتحمل النفقات الآن، وأرادتها أمها الآن، لكنها تمنت لو كانت في وقت آخر. أرادت أن تراهما، لكن فكرة زيارتهما أرهقتها. لم تكن واثقة من قدرتها على أن تكون ابنتهما، وأن تكون الشخص الذي يذكرانه.

«أمي الأمور مزدحمة في العمل حاليًا».

«يا إلهي، وهل نحن قادمان لإرباك عملك؟»

ولذا أرسلت لهما دعوتين، وكشف حساب بنكي ونسخة من بطاقتها الخضراء. كانت السفارة الأمريكية أفضل، والطاقم لم يزل وقحًا، قال أبوها، لكن لم يعد عليك أن تتشاجري وتتدافعي في الخارج لتقفي في الطابور. مُنحا تأشيرة بستة أشهر، وجاءا لثلاثة أسابيع. كانا يبدوان مثل غريبين، ويبدوان مثلما كانا لكن الكبرياء التي تذكرها قد امحت وخلفت بدلًا منها حماسًا قرويًا صغيرًا. أعجب أبوها بالفرش المصنوع (الموكيت) في ممر بنايتها، وكدست أمها حقائب من الجلد الصناعي من متجر كي مارت، والمناديل من صالة الطعام في المركز التجاري، بل وحتى أكياس التسوق البلاستيكية. وقف كلاهما أمام متجر جي سي بيني، طالبيْن من إفيملو أن تحرص على تصوير لافتة المتجر كاملة. راقبتهما ساخرة، وشعرت لهذا بالذنب، لقد حرست ذكرياتهما بحرص، ومع ذلك راقبتهما ساخرة حين رأتهما أخيرًا.

«لا أفهم الأمريكيين. يقولون عمل وتظنين أنهم يقولون طعنة»، قال أبوها مهجئًا الكلمتين، «يرى المرء أن طريقة البريطانيين بالكلام أفضل بكثير».

قبل أن يغادرا، سألتها أمها بالإنجليزية بهدوء، «هل لديك حبيب؟»، الكلمة الأليفة التي يستخدمها الآباء لكي لا يلوثون ألسنتهم بكلمة خليل، حتى إن كان هذا ما

يقصدانه تمامًا، شخص رومانسي، مشروع زواج.

«لا. شغلت بالعمل كثيرًا»، قالت إفيملو.

«العمل جيد يا إفيم، لكن عليك إبقاء عينيك مفتوحتين. تذكري أن المرأة مثل الزهرة، وزمننا يمضي سريعًا».

سابقًا، كانت ستضحك باستخفاف، وتقول لأمها إنها لا تشعر أبدًا أنها زهرة، لكنها مجهدة جدًا، وبدا أن الأمر يتطلب جهدًا كبيرًا. في اليوم الذي غادرا فيه إلى نيجيريا انهارت على فراشها، تبكي بلا توقف وتفكر: ما الذي دهاني؟ ارتاحت لأن والديها غادرا، وشعرت بالذنب لإحساسها بالراحة. كانت بعد العمل تتجول في أنحاء وسط بالتيمور بلا هدف، غير مكترثة بشيء. هل كان هذا ما قصده الروائيون بالضجر؟ في عصر أربعاء بطيء، قدمت استقالتها. لم تكن قد خططت للاستقالة، لكنها بدت فجأة ما تعين عليها فعله، وهكذا طبعت الرسالة على حاسوبها وأخذتها إلى مكتب المدير.

«لقد كنت تحرزين تقدمًا. هل ثمة ما يمكننا فعله لنجعلك تغيرين رأيك؟»، سأل مديرها متفاجئًا جدًا.

«إنه أمر شخصي، أسباب عائلية»، قالت إفيملو بغموض، «أنا أقدّر حقًا كل الفرص التي منحتها لي».

ما الأمر إذًا؟

يقولون لنا إن العرق اختلاق، وإن الاختلاف الجيني بين شخصين أسودين أكبر من الاختلاف بين شخص أسود وآخر أبيض. ثم يقولون لنا إن النساء السوداوات يصبن بنوع أسوأ من سرطان الثدي ويصبن بالليفوم (ورم ليفي غير خبيث في جدار الرحم) أكثر. وإن النساء البيضاوات يصبن بأكياس ليفية وهشاشة العظام، إذًا ما الأمر أيها الأطباء؟ هل العرق اختلاق أم لا؟

الفصل الثالث والثلاثون

أثبتت المدونة نفسها وتخلصت من أسنانها اللبنية، واحدًا تلو الآخر، وفاجأتها وأسعدتها وأنستها. وتزايد عدد قرائها، آلاف من كل أنحاء العالم بسرعة كبيرة، وقاومت الرغبة بتفقد الإحصاءات، متجاهلة معرفة عدد الأشخاص الجدد الذين نقروا للقراءة لها ذلك اليوم، لأن ذلك أفزعها، وأبهجها. وإن رأت منشوراتها معادًا نشرها في موقع آخر، احمر وجهها من الإطراء، ومع ذلك لم تتخيل أيًا من هذا، ولم تُنَمِّ أي طموح أكيد. وصلتها رسائل إلكترونية من قراء أرادوا دعم المدونة. دعم، تلك الكلمة جعلت المدونة أكثر بعدًا عنها، وشيئًا منفصلًا يمكنه أن يزدهر أو لا، أحيانًا معها وأحيانًا دونها. لذا وضعت رابطًا يوصل إلى حسابها في باي بال. فظهرت المبالغ، كثير منها صغير وواحد كبير جدًا حتى أنها حين رأته، أطلقت صوتًا غريبًا، بمزيج من اللهاث والصراخ. أخذ يظهر كل شهر مجهول المصدر، منتظمًا مثل أجر، وكلما حدث ذلك شعرت بالخجل، وكأنها قد التقطت شيئًا ثمينًا في الشارع واحتفظت به لنفسها. تساءلت إن كان كيرت، كما تساءلت إن كان يتابع مدونتها، وما هو رأيه في إشارتها له بالصديق السابق الأبيض الجذاب. كان تساؤلًا فاترًا، فقد افتقدت ما سيحدث لكنها لم تعد تفتقده هو.

كثيرًا ما تتفقد بريد مدونتها الإلكتروني، مثل طفلة تمزق تغليف هدية بحماس لم تكن واثقة أنها تريدها، وتقرأ رسائل أشخاص يدعونها لشراب، أو يتهمونها

بالعنصرية، أو يقدمون لها أفكارًا لتدونها. اقترحت مدونة تصنع زبدة الشعر أن تعلن لها، ووضعت إفيملو صورة لامرأة ذات شعر غزير أعلى الجانب الأيمن من صفحة مدونتها مقابل أجر، يوجه النقر عليها إلى موقع زبدة الشعر. وعرض قارئ آخر مالًا أكثر مقابل رسم وامض يُظهر في البداية عارضة ذات عنق طويل ترتدي ثوبًا ضيقًا، ثم العارضة نفسها وقد وضعت قبعة مرنة الحواف. يوصل النقر على الصورة إلى متجر على الشبكة. وسرعان ما وصلت رسائل إلكترونية للإعلان عن شامبو بانتين وزينة كوفر غيرل. ثم رسالة إلكترونية من مرشد للحياة متعددة الثقافات في مدرسة إعدادية في كونِكتكت، رسمية جدًا بحيث تخيلتها مطبوعة على ورق مقصوص يدويًا بطبقة فضية، يسأل إن كان بإمكانها أن تتحدث إلى الطلاب عن التعددية. وصلتها رسالة أخرى من مؤسسة في بنسلفانيا، مكتوبة بطريقة أقل رسمية، تبلغها أن أستاذًا محليًا قد عرّفها بوصفها مدونة محرضة على العنصرية، وتسأل إن كانت راغبة في قيادة ورشتهم السنوية حول التعددية. وأرسل لها محرر من بالتيمور لفنغ ليقول إنهم يرغبون في ضمها إلى لائحة عشرة أشخاص لا بد من متابعتهم، والتقطت لها صور إلى جانب حاسوبها المحمول، ووجهها مغبش بالظلال، تحت التعليق «المدوِّنة». تضاعف عدد قرائها، ووصلتها دعوات أكثر. ولاستقبال المكالمات الهاتفية، ارتدت أكثر سراويلها رسمية، ووضعت أكثر درجات أحمر الشفاه خفوتًا، وتحدثت جالسة إلى مكتبها، مقاطعة ساقيها، وصوتها مدروس وواثق. ومع ذلك تصلب جزء منها خوفًا، ترقبًا لشخص على الطرف الآخر يدرك أنها تدعي هذه المهنية، وهذه المناقشة للأحوال، ليرى أنها في حقيقة الأمر شخص عاطل يرتدي قميص نوم مجعد طوال اليوم، وأن ينعتها «بالمخادعة!» ويغلق السماعة. لكن المزيد من الدعوات وصلتها. كانت تكاليف السفر والإقامة مغطاة والأجور مختلفة. مرة قالت، بتهور، إنها تريد ضعفي ما عرض عليها الأسبوع الفائت، وصدمت حين قال الرجل من ديلاور «نعم، يمكننا دفع ذلك».

ارتدى معظم الأشخاص الذين حضروا محاضرتها الأولى عن التعددية، في شركة صغيرة في أوهايو، أحذية رياضية. كانوا جميعهم من البيض، وكان عرضها التقديمي بعنوان «كيف تتحدث عن العرق مع زملاء من أعراق أخرى»، ولكنها

تساءلت إلى من سيتحدثون إن كانوا جميعهم من البيض؟ ربما كان البواب أسود.

«أنا لست خبيرة لذا لا تقتبسوا أقوالي»، بدأت فضحكوا ضحكة مشجعة دافئة، وقالت في نفسها إن هذا سيمضي على ما يرام، وليس عليها القلق حيال التحدث في غرفة مكتظة بالغرباء في وسط أوهايو. (قرأت بشيء من القلق أن المدن التي تمارس الفصل العنصري ما زالت موجودة) قالت «إن الخطوة الأولى نحو التواصل الصادق عن العرق هي أن تدرك عدم قدرتك على أن تساوي كل العنصريات»، ومن ثم انطلقت بخطابها المعد جيدًا. حين قالت في النهاية «شكرًا لكم»، وهي سعيدة بسلاسة إلقائها، كانت الوجوه حولها جامدة، أحبطها التصفيق الفاتر. بعد ذلك، تركت مع مدير الموارد البشرية فقط، يشربان شايًا مثلجًا شديد الحلاوة في غرفة الاجتماعات، ويتحدثان عن كرة القدم، فهو يعرف أن نيجيريا تلعبها جيدًا، كأنه راغب في نقاش أي شيء باستثناء الخطاب الذي ألقي قبل قليل. وصلتها تلك الأمسية رسالة إلكترونية: كان خطابك كلامًا فارغًا. إنك عنصرية، عليك أن تكوني ممتنة لأننا سمحنا لك بدخول البلاد.

كانت تلك الرسالة المكتوبة بأحرف كبيرة اكتشافًا، فليس الغرض من ورشة التعددية، أو المحاضرات المتعددة الثقافات، إحداث أي تغيير حقيقي، بل لجعل الناس يشعرون بإحساس طيب عن ذواتهم. ولم يرغبوا بسماع محتوى أفكارها، بل أرادوا لفتة حضورها فحسب. لم يقرؤوا مدونتها، لكنهم سمعوا أنها «مدونة بارزة»عن الأصول العرقية. وهكذا، في الأسابيع اللاحقة، باعتبارها أخذت تلقي خطابات أكثر في المدارس والشركات، أخذت تقول ما أرادوا سماعه، لم تكن لتكتب أيًا منه في مدونتها، لأنها تعرف أن الأشخاص الذين يقرؤون مدونتها ليسوا مثل الأشخاص الذين حضروا ورشات التعددية. وفي محاضراتها تقول «لقد أحرزت أمريكا تقدمًا عظيمًا علينا أن نفخر به»، وكتبت في مدونتها «ما كان يجب أن توجد العنصرية، ولذا لن تحصلوا على بسكويتة لأنها تناقصت». ومع ذلك انهالت مزيد من الدعوات. وظفت طالبة متدربة أمريكية هاييتة شعرها مسرح بلفافات رائعة، سريعة في البحث على شبكة الإنترنت، للبحث عن معلومات تحتاجها إفيملو، وحذف التعليقات غير اللائقة فور نشرها تقريبًا.

اشترت إفيملو شقة خاصة صغيرة. كانت مذهولة حين رأت الجدولة في قسم العقارات في الورقة، لتكتشف أنها تستطيع دفع المبلغ نقدًا. جعلها توقيع اسمها فوق كلمة «صاحب الملك» تشعر إحساسًا مخيفًا بأنها بالغة، وبدهشة صغيرة، أيضًا أن هذا ممكن بفضل مدونتها. حولت واحدة من غرفتي النوم إلى مكتب وكتبت هناك، واقفة قرب النافذة كثيرًا لتنظر إلى حيها في رونالد بارك، ذي المنازل المرممة المحجوبة بالأشجار الكبيرة. فوجئت بأي منشورات المدونة لفتت الانتباه أكثر وما قُرئ قليلًا. استمر منشورها حول المواعدة على الشبكة «ما شأن الحب بذلك؟» في جذب التعليقات، مثل شيء دبق حتى بعد مضي عدة أشهر.

> ما زلت أشعر بشيء من الحزن لانفصالي عن صديقي السابق الأبيض الجذاب، وبعدم وجودي في مشهد الحانة، لذا قررت أن أدخل موقعًا للمواعدة على الشبكة. لقد رأيت الكثير من الملفات الشخصية. وإليكم الأمر: في الخانة التي تختار فيها الإثنية التي تهتم بها، يختار الرجال البيض النساء البيضاوات، ويختار الأكثر شجاعة منهم آسيوية أو هسبانية. ويختار الرجال الهسبانيون البيضاوات والهسبانيات. وحدهم الرجال السود من يختارون «الكل»، لكن بعضهم لا يختار السوداوات، بل يختارون بيضاء، أو آسيوية أو هسبانية. لم أكن أشعر بالحب، ولكن ما علاقة الحب بهذا الاختيار على أية حال؟ يمكن أن تدخل دكان البقالة وتصطدم بشخص وتقع في غرامه، ولن يكون هذا الشخص من العرق الذي اخترته على الشبكة. لذا بعد التصفح، ألغيت عضويتي، التي لم تزل تجريبية حمدًا لله، وأعيد لي المبلغ، وسأسير مغمضة العينين في دكان البقالة بدلًا من ذلك.

كانت التعليقات من أشخاص مروا بقصص مماثلة وأشخاص قالوا إنها مخطئة، ومن رجال يطلبون منها وضع صورة لها، ومن نساء سوداوات يشاركن قصص نجاح المواعدة على الشبكة، ومن أشخاص غاضبين وأشخاص يشعرون بالإثارة. كانت التعليقات تمتعها أحيانًا،لأنها ليست مرتبطة الموضوع المنشور. كتب أحدهم:

أوه، تبًّا، كتب أحدهم. يحصل السود على كل شيء بسهولة. لا يمكنك الحصول على أي شيء في هذه البلاد ما لم تكوني سوداء. يسمح للنساء السوداوات حتى أن تكون أوزانهن أكثر. جذب منشورها المكرر «جمعة فوضى»، وهو حشد من الأفكار المشوشة، نقرات وتعليقات أكثر كل أسبوع. كانت تكتب بعض المنشورات أحيانًا متوقعة ردودًا قبيحة، فتضطرب معدتها من الخوف والإثارة، لكنها تجذب تعليقات باردة. وحين طلب منها أن تتحدث قرب طاولات مستديرة ولافتات، في الإذاعة العامة والإذاعة المحلية، عُرّفت ببساطة بأنها «المدوِّنة»، فشعرت أنها مستغرقة في مدونتها، وأصبحت هي مدونتها. ثمة أوقات تستلقي فيها يقظة في الليل، وقد تسللت مخاوفها المتزايدة من صدوعها، وصار قراء المدونة الكثيرون، في ذهنها، حشدًا غاضبًا محاكمًا ينتظرها، متحينين الفرص حتى يتمكنوا من مهاجمتها، وكشف أمرها.

منشور مفتوح: لكل الزنوج الصامتين

هذا من أجل الزنوج الصامتين، السود من الأمريكيين وغير الأمريكيين الناجحين الذين لا يتحدثون عن تجاربهم في الحياة، التي لها علاقة حصريًا بكونهم سودًا، لأنهم يريدون إبقاء الجميع مرتاحين. اكتب قصة هنا، وتحدث عن نفسك، هذه مساحة آمنة.

الفصل الرابع والثلاثون

أعادت مدونتها بْلين إلى حياتها. في مؤتمر التدوين للملونين في واشنطن العاصمة، أثناء يوم اللقاء والتعارف الأول، ومدخل الفندق مكتظ بالأشخاص الذين يحيون الآخرين بأصوات مبتهجة متوترة، كانت تتحدث لمدونة مكياج، وهي امرأة مكسيكية أمريكية نحيلة تضع ظل عيون براق، حين رفعت نظرها وشعرت بنفسها ثابتة ومهتزة، لأن بْلين يقف على بعد أقدام قليلة منها في حلقة صغيرة من الناس. لم يتغير باستثناء النظارات ذات الإطار الأسود، مثلما تتذكره على القطار: طويلًا ورشيق المشية. تحدثت مدونة المكياج عن شركات التجميل التي ترسل عينات مجانية إلى بيلاشيكانا، وأخلاق ذلك، وإفيملو تهز رأسها موافقة، لكنها كانت منتبهة للغاية لحضور بْلين فحسب، وله وهو يحرر نفسه من دائرته ويتقدم باتجاهها.

«مرحبًا!»، قال، مسترقًا النظر إلى بطاقة اسمها، «إذًا أنت السوداء غير الأمريكية؟ أحب مدونتك».

«شكرًا»، قالت. لم يتذكرها، لكن لم عليه أن يفعل؟ لقد مر وقت طويل منذ أن التقيا في القطار، ولم يعرف أي منهما حينها ما معنى «المدونة». كان سيعجبه أن يعرف كم جعلته مثاليًا، وكم صار شخصًا لم يُخلق من لحم ودم بل من بلورات صغيرة من الكمال؛ والرجل الأمريكي الذي لم تكن لتحصل عليه. التفت ليحيي مدونة المكياج ورأت من بطاقة اسمه أنه يدوّن عن «تداخل الأكاديميين والثقافة الشعبية».

التفت عائدًا إليها، «إذًا هل ما زالت زياراتك للمراكز التجارية تسير على ما يرام؟ لأنني ما زلت أزرع قطني».

للحظة، انقطع نفسها ثم ضحكت، ضحكة مدوخة مرحة، لأن حياتها صارت فيلمًا سحريًا يعثر فيه الناس بعضهم على بعض ثانية، «أنت تذكر!».

«كنت أراقبك من الطرف الآخر للقاعة، لم أصدق حين رأيتك».

«أوه يا إلهي! كم مرّ على ذلك، عشر سنوات؟»

«تقريبًا، ثمان».

«لم تعاود الاتصال بي أبدًا».

«كنت مرتبطًا، وكانت علاقة مضطربة حتى عندها، لكنها استمرت أكثر مما يفترض». صمت، بتعبير ستعرفه جيدًا، حين يضيق عينيه بشدة ليبين التفكير الراقي لصاحبهما.

تلت ذلك رسائل إلكترونية ومكالمات هاتفية بين بالتيمور ونيوهفن، ونشرت تعليقات مداعبة في مدونة كل منهما، وغزل كثيف أثناء المكالمات الليلية المتأخرة، حتى جاء إلى بابها في يوم شتوي، ويداه تغوصان في جيوب سترة البحار الصفيحية اللون، وياقته تلمع من الثلج مثل غبار سحري. كانت تعد أرز جوز الهند، وعبقت شقتها برائحة التوابل، وزجاجة من نبيذ مرلوت الرخيص على المنضدة، ونينا سايمون تغني بصوت عال في مشغل الأقراص. أرشدتهما أغنية «لا تتركني ملتبسة»، بعد دقائق فقط من وصوله، عبر جسر غزل الأصدقاء، إلى حبيبين في فراشها. بعد ذلك، استند على مرفقه ليراها. ثمة شيء سلس وبالأحرى خنثوي في جسده النحيل، وجعلها ذلك تتذكر أنه أخبرها أنه يمارس اليوغا. ربما يستطيع الوقوف على رأسه، ويلوي نفسه في وضعيات غير محبذة. حين خلطت الأرز، الذي صار باردًا، بصلصة جوز الهند، قالت له إن الطبخ يضجرها، وإنها اشترت كل هذه التوابل قبل يوم فقط، وطهت لأنه قادم. تخيلتهما معًا، والزنجبيل على شفاههما، والكاري الأصفر يُلعق من جسدها، وأوراق الغار تسحق تحتهما، ولكنهما كانا مسؤولين جدًا بدلًا من ذلك، تبادلا القبل في غرفة المعيشة ومن ثم أخذته إلى غرفة نومها.

«كان علينا فعل الأمور على نحو أكثر غرابة»، قالت.

ضحك، «أحب الطبخ، لذا ستكون لدينا الكثير من الفرص للغريب»، لكنها عرفت أنه ليس من الأشخاص الذين يفعلون الأشياء الغريبة. ليس وهو يضع الواقي الذكري ببطء وتركيز. لاحقًا، حين عرفت بأمر الرسائل التي كتبها للكونغرس حول كارفور، والمراهقين الذين درسهم في ديكسويل، والملجأ الذي تطوع فيه، رأت فيه شخصًا لا يملك عزيمة عادية، بل حاجة حاسمة للصلاح عوضًا عن ذلك.

—

بدا أنهما استطاعا، بفضل لقائهما في القطار قبل سنوات، أن يجتازا خطوات عديدة، وأن يتجاهلا مجهولات عديدة، وأن يدخلا إلى حميمية مباشرة. بعد زيارته الأولى، عادت إلى نيوهفن معه. ثمة أسابيع في ذلك الشتاء، أسابيع باردة ومشمسة، بدت فيها نيوهفن مضاءة من الداخل، والثلج المتجمد يتشبث بتماثيل الملائكة، كانت سمة احتفالية لعالم بدا مسكونًا بها وببلين. كانا يسيران إلى مطعم الفلافل في شارع هاوي لتناول الحمص، ويجلسان في الزاوية المعتمة يتحدثان لساعات، وأخيرًا يتعانق لساناهما الحريفان بالثوم. أو تلتقيه في المكتبة بعد محاضرته، حيث يجلسان في المقهى، ويشربان الشوكولاته الكثيفة جدًا، ويأكلان قطع الكرواسان التي غطتها الحبوب الكبيرة من الدقيق الكامل، وحزمة كتبه على الطاولة. أعد لها الخضار والحبوب العضوية التي لم تستطع لفظ أسمائها، البلغر والكينوا، وكان ينظف سريعًا وهو يطهو، فيمسح لطخة صلصة الطماطم فور وقوعها، ويجفف انسكاب الماء فورًا. أرعبها وهو يقول لها عن المواد الكيميائية التي ترش بها المحاصيل، والمواد الكيميائية التي يغذى بها الدجاج لجعله يكبر أسرع، والمواد الكيميائية المستخدمة لمنح الفاكهة قشرًا رائعًا. لماذا يموت الناس بالسرطان برأيها؟ ولذا قبل أن تأكل تفاحة، تقشرها في الحوض، رغم أن بلين لا يشتري إلا الفاكهة العضوية. أخبرها أي الحبوب تحتوي بروتين، وأي الخضار تحتوي على الكاروتين، وأي الفاكهة غنية بالسكر. كان يعرف كل شيء، وكانت خائفة من هذا وفخورة به ونافرة منه قليلًا. صارت الشؤون المنزلية القليلة معه في شقته في الطابق العشرين في بناية عالية قرب الجامعة، حبلى بالمعاني - الطريقة التي راقبها بها وهي ترطب بشرتها بزبدة الكاكاو بعد الاستحمام مساء، وصوت الوشوشة الذي تطلقه غسالة الصحون حين تعمل- وتخيلت مهدًا في غرفة النوم،

وبداخله طفل، وبلين يخلط الفاكهة للطفل بعناية. سيكون أبًا رائعًا، هذا الرجل ذو الانضباط الكامل.

«لا يمكنني أكل تمبي، لا أدري كيف تحبه»، قالت له.

«أنا لا أحبه».

«لم تأكله إذًا؟»

«إنه مفيد لي».

كان يجري كل صباح وينظف أسنانه بالخيط كل مساء. بدا التنظيف بالخيط أمريكيًا للغاية بالنسبة لها، هذا التخليل الآلي للخيط بين الأسنان ليس أنيقًا ولا فعالًا. «عليك تنظيف أسنانك بالخيط كل يوم»، قال لها بلين، وبدأت تنظف أسنانها بالخيط، كما بدأت تفعل أمورًا أخرى يفعلها، مثل الذهاب للنادي الرياضي، وتناول البروتين أكثر من النشويات، وكانت تفعلها بشيء من الرضا الممتن، لأنها حسنتها. وبدا مثل تونيك صحي بالنسبة لها، وصارت معه تقطن مستوى أعلى من الصلاح.

—

جاءت صديقته المقربة آرامنتا لزيارته، وعانقت إفيملو بحرارة كأنهما التقتا قبلًا «لم يواعد بلين أحدًا منذ انفصاله عن باولا، وها هو الآن مع أخت، أخت بلون الشوكولاته، نحن نحرز تقدمًا!»، قالت آرامنتا.

«كفي عن ذلك يا منت (نعناع)». قال بلين، لكنه ابتسم لأن صديقته المقربة امرأة، مهندسة ذات شعر أسود طويل أملس ترتدي أحذية الكعب العالي والجينز الضيق وتضع عدسات ملونة، قالت شيئًا عن بلين أعجب إفيملو.

«نشأنا بلين وأنا معًا، وكنا في المدرسة الثانوية الطالبين الأسودين الوحيدين في الفصل، وكل أصدقائنا أرادونا أن نتواعد، تعرفين كيف يفكرون بأن على الطالبين الأسودين أن يكونا معًا، لكنه ليس من النمط الذي يعجبني»، قالت آرامنتا.

«تتمنين»، قال بلين.

«إفيملو، هل يمكنني أن أعبر عن مدى سعادتي لأنك لست أكاديمية (أستاذة)؟ هل سمعت حديث أصدقائه؟ لا شيء يبدو كما هو، كل شيء لا بد أن يعني شيئًا آخر، هذه سخافة. تحدثت مارسيا قبل بضعة أيام عن كون النساء السوداوات سمينات،

لأن أجسادهن مواقع لمقاومة العبودية، نعم هذا صحيح، إن كان البرغر والصودا مقاومة ضد العبودية».

«يمكن للجميع رؤية هذا الموقف ضد المثقفين أيتها الآنسة خريجة هارفارد»، قال بْلين.

«بربك، التعليم الجيد ليس مماثلًا لجعل العالم كله شيئًا يجب شرحه! حتى شان تسخر منكم أيها الرجال. إنها تقلدكما أنت وغريس على نحو رائع؛ صياغة القانون وطبوغرافيا الإجماع التاريخي والمكاني»، التفتت آرامنتا لإفيملو «ألم تلتقِ بأخته شان بعد؟»

«لا».

لاحقًا، حين كان بْلين في غرفة النوم، قالت آرامنتا «شان شخصية مثيرة، لا تأخذيها على محمل الجد كثيرًا حين ترينها».

«ماذا تعنين؟»

«إنها رائعة، إنها مثقفة جدًا، ولكن إن خطر لك أنها تقلل من شأنك أو أي شيء من هذا القبيل، فهذا ليس بسببك، إنها طريقتها فحسب»، ثم قالت بصوت أخفض «بْلين رجل طيب حقًا، رجل طيب حقًا».

«أعرف»، شعرت إفيملو بشيء كان إما محذرًا أو ملتمسًا في كلمات آرامنتا .

طلب منها بْلين أن تنتقل للسكن معه بعد أشهر، لكن الأمر استغرق عامًا حتى فعلت، رغم أنها عندئذ قضت معظم وقتها في نيوهفن، وحصلت على بطاقة لدخول صالة ييل الرياضية بوصفها شريكة أستاذ، وكتبت مدونتها من شقته، على مكتب وضعه لها قرب النافذة. جعلته يقرأ منشورات مدونتها قبل نشرها في البداية شاعرة بالإثارة باهتمامه، وشاكرة ذكاءه. لم تطلب تحريره، لكنها أخذت تغير تدريجيًا، وتضيف وتمحو بسبب ما قاله. ثم أخذت تستاء من ذلك، إذ بدت منشوراتها أكاديمية جدًا، شبيهة بمنشوراته كثيرًا. كتبت منشورًا عن المدن الداخلية - لمَ تكون أكثر الأجزاء رطوبة وكآبة في المدن الامريكية مكتظة بالأمريكيين السود؟- وقال لها أن تضمّن تفاصيل عن سياسة الحكومة وإعادة التقسيم، ففعلت، لكن بعد إعادة القراءة حذفت المنشور.

«لا أريد أن أشرح، أريد أن أراقب»، قالت.

«تذكري أن الناس لا تقرأ لك من أجل المتعة، إنهم يقرأونك بوصفك شارحة ثقافية. هذه مسؤولية حقيقية، في الجامعة طلاب يكتبون مقالات عن مدونتك. أنا لا أقول إن عليك أن تكوني أكاديمية أو مملة، احتفظي بأسلوبك لكن أضيفي مزيدًا من العمق»، قال.

«فيها عمق كاف»، قالت منزعجة لكن بعد تفكير رأت أنه محق.

«أنت تصبحين كسولة يا إفيم».

كان يستخدم كلمة كسول كثيرًا، للحديث عن طلابه الذين لم يسلموا أعمالهم في الوقت المحدد، وعن المشاهير السود الذين لم يكونوا ناشطين سياسيًا، وعن الأفكار التي لا تتناسب مع أفكاره، فتشعر أحيانًا أنها متدربة لديه. أثناء تجوالهما في المتاحف، يطيل النظر في لوحة تجريدية، مللتها، فتندفع نحو التماثيل الجريئة أو اللوحات الطبيعية، وترى في ابتسامته الضيقة حسًا من خيبة الأمل بأنها لم تتعلم منه ما يكفي. حين يشغل مختارات من مجموعته الكاملة لجون كولترين، يراقبها أثناء استماعها، منتظرًا الطرب الذي سيكسوها، ثم في النهاية حين تظل غير مبتهجة يشيح بعينيه سريعًا. دونت عن روايتين تحبهما لآن بتري وغايل جونز[61]، وقال بلين «إنهما لا تتجاوزان الحدود»، وتحدث بلطف كأنه لا يود إغضابها، ولكن كان لا بد من قول ذلك. كانت نظرياته حاسمة، ومدروسة جيدًا ومدركة تمامًا في ذهنه بحيث يبدو متفاجئًا أحيانًا أنها أيضًا لم تستنتجها بنفسها. شعرت بوجود فجوة في إدراكها للأمور التي آمن بها وعرفها، وتلهفت للعبة الاكتشاف، مفتونة بحسه بالصواب. مرة، حين كانا يمشيان في شارع إلم، في طريقهما لشراء الشطائر، شاهدا المرأة السوداء السمينة، التي تسكن في الجامعة، وتقف دومًا قرب المقهى، وقد وضعت قبعة صوفية على رأسها، عارضة وردة صناعية حمراء على المارة وتسأل «هل حدث لك أي تغيير؟». كان طالبان يتحدثان معها ومن ثم أعطاها أحدهما كابوتشينو في كوب ورقي طويل. بدت المرأة متحمسة وأرجعت رأسها للوراء وشربت من الكوب.

---

61) جون كولترين (1926-1967) عازف ساكسفون لموسيقى الجاز. آن بتري: (1908-1997) روائية أمريكية أصبحت أول روائية سوداء بعد أن بيعت مليون نسخة من روايتها «الشارع». غايل جونز: (1947): كاتبة إفريقية أمريكية.

«هذا مقرف جدًا»، قال بْلين حين سارا بعيدًا.

«أعرف»، قالت إفيملو، رغم أنها لم تكن تعرف تمامًا لمَ شعر على هذا النحو فيما يتعلق بالمرأة المشردة وهدية الكابوتشينو. قبل أسابيع، وقفت امرأة مسنة في الطابور خلفهما في دكان البقالة وقالت «شعرك جميل جدًا، هل يمكنني لمسه؟»، ووافقت إفيملو. غرست المرأة أصابعها في لبدتها، فشعرت بتوتر بْلين، ورأت النبض في صدغيه «كيف سمحت لها أن تفعل هذا؟»، سألها لاحقًا «لم لا؟ كيف ستعرف ما هو ملمس شعر كشعري؟ ربما لا تعرف أحدًا أسود».

«ولذا عليك أن تكوني فأر التجارب لها؟»، سأل بْلين. توقع منها أن تشعر بما لا تعرفه. ثمة أمور تظهر له ولم تتخيلها، وشعرت بالضياع مع أصدقائه المقربين على نحو مبهم، إذ كانوا صغارًا وحسني الهندام وصالحين، وجملهم مليئة بعبارات «قليلًا»، و«الطرق التي». إنهم يتجمعون في حانة كل خميس، ويقيم أحدهم أحيانًا حفل عشاء، حيث تصغي إفيملو معظم الوقت، وتتحدث قليلًا، ناظرة إليهم في تعجب. هل كانوا جادين، هؤلاء الأشخاص الغاضبون بشأن الخضار المستوردة التي تنضج في الشاحنات؟ أرادوا إيقاف عمالة الأطفال في إفريقيا، ولم يكونوا ليشتروا ثيابًا صنعها عمال قليلو الأجور في آسيا. كانوا ينظرون إلى العالم نظرة جدية مثالية مستنيرة أثرت بها، لكن لم تقنعها ابدًا. همهم بْلين بمراجع غريبة عنها، وهو محاط بهم ويبدو بعيدًا كأنه ينتمي لهم، وحين نظر إليها أخيرًا، بدت عيناه دافئتين ومحبتين، فشعرت بشيء من الراحة.

أخبرت والديها عن بْلين، وأنها ستترك بالتيمور لتنتقل إلى نيوهفن للعيش معه. كان يمكنها أن تكذب وتختلق عملًا جديدًا، أو تقول ببساطة إنها تريد الانتقال.

«اسمه بْلين. وهو أمريكي»، قالت.

شعرت برمزية كلماتها التي تسافر آلاف الأميال إلى نيجيريا، وعرفت ما الذي سيفهمه والداها. لم تتحدث مع بْلين عن الزواج، لكن الأرض تحت قدميها بدت صلبة. أرادت لوالديها أن يعرفاه، وكم كان طيبًا، وقد استخدمت هذه الكلمة «طيب» لوصفه.

«أمريكي زنجي؟»، سأل أبوها وقد بدا محتارًا.

انفجرت إفيملو بالضحك «أبي لم يعد أحد يقول زنجي»

«لكن لم الزنجي؟ هل هناك ندرة كبيرة في النيجيريين هناك؟»

تجاهلته، وهي مستمرة بالضحك، وطلبت منه أن يعطي الهاتف لأمها. كان تجاهله وإخباره أنها ستنتقل للعيش مع رجل لم تكن متزوجة به، أمرًا يمكنها فعله فقط لأنها تعيش في أمريكا. لقد تغيرت القوانين، وسقطت في صدوع المسافة والغربة.

سألت أمها ،»هل هو مسيحي؟»

«لا، إنه من عبدة الشيطان».

«يا دم المسيح!»، صاحت أمها.

«أمي، نعم إنه مسيحي»، قالت.

«لا بأس إذًا. متى سيأتي ليعرفنا بنفسه؟ يمكنك أن تخططي للأمر فنفعل كل شيء في الوقت نفسه، قرع الباب ودفع المهر وحمل النبيذ، سيختصر النفقات وبهذه الطريقة لن يضطر للذهاب والإياب، أمريكا بعيدة...»، قالت.

«أمي أرجوك نحن نأخذ الأمور بالتدريج».

بعد أن أغلقت إفيملو، مستمتعة، قررت تغيير اسم مدونتها إلى **رشة عنصرية أو ملاحظات متنوعة عن الأمريكيين السود (أولئك الذين يعرفون سابقًا بالزنوج) لسوداء غير أمريكية.**

وظيفة شاغرة في أمريكا، حلم وطني كبير؟

من هو العنصري؟

في أمريكا، العنصرية موجودة لكن العنصريون كلهم اختفوا. يعود العنصريون إلى الماضي، والعنصريون هم الرجال اللئام البيض رفيعو الشفاه في أفلام حقبة الحقوق المدنية. إليك الأمر، لقد تغير بيان العنصرية، لكن اللغة لم تفعل. لذا إن لم تكن قد شنقت شخصًا ما فلا يمكن أن تدعى عنصريًا إذًا. إن لم تكن وحشًا سافكًا للدماء فلا يمكن تسميتك عنصريًا. لا بد أن يقدر أحد على القول إن العنصريين ليسوا وحوشًا، إنهم أشخاص لهم عائلات محبة وأشخاص عاديون يدفعون الضرائب. لا بد

أن يحصل أحدهم على وظيفة تحديد العنصري ومن هو غير العنصري، أو ربما حان الوقت لشطب كلمة «عنصري» والعثور على شيء جديد. مثل متلازمة الاضطراب العنصري، ويمكن أن يكون فيها تصنيفات مختلفة للمصابين بهذه المتلازمة، خفيف، متوسط، وحاد.

الفصل الخامس والثلاثون

استيقظت إفيملو ذات ليلة لتذهب إلى الحمام، وسمعت بْلين يتحث في الهاتف في غرفة المعيشة، كانت نبرته لطيفة ومهدئة. «أنا آسف، هل أيقظتك؟ تلك أختي شان»، قال حين عاد للفراش، «لقد عادت إلى نيويورك من فرنسا. وسينشر كتابها الأول قريبًا، وهي تشعر بشيء من القلق حوله»، صمت، «قلق صغير آخر، لدى شان الكثير من الأمور المقلقة. هل ستذهبين إلى المدينة معي نهاية الأسبوع لرؤيتها؟»

«طبعًا، ما هو عملها مرة أخرى؟»

«ما الذي لا تفعله شان؟ اعتادت العمل في شركة مضاربات، ثم تركتها وسافرت في أنحاء العالم وعملت بالصحافة قليلًا. والتقت بهذا الرجل الهاييتي وانتقلت إلى باريس للعيش معه. ثم أصيب بمرض ومات، لقد حدث الأمر سريعًا. فظلت هناك لفترة، وبعد أن قررت العودة للولايات، احتفظت بالشقة في باريس. ومر عام على علاقتها مع هذا الرجل الجديد أوفيديو. إنها العلاقة الحقيقية الأولى التي تحظى بها منذ وفاة جيري، إنه رجل محترم حقًا، وهو مسافر هذا الأسبوع في مهمة إلى كاليفورنيا، لذا فشان وحيدة. تحب أن تقيم هذه اللقاءات التي تسميها صالونات، ولديها مجموعة رائعة من الأصدقاء، معظمهم من الفنانين والكتاب، يجتمعون في بيتها ويديرون حوارات رائعة»، صمت، «إنها شخص مميز حقًا».

حين دخلت شان إلى الغرفة، اختفى كل الهواء، ولم تتنفس بعمق، لم تكن

بحاجة لهذا، فالهواء طفا ببساطة نحوها، منجذبًا بسلطتها الطبيعية، حتى لا يبقى شيء للآخرين. تخيلت إفيملو طفولة بْلين الخلية من الهواء، راكضًا خلف شان ليرضيها، وليذكرها بوجوده. وحتى الآن، وهو راشد، ما زال الأخ الأصغر المفعم بالحب اليائس، محاولًا إحراز قبول خشي ألّا يحصل عليه. وصلا إلى شقة شان باكرًا بعد الظهيرة، وتوقف بْلين ليتحدث مع البواب كما تحدث مع سائق سيارة الأجرة من محطة بنسلفانيا، بأسلوبه العفوي ذاك، مشكّلًا تحالفات مع البوابين وطاقم التنظيف وسائقي الحافلات. كان يعرف كم يجنون وكم ساعة يعملون ويعلم أنهم لا يملكون تأمينًا صحيًا.

«مرحبًا يا جورج، كيف حالك؟»، لفظ بْلين اسمه باللفظ الأسباني، خورخي.

«جيدة جدًا. كيف حال طلابك في ييل؟»، سأل البواب، وقد بدا مسرورًا أنه يدرّس في ييل.

«يصيبونني بالجنون كالعادة»، قال بْلين ثم أشار إلى المرأة الواقفة قرب المصعد مديرة ظهرها لهم، وتلف بساط يوغا وردي اللون، «أوه، هذه شان». كانت شان ضئيلة وجميلة، ولها وجه بيضوي وعظما وجنتين عاليان، ووجه متغطرس.

«أهلًا!»، قالت وعانقت بْلين، ولم تنظر إلى إفيملو ولو لمرة «سعيدة أنني ذهبت إلى صف البيلاتس، إنه يتركك حين تتركه، هل ذهبت للجري اليوم؟»

«أجل».

«لقد تحدثت مع ديفد ثانية. قال إنه سيرسل لي أغلفة بديلة هذا المساء. يبدو أنهم يصغون الي أخيرًا»، ودوّرت عينيها. انفتحت أبواب المصعد وتقدمتهما في الدخول مستمرة بالحديث لبْلين، الذي بدا متضايقًا، كأنه ينتظر لحظة مواتية ليعرف أحدهما الآخر، لحظة لم تكن شان راغبة بمنحها.

«اتصلت مديرة التسويق بي هذا الصباح، إنها تتحلّى بتهذيب لا يطاق أسوأ من أي إهانة، هل تعرف؟ أخبرتني كم يحب بائعو الكتب الأغلفة وما إلى ذلك. هذه سخافة»، قالت شان.

«انها غريزة القطيع في دور النشر، يفعلون ما يفعله الجميع»، قال بْلين.

توقف المصعد في طابقها، والتفتت نحو إفيملو، «أوه آسفة، أنا متوترة»،

قالت، «جميل أن ألتقي بك، لا يكف بْلين عن التحدث عنك»، نظرت إلى إفيملو نظرة صريحة متفحصة لم تخجل من كونها صريحة ومتفحصة: «إنك جميلة جدًا».

«أنت جميلة جدًا»، قالت إفيملو مفاجئة نفسها، لأن هذه لم تكن الكلمات التي تقولها عادة، لكنها شعرت بأن شان قد استحوذت عليها، فقد جعلها إطراء شان سعيدة بشكل غريب. شان مميزة، قال بْلين، وفهمت إفيملو ما قصده. كان لشان هيئة الشخص المختار بشكل ما، كأن الآلهة قد وضعت عصًا سحرية فيها، فإن فعلت أشياء عادية أصبحت مبهمة.

«هل تعجبك الغرفة؟»، سألت شان إفيملو، بتلويحة من يدها، مشيرة للفرش الدراماتيكي، من بساط أحمر وأريكة زرقاء وأخرى برتقالية وكرسي أخضر بذراعين.

«أعرف أنها لا بد أن تعني شيئًا، لكني لا أفهمه».

ضحكت شان ضحكات قصيرة بدت مقطوعة قبل اكتمالها، وكأن المزيد من ضحكات يفترض بها أن تتلوها لكنها لم تفعل، ولأنها ضحكت فقط دون قول شيء قالت إفيملو «إنها جميلة».

«أجل، جميلة»، قالت شان وهي تقف قرب طاولة الطعام ورفعت ساقها عليها مميلة جسدها لتمسك قدمها بيدها. كان جسدها جمعًا من الانحناءات الصغيرة الجميلة، في مؤخرتها وصدرها وبطتي ساقيها، وفي حركاتها مؤهلات المختار، إذ تستطيع مط ساقها على طاولة الطعام كلما أرادت، حتى بوجود ضيف في شقتها.

«عرفني بْلين على مدونة رشة عنصرية، إنها مدونة رائعة»، قالت.

«شكرًا لك»، قالت إفيملو.

«لدي صديق كاتب نيجيري، هل تعرفين كيليشي غاروبا؟»

«قرأت عمله».

«تحدثنا عن مدونتك قبل بضعة أيام، وقال إنه واثق أن السوداء غير الأمريكية كاريبية، لأن الأفارقة لا يهتمون بالعنصرية. سيصدم حين يلتقيك!». صمتت شان لترفع الساق الأخرى إلى الطاولة، مميلة جسدها لتمسك بقدمها.

«إنه يغتاظ دومًا لأن كتبه لا تحقق نجاحًا، فأخبرته أن عليه كتابة أمور فظيعة عن شعبه إن أراد أن ينجح. عليه أن يقول إن الأفارقة هو وحدهم الملومون

على مشاكل إفريقيا، وإن الأوروبيين ساعدوا الأفارقة أكثر مما آذوهم، وسيصبح مشهورًا ويقول الناس إنه صريح!»

ضحكت إفيملو.

«صور مدهشة»، قالت إفيملو مشيرة إلى صورة على طاولة جانبية لشان تحمل زجاجتي شمبانيا عاليًا فوق رأسها، محاطة بأطفال سمر يرتدون الأسمال ويبتسمون في ما بدا حيًا فقيرًا في أمريكا اللاتينية، وأكواخ من الصفيح خلفها، «أعني جميلة حرفيًا».

«لم يرغب أوفيديو بعرضها لكنني أصررت. يفترض بها أن تكون ساخرة كما هو واضح».

تخيلت إفيملو الإصرار، بجملة بسيطة ليست بحاجة لتكرارها والتي ستجعل أوفيديو يتراجع.

«هل تذهبين كثيرًا إلى الديار في نيجيريا؟»، سألت شان.

«لا، لم أذهب حقيقة منذ أن قدمت للولايات».

«لماذا؟»

«في البداية لم أستطع تحمل النفقات، ثم صار لدي عمل ولم يتسن لي الفرصة قط».

كانت شان تواجهها الآن، وذراعاها ممدودتان للخارج وتدفعان للوراء مثل الجناحين.

«يسمينا النيجيريون أكاتا[62] أليس كذلك؟ وهي تعني حيوانات برية؟»

«لا أعرف معنى الحيوانات البرية، لا أعرف حقًا ماذا تعني، وأنا لا أستخدمها»، وجدت إفيملو نفسها تتلعثم، ومع ذلك شعرت بالذنب إثر نظرة شان المباشرة. كانت شان تقطر قوة، من نوع مدمر وحاد.

خرج بْلين من المطبخ حاملًا كأسين من سائل ضارب للحمرة.

---

62) acata أو akata، كلمة من لغة اليوروبا، ويقصد بها القط البري، عادة ينعت بها اليوروبا الأفارقة الأمريكيين، أو النيجيريين الذين زاروا أمريكا، والقصد أن هؤلاء قطط برية لأنهم لا يسكنون إفريقيا، في حين أن سكان إفريقيا هم قطط أليفة أو منزلية لأنهم في ديارهم.

«كوكتيل العذراوات!»، قالت شان ببهجة طفولية وهي تأخذ كأسًا من بْلين.

«رمان وماء فوار والقليل من العنب الأحمر»، قال بْلين مقدمًا الكأس الأخرى لإفيملو. «إذًا متى ستقيمون الصالون التالي يا شان؟ كنت أخبر إفيملو عنه».

حين قال بْلين لإفيملو إن شان تسمي لقاءاتها صالونات، شدد على الكلمة بسخرية، لكنه قالها جديًا الآن باللفظ الفرنسي.

«أوه، قريبًا كما أظن»، رفعت شان كتفيها، بحب وارتجال، ورشفت من كأسها، ثم مالت على الجانبين في استطالة، مثل شجرة حَنَتها الريح.

رن هاتف شان الخلوي «أين وضعت ذلك الهاتف؟هذا ديفد على الأرجح».

كان الهاتف على الطاولة، «أوه، إنه لوك، سأعاود الاتصال به لاحقًا».

«من هو لوك؟»سأل بْلين، خارجًا من المطبخ.

«هذا رجل فرنسي، رجل ثري، إنه مضحك، التقيته في المطار بحق الجحيم. أخبرته أن لدي خليلًا وقال، 'إذًا سأعجب بك من بعيد وأتحين فرصتي'، قال أتحين فعلًا»، رشفت شان شرابها، «جميل كيف ينظر لك الرجال البيض في أوروبا باعتبارك امرأة، لا امرأة سوداء، والآن لا أرغب بمواعدتهم بحق الجحيم، أريد معرفة الاحتمالات فقط».

كان بْلين يهز رأسه موافقة. لو قال أحد آخر ما قالته شان، فسيحرث الكلمات بحثًا عن فرق وسيختلف مع اندفاعه وبساطته. أخبرته إفيملو مرة حين شاهدا خبرًا عن طلاق أحد المشاهير، أنها لا تفهم الإخلاص الواضح الذي يطلبه الأمريكيون في العلاقات، فسألها: «ماذا تقصدين؟»، وسمعت معارضة تكمن في صوته، هو أيضًا يؤمن بالإخلاص الواضح الرسمي.

«الأمر لديّ مختلف، وأظن ذلك يعود إلى أنني من العالم الثالث»، قالت، «أن تكون طفلًا في العالم الثالث يعني أن تدرك كل المقومات المختلفة لديك، وكيف أن الصدق والحقيقة يعتمدان على السياق دومًا»، شعرت بالذكاء لكونها فكرت بهذا التفسير لكن بْلين هز رأسه نفيًا قبل أن تنهي كلامها وقال «هذا كسل للغاية، استغلال العالم الثالث بهذا الشكل».

وها هو الآن يهز رأسه موافقة حين قالت شان « الأوروبيون ليسوا محافظين

وملتزمين بالعلاقة بقدر الأمريكان. يقول الرجال البيض في أوروبا أريد امرأة، أما في أمريكا فيقول الرجال البيض لن أمس امرأة سوداء، غير أن بمقدوري مضاجعة هالي بيري».

«هذا طريف»، قال بْلين.

«طبعًا. ثمة رغبة لدى الرجال البيض في هذه البلاد، الذين لا يواعدون سوى النساء السود، لكن هذا نوع من الطقوس الفتشية، وهو أمر مقرف»، قالت شان ثم أدارت نظرتها اللامعة إلى إفيملو.

أوشكت إفيملو أن تعترض، وبدت رغبتها في إثارة إعجاب شان أمرًا غريبًا «في الحقيقة كانت تجربتي على النقيض. حصلت على اهتمام الرجال البيض أكثر من الرجال الأمريكيين الأفارقة».

«حقًا؟»، صمتت شان، «أظن ذلك بسبب هويتك الغريبة، ذلك الشيء الإفريقي الحقيقي؟»

لقد وخزتها لمسة ازدراء شان، ثم صارت بغضاء واخزة موجهة لبْلين، لأنها تمنت لو لم يوافق أخته بهذا الحماس.

رن هاتف شان ثانية، «أوه، من الأفضل أن يكون هذا ديفد!»، أخذت الهاتف إلى غرفة النوم.

«ديفد هو المحرر. يريدون وضع صورة جنسية؛ جذع تمثال أسود، على غلاف كتابها، وهي ترفض»، قال بْلين.

«حقًا؟»، رشفت إفيملو من شرابها وقلبت مجلة فنية وهي ما زالت مستاءة منه.

«هل أنت بخير؟»، سأل.

«أنا بخير».

عادت شان، ونظر بْلين إليها «هل كل شيء على ما يرام؟»

هزت رأسها موافقة، «لن يستخدموها. يبدو أن الجميع متفقون».

«هذا رائع»، قال بْلين.

«عليك أن تكوني ضيفة مدونتي لعدد من الأيام حين يصدر كتابك»، قالت إفيملو، «سيكون الأمر مدهشًا، وسأحب استضافتك».

رفعت شان حاجبها في تعبير لم تفهمه إفيملو، وخشيت أنها مندفعة للغاية.

«أجل، أظنني أستطيع»، قالت شان.

يمكن لأوباما أن يفوز إن ظل الزنجي السحري فقط

قد يكون القس خائفًا، لأن ذلك يعني أن أوباما ليس الزنجي السحري في نهاية الأمر. بالمناسبة، كان القس ميلودراماتيكيًا، لكن هل ذهبت إلى كنيسة مدرسة أمريكية قديمة للسود؟ إنها مسرح حقيقي، لكن نقطة هذا الرجل الجوهرية صحيحة، إذ يعرف الأمريكيون السود (الذين من عمره بلا شك) أمريكا مختلفة عن التي يعرفها الأمريكيون البيض، فهم يعرفون أمريكا أكثر قسوة وقبحًا ولكن لا يفترض بك قول ذلك، لأن كل شيء في أمريكا على ما يرام والجميع متساوون. وها هو القس قالها، وربما يظن أوباما ذلك أيضًا، وإن كان أوباما يظن ذلك فهو ليس الزنجي السحري إذًا، ويمكن لزنجي سحري فقط أن يفوز بالانتخابات. وقد تسأل ومن هو الزنجي السحري؟ إنه الرجل الأسود الحكيم واللطيف دومًا، الذي لا يتصرف أبدًا تحت ظرف المعاناة ولا يغضب ولا يهدد، وهو يغفر دومًا كل أنواع الهراء العنصري. إنه يعلم الشخص الأبيض كيف يحطم الكبرياء الحزينة والمفهومة في قلبه. أنت ترى هذا الرجل في العديد من الأفلام، وأوباما قادم مباشرة من مؤسسة الممثلين الثانويين[63].

---

63) تشير الكاتبة إلى القس جيرميا رايت المرشد الروحي لأوباما، والذي ألقى مواعظ أثارت ردود فعل حانقة في الشارع الأمريكي، اضطرت أوباما إلى قطع علاقته بالقس والتخلي عنه نهائيًا عام 2008، وكان ذلك أثناء السباق الرئاسي، وقد تراجعت شعبية أوباما لدى 41% من الناخبين في استطلاع للرأي أجرته مجلة نيوزويك . مما جاء في الموعظة التي ألقاها في كنيسة التثليث الموحدة، طبقاً لما نشرته «ايه.بي.سي»: «أمريكا ماتزال هي القاتل رقم واحد في العالم. نحن الأميركيون مصدرو البنادق الأول في العالم، ومدربو القتلة المحترفين في كل شبر على المعمورة. نحن الذين قصفنا كمبوديا، والعراق، ونيكاراغوا، وقتلنا النساء والأطفال، ووضعنا نيلسون مانديلا في السجن، وساندنا العنصرية لمدة 72 عاما في جنوب إفريقيا. أمريكا هي الإيمان بالتفوق العنصري الأبيض، وبانحطاط السود، وهي تؤمن بذلك أكثر من إيمانها بالله عز وجل». وقد وصف أوباما آراء القس بأنها مشينة وقال: «آراء رايت بالتأكيد لا تعكس قيمي وقناعاتي الخاصة، وإن كان القس يعتقد بأن هذا موقف سياسي (من جهتي)، كما قال، فهو لا يعرفني جيدًا». والكاتبة هنا فيما يبدو تنتقد تصرف أوباما وتعتبره نمطيًا وكأنه ممثل ثانوي.

الفصل السادس والثلاثون

كانت حفلة عيد ميلاد مفاجئة في هامدن لمارسيا صديقة نْلين.

«ميلادًا سعيدًا مارسيا!»، قالت إفيملو في جوقة مع الأصدقاء الآخرين وهي تقف قرب نْلين. كان لسانها ثقيلًا قليلًا في فمها، وحماسها مصطنعًا قليلًا. مر على علاقتها مع نْلين أكثر من عام، لكنها لا تتأقلم تمامًا مع أصدقائه.

«أيها الوغدا»، قالت مارسيا لزوجها بيني، ضاحكة والدموع في عينيها.

كانت مارسيا وبيني كلاهما يدرّسان التاريخ، جاءا من الجنوب ويبدوان متشابهين بالجسد الضئيل والبشرة العسلية وخصل الشعر الطويلة التي تحتل عنقيهما. كانا يضعان حبهما مثل عطر ثقيل، نافثين التزامًا شفافًا، لامسين بعضهما ومشيرين لبعضهما. تخيلت إفيملو وهي تراقبهما هذه الحياة لها ولنْلين، في منزل صغير في شارع هادئ، والرسوم الباتيكية معلقة على الجدران والتماثيل الإفريقية تتوهج في الزوايا، وكلاهما يعيش في طنين ثابت من السعادة.

صب بيني الشراب، وسارت مارسيا في الأنحاء مندهشة، تنظر إلى صواني الطعام المكدس الموضوعة على طاولة الطعام، ومن ثم إلى كتلة البالونات التي ترتفع نحو السقف.

«متى فعلت كل هذا يا حبيبي؟ لقد خرجت لساعة فقط!»

عانقت الجميع وهي تمسح الدموع من عينيها. قبل أن تعانق إفيملو، طفت

تجعيدة قلق على وجهها، وعرفت إفيملو أن مارسيا نسيت اسمها، «جميل أن أراك ثانية، شكرًا لقدومك»، قالت، بجرعة إضافية من الصدق، وقد شددت على «جدًا»، كأنها تغطي على نسيانها لاسم إفيملو.

«يا ولد!»، قالت لبْلين الذي عانقها وحملها بخفة على الأرض وكلاهما يضحك.

«إنك أخف وزنًا مما كنت عليه في عيد ميلادك الماضي!»، قال بْلين.

«وتبدو أصغر كل يوم!»، قالت باولا، صديقة بْلين السابقة.

«مارسيا، هل ستكشفين سرك؟»، قالت امرأة لم تعرفها إفيملو، بدا شعرها المبيض منتفخًا مثل خوذة من البلاتينيوم.

«سرها هو الجنس الجيد»، قالت غريس بجدية، وهي امرأة كورية أمريكية تدرس الدراسات الإفريقية الأمريكية، صغيرة وممتلئة، ترتدي ثيابًا أنيقة واسعة دومًا، فتبدو كأنها تعوم في حفيف من الحرير، «أنا ذلك الشيء النادر، مجنونة مسيحية يسارية»، قالت لإفيملو حين التقتها أول مرة.

«هل سمعت هذا يا بيني؟»، سألت مارسيا، «سرنا هو الجنس الجيد».

«هذا صحيح!»، قال بيني وغمز لها، «هل رأى أحدكم تصريح باراك أوباما هذا الصباح؟»

«نعم، لقد ظهر في الأخبار طوال اليوم»، قالت باولا، كانت قصيرة وشقراء بيشرة صافية وردية صحية وطلقة، جعلت إفيملو تتساءل إن كانت تركب الخيل.

«أنا لا أملك تلفازًا أصلًا»، قالت غريس بتنهيدة سخرية من الذات، «لقد بعته مؤخرًا واشتريت هاتفًا خلويًا».

«سيعاد بثه»، قال بيني.

«هيا لنأكل!»، قال هذا سترلنغ، الثري، الذي أخبرها بْلين أنه ينحدر من عائلة ثرية من بوسطن، كان هو ووالده من طلاب القرابة[64] في هارفارد. كان ميالًا لليسار، ومتحدثًا جيدًا لم يكن ليسمح لنفسه أن يكون له رأي، لأنه مشلول بإدراكه لامتيازاته

---

64) التفضيل على أساس القرابة أو القبول على أساس القرابة أحد أنواع التفضيل التي تمنحها المؤسسات التعليمية لبعض المتقدمين إليها على أساس القرابة العائلية لخريجي المؤسسة، (ويشار إلى الطلاب المقبولين لهذا السبب باسم طلاب القرابة). ويقدر أن هذا العامل مسؤول عن قبول 10% إلى 30% من الطلاب الجدد في الصف الأول في مؤسسات رابطة اللبلاب.

الكثيرة، ويكرر كثيرًا «أجل، أفهم ما تعني».

أكل الطعام بكثير من الثناء والنبيذ، والدجاج المقلي والخضار والفطائر. وأخذت إفيملو حصصًا صغيرة، مسرورة لأنها تناولت وجبة خفيفة من المكسرات قبل أن يغادرا، إذ لم يعجبها الطعام الجنوبي[65].

«لم أذق خبز ذرة بهذه اللذة منذ سنوات»، قال نيثان الجالس بجانبها. كان أستاذًا للأدب عصبيًا ويرمش كثيرًا من خلف عدستي نظارته، قال عنه بْلين مرة إنه الشخص الوحيد في ييل الذي يثق به تمامًا. أخبرها نيثان قبل أشهر بصوت مفعم بالعجرفة إنه لم يقرأ أي عمل أدبي نشر بعد عام 1930، «لقد انحدر الأدب كله بعد الثلاثينيات»، قال.

أخبرت بْلين عن ذلك لاحقًا، وكان في صوتها نفاد صبر، بل واتهام، حين أضافت أن الأكاديميين لم يكونوا مثقفين، ولم يكونوا فضوليين، إنهم ينصبون خيامهم من المعرفة المتخصصة، ويظلون قابعين فيها بأمان.

قال بْلين «أوه، لنيثان قضيته، ولا يتعلق الأمر بكونه أكاديميًا». يبدأ حس دفاع يتسلل إلى صوت بْلين حين يتحدثان عن أصدقائه، ربما لأنه شعر بضيقها معهم. حين تحضر ندوة معه، يحرص على القول إنها كان من الممكن أن تكون أفضل، أو إن الدقائق العشر الأولى مملة، وكأنه يسيطر على نقدها. كانت آخر ندوة حضراها ندوة صديقته السابقة باولا، في كلية في ميدلتاون. وقفت باولا أمام قاعة الدرس، في ثوب ملفوف أخضر داكن وحذاء، وتبدو طلقة ومقنعة ومحفزة وفاتنة لمستمعيها في الوقت نفسه، عالمة سياسة جميلة شابة ستحصل على التثبيت الأكاديمي بلا شك. كانت تنظر كثيرًا إلى بْلين، مثلما ينظر تلميذ لأستاذ، مقايسة أداءها من تعابير وجهه. حين تحدثت، هز بْلين رأسه بانتباه، وتنهد مرة عاليًا كأن كلماتها منحته تجليًا مألوفًا ورائعًا. لقد ظلا صديقين مقربين، باولا وبْلين، ظلا في الدائرة نفسها بعد أن خانته مع امرأة اسمها باولا أيضًا، وتدعى الآن بي لتمييزها عن

---

65) تستخدم الكاتبة تعبير غذاء الروح، وهو وجبة تقليدية من الجنوب الأمريكي، يعود أصلها إلى العبيد الذين كان غذاؤهم يعتمد كثيرًا على قطع اللحم غير المحببة والكثير من الخضار، لكنها بشكل عام تتألف من الدجاج والسمك المقلي والكثير من الخضار وبخاصة البطاطا الحلوة المهروسة والفطائر.

الأخرى. «مرت علاقتنا بمتاعب لفترة، قالت إنها جريت مع بي لكني أستطيع القول إن الأمر أكثر، وكنت محقًا لأنهما ما زالتا معًا»، قال بْلين لإفيملو، وبدا الأمر كله لها أليفًا جدًا وحضاريًا جدًا. حتى ود باولا معها بدا نظيفًا للغاية.

«ماذا لو تخلصنا منه وذهبنا لتناول شراب؟»، قالت باولا لإفيملو ذلك المساء بعد محاضرتها، وقد احمر خداها من الحماسة والراحة بعد الأداء الجيد.

«أنا مرهقة»، قالت إفيملو.

قال بْلين «وأنا علي التحضير لصفي غدًا، لنفعل شيئًا نهاية الأسبوع، تمام؟»، وعانقها مودعًا.

«ليست سيئة جدًا، أليس كذلك؟»، سأل بْلين إفيملو في طريق عودتهما لنيوهفن.

«كنت واثقة أنك ستبلغ النشوة»، قالت إفيملو وضحك بْلين. خطر لها، وهي تراقب باولا تتحدث، أن باولا مرتاحة مع إيقاع بْلين بطريقة لم تكن هي كذلك، وخطر لها ذلك الآن وهي ترى باولا تأكل حصتها الثالثة من خضار الكرنب، جالسة إلى جانب صديقتها بي وتضحك على شيء قالته مارسيا.

كانت المرأة ذات الشعر الشبيه بالخوذة تأكل الكرنب الأخضر بأصابعها.

«لا يفترض بنا نحن البشر أن نأكل من ماعون»، قالت.

شخر مايكل، الجالس قرب إفيملو، بصوت عالٍ «لمَ لا تذهبين وتعيشين في كهف إذًا؟»، سأل وضحكوا جميعًا، لكن إفيملو لم تكن واثقة أنه يمزح. لم يكن له طاقة على الكلام المخبول. لقد أحبته، إذ له جدائل صغيرة تنساب على طول جلدة رأسه، وتعبير وجهه ساخر دومًا مزدرٍ للحساسية. «مايكل رجل جيد، لكنه يحاول جاهدًا أن يظل واقعيًا فيبدو مفعمًا بالسلبية»، قال بْلين حين التقت مايكل للمرة الأولى . سجن مايكل بتهمة سرقة السيارات حين كان في التاسعة عشرة من عمره، وكان مولعًا بالقول «بعض السود لا يقدرون التعليم إلى أن يدخلوا السجن». كان مصورًا بالزمالة وحين رأت إفيملو صوره أول مرة، بالأبيض والأسود، في رقص من الظلال، فوجئت برقتها وهشاشتها، فقد توقعت خيالًا أخشن. وقد علقت إحدى هذه الصور على الجدار في شقة بْلين، مقابل مكتبها.

عبر الطاولة سألت باولا «هل أخبرتك أنني طلبت من طلابي قراءة مدونتك يا

إفيملو؟ من المثير للاهتمام كم يبدو تفكيرهم آمنًا، أريد دفعهم خارج منطقة راحتهم. أحببت المنشور الأخير: «**نصائح لطيفة للأمريكيين من غير السود؛ كيف تتصرف مع أمريكي أسود يتحدث عن السواد**».

«هذا ظريف»، قالت مارسيا، «أود قراءة هذا».

أخرجت باولا هاتفها ونقرت عليه ثم أخذت تقرأ بصوت عال.

عزيزي الأمريكي غير الأسود: إن أخبرك أمريكي أسود عن تجربة أن تكون أسود، رجاء لا تذكر متحمسًا أمثلة من حياتك الخاصة، فلا تقل «يبدو ذلك مثلما كنت....»، لقد عانيت، وكل شخص في العالم عانى. لكنك لم تعانِ تحديدًا لأنك أمريكي أسود. لا تسرع في العثور على تفسيرات بديلة لما حدث، فلا تقل «أوه، إن الأمر لا يتعلق بالعرق، بل بالطبقة. أوه إن الأمر لا يتعلق بالعرق بل بالجنس، أوه إن الأمر لا يتعلق بالعرق بل بوحش البسكويت». كما ترى لا يريد الأمريكيون السود أن يكون السبب هو العرق. فهم يفضلون لو أن الهراء العنصري لم يحدث، لذا فإنهم حين يقولون إن شيئًا متعلقًا بالعرق، فذلك ربما لأنه متعلق به فعلًا؟ لا تقل أنا غير عنصري، لأنك لو كنت كذلك فأنت بحاجة لرؤية طبيب، وهذا يعني أنه عند ظهور رجل أسود على التلفاز بوصفه مشتبهًا بجريمة في حيك، فكل ما تراه شكلًا مضببًا مائلًا للأرجواني والرمادي والقشدي. لا تقل إننا مللنا من الحديث عن العرق، أو إن العرق الوحيد هو العرق البشري، فقد سئم الأمريكيون السود أيضًا من الحديث عن العرق. ويتمنون لو أنهم لا يفعلون، لكن الهراء يستمر في الحدوث. لا تستهل إجابتك بالقول «أحد أفضل أصدقائي أسود»، لأن ذلك لا يحدث فرقًا ولا أحد يهتم، ويمكن أن يكون أفضل أصدقائك أسود ومع ذلك تقوم بممارسات عنصرية وعلى الأرجح أن ذلك ليس صحيحًا. على أية حال الجزء "الأفضل" هو ليس "الصديق". لا تقل إن جدك كان مكسيكيًا لذا لا يمكن

أن تكون عنصريًا (اضغط هنا من فضلك لتقرأ المزيد من **منشور لا رابطة متحدة للمضطهدين**) ولا تتحدث عن معاناة أجدادك الإيرلنديين. صحيح أنهم تعرضوا لكثير من الهراء من أمريكا الراسخة، وكذلك الإيطاليون، وكذلك أوروبا الشرقية، ولكن ثمة تراتبية. قبل مئة عام، كرهت الإثنية البيضاء كونها مكروهة، لكن الأمر كان مقبولًا لأن السود كانوا على الأقل أدنى منهم في السلم. لا تقل لي إن جدك كان قنًا في روسيا حين حدثت العبودية، لأن ما يهم أنك أمريكي الآن وكونك أمريكيًا يعني أنك تحظى بالأشياء كلها؛ بمزايا أمريكا وآثام أمريكا، وقوانين جيم كرو[66] إثم كبير. لا تقل إن الأمر مثل معاداة السامية، لأنه ليس كذلك. في كراهية اليهود يكمن أيضًا احتمال الحسد، فهم أذكياء جدًا أولئك اليهود وهم يسيطرون على كل شيء، هؤلاء اليهود، ولا بد للمرء أن يقر أن الاحترام بعينه، بعيدًا عن كونه شحيحًا، يرافقه الحسد. أما في كراهية الأمريكيين السود، ليس ثمة احتمال للحسد؛ فهم خاملون جدًا هؤلاء السود، وليسوا أذكياء هؤلاء السود.

لا تقل «إن العنصرية انتهت، وإن العبودية كانت منذ زمن بعيد»، نحن نتحدث عن المشكلة من ستينيات القرن الماضي لا ستينيات القرن التاسع عشر. لو التقيت بمسن أمريكي أسود من ألاباما، فسيتذكر غالبًا حين اضطر أن ينزل من الرصيف، لأن شخصًا أبيض يسير عليه. اشتريت ثوبًا من متجر أنتيكات على إي باي قبل أيام، مصنوع عام 1960، بهيئة رائعة، وارتديته كثيرًا. حين ارتدته المالكة الأصلية، لم يكن يسمح للأمريكيين السود بالتصويت لأنهم سود (وربما كانت المالكة الأصلية إحدى هؤلاء النساء في الصورة الفوتغرافية البنية الشهيرة، الواقفات في

66) يقصد بها قوانين الفصل الاجتماعي، والاسم نسبة إلى أغنية شعبية بعنوان اقفز يا جيم كرو، وصارت وصفًا تحقيريًا للزنوج.

حشود خارج المدارس يهتفن بقولهن «قرد!»على الأطفال السود الصغار، لأنهن لا يردنهم أن يرتادوها مع أطفالهم الصغار. أين هؤلاء النسوة الآن؟ هل ينمن جيدًا؟هل يتذكرن هتافهن قرد؟ أخيرًا لا تقل، بنبرة لنكن عادلين، «لكن السود عنصريون أيضًا»، لأننا طبعًا كلنا متكبرون، (أنا حتى لا أستطيع احتمال بعض أقاربي الجشعين الأنانيين)، لكن العنصرية تتعلق بسلطة جماعة، وفي أمريكا البيض هم من يملكون السلطة. كيف؟ حسن، لا يلقى البيض معاملة سيئة في المجتمعات الراقية الأمريكية السوداء، ولا يرفض إعطاء البيض قروضًا مصرفية أو صكوك رهن لأنهم بيض تحديدًا، ولا تعطي هيئة المحلفين من السود المجرم الأبيض عقوبة أسوأ من المجرم الأسود على الجريمة نفسها، ولا يوقف رجال الشرطة السود البيض بسبب قيادة السيارة، في حين أن شركات السود والبيض لا تختار عدم توظيف أحد لأن اسمه يبدو أبيض ولا تقول المعلمات السوداوات للأطفال البيض إنهم ليسوا أذكياء بقدر كافٍ ليصبحوا أطباء، ولا يحاول السياسيون السود تقليل أصوات البيض بالحيلة عبر تقسيم المناطق، ولا تقول شركات الإعلان إنهم لا يوظفون العارضات البيض للإعلان عن منتجات فاتنة، لأنهن لا يعتبرن «طموحات» حسب الرأي العام.

إذًا، بعد هذا التعداد للاءات، ماذا تفعل؟ لست واثقة، جرب الاستماع. اسمع ما يقال وتذكر أن الأمر لا يتعلق بك، لا يقول لك الأمريكيون السود هذا للومك، بل يخبرونك بحقيقة الأمر فحسب. إن كنت لا تفهم اطرح الأسئلة، وإن كنت متضايقًا من طرح الأسئلة فقل إنك كذلك، ثم اسأل على أية حال. من السهل معرفة إن كان السؤال ينبع من نية حسنة ، ثم استمع أكثر، يرغب الناس أحيانًا أن يُصغى إليهم فحسب، وهذا لاحتمالات الصداقة والترابط والتفهم.

قالت مارسيا «احببت فقرة الثوب!»

«إنه مضحك ساخرا»، قال نيثان.

«إذًا لا بد أنك تتقاضين أجورًا عالية للحديث من هذه المدونة»، قال مايكل.

«يذهب معظمه إلى أقربائي الجوعى في نيجيريا»، قالت إفيملو.

«لا بد أن الأمر جيد لك»، قال.

«ماذا تعني؟»

«أن تعرفي من أين أنت، وأسلافك البعيدين، وهذا النوع من الأمور».

«حسن»، قالت، «أجل».

نظر إليها نظرة ضايقتها، لأنها لم تكن واثقة مما تحمله نظرته، ثم أشاح بنظره.

كان بُلين يخبر صديقة مارسيا ذات الشعر الشبيه بالخوذة «علينا أن نتغلب على هذه الأسطورة. لم يكن في التاريخ الأمريكي شيء بين اليهود والمسيحيين. لا أحد يحب الكاثوليكيين واليهود، إنها قيم إنغلو بروتستانتية، وليست قيمًا يهودية نصرانية. حتى ماريلاند سرعان ما توقفت عن كونها ودودة للكاثوليك»، توقف فجأة وأخرج هاتفه من جيبه ونهض، «اعذروني يا قوم»، قال، ثم بصوت أخفض لإفيملو «إنها شان، سأعود حالًا»، ودخل إلى المطبخ ورد على المكالمة.

أدار بيني التلفاز وشاهدوا باراك أوباما، رجلًا نحيلًا يرتدي معطفًا أسود يبدو أكبر من قياسه، ومشيته مرتبكة قليلًا. حين تحدث، خرجت نفخات من غيوم البخار من فمه مثل الدخان في الهواء البارد «**ولهذا، قرب مبنى أولد ستيت كابيتل، حيث دعا لنكن مرة ليتحد البيت المنقسم، حيث ما زالت الآمال والأحلام المشتركة تحيا، أقف أمامكم اليوم لأعلن ترشحي لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية**».

«لا أصدق أنهم جعلوه يقول هذا. لدى هذا الرجل طاقات، لكنه بحاجة لينضج أولًا، يحتاج شيئًا من الثقل. سيفسد الأمر على السود لأنه لن يقترب من الفوز، ولن يستطيع الأسود أن يترشح لخمسين سنة قادمة في هذه البلاد»، قالت غريس.

«إنه يشعرني بشعور حسن!»، قالت مارسيا ضاحكة، «أحب ذلك، فكرة بناء أمريكا لها أمل أكبر».

«أظن أن له فرصة»، قال بيني.

«أوه، لن يستطيع الفوز، سيطلقون النار على مؤخرته أولًا، «قال مايكل.

«من المنعش أن نرى سياسيًا يدرك الفروق»، قالت باولا.

«أجل»، قالت بي. كان لها ذراعان يشبهان ذراع الحاكي نحيلان وبارزا العضلات، وقصة شعر عابثة، وهيئة متوترة قلقة، كانت شخصًا قد يخنقه حبه «يبدو ذكيًا جدًا ودقيقًا جدًا».

«وأنت تبدين مثل أمي»، قالت باولا بنبرة لاذعة من شجار خاص تود مواصلته، في كلمات تعني أشياء أخرى «لمَ يبدو لافتًا جدًا أن يكون دقيقًا؟»

«هل هرموناتك مضطربة يا باولي؟»، سألت مارسيا.

«إنها كذلك! هل رأيتها وهي تأكل كل الدجاج المقلي؟»

تجاهلت باولا بي ، ومدت يدها لتأخذ شريحة أخرى من فطيرة اليقطين، وكأنها تتحداها.

«ما رأيك بأوباما يا إفيملو؟»، سألت مارسيا واعتقدت إفيملو أن بيني أو غريس قد همسا باسمها في أذن مارسيا، وهاهي متحمسة الآن لإظهار معرفتها.

«أحب هيلاري كلنتون»، قالت إفيملو «لا أعرف أي شيء حقًا عن هذا الرجل أوباما».

عاد بْلين إلى الغرفة، «ماذا فاتني؟»

«هل شان على ما يرام؟»، سألت إفيملو وهز بْلين رأسه.

«ليس مهمًا ما يراه أحدنا عن أوباما، السؤال المهم هو إن كان البيض مستعدين لرئيس أسود»، قال نيثان.

«أنا مستعدة لرئيس أسود، لكني لا أظن الأمة كذلك»، قالت بي.

«جديًا هل كنت تتحدثين إلى أمي؟»، سألتها باولا. «لقد قالت الأمر نفسه. إن كنت مستعدة لرئيس أسود، فمن تحديدًا ليس مستعدًا في هذه البلاد إذًا؟ يقول الناس هذا حين لا يمكنهم القول إنهم ليسوا جاهزين. وحتى فكرة الاستعداد سخيفة».

استعارت إفيملو هذه الكلمات بعد أشهر، في منشور لمدونتها كُتب أثناء الجولة الأخيرة المسعورة للحملة الرئاسية، **حتى فكرة الاستعداد سخيفة**. هل يرى أحد كم

هو عبثي سؤال الناس إن كانوا مستعدين لرئيس أسود! هل أنت مستعد ليكون ميكي ماوس رئيسًا؟ ماذا عن الضفدع كيرمت؟ ورودلف غزال الرنة ذو الأنف الأحمر؟

«هوية عائلتي ليبرالية نزيهة، وقد اخترنا كل الصناديق الصحيحة»، قالت باولا، وشفتاها مقلوبتان في سخرية، مدورة ساق كأس النبيذ الفارغة، «لكن أبويّ كانا سريعين في إخبار أصدقائهما أن بْلين كان في ييل، كأنهما يقولان إنه من الأخيار».

«أنت تقسين عليهما يا باولي»، قال بْلين.

«لا، هذه حقيقة، ألا ترى ذلك؟»، سألت، «هل تذكر عيد الشكر الفظيع في منزل أبويّ؟»

«تعنين توقك لتناول الجبن وماكدونالدز؟»

ضحكت باولا «لا، ليس هذا ما أعنيه»، لكنها لم تقل ما قصدته ولذا ظلت الذكرى غير مذكورة، مغلفة في خصوصيتهما المشتركة.

عند العودة إلى شقة بْلين، قالت إفيملو «شعرت بالغيرة»، لقد كانت غيرة، ووخزة الانزعاج والاضطراب في معدتها. كان لباولا هيئة المنظرة الحقيقة بحيث تستطيع، كما تخيلت إفيملو، أن تنزلق بسهولة في الفوضى، وتقف في مقدمة المعارضين، مقاومة هراوات الشرطة وسخرية المشككين، وأن تشعر بهذا تجاه باولا كانت أن تشعر بالرغبة في أن تقارن بها.

«لا شيء يدعوك للغيرة منها يا إفيم»، قال بْلين.

«لم يكن الدجاج المقلي الذي أكلتَه هو الدجاج المقلي نفسه الذي أكلتُه أنا، لكنه الدجاج المقلي الذي أكلته باولا».

«ماذا؟»

«بالنسبة لك ولباولا، يغطى الدجاج المقلي باللبن والبيض، بالنسبة لي الدجاج المقلي ليس كذلك، كنت أفكر بكم الأشياء التي تتفقان حولها».

«هل نتقاسم الدجاج المقلي؟ هل تعرفين كم تحمل استعارة الدجاج المقلي من معان هنا؟»، كان بْلين يضحك ضحكة جذابة ناعمة ،«غيرتك عذبة، ولكن ما من احتمال لحدوث شيء».

عرفت أن لا شيء يحدث، ولن يخونها بْلين. كان قويًا في استقامته، وقد تملكه

الإخلاص بسهولة، فهو لا يدير نظره نحو امرأة جميلة في الشارع، لأنه لا يخطر له فعل ذلك، لكنها تشعر بالغيرة من البقايا العاطفية التي توجد بينهما هو وباولا، وبفكرة أن باولا كانت مثله، صالحة مثله.

السفر إن كنت أسود

صديق لصديق، أمريكي أسود لطيف يملك ثروة كبيرة، يؤلف كتابًا اسمه **السفر إن كنت أسود**. ليس أسود فحسب، يقول، بل أسود لافتًا إذ يوجد الكثير من أنواع السود، وليس في الأمر إهانة، لكنه لا يعني أولئك السود الذين يبدون من بورتوريكو أو البرازيل أو غيرها، بل يقصد أسود بشكل لافت، لأن العالم يعاملك بشكل مختلف. وإليكم ما قاله: خطرت لي فكرة الكتاب في مصر، فقد ذهبت إلى القاهرة ودعاني الرجل العربي المصري بالهمجي الأسود. وقلت هي! يفترض بهذه أن تكون إفريقيا! لذا أخذت أفكر بأماكن أخرى من العالم، وكيف سيبدو السفر إليها إن كنت أسود. أنا أسود بقدر ما يحصلون عليه مني. ينظر إليّ البيض في الجنوب اليوم ويقولون ها هو دولار أسود. يخبرونك في كتب الإرشاد ما عليك أن تتوقعه إن كنت مثليًا أو امرأة، يا للهول، عليهم فعل ذلك إن كنت أسود لافتًا. دع السود المسافرين يعرفون حقيقة الأمر. ليس الأمر كأن أحدهم سيطلق النار عليك، ولكن من الرائع أن تعرف في أي الأماكن سيحدق بك الناس. في الغابة الألمانية السوداء، إنها نظرة عدائية للغاية، في طوكيو وإسطنبول كان الجميع باردين وفاترين. في شنغهاي كانت النظرة متوترة، وفي دلهي كانت خبيثة. فقلت ألسنا في هذا معًا بطريقة ما؟ كما تعرفون لكوننا أناسًا ملونين وما إلى ذلك؟ قرأت أن البرازيل هي موطن الأعراق، فذهبت إلى ريو ولم أر أحدًا يشبهني في المطاعم والفنادق الأنيقة. يتصرف الناس بطريقة مضحكة

حين أسير متجهًا إلى صف الدرجة الأولى في المطار، مضحكة لطيفة قليلًا، وكأني أرتكب خطأ، فأنا لا أبدو مثل شخص يسافر بالدرجة الأولى. أذهب إلى المكسيك فينظرون إلي، ليست نظرة عدائية على الإطلاق، لكنها تجعلني فقط أعرف أنني مختلف، وكأنهم يحبوني لكني ما زلت أشبه كنغ كونغ». وحول هذا يقول أستاذي هنك: للأمريكيين اللاتينيين علاقة معقدة حقًا بالسواد، تخيم عليها قصة «نحن كلنا مختلطو العرق»، التي يقولونها لأنفسهم. ليست المكسيك سيئة بقدر بلدان مثل غواتيمالا وبيرو، حيث يكون امتياز الأبيض فائقًا، لكن هذه البلدان فيها سكان سود أكثر بكثير». ثم يقول صديق آخر «يعامل السود من أهل البلد دومًا معاملة أسوأ من السود من غير أهل البلد في كل مكان في العالم. ولدت صديقتي ونشأت في فرنسا من أبوين من توغو، وتتظاهر دومًا أنها أنغلوفونية حين تذهب للتسوق في باريس، لأن العاملات في المتجر يصبحن ألطف مع السود الذين لا يتحدثون الفرنسية، كما يحظى الأمريكيون السود بالكثير من الاحترام في البلدان الإفريقية. هل لديكم أفكار؟ اكتبوا حكاياتكم في السفر من فضلكم.

الفصل السابع والثلاثون

بدا الأمر لإفيملو وكأنها نظرت بعيدًا للحظة، وأعادت نظرها لتجد دايك قد تحول، ابن عمتها الصغير قد ذهب، وجاء في مكانه ولد لا يبدو ولدًا، طوله ستة أقدام بعضلات بارزة، يلعب كرة السلة في فريق مدرسة ويلو الثانوية، ويواعد فتاة ذكية شقراء اسمها بيج، تلبس تنانير قصيرة وحذاء رياضيًا من طراز كونفيرس. مرة حين سألته إفيملو «كيف تسير الأمور مع بيج؟»، أجاب دايك «لم نمارس الجنس بعد، إن كان هذا ما تريدين معرفته».

في المساء، اجتمع ستة أو سبعة أصدقاء في غرفته، كلهم من البيض باستثناء ماين، الولد الصيني الطويل الذي يدرّس والداه في الجامعة. كانوا يلعبون ألعاب الحاسوب، ويشاهدون مقاطع الفيديو على اليوتيوب، مرحين وضاحكين، وكلهم مغلفون بقوس لامعة من لامبالاة الشباب، وفي وسطهم دايك. كانوا يضحكون جميعًا لدعابات دايك، وينظرون إليه بحثًا عن الموافقة، وبطريقة رقيقة غير منطوقة، يسمحون له باتخاذ قراراتهم الجماعية، مثل تناول البيتزا والذهاب لمركز المجتمع للعب البينغ بونغ. معهم تغير دايك، وكسا صوته ومشيته بالتبجح، وقد نصب ظهره وكأنه يمضي بأقصى قوته، مطعّمًا حديثه بقوله لن تفعلوا، وستفعلون.

«لماذا تتحدث مع رفاقك على هذا النحو يا دايك؟»، سألت إفيملو.

«كيف لك أن تعامليني هكذا يا ابنة الخال؟»، قالها بوجه طريف مبالغ جعلها تضحك.

تخيلته إفيملو في الجامعة، سيكون قائدًا طلابيًا رائعًا، مرشدًا مجموعة من الطلاب المستقبليين وآبائهم ليريهم الأمور الرائعة في الحرم، ويحرص على إضافة شيء لا يحبه شخصيًا، وسيكون دومًا طريفًا وذكيًا ونشطًا، وستشعر الفتيات بميل نحوه، وسيحسده الأولاد على حيويته، وسيتمنى الآباء أن يكون أولادهم مثله.

—

ارتدت شان قميصًا ذهبيًا لامعًا، دون ارتداء حمالة، فتأرجح نهداها كلما تحركت. توددت للجميع، وهي تلمس ذراعًا، وتعانق بقوة، وتطيل قبلة على خد. كانت إطراءاتها مفعمة بالمبالغة فجعلتها تبدو كاذبة، ومع ذلك ابتسم أصدقاؤها وسعدوا بها. لم يكن مهمًا ما قيل، بل المهم أن شان هي من قاله. كانت مرتها الأولى في صالون شان، وتوترت إفيملو. لم يكن ثمة داع لذلك، فقد كان مجرد تجمع للأصدقاء. وشعرت بالحزن لما سترتديه، وجربت تسع ثياب وهي تلبس وتخلع قبل أن تستقر على فستان جعل خصرها يبدو صغيرًا.

«أهلًا!»، قالت شان حين وصلت إفيملو وبْلين وتبادلوا العناق.

«هل غريس قادمة؟»، سألت بْلين.

«نعم، ستأخذ القطار الأخير».

«رائع لم أرها منذ قرون»، أخفضت شان صوتها وقالت لإفيملو «سمعت أن غريس تسرق أبحاث طلابها، هل تعرفين ذلك؟»

«لا»، قالت إفيملو. وجدت حديثها عن أصدقاء بْلين على هذا النحو غريبًا، لكنه جعل منها مميزة في الوقت نفسه، لأنها دخلت كهف نميمة شان. ثم فجأة شعرت بالخجل فجأة لأنها لم تكن قوية في دفاعها عن غريس، التي تعجبها، قالت، «لا أظن ذلك صحيحًا مطلقًا».

لكن انتباه شان كان في مكان آخر.

«أريدك أن تلتقي بعمر أكثر الرجال جاذبية في نيويورك»، قالت شان وهي تقدم إفيملو لرجل طويل مثل لاعب سلة، كان خط شعره بالغ الكمال، في انحناءة حادة

تجتاح جبهته، وزوايا حادة تغوص قرب أذنيه. حين مدت إفيملو يدها لتصافح، انحنى قليلًا ووضع يده على صدره وابتسم.

«عمر لا يصافح النساء الأجنبيات عنه»، قالت شان.

«الأمر المثير جدًا، صحيح؟»، ورفعت رأسها لتنظر إلى عمر بإغراء.

«هذه الجميلة والأصيلة مطلقًا ماريبيل، وصديقتها جوان، الجميلة بالقدر نفسه، إنهما تجعلانني أشعر بالغيرة!»، قالت شان. وضحكت ماريبيل وجوان، وهما امرأتان بيضاوان صغيرتان تضعان نظارات كبيرة ذات إطار أسود. كانت كلاهما ترتدي ثوبًا قصيرًا، وارتدت إحداهما الأحمر المنقط، والأخرى المحفوف بالدانتيلا، ضيقين قليلًا ويبدوان من لقطات محلات الأنتيكا. لقد كان ذلك زيًا تنكريًا بطريقة ما، فقد قلبتا صناديق بعينها لها طابع الطبقة المتوسطة المثقفة المستنيرة، وبحب الثياب المثيرة أكثر من الجميلة، حب الانتقائية، وحب ما يفترض بهما حبه. تخيلتهما إفيملو عندما تسافران، إذ تجمعان أشياء غريبة لملء منزليهما بها، في إثبات أخرق لأناقتهما.

«هذا بيل»، قالت شان، معانقة الرجل الداكن المفتول العضلات الذي يرتدي بدلة فيودورا، «بيل كاتب لكنه ليس كالبقية منا، إنه يمتلك مقدارًا كبيرًا من المال»، بدت شان تغازله، «لدى بيل فكرة رائعة لكتاب رحلات بعنوان السفر إن كنت أسود».

«أحب أن أسمع عن ذلك»، قالت أشانتي.

«بالمناسبة، أشانتي يا فتاة أحب شعرك»، قالت شان.

«شكرًا لك»، قالت أشانتي. كانت طيفًا من الصدف الذي يخشخش عند مرفقيها، وربطت بعضها بخصل شعرها الملفلفة ولفت بعضها الآخر حول عنقها. قالت كثيرًا «وطني الأم» و «دين يوروبا»، ناظرة إلى إفيملو كأنها تبحث عن تأكيد، وكانت سخرية من إفريقيا أن تشعر إفيملو بالضيق منها ثم شعرت بالاستياء لأنها تضايقت.

«سيكون لك غلاف كتاب تحبينه أخيرًا؟»، سألت أشانتي شان.

«أحبه كلمة قوية»، قالت شان، «اسمعوا هذا الكتاب مذكرات، صحيح؟ إنه عن كثير من الأمور، النشوء في بلدة كل سكانها بيض، وكوني الطفلة السوداء الوحيدة في مدرستي الإعدادية، ورحيل أمي، كل تلك الأمور. قرأ المحرر المخطوط

وقال أفهم أن الأصل العرقي مهم هنا، ولكن علينا أن نحرص على أن يتجاوز الكتاب العرق، لذا لن يكون الكتاب عن هذا الأمر فحسب فقط. فقلت في نفسي: لماذا علي أن أتجاوز العرق؟ كأن العرق جعة مخمرة يفضل تقديمها معتدلة، ممزوجة بسوائل أخرى، وإلّا لن يبلعها البيض».

«هذا طريف»، قال بْلين.

«ظل يعلّم الحوارات في المخطوط ويكتب في الهوامش 'هل يقول الناس هذا حقًا؟' ويخطر لي كم عدد السود الذين تعرفهم؟ أعني تعرفهم بوصفهم أندادًا أو أصدقاء، ولا أقصد موظفي الاستقبال في المكتب، أو الزوجين الوحيدين اللذين يذهب أولادهما لمدرسة أولادك وتحييهما. أعني تعرفهم حق المعرفة. لا أحد، فكيف تخبرني إذًا كيف يتحدث السود؟»

«ليس ذنبه، ليس في الطبقة المتوسطة ما يكفي من السود ليروهم في الجوار»، قال بيل، «يبحث الكثير من الليبراليين البيض عن أصدقاء من السود، لكن الأمر يبدو صعبًا بقدر العثور على متبرعة ببويضات، تكون طويلة شقراء في الثامنة عشرة من العمر في هارفارد».

ضحكوا جميعًا.

«كتبت مشهدًا عن أمر حدث في الجامعة، عن امرأة من غامبيا أعرفها، تحب أكل شوكولاته الخَبز، وتحتفظ دومًا بعلبة منها في حقيبتها. على أية حال عاشت في لندن وأحبت رجلًا إنجليزيًا أبيض، وكان سيترك زوجته من أجلها. كنا في حانة وحكت لعدد منا عن الأمر، أنا وتلك الفتاة الأخرى وذلك الرجل بيتر، الرجل القصير من وسكنسن. وهل تعرفون ما قاله بيتر لها؟ قال 'لا بد أن زوجته ستشعر بالاستياء أكثر حين تعرف أنك سوداء'، قالها وكأن الأمر واضح جدًا، لا لأن المرأة ستشعر بالاستياء لوجود امرأة أخرى، نقطة انتهى، لكنها ستشعر بالاستياء لأن المرأة سوداء. ذكرت الأمر في الكتاب، فأراد المحرر أن يغيره لأنه قال إنه ليس مرهفًا، وكأن الحياة مرهفة دومًا. ثم كتبت عن معاناة أمي في العمل، لأنها شعرت أنها ستنفجر من الغيظ، وأنهم لا يسمحون لها بالترقية لأنها سوداء. فقال المحرر 'هل يمكننا أن نكون أكثر دقة؟' لعل أمك تلقت تقريرًا سيئًا من أحدهم في العمل ؟ أو لعلها شخصت مسبقًا

بالسرطان؟ يرى أن علينا تعقيد الأمر، فلا يكون السبب العرق وحده. لكني قلت إنه العرق. لقد عانت لأنها ظنت لو أن كل شيء سيان، باستثناء عرقها، لأمكنها أن تصبح نائب الرئيس، وتحدثت عن الأمر كثيرًا حتى ماتت. غير أن تجربة أمي تصبح فجأة غير دقيقة؛ وتعني كلمة 'دقيق' إبقاء الناس مرتاحين، فيكون الجميع أحرارًا في أن يروا أنفسهم أفرادًا ويعرف الجميع أماكنهم بفضل نجاحهم».

«ربما عليك تحويلها إلى رواية»، قالت ماريبيل.

«هل تمزحين معي؟»، سألت شان التي كانت ثملة قليلًا ودراماتيكية قليلًا، وتجلس جلسة اليوغا على الأرض، «لا يمكنك كتابة رواية صادقة عن العرق في هذه البلاد. إن كتبت عن سطوة العرق على الناس حقًا، فستكون واضحة جدًا. ثمة خياران أمام الكتاب السود الذين يكتبون الأدب السردي في هذا البلد، الثلاثة منهم، ولا أعني العشرة آلاف الذين يكتبون كتب الغيتو الهرائية ذات الأغلفة اللماعة؛ إما أن تكون مرائيًا أو تكون مدعيًا. وحين لا تكون أحدهما، لا أحد يعرف كيف يقرؤك. لذا إن كنت ستكتب عن العرق، فعليك أن تحرص أن تكون مرهفًا وشاعريًا جدًا، لئلا يعرف القراء الذين لا يقرؤون ما بين السطور أنك تكتب عن العرق. ذلك تأمل بروستي، كما تعرفون، مفعم بالبكائيات والغموض، بحيث يجعلك تشعر في نهاية الأمر بالوهن والتشوش».

«أو اعثري على كاتب أبيض فحسب. يمكن للكُتّاب البيض أن يكونوا فظين فيما يتعلق بالعرق ويصبحون ناشطين لأنهم لا يشكلون تهديدًا»، قالت غريس.

«ماذا عن هذا الكتاب الحديث **مذكرات راهب**[67]»، قالت ماريبيل.

«إنه كتاب جبان كاذب، هل قرأته؟»، سألت شان.

«قرأت مراجعة عنه»، قالت ماريبيل.

«هذه هي المشكلة، تقرأين عن الكتب أكثر مما تقرأين الكتب فعليًا».

احمرت ماريبيل. لن تقبل بهذا إلا من شان، كما شعرت إفيملو.

---

67) كتاب لأوم سوامي (لو قيلت الحقيقة: مذكرات راهب) وسوامي راهب هندي ولد عام 1979، أسس شركة برمجيات حاسوب في أستراليا بعد تخرجه، ثم عاد إلى الهند وأسس شركة رعاية صحية. عام 2010 تخلى عن ثروته وانطلق في رحلته الروحية، وفي كتابه هذا يقدم آراءه في الحكمة، يقول" لا تعني الحكمة أن تعيش متسولًا بل أن تخضع نفسك لحياة من المشقات والصبر".

«نحن تنظيريون جدًا فيما يتعلق بالكتب في هذا البلد، تصبح الشخصية غير معقولة، ما لم تكن الشخصية مألوفة»، قالت شان.

«لا يمكنك قراءة الأدب الامريكي للحصول على لمحة عن سير الحياة الواقعية، بل تقرأ الأدب الأمريكي لتتعرف إلى أمريكيين بيض متخلفين يقومون بأشياء غريبة بالنسبة إلى البيض الطبيعيين».

ضحك الجميع، وبدت شان مبتهجة، مثل فتاة صغيرة تتباهى بغنائها أمام أصدقاء والديها المشهورين.

«العالم لا يشبه هذه الغرفة»، قالت غريس.

«لكن يمكنه أن يشبهها»، قال بلين «نحن نثبت أن العالم يمكن أن يكون مثل هذه الغرفة، يمكن أن يكون فضاء مساواة وحرية للجميع، نحن بحاجة أن نفكك حواجز الامتياز والاضطهاد فحسب».

«هذا هو أخي داعية الحب والسلام»، قالت شان.

ازداد الضحك أكثر.

«عليك أن تكتبي عن هذا في مدونتك يا إفيملو»، قالت غريس.

«هل تعرفين لمَ تستطيع إفيملو أن تكتب تلك المدونة بالمناسبة؟»، قالت شان، «لأنها إفريقية، ولأنها تكتب من الخارج، لأنها لا تشعر حقًا بكل الأمور التي تكتب عنها. يتعلق الأمر بكونها غريبة وجذابة. لذا يمكنها كتابتها وتحصل على كل هذه الحفاوة وتدعى لإلقاء المحاضرات. لو كانت إفريقية أمريكية، فسيصمونها بالغاضبة والنائية بنفسها».

غرقت الغرفة بالصمت للحظة.

«أظن هذا عادلًا كفاية»، قالت إفيملو، مستاءة من شان ومن نفسها، لخضوعها لتعويذة شان. صحيح أن العرق لم يكن مزخرفًا في نسيج تاريخها ولم يخز روحها، ومع ذلك تمنت لو قالت شان هذا لها حين تكونان وحدهما بدلًا من قوله الآن، بتهلل كبير، أمام الأصدقاء، مخلفة عقدة ممضة لدى إفيملو مثل حرمان في صدرها.

«الكثير من هذا حديث نسبيًا، الهويات السوداء وعبر الإفريقية كانت قوية

فعلًا في أول القرن التاسع عشر، فقد أجبرت الحرب الباردة الناس على الاختيار، فإما أن تصبح علميًا، ما يعني بطبيعة الحال أن تكون شيوعيًا بالنسبة للأمريكيين، أو تصبح جزءًا من الرأسمالية الأمريكية، وهو خيار النخبة الإفريقية الأمريكية»، قال بْلين وكأنه يدافع عن إفيملو لكنها رأت الأمر شديد التنظير وشديد القصور وشديد التأخير.

نظرت شان إلى إفيملو وابتسمت، وفي هذه الابتسامة كمنت احتمالية القسوة الكبيرة. بعد أشهر، حين تشاجرت إفيملو مع بْلين، تساءلت إن كانت شان قد غذت غضبه، غضبه الذي لم تفهمه تمامًا أبدًا.

هل أوباما سوى أسود؟

يقول الكثير من الناس-السود غالبًا- إن أوباما ليس أسود، بل ثنائي العرق، متعدد الثقافات، أسود وأبيض، أي شيء باستثناء أنه أسود. لأن أمه بيضاء. لكن العرق ليس علم أحياء، إنه علم اجتماع، العرق ليس نمطًا جينيًا، بل نمطًا ظاهريًا. يغدو العرق مهمًا بسبب العنصرية، والعنصرية عبثية لأنها تتعلق بمظهرك، لا بالدم الذي يجري فيك، إنها تتعلق بلون بشرتك وشكل أنفك وتجعيدة شعرك. كانا أبوا بروكر ت. واشنطن وفريدريك دوغلاس[68] أبيضين، فتخيل لو أنهما يقولان إنهما ليسا بأسودين.

تخيل أوباما، ولون بشرته بلون اللوز المحمص، وشعره ملفلف يقول لموظفة إحصاء "أنا أبيض قليلًا"، فتقول له "طبعًا أنت كذلك". ثمة شخص أبيض في أسلاف الكثيرين من السود، لأن مالكي العبيد البيض أحبوا أن يذهبوا في رحلة اغتصاب في أكواخ عبيدهم ليلاً، لكن إن ولدت داكنًا، فليكن. (لذا إن كنت

---

68) بروكر واشنطن (1915-1856) معلم وكاتب أمريكي وهو قائد بارز في مجتمع السود، من كتبه للمسألة الزنجية وبناء الشخصية. فريدريك دوغلاس (-1818 1895) مصلح اجتماعي وكاتب إفريقي أمريكي، من كتبه رجال عصاميون والهروب من العبودية.

المرأة الشقراء ذات العينين الزرقاوين التي تقول "كان جدي من السكان الأمريكيين الأصليين، وتعرضت للتمييز العنصري أيضًا"، حين يتحدث السود عن الهراء فكفي عن ذلك من فضلك). في أمريكا لا يمكنك أن تقرر أي عرق أنت، إنهم يقررون ذلك بدلًا عنك. كان باراك أوباما، بمظهره هذا، سيضطر للجلوس في آخر الحافلة قبل خمسين سنة. ولو ارتكب رجل أسود أيًا يكن جريمة اليوم، فسيوقَف باراك أوباما ويستجوَب لمطابقة الصورة الجانبية، وماذا ستكون الصورة الجانبية؟ "رجل أسود".

الفصل الثامن والثلاثون

لم يعجب ئلين ببوباكار، وربما كان هذا مهمًا، أو لعله ليس مهمًا في قصة شجارهما، لكن ئلين لم يحب بوباكار فعلًا. التقت هي وئلين ببوباكار في حفل عشاء أقامته الجامعة على شرفه، وهو أستاذ سنغالي أبنوسي البشرة، انتقل مؤخرًا للولايات المتحدة ليدرّس في ييل. كان مزعجًا بذكائه ومن اعتداده بذاته. جلس على رأس الطاولة، يشرب النبيذ الأحمر ويتحدث بجفاف عن الرؤساء الفرنسيين الذين التقى بهم، وعن الجامعات الفرنسية التي عرضت عليه العمل.

«جئت إلى أمريكا لأني أردت اختيار سيدي»، قال، «إن كان لا بد أن يكون لي سيد، فالأفضل أن يكون أمريكيًا إذًا من أن يكون فرنسيًا. لكني لن آكل البسكويت أو أذهب إلى ماكدونالد. يا للهمجية!»

فتنت إفيملو وأعجبت به، كما أحبت لكنته، فإنجليزيته غارقة بالولوفية[69] والفرنسية.

«وجدته رائعًا»، قالت إفيملو لئلين لاحقًا.

«من المثير أنه يقول أمورًا عادية ويظنها عميقة حقًا»، قال ئلين.

«إنه مغرور قليلًا، شأنه شأن الجميع على الطاولة»، قالت إفيملو، «ألا

69) لغة أغلبية السكان في السنغال وأقلية في موريتانيا.

يفترض بكم ذلك يا أهل ييل قبل تعيينكم؟»

لم يضحك بْلين، كما يفعل عادة. أحست في ردة فعله باستياء المالك الذي كان غريبًا عن طبعه، وفاجأها ذلك. لقد تحدث بلكنة فرنسية رديئة ويسخر من بوباكار. «يأخذ الفرانكفونيون الإفريقيون استراحة لشرب القهوة، أما الأفارقة الأنغلوفونيين فيأخذون استراحة لشرب الشاي. يستحيل الحصول على قهوة لاتيه حقيقية في هذه البلاد!».

ربما استاء من انجذابها بسرعة لبوباكار ذلك اليوم، بعد أن قُدمت الحلوى، كأنها انجذبت إلى شخص يتحدث اللغة الصامتة نفسها كما تفعل. أغاظت بوباكار حول الإفريقيين الفرانكفونيين، وكيف فسدت عقولهم بالفرنسية وكم صاروا حساسين، شديدي الوعي بإهانات الأوروبيين، لكنهم في الوقت نفسه متيمين بالأوروبيين. ضحك بوباكار ضحكة أليفة؛ لن يضحك هكذا مع أمريكي، بل سيكون حادًا لو أن أمريكيًا تجرأ على قول الشيء نفسه. لعل بْلين كره هذه الشراكة، ذلك الشيء الإفريقي الأصيل الذي شعر أنه منبوذ منه. لكن مشاعرها تجاه بوباكار أخوية خلية من الرغبة. التقيا كثيرًا لشرب الشاي في مكتبة أتيكس وتحدثا - أو بالأحرى تصغي هي باعتباره يتحدث معظم الوقت- عن سياسات إفريقيا الغربية والعائلة والوطن ثم تغادر بإحساس بالحصانة.

حين أخبرها بوباكارعن الزمالة الجديدة في العلوم الإنسانية في برنستن، أخذت تنظر إلى ماضيها، وانتابها شعور بالاضطراب، فقد كبرت مخاوفها حول مدونتها.

«عليك أن تقدمي أوراقك، وسأعمل على تزكيتك»، قال.

«أنا لست أكاديمية، ليس لدي شهادة عليا».

«الزميل الحالي عازف جاز ذكي جدًا، لكنه يحمل شهادة الثانوية العامة فقط. إنهم يريدون أشخاصًا يفعلون أمورًا جديدة، ويتجاوزون الحدود. عليك أن تتقدمي، واكتبي اسمي مرجعًا من فضلك. علينا أن نصل إلى هذه الأماكن، كما تعلمين. إنها الطريقة الوحيدة لتغيير الخطاب».

تأثرت، وهي تجلس قبالته في المقهى وتشعر بالانسجام الدافئ بينهما لشيء مشترك.

كثيرًا ما دعاها بوباكار لزيارة صفه، لمحاضرة في القضايا الإفريقية المعاصرة، فيقول «ربما تجدين شيئًا تدونين عنه». وهكذا، في اليوم الذي بدأت فيه قصة شجارها مع بْلين، زارت صف بوباكار، وجلست في المؤخرة قرب النافذة. تساقطت الأوراق من الأشجار الكبيرة الهرمة في الخارج، وقد مشى أشخاص يلفون أعناقهم بالأوشحة مسرعين على الرصيف حاملين أكوابًا ورقية، وكانت النساء- النساء الآسيويات خاصة- جميلات مرتديات تنانير ضيقة وأحذية طويلة بكعوب عالية. فتح طلاب بوباكار كلهم حواسيبهم المحمولة أمامهم، وشاشاتها تشع بصفحات البريد الإلكتروني ومحرك البحث غوغل وصور المشاهير. كانوا من حين لآخر يفتحون ملف وورد ويكتبون بضع كلمات من بوباكار، وقد عُلقت ستراتهم على كراسيهم، ولغة أجسادهم المتثاقلة المتململة قليلًا تقول هذا: نحن نعرف الإجابات مسبقًا. وبعد الصف يذهبون إلى المقهى في المكتبة ويشترون شطيرة جنوب إفريقيا، أو كاري الهند، وفي طريقهم إلى صف آخر تعطيهم مجموعة طلاب واقيات ذكرية وحلوى المصاص، وفي المساء يشربون الشاي في منزل فخم حيث يجيب رئيس من أمريكا اللاتينية أو فائز بنوبل على أسئلتهم كأنها شيء مهم.

«تصفح طلابك كلهم الإنترنت»، أخبرت بوباكار وهما يعودان إلى مكتبه.

«إنهم لا يشكون بوجودهم هنا، هؤلاء الطلاب. إنهم يؤمنون بوجوب وجودهم هنا، لقد كسبوا هذا الوجود ودفعوا من أجله. أساسًا هم من أحضرونا هنا. هذا مفتاح العظمة الأمريكية، هذا الغرور». قال بوباكار، وهو يضع قبعة مسطحة من اللباد على رأسه، ويداه تغوصان في جيوب معطفه، «ولهذا لا يفهمون أن عليهم أن يكونوا ممتنين لوقوفي أمامهم».

وصلا إلى مكتبه حين قرع الباب نصف المفتوح.

«ادخل»، قال بوباكار.

دخل كافانو. التقته إفيملو مرات قليلة، وهو أستاذ مساعد في التاريخ قضى طفولته في الكونغو. كان ملفلف الشعر وينقصه حس الدعابة، ويبدو مناسبًا لتغطية الحروب الخطرة في البلدان القصيّة، أكثر من تدريس التاريخ لطلاب الجامعة. وقف قرب الباب وقال لبوباكار إنه سيخرج في إجازة تفرغ علمي وسيطلب القسم شطائر

في اليوم التالي في غداء وداع له، وقيل له إنه ستوجد بعض الشطائر الفاخرة مثل براعم الفصفصة.

«سأمر إن شعرت بما يكفي من الملل»، قال بوباكار.

«عليك أن تأتي»، قال كافانو لإفيملو،«حقًا».

«سآتي»، قالت، «فالغداء المجاني فكرة طيبة دومًا».

حين غادرت مكتب بوباكار، أرسل لها بْلين رسالة نصية: **هل سمعت بأمر السيد وايت في المكتبة؟**

أول ما تبادر لذهنها أن السيد وايت قد مات، ولم تشعر بحزن عظيم، وشعرت بالذنب لهذا. كان السيد وايت حارس أمن في المكتبة يجلس عند المخرج ويتأكد من الغلاف الخلفي لكل كتاب، رجل أحمر العينين ببشرة داكنة جدًا لها لون أفتح بقليل من التوت الأزرق. اعتادت رؤيته جالسًا، وجه وجذع، وحين رأته يمشي أول مرة أحزنتها مشيته، فقد تهدلت كتفاه وكأنهما مثقلتان بخسارات متواصلة. صادقه بْلين قبل سنوات، وكان يقف أحيانًا أثناء استراحته للحديث معه في الخارج. «إنه كتاب تاريخ»، قال لها بْلين. التقت السيد وايت بضع مرات «هل لها أخت؟»، سأل السيد وايت بْلين مشيرًا إليها. أو يقول «تبدو متعبًا، يا رفيقي، هل أبقاك أحدهم مستيقظًا لوقت متأخر؟»، بطريقة وجدتها إفيملو غير لائقة. كلما تصافحا، ضغط السيد وايت على أصابعها، بإيماءة مثقلة بالإيحاء، فتسحب يدها لتحررها وتتجنب نظراته حتى يغادرا. ثمة طلب والتماس، في تلك المصافحة، ولهذا شعرت أنها دومًا تحمل شيئًا من النفور، لكنها لم تخبر بْلين أبدًا لأنها شعرت أيضًا بالأسف لنفورها. كان السيد وايت، في نهاية الأمر، رجلًا أسود مُسنًّا عركته الحياة وتمنت لو أنها تجاهلت الفرص التي يستغلها.

«كم هو طريف أنني لم أسمعك مرة تتحدث الإيبونية من قبل»، قالت لبْلين في المرة الأولى التي سمعته فيها يتحدث للسيد وايت. «كان نظم الجملة مختلفًا، وإيقاعها أكثر تناغمًا».

«أظنني صرت أكثر ألفة مع اللغة المشفّرة»، قال، «وكما تعرفين، لم يعد السود الأصغر سنًا يتبادلون الشفرات. لا يستطيع أولاد الطبقة المتوسطة الحديث

بالإيبونية، وأما أولاد داخل المدينة فلا يتحدثون إلا الإيبونية وليس لهم تلك الطلاقة التي تمتع بها جيلي».

«سأدون عن هذا».

«عرفت أنك ستقولين هذا».

أرسلت رسالة نصية لبْلين: «لا، ما الذي حدث؟ هل السيد وايت بخير؟ هل انتهيت؟ هل تريد تناول شطيرة؟»

اتصل بها بْلين وطلب منها أن تنتظره في زاوية ويتني، وسرعان ما رأته يمشي نحوها، بجسد رشيق سريع الخطو يرتدي كنزة رمادية.

«مرحبًا»، قال وقبلها.

«رائحتك جميلة»، قالت وقبلها ثانية.

«هل احتملت صف بوباكار؟ رغم أنه لم يكن ثمة كرواسان أو لفافات الشوكولاتة؟»

«كف عن ذلك. ما الذي حدث للسيد وايت؟»

حين سارا، يدًا بيد، إلى دكان شطائر البيغل، أخبرها كيف أتى صديق السيد وايت، وهو رجل أسود، مساء أمس ووقف كلاهما خارج المكتبة. أعطى السيد وايت صديقه مفتاح سيارته، لأن الصديق أراد استعارة السيارة، وأعطى الصديق السيد وايت بعض المال الذي أقرضه إياه السيد وايت قبلًا. افترض موظف أبيض في المكتبة يراقبهما، أن الرجلين الأسودين يبيعان المخدرات واتصل بالمراقب. واتصل المراقب بالشرطة. جاءت الشرطة واقتادت السيد وايت لاستجوابه.

«أوه يا إلهي»، قالت إفيملو، «هل هو بخير؟»

«نعم، لقد عاد إلى مكتبه»، صمت بْلين، «أظنه توقع حدوث شيء كهذا».

«هذه هي المأساة الحقيقية»، قالت إفيملو وأدركت أنها تستخدم كلمات بْلين، وسمعت في صوتها أحيانًا صدى صوته. قال لها مرة إن المأساة الحقيقية لإميت تيل[70] ليست قتل طفل أسود لتصفيره لامرأة بيضاء، بل في سؤال بعض السود

70) مراهق أسود ولد عام 1941، وفي عام 1955 ذهب لزيارة أقارب له في موني في ولاية المسيسيبي فاتهم بالتصفير لامرأة بيضاء تعمل أمينة صندوق في متجر، وبعد أربعة أيام اختطف زوج المرأة وأخوه غير الشقيق إميت وضرباه وقتلاه بإطلاق النار على رأسه. حوكم الرجلان بجريمة القتل، لكن هيئة المحلفين التي كانت كلها من الذكور البيض قد برأتهما.

لكن لم صقر؟

«تحدثت إليه قليلًا. اكتفى برفع كتفيه لا مباليًا بالأمر كله وقال إنه ليس بشأن عظيم، وعوضًا عن ذلك أراد الحديث عن ابنته، التي يشعر بالقلق حولها حقًا. فهي تتحدث عن ترك المدرسة الثانوية، لذا سأمر وأدرّسها. سألتقيها يوم الاثنين».

«بْلين، هذا الولد السابع الذي تدرّسه»، قالت، «هل ستقوم بتدريس كل أولاد وسط مدينة نيوهفن؟»

كان الجو عاصفًا وهو يخرّز عينيه، والسيارات تمر بهما في جادة ويتني، والتفت لينظر إليها بعينين ضيقتين.

«أتمنى لو استطعت»، قال بهدوء.

«أريد رؤيتك أكثر»، قالت ووضعت ذراعًا حول خصره.

«كان رد الجامعة هراء تمامًا. خطأ بسيط لم يكن عنصريًا أبدًا؟ حقًا؟ أفكر بتنظيم احتجاج غدًا، سأحرض الناس على الخروج وقول إن هذا ليس صحيحًا، ليس في فنائنا».

لقد قرر مسبقًا، يمكنها ملاحظة ذلك، لم يكن يفكر بالأمر فقط. جلس إلى طاولة قرب الباب حين ذهبت إلى المنضدة لتطلب الطعام، إنها تطلب له دومًا لأنها عرفته، وعرفت ما يحب. حين عادت حاملة صينية بلاستيكية - عليها شطيرة الديك الرومي لها وشطيرة الخضار له قرب كيسين من رقائق البطاطا المخبوزة غير المملحة- انحنى رأسه على هاتفه. بحلول المساء كان قد أجرى مكالمات وأرسل رسائل إلكترونية ونصية وقد انتشر الخبر، ورن هاتفه وجلجل وصلصل، بردود من أشخاص يقولون إنهم موافقون. اتصل به طالب ليطلب منه أن يقترح ما يكتبونه على اللافتات، واتصل طالب آخر بمحطات التلفزة المحلية.

قال بْلين في اليوم التالي قبل ذهابه للصف «لدي صفوف متلاحقة، لذا ألتقيك في المكتبة؟ أرسلي لي رسالة نصية حين تكونين في الطريق».

لم يناقشا الأمر، وقد افترض ببساطة أنها ستكون هناك، لذا قالت «حسن».

لكنها لم تذهب، ولم تنسَ. لعل بْلين كان أكثر تساهلًا لو أنها نسيت، أو لو أنها استغرقت في القراءة أو التدوين للحد الذي نسيت فيه أمر الاحتجاج. لقد

فضلت الذهاب إلى غداء وداع كافانو بدلًا من الوقوف أمام مكتبة الجامعة حاملة لافتة. لن يهتم بْلين بالأمر كثيرًا، قالت في نفسها. وإن شعرت بشيء من الاستياء، فلم تدركه إلا بعد أن جلست في قاعة درس مع كافانو وبوباكار وغيرهما من الأساتذة، ترشف زجاجة من عصير العنب الأحمر، وتصغي إلى شابة تتحدث عن مراجعة تثبيتها الأكاديمي الوشيك، حين انهالت رسائل بْلين النصية على هاتفها. أين أنت؟ هل أنت بخير؟ احتجاج رائع، أبحث عنك. فاجأتني شان وجاءت! هل أنت بخير؟ غادرت باكرًا وذهبت إلى الشقة واستلقت في الفراش، وأرسلت رسالة نصية لبْلين تعتذر فيها بشدة، لقد استيقظت لتوها من قيلولة دامت طويلًا. فردّ: حسن، أنا في طريقي للبيت.

دخل وطوقها بذراعيه، بقوة وحماسة دخلا من الباب معه.

«لقد افتقدتك. أردتك أن تكوني هناك بشدة. سعدت للغاية بقدوم شان»، قال منفعلًا قليلًا وكأن الأمر نصر شخصي له. «لقد كان الاحتجاج مثل أمريكا مصغرة، طلاب سود وطلاب بيض وطلاب آسيويون وطلاب هسبانو. كانت ابنة السيد وايت هناك، تلتقط صورًا لصوره على اللافتات، وشعرت أن هذا أعاد له كرامته أخيرًا».

«هذا جميل»، قالت.

«شان تحييك. إنها تستقل القطار للعودة الآن».

كان من السهل على بْلين أن يعرف، ربما من إشارة عابرة من أحد ما حضر الغداء، لكنها لم تعرف أبدًا كيف عرف. عاد اليوم التالي ونظر إليها، ولمعة مثل الفضة في عينيه، وقال «لقد كذبت». قيلت بشيء من الخوف الذي حيرها، وكأنه لم يظن أن كذبها ممكن. أرادت أن تقول «بْلين، الناس يكذبون». لكنها قالت «أنا آسفة».

«لماذا؟»، نظر إليها كأنها مدت يدها ومزقت براءته، وكرهته للحظة، هذا الرجل الذي يأكل لب تفاحتها، ويحول حتى هذا إلى تصرف أخلاقي.

«لا أعرف لمَ يا بْلين، لكني لم أشعر برغبة بفعل ذلك. لم أظنك ستهتم كثيرًا».

«لم تشعري برغبة للقيام بذلك؟»

«أنا آسفة، كان علي إخبارك بأمر الغداء».

«كيف صار هذا الغداء مهمًا فجأة؟ أنت بالكاد تعرفين زميل بوباكار هذا!»، قال مرتابًا. «هل تعرفين، الأمر لا يتعلق بالتدوين، عليك أن تعيشي كما تؤمنين. هذه المدونة لعبة لا تأخذينها على محمل الجد وإنها مثل انتقاء صف مسائي اختياري مثير لإكمال ساعاتك الجامعية». لاحظت في نبرة صوته اتهامًا دقيقًا، ليس عن خمولها وافتقارها للشغف والقناعة فحسب، بل حول إفريقيتها أيضًا. لم تكن غاضبة بما يكفي لأنها إفريقية لا إفريقية أمريكية.

«ليس عدلًا منك قول ذلك»، قالت، لكنه استدار بعيدًا عنها باردًا وصامتًا.

«لم لا تتحدث إليّ؟»، سألت، «أنا لا أفهم لمَ يهمك هذا كثيرًا».

«كيف يمكنك ألا تفهمي؟ إنه المبدأ»، قال، وفي تلك اللحظة صار غريبًا عنها.

«أنا آسفة حقًا»، قالت.

دخل إلى الحمام وأغلق الباب.

شعرت بالانكماش من غضبه الصامت. كيف يمكن لمبدأ، لأمر مجرد يطفو في الهواء، أن يحشر نفسه بعناد هكذا بينهما، ويحوّل بْلين إلى شخص آخر؟ تمنت لو كان عاطفة بدائية، عاطفة مثل الغيرة أو الخيانة.

اتصلت بآرمنتا. «أشعر كأني زوجة حائرة تتصل بشقيقة زوجها لتشرح لها زوجها»، قالت.

«في المدرسة الثانوية، أذكر أنه أقيمت حملة تبرعات، وقد وضعوا طاولة خارجًا عليها بسكويت وما شابه، ويفترض بك وضع المال في المرطبان وأخذ بسكويتة، وكما تعرفين، كنت أشعر بالتمرد، فأخذت بسكويتة ولم أضع مالًا، وجن جنون بْلين مني. أذكر أنني قلت إنها مجرد بسكويتة، لكني أظنها مسألة مبدأ لديه. يصبح أحيانًا أخلاقيًا بشكل سخيف. اتركيه يومًا أو اثنين وسينسى هذا».

لكن مر يوم، ثم يومان وظل بْلين محبوسًا في صمته المثلج. في اليوم الثالث لعدم قوله كلمة واحدة لها، حزمت حقيبة صغيرة وغادرت. لم يكن باستطاعتها العودة إلى بالتيمور، فشقتها مؤجرة وأثاثها في مستودع، لذا ذهبت إلى ويلو.

ما يعنيه الأكاديميون بامتياز الأبيض
أو أجل، من المقرف أن تكون فقيرًا وأبيض
لكن جرّب أن تكون فقيرًا غير أبيض

قال ذلك الرجل للأستاذ هَنك «إن امتياز الأبيض كلام فارغ، كيف يمكنني أن أحظى بالامتياز؟ لقد نشأت فقيرًا في غرب فرجينيا. أنا ريفي أبالشي[71]، وتعيش عائلتي على الرعاية الاجتماعية». صحيح، لكن الامتياز مرتبط دومًا بأمر آخر. تخيل الآن شخصًا مثله، فقيرًا ومعدمًا مثله، ثم اجعل هذا الشخص أسود. إن قبض على كليهما بتهمة حيازة المخدرات، سيرسل الأبيض للعلاج، وسيرسل الرجل الأسود للسجن على الأرجح. كل شيء متشابه باستثناء العرق. تأكد من الإحصاءات. الرجل الأبالشي الريفي فقير، وهو وضع ليس بحسن، لكن لو أنه أسود، فسيكون معدمًا أكثر. قال للأستاذ هنك أيضًا "لمَ يتعين علينا دومًا أن نتحدث عن العرق على أية حال؟ ألا يمكننا أن نكون كائنات بشرية فقط؟" وأجاب الأستاذ هنك إن هذا هو ما يعنيه بالضبط امتياز الأبيض، أن يكون باستطاعتك قول هذا. لا يوجد الأصل العرقي لديك لأنه لم يكن عائقًا يومًا، لكن السود لا يملكون هذا الخيار. لا يريد الرجل الأسود في شوارع نيويورك أن يفكر بالعرق، حتى يحاول إيقاف سيارة أجرة، ولا يريد التفكير بأمر العرق وهو يقود سيارته المرسيدس تحت حد السرعة المسموح، إلى أن يوقفه شرطي. لا يحظى الرجل الأبالشي بامتياز الطبقة، لكنه يحظى بامتياز العرق حتمًا. ما رأيكم؟ فكروا أيها القراء وشاركوني تجاربكم، خاصة إن لم تكونوا من السود.

ملاحظة: اقترح الأستاذ هنك أن أنشر هذا، اختبارًا لامتياز

71) إقليم زراعي في الولايات المتحدة.

الأبيض، والحقوق محفوظة لامرأة جميلة تدعى بيغي مكنتوش.

إن كانت معظم إجاباتك لا، تهانينا فأنت تحظى بامتياز الأبيض.

قد تتساءل عن المغزى من هذا، جديًا؟ ليس لدي فكرة. أظن من الجيد أن تعرف، فيمكنك أن تشمت بين الحين والآخر، وترفع معنوياتك إن كنت محبطًا، وأشياء من هذا القبيل. إليك التالي:

حين ترغب بالانضمام إلى نادٍ اجتماعي مرموق، هل تتساءل إن كان عرقك سيصعّب أمر انضمامك؟

حين تذهب للتسوق وحدك في متجر جميل، هل تخشى أن تُلاحق أو تتعرض للمضايقة؟

إن أدرت التلفاز على محطة عامة أو فتحت صحيفة عامة هل تتوقع رؤية أشخاص من عرق آخر غالبًا؟

هل تخشى ألا يحصل أطفالك على كتب وأدوات مدرسية تكون عن أشخاص من عرقهم؟

حين تتقدم للحصول على قرض مصرفي، هل تخشى اعتبارك غير كفؤ ماليًا بسبب عرقك؟

إن شتمت أو ارتديت ملابس قذرة هل تخشى قول الناس إن ذلك يعود إلى الأخلاق السيئة أو الفقر أو الأمية في عرقك؟

إن أبليت حسنًا في موقف ما، هل تتوقع أن تُدعى كذلك أنك إضافة لعرقك؟ أو أن توصف «بالمختلف»عن الأغلبية من عرقك؟

إن انتقدت الحكومة، هل تخشى أن تعتبر دخيلًا ثقافيًا؟ وأن يقال لك أن تعود إلى X و Xتعني مكانًا ما ليس في أمريكا؟

إن حصلت على خدمة رديئة في متجر أنيق وطلبت رؤية «الشخص المسؤول»، هل تتوقع أن يكون هذا الشخص من عرق آخر؟

إذا أوقفك شرطي المرور، هل تتساءل إن كان ذلك بسبب

عرقك؟

إذا حصلت على عمل لدى شركة تطبق قانون التمييز الإيجابي، هل تخشى أن يظن زملاؤك في العمل أنك غير كفء وعينت بسبب عرقك فقط؟

إن أردت الانتقال إلى حي راقٍ، هل تخشى ألا يرحب بك بسبب عرقك؟

إن كنت بحاجة لمساعدة قانونية أو طبية، هل تخشى أن يكون عرقك عائقًا؟

حين تنتقي لون البيج للثياب الداخلية والضمادات، هل تعرف مسبقًا أنها لن تلائم بشرتك؟

الفصل التاسع والثلاثون

بدأت العمة أوجو تمارس اليوغا. كانت جالسة على ركبتيها ويديها وظهرها مقوس عاليًا، على مرتبة زرقاء فاتحة في القبو، في حين استلقت إفيملو على الأريكة، تأكل الشوكولاتة وتراقبها.

«كم واحدًا من هذه الأشياء أكلت؟ ومنذ متى تأكلين الشوكولاته العادية؟ ظننتك وبْلين لا تأكلان سوى العضوية، غالية الثمن».

«اشتريتها من محطة القطار».

«اشتريتها؟ كم واحدة؟»

«عشر قطع».

«آه! عشر؟»

رفعت إفيملو كتفيها. لقد أكلتها كلها، لكنها لن تخبر العمة أوجو بهذا. إن ذلك يمنحها السعادة، شراء ألواح الشوكولاته من كشك الصحف، ألواح رخيصة مليئة بالسكر والمواد الكيميائية والأشياء الفظيعة الأخرى المعدلة وراثيًا.

«أوه، لأنك تشاجرت مع بْلين، تأكلين الشوكولاته التي لا يحبها؟»، ضحكت العمة أوجو.

نزل دايك ونظر إلى أمه، كانت ذراعاها عاليًا في الهواء، بوضعية المحارب، «أمي تبدين سخيفة».

«ألم يقل أصدقاؤك إن أمك مثيرة ذلك اليوم؟ هذا هو السبب».

هز دايك رأسه، «ابنة الخال، أريد أن أريك شيئًا على يوتيوب، مقطع فيديو مضحك».

نهضت إفيملو.

«هل أخبرك دايك بقصة الحاسوب في المدرسة؟»، سألت العمة أوجو.

«لا، ما الذي حدث؟»، سألت إفيملو.

«اتصل بي المدير يوم الاثنين ليقول إن دايك قد اعترض شبكة حواسيب المدرسة يوم السبت. وهذا الولد كان معي طوال السبت. ذهبنا إلى هارتفورد لزيارة أوزافيسا، وكنا هناك طوال اليوم ولم يقترب الولد من أي حاسوب. حين سألت لماذا يظنون أنه الفاعل، قالوا إن معلومات وصلتهم. تخيلي، يستيقظون من النوم ويلومون ابني. الولد لا يتقن استخدام الحاسوب. أظننا قد تسببنا بتأخره في هذه البلدة الريفية. يريد كويكو أن نتقدم بشكوى رسمية، لكني لا أظن الأمر يستحق هدر الوقت. لقد قالوا إنهم لم يعودوا يشتبهون به».

«أنا لا أعرف كيف أعترضها»، قال دايك بجفاف.

«ما الذي يدعوهم لفعل هذا الهراء؟»، سألت إفيملو.

«عليك أن تلقي باللوم على الولد الأسود أولًا»، قال وضحك.

لاحقًا أخبرها كيف قال أصدقاؤه «هي دايك، هل لديك بعض الحشيش؟»، وكم كان مضحكًا. وأخبرها عن الراعي في الكنيسة، وهي امرأة بيضاء حيت كل الأولاد الآخرين، ولكن حين وصلت إليه قالت «كيف الحال يا أخي؟»، «أشعر كأن لدي خضارًا بدلًا من الأذنين، مثل ثمرتي بروكولي كبيرتين تبرزان من رأسي»، قال ضاحكًا، «لذا لا بد أن أكون أنا من اعترض شبكة المدرسة».

«أولئك الناس في مدرستك حمقى»، قالت إفيملو.

«طريقة قولك للكلمة مضحكة جدًا يا ابنة خالي، حمقى»، صمت ثم كرر كلماتها ،»أولئك الناس في مدرستك حمقى»، بتقليد جيد للكنة النيجيرية. أخبرته قصة القس النيجيري الذي قال شيئًا عن الشاطئ أثناء إلقائه موعظة في كنيسة في أمريكا، ولكن بسبب لكنته، ظن القساوسة أنه قال «عاهرة»، وكتبوا شكوى إلى

أبرشيته. ضحك دايك وضحك، وقد صارت واحدة من مخزون دعاباتهم، فيقول «هي يا ابنة الخال، أريد أن أقضي يومًا صيفيًا على العاهرة».

—

لم يرد بْلين على مكالماتها، لتسعة أيام. ثم رد على الهاتف أخيرًا وصوته مكتوم.

«هل يمكنني القدوم نهاية الأسبوع ونعد معًا الأرز بجوز الهند؟ أنا سأطهو»، قالت. وقبل أن يقول «حسن»، شعرت بشهيق وتساءلت إن فوجئ لجرأتها في اقتراح أرز جوز الهند.

—

راقبت بْلين يقطع البصل، وراقبت أصابعه الطويلة وتذكرتها على جسدها، متحسسًا ترقوتها، وعلى البشرة الداكنة تحت سرتها. رفع نظره وسألها إن كان حجم الشرائح جيدًا فقالت «البصل جيد»، وخطر لها معرفته دومًا بحجم البصل الصحيح، مقطعًا إياه بدقة، وكيف أعد الأرز دومًا رغم أنها من سيعده الآن. كسر جوزة الهند على حوض المغسلة وترك الماء يخرج قبل أن يزيل الطبقة البيضاء من القشرة بسكين. ارتجفت يداها وهي تسكب الأرز في الماء المغلي، وترى حبات أرز البسمتي الرفيعة تبدأ بالانتفاخ، وتساءلت إن كانا سيخفقان في هذا، في وجبة صلحهما. تفقدت الدجاج على الموقد. وفاحت رائحة التوابل حين فتحت القدر؛ الزنجبيل والكاري وورق الغار، وقالت له، بلا داعٍ، إنها تبدو لذيذة.

«لم أكثر من التوابل كما تفعلين»، قال. شعرت بغضب آني وأرادت أن تقول له إنه ليس عدلًا منه أن يفسد الغفران هكذا، لكنها سألت بدلًا من ذلك إن كان يظن أن بإمكانها إضافة شيء من الماء. ظل يقشر جوز الهند ولم يقل شيئًا. راقبت جوزة الهند تتجعد في غبار أبيض، لقد أحزنها أن تفكر أنها لن تكون ثمرة كاملة ثانية، ومدت يدها وعانقت بْلين من الخلف، ولفت ذراعيها حول صدره، شاعرة بالدفء من كنزته، لكنه تحرّر منها مبتعدًا، وقال إن عليه الانتهاء قبل أن يصبح الأرز لينًا جدًا. عبرت غرفة المعيشة لتنظر من النافذة إلى برج الساعة، عاليًا وملكيًا، فارضًا نفسه على مباني ييل الأخرى في جامعة ييل، ورأت ندف الثلج الأولى تدوّم في هواء آخر المساء، وكأنها ملقاة من أعلى، وتذكرت أول شتاء لها معه، حين بدا كل شيء لامعًا

وجديدًا للأبد.

فهم أمريكا للسود غير الأمريكيين
توضيحات قليلة عما تعنيه الأمور حقًا

1. يشعر الأمريكيون بالانزعاج فيما يتعلق بالعرق أكثر من أي أمر آخر في قبيلتهم. إن كنت تحادث أمريكيًا، وأردت نقاش شيء عنصري تجده مثيرًا للاهتمام، وقال الأمريكي «إن إلقاء اللوم على العِرق يبسّط الأمر، وإن العنصرية معقّدة جدًا،» فهذا يعني أنه يريدك أن تخرس فحسب. لأن العنصرية معقدة طبعًا. أراد الكثير من محاربي العبودية أن يحرروا العبيد، لكنهم لا يرغبون أن يسكن السود قربهم. لا يمانع الكثير من الأشخاص حاليًا بوجود مربية سوداء أو سائق ليموزين أسود، لكنهم يمانعون حتمًا وجود مدير أسود. التبسيطي هو قول «إنها معقدة». لكن اخرس على أية حال، خاصة إن كنت بحاجة لعمل/ معروف من الأمريكي الذي تسأله.

2. تعني التعددية أشياء مختلفة للعديد من الأشخاص. إن كان شخص أبيض يقول إن الحي متعدد، فهو يعني أن تسعة بالمئة هم من السود. (في اللحظة التي تبلغ فيها النسبة عشرة بالمئة من السود، سينتقل البيض). ولو قال شخص أسود إن الحي متعدد، فهو يظن أن أربعين بالمئة من السود.

3. أحيانًا يقولون «ثقافة» لكنهم يعنون الأصل العرقي. ويقولون إن الفيلم ناجح حين يقصدون إن البيض أحبوه أو صنعوه. وحين يقولون ضاحية فهي تعني سوداء وفقيرة؛ خطرة ربما ومثيرة على الأغلب. و«متهم بالعنصرية» تعني أننا مستاؤون من قول «عنصري».

الفصل الأربعون

لم يتشاجرا ثانية حتى انتهت العلاقة، ولكن في فترة جمود بُلين، حين انكمشت إفيملو على نفسها وأكلت كل ألواح الشوكولاتة، تغيرت مشاعرها تجاهه. ما زالت معجبة به، وبحسه الأخلاقي، وحياته ذات الخطوط الواضحة، لكنه صار الآن إعجابًا بشخص منفصل عنها، بشخص بعيد. وتغير جسدها. في الفراش، لم تعد تستدير إليه مفعمة برغبة صريحة كما تعودت، وحين يمد يديه، كان أول ما يخطر لها أن تبتعد. كثيرًا ما تبادلا القبل، لكنّ شفتيها دومًا مزمومتان بقوة، ولم ترغب أن يلج لسانه فمها. وبات اتحادهما مجردًا من الشغف، إلا أن شغفًا جديدًا من خارج ذواتهما وحّدهما في حميمية لم يحظيا بها من قبل، في حميمية حرة غير منطوقة، فطرية. إنه باراك أوباما، لقد اتفقا بلا تحريض، ودون أي ظل من الالتزام أو التسوية حول باراك أوباما.

في البداية، ظنت الأمر مستحيلًا رغم أنها تمنت أن تنتخب أمريكا رجلًا أسود ليكون رئيسًا، ولم تتخيل أوباما رئيسًا للولايات المتحدة، فقد بدا نحيلًا جدًا وهزيلًا جدًا، ورجلًا يمكن للريح أن تطيّره. وكانت هيلاري كلنتون أكثر قوة. أحبت إفيملو مشاهدة هيلاري كلنتون على التلفاز، ببدلتها وبنطالها ذي المربعات، وعلى وجهها مسحة العزم والجمال المستتر، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لإقناع العالم أنها قادرة. أحبتها إفيملو وتمنت لها الفوز، وأن يصحبها الحظ الطيب، إلى أن

حملت كتاب باراك أوباما أحلام أبي ذات صباح، الذي أنهاه ئلين مؤخرًا وتركه على رف الكتب طاويًا بعض صفحاته. تفحصت صورة الغلاف، المرأة الكينية الضئيلة تحدق بالكاميرا بارتباك، ويداها تطوقان ابنها، والشاب الأمريكي، يحمل ابنته إلى صدره بطريقة مبتهجة. ستتذكر إفيملو لاحقًا اللحظة التي قررت فيها قراءة الكتاب. لتعرف فقط. ربما لم تكن لتقرأه لو أن ئلين أوصاها بقراءته، لأنها صارت تتحاشى الكتب التي يحبها أكثر فأكثر. لكنه لم يوصها بقراءته، لقد تركه على الرف فحسب، قرب كومة كتب أخرى أنهاها لكنه سيعود إليها. قرأت أحلام أبي في يوم ونصف، وهي تجلس على الأريكة، ونينا سايمون تغني في سماعة الآيبود العائدة لبلين. كانت مأخوذة ومعجبة بالرجل الذي التقته في هذه الصفحات، رجل طموح وذكي لطيف، ورجل عطوف تمامًا وبقوة وبسحر. فذكّرها بتعابير أوبِنز للناس الذين يعجب بهم: قلب أبيض، قلب نقي. لقد صدقت باراك أوباما، وحين عاد ئلين إلى البيت، جلست إلى طاولة الطعام تراقبه يقطع الريحان الطازج في المطبخ وقالت «ليت الرجل الذي كتب هذا الكتاب يصبح رئيسًا لأمريكا».

توقفت سكين ئلين عن الحركة، ورفع نظره وعيناه متقدتان كأنه لم يجرؤ على الأمل بأن تؤمن بالشيء نفسه الذي آمن به، وشعرت بالنبضة الأولى لشغف مشترك بينهما. كانا يمسكان ببعضهما أمام التلفاز حين فاز باراك أوباما في جولة إيوا. كانت المعركة الأولى، وقد فاز بها. وومض أملهما وضج بالاحتمالات، إذ يمكن لأوباما أن يفوز حقًا بهذا الشيء. ومن ثم أخذ يساورهما القلق كأنهما تدربا قبلًا على هذا. فقد خشيا أن يعطّل شيء ما قطاره السريع الحركة أو يحطمه. كل صباح، تستيقظ إفيملو وتتفقد الأخبار لتتأكد أن أوباما ما زال حيًا، وأن لا فضيحة ظهرت، ولا قصة نبشت من ماضيه. فتفتح حاسوبها، مقطوعة الأنفاس وقلبها يدق بعنف في صدرها، وحين تتأكد أنه حي تقرأ آخر الأخبار عنه سريعًا وبلهفة، باحثة عن معلومات وتأكيدات، وقد فتحت عددًا من النوافذ وصغرتها في أسفل الشاشة. شعرت بالإحباط أحيانًا في غرفة الدردشة وهي تقرأ منشورات عن أوباما، فتنهض وتبتعد عن حاسوبها، كأن الحاسوب نفسه كان العدو، وتقف قرب النافذة لتخفي دموعها حتى عن نفسها. **كيف يمكن لقرد أن يكون رئيسًا؟ ليسدِنا أحدهم معروفًا**

ويطلق رصاصة على هذا الرجل. أعيدوه إلى غابات إفريقيا. لن يدخل رجل أسود البيت الأبيض أبدًا، يا صاحبي، إنه يسمّى البيت الأبيض لسبب. حاولت أن تتخيل الأشخاص الذين كتبوا هذه المنشورات بأسماء مستعارة مثل أم من الضواحي 231 ونورمان روك ويل روكس، يجلسون إلى مكاتبهم، وقربهم أكواب القهوة، وأطفالهم على وشك العودة في حافلة المدرسة ببراءة مشعّة. لقد جعلت غرف الدردشة مدونتها تبدو تافهة، بأسلوب هزلي وسخرية لطيفة من العالم الذي لم يكن لطيفًا. لم تدون عن الوضاعة التي بدا أنها تتضاعف كل صباح تدخل فيه المدونة، ونبتت الكثير من غرف الدردشة، وازدهر المزيد من النقد اللاذع، لأن فعل ذلك يعني نشر كلمات الناس الذين لا يمقتون الرجل الذي كانه باراك أوباما، بل فكرة أن يصبح رئيسًا. ودونت عوضًا عن ذلك عن مواقفه السياسية، في منشور مكرر بعنوان **لهذا السبب سيؤديها أوباما على نحو أفضل**، مضيفة كثيرًا روابط تؤدي إلى موقعه، كما دونت أيضًا عن ميشيل أوباما. لقد مجدت الجفاف الغريب لدعابة ميشيل أوباما، والثقة في مشيتها بأطرافها الطويلة، ثم حزنت حين صارت ميشيل أوباما ثقيلة ومسطحة وتبدو فاترة الذكاء في المقابلات. ومع ذلك، رأت ومضة من ذاتها القديمة في حاجبي ميشيل أوباما المفرطي التقويس وفي حزامها المشدود على خصرها أعلى مما توصي به التقاليد. وهذا ما جذب إفيملو، غياب حس الاعتذار، والوعد بالصدق.

كثيرًا ما تقول لبْلين مازحة: «ما دامت قد تزوجت بأوباما، فلا يمكن أن يكون سيئًا»، فيقول بْلين «هذا صحيح. هذا صحيح».

وصلتها رسالة إلكترونية من موقع برنستن فارتعشت يداها إثارة وقبل أن تقرأها. وكانت أول كلمة رأتها «يسعدنا». لقد حصلت على زمالة البحث، والأجر جيد، والمتطلبات سهلة؛ فقد طلب منها السكن في برنستن واستخدام المكتبة وإلقاء ندوات عامة في نهاية العام. بدا الأمر جميلًا جدًا ليكون حقيقيًا، أي الدخول إلى المملكة الأمريكية المقدسة. استقلت هي وبْلين القطار إلى برنستن للبحث عن شقة، وفوجئت بالبلدة نفسها، بخضرتها وهدوئها وأناقتها. «درست في برنستن دراستي الجامعية»، قال لها بْلين، «كانت ريفية في ذلك الوقت. كنت أزورها وأراها جميلة

لكني لم أرَ نفسي أرتاد الجامعة هناك حقًا».

فهمت إفيملو مقصده، حتى بعد أن تغيرت وصارت «رأسمالية استهلاكية بعنف»، على حد تعبير بْلين حين مرا بصفوف من المتاجر اللامعة. لقد شعرت بالإعجاب والارتباك، وأحبت شقتها في شارع ناسو؛ إذ تطل نافذة غرفة النوم على أيكة من الأشجار، ومشت في الغرفة الفارغة وهي تفكر ببداية جديدة لنفسها، دون بْلين، ومع ذلك لم تكن واثقة أن هذه هي البداية الجديدة التي أرادتها حقًا.

«لن أنتقل إلى هنا حتى ما بعد الانتخابات»، قالت.

هز بْلين رأسه موافقًا قبل أن تنهي حديثها؛ طبعًا لن تنتقل حتى يريا باراك أوباما منتصرًا. تطوع في حملة أوباما وغرقت في كل حكاياته عن طرقه للأبواب وعن الناس القاطنين خلفها. وعاد ذات يوم وأخبرها عن امرأة سوداء مسنة، وقد تغضن وجهها مثل البرقوقة، وقفت ممسكة ببابها كأنها ستسقط إن لم تفعل، وقالت له «لم أصدق أن هذا سيحدث حتى في حياة حفيدي».

كتبت إفيملو تدوينة عن هذه القصة، واصفة الخصل الفضية في شعر المرأة، وأصابعها ترتعش بفعل الباركنسن، كأنها وقفت هناك مع بْلين. أيد كل أصدقائه أوباما، باستثناء مايكل، الذي يضع دومًا مشبك هيلاري كلنتون على صدره، ولم تعد إفيملو تشعر بالإقصاء في لقاءاتهم. وقد ذاب الاضطراب الغامض الذي تشعر به حين تكون قريبة من باولا، ذلك المزيج من النزق والقلق. اجتمعوا كلهم في الحانات والشقق، يناقشون تفاصيل الحملة ساخرين من سخافة الأخبار. هل سيصوت الهسبانو لرجل أسود؟ هل يمكنه إحراز هدف؟ هل هو وطني؟

«أليس طريفًا قولهم 'السود يريدون أوباما، والنساء يردن هيلاري'، ولكن ماذا عن النساء السوداوات؟»، قالت باولا.

«حين يقولون نساء فهم يعنون تلقائيًا النساء البيضاوات طبعًا»، قالت غريس.

«الذي لا أفهمه هو كيف يمكن لأحد أن يقول إن أوباما مستفيد لأنه رجل أسود»، قالت باولا.

«الأمر معقد، لكنه صحيح، وأيضًا إلى الحد الذي تستفيد فيه كلينتون لأنها

امرأة بيضاء»، قال نيثان مائلًا إلى الأمام ورامشًا بسرعة أكبر، «لو كانت كلنتون امرأة سوداء، فلن يسطع نجمها بهذا اللمعان، ولو كان أوباما رجلًا أبيض فقد يسطع نجمه بهذا اللمعان وقد لا يفعل، لأن بعض الرجال البيض صاروا رؤساء ولا يستحقون أن يكونوا رؤساء، لكن هذا لا يغير من حقيقة أن أوباما لا يتمتع بخبرة كبيرة والناس متحمسون لفكرة المرشح الأسود الذي يتمتع بفرصة قوية».

«رغم أنه إن فاز لن يكون أسود، مثلما أن أوبرا لم تعد سوداء، إنها أوبرا»، قالت غريس، «لذا يمكنها الذهاب إلى حيث يُمقَت السود وتكون بخير. لن يعود أسود بعد الآن، وسيكون أوباما فحسب».

«إن أوباما منتفع من جهة وفكرة الانتفاع تلك معقدة جدًا، بالمناسبة، ولكن من جانب آخر لا يأتي انتفاعه من كونه أسود، بل لأنه نوع مختلف من السود»، قال بْلين، «لو لم يكن لأوباما أم بيضاء ولم يربه أجداد بيض ولم يكن لديه كينيا وإندونيسيا وهاواي وكل القصص التي جعلته مثل الجميع تقريبًا، لو كان رجلًا أسود عاديًا من جورجيا، لاختلف الأمر. وستكون أمريكا قد أحرزت تقدمًا حقيقيًا حين يصبح رجل عادي من جورجيا رئيسًا، رجل أسود حصل على تقدير جيد في الجامعة».

«أتفق معك»، قال نيثان، وقد فاجأ إفيملو مدى اتفاق الجميع. لقد كان أصدقاؤهما مؤمنين، مؤمنين حقيقيين، مثلها هي وبْلين.

—

في اليوم الذي صار فيه باراك أوباما مرشح الحزب الديمقراطي، مارست إفيملو وبْلين الحب، للمرة الأولى منذ أسابيع، وكان أوباما معهما، مثل صلاة صامتة، وطيف ثالث عاطفي. كانت هي وبْلين يقودان السيارة لساعات ليستمعا إلى حديثه، ممسكين بأيدي بعضهما في حشد كثيف، رافعين لافتات، كتبت عليها كلمة **تغيير** بخط أبيض عريض. وقد رفع رجل أسود قربهما ابنه على كتفيه، وللابن فم مملوء بأسنان لبنية، إحداها ناقصة من الصف العلوي. نظر الأب عاليًا، وعرفت إفيملو أنه مندهش من إيمانه، مذهول لأنه وجد نفسه يؤمن بأمور لم يظن أنه سيفكر

بها مطلقًا. حين انفجر الحشد بالثناء، وبالتصفيق والصفير، لم يستطع الرجل أن يصفق لأنه يمسك بساقي ابنه، فاكتفى بالابتسام والابتسام، وصار وجهه يافعًا بالسعادة. راقبته إفيملو وأشخاصًا آخرين حولهما، كلهم يتوهجون بوهج غريب، وكلهم يمشون في صف واحد من العاطفة الصلبة. إنهم يؤمنون، يؤمنون حقًا. وخطر لها كثيرًا في صدمة عذبة معرفة أن في العالم الكثير جدًا من الأشخاص شعروا بمثلما شعرت به هي وبْلين تجاه أوباما.

في أوقات قَوِيَ إيمانهما، وشعرا باليأس في أوقات أخرى.

«هذا ليس جيدًا»، غمغم بْلين وهما يقلبان مختلف قنوات التلفزة، وكل منها تظهر صورة للقس مرشد باراك أوباما الروحي يلقي موعظة، وقد شقت كلماته «لعن الله أمريكا» طريقها في أحلام إفيملو.

—

قرأت في بادئ الأمر، على شبكة الإنترنت، الأخبار العاجلة بأن أوباما سيلقي خطابًا حول العنصرية، في رد على مشهد مرشده، وأرسلت رسالة نصية لبْلين، الذي كان يدرّس في الصف. كان رده بسيطًا: «أجل!» لاحقًا، تساءلت إفيملو وهي تشاهد الخطاب جالسة بين بْلين وغريس على أريكة غرفة معيشتهما، بما فكر أوباما حقًا، وما الذي يشعر به حين يستلقي في فراشه ليلًا، حين يكون كل شيء هادئًا وخاويًا. تخيلته؛ هذا الولد الذي عرف أن جدته تخاف الرجال السود، صار رجلًا يحكي هذه القصة للعالم لينقذ نفسه، فشعرت بشيء من الحزن لهذا الخاطر. وحين تحدث أوباما، منغمًا وحنونًا، والأعلام الأمريكية ترفرف حوله، عدل بْلين جلسته وتنهد وأمال ظهره للخلف على الأريكة. أخيرًا قال بْلين «من غير الأخلاقي المساواة بين اضطهاد السود وخوف البيض هكذا. إنه غير أخلاقي».

«لم يكتب هذا الخطاب لفتح حوار عن العنصرية بل لإغلاقه فعليًا. يمكنه أن يفوز إن تحاشى الأصل العرقي فحسب، كلنا نعرف هذا»، قالت غريس، «لكن الأمر الهام هو إيصاله إلى مكتب الرئاسة أوّلًا. على الرجل أن يفعل ما يتوجب فعله. لقد أغلقت قصة هذا القس الآن على الأقل».

شعرت إفيملو بمنطقية الخطاب أيضًا، لكن بْلين أخذ الأمر على نحو

شخصي. لقد تصدع إيمانه، وقل حماسه عدة أيام، وهو يعود من جريه الصباحي دون أن يتعرق كثيرًا كعادته، ويمشي في الأنحاء بتثاقل، فانتشلته شان من هذا الانهيار.

«علي الذهاب للمدينة بضعة أيام لأكون مع شان»، أخبر إفيملو، «أوفيديو اتصل بي. لم تكن تجيب على هاتفها».

«لم تكن تُجيب؟»

«تعاني انهيارًا عصبيًا. أكره هذا التعبير، يوحي بأجواء حكايات زوجات مسنات، لكن هذا ما يدعوه أوفيديو. كانت في الفراش منذ أيام، ولا تأكل ولا تكف عن البكاء».

شعرت إفيملو بشيء من الاستياء، فقد بدا هذا لها طريقة أخرى من طرق شان للفت الانتباه.

«لقد مرت بوقت عصيب جدًا»، قال بْلين، «لم يجذب الكتاب انتباه أحد أبدًا».

«أعلم»، قالت إفيملو، ومع ذلك لم تشعر بتعاطف حقيقي، الأمر الذي أخافها. ربما لأنها اعتبرت شان مسؤولة، بمستوى ما، عن شجارها مع بْلين، ولأنها لم تمارس سطوتها على بْلين لتجعله يعرف أنه يبالغ.

«ستكون بخير»، قالت إفيملو، «إنها امرأة قوية».

نظر إليها بْلين مندهشًا، «شان من أكثر الأشخاص هشاشة في العالم. إنها ليست قوية، ولم تكن كذلك قط. لكنها مميزة».

في آخر مرة رأت فيها إفيملو شان، قبل شهر تقريبًا، قالت شان «عرفت للتو أنك وبْلين قد تصالحتما»، وبدت نبرتها نبرة شخص يتحدث عن أخوين محبين قد عادا للأدوية المخدرة.

«أليس أوباما مثيرًا؟»، سألت إفيملو، آملة أن يكون هذا أمرًا يمكنهما، على الأقل، الحديث عنه هي وشان دون تضمينه وخز الدبابيس.

«أوه، لا أتابع أخبار الانتخابات»، قالت شان بازدراء.

«هل قرأت كتابه؟»، سألت إفيملو.

«لا»، رفعت شان كتفيها، «سيكون من الجيد أن يقرأ أحد كتابي».

ابتلعت إفيملو كلماتها: إن الأمر لا يتعلق بك، ولو مرة، الأمر لا يتعلق بك.

«عليك قراءة **أحلام أبي**. الكتب الأخرى توثيق للحملة»، قالت إفيملو، «إنه

(أوباما) رائع حقًا».

لكن شان لم تكن مهتمة. بل تحدثت عن ندوة حضرتها قبل أسبوع، في «مهرجان الكتاب». «لذا سألوني من هم كُتّابي المفضلون. وأعلم أنهم توقعوا كُتّابًا سودًا في معظمهم، ولم أكن لأخبرهم أن روبرت هايدن هو حب حياتي، وهذا حقيقي. ولذا لم أذكر أحدًا أسود أو ملوّنًا أو ناشطًا سياسيًا أو على قيد الحياة. فعددت بثقة فاترة، تورغينيف وترولوپ وغوته، وكيلا أكون مدينة للذكور البيض الموتى وهو ما سيكون غريبًا قليلًا، أضفت سلمى لاغرلوف[72]. ثم لم يعرفوا ماذا يسألوني، لأني قطعت عليهم الطريق».

«هذا طريف جدًا»، قال بْلين.

—

في ليلة الانتخابات، استلقت إفيملو أرِقة في فراشها.

«هل أنت مستيقظة؟»، سألها بْلين.

«أجل».

تعانقا في العتمة، ولم يقولا شيئًا، وانتظمت أنفاسهما إلى أن انجرفا إلى حالة من الوَسَن. في الصباح ذهبا إلى المدرسة الثانوية، فقد أراد بْلين أن يكون من أوائل المصوتين. ورأت إفيملو الناس الذين يقفون في الصف منتظرين فتح الباب، وتمنت أن يصوتوا كلهم لأوباما. بدا لها الأمر مثل الحرمان، لأنها لا تستطيع التصويت. لقد وافقوا على طلبها للمواطنة لكن أداء القسم بعد أسابيع. فأمضت صباحًا قلقًا، تتفقد كل المواقع الإخبارية، وحين عاد بْلين من الصف طلب منها أن تطفئ الحاسوب والتلفاز ليتمكنا من أخذ استراحة، ويتنفسا بعمق ويتناولا طبق الروزيتو الذي أعده. وما إن أنهيا طعامهما حتى شغلت إفيملو الحاسوب ثانية، لتتأكد فقط أن أوباما حي وبخير. أعد بْلين كوكتيل العذراوات لأصدقائهما، وكانت آرمنتا أول الواصلين، مباشرة من محطة القطار تحمل هاتفين وتتفقد التحديثات على كليهما. ثم وصلت

---

72) روبرت هايدن: (1913-1980) شاعر أمريكي. إيفان تورغينيف: (1818-1883). أنتوني ترولوب: (1815-1882) روائي إنجليزي من الحقبة الفكتورية. يوهان غوته: (1749-1832) أديب ألماني. سلما لاغرلوف: (1858-1940) روائية سويدية حائزة على جائزة نوبل.

غريس، في ثيابها الحريرية التي تصدر حفيفًا، وحول عنقها وشاح ذهبي قائلة «أوه يا إلهي، لا أستطيع التنفس من التوتر!». وجاء مايكل حاملًا زجاجة من البريسكو، وقال «أتمنى لو أن أمي على قيد الحياة فتشهد هذا اليوم مهما كان ما سيحدث». وصلت باولا وبي ونيثان معًا، وسرعان ما جلسوا جميعًا على الأريكة وكراسي طاولة الطعام وعيونهم على التلفاز، يرشفون الشاي وكوكتيل نْلين ويرددون الأشياء نفسها التي قالوها قبلًا: **إن فاز في إنديانا وبنسلفانيا، فقد انتهى الأمر. تبدو الأمور جيدة في فلوريدا. أما الأخبار من أيوا فسيئة.**

«في فرجينيا إقبال هائل من المصوتين السود، لذا يبدو جيدًا»، قالت إفيملو.

«فرجينيا لا تحتسب»، قال نيثان.

«ليس بحاجة لفرجينيا «، قالت غريس ثم صرخت، «أوه يا إلهي، بنسلفانيا!»

ظهر رسم بياني على شاشة، وصورة لباراك أوباما. لقد فاز في ولايتي بنسلفانيا وأوهايو.

«لا أرى كيف يمكن لماكين أن يتغلب على هذا الآن»، قال نيثان.

جلست باولا قرب إفيملو وبعد قليل ظهر رسم بياني على الشاشة: باراك أوباما يفوز في ولاية فرجينيا.

«أوه يا إلهي»، قالت باولا. ارتجفت يدها قرب فمها، وجلس نْلين مستقيمًا وهادئًا يحدق بالتلفاز، ثم جاء صوت كيث أولبرمان العميق، الذي تابعته إفيملو بجنون على إم إس إن بي سي في الأشهر الماضية، صوت الغضب الليبرالي الحارق المتقد، قال هذا الصوت الآن «يبدو أن باراك أوباما سيكون الرئيس التالي للولايات المتحدة الأمريكية».

بكى نْلين معانقًا آرمنتا، التي بكت، ثم عانق إفيملو ضاغطًا عليها بقوة، وعانقت بي مايكل، وغريس عانقت نيثان وصارت غرفة المعيشة مذبحًا لفرح لا يصدق.

رن هاتفها برسالة نصية من دايك.

«لا أصدق الأمر. رئيسي أسود مثلي»، قرأت الرسالة بضع مرات، وعيناها مغرورقتان بالدمع.

على التلفاز، سار باراك أوباما وميشيل أوباما وابنتاهما الصغيرتان على المنصة.

كانت الريح تدفعهم، ويغمرهم نور مضطرم، منتصرين وباسمين.

«صغارًا وكبارًا، فقراء وأثرياء، ديمقراطيين وجمهوريين، سودًا وبيضًا وهسبانيين وآسيويين، وأمريكيين أصليين، مثليين وعاديين، معاقين وغير معاقين، أرسل الأمريكيون رسالة للعالم بأننا لسنا مجرد جمع من الولايات الحمراء والولايات الزرقاء، لقد كنا كما سنكون على الدوام الولايات المتحدة الأمريكية».

ارتفع صوت باراك أوباما وانخفض، وبدا وجهه جادًا، وحوله الحشد الكبير والمتوهج المفعم بالأمل. تابعت إفيملو مفتونة. ولم يكن في تلك اللحظة، شيء أجمل عندها من أمريكا.

فَهْم أمريكا للسود من غير الأمريكيين

آراء حول الصديق الأبيض المميز

إحدى أعظم النعم لدى الزنوج الصامتين هي الصديق الأبيض الذي يفهم الأمر. لكن هذا ليس شائعًا بقدر ما يأمل المرء، للأسف غير أن البعض محظوظون أن يكون لهم صديق أبيض ليسوا بحاجة شرح الهراء له. فاشتغِل هذا الصديق بكل الوسائل. بعض الأصدقاء لا يفهمون الأمر فحسب، بل يمتلكون العين الرائعة اللاقطة للهراء، فيفهمون تمامًا أن باستطاعتهم قول أمور لا يمكنك قولها. في معظم أمريكا فكرة صغيرة سرية تكمن في قلوب الكثيرين: يكسب الأشخاص البيض أماكنهم في العمل والمدرسة في حين أن السود يحصلون عليها لأنهم سود. ولكن في الحقيقة، منذ نشوء أمريكا، حصل البيض على الوظائف لأنهم بيض. لن يحصل امرؤ لديه مؤهلات البيض وبشرته زنجية على الوظيفة التي يحصلون عليها. لكن لا تقل هذا علنًا أبدًا، دع صديقك الأبيض يقوله. إن ارتكبت الخطأ بقول هذا، ستُتَّهم بتهمة غريبة تدعى «اللعب بورقة العرق»، ولا أحد يعرف ما الذي يعنيه هذا تمامًا.

حين كان أبي في المدرسة في بلد أسود غير أمريكي، لم يكن

بمقدور الكثير من السود الأمريكيين التصويت أو الذهاب إلى مدارس جيدة. والسبب؟ لون بشرتهم. كان لون البشرة وحده المشكلة. يقول الكثير من الأمريكيين اليوم إن لون البشرة لا يمكن أن يكون جزءًا من الحل. من جانب آخر يشار إليها بوصف غريب يدعى «العنصرية المضادة». هل أشار صديقك الأبيض إلى معاملة الأسود الأمريكي كأنه سُجن ظلمًا سنوات عديدة، وأطلق سراحه فجأة، غير أنه لم يحصل على تذكرة للحافلة. وبالمناسبة، أنت والرجل الذي سجنك صرتما متساويين تلقائيًا. إن قيل «إن العبودية أمر حدث منذ زمن بعيد»، يقول صديقك الأبيض إن الكثير من البيض ما زالوا يرثون أموالًا جمعتها عائلاتهم قبل مئات السنين. فإن كان هذا الإرث حيًا فلم لا يحيا إرث العبودية؟ وهل يقول صديقك الأبيض من الطريف أن يسأل مستطلعو الرأي الأمريكيين بيضًا وسودًا إن انتهت العنصرية. سيقول البيض عمومًا إنها انتهت، ويقول السود عمومًا إنها لم تنته. طريف فعلًا. هل لديكم اقتراحات أكثر لما قد يقوله الصديق الأبيض؟ اكتبوا من فضلكم، وهذا منا لكل الأصدقاء البيض الذين يفهمون الأمر.

الفصل الواحد والأربعون

أخرجت عايشا هاتفها من جيبها وأعادته ثانية بتنهيدة غاضبة.

«لا أدري لمَ لم يتصل تشيجوك ليأتي»، قالت.

لم تقل إفيملو شيئًا. كانت هي وعايشا وحدهما في المركز، فقد غادرت حليما لتوها. كانت إفيملو متعبة وظهرها يؤلمها، وأخذ مركز التجميل يثير غثيانها، بهوائه المكتوم وسقفه المتعفن. لم لا تبقي هؤلاء النسوة الإفريقيات مركزهن نظيفًا ومهوّىً؟ لقد انتهى تسريح شعرها تقريبًا، وظلت خصلة صغيرة في مقدمة رأسها فحسب، مثل ذيل الأرنب. فشعرت باللهفة للمغادرة.

«كيف حصلت على أوراقك؟»، سألت عايشا.

«ماذا؟»

«كيف حصلت على أوراقك؟»

فوجئت إفيملو في صمت. هذا السؤال وقح؛ فلا يسأل المهاجرون مهاجرين آخرين كيف حصلوا على أوراقهم، ولا يحفرون في هذه الأماكن الخفية الخاصة، لقد كان كافيًا الإعجاب بالحصول على الأوراق، والحصول على وضع قانوني فحسب.

«أنا، حاولت أن أتزوج أمريكيًا حين أتيت لكنه سبب الكثير من المتاعب، عاطل، وكل يوم يقول أعطيني نقودًا، نقودًا، نقودًا»، قالت عايشا هازة رأسها، «كيف حصلت على أوراقك؟»

فجأة تلاشى استياء إفيملو، ونشأ بدلًا عنه حس رفيع من التعاطف، لأن عايشا لم تكن لتسأل لو أنها ليست إفريقية، وفي هذه الرابطة الجديدة، رأت إشارة للعودة إلى وطنها.

«حصلت على أوراقي من العمل»، قالت، «الشركة التي أعمل بها رعت بطاقتي الخضراء».

«أوه»، قالت عايشا وكأنها أدركت أن إفيملو تنتمي إلى جماعة من الناس سقطت بطاقاتهم الخضراء من السماء. أشخاص مثلها طبعًا لا يحصلون على أوراقهم من العمل.

«حصل تشيجيوك على أوراقه باليانصيب»، قالت عايشا وهي تمشط ببطء وبشيء من الحب خصلة الشعر التي ستلفها.

«ما الذي حدث ليدك؟»، سألت إفيملو.

رفعت عايشا كتفيها، «لا أدري، إنها تظهر فجأة ثم تختفي».

«عمتي طبيبة. سألتقط صورة لذراعك وأسألها رأيها»، قالت إفيملو.

«شكرًا لك».

أنهت عايشا اللف في صمت.

«مات أبي، لم أذهب»، قالت.

«ماذا؟»

«العام الماضي مات أبي ولم أذهب، بسبب الأوراق. لكن ربما، إن تزوجني تيشجيوك حين تموت أمي أستطيع الذهاب. إنها مريضة الآن، لكني أرسل لها المال».

لم تعرف إفيملو ما تقول لوهلة. ضخمت نبرة عايشا الفاترة ووجهها الخلي من التعبير مأساتها.

«آسفة يا عايشا»، قالت.

«لا أدري لمَ لم يأت تيشجيوك، فتتحدثين إليه».

«لا تقلقي يا عايشا، سيكون الأمر على ما يرام».

ثم، أخذت عايشا تبكي فجأة مثلما تحدثت. فاغرورقت عيناها وتجعد فمها، وحدث أمر رهيب لوجهها، لقد سقط في اليأس. وظلت تلف شعر إفيملو، بحركات

يديها الثابتة، أما وجهها فبدا كأنه لا ينتمي لجسدها، واستمر في التغضن، والدموع تنهمر من عينيها، وصدرها يلهث.

«أين يعمل تشيجيوك؟»، سألت إفيملو، «سأذهب وأتحدث معه».

حدقت بها عايشا والدموع ما زالت تنهمر على خديها.

«سأذهب للحديث مع تشيجيوك غدًا»، كررت إفيملو «أخبريني فقط أين يعمل وفي أي ساعة يذهب إلى العمل».

ما الذي تفعله؟ عليها أن تنهض وتغادر وألا تنجرّ أكثر إلى شَرَك عايشا، لكنها لم تستطع النهوض والمغادرة. إنها على وشك العودة إلى نيجيريا، وسترى والديها، وستستطيع العودة إلى أمريكا إن أرادت، وها هي عايشا، تأمل أن ترى أمها ثانية لكنها لا تصدق ذلك فعلًا. كان بإمكانها الحديث إلى تشيجيوك، إنه أقل ما يمكن فعله.

نفضت الشعر عن ثيابها وأعطت عايشا لفافة صغيرة من الدولارات. بسطتها عايشا على راحة يدها وعدتها بحماس، وتساءلت إفيملو كم سيذهب منها إلى مارياما وكم لعايشا. انتظرت أن تضع عايشا المال في جيبها قبل أن تعطيها البقشيش. أخذت عايشا ورقة العشرين دولارًا الوحيدة، وقد جفت عيناها من الدمع الآن، وعاد وجهها إلى خلوه من التعبير، «شكرًا لك».

كانت الغرفة كثيفة بالحرج، وتفحصت إفيملو ثانية شعرها في المرآة مربتة عليه بخفة وهي تنظر في هذا الاتجاه وذاك، كأنما تحاول تخفيف الحرج.

«سأذهب لرؤية تشيجيوك غدًا وسأتصل بك»، قالت إفيملو. ونفضت ثيابها من أي شعيرات ضالة ونظرت حولها لتتأكد أنها أخذت كل شيء.

«شكرًا لك»، تحركت عايشا باتجاه إفيملو وكأنها أرادت أن تعانقها، ثم توقفت مترددة. جذبت إفيملو كتفها بلطف قبل أن تستدير نحو الباب.

في القطار تساءلت كيف تستطيع إقناع رجل لا يبدو راغبًا بالزواج أن يفعل. كان رأسها يؤلمها، وما زال الشعر عند الصدغين، يسبب انزعاجًا مؤلمًا، وضيقًا في عنقها وأعصابها، رغم أن عايشا لم تلفه بقوة. تاقت إلى العودة إلى البيت، وأن تستحم بمياه باردة، وتلف شعرها بربطة حرير، وتستلقي على الأريكة حاملة حاسوبها المحمول. توقف القطار في برنستن حين رن هاتفها، فوقفت على رصيف المحطة

لتنقب في حقيبتها عن الهاتف، ثم ظنت إفيملو أن العمة أوجو قالت إن دايك مات في بادئ الأمر، لأن كلامها لم يكن واضحًا، إذ تحدثت ونشقت في الوقت نفسه. لكنّ ما قالته العمة أوجو بالنيجيرية هو أن دايك أوشك على الموت.

«أخذ جرعة زائدة من الأقراص ونزل إلى القبو واستلقى على الأريكة هناك!»، قالت العمة أوجو يتخلل صوتها عدم تصديقها. «أنا لا أذهب إلى القبو أبدًا حين أعود للبيت، فأنا أمارس اليوغا صباحًا فقط. لقد كان الرب من أخبرني أن أنزل اليوم لأفكك ثلج اللحم في المجمدة، لقد كان الرب! رأيته مستلقيًا هناك يبدو متعرقًا جدًا، ينز العرق من كل جسده، وأصبت بالهلع فورًا. قلت إن هؤلاء الناس قد أعطوا ابني مخدرًا».

ارتعدت إفيملو، وصفر قطار قربها فضغطت أصبعها على الأذن الأخرى لتسمع صوت العمة أوجو على نحو أفضل. قالت العمة أوجو «علامات تسمم في الكبد» واختنقت إفيملو بهذه الكلمات تسمم في الكبد، وبحيرتها وبعتمة الجو المفاجئة.

«إفيم؟»، سألت العمة أوجو، «هل أنت معي؟»

«أجل»، سافرت الكلمة في نفق طويل، «ما الذي حدث؟ ما الذي حدث بالضبط يا عمتي؟ ما الذي تقولينه؟»

«لقد ابتلع زجاجة كاملة من تيلينول. إنه في العناية المركزة وسيكون بخير. لم يكن الرب مستعدًا ليميته، هذا كل ما في الأمر»، قالت العمة أوجو. كان صوت مخطها عاليًا على الهاتف، «هل تعلمين أنه أخذ أيضًا مضادًا للغثيان فيبقى الدواء في معدته؟ لم يكن الرب مستعدًا لموته».

«سآتي غدًا»، قالت إفيملو. ثم وقفت على رصيف المحطة لوقت طويل، وتساءلت ماذا كانت تفعل حين ابتلع دايك زجاجة الأقراص.

الجزء الخامس

الفصل الثاني والأربعون

كان أوبنز يتفقد جهازه البلاك بيري كثيرًا، كثيرًا جدًا، حتى عندما ينهض ليلًا للذهاب إلى الحمام، ورغم أنه يسخر من نفسه، إلا أنه لم يستطع الكف عن ذلك. أربعة أيام، مرت أربعة أيام كاملة قبل أن ترد. ثبطه هذا، فهي لم تكن يومًا حيية، ومن الطبيعي أن ترد أسرع. قال لنفسه لعلها منشغلة، رغم أنه يعرف جيدًا كم كانت حجة «الانشغال» سهلة وغير مقنعة. أو لعلها تغيرت وصارت امرأة تنتظر أيامًا طويلة حتى لا تبدو مندفعة جدًا، وهو خاطر أوهنه أكثر. كانت رسالتها الإلكترونية دافئة، لكنها قصيرة للغاية، وهي تخبره أنها متحمسة ومتوترة لتركها حياتها والعودة للديار، غير أنها لم تذكر تفاصيل. متى ستعود تحديدًا؟ وما الذي يصعب أن تتركه وراءها؟ بحث على غوغل عن الأمريكي الأسود، آملًا أن يعثر على منشور مدونة عن انفصالها، لكن المدونة حوت روابط لبحوث أكاديمية فقط، أحدها عن بدايات موسيقى الهيب هوب بوصفها نشاطًا سياسيًا، وكيف يدرّسها الأمريكيون بوصفها موضوعًا عمليًا؛ وقرأه آملًا أن يكون سخيفًا، لكنه كان مثيرًا للاهتمام بما يكفي لجعله يقرأه كاملًا حتى النهاية، وهذا ما جعل معدته تضطرب. لقد صار الأمريكي الأسود خصمًا، على نحو أحمق. جرب الفيسبوك. كانت كوسي موجودة على الفيسبوك، تضع الصور وتتواصل مع الناس، لكنه حذف حسابه منذ مدة. لقد تحمس في بداية الأمر للفيسبوك، ففيه أشباح أصدقاء قدامى تعود للحياة فجأة

مع زوجات وأزواج وأطفال، وصور تجر خلفها تعليقات. لكنه أخذ يستاء من نفحة الزيف، والاختلاق الحذر لصور تخلق حياة موازية، وصور يلتقطها الأشخاص وهم يفكرون بالفيسبوك، واضعين في الخلفية الأمور التي يفخرون بها. ها هو قد أعاد تنشيط حسابه للبحث عن إفيملو، لكنها ليس لديها حساب على الفيسبوك. لعلها لم تفتن بالفيسبوك مثله. أسعده هذا بشكل مبهم، فهو دليل آخر على مدى تشابههما. كان صديقها الأمريكي الأسود موجودًا على الفيسبوك، لكن ملفه متاح للأصدقاء فقط، وفي لحظة جنون، فكر أوبنز أن يرسل إليه طلب صداقة، ليرى فقط إن نشر صورًا لإفيملو. أراد الانتظار بضعة أيام قبل الرد عليها، لكنه وجد نفسه تلك الليلة في مكتبه يكتب لها رسالة إلكترونية طويلة عن موت أمه. **لم يخطر لي أبدًا أنها ستموت حتى ماتت، هل هذا منطقي؟** واكتشف أن الحزن لم يخفت بمرور الوقت، بل صار عوضًا عن ذلك حالة وجودية متقلبة. كان الألم حادًا للغاية في أوقات كأنها اليوم الذي اتصلت به خادمة منزلها تنشج لتقول إنها تستلقي في فراشها دون أن تتنفس. وفي أوقات أخرى ينسى أنها ماتت فيعد خططًا عجولة للسفر شرقًا والذهاب لرؤيتها. لقد استهجنت ثروته الجديدة، كأنها لم تفهم عالمًا يمكن فيه للمرء أن يكوّن ثروة بهذا القدر بهذه السهولة. بعد أن اشترى لها سيارة جديدة مفاجأة لها، قالت له إن سيارتها القديمة جيدة تمامًا، تلك السيارة من طراز بيجو 505 التي تقودها منذ أن كان في المدرسة الثانوية. لقد طلب توصيل السيارة إلى منزلها، سيارة صغيرة من طراز هوندا لن تراها متباهية جدًا، لكنه رآها مركونة في المرآب وتغطيها طبقة رقيقة من الغبار كلّما زارها. وتذكر بوضوح شديد حواره الأخير معها على الهاتف، قبل ثلاثة أيام من موتها، وقنوطها المتزايد من عملها ومن حياتها في الجامعة.

«لا أحد ينشر في المجلات العالمية»، قالت، «لا أحد يذهب إلى المؤتمرات. إنها مثل بركة ضحلة موحلة ننزلق فيها جميعنا».

كتب هذا في رسالته الإلكترونية لإفيملو، وكم أحزنه حزن أمه في عملها أيضًا. كان حريصًا على ألا يكون أخرق، وكتب كيف جعلته الكنيسة في بلدته الأم يدفع الكثير من المصاريف قبل جنازتها، وكيف سرق متعهدو الطعام اللحم يوم الدفن، فقد غلفوا شرائح اللحم بأوراق الموز الطرية وألقوها من فوق جدار المبنى

إلى شركائهم، وكيف صار أقرباؤه منشغلين بأمر اللحم المسروق. وارتفعت الأصوات وتقاذفوا الاتهامات، وقالت عمة «على هؤلاء المتعهدين أن يعيدوا كل نتفة من السلع المسروقة!»، السلع المسروقة؛ كانت أمه ستسر بكون اللحم بضاعة مسروقة، حتى بعد أن انتهت جنازتها بشجار حول اللحم المسروق. كتب لإفيملو لماذا تصبح جنائزنا سريعًا عن أمور أخرى لا تتعلق بالشخص الميت؟ لماذا ينتظر القرويون الموت قبل أن يبدؤوا الانتقام للأخطاء السابقة، الحقيقية منها والمتخيلة، لماذا يحفرون عميقًا حتى النخاع في محاولتهم للحصول على رطلهم من اللحم؟

جاء رد إفيملو بعد ساعة دفقة من الكلمات الموجعة. **أنا أبكي وأنا أكتب هذا. هل تعرف كم تمنيت أن تكون أمي؟ كانت الراشدة الوحيدة - باستثناء العمة أوجو - التي عاملتني مثل شخص رأيه مهم. كنتَ محظوظًا للغاية أن تربّيك هي. لقد كانت كل ما أردت أن أكونه. أنا آسفة للغاية يا سيلنغ. يمكنني تصور كم شعرت بالتمزق وما زلت. أنا في ماساشوستس مع عمتي أوجو ودايك وأمر الآن بأمر يمنحني إحساسًا بالألم، ولكن قليلًا فقط. أرجوك اكتب لي رقمًا أستطيع الاتصال عليه؛ إن كان هذا مناسبًا.**

سرّته رسالتها الإلكترونية، فقد أسعدته رؤية أمه من خلال عينيها وشجعته. تساءل عن الألم الذي تعانيه، وتمنى لو كان بفعل الانفصال عن الأمريكي الأسود، رغم أنه لم يرغب أن تكون العلاقة مهمة لها كثيرًا للحد الذي يجعلها تغرق في النواح. حاول أن يتصور كم تغيرت، وكم تأمركت، وبخاصة بعد علاقتها بأمريكي. ثمة تفاؤل مجنون في كل الأشخاص الذي عادوا من أمريكا في السنوات القليلة الماضية، وإلقاء التحية بهزة من الرأس، والابتسامات الدائمة والحماس المفرط، ذلك النوع من التفاؤل المجنون الذي يضجره، لأنه مثل رسوم متحركة، بلا قوام ولا عمق. تمنى ألا تكون هكذا، ولم يستطع أن يتخيلها هكذا. طلبت منه رقمه، لم تكن لتشعر بهذه القوة تجاه أمه ما لم تزل تحمل مشاعر تجاهه. لذا كتب إليها ثانية، وأعطاها كل أرقام هواتفه، هواتفه الخلوية الثلاثة ورقم المكتب والرقم الأرضي لبيته. وأنهى رسالته بهذه الكلمات: **كم هو غريب شعوري،في كل حدث كبير في حياتي، كنت الشخص الوحيد الذي سيفهمني.** بدا طائشًا وهاجمه الندم بعد أن نقر زر الإرسال. لقد كانت رسالة مبالغة وسريعة للغاية؛

لم يكن عليه كتابة شيء ثقيل كهذا. أخذ يتفقد جهازه البلاك بيري بهوس، يومًا بعد يوم، وفي اليوم العاشر أدرك أنها لن تعاود الكتابة.

كتب عددًا من الرسائل يعتذر فيها لها، لكنه لم يرسلها، فمن الحماقة الاعتذار عن أمر لم يستطع تحديده. لم يقرر بوعي أبدًا أن يكتب لها الرسائل الإلكترونية الطويلة المفصلة التي تلت ذلك. أدرك أن تصريحه بأنه افتقدها في كل حدث هام في حياته متسم بالمبالغة، لكنه لم يكن كاذبًا تمامًا. بطبيعة الحال ثمة مراحل من الوقت لم يكن قد فكر فيها بقوة، حين كان غارقًا بحماسه الباكر نحو كوسي، وبطفلته الصغيرة، وبعقد جديد، لكنها لم تغب عنه مطلقًا. بل حملها قريبة في وسط عقله، رغم صمتها ومرارته المرتبكة.

أخذ يكتب لها عن أيامه في إنجلترا، آملًا أن ترد، ثم متطلعًا للكتابة نفسها. لم يحكِ قصته لنفسه مطلقًا، ولم يسمح لنفسه بالتفكير فيها، لأنه كان مشوشًا بأمر ترحيله ثم بمفاجأة حياته الجديدة في ليغوس. أصبحت الكتابة لها أيضًا وسيلة للكتابة لنفسه. لم يكن لديه ما يخسره، حتى إن كانت تقرأ رسائله الإلكترونية مع الأمريكي الأسود ويضحكان لحماقته، لم يكن يكترث.

—

أخيرًا، ردّت.

سيلنغ، آسفة لصمتي. حاول دايك أن ينتحر، لم أرغب بإخبارك قبلًا (ولا أدري لماذا). إنه يتحسن، لكنه مصدوم وقد أثر بي أكثر مما ظننت (كما تعلم، «حاول» لا تعني أنه حدث، لكني أمضيت أيامًا في البكاء، وأنا أفكر بما كان سيحدث). أنا آسفة لأني لم أتصل لتقديم التعازي بأمك، لقد خططت لذلك، وقدّرت أنك أعطيتني رقم هاتفك، لكني أخذت دايك إلى موعد مع طبيب نفسي ذلك اليوم، وبعدها لم أكن راغبة بفعل شيء. شعرت كأنني أتخمت بشيء ما، تقول العمة أوجو إني مصابة باكتئاب. تعرف أن لأمريكا عادة تحويل كل شيء إلى مرض يحتاج علاجًا. لست أتعاطى دواء، بل أمضي الكثير من الوقت مع دايك، نشاهد الكثير من الأفلام الفظيعة المليئة بمصاصي الدماء وسفن الفضاء. أحببت رسائلك الإلكترونية عن إنجلترا ووجدتها جميلة جدًا، بطرق عديدة، ولا يمكنني

شكرك كفاية على كتابتها. آمل أن أحظى بوقت لأكتب لك عن حياتي، متى سنح. لقد أنهيت مؤخرًا زمالة في برنستن وكتبت لسنوات باسم مستعار في مدونة عن الأصول العرقية، صارت لاحقًا وسيلة لكسب عيشي، ويمكنك قراءة الأرشيف هناك. لقد أجلت عودتي للديار، وسأكون على تواصل. اعتن بنفسك وآمل أن يكون كل شيء على ما يرام معك ومع عائلتك.

دايك حاول قتل نفسه؟ من المستحيل استيعاب ذلك. كانت ذكرياته عن دايك وهو طفل يحيط خصره انتفاخ أبيض من البامبرز، يركض في أنحاء البيت في مجمع دولفين. وها هو صار مراهقًا حاول قتل نفسه. أول ما تبادر لذهن أوبِنز رغبته في الذهاب إلى إفيملو، حالًا. أراد شراء تذكرة وصعود الطائرة المتجهة نحو أمريكا ليكون معها ويواسيها ويساعد دايك ويجعل كل شيء صحيحًا. ثم ضحك على غبائه.

«عزيزي أنت لا تعيرني انتباهك»، قالت له كوسي.

«آسف يا حلوتي»، قال.

«لا تفكر بالعمل الآن».

«حسن، آسف، ماذا كنت تقولين؟»

كانا في السيارة، في طريقهما إلى مدرسة الحضانة الابتدائية المشتركة في إكويي، يزورانها في اليوم المفتوح بوصفهما ضيوفًا على جوناثان وإسيوما صديقَي كوسي من الكنيسة، ويدرس ابنهما فيها. رتبت كوسي الأمر كله، وهذه زيارتهما الثانية للمدرسة، لمساعدتهما على أن يقررا أين ستذهب بوتشي.

قضى أوبِنز وقتًا معهما مرة واحدة فقط، حين دعتهما كوسي على العشاء. وجد إسيوما جذابة، وكانت الأمور القليلة التي قالتها بصيرة، لكنها ظلت صامتة معظم الوقت، منكمشة على نفسها، متظاهرة بأنها ليست ذكية بالقدر الذي كانته، لتلطف غرور جوناثان. في حين أن جوناثان، الذي كان مديرًا تنفيذيًا في مصرف كانت صوره في الصحف دومًا، استحوذ على الأمسية بقصص طويلة عن تعامله مع الوسطاء العقاريين في سويسرا، والمسؤولين النيجيريين الذين استشاروه، والشركات الكثيرة التي أنقذها من الانهيار.

قدم أوبِنز وكوسي إلى مديرة المدرسة، وهي امرأة إنجليزية قصيرة بدينة، قائلًا

«أوبِنز وكوسي صديقانا المقربان، أظن ان ابنتهما قد تنضم إلينا العام القادم».

«يحضر الكثير من المغتربين من الطبقة الراقية أولادهم هنا»، قالت المديرة، ونبرتها مفعمة بالزهو وتساءل أوبِنز إن كان هذا أمرًا تقوله دومًا. لا بد أنها قالته كثيرًا بما يكفي لتدرك أنه ينجح ويؤثر في النيجيريين كثيرًا.

سألت إسيوما لمَ لم يدرس ابنهما الكثير من الرياضيات والإنجليزية.

«منهجنا مفهومي أكثر. نود أن يكتشف الصغار بيئتهم أثناء السنة الأولى»، قالت المديرة.

«لكن يتعين ألا يكونا متعارضين. يمكنهم أيضًا تعلم بعض الرياضيات والإنجليزية»، قالت إسيوما. ثم أضافت بسرور لم تحاول إخفاء جديته الضمنية «تذهب ابنة أختي إلى مدرسة في البر الرئيس وفي عمر السادسة تستطيع تهجئة كلمة «المحاكاة الصوتية»!»

ابتسمت المديرة قليلًا، فلم تظن، كما أوحت ابتسامتها، أن الأمر يستحق ذكر الإجراءات في مدارس أدنى. لاحقًا، جلسوا في قاعة كبيرة وشاهدوا أداء الأطفال لمسرحية عيد الميلاد، عن أسرة نيجيرية تعثر على يتيم على عتبة بابها في يوم عيد الميلاد. في منتصف المسرحية، أدارت معلمة مروحة نفخت نتفًا من كرات القطن الناعم الأبيض حول المنصة. ثلج. كانت تثلج في المسرحية.

«لماذا يجعلون الثلج يتساقط؟ هل يعلم الأطفال أن عيد الميلاد لا يكون عيدًا حقيقيًا إلا إن تساقط الثلج مثلما يحدث في الخارج؟»، قالت إسيوما.

قال جوناثان «آه، ما العيب في ذلك؟ إنها مجرد مسرحية!»

«إنها مجرد مسرحية، لكني أفهم ما تقوله إسيوما أيضًا»، قالت كوسي، ثم التفتت نحو أوبِنز «عزيزي؟»

قال أوبِنز «كانت الفتاة الصغيرة التي أدت دور الملاك ماهرة جدًا».

في السيارة قالت كوسي «فكرك ليس معنا».

—

قرأ كل أرشيف رشة عنصرية أو ملاحظات متنوعة عن السود الأمريكيين (الذين يُعرفون سابقًا بالزنوج) لسوداء غير أمريكية. أدهشته منشورات المدونة، فقد

بدت أمريكية جدًا وغريبة جدًا، بالصوت الوقح بعاميته، ومزيجها بين اللغة الراقية والوضيعة، ولم يستطع تخيلها وهي تكتبها. انكمش خوفًا من قراءته إشارتها إلى خلانها ب الصديق السابق الأبيض الجذاب، والأستاذ هنك. قرأ منشورها هذا المساء فحسب بضع مرات، لأنه أكثر المنشورات شخصية مما كتبته عن الأمريكي الأسود، وبحث عن تلميحات وتفاصيل حول نمط الرجل الذي كانه، وما نوع العلاقة بينهما.

> وهكذا، في مدينة نيويورك، أوقفت الشرطة الأستاذ هنك. لقد ظنوا أنه يحمل مخدرات. يتعاطى الأمريكيون السود والأمريكيون البيض المخدرات بمعدل متشابه (انظر إلى الأعلى)، لكن اذكر كلمة مخدرات وشاهد الصورة التي تتبادر إلى أذهان الجميع. استاء الأستاذ هنك. قال إنه أستاذ في رابطة اللبلاب وهو يعرف الأمر، وتساءل كيف سيكون عليه الأمر لو كان شخصًا فقيرًا من داخل المدينة. أشعر بالأسى لحبيبي. حين التقينا أول مرة قال لي كم أراد أن يكون متفوقًا لأن مُدرّسة أخبرته في الثانوية أن يركز على منحة كرة السلة، "فالسود معروفون بقدراتهم الجسدية، في حين أن البيض معروفون بقدراتهم العقلية، ليس الأمر سيئًا أو حسنًا لكنه مختلف فقط". (ولا بد من القول إن المُدرّسة ذهبت إلى جامعة كولومبيا) لذا قضى أربع سنوات يحاول إثبات خطئها. لم أتمكن من فهم هذا؛ الرغبة في أن تبلي حسنًا لتثبت رأيًا. لكني شعرت بالاستياء أيضًا، لذا سأذهب لأعد له بعض الشاي، وأقدم بعض الحب والرعاية.

ولأنه حين كان يعرفها لم تكن تعرف إلا القليل عن الأمور التي تدون عنها، فقد شعر بشيء من الخسارة، كأنها أصبحت شخصًا لا يعرفه.

الجزء السادس

الفصل الثالث والأربعون

في الأيام القليلة الأولى، نامت إفيملو على الأرض في غرفة دايك، رددت لنفسها كثيرًا أن الأمر لم يحدث، لم يحدث. ومع ذلك هزت عقلها أفكار لانهائية مبهمة عما كان محتملًا حدوثه. فراشه، وهذه الغرفة سيكونان فارغين للأبد. في مكان ما داخلها، سينفتح جرح لن يبرأ ثانية. تخيلته وهو يتناول الأقراص، تيلينول، تيلينول فقط؛ لقد قرأ على شبكة الإنترنت أن جرعة زائدة من التيلينول يمكنها قتلك. ما الذي دار في عقله؟ هل فكر فيها؟ بعد أن خرج من المستشفى، وقد غسلت معدته وروقبت كبده، تفحصت وجهه وإيماءاته، وكلماته بحثًا عن إشارة عن دليل على أن الأمر كان على وشك الحدوث فعلًا. لم يبد مختلفًا عن ذي قبل، فليس من هالات تحت عينيه، ولا لمحة جنائزية عليه. أعدت له الأرز الجولوف الذي يحبه، وفيه شرائح من الفلفل الأحمر والأخضر، وحين يأكل، وشوكته تنتقل من صحنه إلى فمه، قائلًا «هذا لذيذ حقًا»، كما فعل في الماضي دومًا، شعرت بتجمع دموعها وأسئلتها، لماذا؟ لماذا فعل ذلك؟ ما الذي دار في عقله؟ لم تسأله لأن المعالج النفسي قال إن من الأفضل ألا يسألوه عن أي شيء. مرت الأيام، وتشبثت به، قلقة من تركه وقلقة أيضًا من التضييق عليه. كانت أرقة في البداية، ترفض الحبة الصغيرة الزرقاء التي أعطتها لها العمة أوجو، فتستلقي مستيقظة ليلًا، تفكر وتتقلب، وعقلها رهين أفكار لما كان محتملًا حدوثه، إلى أن تغط أخيرًا في نوم مستنزف. كانت تستيقظ بعض

الأيام مفعمة بلوم العمة أوجو.

«عندما يخبرك دايك بأمر ويقول "نحن السود"، أتذكرين قولك له "أنت لست بأسود".» سألت العمة أوجو، بصوت خفيض لأن دايك ما زال نائمًا في الأعلى. كانت في المطبخ في المنزل، في الوميض الناعم لضوء الصباح، والعمة أوجو، مرتدية ثيابها للعمل، تقف قرب المغسلة وتأكل الزبادي، وتغرفه من كوب بلاستيكي.

«أجل، أذكر».

«لم يكن عليك فعل ذلك».

«تعرفين ما كنت أعنيه. لم أكن أود أن يبدأ بالتصرف مثل أولئك الأشخاص ويظن أن كل شيء يحدث له لأنه أسود».

«أخبرته بما لم يكنه، لكنك لم تخبريه بما كانه».

«ما الذي تقولينه؟»، ضغطت العمة أوجو بقدمها دواسة سلة المهملات، فارتفع غطاؤها، ورمت كوب الزبادي الفارغ. لقد انتقلت إلى العمل الجزئي لتتمكن بذلك من قضاء بعض الوقت مع دايك، وأن تأخذه إلى موعد المعالج النفسي بنفسها.

«لم تطمئنيه أبدًا».

«إفيملو، محاولته الانتحار بسبب الاكتئاب»، قالت العمة أوجو بهدوء ولطف، «إنه مرض سريري، يعانيه العديد من المراهقين».

«هل يستيقظ الناس ويكونون مكتئبين فحسب؟»

«أجل، يفعلون».

«ليس في حالة دايك».

«لقد حاول ثلاثة من مرضاي الانتحار، كلهم مراهقون بيض. نجح واحد منهم». قالت العمة أوجو، ونبرتها هادئة وحزينة، كما كانت منذ خروج دايك من المستشفى.

«اكتئابه بسبب تجربته يا عمتي!»، قالت إفيملو. ارتفع صوتها، ثم أخذت تنشج معتذرة للعمة أوجو، إذ كان إحساسها بالذنب ينتشر ويلطخها. لم يكن لدايك أن يبتلع هذه الأقراص لو أنها كانت أكثر حرصًا، وأكثر يقظة. كانت تقبع بسهولة خلف الضحك، وقد فشلت في حرث التربة العاطفية لدعابات دايك. صحيح أنه يضحك، وأن ضحكته مقنعة بصوتها وخفتها، لكنها قد تكون درعًا، وتحته قد يكون

نبتة من الأذى.

والآن، في الفترة الصامتة القوية التالية لمحاولة انتحاره، أخذت تتساءل كم غطت تلك الدعابات بكل ذلك الضحك. كان عليها أن تقلق أكثر. راقبته بحرص، وحرسته ولم ترغب بزيارة أصدقائه له، رغم أن المعالج قال إنه لا بأس إن أراد ذلك. حتى بيج التي انفجرت بالبكاء قبل بضعة أيام حين كانت وحدها مع إفيملو قالت «لا أستطيع أن أصدق أنه لم يتصل بي». كانت طفلة بسيطة وحسنة النية، ومع ذلك شعرت إفيملو بموجة من الاستياء تجاهها، لتفكيرها أنه يجب على دايك الاتصال بها. عاد كويكو من مهمته الطبية في نيجيريا، وقضى وقتًا مع دايك، مشاهدًا التلفاز معه، معيدًا الهدوء والحياة الطبيعية.

مرت الأسابيع وكفت إفيملو عن الهلع إن أطال دايك مكوثه في الحمام قليلًا. كان عيد ميلاده بعد أيام وسألته عما يحب، وقد تجمعت دموعها ثانية، لأنها تخيلت عيد ميلاده يمر، لا كأنه اليوم الذي أكمل فيه السابعة عشرة، بل كأنه اليوم الذي كان سيكمل فيه السابعة عشرة.

«ما رأيك لو ذهبنا إلى ميامي؟»، قال، نصف مازح، لكنها أخذته إلى ميامي وقضيا يومين في فندق، يطلبان البرغر في حانة مغطاة بالقش قرب حوض السباحة، ويتحدثان عن كل شيء عدا محاولة الانتحار.

«هذه هي الحياة»، قال مستلقيًا ووجهه إلى الشمس. «مدونتك كانت شيئًا رائعًا، جعلتك تسبحين في المال وما إلى ذلك، وها قد أغلقتها الآن، لن نستطيع فعل المزيد من هذه الأشياء!»

«لم أكن أسبح بل كنت أحدث الرذاذ»، قالت ناظرة إليه، ابن عمتها الوسيم، ولفافات الشعر الرطب على صدره جعلتها حزينة، لأنها فرضت رشده الجديد اللطيف، وتمنت لو ظل طفلًا: لو ظلّ طفلًا لما أخذ الأقراص واستلقى على أريكة في القبو بيقين أنه لن يستيقظ ثانية.

«أحبك يا دايك، نحن نحبك، هل تعلم ذلك؟»

«أعلم»، قال، «يا ابنة الخال، عليك الذهاب».

«إلى أين؟»

«إلى نيجيريا، كما كنت تخططين. سأكون على ما يرام، أعدك».

«ربما يمكنك القدوم لزيارتي»، قالت.

بعد صمت قال «أجل».

الجزء السابع

الفصل الرابع والأربعون

انقضت عليها ليغوس في بادئ الأمر، بالسرعة المتأنية من الشمس، والحافلات الصفراء المكتظة بالأطراف المهروسة، والباعة المتجولين المتعرقين الراكضين خلف السيارات، والإعلانات على اللافتات الطُّرُقيّة الضخمة (الأخرى ملصقة على الجدران- سبّاك للاتصال 080177777)، وأكوام النفايات التي ارتفعت على جانب الطريق مثل شتيمة، والمساومات التجارية تطن بتحد كبير، والجو عامر بالتهويل؛ والحوارات المفعمة بالاعتراض المبالغ به. ذات صباح، استلقت جثة رجل في شارع أوولوو، وفي صباح آخر فاضت الجزيرة وغدت السيارات زوارق لاهثة. هنا، شعرت بإمكان حدوث أي شيء، إذ يمكن لثمرة طماطم ناضجة أن تنبجس من حجر صلب. ولذا انتابها هذا الشعور المدوّخ بالسقوط، السقوط في الشخص الجديد الذي أصبحت عليه، والسقوط في الغريب الأليف. هل كانت الأمور هكذا دومًا أم أنها تغيرت كثيرًا في غيابها؟ كان الأثرياء فقط من يملكون هواتف خلوية حين غادرت الديار، وكل الأرقام تبدأ ب 090، والفتيات يرغبن بمواعدة رجال 090. أما الآن، فضافرة شعرها تملك هاتفًا خلويًا، وبائعة موز الجنة التي تعتني بمشواة مسودة تحمل هاتفًا خلويًا. لقد كبرت وهي تعرف كل مواقف الحافلات والشوارع الجانبية، وتفهم الشفرات الخفية لقاطعي التذاكر ولغة الجسد للباعة المتجولين، لكنها الآن تجاهد لفهم غير المنطوق. متى صار أصحاب المتاجر وقحين للغاية؟ هل كان للمباني دومًا في ليغوس مسحة

الخراب هذه؟ ومتى صارت مدينة لأناس يسرعون في التسول ويغرمون بالأشياء المجانية؟

كثيرًا ما أغاظتها رانينودو «أمريكانا! أنت تنظرين للأمور بعيون أمريكية. لو كان لك لكنة أمريكية على الأقل لكنا صفحنا عن تذمرك!».

أخذتها رانينودو من المطار، وهي تقف قرب مخرج الواصلين في ثوب منفوخ لإشبينة عروس، وكان أحمر الخدود شديد الحمرة على وجنتيها مثل كدمتين، وصارت الزهور الخضراء الحريرية في شعرها مائلة. فوجئت إفيملو بجاذبيتها وفتنتها، فلم تعد كتلة نحيلة من الذراعين الطويلتين والساقين الطويلتين، لكنها صارت امرأة ضخمة مشدودة ذات انحناءات، جذلة بوزنها وطولها، وقد جعلها ذلك لافتة في حضور يخطف الأبصار.

«راني! أعلم أن عودتي أمر كبير، لكني لم أعرف أنه كبير لترتدي ثوب حفلات من أجله»، قالت.

«حمقاء. لقد جئت مباشرة من الزفاف. خشيت أن أعلق في الازدحام إن ذهبت للبيت أولًا وغيرت ثيابي».

تعانقتا محتضنتين بعضهما بقوة، وفاح من رانينودو عطر الزهور وأبخرة عوادم السيارات والعرق ؛ فاحت منها رائحة نيجيريا.

«تبدين مذهلة يا راني! أعني تحت كل تمويه الحرب هذا. لم تظهرك صورك جيدًا»، قالت إفيملو.

«إفيمسكو، انظري إليك، فتاة جميلة، حتى بعد الرحلة الطويلة»، قالت ضاحكة متجاهلة الإطراء وممارسة دورها القديم بكونها الفتاة غير الجميلة. تغيرت هيئتها لكن طبعها السريع الاهتياج المتهور قليلًا لم يتغير. كما لم تتغير أيضًا القرقرة الدائمة في صوتها، والضحك الخفي دومًا، متأهبة للتحرر وللانفجار. قادت بسرعة، وداست الفرامل بحدة ونظرت كثيرًا إلى جهازها البلاك بيري الموضوع على حجرها، وكلما سكنت حركة المرور، رفعته وكتبت بسرعة.

«راني، عليك أن تقودي وتكتبي الرسائل النصية حين تكونين وحدك فقط، فتقتلين نفسك فحسب»، قالت إفيملو.

«هراء! أنا لا أكتب رسائل نصية وأقود، بل أكتب حين لا أقود. إن هذا الزفاف شيئ آخر، أفضل زفاف ذهبت إليه. أتذكرين العروس يا ترى؟ لقد كانت أعز صديقات فانكي في المدرسة الثانوية، إجيوما، فتاة شديدة الصفرة. لقد ارتادت مدرسة الطفل المقدس لكنها أتت إلى دروس مجلس امتحانات غرب إفريقيا مع فانكي. وصرنا صديقتين في الجامعة. لو رأيتها الآن، إه، إنها فتاة جميلة. يملك زوجها ثروة كبيرة، وخاتم خطبتها أكبر من حجر زوما[73]»، قالت.

نظرت إفيملو من النافذة، نصف مصغية، تفكر بمدى قبح ليغوس، والشوارع المبتلاة بالحفر، والبيوت التي تنبثق فجأة بلا تخطيط مثل الحشيش. ومن بين فوضى أحاسيسها، ميزت الارتباك فقط.

«ليمون وخوخ»، قالت رانينودو.

«ماذا؟»

«ألوان الزفاف كانت لون الليمون والخوخ، وبدت زينة القاعة أنيقة والكعكة جميلة. انظري، لقد التقطت بعض الصور، سأرفع هذه على الفيسبوك». أعطت رانينودو إفيملو جهازها البلاك بيري، فأمسكت به إفيملو لتتمكن رانينودو من التركيز على القيادة.

«وقد التقيت بأحدهم. رآني حين انتظرت خارجًا لينتهي القداس. كان الجو حارًا جدًا، فسال كريم الأساس على وجهي وأعلم أني بدوت مثل زومبي، لكنه مع ذلك جاء وتحدث إلي! هذه علامة جيدة. أظن أن هذه صفة الزوج الجاد. هل أخبرتك أن أمي كانت تردد جادة صلاة التاسوعية لتنتهي علاقتي حين واعدت إبراهيم؟ إنها لن تصاب بنوبة قلبية مع هذا الرجل على الأقل. اسمه ندودي، اسم جميل، أليس كذلك؟ لا يمكنك العثور على إيبو أكثر من هذا. عليك أن تري ساعة يده! إنه يعمل في النفط. تحمل بطاقة عمله عناوين شركات نيجيرية ودولية».

«لماذا انتظرت في الخارج أثناء القداس؟»

«على كل إشبينات العروس أن ينتظرن خارجًا لأن ثيابنا ليست محتشمة»،

73) حجر ضخم من صهارة بركانية مؤلف من الصخر الناري الخشن والصخر الشبيه بالغرانيت يقع في نيجيريا، ويرتفع 735 متر عن محيطه، يشار إليه أحيانًا بالبوابة من أبوجا من سوليجا.

مررت رانينودو كلمة «غير محتشمة» على لسانها وضحكت، «يحدث ذلك طوال الوقت، وبخاصة في الكنائس الكاثوليكية. لدينا أردية لكن القس قال إنها كثيرة الدانتيل، لذا انتظرنا خارجًا حتى انتهى القداس. لكن حمدًا للرب على هذا، وإلا لما التقيت بهذا الرجل!»

نظرت إفيملو إلى ثوب رانينودو، بخطوطه الرفيعة، وتقويرة رقبته ذات الثنيات التي لا تظهر النحر. قبل أن تغادر، هل كانت إشبينات العروس يطردن من الكنيسة لأنهن يرتدين ثيابًا رفيعة الحمالات؟ لا تظن ذلك، لكنها لم تعد واثقة. لم تعد واثقة مما هو جديد في ليغوس وما هو جديد عليها. أوقفت رانينودو السيارة في شارع في ليكي، كان أرضًا جرداء مهجورة حين غادرت إفيملو، لكنه الآن جحافل من المنازل الكبيرة المطوقة بجدران عالية.

«شقتي هي الأصغر، لذا ليس لدي موقف في الداخل. يركن السكان الآخرون سياراتهم داخلًا، ولكن لك أن تري الصراخ الذي ينطلق صباحًا حين لا يحرك أحدهم سيارته عن الطريق، فيتأخر أحد آخر عن العمل!»، قالت رانينودو.

خرجت إفيملو من السيارة إلى طنين المولدات الكهربائية النشاز العالي، الكثير من المولدات، فثقب الصوتُ الغشاءَ الرقيق لأذنيها ونبض في رأسها.

«انقطعت الكهرباء طوال الأسبوع الماضي»، قالت رانينودو صارخة لتسمعها في ضجيج صوت المولدات.

أسرع البواب ليساعدهما بحمل الحقائب.

«أهلًا بعودتك، يا عمتي»، قال لإفيملو.

لم يقل أهلًا فقط، بل قال أهلًا بعودتك، وكأنه شخص يعلم أنها عائدة حقًا. فشكرته، شعرت بإحساس لا يطاق لم تستطع تحديده في عتمة المساء الرمادية، والهواء المثقل بالروائح. كان حنينًا وكآبة وحزنًا جميلًا للأشياء التي فاتتها والأشياء التي لن تعرفها أبدًا. نظرت إفيملو إلى نفسها في وقت لاحق وهي تجلس على أريكة في غرفة المعيشة الأنيقة الصغيرة لرانينودو، وقدماها تغوصان في السجادة الناعمة للغاية، والشاشة المسطحة للتلفاز انبثقت من الجدار المقابل. لقد فعلتها وعادت. أدارت التلفاز وبحثت عن القنوات النيجيرية، وعلى شبكة التلفاز النيجيري، خاطبت

السيدة الأولى بوشاح أزرق ملفوف حول وجهها، حشدًا من النساء، وعلى الشاشة تمر الكلمات «السيدة الأولى تساعد النساء بشبكات البعوض».

«لا أذكر آخر مرة شاهدت فيها هذه القناة الغبية»، قالت رانينودو، «إنهم يكذبون لصالح الحكومة لكنهم لا يكذبون جيدًا».

«وأي قناة نيجيرية تتابعين إذًا؟»

«أنا لا أتابع أيًا منها. أتابع ستايل وإي! وأحيانًا سي إن إن وبي بي سي». بدلت رانينودو ثيابها وارتدت سروالًا قصيرًا وقميصًا بأكمام قصيرة. «تأتي فتاة تنظف وتطبخ لي، لكني أعددت هذه اليخنة بنفسي بمناسبة قدومك، لذا عليك أكلها. ماذا تشربين؟ لدي الملت وعصير البرتقال.»

«الملت! سأشرب كل الملت في نيجيريا. اعتدت شراءه من متجر هسباني في بالتيمور، لكنه لم يكن نفسه».

«لقد أكلت أرز أوفادا لذيذًا حقًا في الزفاف، فلست جائعة»، قالت رانينودو. ولكن بعد أن قدمت الطعام لإفيملو في طبق العشاء، أكلت بعض الأرز ويخنة الدجاج من طبق بلاستيكي، وقد جثمت على ذراع الأريكة، وهما تنمّان عن أصدقاء قدامى، فقد صارت بري منظمة فعاليات ونجحت مؤخرًا بعد تقديمها إلى زوجة الحاكم. وفقدت توتشي عملها في المصرف بعد أزمة المصرف الأخيرة، لكنها تزوجت محاميًا ثريًا وأنجبت طفلًا.

«كانت توتشي تخبرني كم يملك الناس في حساباتهم». قالت رانينودو «هل تذكرين ذلك الرجل ميكوس بارارا الذي يقتل نفسه من أجل جينيكا؟ هل تذكرين كيف كان له دومًا بقعتان صفراوان نتنتان تحت إبطيه؟ إنه يملك ثروة كبيرة الآن، لكنه مال قذر. هل تعرفين، كل هؤلاء الرجال يقومون بالاحتيال في لندن وأمريكا، ثم يفرون هربًا إلى نيجيريا، ويبنون منازل في فكتوريا غاردن سيتي. أخبرتني توتشي أنه لم يأت للمصرف بنفسه مرة، بل يرسل فتيانه بحقائب بلاستيكية لأخذ عشرة ملايين اليوم، وعشرين مليونًا غدًا. عن نفسي، لم أرغب يومًا بالعمل في مصرف. مشكلة العمل في مصرف تكمن في أنك إن لم تعملي في فرع جيد عملاؤه من الطبقة الراقية، فقد قضي عليك. ستقضين وقتك في الاهتمام بمساومين تافهين. كانت توتشي

محظوظة في عملها وقد عملت في فرع جيد والتقت بزوجها هناك. هل تريدين المزيد من الملت؟»

نهضت رانينودو. وكان في مشيتها شيء من البطء النسوي المرفه، ارتفاع ودوران وعقدة عجيزتها مع كل خطوة. مشية نيجيرية، مشية تلمح بإسراف كأنها تتحدث عن شيء بحاجة للتلطيف. أخذت إفيملو زجاجة الملت الباردة من رانينودو، وتساءلت إن كانت هذه ستصبح حياتها لو أنها لم تغادر، إن كانت ستصبح مثل رانينودو تعمل في شركة إعلانات، وتعيش في شقة ذات غرفة نوم واحدة لا يغطي راتبها إيجارها، وتتردد على كنيسة بنتكوستال فتعمل مرشدة، وتواعد مديرًا تنفيذيًا متزوجًا، ابتاع لها تذاكر الدرجة الأولى إلى لندن. أرت رانينودو صوره لإفيملو على هاتفها. في واحدة كان عاري الصدر بكرش منتفخة قليلًا لانتصاف العمر، مستلقيًا في فراش رانينودو، مبتسمًا ابتسامة حيية لرجل قد انتشى من الجنس. وفي أخرى كان ينظر للأسفل في لقطة قريبة، وبدا وجهه شكلًا مظللًا ضبابيًا وغامضًا، وثمة شيء جذاب ومميز في شعره الخفيف الرمادي.

«هل يتهيأ لي أم أنه يبدو يشبه الغيلم؟»، قالت إفيملو.

«يتهيأ لك. لكن إفيم جديًا، دون رجل صالح، وليس مثل الكثير من رجال ليغوس التافهين هؤلاء الذي يتسكعون في أرجاء المدينة».

«راني، لقد أخبرتني أنه أمر عابر فقط. ولكن سنتان ليستا أمرًا عابرًا. أنا خائفة عليك».

«أحمل مشاعر له، لن أنكر ذلك، لكني أريد الزواج وهو يعرف ذلك. يخطر لي أحيانًا أن يكون لي طفل منه لكن انظري إلى يوشي أوكافور، هل تذكرينها من نسوكا؟ أنجبت طفلًا من مدير الإدارة في مصرف هيل، وأخبرها الرجل أن تذهب للجحيم، وأنه ليس الأب، وها هي قد تركت لتربية طفل وحدها، عجبًا».

نظرت رانينودو إلى الصورة على هاتفها بابتسامة ساذجة باهتة. في وقت أسبق، في طريق العودة من المطار، قالت وقد خففت سرعتها لتغوص في حفرة ثم لتخرج منها، «أريد من دون أن يغير هذه السيارة حقًا. وعدني بذلك منذ ثلاثة أشهر. أنا بحاجة لجيب، هل ترين سوء الطرق؟»، وشعرت إفيملو بشيء بين الإعجاب

والتوق لحياة رانينودو. حياة تلوح فيها بيدها وتتساقط الأشياء من السماء، أشياء توقعت ببساطة أن تسقط من السماء.

عند منتصف الليل، أطفأت رانينودو مولدتها الكهربائية وفتحت النافذة «لقد شغلت هذه المولدة لأسبوع كامل، هل تتخيلين؟ لم يكن وضع الكهرباء بهذا السوء منذ وقت طويل».

تلاشت البرودة سريعًا. وطاف هواء رطب ودافئ في الغرفة، وسرعان ما غرقت إفيملو برطوبة عرقها. بدأ نبض مؤلم خلف عينها، وأزت بعوضة قربها وشعرت فجأة وبإحساس بالذنب أنها ممتنة أنها تملك جواز سفر أمريكي في حقيبتها. لقد حصنها من ألا يكون لها خيار، إذ يمكنها الرحيل دومًا، وليست مضطرة للبقاء.

«ما هذه الرطوبة؟»، قالت. كانت في فراش رانينودو، ورانينودو على مرتبة على الأرض، «لا يمكنني التنفس».

«لا يمكنني التنفس»، سخرت رانينودو، وقد ملأ الضحك صوتها، «عجبًا! أمريكانا!».

الفصل الخامس والأربعون

وجدت إفيملو التصنيفات على موقع وظائف نيجيرية على الشبكة، «محرر محتوى لمجلة نسائية شهرية رائدة». فحررت سيرتها الذاتية، واختلقت خبرات سابقة بوصفها كاتبة مواد في مجلة نسائية («أغلقت بسبب إفلاسها» بين قوسين)، وبعد أن أرسلتها مع ساعٍ بأيام، اتصلت بها صاحبة زوي من ليغوس. كان في الصوت الناضج الودود على الطرف الآخر من الخط نفحة مبهمة من قلة اللياقة. «أوه، نادني العمة أونينو»، قالت بابتهاج حين سألت إفيملو عمن يتحدث. قبل أن تعرض العمل على إفيملو، قالت بنبرة تخفي ثقة «لم يدعمني زوجي حين بدأت هذا، لأنه ظن أن الرجال سيلاحقونني إذا ذهبت للبحث عن المعلنين». شعرت إفيملو أن المجلة هواية للعمة أونينو؛ هواية عنت لها شيئًا لكنها تظل هواية. ليس شغفًا، ولا شيئًا يستغرقها، وحين التقت بالعمة أونينو، شعرت بذلك بقوة أكبر؛ فقد كانت امرأة يسهل حبها ولكن يصعب أخذها على محمل الجد.

ذهبت إفيملو مع رانينودو إلى منزل العمة أونينو في إكويي. وجلسن على أرائك جلدية بدت باردة عند اللمس، وتحدثن بأصوات خفيضة. من الصعب تخمين عمرها، بين الخمسين والخامسة والستين، ولكن من السهل تخمين أنها لم تولد بهذه البشرة الفاتحة، فقد كان لمعانها شمعيًا جدًا وبراجمها داكنة، كأن ثنيات الجلد هذه قد قاومت بجسارة دهان التفتيح.

«أردتك أن تأتي قبل أن تبدئي يوم الاثنين فأتمكن من الترحيب بك شخصيًا»، قالت العمة أونينو.

«شكرًا لك»، وجدت إفيملو الزيارة المنزلية غير مهنية وغريبة، لكن هذه مجلة صغيرة، وهذه نيجيريا، حيث تكون الحدود ضبابية، وحيث يمتزج العمل بالحياة، وتُدعى المُديرة أمي. إلى جانب أنها تخيلت تولي إدارة **زوي**، محولة إياها إلى رفيقة ملهمة دائمة للنساء النيجيريات، ومن يدري، ربما اشترت حصة العمة أونينو يومًا ما ولن ترحب بالموظفين الجدد في بيتها.

«إنك فتاة جميلة»، قالت العمة أونينو، هازة رأسها كأن الجمال مطلوب لهذا العمل وخشيت ألا تكون إفيملو كذلك. «أحببت حديثك على الهاتف. وأنا واثقة أن تداول مجلتنا سيتفوق على **غلاس** سريعًا بوجودك في هيئة تحريرنا. تعلمين أننا أصغر منهم في عالم النشر لكن أخذنا نواكبهم!»

خرج خادم يرتدي الأبيض، رجل مسن وقور، ليسألهن ماذا يشربن.

«عمتي أونينو، قرأت أعدادًا قديمة من **غلاس** و**زوي**، ولدي بعض الأفكار عما يمكن فعله بشكل مختلف»، قالت إفيملو بعد أن غادر الخادم ليجلب لهن عصير البرتقال.

«إنك أمريكية حقيقية! مستعدة للانطلاق في العمل، شخص ليس لديه كلام فارغ! جيد جدًا. أخبريني أولًا كيف تجديننا قياسًا ل **غلاس**؟»

وجدت إفيملو كلتا المجلتين سطحية، لكن تحرير **غلاس** أفضل، ولم تكن الألوان ملطخة بشكل سيّئ بقدر **زوي**، وكانت تُرى كثيرًا في الشارع، فكلما خففت رانينودو سرعة سيارتها، ضغط بائع متجول عددًا من **غلاس** على نافذتها. ولكن لأنها استطاعت أن ترى هوس العمة أونينو بالمنافسة، الشخصية بشكل صريح، قالت «إنهما متماثلتان تقريبًا، ولكن أظننا نستطيع أن نقدم أفضل. علينا أن نقلل المقابلات الشخصية ونجعلها مرة كل شهر، ونلتقي بامرأة قد حققت شيئًا حقيقيًا بنفسها. نحتاج المزيد من الأعمدة الشخصية، وعلينا تقديم كاتب عمود ضيف متغير، وأن نكتب أكثر عن الصحة والمال، وأن يكون لنا حضور قوي على شبكة الإنترنت، وأن نكف عن الاقتباس من المجلات الأجنبية، فمعظم قرائك لا

يستطيعون الذهاب للسوق وشراء البروكولي لأنها ليست موجودة في نيجيريا، فلمَ كانت وصفة الطعام في زوي هذا الشهر لحساء البروكولي بالكريمة؟»

«نعم، نعم»، قالت العمة أونينو ببطء وبدت مذهولة.

ثم قالت وكأنها تستعيد نفسها «جيد جدًا، سنناقش هذا كله يوم الاثنين».

في السيارة قالت رانينودو«تتحدثين إلى مديرتك الجديدة هكذا، ها! لو لم تكوني قادمة من أمريكا، لفصلتك على الفور!»

«أتساءل ما الحكاية بينها وبين أصحاب غلاس».

«قرأت في إحدى الصحف الشعبية أنهما تتبادلان الكراهية. أنا واثقة أنها مشكلة حول رجل، وما غير ذلك؟ النساء، إه! أظن أن العمة أونينو أسست زوي لتتنافس مع غلاس. إنها ليست ناشرة، برأيي، بل مجرد امرأة ثرية قررت إنشاء مجلة، وقد تغلقها غدًا لتفتتح مركز تجميل».

«ويا له من منزل قبيح»، قالت إفيملو. فقد كان مشوهًا، إذ له زاويتان من المرمر تحرسان البوابة، ونافورة لها شكل القبة تبصق في الفناء الأمامي.

«قبيح أيضًا؟ ما الذي تتحدثين عنه؟ المنزل جميل!»

«ليس في نظري»، قالت إفيملو رغم أنها رأت يومًا منازل مثل هذا جميلة. ولكن ها هي الآن، تكرهه بثقة متغطرسة لشخص يعرف الفن الهابط.

«مولدتها الكهربائية كبيرة بحجم شقتي لكنها هادئة تمامًا!»، قالت رانينودو، «هل انتبهت إلى غرفة المولدة على جانب البوابة؟»

لم تلاحظها إفيملو، وأوجعها ذلك، فهذا ما يتعين على ليغوسي حقيقي أن يلاحظه، غرفة المولدة، وحجم المولدة.

على طريق كنغزواي، ظنت أنها رأت أوبِنز يجتازهما بسيارة مرسيدس منخفضة سوداء، فعدلت جلستها، جاهدة وناظرة. ولكن ما إن أبطأ بالازدحام المروري حتى رأت أن الرجل لا يشبهه أبدًا. رأت لمحات متخيلة لأوبِنز في الأسابيع التالية، والأشخاص الذين عرفتهم لم يكونوا هو ولكن كان من الممكن أن يكونوا هو: القوام ذو الظهر المستقيم المرتدي بدلة، الذي دخل مكتب العمة أونينو، والرجل في المقعد الخلفي لسيارة ذات نوافذ مظللة، ووجهه منحنٍ على الهاتف، والرجل خلفها

في صف المتجر. لقد تخيلت، حين ذهبت للقاء صاحب شقتها، أنها قد تدخل وترى أوبنز جالسًا هناك. قال لها الوكيل العقاري إن المالك يفضل المستأجرين المغتربين، وأضاف «لكنه ارتاح حين أخبرته أنك جئت من أمريكا». كان المالك رجلًا مسنًا يرتدي قفطانًا بنيًا وبنطالًا مناسبًا، وبشرته لوّحها الطقس، ويحمل مسحة جريحة لامرئ كابد الكثير على أيدي الآخرين.

«أنا لا أؤجر لأناس من الإيبو»، قال بهدوء حيرها. هل قيلت أمور من هذا القبيل يساطة هكذا؟ هل قيلت بهذه البساطة ونسيت هي؟ «هذه سياستي منذ أن خرب رجل من الإيبو منزلي في يابا. لكنك تبدين شخصًا مسؤولًا».

«نعم، أنا مسؤولة»، قالت وقد تصنعت ابتسامة حيية. كانت الشقق الأخرى التي أعجبتها مرتفعة الإيجار. ورغم أن الأنابيب بارزة تحت حوض المغسلة والمرحاض مائل من أحد جانبيه وبلاط الحمام مركب تركيبًا رديئًا، إلا أن هذه كانت أفضل ما يمكنها تحمل تكلفته. أحبت تهوية غرفة المعيشة بنوافذها الكبيرة، وفتنتها السلالم الضيقة المؤدية إلى شرفة صغيرة، غير أن أكثر ما أعجبها أنها كانت في إكويي، وقد رغبت بالعيش في إكويي. كانت إكويي، وهي تكبر، تفوح برائحة الرفاه الاجتماعي؛ رفاه اجتماعي بعيد لم تستطع مسّه؛ فللناس الذين يسكنون في إكويي وجوه خالية من البثور وسائقون يسمون «سائق الأطفال». حين رأت الشقة أول مرة، وقفت على الشرفة ونظرت إلى المبنى المجاور، إنه منزل ضخم من زمن الاستعمار، وقد اصفر من العفن، والأرضيات غارقة بأوراق الشجر، والحشائش والشجيرات يتسلق بعضها بعضًا. على سطح المنزل الذي انهار جزء منه وغاص في الداخل، رأت حركة ما، تناثر فيروزي من الريش. كان طاووسًا. أخبرها الوكيل العقاري أن ضابطًا في الجيش سكن هناك أثناء حكم الجنرال أباتشا، وقد صار المنزل الآن بقبضة المحكمة. وتخيلت الأشخاص الذين عاشوا هناك قبل خمسة عشر عامًا، حين كانت في شقة على البر الرئيس المكتظ، تتوق لحياتهم الرحبة الهادئة.

كتبت شيكًا بإيجار سنتين. لهذا السبب كان الناس يقبلون الرشاوى ويطلبونها؛ وإلا كيف يمكن لأي شخص أن يدفع إيجار سنتين مقدمًا بنزاهته؟ لقد خططت لملء شرفتها بالزنابق البيضاء في أصص من الصلصال، وتزيين غرفة المعيشة بألوان

الباستيل، لكن أولًا عليها أن تعثر على كهربائي لتركيب مكيف الهواء، ودهّان لإعادة طلاء الجدران المبقعة بالزيت، وأحدًا ما لتركيب بلاط جديد في المطبخ والحمام. جلب الوكيل العقاري شخصًا ركب لها البلاط، واستغرق منه الأمر أسبوعًا وحين اتصل بها الوكيل العقاري ليقول إن العمل انتهى، ذهبت متلهفة إلى الشقة. في الحمام نظرت غير مصدقة. فقد كانت حواف البلاط خشنة، ووجدت فراغات صغيرة في الزوايا، ولإحدى البلاطات صدع قبيح في وسطها، بدا كأنه شيء صنعه طفل نافد الصبر.

«ما هذا الهراء؟ انظر إلى خشونتها! إحدى البلاطات مكسورة! هذا أسوأ حتى من البلاط القديم! كيف يمكنك أن ترضى عن هذا العمل الرديء؟»، سألت الرجل.

رفع كتفيه بلامبالاة، إذ رآها تفتعل متاعب لا داعي لها، «أنا راضٍ عن العمل يا عمتي».

«هل تريدني أن أدفع لك؟»

ابتسامة صغيرة «آه يا عمتي لكنني أنهيت العمل».

تدخل الوكيل العقاري «لا تقلقي، يا سيدتي، سيصلح البلاطة المكسورة».

بدا رجل البلاط معترضًا. «لكني أنهيت العمل. المشكلة أن البلاط ينكسر بسهولة، إنها نوعية البلاط».

«أنهيته؟ قمت بهذا العمل الرديء وتقول إنك أنهيته؟»، تعاظم غضبها وارتفع صوتها وقسا «لن أدفع لك ما اتفقنا عليه، لأنك لم تفعل ما اتفقنا عليه».

نظر رجل البلاط إليها مضيقًا عينيه.

«وصدقني إن أردت المتاعب، فستحصل عليها»، قالت إفيملو. «أول ما سأفعله هو الاتصال بضابط الشرطة وهم سيحبسونك في 'زنزانة الأغبون[74]!»، صرخت، «هل تعرف من أنا؟ أنت لا تعرف من أنا، لهذا قمت بهذا العمل الرديء لي!»

جبن الرجل. وفوجئت بنفسها، فمن أين جاء هذا، هذه الجسارة، والاستخدام السهل للوعيد؟ خطرت لها ذكرى لم تتلاشَ بعد كل هذه السنوات الطويلة، في اليوم الذي مات فيه الجنرال خليل العمة أوجو، وكيف هددت العمة أوجو أقاربه، «لا،

---

74) أغنية لفيلا كوتي.

لا تذهبوا، ابقوا هناك»، قالت لهم، «ابقوا هناك ريثما أذهب لاستدعاء فتيتي من كتائب الجيش».

قال الوكيل العقاري ثانية، «لا تقلقي يا عمتي، سيقوم بالعمل ثانية».

لاحقًا، أخبرتها رانينودو «لم تعودي تتصرفين مثل أمريكية!»، ورغمًا عنها، شعرت إفيملو بالسرور لسماع ذلك.

«المشكلة أننا لم يعد لدينا حرفيون في هذه البلاد»، قالت رانينودو «الغانيون أفضل، يبني مديري بيتًا وقد استخدم عمالًا غانيين فقط ليقوموا بإكسائه. سيقوم النيجيريون بعمل رديء، فهم لا يتأنون لإنهاء الأمور جيدًا، هذا فظيع. لكن يا إفيم كان عليك الاتصال بأوبنز، وسيرتب كل شيء من أجلك، فهذا ما يفعله على أية حال. لا بد أن لديه كل أنواع المعارف. كان عليك الاتصال به قبل حتى أن تبدأي البحث عن شقة. إذ يمكنه أن يعطيك إيجارًا مخفضًا في واحدة من أملاكه، أو حتى شقة مجانية على أية حال. لا أدري ما الذي تنتظرينه لتتّصلي به».

هزت إفيملو رأسها، فالرجل يوجد كما ترى رانينودو ليكون مصدرًا للأشياء فقط. لم تتخيل الاتصال بأوبنز لتطلب منه إيجارًا مخفضًا في واحد من أملاكه، ومع ذلك لم تعرف لماذا لم تتصل به مطلقًا. فكرت بذلك مرات كثيرة، وكثيرًا ما أخرجت هاتفها لتضغط رقمه، ولكنها لم تتصل. وأرسل إليها رسائل إلكترونية قائلًا إنه يتمنى أنها بخير، أو أن دايك بخير، فترد على قليل منها، باقتضاب دومًا، ردودًا يفترض أنها مرسلة من أمريكا.

الفصل السادس والأربعون

كانت تقضي نهايات الأسبوع مع والديها، في الشقة القديمة، سعيدة ببساطة بالجلوس والنظر إلى الجدران التي شهدت طفولتها. وحين بدأت تتناول يخنة أمها، وفيها طبقة زيت تطفو فوق الطماطم المهروسة، أدركت حقًّا كم افتقدتها. مر الجيران لتحيتها، هذه الابنة العائدة من أمريكا. كان الكثير منهم جددًا وغير معروفين، لكنها شعرت بحب عاطفي تجاههم، لأنهم ذكروها بالآخرين الذين عرفتهم، ماما بومبوي في الطابق الأسفل التي شدت أذنها حين كانت في المدرسة الابتدائية وقالت «أنت لا تحيين الكبار»، وأوغا توني في الطابق العلوي الذي يدخن على شرفته، والتاجر الذي يسكن الشقة المجاورة الذي يناديها بالبطلة لأسباب تجهلها.

«لقد جاؤوا فقط ليروا إن كنت ستعطينهم شيئًا»، قالت أمها في همس، كأن الجيران الذين غادروا جميعًا قد يسمعونها. «لقد توقعوا كلهم مني أن أبتاع لهم شيئًا حين ذهبت إلى أمريكا، لذلك ذهبت إلى السوق واشتريت زجاجات عطور صغيرة وقلت لهم إنها من أمريكا!».

أحب والداها الحديث عن زيارتهما لبالتيمور، فأمها تتحدث عن التخفيضات، وأبوها عن عجزه عن فهم الأخبار بسبب الأمريكيين الذين يستخدمون تعابير عاميّة في أخبار جادة من مثل «المحاصصة» و«الهجوم النووي».

«إنها الإفساد الأخير لأمريكا وجعلها عامية! إنه ينذر بنهاية الإمبراطورية الأمريكية، وهم يقتلون أنفسهم من الداخل!»، قال.

داعبتهما إفيملو، مصغية إلى ملاحظاتهما وذكرياتهما، وتمنت ألا يذكر أحدهما بْلين، لقد أخبرتهما أن مسألة في العمل قد أخرته.

لم تكن مضطرة للكذب بشأن بْلين على صديقاتها القدامى، لكنها كذبت، وقالت لهم إنها تخوض علاقة جادة وإنه سينضم إليها في ليغوس قريبًا. لقد فاجأها كيف ظهر موضوع الزواج بسرعة، أثناء اجتماعها بصديقاتها، ونبرة استياء في أصوات غير المتزوجات، ونبرة تعالٍ في أصوات المتزوجات. أرادت إفيملو أن تتحدث عن الماضي، وعن المعلمين الذين سخرن منهم والأولاد الذين أحببنهم، لكن الزواج هو الموضوع المفضل دومًا، زوج مَن كان كلبًا، ومن كانت في تطواف يائس تنشر الكثير من الصور المنمقة لنفسها على الفيسبوك، ومن خيّب رجلها أملها بعد أربع سنوات وتركها ليتزوج بفتاة صغيرة يستطيع السيطرة عليها. (حين قالت إفيملو لرانينودو إنها صادفت زميلتهما في الصف، فيفيان، في المصرف، كان سؤال رانينودو الأول «هل هي متزوجة؟») لذلك استخدمت بْلين بوصفه درعًا. ولو عرفن بأمر بْلين، فستقول لها المتزوجات «لا تقلقي، سيأتي رجلك، صلي لذلك فقط»، ولن تعتبرها الصديقات غير المتزوجات عضوًا في حزب الشفقة على الذات للعازبات. وفي هذه اللقاءات شيء من الحنين المقتضب أيضًا، بعضها في شقة رانينودو وبعضها في شقتها، وبعضها في مطاعم، لأنها جاهدت لتعثر في هؤلاء النسوة الراشدات على بعض الآثار من ماضيها التي لم تعد موجودة غالبًا.

لم تعد توتشي مميزة الآن، فقد صارت بدينة جدًا حتى أن أنفها قد تغير، وقد تدلى ذقنها المزدوج تحت وجهها مثل لفافة خبز. جاءت إلى شقة إفيملو حاملة طفلها بيد، وجهازها البلاك بيري في اليد الأخرى، وتمشي خلفها عاملة منزلية، تحمل حقائب قماشية ملأى بالرضاعات وصدريات الأطفال. 'مدام أمريكا' كانت تحية توتشي لها، ثم أخذت تتحدث بقية الزيارة، في نوبة دفاعية، كأنها قد جاءت مصممة على محاربة تأمرك إفيملو.

«أنا أشتري لطفلي الثياب البريطانية فقط، لأن الأمريكية تبهت بعد غسلة

واحدة»، قالت، «أراد زوجي السفر إلى أمريكا لكني رفضت لأن النظام التعليمي سيّئ جدًا. وقد صنفته مؤسسة دولية بأنه الأدنى بين الدول المتقدمة، كما تعرفين».

كانت توتشي بصيرة وحكيمة دومًا، وهي التي تتدخل بمنطق هادئ كلما تجادلت إفيملو ورانينودو في المدرسة الثانوية. في شخصية توتشي المتغيرة، وفي حاجتها لصد الإهانات المتخيلة، رأت إفيملو تعاسة شخصية كبيرة. ولذا هدّأت توتشي، فحطت من شأن أمريكا، وتحدثت فقط عن الأمور التي كرهتها هي أيضًا في أمريكا، مبالغة في لكنتها غير الأمريكية، حتى تصبح المحادثة سخرية منهكة. أخيرًا، تقيأ طفل توتشي سائلًا مائلًا للصفرة، مسحته العاملة المنزلية سريعًا، وقالت توتشي «علينا الذهاب، فالطفل يريد النوم». ارتاحت إفيملو وهي تراها تغادر. لقد تغير الناس، وقد تغيروا كثيرًا في بعض الأحيان.

لم تتغير بري كثيرًا بقدر كونها تصلبت، وقد تغطت شخصيتها بالفولاذ. وصلت إلى شقة رانينودو حاملة كومة من الصحف، ملأى بصور الزفاف الذي نظمته. تخيلت إفيملو كيف يتحدث الناس عن بري، إذ سيقولون إنها تبلي حسنًا، إنها تبلي حسنًا فعلًا.

«لم يتوقف هاتفي عن الرنين منذ الأسبوع الماضي!»، قالت بري بانتصار، دافعة للخلف الخصلة الملساء الحمراء التي سقطت على عينها، وكلما رفعت يدًا لتبعد الخصلة، التي تسقط ثانية على عينها دومًا بما أنها وضعت لذلك السبب، أعجبت إفيملو بالطلاء الوردي الحاد لأظافرها. كان لبري تلك الطريقة الواثقة الخبيثة قليلًا لشخص يستطيع جعل الآخرين يفعلون ما يريد. وكانت تلمع، بأقراطها المصنوعة من الذهب الأصفر، والنقاط المعدنية على حقيبتها الغالية، وأحمر الشفاه باللون البرونزي اللامع.

«لقد كان زفافًا ناجحًا للغاية، لفد حضر سبعة محافظين، سبعة!»، قالت.

«ولم يكن أي منهم يعرف الزوجين»، قالت إفيملو بجفاف.

أومأت بري ، بهزة من كتفيها وحركة براحة يدها للأعلى، لتظهر أن هذا غير ذي بال.

«منذ متى يقاس نجاح الزفاف بعدد المحافظين الذين يحضرونه؟»، سألت إفيملو.

«إنه يظهر علاقاتك. إنه يظهر الجاه. هل تعرفين مدى سطوة المحافظين في هذه البلاد؟ السلطة التنفيذية ليست أمرًا هينًا»، قالت بري.

«عن نفسي، أريد أن يحضر حفل زفافي أكبر قدر ممكن من المحافظين. هكذا تظهر الطبقات، الطبقات الحقيقية». قالت رانينودو، وهي تتفحص الصور، مقلبة صفحات الصحيفة ببطء. «هل سمعت أن موسوبي ستتزوج في غضون أسبوعين يا بري؟»

«نعم، لقد اتصلت بي، لكن ميزانيتهما صغيرة جدًا بالنسبة لي. لم تفهم تلك الفتاة أبدًا القاعدة الأولى للحياة في ليغوس. لا تتزوجي بالرجل الذي تحبين، بل بالرجل الذي يمكنه أن يعيلك أفضل».

«آمين!»، قالت رانينودو ضاحكة، «لكن أحيانًا يمكن لرجل واحد أن يقوم بالأمرين. هذا موسم الزفاف. متى سيحين دوري، يا أبانا الرب؟»، نظرت للأعلى ورفعت يديها كأنها تصلي.

«أخبرت رانينودو أنني سأنظم زفافها دون مقابل»، قالت بري لإفيملو، «وسأنظم زفافك أيضًا يا إفيم».

«شكرًا، لكني أظن بْلين سيفضل زفافًا بلا محافظين»، قالت إفيملو وضحكن جميعًا، «سنقوم على الأرجح بشيء صغير على الشاطئ».

لقد صدقت كذباتها أحيانًا، وأخذت تتخيل الأمر الآن، ورأت بْلين يرتدي الأبيض على الشاطئ في البحر الكاريبي، محاطًا ببضعة أصدقاء، يجرون لصنع مذبح مؤقت من الرمال والزهور، وأخته شان تراقب وتتمنى أن يتعثر أحدهم ويسقط.

الفصل السابع والأربعون

كانت أونيكان هي ليغوس القديمة، قطعة من الماضي، ومعبدًا للعظمة الباهتة لسنوات الاستعمار. تذكرت إفيملو كيف وهنت البيوت هنا، دون أن تطلى أو يعتنى بها، فزحف العفن على الجدران، وصدئت مفصلات البوابات وضمرت. لكن المطورين يفككونها ويرممونها، وفي الطابق الأرضي للمبنى ذي الطوابق الثلاثة المرمم حديثًا، تنفتح أبواب زجاجية ثقيلة على منطقة الاستقبال مطلية باللون البرتقالي، لون الطين النضيج، حيث تجلس موظفة الاستقبال إيستر ذات الوجه البشوش، وخلفها كتبت كلمات ضخمة باللون الفضي: مجلة زوي. كانت إيستر مفعمة بالطموحات الصغيرة، وتخيلتها إفيملو تنقب في الأحذية والثياب المستعملة في الأكشاك الجانبية لسوق تيجوشو، وتعثر على أفضل القطع ثم تساوم البائع بلا تعب. كانت ترتدي ثيابًا مكوية بأناقة وحذاء بكعب عال مخدوش الجلد لكنه ملمع بعناية، وتقرأ كتبًا من مثل **الصلاة طريقك للنجاح**، وتتعالى على السائقين وتتملق المحررين. «أقراطك جميلة، يا سيدتي»، قالت لإفيملو، «إن أردت التخلص منها أعطيني إياها من فضلك لأساعدك في التخلص منها»، وظلت تدعو إفيملو بلا كلل لترتاد كنيستها.

«هل ستأتين هذا الأحد، يا سيدتي؟ قِسُّنا رجل من رجال الرب الأقوياء. وقد ذكر الكثير من الناس شهادات عن معجزات حدثت في حياتهم بفضله».

«لماذا تظنين أني بحاجة للقدوم إلى كنيستك يا إيستر؟»

«ستحبينها، يا سيدتي، إنها كنيسة مفعمة بالإيمان».

في البداية، لم تُشعر كلمة سيدتي إفيملو بالارتياح، فإيستر تكبرها بخمس سنوات على الأقل. لكن الوضع الاجتماعي يتفوق على العمر، إذ كانت محرر المحتوى، وتملك سيارة وسائقًا وتتأرجح روح أمريكا فوق رأسها، حتى أن إيستر توقعت منها لعب دور السيدة. ففعلت، وجاملت إيستر ومزحت مع إيستر، ولكن دائمًا بذلك الأسلوب المداعب والمتعالي في آن معًا. وأعطت أحيانًا أشياء لإيستر من مثل حقيبة يد قديمة أو ساعة يد قديمة، تمامًا مثلما فعلت مع السائق آيو. لقد تذمرت من سرعته، وهددت بفصله لتأخره ثانية، وطلبت منه أن يكرر تعليماتها لتتأكد أنه فهم. ومع ذلك، سمعت دومًا النبرة الحادة لصوتها حين تقول هذه الأشياء، وتعجز عن إقناع حتى نفسها بسيادتها كليًا.

أحبت العمة أونينو القول «إن معظم موظفيّ خريجو جامعات أجنبية؛ في حين أن المرأة في غلاس تعين الرعاع الذين لا يستطيعون ترقيم جملة!». تخيلتها إفيملو تقول هذا في حفل عشاء، «معظم موظفيّ»، جاعلة المجلة تبدو مثل مؤسسة مشغولة كبيرة، رغم أن طاقم التحرير يتكوّن من ثلاثة فقط، والطاقم الإداري من أربعة، وتحمل كلًا من إفيملو ودوريس المحررة فقط شهادات أجنبية. كانت دوريس، النحيلة المصفرة العينين، التي تعلن أنها نباتية كلما استطاعت، وتتحدث بلكنة مراهقي أمريكا ما جعل جملها تبدو مثل الأسئلة، إلا حين تتحدث مع أمها على الهاتف، فتكتسي إنجليزيتها عندئذ بنيجيرية متبلدة رتيبة. كانت خصل شعرها الطويلة مشقرة من الشمس بدرجة النحاس، وترتدي ثيابًا غريبة تظنها أنيقة - جوارب بيضاء وحذاء البروغ، وقميصًا رجاليًا مثبتًا داخل بنطال طوله تحت الركبة بقليل- وغفر لها ذلك الجميع في المكتب لأنها عائدة من الخارج. لم تضع الزينة باستثناء أحمر الشفاه الفاقع، الذي يمنح وجهها هيئة مخيفة، ذلك الخط من القرمزي. وكانت تلك غايتها على الأرجح، لكن بشرتها الباهتة مائلة للرمادي وكانت رغبة إفيملو الأولى، حين التقتا، أن تقترح عليها مرطبًا جيدًا.

«هل ذهبت إلى جامعة ويلسن في فيلي؟ أنا ذهبت لتمبل؟»، قالت دوريس، كأنها تريد التأكيد أنهما عضوان في الجماعة الراقية، «ستتقاسمين هذا المكتب معي

وزيمابي. إنها مساعدة محرر، وهي الآن خارجة في مهمة حتى ما بعد الظهر، أو ربما أكثر؟ إنها تبقى دائمًا بقدر ما تريد».

فهمت إفيملو المكر، ولم يكن ذلك غامضًا، وقد تقصدت دوريس أن تفهم.

«أظن أن بوسعك أن تمضي هذا الأسبوع في التعرف على الأمور؟ وتري ما تفعلين؟ ثم بإمكانك البدء الأسبوع القادم بمهمة ما؟»، قالت دوريس.

«حسن»، قالت إفيملو.

كانت غرفة المكتب نفسها غرفة كبيرة فيها أربع مكاتب، وضع حاسوب على كل واحد منها، وبدت مجردة ولا يجلس إليها أحد، وكأنه اليوم الأول في العمل للجميع. لم تكن إفيملو واثقة مما سيجعله يبدو عكس ذلك، ربما صور عائلية على المكاتب، أو مزيد من الأشياء الأخرى فقط، المزيد من الملفات والأوراق والدباسات، دليل على كونها مستخدمة.

«كان لدي عمل رائع في نيويورك، لكني قررت العودة والاستقرار هنا؟»، قالت دوريس، «مثل ضغط العائلة للاستقرار وما إلى ذلك، كما تعرفين؟ وكأني الابنة الوحيدة؟ حين عدت نظرت إلي واحدة من خالاتي وقالت لي: يمكنني أن أؤمن لك عملًا في مصرف جيد، لكن عليك أن تقصي هذا الشعر العبثي؟». هزت رأسها من جانب لآخر في سخرية وهي تقلد اللكنة النيجيرية، «أقسم بالرب إن هذه المدينة عامرة بالمصارف التي تريد منك أن تكوني جذابة بقدر معقول وبطريقة واضحة وستحصلين على وظيفة في خدمة العملاء؟ على أية حال، لقد قبلت هذا العمل لأني مهتمة بمجال المجلات؟ وهذا مكان جيد للتعرف بالناس، بسبب كل الفعاليات التي علينا حضورها، كما تعلمين؟». بدت دوريس وكأنها تتقاسم مع إفيملو الحبكة ذاتها، والنظرة ذاتها للعالم. وشعرت إفيملو بشيء من البغض لهذا، غطرسة يقين دوريس أنها، أيضًا، ستشعر طبعًا بشعور دوريس نفسه.

قبل استراحة الغداء، دخلت المكتب امرأة ترتدي تنورة ضيقة مثل قلم رصاص وحذاء مفتوحًا عاليًا مثل طَوّالتين، وقد شد شعرها المملس للخلف بأناقة. لم تكن جميلة، وليست ملامح وجهها متناغمة، لكنها قبلت نفسها كما كانت. عاتقة؛ جعلت إفيملو تفكر بهذه الكلمة، بأناقتها الجميلة، بخصرها النحيل والانحناءات

العالية بشكل مفاجئ لتهديها.

«مرحبًا، أنت إفيملو، أليس كذلك؟ أهلًا بك في زوي، أنا زيمابي»، صافحت إفيملو، ووجهها محايد بحذر.

«أهلًا زيمابي، سعيدة بلقائك، اسمك جميل»، قالت إفيملو.

«شكرًا لك»، اعتادت سماع ذلك، «آمل أنك لا تحبين الغرف الباردة».

«الغرف الباردة؟»

«أجل، تحب دوريس أن ترفع درجة تكييف الهواء، وعلي ارتداء كنزة في المكتب، لكن بما أنك ستشاركيننا المكتب، ربما علينا أن نصوت»، قالت زيمابي، جالسة إلى مكتبها.

«ما الذي تتحدثين عنه؟ متى اضطررت لارتداء كنزة في المكتب؟»، قالت دوريس.

رفعت زيمابي حاجبيها، وجذبت شالًا سميكًا من درجها.

«إن الرطوبة مجنونة جدًا»، قالت دوريس، ملتفتة نحو إفيملو متوقعة الموافقة، «شعرت كأنني لا أستطيع التنفس حين عدت؟»

التفتت زيمابي أيضًا نحو إفيملو، «أنا فتاة من الدلتا، مصنوعة هنا، ولادة وإنتاجًا، لذا لم أكبر على مكيفات الهواء ويمكنني أن أتنفس دون تبريد الغرفة»، تحدثت بصوت هادئ وكل ما قالته خرج متساويًا بلا ارتفاع أو انخفاض.

«حسن لا أعرف عن البرد؟»، قالت دوريس، «معظم المكاتب في ليغوس فيها مكيفات هواء».

«دون أن تكون على أخفض درجة»، قالت زيمابي.

«لم تقولي شيئًا حيال ذلك أبدًا».

«أقول لك ذلك طوال الوقت يا دوريس».

«أقصد هل يمنعك فعليًا من العمل؟»

«إنها باردة، نقطة انتهى»، قالت زيمابي.

كانت كراهيتهما المتبادلة نمر هادئ يطوف في الغرفة.

«لا أحب البرد»، قالت إفيملو، «أظنني سأتجمد إن كان المكيف على أخفض درجة».

رمشت دوريس. لم تبد شاعرة بالخيانة فحسب بل متفاجئة بأنها تعرضت للغدر،»حسن، لا بأس، يمكننا أن نغلقه خلال النهار؟ أجد صعوبة في التنفس بلا مكيف الهواء والنوافذ صغيرة لعينة؟»

«لا بأس»، قالت إفيملو.

لم تقل زيمابي شيئًا، والتفتت نحو حاسوبها، وكأنها لا تبالي بهذا النصر الصغير، وخاب أمل إفيملو للغاية. فقد انتحت جانبًا، في النهاية، مسانِدة زيمابي بجرأة، ومع ذلك ظلت زيمابي محايدة ويصعب فهمها. وتساءلت إفيملو عن قصتها، لقد أثارت زيمابي فضولها.

لاحقًا، كانت دوريس وزيمابي تنظران إلى الصور المبسوطة على طاولة دوريس، لامرأة بدينة ترتدي ثيابًا ضيقة مجعدة، حين قالت زيمابي «اعذريني، أنا مستعجلة»، وهرعت إلى الباب وحرضت حركتها الناعمة في إفيملو الرغبة بخسارة الوزن، فتبعتها عينا دوريس ايضًا.

«ألا تكرهين قول الناس أنا مستعجل، أو أريد أن أريح نفسي؟ حين يريدون الذهاب إلى الحمام؟» سألت دوريس.

ضحكت إفيملو وقالت، «أعرف!»

«أظن أن كلمة حمام أمريكية للغاية، لكن يمكنهم قول: المرحاض، دورة المياه، غرفة السيدات».

«لم أحب كلمة غرفة السيدات، أفضل المرحاض».

«أنا أيضًا»، قالت دوريس، «وألا تكرهين أيضًا حين يستخدم الناس هنا 'على' بوصفها فعلًا، فيقولون على المصباح!»

«أتعرفين ما الذي لا أطيقه؟ حين يقول الناس أخذ بدل شرب، سآخذ النبيذ، أنا لا آخذ الجعة».

«أوه يا إلهي! أعرف».

كانتا تضحكان حين عادت زيمابي، ونظرت إلى إفيملو بنظرتها المحايدة الغريبة، وقالت «لا بد أنكما تناقشان اجتماع الخبراء القادم».

«وما هذا؟»، سألت إفيملو.

«تتحدث دوريس عنهم طوال الوقت، لكنها لا تستطيع دعوتي لأنه فقط من أجل الناس الذين عادوا من الخارج»، لو كان في نبرة زيمابي سخرية، ولا بد لذلك، فقد أبقتها خفية في خطابها البليد.

«أوه من فضلك، كلمة خبراء قديمة للغاية؟ نحن لسنا في عام 1960»، قالت دوريس، ثم قالت لإفيملو «كنت سأخبرك حقًا عنه، يدعى نادي نيجربوليتان وهو ليس إلا مجموعة من الناس الذين عادوا مؤخرًا، بعضهم من إنجلترا، لكن معظمهم من الولايات المتحدة؟ اجتماعات هادئة حقًا، مثل تشاطر الخبرات وشبكات العمل؟ أراهن أنك ستعرفين بعض الأشخاص، عليك حقًا أن تأتي».

«أجل، أحب ذلك».

نهضت دوريس وأخذت حقيبتها، «علي الذهاب إلى منزل العمة أونينو».

وبعد أن غادرت كانت الغرفة هادئة، فزيمابي تطبع على حاسوبها، وإفيملو تتصفح الإنترنت، وتتساءل بم تفكر زيمابي.

أخيرًا قالت زيمابي، «إذًا كنت مدونة عن الأصول العرقية في أمريكا، أخبرتنا العمة أونينو، ولم أفهم».

«ماذا تعنين؟»

«لم الأصول العرقية؟»

«اكتشفت الأصل العرقي في أمريكا، وأسرني».

«هممم» غمغمت زيمابي، وكأنها فكرت بأن اكتشاف العرق هذا ظاهرة غريبة واستغراقٌ في الذات. « قالت العمة أونينو إن صديقك أمريكي أسود وسيأتي قريبًا؟».

فوجئت إفيملو، فقد سألت العمة أونينو عن حياتها الشخصية، بتلقائية فيها إلحاح أيضًا، فأخبرتها بالقصة الملفقة عن بلين، ظانة أن مديرتها لا شأن لها بحياتها الخاصة على أية حال، لكن يبدو أنها شاركت حياتها الخاصة مع الموظفين الآخرين. ربما كانت أمريكية للغاية بشأن ذلك، وهي تركز على خصوصيتها، وما الذي يهم حقًا إن عرفت زيمابي بأمر بلين؟

«أجل، يجب أن يكون هنا الشهر القادم»، قالت.

«لماذا يكون السود فقط هم المجرمون هناك؟»

فتحت إفيملو فمها وأغلقته، ها هي مدونة الأصول العرقية الشهيرة تبحث عن الكلمات.

«أحب رجال الشرطة، بفضل المسلسل الذي أشاهده على دي إس تي في»، قالت زيمابي «وكل المجرمين سود».

«إن هذا مثل القول إن كل نيجيري محتال»، قالت إفيملو أخيرًا، وبدا غبيًا للغاية، وقاصرًا للغاية.

«لكن هذا حقيقي، في دماء كل منا محتال صغير!»، ابتسمت زيمابي بما بدا، للمرة الأولى، متعة حقيقية في عينيها. ثم أضافت، «آسفة، لم أقصد أن صديقك مجرم، كنت أسأل فحسب».

الفصل الثامن والأربعون

طلبت إفيملو من رانينودو أن تأتي معها إلى لقاء نيجربوليتان.

«ليس لدي طاقة لاحتمالكم أيها العائدون، أرجوك»، قالت رانينودو، «إلى جانب أن ندودي قد عاد أخيرًا من سفره وسنخرج».

«حظًا طيبًا إن كنت تفضلين رجلك على صديقتك أيتها الساحرة».

«أجل. هل أنت الشخص الذي سيتزوجني؟ لقد أخبرت دون أثناء ذلك أنني سأخرج معك، لذا احرصي على ألا تذهبي إلى أي مكان قد يذهب إليه»، ضحكت رانينودو. ما زالت ترى دون، منتظرة التأكد أن ندودي جاد قبل أن تتوقف، وتمنت أيضًا أن يشتري لها دون السيارة الجديدة قبل ذلك.

كان اجتماع نادي نيجربوليتان حشدًا صغيرًا من الناس يشربون الشمبانيا في أكواب ورقية، قرب حمام السباحة في منزل في أوزبورن إيستيت، وأشخاصًا أنيقين، كلهم يقطرون لباقة اجتماعية، وكل واحد يتظاهر بصفة ذاتية الأسلوب؛ لبدة بلون الزنجبيل، وقميص بأكمام قصيرة عليه رسم لتوماس سانكارا، وأقراط بالغة الكبر مصنوعة يدويًا تتدلى مثل قطع من الفن الحديث. ومضت أصواتهم باللكنات الأجنبية، **لا يمكنك العثور على عصير كثيف «سموذي» لائق في هذه المدينة! أوه يا إلهي، هل حضرت المؤتمر؟ ما تحتاجه هذه البلاد هو مجتمع مدني ناشط.** عرفت إفيملو بعضهم، ودردشت مع بيسولا وياغازي، ولكلتيهما شعر طبيعي، مسرّح بلفة،

وهالة من الحلزونية تؤطر وجهيهما. تحدثن عن مصففي الشعر هنا، وكأنهم طفح جلدي غريب، وكأن شعورهن لم تكن بالهيئة نفسها قبل أن تهزمها المواد الكيميائية.

«تقول فتيات الصالون دومًا عمتي، ألا تريدين تمليس شعرك؟ من السخافة ألا يقدر الأفارقة شعرنا الطبيعي في إفريقيا»، قالت ياغازي.

«أعلم»، قالت إفيملو، وأحست بالاستقامة في صوتها، وفي كل أصواتهن. كانوا مقدسين، أولئك العائدون للديار بطبقة إضافية لامعة. انضمت إليهم إكينا، المحامية التي عاشت في ضواحي فيلادلفيا والتقتها بمؤتمر التدوين للسمر. وانضم إليهم فريد أيضًا، الذي قدم نفسه لإفيملو في وقت أسبق، رجل مكتنز حسن الهندام «عشت في بوسطن حتى السنة الماضية» قال بتواضع مزيف، لأن بوسطن كانت شفرة لهارفارد (وإلا قال معهد ماساشوستس للتقنية أو جامعة تفتس أو أي مكان آخر)، كما قالت امرأة أخرى «كنت في نيوهفن»، بتلك الطريقة المغناج التي تظاهرت بأنها ليست مغناجًا، ما يعني أنها كانت في ييل. انضم إليهم أشخاص آخرون وكلهم مطوقون بالألفة لأن بوسعهم فهم الإشارات نفسها بسهولة. وسرعان ما أخذوا يضحكون جميعًا ويصغون إلى الأشياء التي افتقدوها في أمريكا.

«حليب الصويا قليل الدسم، والإذاعة الوطنية العامة، والإنترنت السريع»، قالت إفيملو.

«خدمة العملاء الجيدة، وخدمة العملاء الجيدة، وخدمة العملاء الجيدة» قالت بيسولا، «يتصرف الناس هنا كأنهم يُسدونك معروفًا بخدمتهم لك. الأماكن الراقية جيدة لكنها ليست رائعة، ولكن المطاعم العادية؟ انس أمرها. ذلك اليوم سألت النادل إن كان يمكنني الحصول على بطاطا حلوة مسلوقة بصلصة مختلفة عما كان في لائحة الطعام واكتفى بالنظر إلي وقال لا. مضحك».

«لكن خدمة العملاء الأمريكية قد تكون مزعجة جدًا، فقد يتجوّل نادل في الأنحاء ويضايقك طوال الوقت أما زلت تعملين على هذا؟ منذ متى صار الأكل عملًا؟»، قالت ياغازي.

«أفتقد المطعم النباتي اللائق؟»، قالت دوريس وتحدثت عن العاملة المنزلية الجديدة التي لا تستطيع صنع شطيرة بسيطة، وأنها طلبت لفائف سبرنغ رول نباتية

في مطعم في فكتوريا آيلاند، وقضمت قليلًا لتتذوق دجاجًا وابتسم النادل، وحين استُدعي قال «ربما أضافوا الدجاج اليوم». ساد الضحك. وقال فريد إن مطعمًا نباتيًا جيدًا سيفتتح قريبًا، فقد ظهرت في البلاد استثمارات جديدة، وقد اكتشف أحدهم أن بمقدوره استثمار الرواج النباتي.

«مطعم نباتي؟ مستحيل. في هذه البلاد أربعة نباتيين فقط بمن فيهم دوريس»، قالت بيسولا.

«أنت لست نباتية، أليس كذلك؟»، سأل فريد إفيملو، وقد أراد التحدث إليها فقط، وكلما رفعت نظرها بين الفينة والأخرى وجدته ينظر إليها.

«لا»، قالت.

«أوه، ثمة مطعم جديد افتتح في أكين أديسولا»، قالت بيسولا، «الإفطار المتأخر لذيذ حقًا، لديهم كل الأشياء التي يمكننا أكلها، علينا الذهاب يوم الأحد القادم».

لديهم كل الأشياء التي يمكننا أكلها! تسلّل شعور انزعاج إلى إفيملو، فقد شعرت بالراحة هنا، وتمنت لو لم تكن. وتمنت أيضًا لو أنها لم تكن مهتمة بهذا المطعم الجديد، ولم تبتهج وهي تتخيل السلطات الخضراء الطازجة والخضار المطهوة على البخار المحتفظة بقوامها. أحبت أكل كل الأشياء التي افتقدتها حين كانت بعيدة، من قبيل أرز الجولوف المطهو بالكثير من الزيت، وموز الجنة المقلي، والبطاطا الحلوة المسلوقة لكنها تاقت أيضًا إلى الأشياء الأخرى التي اعتادتها في أمريكا، حتى الكينوا المعدة مع جبنة الفيتا والطماطم، تخصص بلين. هذا ما تمنت ألا تصبحه، لكنها خشيت أنها صارت شخصًا يقول «لديهم كل ما يمكننا أكله».

تحدث فريد عن نوليوود، وتحدث بصوت عال جدًا، «نوليوود مسرح شعبي حقًا وإن نظرت إليها هكذا، فستكون مقبولة أكثر. إنها للاستهلاك الشعبي ومشاركة الجماهير، وليست تجربة فردية يكون عليها الفيلم عادة». نظر إليها متوسلًا موافقتها بعينيه، فلا يفترض بهم، بالأشخاص أمثالهم مشاهدة نوليوود، وإن فعلوا، فذلك بوصفها أنثروبولوجيا مسلية فحسب.

«أحب نوليوود» قالت إفيملو، رغم أنها أيضًا ترى نوليوود مسرحًا شعبيًا أكثر من كونها سينما. كانت رغبتها في الاعتراض قوية، ولو أنها فصلت نفسها فلربما

صارت أقل من الشخص الذي خشيت أن تكونه «ربما تكون نوليوود ميلودرامية، لكن الحياة في نيجيريا ميلودرامية أيضًا».

«حقًا؟»، قالت امرأة نيوهفن، وهي تضغط كوبها الورقي بيديها، وكأنها وجدت الأمر غريبًا جدًا أن شخصًا في هذا الاجتماع قد تعجبه نوليوود، «إنها تستهين جدًا بذكائي، أعني أن الإنتاج سيّئ، ما الذي تقوله عنا؟»

«لكن هوليوود تصنع أفلامًا بالقدر نفسه من السوء، لكنهم يصنعونها بإضاءة أفضل فحسب»، قالت إفيملو.

ضحك فريد من قلبه، ليجعلها تعرف أنه إلى جانبها.

«الأمر لا يتعلق بالأمور التقنية»، قالت امرأة نيوهفن، «الصناعة متخلفة، والأفلام أكثر كرهًا للنساء من المجتمع».

رأت إفيملو رجلًا على الطرف الآخر من حمام السباحة ذكرته كتفاه العريضتان بأوبِنز. وتساءلت ما الذي سيفعله أوبِنز في اجتماع كهذا. وهل سيأتي أصلًا؟ لقد رُحّل من إنجلترا، على أية حال، ولذا لن يعتبر نفسه عائدًا مثلها.

«هي، عودي»، قال فريد، مقتربًا منها أكثر، تاركًا مساحة شخصية، «عقلك ليس هنا».

ابتسمت بشحوب «إنه كذلك الآن».

عرف فريد أمورًا، ولديه ثقة الشخص الذي يعرف أمورًا عملية، ولا بد أنه يحمل شهادة ماجستير في إدارة الأعمال، ويستخدم كلمات من مثل قدرة وقيمة في حديثه. ولن يحلم بأمور خيالية، بل بالحقائق والأرقام.

«تقام حفلة موسيقية غدًا في ميوسون، هل تحبين الموسيقى الكلاسيكية؟»، سأل.

«لا»، ولم تتوقع أنه يحبها أيضًا.

«هل أنت راغبة بحب الموسيقى الكلاسيكية؟»

«الرغبة بحب شيء ما، تبدو فكرة غريبة»، قالت وانتابها الفضول بشأنه، واهتمت به اهتمامًا غامضًا. تحدثا وذكر فريد سترافنسكي وشتراوس وفيرمير وفان

دايك[75]، ذاكرًا مرجعيات لا ضرورة لها، مقتبسًا كثيرًا. لقد ناغم روحه عبر الأطلسي، وهو شفاف جدًا في أدائه، متلهف جدًا لإظهار حجم معرفته بالعالم الغربي. أصغت إفيملو بتثاؤب داخلي عريض، لقد أخطأت بشأنه، إذ لم يكن من نمط حملة ماجستير إدارة الاعمال الذين يظنون العالم هو التجارة. بل كان مدير فرقة ثريًا مدرّبًا جيدًا، شخصًا يتقن اللكنة الأمريكية واللكنة البريطانية، ويعرف ما يقوله للأجانب، وكيف يشعر الأجانب بالارتياح، ويمكنه الحصول بسهولة على منح أجنبية لمشاريع وهمية. وتساءلت عن حقيقته تحت الطبقة الخبيرة.

«هل تقبلين دعوتي على شراب؟»، سأل.

«أنا منهكة»، قالت، «سأذهب إلى البيت، لكن اتصل بي».

75) إيغور سترافنسكي: (1882-1971) مؤلف موسيقي ألف باليه قدسية الربيع وطائر النار. يوهان شتراوس: (1825-1899) موسيقي نمساوي ألف الدانوب الأزرق. وفيرمير: (1362-1675) رسام هولندي. وفان دايك: (1641-1599) رسام فلمنكي.

الفصل التاسع والأربعون

انزلق الزورق البخاري على الماء المزيد، متجاوزًا رقعًا من الرمل العاجي وأشجارًا كثيفة متفجرة الخضرة. وضحكت إفيملو، وانتبهت لنفسها في وسط ضحكة، ونظرت إلى حاضرها، وسترة النجاة البرتقالية ملفوفة حولها، وسفينة في المدى الرمادي، وأصدقاؤها بنظاراتهم الشمسية في طريقهم إلى منزل صديقة بري على الشاطئ، حيث سيشوون اللحم ويتسابقون حفاة الأقدام. قالت في نفسها أنا في الوطن حقًا، أنا في الوطن. لم تعد ترسل رسائل نصية لرانينودو تسألها ماذا تفعل، هل علي شراء اللحم من شوبرايت أو إرسال أيوبو لشرائه من السوق؟ من أين أشتري علاقات الثياب؟ وها هي تستيقظ على صوت الطواويس، وتنهض من فراشها، وهي تعرف شكل نهارها وروتينها بلا تفكير. لقد اشتركت في نادٍ رياضي، لكنها ذهبت مرتين فقط، لأنها تفضل لقاء الأصدقاء بعد العمل، ورغم أنها خططت كثيرًا ألا تأكل، فإن الأمر ينتهي بها بتناول شطيرة كلوب وشرب زجاجة أو اثنتين من التشابمان، ثم تقرر تأجيل الذهاب للنادي. بدت ثيابها أكثر ضيقًا. في مكان ما في جزء بعيد من ذهنها، أرادت أن تخسر وزنًا قبل أن ترى أوبنز، ولم تتصل به، وستنتظر حتى تستعيد رشاقتها.

في العمل، شعرت بقلق ينتهكها. لقد خنقتها زوي، وبدا الأمر مثل ارتداء كنزة مشوكة في البرد تتوق لخلعها، لكنها تخشى مما قد يحدث إن فعلت. فكرت كثيرًا بافتتاح مدونة، والكتابة عما تهتم به، وأن تنشئها ببطء، ثم تنشر مجلتها الخاصة.

ولكن ذلك غائم، وفيه مجاهيل كثيرة. لقد أشعرها عملها في هذه الوظيفة بالرسوخ، وقد عادت الآن للوطن. استمتعت في بادئ الأمر بتحرير المحتوى، وهي تقابل نساء المجتمع في منازلهن. لكن سرعان ما أصابها الضجر، فتجلس في وسط المقابلة نصف مصغية ونصف حاضرة. وكلما دخلت منازلهن المبلطة، اشتاقت للرمل الذي تثني أصابع قدميها فيه. كان يُدخلها خادم أو طفل، ويُجلسها في غرفة المعيشة المؤثثة بالجلد والرخام، الذي يذكرها بالمطارات النظيفة في الدول الغنية. ثم تظهر السيدة، دافئة وحسنة المزاج، عارضة عليها شرابًا، وطعامًا أحيانًا، قبل الجلوس على الأريكة والتحدث. كلهن، كل السيدات اللاتي قابلتهن، تباهين بما يمتلكن وأين ذهبن هن أو أولادهن، وماذا فعلن، ثم يغطين تباهيهن بالرب. نشكر الرب، الرب من فعل هذا، الرب مخلص. قالت إفيملو في نفسها وهي تغادر إن باستطاعتها كتابة المحتوى دون إجراء المقابلات.

كان باستطاعتها أيضًا تغطية الفعاليات دون حضورها. يا لشيوع هذه الكلمة في ليغوس ويا لرواج كلمة «فعالية»؛ التي قد تكون إطلاق منتج، أو عرض أزياء، أو إطلاق ألبوم غنائي. أصرت العمة أونينو دومًا على ذهاب محرر مع المصور، «احرصي على أن تختلطي من فضلك»، قالت العمة أونينو، «إن لم يكونوا معلنين لدينا، فنريدهم أن يبدؤوا، وإن بدؤوا نريد منهم أن يزيدوا!» قالت العمة أونينو لإفيملو كلمة تختلطي بتشديد كبير، وكأن هذا أمر ظنت أن إفيملو لا تجيده. ولعل العمة أونينو محقة. في هذه الفعاليات، قاعات متوهجة بالبالونات، ولفافات من الأقمشة الحريرية المرمية في الزوايا، وكراسي مغطاة بالشاش، وكثير من المرشدات اللاتي يتجولن في الأرجاء، وجوههن لامعة من الزينة المبهرجة. كرهت إفيملو الحديث مع الغرباء عن زوي، فتقضي وقتها في إرسال الرسائل النصية لرانينودو أو بري أو زيمايي، ضجرة، بانتظار أن يحين الوقت الذي لا يكون فيه الرحيل قِلّة تهذيب. قُرئ دومًا خطابان إصلاحيان أو ثلاثة، وبدت كلها مكتوبة من الشخص المضجر المنافق نفسه. كان الأثرياء والمشهورون يشكرون، «نرغب في حضورنا أن نشكر المحافظ السابق على...» وتُزال سُدادات الزجاجات، وصناديق العصير تُفتح، وتُقدّم السمبوسة وساتايا الدجاج. مرة في فعالية حضرتها مع زيمايي لإطلاق شراب جديد، ظنت أنها

رأت أوبِنز يمر بها، فالتفتت. لم يكن هو، ولكن من الممكن أن يكون. تخيلته يحضر فعاليات كهذه، وزوجته إلى جانبه. أخبرتها رانينودو أن زوجته انتخبت أجمل فتاة في جامعة ليغوس حين كانت طالبة، وفي خيال إفيملو بدت مثل بيانكا أونوه، أيقونة الجمال في سنوات مراهقتها، ذات الوجنتين العاليتين والعينين اللوزيتين. وحين ذكرت رانينودو اسم زوجته، كوسيساوتشوكو، هذا الاسم الغريب، تخيلت إفيملو أُمّ أوبِنز تطلب منها ترجمته. وبدا التفكير بأم أوبِنز وزوجته يقرران أي ترجمة أفضل؛ إرادة الرب، أم بما أنها تسعد الرب- مثل خيانة. فقد بدت ذكرى أُمّ أوبِنز وهي تقول «ترجميه» قبل كل هذه السنوات نفيسة أكثر الآن بعد وفاتها.

غادرت إفيملو الفعالية حين رأت دون الذي قال «إفيملو». واستغرق منها الأمر دقيقة لتميزه. عرّفت رانينودو أحدهما على الآخر في عصر يوم ما، قبل أشهر، حين مر دون بشقة رانينودو في طريقه إلى النادي، مرتديًا ثياب التنس البيضاء، وغادرت إفيملو مباشرة، لتمنحهما الخصوصية. وبدا أكثر أناقة في بدلته الكحلية، وقد تلاشى شعره المتناثر الرمادي.

«مساء الخير»، قالت.

«تبدين رائعة، رائعة جدًا»، قال، ملقيًا نظرة على ثوبها ذي التقويرة الكبيرة.

«شكرًا لك».

«لا تسألين عني»، وكأن هناك سببًا يدعوها للسؤال عنه. أعطاها بطاقته، «اتصلي بي، احرصي على الاتصال بي، ها، دعينا نتحدث، اعتني بنفسك».

لم يكن مهتمًا بها، ليس بالتحديد، فهو رجل مهم في ليغوس ببساطة، وهي جذابة ووحيدة، وفي قوانين عالم هؤلاء فإن عليه أن يحاول، حتى لو كانت محاولة فاترة، وحتى لو أنه يواعد صديقتها، وقد توقع طبعًا أنها لن تخبر صديقتها. دست بطاقته في حقيبتها، وحين عادت للبيت مزقتها إلى قطع صغيرة ورأتها تطفو في ماء المرحاض لوهلة قبل أن تدفق الماء. لقد غضبت منه غضبًا غريبًا، فقد أوحى تصرفه بشيء لم يعجبها عن صداقتها مع رانينودو. اتصلت برانينودو وأوشكت أن تخبرها بما حدث، حين قالت لها رانينودو «إفيم أنا محبطة جدًا». ولذا استمعت إفيملو فحسب. كان الأمر يتعلق بندودي، «إنه مجرد طفل»، قالت رانينودو، «إن قلت شيئًا

لا يعجبه، سيكف عن الحديث ويبدأ بالهمهمة. همهمة بجد، همهمة عالية. كيف يمكن لرجل راشد أن يتصرف بهذا الطفولية؟»

—

كان صباح الاثنين، وإفيملو تقرأ بوستبورجي، مدونتها الأمريكية المفضلة، وزيمابي تنظر إلى حزمة من الصور اللامعة، ودرويس تحدق بشاشة حاسوبها، وتحمل بين يديها كوبًا عليه عبارة أحب فلوريدا. وعلى مكتبها، قرب حاسوبها، كانت علبة صفيح من ورق الشاي.

«إفيملو، أظن هذه الشخصية وقحة جدًا؟»

«لا غنى عن رأيك التحريري»، قالت إفيملو.

«ما المقصود بوقح، من فضلك اشرحي لبعضنا الذين لم يذهبوا لجامعة في أمريكا؟»، قالت زيمابي.

وتجاهلتها دوريس تمامًا.

«لا أظن أن العمة أونينو تريدنا أن ننشر هذا؟»

«أقنعيها، أنت المحررة»، قالت إفيملو، «علينا أن نجعل هذه المجلة تنجح».

رفعت دوريس كتفيها ونهضت، «سنتحدث عن الأمر في الاجتماع؟»

«أشعر بالنعاس كثيرًا»، قالت زيمابي، «سأرسل إيستر لصنع النسكافيه قبل أن أغط في النوم في الاجتماع».

«القهوة سريعة التحضير مريعة»، قالت دوريس «أنا سعيدة أنني لست مدمنة قهوة وإلا كنت سأموت».

«ما العيب في النسكافيه؟»، قالت زيمابي.

«يجب ألا تسمى قهوة؟»، قالت دوريس، «إنها أكثر من سيئة».

تثاءبت زيمابي وتمططت، «عن نفسي، أحبها، فالقهوة هي القهوة».

لاحقًا حين دخلن مكتب العمة أونينو، تتقدمهن دوريس، مرتدية ثوبًا أزرق واسعًا بلا أكمام وحذاء مربع الكعب من طراز ماري جين، فسألت زيمابي إفيملو «لماذا ترتدي دوريس هذا الهراء للعمل؟ تبدو مثل من يطلق دعابة بثيابها».

جلسن حول طاولة الاجتماعات البيضوية في مكتب العمة أونينو الكبير.

كانت وصلات شعر العمة أونينو أطول وأكثر تنافرًا من السابقة، عالية ومسرحة من الأمام، وموجات من الشعر تنحدر على ظهرها. رشفت من زجاجة السبرايت المخصص للحمية وقالت إنها أحبت مقال دوريس»الزواج بأفضل أصدقائك».

«جيدة جدًا وملهمة»، قالت.

«آه، عمة أونينو، لا يتعين على النساء الزواج بأفضل أصدقائهن فليس ثمة كيمياء جنسية»، قالت زيمابي.

نظرت العمة أونينو إلى زيمابي نظرة تمنح لطالب مجنون لا يمكن لأحد أخذه جديًا، ثم قلبت أوراقها وقالت إنها لم تحب تعريف إفيملو بالسيدة فونمي كنغ.

«لماذا ذكرت أنها لا تنظر إلى خادمها أبدًا حين تتحدث إليه؟»، سألت العمة أونينو.

«لأنها لا تفعل»، قالت إفيملو.

«لكن هذا يجعلها تبدو شريرة»، قالت العمة أونينو.

«أظنه تفصيلًا مثيرًا»، قالت إفيملو.

«أتفق مع العمة أونينو»، قالت دوريس «مثير أم لا، إن فيه حُكمًا؟»

«إن فكرة مقابلة شخص ما وكتابة تعريف عنه ينطوي على إطلاق أحكام عليه أيضًا»، قالت إفيملو، «الأمر لا يتعلق بالموضوع بل يتعلق بما يستنتجه المحاور عن الموضوع».

هزت العمة أونينو رأسها، وهزت دوريس رأسها.

«لماذا علينا أن نلعب بأمان؟»، سألت إفيملو.

قالت دوريس بدعابة مصطنعة «هذه ليست مدونتك العرقية الأمريكية حيث تحرضين الجميع يا إفيملو، هذه مثل مجلة لجميع النساء؟»

«نعم، إنها كذلك!»

«لكن يا عمتي أونينو لن نهزم غلاس أبدًا إن ظللنا هكذا»، قالت إفيملو.

اتسعت عينا العمة أونينو.

«غلاس تفعل تمامًا ما نفعله نحن»، قالت دوريس بسرعة.

جاءت إيستر لتخبر العمة أونينو أن ابنتها وصلت.

كان كعبا إيستر العاليان الأسودان مهتزّين، وحين مرت، خشيت إفيملو أن ينهار الحذاء ويلوي كاحل إيستر. في وقت أسبق صباحًا أخبرت إيستر إفيملو «عمتي، شعرك يبدو مشعثًا»، بصراحة حزينة لما ظنته إفيملو تسريحة جذابة وغريبة.

«إه، هل وصلت؟» قالت العمة أونينو، «لننهِ الاجتماع يا فتيات من فضلكن، سآخذ ابنتي لشراء فستان ولدي اجتماع بعد الظهر مع الموزعين».

كانت إفيملو سئمة وتعبة، وفكرت ثانية بإنشاء مدونة. كان هاتفها يهتز ورانينودو تتصل، وفي العادة تنتظر حتى انتهاء الاجتماع لمعاودة الاتصال بها، لكنها قالت «عذرًا، علي الرد على المكالمة إنها دولية». وهرعت للخروج. اشتكت رانينودو من دون «قال إنني لم أعد الفتاة العذبة التي كنتها، وأنني تغيرت. في هذه الأثناء أعلم أنه اشترى لي الجيب وقد خرّجه من الميناء، لكنه لا يريد أن يعطيها لي».

فكرت إفيملو بالتعبير «فتاة عذبة»، الذي يعني أن دون صهَرَ رانينودو في شكل مطواع لوقت طويل، أو أنها هي التي سمحت له بالتفكير كذلك.

«ماذا عن ندودي؟»

تنهدت رانينودو بصوت عال «لم نتحدث منذ الأحد، سينسى اليوم الاتصال بي، وغدًا سيكون مشغولًا جدًا، ولذا قلت له إنه غير مقبول، لماذا أقوم أنا بكل المبادرات؟ وها هو قد حرد، لا يمكنه أبدًا أن يبدأ حوارًا مثل شخص راشد، أو يعترف أنه ارتكب خطأً».

لاحقًا، حين عادت إفيملو إلى المكتب، دخلت إيستر لتقول إن السيد تولو يود رؤية زيمايي.

«هل هذا هو المصور الذي أنجزت معه مقال الخياطين؟»، سألت دوريس.

«نعم، إنه متأخر. إنه يتفادى اتصالاتي منذ أيام»، قالت زيمايي.

قالت دوريس «عليك تولي ذلك واحرصي على أن تصلني الصور بعد ظهر غد؟ أحتاج إرسال كل شيء للطباعة قبل الثالثة؟ لا أريد تكرارًا لتأخير الطباعة خاصة أن غلاس الآن يطبعون في جنوب إفريقيا؟»

«حسن» رجت زيمايي فأرة الحاسوب «الجهاز بطيء جدًا اليوم، أحتاج أن أرسل هذه فقط، قولي له أن ينتظر يا إيستر».

«نعم سيدتي».

«هل تشعرين بتحسن يا إيستر؟»، سألت دوريس.

«نعم يا سيدتي، شكرًا لك سيدتي»، ردت إيستر بلباقة، وبأسلوب يوروبا. ووقفت قرب الباب كأنها تنتظر أن يسمح لها بالانصراف، مصغية إلى الحوار «آخذ دواء للتيفويد».

«هل أنت مصابة بالتيفويد؟»، سألت إفيملو.

«ألم تلاحظي كيف بدت يوم الاثنين؟ أعطيتها بعض المال وأخبرتها أن تذهب للمستشفى، وليس إلى الصيدلي؟»، قالت دوريس.

تمنت إفيملو لو أنها انتبهت لمرض إيستر.

«آسفة يا إيستر»، قالت إفيملو.

«شكرًا يا سيدتي».

«آسفة يا إيستر»، قالت زيمايي، «رأيت وجهها الشاحب لكني ظننتها صائمة فقط، تعلمين أنها تصوم دومًا. ستصوم وتصوم إلى أن يمنحها الرب زوجًا».

قهقهت إيستر.

«أذكر أنني أصبت بحالة سيئة من التيفويد حين كنت في المدرسة الثانوية»، قالت إفيملو، «لقد كانت فظيعة، وتبين أنني آخذ مضادًا حيويًا ليس قويًا بما يكفي، ما الذي تتناولينه يا إيستر؟»

«دواء يا سيدتي».

«ما نوع المضاد الذي أعطوه لك؟»

«لا أعلم».

«ألا تعرفين الاسم؟»

«دعيني أحضره يا سيدتي».

عادت إيستر تحمل علبًا شفافة من الأقراص، كتبت عليها التعليمات، لا الاسم، بخط يد رديء بحبر أزرق. يؤخذ قرصان صباحًا ومساء، يؤخذ قرص واحد ثلاث مرات يوميًا.

«علينا أن نكتب عن هذا يا دوريس، لا بد أن يكون لنا زاوية صحية بمعلومات

عملية مفيدة. لا بد أن يُعلم أحد وزيرَ الصحة أن النيجيريين العاديين يذهبون للطبيب فيعطيهم الطبيب أدوية بلا أسماء. يمكن لهذا أن يقتلك، كيف يمكن لأحد أن يعرف ماذا أخذت قبلًا، أو ما لا يتعين عليك أخذه إن كنت تتناولين دواء آخر؟»

«آه، لكن هذه مشكلة صغيرة، يفعلون ذلك لئلا تشتري الدواء من أحد آخر»، قالت زيمايي، «ولكن ماذا عن الأدوية المقلدة؟ اذهبي إلى السوق وانظري ماذا يبيعون؟»

«حسن، دعونا نهدأ؟ لا داعي لنكون كلنا ناشطات؟ نحن لا نقوم بالتحقيقات الصحفية هنا؟»، قالت دوريس.

أخذت إفيملو عندها تتصور مدونتها الجديدة، بتصميم باللونين الأزرق والأبيض، وعلى أعلى الصفحة عند العنوان صورة خيالية لمشهد من ليغوس. لا شيء مألوف، لا ازدحام مروري من الحافلات الصفراء الصدئة، أو حي فقير فائض المياه من أكواخ الزنك. ربما يكون المنزل المهجور بجوار شقتها مناسبًا. ستلتقط الصورة بنفسها، في الضوء القلق لبداية المساء، وتأمل أن تجد ذكر الطاووس في طيرانه. ستكون منشورات المدونة بخط مقروء واضح. مقال عن الرعاية الصحية، مستخدمة قصة إيستر، مع صور لعلب الأدوية المغفلة الأسماء. ومقال عن نادي نيجربوليتان، ومقال في الأزياء عن الثياب التي يمكن للنساء شراؤها فعلًا. ومنشورات عن أشخاص يساعدون آخرين، لكن لا شيء مثل قصص زوي التي تصور دومًا نساء ثريات، يعانقن الأطفال في مأوى للأيتام، وقد كُومت أكياسٌ من الأرز وعلب مسحوق الحليب في الخلفية.

«لكن عليك الكف عن كل هذا الصيام يا إيستر»، قالت زيمايي ،« هل تعلمين أن إيستر تمنح راتبها كاملًا للكنيسة بعض الأشهر، إنهم يسمونها «غرس بذرة». ثم تأتي إلي وتطلب أن أعطيها ثلاثمئة نايرا من أجل المواصلات».

«لكن يا سيدتي، إنها مساعدة صغيرة. أنتن متساويات في المهمة»، قالت إيستر باسمة.

«صامت الأسبوع الماضي حاملة منديلًا»، تابعت زيمايي، «إنها تحتفظ به في مكتبها طوال اليوم، قالت إن أحدًا في الكنيسة ترقى بعد أن صام مع المنديل».

«هل هذا سبب وجود المنديل على الطاولة؟»، سألت إفيملو.

«لكني أؤمن بوجود المعجزات تمامًا؟ أعلم أن خالتي قد شفيت من السرطان في كنيستها؟»، قالت دوريس.

«بمنديل سحري، أليس كذلك؟»، سخرت زيمايي.

«ألا تصدقين يا سيدتي؟ لكن الأمر حقيقي»، استمتعت إيستر بالألفة، دون أن تكترث بالعودة إلى مكتبها.

«إذًا تريدين ترقية يا إيستر؟ ما يعني أنك تريدين عملي؟»، سألت زيمايي.

«لا يا سيدتي! كلنا نحظى بترقية باسم يسوع!»، قالت إيستر.

ضحكن جميعًا.

«هل أخبرتك إيستر عن روحك يا إفيملو؟»، سألت زيمايي وهي تسير نحو الباب، «حين بدأت العمل هنا، ظلت تدعوني إلى كنيستها، ثم أخبرتني ذات يوم عن إقامة صلاة خاصة للأشخاص الذين يملكون روح الإغواء، أشخاص مثلي».

«هذا ليس بعيدًا كليًا؟»، قالت دوريس وابتسمت.

«ما هي روحي يا إيستر؟»، سألت إفيملو.

هزت إيستر رأسها وابتسمت وغادرت المكتب.

التفتت إفيملو إلى حاسوبها، لقد خطر لها عنوان مدونتها **الافتداءات الصغيرة في ليغوس**.

«أتساءل إن كانت زيمايي تواعد أحدًا؟»، قالت دوريس.

«أخبرتني أنها ليس لديها خليل».

«هل رأيت سيارتها؟ لا يمكن لراتبها أن يشتري لها مصباحًا في تلك السيارة؟ ولا يعني أن عائلتها غنية أو ما شابه. أعمل معها منذ سنة تقريبًا ولا أدري ما الذي تفعله فعلًا؟»

«ربما تذهب للبيت وتغير ثيابها لتكون لصة مسلحة ليلًا»، قالت إفيملو.

«لا يهم»، قالت دوريس.

«علينا أن نكتب عن الكنائس»، قالت إفيملو، «مثل كنيسة إيستر».

«هذا ليس مناسبًا لزوي؟»

«لا يبدو منطقيًا أن العمة أونينو تحب إجراء ثلاث مقابلات مع أولئك النسوة المملات، اللاتي لم يحققن شيئًا وليس لديهن ما يقلنه. أو النساء الأصغر سنًا اللاتي لا يتمتعن بأي موهبة وقررن أن يصبحن مصممات أزياء».

«تعلمين أنهن يدفعن للعمة أونينو، أليس كذلك؟»، سألت دوريس.

«يدفعن لها؟»، نظرت إفيملو، «لا لم أعلم، وتعلمين أنني لا أعلم».

«حسن، إنهن يفعلن، معظمهن، عليك أن تفهمي أن الكثير من الأمور تسير بهذا المنوال؟»

نهضت إفيملو لتجمع أغراضها، «لا أعرف أبدًا إن كان لك موقف أخلاقي، أو إن كنت تتخذين موقفًا أصلًا».

«وأنت لست سوى عاهرة تطلق أحكامًا؟»، صرخت دوريس، وعيناها جاحظتان. فكرت إفيملو، متيقظة للتغير المفاجئ، أن دوريس قد تكون، تحت تظاهرها الارتجاعي، واحدة من أولئك النسوة اللاتي يستطعن التحول حين يستثرن، ويمزقن ثيابهن ويتشاجرن في الشارع.

«أنت تجلسين هنا وتحكمين على الجميع»، قالت دوريس، «ماذا تظنين نفسك؟ لماذا تظنين أن هذه المجلة يجب أن تكون عنك؟ إنها ليست ملكك. أخبرتك العمة أونينو كيف تريد مجلتها فإما أن تفعليه، وإلا لا يتعين عليك العمل هنا؟»

«عليك أن تشتري مرطبًا لنفسك، وتكفي عن إخافة الناس بأحمر الشفاه المقرف هذا»، قالت إفيملو «وعليك أن يكون لك حياة، وكفي عن التفكير بأن مداهنة العمة أونينو ومساعدتها في نشر مجلة مريعة سيفتح الأبواب لك، لأن ذلك لن يحدث».

غادرت المكتب شاعرة بالرخص والخزي بما حدث للتو، وربما كانت هذه إشارة، لتستقيل وتبدأ مدونتها.

في طريقها للخروج، قالت إيستر وصوتها جاد وخفيض «سيدتي؟ أظن أنّ لك روحًا متمردة على الزوج، أنت صلبة جدًا يا سيدتي ولم تعثري على زوج، لكن القس يمكنه تدمير هذه الروح».

الفصل الخمسون

يزور دايك معالجًا نفسيًا ثلاث مرات في الأسبوع، وكانت إفيملو تتصل به يومًا بعد يوم، فيتحدث أحيانًا عن جلساته، ولا يفعل في أحيان أخرى، لكنه أراد دومًا أن يعرف عن حياتها الجديدة. أخبرته كيف تبدو شقتها، وأن لديها سائقًا يأخذها للعمل، وأنها ترى صديقاتها القدامى، وأنها تحب أيام الأحد أن تقود بنفسها لأن الشوارع خالية، وتصبح ليغوس نسخة أكثر لطفًا من نفسها، ويرتدي الناس ثياب الكنيسة المشرقة التي تبدو من بعيد مثل الزهور في الريح.

«ستحب ليغوس، كما أظن»، قالت وقال بلهفة على نحو مفاجئ، «هل أستطيع القدوم لزيارتك يا ابنة الخال؟»

اعترضت العمة أوجو في البداية، «ليغوس؟ هل هي آمنة؟ تعرفين ما الذي مر به، لا أظنه يستطيع تحمل ذلك».

«لكنه طلب مني أن يأتي يا عمتي».

«هو طلب؟ منذ متى يعرف ما ينفعه؟ أليس هو الشخص نفسه الذي أراد أن أكون ثكلى؟»

لكن العمة أوجو اشترت التذكرة لدايك. وها هما، هي ودايك، في سيارتها يزحفان في زحمة المرور في أوشودي، ودايك ينظر متسع العينين من النافذة، «أوه يا إلهي، يا ابنة الخال، لم أر هذا الكم من السود في مكان واحد قط!»، قال.

توقفوا في مطعم للوجبات السريعة، حيث طلب الهمبرغر «هل هذا لحم حصان؟ لأنها ليست همبرغر»، بعد ذلك سيأكل أرز الجولوف وموز الجنة المقلي فقط.

لقد كان وصوله ميمونًا، إذ وصل بعد يوم من افتتاح مدونتها وأسبوع من استقالتها. لم تبد العمة أونينو متفاجئة باستقالتها، ولا هي حاولت أن تبقيها «تعالي وعانقيني يا عزيزتي» كان كل ما قالته مبتسمة ببلاهة في حين أن كبرياء إفيملو جريحة. لكن إفيملو مفعمة بالآمال المتفائلة من أجل **افتداءات صغيرة في ليغوس**، بصورة حالمة للمنزل الاستعماري المهجور على رأس الصفحة. كان منشورها الأول مقابلة قصيرة مع بري، مع صور من حفلات الزفاف التي نظمتها، ووجدت إفيملو كثيرًا من الديكور مبهرجًا ومبالغًا فيه، لكن المنشور حصد تعليقات مشجعة، وبخاصة حول الديكور. **ديكور مدهش سيدة بري، أتمنى أن تنظمي حفل زفافي. عمل رائع، استمري.** كتبت زيماي باسم مستعار مقالًا عن الجنس ولغة الجسد «هل يمكنك التخمين إن كان شخصان يمارسان الجنس بالنظر إليهما معًا فحسب؟»، وجذب هذا أيضًا الكثير من التعليقات، لكن معظم التعليقات كانت، حتى الآن، حول منشور إفيملو عن نادي نيجيربوليتان.

> لم تكن ليغوس أبدًا، ولن تكون، ولم يتوقع منها أن تكون، مثل نيويورك أو أي مكان آخر كهذا. كانت ليغوس دومًا نفسها دون تعمد، لكنك لن تعرف هذا في اجتماع نادي نيجيربوليتان، وهو جماعة من العائدين الشبان الذين يجتمعون كل أسبوع للنواح على الأشياء الكثيرة التي تختلف بها ليغوس عن نيويورك، وكأن ليغوس كانت يومًا قريبة من الشبه بنيويورك. **انكشاف كلي:** أنا واحدة منهم، معظمنا عاد لجمع المال في نيجيريا، ولبدء تجارة أو السعي وراء عقود الحكومة والعلاقات معها. وعاد آخرون بأحلام في جيوبهم وجوع لتغيير البلاد، لكننا أمضينا وقتنا في التذمر من نيجيريا، رغم أن تذمرنا مشروع. أتصور نفسي بوصفي غريبًا يقول عودي من حيث أتيت! إذا لم يستطع الطاهي صنع بينيي لذيذ، فليس ذلك لأنه غبي، بل لأن نيجيريا ليست بلدًا من شعب يأكل

الشطائر ولم يكن سيده السابق يتناول الخبز بعد الظهر، لذا فهو يحتاج إلى التدريب والممارسة. ونيجيريا ليست دولة لشعب يعاني حساسية من الطعام، وليست دولة لشعب نيق يتعلق الطعام بالنسبة له بالفصل والتمييز. إنها دولة لشعب يأكل لحم العجل والدجاج وجلد البقر وأمعاءها والسمك المجفف في طبق حساء واحد، ويُسمّى هذا «مشكّلًا»، لذا كفوا عن العجرفة وافهموا أن طريقة الحياة هنا هكذا، مشكّلة.

كتب المعلق الأول: **منشور من كلام فارغ. من يبالي؟** والثاني كتب: **حمدًا للرب أن أحدًا تكلم أخيرًا عن هذا. تبًا لعجرفة النيجيريين العائدين. عادت قريبتي بعد ست سنوات قضتها في أمريكا، وجاءت معي إلى الحضانة في أنيلاغ حيث كنت أوصل ابنة أختي، وقرب البوابة، رأت تلاميذ يقفون في صف بانتظار الحافلة فقالت: واو، يقف الناس في صف فعلًا هنا!** وكُتب تعليق سابق: **لماذا يحق للنيجيريين الذين درسوا في الخارج اختيار المكان الذي يُرسَلون إليه لأداء خدمة الشباب الوطنية؟ ويُرسَل النيجيريون الذين درسوا في نيجيريا عشوائيًا، فلماذا لا يعامل الذين درسوا خارجًا بالطريقة نفسها؟** أشعل التعليق ردود فعل أكثر مما فعل المنشور الأصلي، وفي اليوم السادس حصدت المدونة ألف زائر مميز.

عدلت إفيملو التعليقات وحذفت أي شيء بغيض مستمتعة بحيويتها كلها، بالإحساس بنفسها في الجبهة الأمامية المصطخبة لشيء نابض بالحياة. وكتبت منشورًا طويلًا عن نمط الحياة المكلف لبعض الشابات في ليغوس، وبعد يوم من نشره اتصلت رانينودو غاضبة وأنفاسها ثقيلة على الهاتف.

«إفيم كيف يمكنك فعل هذا؟ أي أحد يعرفني سيعرف إنها أنا!»

«هذا ليس صحيحًا يا راني، قصتك شائعة جدًا».

«ما الذي تقولينه! من الواضح جدًا أنها أنا! انظري لهذا!»، صمتت رانينودو ثم أخذت تقرأ عاليًا:

كثير من الشابات في ليغوس ذوات مصدر مجهول للثروة.

إنهن يعشن حياة لا يستطعن تحمل نفقاتها، فيسافرن على درجة

الأعمال فقط إلى أوروبا، لكن وظائفهن لا تسمح لهن بشراء تذكرة طيران عادي. إحداهن صديقتي، امرأة جميلة وذكية تعمل في الإعلانات. تعيش على الجزيرة، وتواعد رجلًا مصرفيًا كبيرًا. أخشى أن ينتهي بها الأمر مثل الكثير من النساء في ليغوس اللاتي يحدّدن حياتهن بوجود رجال لا يمكنهن الحصول عليهم أبدًا، منتشيات بثقافتهن الاتكالية، بيأس في عيونهن وحقائب فخمة محمولة حول معاصمهن.

«راني صِدقًا لن يعرف أحد أنها أنت، كل التعليقات حتى الآن من أشخاص يقولون إنهم يصاحبون. تخسر الكثير من النساء أنفسهن في علاقات كهذه. ما كان في ذهني حقًا هي العمة أوجو والجنرال. لقد دمرتها العلاقة، وأصبحت شخصًا مختلفًا بسبب الجنرال ولم تستطع فعل شيء لنفسها، وحين مات خسرت نفسها».

«ومن تكونين لتطلقي الأحكام؟ وكيف يختلف الأمر معك والرجل الثري في أمريكا؟ هل كنت ستحصلين على مواطنتك الامريكية اليوم لولاه؟ كيف حصلت على عملك في أمريكا؟ عليك إيقاف هذا الهراء، كفي عن الاستعلاء!»

أغلقت رانينودو السماعة. حدقت إفيملو لوقت طويل بالهاتف الصامت، مرتجفة. ثم حذفت المنشور وقادت سيارتها نحو شقة رانينودو.

«راني أنا آسفة، أرجوك لا تغضبي»، قالت.

نظرت إليها رانينودو نظرة طويلة.

«أنت محقة»، قالت إفيملو، «من السهل إطلاق الأحكام. لكن الأمر ليس شخصيًا، وهو لا يبدر من نوايا سيئة، أرجوك يا حلوتي، لن أقتحم خصوصيتك هكذا ثانية».

هزت رانينودو رأسها «إفيملوناما، مشكلتك هي الغضب العاطفي، اذهبي واعثري على أوبنِز أرجوك».

ضحكت إفيملو، كان هذا آخر ما تتوقع سماعه.

«علي خسارة الوزن أولًا»، قالت.

«أنت خائفة فحسب».

قبل أن تغادر إفيملو جلستا على الأريكة وشربتا الملت وشاهدتا آخر أخبار المشاهير على قناة إي.

تطوع دايك للقيام بتعديل تعليقات المدونة، لتتمكن من أخذ استراحة.

«أوه يا إلهي، يا ابنة الخال الناس تأخذ هذه الأمور على محمل شخصي!»، قال. كان يضحك بصوت عال أحيانًا عند قراءة تعليق، وفي أحيان أخرى يسأل عن العبارات غير المألوفة «ماذا تعني لمعي عينيك؟»[76]. أول مرة انقطعت فيها الكهرباء بعد وصوله، حيرته أصوات الطنين والأزيز والرنين من مزود الطاقة، «أوه يا إلهي، هل هذا إنذار الحريق؟» سأل.

«لا، هذا جهاز لأتأكد أن تلفازي لن يتعطل بسبب انقطاعات الكهرباء المجنونة فحسب».

«هذا جنون» قال دايك، ولكن بعد أيام فقط ذهب إلى آخر الشقة ليدير المولدة الكهربائية حين انقطعت الكهرباء. جلبت رانينودو بنات عمومتها للقائه، كن فتيات في مثل عمره، يرتدين الجينز الضيق الملتصق بأوراكهن الرشيقة، ونهودهن ناهضة تحددها القمصان الضيقة. «عليك أن تتزوج إحداهن يا دايك»، قالت رانينودو، «نحتاج أطفالًا جميلين في عائلتنا». «راني!»، قالت بنات عمومتها، خفرات متخفيات خلف حيائهن. أحببن دايك، إذ يسهل حبه بسحره ودعابته والهشاشة الواضح اختباؤها تحت ذلك. على الفيسبوك نشر صورة التقطتها له إفيملو يقف فيها على الشرفة مع بنات عمومة رانينونو، وكتب تحتها لم تأكلني الأسود بعد يا قوم.

«أتمنى أن أتحدث الإيبو»، قال لها بعد أن قضيا أمسية مع والديها.

«لكنك تفهمها تمامًا»، قالت.

«أتمنى لو أتحدثها».

«ما زال باستطاعتك التعلم»، قالت وقد شعرت فجأة بالإحباط، غير واثقة من مدى أهمية هذا له، متذكرة إياه ثانية مستلقيًا على الأريكة في القبو، غارقًا في

---

76) تعبير نيجيري يعني افتحي عينك أو تيقظي.

العرق. وتساءلت إن كان عليها قول المزيد أم لا.

«نعم، أظن ذلك»، قال ورفع كتفيه كأنه يقول إن الوقت فات.

قبل سفره بأيام سألها «كيف كان يبدو أبي؟».

«كان يحبك».

«هل كنت تحبينه؟»

لم ترغب بالكذب عليه «لا أدري، لقد كان رجلًا مهمًا في الحكومة العسكرية، وهذا يؤثر بالمرء وبالطريقة التي يتواصل بها مع الآخرين. قلقت على أمك لأني ظننتها تستحق أفضل منه، لكنها أحبته، أحبته حقًا، وهو أحبك، وكان يحملك بكثير من الحنان».

«لا أصدق أن أمي أخفت عني لوقت طويل أنها كانت عشيقته».

«كانت تحميك»، قالت إفيملو.

«هل يمكننا الذهاب لرؤية المنزل في دولفين؟»

«أجل».

أخذته بالسيارة إلى مجمع دولفين، متفاجئة بحجم خرابه. كان الطلاء متقشرًا والشوارع مملوءة بالحفر، وقد استسلم المجمع كله لبلائه. «كان أجمل بكثير حينها» أخبرته. وقف ينظر إلى البيت لوهلة حتى قال البواب «هل هناك مشكلة؟»، فعادا إلى السيارة.

«هل يمكنني القيادة يا ابنة الخال؟»، سأل.

«هل أنت واثق؟»

هز رأسه موافقة. خرجت من مقعد السائق وذهبت إلى مقعده. وقاد السيارة إلى البيت، مترددًا قليلًا قبل أن يخرج إلى شارع أوزبورن، وانسل بعد ذلك في المرور بثقة أكبر. عرفت أن ذلك عنى له شيئًا لم تستطع تحديده. تلك الليلة عندما انقطعت الكهرباء لم تشتغل مولدتها، وشكت بأن يكون السائق أيو، قد بيع له ديزل مخلوط بالكيروسين. اشتكى دايك من الحرارة ومن البعوض الذي يقرصه. ففتحت النافذة وجعلته يخلع قميصه واستلقيا جنبًا إلى جنب في الفراش يتحدثان حديثًا مفككًا، فمدت يدها ولمست جبينه وأبقت يدها هناك إلى أن سمعت أنفاس نومه الهادئة.

في الصباح، كانت السماء ملبدة بالغيوم الرمادية الداكنة، والهواء مثقل بالأمطار القلقة. من الجوار، زقزقت مجموعة طيور وطارت. سينهمر المطر، وسيُجلد البحر من السماء وستصبح صور قناة دي إس تي في مشوشة، وستتعطل شبكات الهاتف، وستغرق الطرق وتتعطل حركة المرور. وقفت مع دايك على الشرفة حين بدأت أولى القطرات بالسقوط.

«أحب الأجواء هنا قليلًا»، قال لها.

أرادت أن تقول «يمكنك العيش معي، لدينا بعض المدارس الخاصة الجيدة التي يمكنك الذهاب إليها»، لكنها لم تفعل.

أخذته إلى المطار وظلت تراقبه حتى دخل متجاوزًا رجال الأمن، ولوح لها وانعطف نحو الزاوية. بالعودة للبيت، سمعت الفراغ في خطواتها وهي تمشي من غرفة نومها إلى غرفة المعيشة إلى الشرفة ثم تعود ثانية. قالت لها رانينودو لاحقًا «لا أعرف كيف يمكن لولد جميل مثل دايك أن يرغب بقتل نفسه؟ ولد يعيش في أمريكا مع كل شيء. كيف يمكن؟ هذا تصرف أجنبي جدًا».

«تصرف أجنبي؟ ما الذي تتحدثين عنه بحق الجحيم؟ تصرف أجنبي؟ هل قرأت **الأشياء تتداعى**؟» سألت إفيملو متمنية لو أنها لم تخبر رانينودو بأمر دايك. كانت أكثر غضبًا مع رانينودو من المعتاد، إلا أنها علمت حسن نية رانينودو، وقالت ما قد يقوله معظم النيجيريين الآخرين. وهذا ما جعلها لا تخبر أحدًا آخر عن محاولة دايك للانتحارمنذ أن عادت.

الفصل الواحد والخمسون

لقد أشعرها اجتياز حارس الأمن المسلح والباب الطنان بالذعر، حيث وقفت عند السياج، كاتمة أنفاسها وصامتة مثل تابوت واقف، حتى تغير الضوء إلى الأخضر، في أول مرة تدخل فيها المصرف. هل كان للمصارف دائمًا نظام الأمن التفاخري هذا؟ قبل أن تترك أمريكا، حولت بعض المال لنيجيريا، وقد جعلها بنك أمريكا تتحدث إلى ثلاثة أشخاص مختلفين، كل واحد منهم يقول إن نيجيريا بلد عالي الخطورة، وإن حدث شيء لنقودها، فلن يكونوا مسؤولين. هل فهمت؟ آخر امرأة تحدثت إليها جعلتها تكرر قولها، سيدتي، أعتذر منك، لم أسمعك، أحتاج أن أعرف أنك فهمت أن نيجيريا بلد عالي الخطورة، فقالت: «أفهم». وقرؤوا لها تحذيرًا تلو آخر، وبدأت تخشى على أموالها، وهي تشق طريقها في أجواء نيجيريا، وشعرت بالقلق أكثر حين جاءت إلى المصرف ورأت الحلقات المبهرجة للأمن عند المدخل. لكن النقود بأمان في حسابها. وحين دخلت البنك، رأت أوبِنز في قسم خدمة العملاء. وقف مديرًا ظهره لها وقد عرفت، من الطول وشكل الرأس، أنه هو. توقفت متعبة من الخوف، آملة ألا يلتفت فقط إلى أن تستجمع قواها. ثم التفت ولم يكن أوبِنز. وشعرت بوجع في حلقها، واكتظ رأسها. حين عادت إلى سيارتها، أدارت مكيف الهواء، وقررت الاتصال به لتحرر نفسها من الأشباح. رن هاتفه ورن، لقد صار رجلًا مهمًا الآن، ولن يرد طبعًا على مكالمة من رقم مجهول. أرسلت رسالة نصية: «سيلنغ، هذه أنا». فرن هاتفها على

الفور تقريبًا.

«آلو؟ إفيم؟»، ذلك الصوت الذي لم تسمعه منذ وقت طويل، وقد بدا مختلفًا ومألوفًا في آن.

«سيلنغ! كيف حالك؟»

«لقد عُدتِ».

«أجل» ارتجفت يداها. توجّب عليها إرسال رسالة إلكترونية أولًا. لا بد أن تكون ثرثارة، وتسأل عن زوجته وطفلته، وتخبره أنها عادت منذ فترة في الحقيقة.

«إذًا؟»، قال أوبِنز جاذبًا الكلمة، «كيف حالك؟ أين أنت؟ ومتى يمكنني لقاؤك؟»

«ما رأيك لو التقينا الآن؟»، دفع التهور الذي ينبثق كثيرًا حين تكون مضطربة هذه الكلمات، ولكن لعل من الأفضل رؤيته على الفور والانتهاء من ذلك. تمنت لو أنها تأنقت أكثر، وارتدت ثوبها الضيق المفضل، بتقاطيعه الرشيقة مثلًا، لكن تنورتها التي تبلغ حد الركبة لم تكن سيئة جدًا، وكعبها العالي يجعلها دومًا تشعر بالثقة، ولم تكن لبدتها، لحسن الحظ، قد تقلصت كثيرًا من الرطوبة.

ساد صمت على جانب أوبِنز- متردد قليلًا؟- جعلها تشعر بالندم لاندفاعها.

«أنا في الحقيقة متأخرة قليلًا على اجتماع»، أضافت بسرعة، «لكني أردت إلقاء التحية ويمكننا اللقاء قريبًا..»

«إفيم، أين أنت؟»

أخبرته أنها كانت في طريقها إلى جازهول لشراء كتاب، وستكون هناك في غضون دقائق قليلة. بعد نصف ساعة، وقفت أمام المكتبة حين ركنت سيارة سوداء من طراز رنج روفر وخرج أوبِنز من المقعد الخلفي.

—

مرت لحظة من انهيار للسماء الزرقاء، وكسل السكون، لم يعرف أي منهما ماذا يفعل، فسار هو باتجاهها، ووقفت هي هناك تخرز عينيها، ومن ثم وقف أمامها وتعانقا. ربتت على ظهره مرة ومرتين لتجعله عناق أصدقاء، عناق أصدقاء آمن وعذري، لكنه جذبها بخفة قريبًا منه، وأمسكها لدقيقة طويلة جدًا، وكأنما ليقول إنه ليس صديقًا فحسب.

«أوبِنز مادويويسي! مر وقت طويل! انظر إلى نفسك، لم تتغيرا». كانت مسرورة وقد أزعجها الصخب الجديد في صوتها. نظر إليها، نظرة صريحة جريئة، ولكنها لم تنظر إليه. ارتجفت أصابعها لا إراديًا، وهذا سيّئ تمامًا، ولم تكن بحاجة للنظر في عينيه، وكلاهما يقف هناك في الشمس الحارة، في أبخرة عوادم السيارات في شارع أولوو.

«جميل أن أراك يا إفيم»، قال. كان هادئًا. لقد نسيت أي شخص هادئ كان، وفي وقفته أثر باق من تاريخ مراهقته، ذلك الشخص الذي لم يبذل جهدًا كبيرًا، والشخص الذي تريده الفتيات ويريد الأولاد أن يكونوا مثله.

«أنت أصلع»، قالت.

ضحك وتحسس رأسه «أجل، باختياري غالبًا».

كان قد امتلأ، وتحول من الصبي النحيل في أيام دراستهما الجامعية إلى رجل أكثر امتلاء وأكثر عضلات، وربما لأنه امتلأ بدا أقصر مما تذكر. في كعبها العالي كانت أطول منه. لم تنسَ لكنها تذكرت مجددًا تواضع أسلوبه، بينطاله الجينز الداكن العادي، وحذائه الجلدي، والطريقة التي دخل بها إلى المكتبة.

«لنجلس»، قال.

كانت المكتبة باردة معتمة، وجوها كئيبًا ونخبويًا، مع الكتب والأقراص المضغوطة والمجلات المفتوحة على أرفف منخفضة. هز رجل يقف عند المدخل رأسه مرحبًا بهما، وهو يعدل السماعة الكبيرة حول أذنيه. جلسا متقابلين في المقهى الصغير في الخلف وطلبا عصير الفاكهة. وضع أوبِنز هاتفيه على الطاولة، اللذين يضيئان كثيرًا ويرنان بوضع الصامت، فيلقي نظرة عليهما ثم يبعدهما. إنه يمارس التمارين الرياضية، لقد استطاعت أن تخمن ذلك من صدره المشدود، الذي امتد عليه الجيبان الأماميان لقميصه الملائم له.

«عُدتِ منذ فترة»، قال. راقبها ثانية، وتذكرت أنها كثيرًا ما تشعر أنه يستطيع قراءة أفكارها، ويعرف أمورًا عنها قد لا تدركها هي.

«أجل»، قالت.

«ماذا جئت تشترين؟»

«ماذا؟»

«الكتاب الذي أردت شراءه».

«في الحقيقة وددت لقاءك هنا فحسب، خطر لي إن كان لقاؤك ثانية شيئًا أحب تذكره، فأحب تذكره إذًا في جازهول».

«أريد تذكره في جازهول»، كرر مبتسمًا كأنما هي الوحيدة التي تستطيع قول عبارة كهذه، «لم تكفي عن كونك صريحة، يا إفيم، حمدًا للرب».

«أنا أفكر مسبقًا أنني أود تذكر هذا»، ذاب توترها، وهما يجريان متجاوزين اللحظات للأساسية للارتباك.

«هل عليك الذهاب إلى أي مكان الآن؟»، سأل، «هل يمكنك البقاء أكثر؟»

«أجل».

أطفأ هاتفيه. في تصريح نادر في مدينة مثل ليغوس لرجل مثله، أنها قد حظيت باهتمامه المطلق، «كيف حال دايك؟ وكيف العمة أوجو؟»

«إنهما بخير. يبلي حسنًا، في الحقيقة لقد جاء لزيارتي هنا، وغادر مؤخرًا».

قدم النادل كوبين طويلين من عصير المانغو والبرتقال.

«ما أكثر ما فاجأك بعد عودتك؟»، سأل.

«كل شيء، صدقًا. أخذت أتساءل إن كان بي خطب ما».

«أوه، هذا طبيعي» قال، وتذكرت سرعته على الدوام في طمأنتها، وجعلها تشعر على نحو أفضل «كنت بعيدًا لوقت أقصر بكثير، كما هو واضح، لكني فوجئت جدًا حين عدت. ظللت أظن أن الأمور كان عليها انتظاري لكنها لم تفعل».

«نسيت أن ليغوس باهظة، لا أصدق كم ينفق النيجيريون الأثرياء».

«معظمهم لصوص أو متسولون».

ضحكت «لصوص أو متسولون».

«هذا صحيح، ولا ينفقون الكثير من المال فحسب، بل يتوقعون أن ينفقوا الكثير. قابلت رجلًا ذلك اليوم، وأخبرني كيف بدأ تجارته في الأطباق الصناعية قبل عشرين عامًا تقريبًا. حدث هذا حين كانت الأطباق الصناعية ما زالت حديثة في البلاد، ولذا كان يبدأ شيئًا لا يعرفه معظم الناس. وضع خطة العمل، وخرج بسعر

جيد وحصل على فائدة جيدة. صديق له رجل أعمال وعزم على الاستثمار في تلك التجارة، فألقى نظرة على الأسعار وطلب منه مضاعفتها، وإلا، كما قال، لن يشتريها النيجيريون الأثرياء. فضاعف السعر ونجح الأمر!»

«جنون»، قالت، «ربما كان الأمر هكذا دومًا ولم نعلم، لأننا لم نستطع أن نعلم. يبدو الأمر كأنما نبحث عن نيجيريا راشدة لم نعلم بأمرها».

«أجل»، أعجبه قولها «نحن»، كانت واثقة من هذا، وأحبت انزلاق «نحن» بسهولة منها.

«يا لها من مدينة متحولة»، قالت، «متحولة بنحو محبط، حتى العلاقات كلها متحولة».

«بعض العلاقات».

«أجل بعضها»، وافقته. لقد قالا لبعضهما شيئًا ما لم يستطع أي منهما تحديده. ولأنها شعرت بالتوتر يغزو أصابعها ثانية، تحولت إلى الفكاهة .«وكما أن في الطريقة التي نتحدث بها، التي نسيتها أيضًا تنميقًا أكيدًا. لقد شعرت أنني في الوطن حقًا ثانية حين بدأت أنمّق الكلام!»

ضحك أوبِنز، وأحبت ضحكته الهادئة. «حين عدت، صدمت برؤية تحول أصدقائي سريعًا إلى بدينين بكروش كبيرة بسبب الجعة، فقلت في نفسي ما الذي يحدث؟ ثم انتبهت إلى أنهم الطبقة المتوسطة الحديثة التي خلقتها ديمقراطيتنا. كان لديهم وظائف ويستطيعون دفع ثمن شرب المزيد من الجعة والأكل خارجًا، وتعرفين أن الأكل خارجًا بالنسبة لنا هنا يعني الدجاج وشرائح البطاطا، فصاروا بدينين».

انقبضت معدة إفيملو، «حسن، إن نظرت جيدًا فسترى أن الأمر ليس حكرًا على أصدقائك فحسب».

«أوه، إفيم، أنت لست بدينة، أنت تتصرفين كأمريكية حيال هذا. يمكن لما يراه الأمريكيون بدانة أن يكون طبيعيًا، عليك رؤية أصحابي لتري ما أتحدث عنه. هل تذكرين أوتشي أوكوبي؟ وحتى أوكوديبا؟ لا يمكنهم حتى غلق أزرار قمصانهم»، صمت أوبِنز، «لقد ازداد وزنك لكنه يناسبك، أنت جميلة».

شعرت بالخجل، خجلًا سارًا وهي تسمعه يقول إنها جميلة.

«لقد كنت تغيظني دومًا لأن مؤخرتي ليست كبيرة»، قالت.

«أسحب كلامي. لقد انتظرتك عند الباب حتى تتقدميني لسبب».

ضحكا ثم تلاشت الضحكة وصمتا مبتسمين لغرابة حميميتهما. تذكرت كيف تنهض عارية من مرتبته على الأرض في نسوكا، ويرفع نظره ويقول، «كنت سأقول لك هزّي قليلًا لكن ليس لديك ما يُهَزّ»، فتركله على مقدمة ساقه بتلاعب. جعلها وضوح الذكرى والطعن المفاجئ للاشتياق الذي حرضته مضطربة.

«لكن بالحديث عن المفاجآت يا سيلنغ»، قالت، «انظر إلى نفسك، صرت رجلًا مهمًا تملك سيارة رنج روفر. امتلاك المال يغير الأمور فعلًا».

«أجل، أظنه يفعل».

«أوه هيا بريك»، قالت، « قل لي كيف؟»

«يعاملك الناس على نحو مختلف، ولا أعني الغرباء فحسب، بل الأصدقاء أيضًا. حتى قريبتي نِيوما. تجدين فجأة كل هؤلاء الأشخاص المتملقين، لأنهم يظنون أنك تتوقعين ذلك، كل هذا التهذيب المفرط والثناء المفرط، وحتى الاحترام المفرط الذي لم تكسبيه مطلقًا، وهو مصطنع ومبهر جدًا. إنه مثل لوحة رديئة كثيرة الأصباغ، لكنك أحيانًا تبدئين بتصديق قليل منه في نفسك وترين نفسك أحيانًا على نحو مختلف. ذهبت يومًا إلى حفل زفاف في بلدتي الأم، وكان مقدم الحفل يغني الكثير من أغاني المديح السخيفة حين دخلت وانتبهت أنني أمشي بشكل مختلف، لم أرغب بذلك لكني فعلته».

«كيف، بتبجح مثلًا؟»، أغاظته، «أرني المشية!»

«عليك أن تغني لي مديحًا أولًا»، رشف شرابه، «يمكن للنيجيريين أن يكونوا متذللين جدًا. نحن أناس واثقون لكننا متذللون، ليس صعبًا علينا أن نكون مزيفين».

«لدينا الثقة لكننا بلا كرامة».

«أجل»، نظر إليها، والاهتمام بادٍ في عينيه، «وإن ظللت تحصلين على هذا التملق المفرط فستصابين بالارتياب، ولن تعرفي إن كان أي شيء صادقًا وحقيقيًا بعد الآن، ثم يصبح الناس مرتابين بشأنك، لكن بطريقة مختلفة. يقول لي أقاربي دومًا كن حذرًا في الأماكن التي تأكل فيها، وحتى هنا في ليغوس يقول لي أصدقائي أن أنتبه

لما آكل، وألا آكل في بيت امرأة لأنها قد تدس شيئًا في طعامي».

«وهل تفعل؟»

«ماذا أفعل؟»

«تنتبه لما تأكل؟»

«لن أفعل في بيتك»، وصمت، فقد غازلها صراحة ولم تكن واثقة مما تقول.

ثم تابع، «ولكن لا، أحب أن أفكر أنني إن أكلت في بيت أحدهم فلا بد أن يكون شخصًا لا يفكر بدس السحر في طعامي».

«يبدو ذلك سيئًا حقًا».

«أحد الأمور التي تعلمتها أن الجميع في هذه البلاد لديهم عقلية الندرة، فنتخيل أن الأشياء نادرة حتى الوفير منها، وهذا يولد نوعًا من اليأس في الجميع، حتى الأثرياء».

«الأثرياء من مثلك، حقيقة»، قالت ممازحة.

صمت. كثيرًا ما يصمت قبل أن يتحدث، وترى هذا فاتنًا، كأنما يضع اعتبارًا لمستمعه، فأراد أن تكون كلماته مربوطة معًا بأفضل طريقة ممكنة. «أحب التفكير بأني لا أشعر بهذا اليأس؛ وأشعر أحيانًا كأن المال الذي أملكه ليس مالي حقًا، وكأنني أحفظه لشخص آخر لفترة. بعد أن اشتريت أملاكًا في دبي - وكان أول عقار أملكه خارج نيجيريا- شعرت بالذعر، وحين أخبرت أوكوديبا بشعوري، قال إنني مجنون، وإن علي أن أكف عن التصرف وكأن الحياة هي إحدى الروايات التي أقرؤها. لقد أعجب كثيرًا بما أملك، وشعرت أن حياتي صارت طبقة من التظاهر تلو التظاهر، وبدأت أشعر بالعاطفة نحو الماضي. فأتذكر حين أقمت مع أوكوديبا في شقته الأولى الصغيرة في سورولير، وكيف نسخن المكواة على الفرن حين تقطع الشركة العامة الكهرباء، وهتاف جيرانه في الطابق السفلي دومًا 'الثناء للرب!' كلما عادت الكهرباء، وكم كانت عودة الكهرباء أمرًا جميلًا عندي، حين يكون الأمر خارجًا عن إرادتك لأنك لا تملكين مولدة كهربائية. لكنها رومانسية سخيفة فلست راغبًا بالعودة لتلك الحياة طبعًا».

نظرت بعيدًا، وخشيت أن يكون صدام المشاعر الذي شعرت به أثناء حديثه

قد تجمع على وجهها، «بالطبع لا تريد، أنت تحب حياتك»، قالت.

«أعيش حياتي».

«أوه، كم نحن غامضان».

«ماذا عنك، أيتها المدونة الشهيرة عن الأصل العرقي، وزميلة برنستن، كيف تغيرت؟»، سأل مبتسمًا مائلًا نحوها ومرفقاه على الطاولة.

«حين جالست الأطفال أثناء دراستي الجامعية، سمعت نفسي يومًا أقول للطفل الذي أجالسه يا لك من ممثّل! هل تعرف كلمة أكثر أمريكية من ممثل؟»

ضحك أوبِنز.

«عندها قلت لنفسي أجل، لقد تغيرت قليلًا»، قالت.

«لا تتحدثين باللكنة الأمريكية».

«جهدت ألا أفعل».

«فوجئت حين قرأت أرشيف مدونتك. لم تبد شبيهة بك».

«لا أظنني تغيرت كثيرًا فعلًا، رغم ذلك».

«أوه، لقد تغيرت»، قال بيقين كرهته للغاية.

«كيف؟»

«لا أدري، أنت أكثر وعيًا بذاتك، وربما أكثر حذرًا».

«تبدو مثل عم خائب الأمل!»

«لا»، وتلت واحدة أخرى من لحظات صمته، لكنه تراجع هذه المرة ، «لكنّ مدونتك جعلتني فخورًا أيضًا. فقد قلت لقد ذهبت، وتعلمت، وانتصرت».

مرة أخرى شعرت بالخجل ،»لست واثقة من الانتصار».

«لقد تغيرت مفاهيمك الجمالية أيضًا»، قال.

«ماذا تعني؟»

«هل كنت تعالجين اللحوم التي تتناولينها في أمريكا؟»

«ماذا؟»

«قرأت مقالًا عن تلك الحركة الجديدة بين الطبقات الأمريكية الراقية. حيث يريد الناس شرب الحليب من البقرة مباشرة وأمورًا من هذا القبيل، فظننت أنك ربما

انضممت لهذا، وقد أصبحت تضعين زهورًا في شعرك».

انفجرت بالضحك.

«لكن حقًا أخبريني كيف تغيرت؟»، كانت نبرته مشاكسة، ومع ذلك توترت قليلًا عند سؤاله، فقد بدا قريبًا جدًا من لبها الهش الطري. ولذلك قالت في صوت مرح «ذائقتي، كما أظن. لا أصدق كم الأشياء التي أراها قبيحة الآن، لا أطيق معظم المنازل في هذه المدينة. أنا الآن امرأة تعلمت الإعجاب بالعوارض الخشبية المكشوفة»، دوّرت عينيها وابتسم من سخريتها من ذاتها، ابتسامة بدت لها مثل جائزة أرادت الفوز بها مرة بعد مرة.

«إنه تنفج قليلًا»، أضافت.

«إنه تنفج صريح وليس قليلًا»، قال، «راودني هذا الشعور حيال الكتب، أعني تشعرين بالخفاء أن ذائقتك مستعلية».

«المشكلة أنني لست دومًا أبقيها سرًا».

ضحك، «نحن نعلم ذلك».

«قلت إنك كنت؟ ماذا حدث؟»

«ما حدث أنني كبرت».

«آخ»، قالت.

لم يقل شيئًا. فقد قالت الرفعة الخفيفة الساخرة لحاجبه إن عليها أيضًا أن تكبر.

«ماذا تقرأ هذه الأيام؟»، سألت، «أنا واثقة أنك قرأت كل رواية أمريكية نشرت حتى الآن».

«كنت أقرأ كتبًا غير أدبيّة، التاريخ والسير الذاتية، حول كل شيء وليس حول أمريكا فحسب».

«ماذا، هل تعافيت من الحب؟»

«أدركت أن باستطاعتي شراء أمريكا، وفقدت بريقها. عندما كان كل ما أملكه هو شغفي بأمريكا، لم يمنحوني التأشيرة، ولكن مع حسابي المصرفي الجديد، صار الحصول على التأشيرة سهلًا جدًا. لقد زرتها عددًا من المرات، وفكرت بشراء عقار في ميامي».

شعرت بالصدمة، فقد زار أمريكا ولم تعرف.

«إذًا هل شفيت أخيرًا من بلاد أحلامك؟»

«أذكر حين ذهبتِ أول مرة إلى مانهاتن وكتبت لي إنها رائعة لكنها ليست الجنة، تذكرت ذلك حين أخذت جولتي الأولى في مانهاتن في سيارة الأجرة».

تذكرت أنها كتبت أيضًا، قبل انقطاع التواصل بوقت قصير، قبل أن تدفعه خلف العديد من الجدران، «أفضل ما في أمريكا أنها تمنحك مساحة، أحب ذلك، أحب أنك تبدأ حلمك، إنها كذبة لكنك تبدأه وهذا كل ما يهم».

نظر إلى كأسه، غير مكترث بتفلسفها، وتساءلت إن كان ما رأته في عينيه استياء، إن كان هو أيضًا يتذكر كيف نبذته تمامًا. حين سأل «هل ما زلت صديقة لصديقاتك القديمات؟»، ظنته سؤالًا عمن نبذته أيضًا كل هذه السنين. وتساءلت إن كان عليها فتح الموضوع بنفسها، أو تنتظره ليفعل. عليها أن تفتحه، فهي مدينة له بذلك، لكنّ خوفًا صامتًا استولى عليها، خوفًا من كسر الأشياء الرقيقة.

«أجل، مع رانينودو وبري. أما الأخريات فصرن صديقات من الماضي، مثل ما كان بينك وبين إمينايك. هل تعرف أنني حين قرأت رسائلك الإلكترونية لم أفاجأ بتغير إمينايك هكذا. كان فيه شيء ما دومًا».

هز رأسه وأنهى شرابه، وقد وضع القصبة جانبًا، ورشف من الكأس وقال:

«كنت معه في لندن مرة، وسخر من رجل يعمل معه، رجل نيجيري، لأنه لا يعرف كيف يلفظ فِذرستون، وقد لفظها صوتيًا (فِيذر ستون) مثلما فعل الرجل، وكان واضحًا أنها الطريقة الخطأ، ولم يقلها باللفظ الصحيح. لم أعرف كيف ألفظها أيضًا، وهو يعلم أني لا أعلم، ومرت تلك الدقائق الفظيعة التي تظاهر فيها بأن كلينا يسخر من ذلك الرجل، في حين أننا لم نفعل. لقد سخر مني أيضًا. أذكرها كأنها اللحظة التي أدركت فيها أنه لم يكن صديقي يومًا».

«إنه مغفل»، قالت.

«مغفل، كلمة أمريكية جدًا».

«حقًا؟»

رفع حاجبيه قليلًا وكأنه ليس من داع لشرح الواضح. «لم يتصل بي إمينايك

أبدًا بعد ترحيلي. ثم، أخذ يتصل بي العام الماضي، لا بد أن أحدهم أخبره أنني صرت الآن من الأثرياء»، قال أوبِنز»الأثرياء» بصوت مثقل بالسخرية. «ظل يسأل إن كان لدي أي صفقات يمكننا عقدها معًا، وما إلى ذلك من الكلام الفارغ، وأخبرته يومًا أنني أقدر تواضعه حقًا، ولم يتصل بي منذئذ».

«وماذا عن كِيود؟»

«نحن متواصلان. أنجب طفلًا من امرأة أمريكية».

نظر أوبِنز إلى ساعته وأخذ هواتفه، «أكره الذهاب لكني مضطر».

«أجل، وأنا أيضًا»، أرادت أن تطيل هذه اللحظة، وهي تجلس وسط رائحة الكتب وتكتشف أوبِنز ثانية. قبل أن يصعدا إلى سيارتيهما، تعانقا وكلاهما يهمهم «سعيد لرويتك»، وتخيلت أن سائقيهما يراقبانهما بفضول.

«سأتصل بك غدًا» قال، لكن ما كادت تدخل سيارتها، حتى رن هاتفها برسالة نصية **هل أنت متفرغة غدًا لنتناول الغداء؟** وكانت متفرغة. كان يوم السبت وعليها أن تسأل لم لا يكون مع زوجته وطفلته، وتبدأ حديثًا عما يفعلانه حقًا، ولكن لديهما تاريخ وارتباط قوي مثل توأم، ولا ينبغي أن يعني أنهما يفعلان شيئًا، أو أن الحديث ضروري. فتحت الباب حين رن الجرس، ودخل وأعجب بالأزهار على شرفتها؛ الزنابق البيض التي ترتفع من الأصص مثل البجعات.

«قضيت الصباح في قراءة افتداءات صغيرة في ليغوس، أو بالأحرى كنت أطوف فيها»، قال.

شعرت بالسرور «ما رأيك؟»

«أحببت منشور نادي نيجربوليتان، رغم أن فيه رضا عن الذات قليلًا؟»

«لست أدري كيف بدا كذلك».

«صحيح»، قال بنصف رفعة لحاجب، لا بد أنها صفة جديدة لأنها لا تذكره يفعلها في الماضي «لكنها مدونة رائعة، إنها شجاعة وذكية، وأحببت التصميم»، ها هو ثانية يطمئنها.

أشارت إلى المبنى المجاور، «هل تذكر هذا؟»

«آه! أجل».

«ظننت أنه مناسب للمدونة، منزل جميل كهذا، بهذا الخراب الهائل، بالإضافة إلى الطواويس على السطح».

«يبدو مثل محكمة. لقد فتنت دومًا بهذه المنازل القديمة والقصص التي تحملها»، أمسك بالسياج المعدني الرفيع للشرفة، وكأنه يتأكد من قوته وأمانه وأحبت فعله ذلك. «سيأخذه أحدهم قريبًا، ويدمره، ويقيم مبنى لامعًا من الشقق الفاخرة الباهظة الثمن».

«شخص مثلك».

«حين بدأت في مجال العقارات، فكرت بترميم البيوت القديمة بدلًا من هدمها لكن ذلك لم ينجح. لا يشتري النيجيريون البيوت لأنها قديمة. إن الطاحونة والصومعة المرممة التي يبلغ عمرها مئتي عام، كما تعلمين، من النوع الذي يحبه الأوربيون، ولا ينجح هنا إطلاقًا. ولكن هذا طبيعي بلا شك لأننا سكان العالم الثالث، وسكان العالم الثالث متطلعون. نحب أن تكون الأشياء جديدة، لأن الأفضل ما زال أمامنا، في حين أن الغرب قد مر الأفضل لديهم مسبقًا، وعليهم أن يصنعوا صنمًا لذلك الماضي».

«هل بدأت تلقي محاضرة أم يتهيأ لي؟»، سألت.

«من المنعش أن تحظى بشخص ذكي تتحدث إليه».

أشاحت نظرها متسائلة إن كانت هذه إشارة لزوجته وكرهته لذلك.

«تحظى مدونتك بالمتابعة»، قال.

«وضعت خطة كبيرة من أجلها. أحب السفر في أنحاء نيجيريا ونشر رسائل من كل ولاية، مع الصور وقصص البشر، ولكن علي إنجاز الأمور ببطء في البداية، لأثبتها وأجني مالًا من الإعلانات».

«أنت بحاجة لمستثمرين».

«لا أريد مالك» قالت، بشيء من الحدّة، مبقية عينيها بمستوى السطح المسفوع بالشمس للبيت المهجور. ضايقها تعليقه حول الشخص الذكي، لأنه كان، ولا بد أن يكون، عن زوجته، وأرادت أن تسأل لماذا يقول لها هذا. لماذا تزوج امرأة ليست ذكية ليأتي فقط ويقول لها إن زوجته ليست ذكية؟

«انظري إلى الطاووس يا إفيم»، قال بلطف وكأنه شعر بانزعاجها.

راقبا الطاووس يخرج من ظل شجرة، ثم راقبا طيرانه الحزين إلى مكانه المفضل على السطح، حيث جلس وتفحص المملكة الخربة في الأسفل.

«كم عددها؟»، سأل.

«ذكر وأنثيان، كنت آمل أن أرى الذكر يؤدي رقصة تزاوج لكني لم أره. إنها توقظني صباحًا بصراخها، هل سمعته؟ يشبه قليلًا صراخ طفل لا يرغب بالقيام بشيء ما».

تحرك عنق الطاووس الرشيق هنا وهناك، ثم، وكأنه سمعها، نعب وفتح منقاره واسعًا، وانسكبت الأصوات من حنجرته.

«أنت محقة بشأن الصوت» قال مقتربًا منها، «فيها شيء طفولي. يذكرني المبنى بعقار أملكه في إنوغو. إنه منزل قديم بُني قبل الحرب، واشتريته لهدمه، ثم قررت الاحتفاظ به بعدها. إنه هادئ جدًا ومريح، له شرفات كبيرة وأشجار الياسمين الهندي الكبيرة في الخلف. أنا أرمم الداخل تمامًا فيكون حديثًا جدًا من الداخل، لكنه يظل محتفظًا بمظهره القديم من الخارج، لا تضحكي ولكنه ذكّرني بالشّعر حين رأيته».

ثمة صبيانية في الطريقة التي قال بها لا تضحكي جعلتها تبتسم له، وتسخر منه جزئيًا، وتجعله يعرف جزئيًا أنها أحبت فكرة البيت الذي ذكّره بالشّعر.

«أتخيل يومًا ما حين أهرب من كل هذا، أنني سأذهب وأعيش هناك»، قال.

«يصبح الناس غريبي الأطوار حقًا حين يصبحون أثرياء».

«أو لعل فينا جميعًا غرابة، لكننا لا نملك المال لإظهارها؟ أود اصطحابك لرؤية البيت».

همهمت بشيء ما، بإذعان مبهم.

أخذ هاتفه يرن لوهلة، رنينًا مستمرًا مملًا في جيبه. أخرجه في النهاية وألقى نظرة ثم قال «آسف، مضطر للرد على هذه». هزت رأسها ودخلت متسائلة إن كانت زوجته.

من غرفة المعيشة سمعت نتفًا من صوته ترتفع وتنخفض، ثم ترتفع ثانية،

متحدثًا الإيبو وحين دخل بدا فكه مشدودًا.

«هل كل شيء على ما يرام؟»، سألت.

«إنه فتى من بلدتي الأم، أدفع رسوم دراسته، لكنه الآن استغل احتوائي له وأرسل لي هذا الصباح رسالة نصية يقول إنه بحاجة لهاتف خلوي، وهل يمكنني إرساله له بحلول يوم الجمعة؟ إنه ولد في الخامسة عشرة من عمره، يا لوقاحته، ثم بدأ يتصل بي، فأخبرته فقط أن يكف وأن منحته قد توقفت أيضًا، فقط لأشعل بعض الخوف في رأسه».

«هل هو قريبك؟»

«لا».

انتظرت، متوقعة المزيد.

«أنا أفعل ما يفعله الأثرياء يا إفيم، فأدفع رسوم المدرسة لمئة طفل من قريتي وقرية أمي»، تحدث بفتور مرتبك، فليس هذا الموضوع الذي يهتم بالحديث عنه. وقف قرب المكتبة ،»يا لها من غرفة معيشة جميلة».

«شكرًا لك».

«هل شحنت كل كتبك هنا؟»

«معظمها».

«آه، ديريك والكوت[77]».

«أحبه، بدأت أخيرًا بقراءة الشعر».

«أرى غراهام غرين».

«بدأت قراءته بفضل أمك، أحب رواية جوهر المسألة».

«حاولت قراءتها بعد موتها، أردت أن أحبها، فقد ظننت أنني لو أحببتها...»، لمس الكتاب وانسحب صوته بعيدًا.

أثّر فيها حزنه «إنه أدب حقيقي، قصة بشرية سيقرؤها الناس لمئتي عام»، قالت.

«تبدين مثل أمي»، قال.

---

77) (1930-2017) شاعر وكاتب من سانت لوسيا حاصل على جائزة نوبل عام 1992.

شعر بالألفة والغرابة في الوقت نفسه. وعبر الستائر المفتوحة، سقط هلال من الضوء في غرفة المعيشة، وقفا قرب المكتبة، وحكت له عن المرة الأولى التي قرأت فيها جوهر المسألة، وأصغى بأسلوبه المشدود، كأنه يزدرد كلماتها مثل شراب. وقفا قرب المكتبة وضحكا لمحاولات أمه الكثيرة لجعله يقرأ الكتاب. ثم وقفا قرب المكتبة وتبادلا القبل، قبلة رقيقة في بادئ الامر، الشفاه مضغوطة على الشفاه، ثم تلامس لساناهما وشعرت باللين أمامه، فابتعد أولًا.

«ليس لدي واقيات ذكرية»، قالت بصفاقة، صفاقة متعمدة.

«لم أعرف أننا بحاجة للواقيات الذكرية لتناول الغداء».

ضربته بمداعبة، فقد اخترقت جسدها ملايين الشكوك. ولم ترغب بالنظر إلى وجهه، «لدي فتاة تطهو وتنظف لذا لدي الكثير من اليخنة في مجمدتي، وأرز الجولوف في الثلاجة، يمكننا تناول الغداء هنا، هل ترغب بشرب شيء؟»، استدارت نحو المطبخ.

«ماذا حدث في أمريكا؟»، سأل، «لماذا قطعت التواصل فحسب؟»

استمرت إفيملو في المشي صوب المطبخ.

«لماذا قطعت الاتصال؟»، كرر بهدوء، «أخبريني بما حدث أرجوك».

قبل أن تجلس قبالته إلى طاولة الطعام الصغيرة وتخبره عن مدرب التنس الخبيث العينين في أردمور بنسلفانيا، سكبت لكليهما عصير المانغو من علبة كرتونية. أخبرته بتفاصيل صغيرة عن مكتب الرجل ظلت طازجة في ذهنها، كومة المجلات الرياضية، ورائحة العطن، ولكن حين وصلت للجزء الذي أخذها فيه إلى غرفته، قالت ببساطة «خلعت ثيابي وفعلت ما طلبه مني، لم أصدق أنني تبللت، كرهته وكرهت نفسي، كرهت نفسي حقًا، شعرت كأنني، لست أدري، خنت نفسي»، صمتت، «وخنتك».

للحظات عديدة طويلة، لم يقل شيئًا وعيناه للأسفل، وكأنه يستوعب القصة.

«أنا لا أفكر بالأمر كثيرًا»، أضافت، «أتذكره، لكني لا أعيش فيه، ولا أسمح لنفسي أن تنحبس فيه. من الغريب حقًا أنني أتحدث عنه الآن. يبدو سببًا غريبًا لهجر ما كان بيننا، ولكن هذا هو السبب، ولأن وقتًا أطول مر لم أعرف ماذا أفعل لإصلاحه».

ما زال صامتًا. ونظرت إلى صورة الكاريكاتير المؤطرة لدايك المعلقة على الجدار، وأذني دايك الناتئتين على نحو هزلي، وتساءلت عن شعور أوبِتز. قال أخيرًا «لا أتخيل مدى شعورك بالسوء والوحدة، كان عليك إخباري، أتمنى كثيرًا لو أنك أخبرتني».

سمعت كلماته مثل لحن وشعرت بنفسها تتنفس باضطراب، وتغص بالهواء. لن تبكي، سيكون من السخافة أن تبكي بعد كل هذا الوقت، لكن عينيها اغرورقتا بالدمع، وشعرت بضيق في صدرها ووخز في حنجرتها. بدت الدموع حارقة، فلم تصدر صوتًا، وأخذ يدها في يده، وتعانقا عند الطاولة وبينهما كبر الصمت، صمت قديم عرفه كلاهما، وكانت داخل هذا الصمت آمنة.

الفصل الثاني والخمسون

«لنذهب للعب تنس الطاولة، أنا عضو في هذا النادي الخاص الصغير في فكتوريا آيلاند»، قال.

«لم ألعب منذ قرون».

تذكرت كم أرادت دائمًا أن تهزمه، رغم أنه بطل المدرسة، وكيف يقول لها وهو يغيظها «جربي التخطيط أكثر وبقدر أقلّ من القوة. لا يفوز الشغف بأي لعبة أبدًا، ولا تهتمي بما يقولون». قال شيئًا مماثلًا الآن «لا تفوز الأعذار باللعبة، عليك أن تجربي الاستراتيجية».

قاد السيارة بنفسه. وأدار المحرك فانطلقت الموسيقى أيضًا. أغنية يوري يوري لفرقة براكيت.

«أوه، أحب هذه الأغنية»، قالت.

رفع الصوت وغنيا معه، ثمة حماس في الأغنية، في فرحها الإيقاعي، خلية للغاية من الاصطناع، وملأت الجو بالخفة.

«آه! لم تعودي منذ وقت طويل وها أنت تغنين بهذه الجودة؟»، سأل.

«أول ما فعلته هو التعرف إلى كل الموسيقى المعاصرة، إنها مثيرة جدًا، كل الموسيقى الجديدة».

«حقًا. تعزف النوادي الآن الموسيقى النيجيرية».

ستتذكر هذه اللحظة، الجلوس إلى جانب أوبِنز في سيارته الرنج روفر، وهما عالقان في الازدحام، يستمعان إلى **يوري يوري حبك يجعل قلبي يدق يوري يوري، لا أحد يمكنه أن يحبك كما أفعل**، وإلى جانبهما سيارة لامعة من طراز هوندا، أحدث طراز، وأمامهما سيارة قديمة من طراز دتسن بدا عمرها مئة سنة.

بعد بضع مباريات في تنس الطاولة، التي فاز فيها كلها، ساخرًا منها بتلاعب طوال الوقت، تناولا الغداء في مطعم صغير، كانا فيه وحيدين باستثناء امرأة تقرأ الصحف عند البار. جاء المدير، رجل بدين يكاد ينفجر في سترته السوداء الضيقة، إلى طاولتهما كثيرًا ليقول «أتمنى أن يكون كل شيء مناسبًا يا سيدي، تسعدنا رؤيتك ثانية يا سيدي، كيف العمل يا سيدي؟». مالت إفيملو إلى الأمام وسألت أوبِنز «هل تنوي إخراسه قريبًا؟»

«لم يكن الرجل ليأتي كثيرًا هكذا لولا أنه ظن أنني مُتجَاهَل، أنت مدمنة لذلك الهاتف».

«آسفة، كنت أتفقد المدونة فحسب»، شعرت بالراحة والسعادة «هل تعلم، عليك أن تكتب شيئًا لي».

«أنا؟»

«أجل، سأعطيك الموضوع، ماذا لو كتبت عن مخاطر كونك شابًا وحسن الطلعة وثريًا؟»

«سأكون سعيدًا إن كتبت عن أمر يمكنني تحديده شخصيًا».

«ماذا عن الأمن؟ أود نشر شيء عن الأمن. هل مررت بأي تجربة على جسر البر الرئيس الثالث؟ أخبرني أحدهم عن مغادرته للنادي متأخرًا والعودة للبر الرئيس وانفجر إطار سيارته على الجسر لكنه واصل القيادة لأن الوقوف على الجسر خطر جدًا».

«أنا أعيش في ليكي يا إفيم، ولا أذهب للحانات، ليس بعد الآن».

«حسن»، ألقت نظرة على هاتفها ثانية، «أريد أن يكون لدي دومًا موضوع جديد حيوي فحسب».

«أنت منشغلة».

«هل تعرف توندي رزاق؟»

«ومن لا يعرفه؟ لماذا؟»

«أود مقابلته، أود بدء هذا العمود الأسبوعي «ليغوس من الداخل»، وأريد البدء مع أشخاص مثيرين».

«ما المثير فيه؟ إنه لعوب في ليغوس يعيش على مال والده، يقال إن المال جُمِع من احتكار تصدير الديزل الذي يملكون بسبب علاقتهم مع الرئيس؟»

«إنه أيضًا منتج موسيقي، وبطل في الشطرنج كما يبدو، صديقتي زيمابي تعرفه، وقد كتب لها قائلًا إنه سيجري المقابلة؛ فقط إن سمحت له بدعوتي على العشاء».

«لا بد أنه رأى صورة لك في مكان ما»، نهض أوبِنز ودفع كرسيه للخلف بقوة فاجأتها، «هذا الرجل كلب».

«كن لطيفًا»، قالت فرحة، فقد أسعدتها غيرته. شغل يوري يوري ثانية في طريق العودة إلى شقتها، وتمايلت هي ورقصت بذراعيها، لتسعده.

«ظننت أن شرابك تشابمان ليس كحوليًا»، قال، «أريد تشغيل أغنية ثانية، إنها تذكرني بك».

بدأت أغنية «قلبي» لأوبيون[78] فجلست هادئة وصامتة والكلمات تملأ السيارة، **هذا هو الإحساس الذي لم أعرفه قبلا، ولن أجعله يموت.** حين غنى الصوتان الذكوري والأنثوي بالإيبو، غنى معهما أوبِنز، مبعدًا نظره عن الطريق لينظر إليها، كأنه يخبرها أن هذا حوارهما حقًا، هو يدعوها بالجميلة، وهي تدعوه بالجميل، وكلاهما يدعو الآخر الصديق الحقيقي: ***يا امرأتي الجميلة، يا رجلي الوسيم، أيتها الجميلة، يا صديقي الغالي.***

حين أوصلها مال ليقبل خدها، مترددًا بين الاقتراب وعناقها، كأنما يخشى أن يهزمه انجذابهما «هل أراك غدًا؟»، سأل وأجابت بنعم. ذهبا إلى مطعم برازيلي قرب الخليج، حيث جلب النادل السيخ تلو السيخ المكتظ باللحم والطعام البحري، حتى أخبرته إفيملو أنها على وشك أن تشعر بالغثيان. اليوم التالي طلب منها أن تتناول العشاء معه، واصطحبها إلى مطعم إيطالي وجدت طعامه الغالي تفهًا، وملأها الندل -

---

78) مغنٍ نيجيري ولد عام 1977.

ذوو ربطات عنق الفراشة والكئيبون بطيئو الحركة - بحزن خافت.

قادا السيارة متجاوزين أوبليندو في طريق عودتهما، وقد انتشرت الطاولات والأكشاك على جانبي الطريق المزدحم، وانبعثت أبخرة برتقالية من مصابيح الباعة المتجولين.

قالت إفيملو «لنتوقف ونأكل موز الجنة المقلي!»

وجد أوبِنز بقعة أبعد أمام حانة جعة، وأطفأ سيارته. حيا الرجال الجالسين على المقاعد ويشربون، وكان أسلوبه مريحًا ودافئًا، وهتفوا له «أيها الزعيم! امض فسيارتك بأمان!»

حاولت بائعة موز الجنة المقلي إقناع إفيملو لشراء البطاطا الحلوة المقلية أيضًا.

«لا، موز الجنة فحسب».

«ما رأيك بأكارا يا عمتي؟ أعددتها الآن، طازجة جدًا».

«حسن»، قالت إفيملو، «ضعي أربعة».

«لماذا تشترين أكارا[79] إن كنت لا تريدينها؟»، سأل أوبِنز مبتهّجا.

«لأن هذا استثمار حقيقي، إنها تبيع ما تصنعه. إنها لا تبيع موقعها أو مصدر زيتها أو اسم الشخص الذي يزرع اللوبياء، إنها ببساطة تبيع ما تصنعه».

حين عادا إلى السيارة، فتحت كيس موز الجنة البلاستيكي المزيت، ودست شريحة صغيرة صفراء مقلية جيدًا في فمها «هذا أفضل بكثير من ذلك الشيء المغمور بالزبدة الذي بالكاد أنهيته في المطعم، وتعلم أننا لن نصاب بتسمم الطعام لأن القلي يقتل الجراثيم»، أضافت.

راقبها مبتسمًا، وشكت في أنها تحدثت كثيرًا. هذه الذكرى أيضًا، ستحفظها لأوبليندو في الليل، مضاءة كما كانت بمئات المصابيح الصغيرة، وأصوات الرجال الثملين العالية قربهم، وتأرجح ردفين كبيرين لسيدة مرت بالسيارة.

سأل إن كان باستطاعته اصطحابها للغداء، فاقترحت مطعمًا عاديًا جديدًا سمعت عنه، حيث طلبت شطائر الدجاج ثم اشتكت من الرجل الذي يدخن في

---

79) طبق إفريقي معد من اللوبياء أو ما شابهها من البقول.

الزاوية. «الشكوى من الدخان، سلوك أمريكي»، قال أوبِنز ولم تستطع تحديد إن قصد بها تقريعًا أم لا.

«هل تقدم الشطائر مع البطاطا؟»، سألت إفيملو النادل.

«أجل، سيدتي».

«هل تقدمون بطاطا حقيقية؟»

«عفوًا سيدتي؟»

«هل البطاطا لديكم تلك المجمدة المستوردة، أو أنكم تقطعون البطاطا وتقلونها؟»

بدا النادل مهانًا «إنها المجمدة المستوردة».

حين ابتعد النادل قالت إفيملو، «هذه المجمدة طعمها فظيع».

«لا يصدق أنك تسألين حقًا عن البطاطا الحقيقية»، قال أوبِنز بحيوية، «البطاطا الحقيقية تعد تخلفًا في نظره، تذكري أن هذ هو عالم الطبقة المتوسطة الحديثة، لم نكمل الدورة الأولى من الازدهار، قبل العودة إلى البداية ثانية، أن نشرب الحليب من ضرع البقرة».

في كل مرة يوصلها يقبلها على الخد، كلاهما مائل نحو الآخر ثم يتراجع فتقول هي «إلى اللقاء»، وتنزل من سيارته. في اليوم الخامس حين أوصلها لبنايتها سألت «هل لديك واقيات ذكرية في جيوبك؟»

لم يقل شيئًا لوهلة، «لا، ليس لدي واقيات في جيوبي».

«حسن، لقد اشتريت علبة قبل أيام».

«لم تقولين هذا يا إفيم؟»

«أنت متزوج ولديك طفلة، وكلانا يشتهي الآخر، من نخدع بأمر هذه المواعدة والمطاردة؟ لذا يمكننا أن ننهيها».

«أنت تختبئين خلف السخرية»، قال.

«أوه، يا لك من متعجرف»، كانت غاضبة، لقد مر أسبوع بالكاد منذ التقته أول مرة لكنها كانت غاضبة، وحانقة من توصيله لها وذهابه إلى بيته لحياته الأخرى، حياته الأخرى الحقيقية، وأنها لم تستطع تصور تفاصيل تلك الحياة، لم تعرف ما

نوع الفراش الذي ينام عليه، وما نوع الطبق الذي يأكل منه. لقد تخيلت، منذ أن بدأت تنظر إلى ماضيها، علاقة معه، ولكن في صور شاحبة وخطوط باهتة فحسب. والآن، وقد ووجهت بالواقع معه، والخاتم الفضي حول إصبعه، ذعرت من اعتياده، ومن الغرق. أو لعلها غرقت وانبعث خوفها من هذه المعرفة.

«لماذا لم تتصلي بي حين عدت؟»، سأل.

«لست أدري، أردت الاستقرار أولًا».

«تمنيت لو أنني ساعدتك بالاستقرار».

لم تقل شيئًا.

«هل ما زلت على علاقة مع بْلين؟»

«ولماذا يهمك هذا الأمر، أيها المتزوج؟»، قالت بتهكم بدا لاذعًا جدًا، فقد أرادت أن تكون باردة وبعيدة ومسيطرة.

«هل يمكنني الدخول قليلًا؟ لنتحدث؟»

«لا، أريد القيام ببحث من أجل المدونة».

«ارجوك يا إفيم».

تنهدت «حسن».

في شقتها، جلس على الأريكة وجلست هي على المقعد ذي الذراعين، بعيدة عنه قدر استطاعتها. انتابها ذعر مفاجئ متشائم لما سيقوله أيًا يكن، ولم ترغب بسماعه، ولذا قالت بصخب «تريد زيمابي أن تكتب دليلًا ساخرًا للرجال الذين يودون الخيانة. قالت إنها لم تستطع الاتصال بخليلها قبل بضعة أيام، وحين ظهر أخيرًا، قال لها إن هاتفه سقط في الماء. وقالت إنها القصة الأقدم في الكتاب، سقوط الهاتف في الماء. وجدتها طريفة، لم أسمع بهذا من قبل، لذا رقم واحد في دليلها ألا تقول إن هاتفك سقط في الماء».

«هذه لا تبدو خيانة بالنسبة لي»، قال بهدوء.

«هل تعرف زوجتك أنك هنا؟»، وبختْه، «أتساءل كم عدد الرجال الذين يقولون حين يخونون، إنها لا تبدو مثل خيانة؟»

نهض وحركاته متأنية، فظننته بادئ الأمر يتقدم نحوها، أو ربما أراد الذهاب

للحمام، لكنه مشى نحو الباب الأمامي فتحه وغادر. نظرت إلى الباب، وجلست ساكنة لوقت طويل، ثم نهضت ومشت عاجزة عن التركيز، متسائلة إن كان عليها الاتصال به، موبخة نفسها. قررت ألا تتصل به، لقد استاءت من سلوكه، من صمته، من تظاهره. حين رن جرس الباب بعد دقائق، كان جزء منها معترضًا على فتح الباب.

أدخلته، وجلسا على أريكتها جنبًا لجنب.

«آسف لمغادرتي هكذا»، قال، «لكني استعدت ذاتي منذ عودتك ولم تعجبني الطريقة التي تحدثت بها وكأن ما بيننا شائع، إنه ليس كذلك. وأظنك تعرفين ذلك، أظنك تقولين هذا لجرحي أو لأنك لأنك مشوشة على الأرجح. أعلم أن الأمر صعب عليك، وأننا رأينا بعضنا وتحدثنا عن الكثير لكننا ما زلنا نتفادى الكثير».

«أنت تتحدث بالألغاز»، قالت.

نظر إليها متوترًا، مشدود الفك، واشتاقت لتقبيله. صحيح أنه ذكي وواثق من نفسه، لكنّ فيه براءة أيضًا، وثقة بلا غرور، وعودة لزمن ومكان آخرين، وجدتها عذبة .

«لم أقل شيئًا لأني أحيانًا أكون سعيدًا للغاية بكوني معك ولا أريد إفساد هذا»، قال، «ولأنني أيضًا أريد أن يكون لدي ما أقوله أولًا قبل أن أقول شيئًا».

«أتحسس نفسي وأنا أفكر بك»، قالت.

نظر إليها فاقدًا توازنه قليلًا.

«نحن لسنا الشخصين الوحيدين اللذين يتغازلان يا سيلنغ»، قالت، «لا يمكننا إنكار الانجذاب بيننا وربما علينا أن نتحدث عن ذلك».

«تعلمين أن هذا لا يتعلق بالجنس»، قال، «لم يكن هذا يومًا له علاقة بالجنس».

«أعرف»، قالت وأخذت يده. ثمة رغبة منفلتة خفيفة بينهما، فمالت نحوه وقبلته، وفي البداية كان بطيئًا في استجابته، ومن ثم أخذ يخلع بلوزتها، دافعًا جيبي حمالة صدرها للأسفل ليحرر نهديها. وتذكرت بوضوح قوّة عناقه، ومع ذلك ثمة جدة في اتحادهما، تذكرها جسداهما ولم يتذكراها. تحسست الندبة في صدره متذكرة إياها ثانية. دائمًا ما رأت أن عبارة «ممارسة الحب» عاطفية، وتبدو عبارة ممارسة الجنس أصدق، وكلمة المضاجعة أكثر إثارة، ولكن بالاستلقاء قربه بعد ذلك، وكلاهما

يبتسم، ويضحك أحيانًا، وجسدها مغمور بالسلام، فكرت بمدى دقة عبارة ممارسة الحب. ثمة يقظة حتى في أظافرها، في تلك الأجزاء من جسدها التي كانت خدرة دومًا. أرادت أن تقول له «لم يمر أسبوع دون التفكير بك»، ولكن هل هذا صحيح؟ مرت أسابيع بالطبع انطوت أثناءها تحت طبقات حياتها، لكنه بدا حقيقيًا.

رفعت نفسها وقالت، «كنت دومًا أرى السقف مع رجال آخرين».

ابتسم ابتسامة طويلة بطيئة «هل تعرفين بم شعرت طويلاً؟ كأنني أنتظر أن أكون سعيدًا».

نهض ليذهب للحمام. ووجدت قصره جذابًا للغاية، قصره الصلب المشدود. لقد رأت في قصره ثباتًا، إذ يمكنه احتمال أي شيء، ولن يتمايل بسهولة. عاد وقالت إنها جائعة ووجد برتقالات في ثلاجتها وقشرها وتناولا البرتقال جالسين قرب بعضهما، ثم استلقيا متعانقين عاريين في دائرة مكتملة من الكمال، فغطت في النوم لم تعلم معه متى غادر. استيقظت على صباح معتم ممطر بغزارة. رن هاتفها وكان المتصل أوبِنز.

«كيف حالك؟»، سأل.

«سكرى، لا أدري ما الذي حدث البارحة، هل أغويتني؟»

«سررت أن لبابك قفل، كنت سأكره إيقاظك لتقفلي الباب».

«لقد أغويتني إذًا».

ضحك،»هل أستطيع القدوم؟»

أحبت الطريقة التي قال بها «هل أستطيع القدوم؟»

«نعم، إنها تمطر بجنون».

«حقًا؟ إنها لا تمطر هنا، أنا في ليكي».

رأت هذا مثيرًا بشكل أحمق، أن السماء تمطر حيث هي، ولا تمطر حيث هو، على بعد دقائق منها، ولذا انتظرت بنفاد صبر وبجذل عامر حتى يريا المطر معًا.

الفصل الثالث والخمسون

هكذا بدأت أيامها السكرى مترعة بالروتين. أخذت تشعر بالحيوية، وقلبها ينبض أسرع حين يأتي إلى بابها، وتنظر لكل صباح مثل فتح هدية. فتضحك أو تقاطع ساقيها، أو تأرجح ردفيها بخفة، بوعي عال بذاتها. وعبق قميص نومها بشذى عطره، عطر خفيف من الحمضيات والخشب، لأنها تركته دون غسيل قدر استطاعتها، وأجلت مسح قطرات من دهان اليدين تركها على مغسلتها، وبعد أن مارسا الحب تركت الانبعاج على المخدة دون مساس، تلك الحفرة الناعمة لمكان رأسه، كأنما لتبقي روحه حتى المرة القادمة. كثيرًا ما وقفا على شرفتها لمراقبة الطواويس على سطح المنزل المهجور، ومن حين لآخر يمسكان بأيدي بعضهما، فتفكر في المرة القادمة، والقادمة التي سيفعلان بها هذا معًا. كان هذا هو الحب؛ أن تكون متلهفة للغد. هل شعرت بهذا النحو في مراهقتها؟ بدت العواطف خرقاء، فهي تغتاظ إن لم يرد على رسالتها النصية فورًا، ويعتم ذهنها بالغيرة من ماضيه «أنت حب حياتي العظيم»، قال لها، وصدقته، لكنها ما زالت تشعر بالغيرة من النساء الأخريات اللاتي أحبهن حتى وإن كان حبًا عابرًا، هؤلاء النسوة اللاتي احتللن مساحة في فكره. وشعرت بالغيرة من النساء اللاتي أحببنه، متخيلة حجم الاهتمام الذي حظي به هنا في ليغوس، فقد كان حسن الطلعة، وصار ثريًا الآن أيضًا. حين عرّفته على زيمابي، زيمابي الرشيقة في تنورتها الضيقة وكعبها العريض، كتمت استياءها لأنها رأت في عيني زيمابي المتيقظتين

المتفحصتين عيون كل النساء الجائعات في ليغوس . لقد كانت غيرة من تخيلها، فهو لم يفعل شيئًا لتحريضها، إذ كان مستغرقًا وشفافًا في إخلاصه. انبهرت بمدى إصغائه بعناية وحرص، فهو يتذكر كل شيء قالته له. لم تحظ بهذا من قبل، بالإصغاء إليها وأن تُسمَع حقًا، ولذا صار غاليًا مجددًا. وكلما قال إلى اللقاء في نهاية مكالمة، شعرت بهلع عميق. إن تلك حماقة حقًا. وقد كان حبهما في المراهقة أقل ميلودراما، أو لعله كذلك لأن الظروف مختلفة، وما يحوم حولهما الآن هو الزواج الذي لم يتحدث عنه مطلقًا. كان يقول أحيانًا «لا أستطيع القدوم يوم الأحد إلى منتصف العصر»، أو «علي الرحيل باكرًا اليوم»، العبارات التي عرفت منها أن الأمر يتعلق بزوجته، لكنهما لم يتحدثا عن ذلك أكثر. هو لم يحاول وهي لم ترغب، أو قالت لنفسها إنها ليست راغبة. تعجبت من اصطحابه لها علانية إلى الغداء والعشاء، وإلى ناديه الخاص حيث يدعوها النادل «سيدتي» مفترضًا أنها زوجته ربما، وأن يبقى لديها حتى ما بعد منتصف الليل ولم يستحم أبدًا بعد ممارستهما للحب، وأنه يذهب إلى بيته مكتسيًا بلمستها ورائحتها على جلده. وقد عزم على إضفاء الكرامة على علاقتهما قدر استطاعته، وأن يتظاهر بأنه لا يتخفى رغم أنه يفعل طبعًا. مرة قال بشكل ملغز، وهما متعانقان في فراشها تحت الضوء الخافت لآخر المساء «يمكنني البقاء الليلة، أحب أن أبقى»، فقالت «لا» سريعة ولا شيء غيرها. لم ترغب بالاعتياد على الاستيقاظ ورؤيته قربها، ولم تسمح لنفسها بالتفكير بسبب إمكان بقائه الليلة. وهكذا ظل زواجه معلقًا بينهما، مسكوتًا عنه غير ممسوس، حتى ذات مساء، حين لم تشعر برغبة بتناول الطعام خارجًا. قال بحماس «هل لديك بصل وسباغيتي، دعيني أطهو لك».

«بشرط ألا أصاب بألم في المعدة».

ضحك. «أفتقد الطبخ، لا أستطيع الطبخ في البيت». وفي هذه اللحظة صارت زوجته طيفًا شبحيًا داكنًا في الغرفة. كان واضحًا ومهددًا بطريقة لم تكن كذلك حين يقول «لا يمكنني القدوم يوم الأحد حتى منتصف العصر» أو «علي الذهاب باكرًا اليوم». استدارت مبتعدة عنه، وفتحت حاسوبها المحمول لتتفقد المدونة واضطرمت النار داخلها، وشعر بذلك أيضًا، بالخروج المفاجئ لكلماته لأنه جاء ووقف قربها.

«لم تعجب كوسي أبدًا فكرة أن أطهو. لديها حقًا أفكار نمطية ساذجة عما

يجب أن تكونه الزوجة، وظننت أن رغبتي بالطبخ اتهام لها، وهو ما أراه سخيفًا. لذا توقفت لأحظى بالهدوء. أعد الأومليت ولا شيء غيره، ونتظاهر كلانا بأن حساء أونغبو الذي أعده ليس أفضل من حسائها. في زواجي الكثير من التظاهر يا إفيم»، صمت، «تزوجتها حين شعرت بالهشاشة، لقد مررت بالكثير من الاضطرابات في حياتي في ذلك الوقت».

قالت، مديرة ظهرها له، «أوبِنز من فضلك اطه السباغيتي فحسب».

«أشعر بمسؤولية كبيرة تجاه كوسي وهذا كل ما أشعر به، وأريدك أن تعرفي ذلك»، أدارها بلطف لتواجهه، ماسكًا كتفيها، وبدا كأنما أراد قول أمور أخرى، ولكنه توقع أن تساعده لقولها، ولهذا شعرت بومضة استياء جديد. استدارت عائدة نحو حاسوبها، تخنقها الرغبة بالتدمير والحرق والتخريب.

«سأتناول العشاء مع توندي رزاق غدًا»، قالت.

«لماذا؟»

«لأنني أريد ذلك».

«قلت ذلك اليوم إنك لن تفعلي».

«ماذا يحدث حين تعود للبيت وتستلقي على السرير مع زوجتك؟ ماذا يحدث؟»، سألت وشعرت برغبة بالبكاء، فقد تصدع شيء ما بينهما وفسد.

«أظن أن عليك الذهاب» قالت.

«لا».

«أوبِنز من فضلك اذهب فحسب».

رفض المغادرة وشعرت لاحقًا بالامتنان لأنه لم يغادر. أعد السباغيتي ودفع إليها بطبقها، فجف حلقها وتلاشت قابليتها.

«لن اسألك عن شيء أبدًا، انا امرأة ناضجة وعرفت وضعك حين دخلت في هذه العلاقة»، قالت.

«أرجوك لا تقولي هذا»، قال، «هذا يخيفني، يجعلني أشعر أنني قابل للاستغناء عني».

«الأمر لا يتعلق بك».

«أعلم، أعلم أنها الطريقة الوحيدة التي تشعرين بها بقليل من الكرامة في هذا».

نظرت إليه وقد أخذت عقلانيته تزعجها.

«أحبك يا إفيم، نحن نحب بعضنا»، قال.

ملأت الدموع عينيه، وأخذت تبكي أيضًا بكاء عاجزًا وعانقا بعضهما. لاحقًا استلقيا في الفراش معًا، وكان الجو هادئًا وساكنًا للحد الذي بدا فيه صوت قرقرة معدته عاليًا.

«هل هذا بطني أم بطنك؟»، سألها ليغيظها.

«إنه بطنك طبعًا».

«هل تذكرين المرة الأولى التي مارسنا فيها الحب؟ كنت تعتليني، وأحببت اعتلاءك لي».

«لا يمكنني اعتلاؤك الآن، أنا بدينة جدًا، ستموت».

«كفي».

نهض أخيرًا وارتدى بنطاله، وحركاته بطيئة ومعترضة، «لن أستطيع القدوم غدًا يا إفيم، علي أخذ ابنتي..»

قاطعته، «لا بأس».

«سأذهب إلى أبوجا يوم الجمعة»، قال.

«أجل، قلت ذلك»، حاولت إبعاد الشعور بالهجر القادم، الذي سيستولي عليها ما إن يخرج من الباب وتسمع نقرة إغلاق الباب.

«تعالي معي»، قال.

«ماذا؟»

«تعالي معي إلى أبوجا، لدي اجتماعان فقط، ثم يمكننا قضاء نهاية الأسبوع. سيكون الأمر جيدًا لكلينا أن نكون في مكان مختلف، كما أنك لم تذهبي إلى أبوجا يومًا، يمكنني حجز غرفتين منفصلتين في الفندق إن أردت، وافقي أرجوك».

«نعم»، قالت.

لم تسمح لنفسها بفعل هذا قبلًا، لكن بعد أن غادر، نظرت إلى صورة كوسي على الفيسبوك. كان جمال كوسي أخاذًا، هاتان الوجنتان والبشرة الكاملة وتلك

الانحناءات الأنثوية الرائعة. حين رأت صورة التقطت في زاوية معتمة، تفحصتها لوهلة ووجدت فيها سرورًا صغيرًا وشريرًا.

—

كانت عند مصفف الشعر حين أرسل لها رسالة نصية، **آسف يا إفيم، لكني أظن أن علي الذهاب وحدي إلى أبوجا، أحتاج لبعض الوقت للتفكير بالأمور، أحبك.** نظرت إلى الرسالة وبأصابع مرتعشة ردت عليه برسالة نصية من كلمتين **جبان لعين.** ثم استدارت إلى ضافرة الشعر «هل ستجففين شعري بهذه الفرشاة؟ لا بد أنك تمزحين. ألا تستطيعون التفكير يا قوم؟»

بدت ضافرة الشعر مرتبكة، «آسفة يا عمتي ولكن هذا ما استخدمته قبلًا على شعرك».

في الوقت الذي وصلت فيه إفيم إلى بنايتها، وقفت سيارة أوبِنز الرنج روفر أمام شقتها وتبعها للأعلى.

«إفيم أرجوك أريدك أن تفهمي. أظن أن الأمور سريعة قليلًا، كل شيء بيننا، وأنا أود أخذ بعض الوقت لوضع الأمور في نصابها».

«سريعة قليلًا»، كررت، «يا له من أمر غريب، لا يشبهك مطلقًا».

«أنت المرأة التي أحب، لا يمكن لشيء تغيير هذا، لكني أشعر بحس المسؤولية حول ما علي فعله».

أجفلت منه، من خشونة صوته، تفاهة كلماته السهلة والضبابية، ماذا تعني «مسؤولية تجاه ما علي فعله»؟ هل تعني أنه أراد مواصلة رؤيتها ويظل متزوجًا؟ هل تعني أنه لن يستطيع رؤيتها ثانية؟ إنه يتحدث بوضوح حين يريد، لكنه الآن يختبئ خلف كلماته الغائمة.

«ما الذي تقوله؟»، سألته «ما الذي تحاول قوله لي؟»

حين ظل صامتًا، قالت «اذهب للجحيم».

دخلت غرفة نومها وأغلقت الباب، ومن نافذة الغرفة شاهدت الرنج روفر إلى أن اختفت في انعطافة الطريق.

الفصل الرابع والخمسون

كان لأبوجا آفاق بعيدة الأطراف، وشوارع عريضة ونظام. وقدومك من ليغوس يعني أن تذهل هنا بالمساحات والوقت. عبق الهواء برائحة السُّلطة، والكل هنا يتفحصون الكل، متسائلين عن القدر الذي يكون فيه الآخر «أحدًا ما». وعبقت برائحة المال، المال السهل، والمال سهل التبادل. كما كانت تقطر جِنسًا أيضًا. قال صديق أوبِنز تشيدي إنه لا يسعى خلف النساء في أبوجا لأنه لا يريد أن يغيظ وزيرًا أو سيناتور، فقد صارت كل امرأة شابة هنا مشتبهًا بها على نحو غامض. وقال تشيدي إن أبوجا أكثر محافظة من ليغوس، لأن المسلمين فيها أكثر منهم في ليغوس، وفي الحفلات لا ترتدي النساء ملابس فاضحة، إلا إن بوسعك شراء الجنس وبيعه بسهولة هنا. أوشك أوبِنز على خيانة كوسي في أبوجا، ليس مع أي من الفتيات الممتلئات ذوات العدسات الملونة ووصلات الشعر المتدلية اللواتي لاحقنه دومًا، بل مع امرأة في منتصف العمر ترتدي القفطان جلست قربه في حانة الفندق، وقالت «أعلم أنك ضجر»، وبدت جائعة للتهور، قد تكون زوجة محبطة مكبوتة قد تحررت لهذه الليلة.

للحظة، غلبته الشهوة، الشهوة الفجة المزلزلة، لكنه فكر بمدى ضجره تاليًا، وكم سيصعب إخراجها من غرفته، وكل ذلك بدا جهدًا كبيرًا.

كان سينتهي بها الأمر مع واحد من الرجال الكثيرين في أبوجا الذين يعيشون

حياة عاطلة مرفهة في الفنادق والمنازل المستأجرة، يساومون ويقايضون أشخاصًا مرتبطين ليحصلوا على عقد أو ليدفع لهم لقاء عقد. في رحلة أوبِنز الأخيرة إلى أبوجا، نظر رجل من أمثال هؤلاء لا يعرفه أوبنز، لوهلة إلى امرأتين على الطرف الآخر من البار ثم سأله بعفوية «هل لديك واق ذكري إضافي؟»، وصده.

أما الآن، فقد تخيل إفيملو قربه، وهو جالس إلى طاولة مغطاة بالأبيض في بروتي أسوكورو، ينتظر إيدوسكو، رجل الأعمال الذي يريد شراء أرضه، وتساءل كيف ستجد أبوجا. كانت ستكرهها، وتكره انعدام الروح فيها، أو لعلها لن تفعل. فلم يكن يسهل التنبؤ بما تفكر. مرة على العشاء في مطعم في فكتوريا آيلاند، والندل الكئيبون يتجولون في الأنحاء، بدت بعيدة، وعيناها على الجدار خلفه، وخشي أن تكون منزعجة من أمر ما.

«بم تفكرين؟»، سأل.

«أفكر لم تبد كل اللوحات في ليغوس مائلة، ولا يعلقونها مستقيمة أبدًا»، قالت فضحك، وفكر أنه معها لم يكن مثلما كان مع أي امرأة أخرى، مستمتع، متيقظ، حيوي. لاحقًا حين غادرا المطعم راقبها وهي تتفادى برشاقة برك الماء في الحفر قرب البوابة وشعر برغبة بتعبيد كل طرق ليغوس من أجلها.

كان عقله منهكًا، فمرة يرى أن عدم مجيئه إلى أبوجا معها قرار صائب، لأنه بحاجة لدراسة الأمور، ومرة يغمره تقريع الذات. لعله أبعدها، فقد اتصل بها عددًا من المرات وأرسل رسائل نصية يسأل إن كان بوسعهما الحديث، لكنها تجاهلته، وهو ما كان أفضل لأنه لم يكن يعلم ما يقول لو تحدثا.

وصل إيدسكو. هدر صوت عال من مدخل المطعم وهو يتحدث على الهاتف. لم يكن أوبِنز يعرفه جيدًا، فقد تعاملا معًا مرة واحدة فقط من قبل، وقد عرفهما صديق مشترك، لكن أوبِنز أعجب برجال مثله، رجال لا يعرفون أي رجل مهم، وليس لديهم علاقات، وصنعوا ثرواتهم بطريقة لم تقاوم المنطق البسيط للرأسمالية. كان إيدوسكو متعلمًا تعليمًا ابتدائيًا فقط قبل أن يبدأ التدرب لدى التجار، وقد بدأ بكشك في أونيتشا ويملك الآن ثاني أكبر شركة مواصلات في البلاد. دخل المطعم، بخطى واثقة وبطن كبير، متحدثًا إنجليزيته الفظيعة بصوت عال، ولم يخطر له أن

يشك بنفسه.

لاحقًا، حين ناقشا سعر الأرض، قال إيدسكو «اسمع يا أخي، لن تبيعها بهذا السعر، لن يشتريها أحد، فاللحم شحيح، والكساد يضرب الجميع».

«ارفع السعر قليلًا يا أخي، فهذه أرض في ماتياما التي نتحدث عنها، وليست أرضًا في قريتك»، قال أوبِنز.

«بطنك ممتلئ، ما الذي تريده أكثر؟ هل ترى، هذه هي مشكلتكم أيها الإيبو، أنتم لا تراعون الإخوة؟ لهذا أحب اليوروبا، إنهم يعتنون ببعضهم. هل تعرف أنني ذهبت قبل أيام إلى دائرة العقارات قرب بيتي وكان هناك رجل من الإيبو، رأيت اسمه وتحدثت بالإيبو ولم يجبني حتى! رجل الهاوسا سيتحدث إلى رفيقه رجل الهاوسا، لكن الإيبو سيتحدث الإنجليزية إلى الإيبو، أنا مندهش أنك تتحدث الإيبو معي».

«هذا صحيح»، قال أوبِنز»إنه محزن، إنه إرث لكوننا شعبًا مهزومًا، لقد خسرنا الحرب البيافرية[80] وتعلمنا أن نكون خجلين».

«إنها ليست سوى أنانية!»، قال إيدسكو غير مكترث بمحاضرة أوبِنز «رجل اليوروبا هناك يساعد أخاه، لكن أنتم يا قوم الإيبو؟ مخادعون، انظر إليك الآن وأنت تعرض علي هذا السعر».

«حسن يا إيدسكو، لم لا أعطيك الأرض مجانًا؟ دعني أذهب وأحضر لك الأوراق وأعطيها لك الآن».

ضحك إيدسكو، يمكنه القول إن إيدسكو قد أحبه، وتخيل إيدسكو يتحدث عنه في اجتماع مع رجال عصاميين آخرين من الإيبو، رجال وقحين ومقاومين، أنشؤوا أعمالًا كبيرة وأعالوا أسرًا كبيرة ممتدة. **أوبِنز رجل صالح**، تخيل إيدسكو يقول، **أوبِنز ليس مثل أولئك الفتية الأغنياء التافهين، هذا الرجل ليس غبيًا.**

نظر أوبِنز إلى زجاجة غلدر الفارغة تقريبًا، وكان غريبًا كم بدا كل شيء خاليًا من النكهة بلا إفيملو، حتى طعم جعته المفضلة مختلف. كان عليه إحضارها معه إلى أبوجا، ومن الغباء أن يدعي أنه بحاجة للوقت للتفكير بالأمور، في حين أن كل ما

80) الحرب الأهلية النيجيرية التي استمرت أربع سنوات، وقد كتبت عنها الكاتبة روايتها نصف شمس صفراء.

فعله هو الاختباء من الحقيقة التي يعرفها. دعته بالجبان، وقد كان في خوفه من الفوضى جبن فعلًا، من إزعاج ما لم يرده، حياته مع كوسي، ذلك الجلد الثاني الذي لم يلائمه تمامًا.

«حسن يا إيدسكو»، قال أوبنز وقد شعر بالاستنزاف فجأة، «لن آكل الأرض إن لم أبعها».

بدا إيدسكو محتارًا «هل تعني أنك توافق على سعري؟»

«أجل»، قال أوبنز.

بعد أن غادر ايدسكو اتصل أوبنز بإفيملو مرات ومرات لكنها لم ترد. ربما كان هاتفها صامتًا وهي تأكل على طاولة الطعام مرتدية ذلك القميص الوردي الذي ترتديه كثيرًا، بثقب صغير عند الرقبة، وعبارة **مقهى محطم القلوب** مكتوبة على وجهه الأمامي، وكانت حلمتاها، حين تتصلبان، تنقطان هذه الكلمات مثل فاصلتين بارزتين. أثاره التفكير بقميصها الوردي. أو لعلها تقرأ في الفراش وقد نشرت مبذلها من قماش الأبادا عليها مثل بطانية، مرتدية سروالًا قصيرًا داخليًا أسود ولا شيء سواه. كل ثيابها الداخلية سراويل قصيرة سوداء، فقد سخرت من السراويل البناتية. مرة رفع هذا السروال عن الأرض حيث رماه بعد أن أنزله على ساقيها، ونظر إلى القشرة الحليبية عند الفخذ، فضحكت وقالت «آه، هل تريد شمه؟ لم أفهم أبدًا قصة شم الثياب الداخلية هذه». أو لعلها جالسة إلى حاسوبها، تعمل على مدونتها، أو خارجة مع رانينودو أو تكلم دايك على الهاتف. أو لعلها مع رجل في غرفة معيشتها تخبره عن غراهام غرين. اشتعل وسواس داخله لفكرة أن تكون مع أحد آخر، طبعًا لن تكون مع أحد آخر، ليس بهذه السرعة، ومع ذلك كان ثمة عناد فيها لا يمكن التنبؤ به، فربما فعلت هذا لإيذائه. حين قالت له في اليوم الأول «لقد رأيت السقف مع رجال آخرين»، تساءل عن عددهم، وأراد أن يسألها لكنه لم يفعل لأنه خشي أن تقول له الحقيقة، وخشي أن يتعذب بها إلى الأبد. لقد عرفت بلا شك أنه يحبها، لكنه تساءل إن عرفت أنه يتنفسها وأنه مصاب بها ومتأثر بها كل يوم، وأنها سيطرت عليه حتى في نومه. «تحب كمبرلي زوجها وزوجها يحب نفسه، كان عليها تركه لكنها لن تفعل أبدًا»، قالت مرة عن المرأة التي عملت لديها في أمريكا، المرأة ذات القلب الأبيض. كانت كلمات

إفيملو خفيفة خلية من الظلال ومع ذلك سمعها مع وخز معاني أخرى.

حين أخبرته عن حياتها الأمريكية، أصغى باهتمام قريب من اليأس، فقد أراد أن يكون جزءًا من كل شيء فعلته، وأن يكون مُطّلعًا على كل عاطفة شعرت بها.

مرة قالت له، «مشكلة العلاقات المتعددة الثقافات أنك تمضي وقتًا طويلًا في التفسير، أمضينا أنا وأصدقائي السابقون كثيرًا من الوقت في الشرح. وتساءلت أحيانًا إن كان ثمة ما نقوله لبعضنا لو أننا قدمنا من المكان نفسه»، وأسعده سماع ذلك، لأنه منح علاقته بها عمقًا، وافتقارًا للحداثة العابثة، فقد كانا من المكان نفسه وما زال لديهما الكثير ليقولاه لبعضهما.

تحدثا عن السياسة الأمريكية مرة حين قالت «أحب أمريكا، إنها حقًا المكان الآخر الوحيد الذي يمكنني العيش فيه بمعزل عن هنا. ولكني تحدثت مع مجموعة من أصحاب بْلين عن الأطفال يومًا، وأدركت أنني لو كان لي أطفال يومًا فلا أريد لهم طفولة أمريكية. لا أريدهم أن يقولوا «مرحبًا» للبالغين، بل أريدهم أن يقولوا «صباح الخير» و«مساء الخير». ولا أريدهم أن يغمغموا «بخير»، حين يسألهم أحد «كيف حالك؟»، أو أن يرفعوا خمسة أصابع حين يُسألون عن أعمارهم. أريدهم أن يقولوا «أنا بخير، شكرًا لك»، و«عمري خمس سنوات». لا أريد طفلًا يتغذى على الثناء ويتوقع نجمة لجهده ويرد في وجه الكبار باسم التعبير عن الذات. هل هذا محافظ للغاية؟ قال أصدقاء بْلين إنه كذلك، وبالنسبة إليهم «محافظ» هي أسوأ إهانة تتلقاها».

ضحك، متمنيًا لو كان هناك مع مجموعة الأصحاب، وأراد ذلك الطفل الخيالي أن يكون طفله، ذلك الطفل المحافظ ذا الأخلاق الحسنة. قال لها «ستبلغ الطفلة الثامنة عشرة وتصبغ شعرها بالبنفسجي»، فقالت «أجل، لكني عندها سأكون قد طردتها من البيت».

في مطار أبوجا في طريق عودته إلى ليغوس، فكر بالذهاب إلى جناح الرحلات الدولية، وشراء تذكرة إلى مكان ما بعيد الاحتمال، مثل مالابو. ثم شعر باشمئزاز عابر من الذات لأنه لن يفعلها طبعًا، بل سيفعل عوضًا عن ذلك ما يتوقع منه فعله. كان متجهًا إلى طائرة ليغوس حين اتصلت كوسي.

«هل الرحلة في وقتها؟ تذكر أننا سنصطحب نايجل لعيد ميلاده»، قالت.

«طبعًا أذكر».

وخيم صمت من طرفها. لقد رد بنزق.

«أنا آسف»، قال، «أعاني صداعًا رهيبًا».

«عزيزي، متأسفة، أعلم أنك متعب»، قالت، «أراك قريبًا».

أغلق الهاتف، وتذكر اليوم الذي ولدت فيه طفلتهما الزلقة ذات الشعر الملفلف بوتشي، في مستشفى وودلاندز في هيوستن، كيف التفتت إليه كوسي وهو لم يزل يعبث بقفازيه المطّاطيّين، وقالت بشيء يشبه الاعتذار «عزيزي، سننجب ولدًا المرة القادمة»، فنكص. أدرك حينها أنها لم تعرفه، لم تعرفه على الإطلاق. لم تعرف أنه لا يبالي بجنس الجنين، وشعر بازدراء خفيف تجاهها، لرغبتها بولد لأنه يفترض به أن يريدا ولدًا، ولقدرتها على القول وقد خرجت من ولادة طفلتهما الأولى هذه الكلمات «سيكون لنا ولد في المرة القادمة». ربما عليه أن يتحدث معها أكثر، حول الطفل الذي ينتظرانه وحول كل شيء، لأنهما لم يتحدثا حقًا، رغم تبادلهما الأفكار البهيجة وصداقتهما الطيبة وتشاطرهما صمتًا مريحًا. غير أنه لم يحاول أبدًا، لأنه عرف أن الأسئلة التي يطرحها عن الحياة مختلفة كليًا عن أسئلتها.

عرف ذلك منذ البداية، وشعر به في حديثهما الأول بعد أن عرّفهما صديق على بعضهما في حفل زفاف. كانت ترتدي ثوب إشبينة عروس حريري باللون الفوشيا، بتقويرة كبيرة تظهر نحرها الذي لم يستطع الكف عن النظر إليه، وألقى أحدهم خطابًا، واصفًا العروس بأنها «امرأة فاضلة»، وهزت كوسي رأسها بحماس وهمست له «إنها امرأة فاضلة حقًا». فاجأه ذلك، قدرتها على استخدام كلمة فاضلة بلا أدنى سخرية، كما يكتب في قسم النساء المكتوب برداءة في صحف نهاية الأسبوع. **زوجة الوزير امرأة بسيطة فاضلة**. ومع ذلك، أرادها ولاحقها بتركيز مفرط. لم يسبق له أن رأى امرأة لها هذا الاستواء المثالي للخدين الذي جعل كامل وجهها يبدو حيويًا، وهندسيًا للغاية ومثيرًا حين تبتسم. وكان حديث الثراء وحديث الضلال، ففي أسبوع كان مفلسًا ويربض في شقة قريبته، وفي الأسبوع التالي صار لديه ملايين النايرا في حسابه المصرفي. وصارت كوسي محك الواقعية. إن كان يستطيع أن يكون معها،

الخارقة الجمال والعادية والمتوقعة والبيتوتية والمخلصة للغاية في الآن نفسه، عندها إذًا يمكن أن تبدأ حياته لتكون حياته صدقًا. انتقلت إلى بيته من الشقة التي تقاسمتها مع صديقة، ورتبت زجاجات عطورها على طاولة الزينة خاصته، روائح حمضية صار يربطها بالبيت، وجلست في سيارته بي إم دبليو قربه وكأنها سيارته دومًا، واقترحت بعفوية رحلات خارجية وكأنه يستطيع السفر دومًا، وحين استحما معًا، دعكته بإسفنجة خشنة، بين أصابع قدمه حتى شعر بالتجدد. إلى أن امتلك حياته الجديدة، لم تشاركه اهتمامه- كانت امرأة متعلمة لا تحبّ الكتب، وكانت راضية أكثر من كونها فضولية حيال العالم- لكنه شعر بالامتنان لها، وبأنه محظوظ أن يكون معها. ثم أخبرته أن أقاربها يسألون عن نواياه. «إنهم يواصلون السؤال»، قالت وأكدت على «إنهم»، لتبعد نفسها من المطالبة بالزواج. لقد فهم مناورتها وكرهها، إلا أنه تزوجها. فهما يعيشان معًا على أية حال، وهو لم يكن تعسًا، وتخيل أنها، بمرور الوقت، ستكتسب بعض الثقل. لم تفعل بعد أربع سنوات، سوى على الصعيد الجسدي بطريقة تجعلها أكثر جمالًا وانتعاشًا، بوركين ونهدين أكثر امتلاء، مثل نبتة منزلية مروية جيدًا.

أسعد أوبِنز قرار نايجل بالانتقال إلى نيجيريا، بدلًا من زيارتها فقط كلما احتاج أوبِنز تقديم مديره العام الأبيض. كان المال جيدًا، ويمكن لنايجل الآن أن يعيش في إسكس الحياة التي لم يتخيلها قبلًا، لكنه أراد العيش في ليغوس، لفترة على الأقل. وهكذا بدأ انتظار أوبِنز الجذل لإرهاق نايجل بالحساء المتبل بالفلفل والنوادي الليلية والشرب في أكواخ على شاطئ كورامو. لكن نايجل يظل مسمرًا في شقته في إكويي، مع عاملته المنزلية وكلبه. لم يعد يقول «ليغوس فيها الكثير من النكهات»، وأخذ يتذمر من الازدحام أكثر وكفّ أخيرًا عن التفكير بصديقته السابقة، فتاة من بينوو ذات وجه جميل وأسلوب منافق، تركته من أجل رجل أعمال لبناني ثري.

«الرجل أصلع تمامًا»، قال نايجل لأوبِنز.

«مشكلتك يا صديقي أنك تحب بسهولة للغاية وكثيرًا، يمكن لأي شخص أن يرى أن الفتاة متصنعة، وتبحث عن الشيء الأكبر التالي»، قال له أوبِنز.

«لا تقل شيئًا أكبر هكذا يا رفيقي!»، قال نايجل.

وقد التقى الآن بأولرايك، امرأة نحيلة بوجه ذاوٍ وجسد لرجل شاب، تعمل في السفارة وتبدو مصممة على شق طريقها عبر المحطة النيجيرية. على العشاء مسحت أدوات المائدة بالمنديل قبل أن تبدأ الأكل.

«لن تفعلي هذا لو كنت في بلدك، أليس كذلك؟»، سأل أوبِنز ببرود، ووجه له نايجل نظرة متعجبة.

«أنا أفعل حقيقة»، قالت أولرايك مواجهة نظرته مباشرة.

ربتت كوسي على فخذه تحت الطاولة، كأنما لتهدئه، وهو ما أزعجه. لقد أثار نايجل استياءه أيضًا، وهو يتحدث فجأة عن بيوت البلدة التي يخطط أوبِنز لبنائها، وأن تصميم المهندس رائع، في محاولة جبانة لإنهاء حديث أوبِنز مع أولرايك.

«مخطط رائع من الداخل، جعلني أتذكر بعض تلك الصور للمباني الأنيقة في نيويورك»، قال نايجل.

«لن أنفذ هذا المخطط يا نايجل. مخطط المطبخ المفتوح لن ينجح أبدًا مع النيجيريين ونحن نستهدف النيجيريين لأننا نبيع ولا نؤجر. مخطط المطبخ المفتوح يناسب المغتربين، والمغتربون لا يرغبون بشراء عقار هنا». لقد أخبر نايجل عددًا من المرات أن الطبخ النيجيري ليس تجميليًا، وفيه كل ذلك الخبط. بل كان كثير التوابل ويجعل العرق يتصبب، ويفضل النيجيريون تقديم المنتج الأخير لا العملية.

«لا مزيد من الحديث عن العمل!»، قالت كوسي بألق، «هل تناولت أي طعام نيجيري يا أولرايك؟»

نهض أوبِنز بحدة وذهب إلى الحمام. اتصل بإفيملو ووجد نفسه غاضبًا لأنها لا ترد على مكالماته. لقد لامها لجعله الشخص الذي لم يكن يسيطر تمامًا على مشاعره.

جاء نايجل إلى الحمام، «ما الأمر يا رفيق؟». كانت وجنتا نايجل حمراوين جدًا كما يصبحان دومًا حين يشرب. وقف أوبِنز قرب المغسلة حاملًا هاتفه، وذلك التعب المستنزف ينبسط عليه ثانية. أراد أن يخبر نايجل، فربما كان نايجل هو الصديق الوحيد الذي يمكنه الوثوق به كليًا، لكن نايجل يحب كوسي «إنها امرأة كاملة يا رفيق»، قال له نايجل مرة، ورأى في عيني نايجل توقًا حنونًا وساحقًا لما لا يمكن

كسبه أبدًا. سيصغي إليه نايجل لكنه لن يفهمه.

«آسف، لم يكن علي أن أكون وقحًا مع أولرايك»، قال أوبِنز، «أنا متعب فقط، أظنني سأصاب بالملاريا».

تلك الليلة، استلقت كوسي قربه متوددة. لم تكن حالة رغبة، ملاطفتها لصدره ونزولها لتمسك بقضيبه، لكنه تودد نذر. قبل بضعة أشهر، قالت إنها تريد البدء جديًا «بمحاولة إنجاب ابننا»، لم تقل المحاولة من أجل طفلنا الثاني، بل قالت المحاولة لأجل ابننا، فهذا ما تعلمته في الكنيسة. **ثمة قوة في الكلمة المنطوقة، فسمِّ معجزتك.** وتذكر، بعد أشهر من محاولة الحمل للمرة الأولى، كم أخذت تقول باستقامة متجهمة «كل صديقاتي اللاتي يعشن حياة قاسية حوامل».

بعد ولادة بوتشي، وافق على قداس شكر في كنيسة كوسي، في قاعة مكتظة مزدحمة بالأشخاص المفرطي التأنق، أشخاص كانوا أصدقاء كوسي، ومن نمط كوسي. ورآهم مثل بحر من البهائم البسيطة تصفق وتتمايل، بهائم بسيطة كلهم متقبلون ومطواعون أمام القس في بدلته الفاخرة.

«ما الأمر يا عزيزي؟»، سألت كوسي، حين ظلّ قضيبه مُسترخيًا في يدها، «هل أنت بخير؟»

«مرهق فحسب».

كان شعرها مغطى بشبكة سوداء، ووجهها مغطى بكريم له رائحة النعناع التي أحبها دومًا. استدار بعيدًا عنها، لقد أخذ يستدير منذ اليوم الذي قبّل فيه إفيملو. لم ينبغِ له أن يقارن لكنه فعل، فإفيملو تطلب منه قائلة «لا، لا تقذف بعد، سأقتلك إن فعلت»، أو «لا يا حبيبي لا تتحرك»، ثم تحفر صدره عميقًا وتتحرك حسب إيقاعها وحين تقوس ظهرها أخيرًا وتطلق صرخة حادة، يشعر بالنجاح لأنه أرضاها. كانت تتوقع أن تنال الإشباع، لكن كوسي لم تفعل، بل تقابل لمساته دومًا بكياسة، فيتخيل أحيانًا أن القس يقول لها إن الزوجة يجب أن تمارس الجنس مع الزوج، حتى إن لم تشعر برغبة في ذلك، وإلا سيجد الزوج العزاء في المرأة الخليعة .

«آمل ألا تصاب بمرض»، قالت.

«أنا بخير». كان عادة يعانقها ويمسح على ظهرها حتى تنام. لكنه لم يستطع

إرغام نفسه لفعل ذلك الآن. أوشك على إخبارها بأمر إفيملو مرات كثيرة في الأسابيع الماضية لكنه يتوقف. ما الذي سيقوله؟ سيبدو شيئًا من فيلم سخيف: أحب امرأة أخرى. ثمة امرأة أخرى. سأتركك. وبدت غريبة تلك الكلمات التي يمكن لأي شخص قولها جديًا، خارج فيلم وخارج صفحة من كتاب. لفّت كوسي ذراعيها حوله. فتحرر منها وغمغم بشيء عن كون معدته مضطربة وذهب إلى الحمام. وقد وضعت آنية جديدة، مزيج من الأوراق والبذور المجففة في طبق بنفسجي، على غطاء خزان المرحاض. فخنقته رائحة الخزامى القوية جدًا، فأفرغ الطبق في المرحاض ثم شعر بالندم سريعًا. لقد كان قصدها حسنًا، ولم تعرف أن الرائحة القوية جدًا للخزامى قد تكون مقرفة له على أية حال.

حين التقى إفيملو أول مرة في جازهول، عاد للبيت وأخبر كوسي «إفيملو في المدينة، وتناولت شرابًا معها»، وقالت كوسي «آه، حبيبتك من أيام الجامعة»، بلامبالاة شديدة.

لماذا أخبرها؟ ربما لأنه أحس عندها بقوة شعوره، وأراد تهيئتها، وإخبارها في مراحل. لكن كيف لها ألا ترى أنه تغير؟ كيف لها ألا ترى ذلك في وجهه؟ في الوقت الكثير الذي يقضيه وحده في مكتبه، وفي خروجه كثيرًا وعودته متأخرًا؟ تمنى بأنانية أن ينفرها ذلك ويحرضها. لكنها تومئ دومًا إيماءات موافقة وسطحية، حين يقول لها إنه كان في النادي، أو في منزل أوكوديبا. قال لها مرة إنه يتابع تلك الصفقة الصعبة مع المالك العربي الجديد لميغاتل، وقال «الصفقة» عفويًا، وكأنها تعرف بأمرها مسبقًا، وأطلقت أصواتًا مبهمة مشجعة. لكنه لم يكن مشتركًا أبدًا بميغاتل.

—

في الصباح التالي استيقظ قلقًا، وذهنه مكسو بحزن عظيم. استيقظت كوسي واستحمت وجلست أمام طاولة زينتها المزدحمة بالكريمات والدهانات المرتبة بعناية حتى تخيل أحيانًا أن يضع يده تحت الطاولة ويقلبها ليرى فقط كيف ستصبح هذه الزجاجات.

«لم تُعدّ لي البيض منذ مدة، ذا زد» قالت، مقتربة لتقبيله حين رأت أنه استيقظ، فأعد لها البيض ولعب مع بوتشي في غرفة المعيشة في الأسفل، وبعد أن

غطت بوتشي في النوم، قرأ الصحف، ورأسه مكسو بالحزن طوال الوقت. لم ترد إفيملو على مكالماته بعد. وصعد إلى الطابق العلوي إلى غرفة النوم، فوجد كوسي ترتب خزانتها، وكومة من الأحذية ذات الكعوب العالية مكدسة وتجثم على الأرض. ووقف قرب الباب وقال بهدوء «أنا لست سعيدًا يا كوسي، أحب امرأة أخرى، وأريد الطلاق، سأحرص على ألا تحتاجي شيئًا أنت وبوتشي».

«ماذا؟»، استدارت من المرآة لتنظر له صراحة.

«أنا لست سعيدًا»، لم يكن قد خطط لقول الأمر هكذا، لكنه لم يخطط للقول أصلًا. «أحب امرأة أخرى سأحرص...»

رفعت يدها، راحة يدها المفتوحة تواجهه، لتجعله يتوقف عن الكلام. لا تقل المزيد، قالت يدها، لا تقل المزيد. وقد ضايقه أنها لا تود معرفة المزيد. كانت راحة يدها فاتحة، شفافة تقريبًا وكان بإمكانه رؤية التقاطعات المخضرة لعروقها. أنزلت يدها، ثم ببطء، جثت على ركبتيها. كان نزولًا سهلًا بالنسبة لها، أن تجثو على ركبتيها، لأنها تفعل هذا كثيرًا حين تصلي، في غرفة التلفاز في الطابق العلوي، مع عاملة المنزل والمربية وأيًا يكن من معهم. كانت تقول «بوتشي إشش» بين كلمات الصلاة، في حين تواصل بوتشي حديثها الطفولي، تردد بوتشي بصوت عال رنان «آمين!» في النهاية. وحين قالت بوتشي آمين بهذا الجذل وهذا الاستمتاع، خشي أوبِنز أن تكبر وتصبح امرأة ستحطم، بكلمة آمين، الأسئلة التي ستطرحها عن العالم. وها هي كوسي الآن تجثو على ركبتيها أمامه ولم يرغب أن يفهم ما تفعله.

«أوبِنز، هذه عائلة»، قالت كوسي، «لدينا طفلة، وهي تحتاجك وأنا أحتاجك. علينا الحفاظ معًا على هذه العائلة».

كانت تركع وتتوسل إليه ألا يرحل وتمنى لو أنها غضبت بدلًا من هذا.

«أحب امرأة أخرى يا كوسي، أكره إيذاءك هكذا و..»

«الأمر لا يتعلق بامرأة أخرى يا أوبِنز»، قالت كوسي، ناهضة، وصوتها يملؤه العزم وعيناها قاسيتان، «الأمر يتعلق بالحفاظ على هذه العائلة! لقد أقسمت أمام الرب، وأقسمت أنا أمام الرب. أنا زوجة صالحة، لدينا زواج. هل تظن أن بإمكانك تدمير هذه العائلة لأن حبيبتك عادت؟ هل تعرف معنى أن تكون أبًا مسؤولًا؟ لديك

مسؤولية تجاه تلك الطفلة بالأسفل! ما ستفعله اليوم سيدمر حياتها ويحطمها حتى يوم موتها! وكل هذا لأن حبيبتك القديمة عادت من أمريكا؟ لأنك مارست معها الجنس الأفعواني الذي ذكرك بأيام الجامعة؟»

تراجع أوبِنز. لقد عرفت إذًا. غادر الغرفة وذهب إلى مكتبه وأغلق الباب. كره كومي لأنها كانت تعلم طوال الوقت وتتظاهر أنها لا تعرف، ولوحل الإهانة الذي تركتها في معدته. لقد احتفظ بسر لم يكن سرًا أصلًا، وأثقله إحساس بالذنب متعدد الطبقات، الذنب ليس لرغبته في ترك كومي فحسب، بل للزواج منها أصلًا. لم يكن ليتزوجها في بادئ الأمر وهو يعلم أنه ينبغي له ألا يفعل، والآن، مع الطفلة، يريد تركها. إنها عاقدة العزم على أن تظل متزوجة و هذا أقل ما يدين به لها، أن تظل متزوجة. طعنه الهلع عند تفكيره بالبقاء متزوجًا، بلا إفيملو، وبدا المستقبل مثل ضجر لا نهائيّ سقيم. ثم قال في نفسه إنه سخيف ودرامي، وعليه التفكير بابنته. ومع ذلك حين جلس على كرسيه ودار للبحث عن كتاب من الرف، شعر بنفسه محلقًا.

—

ولأنه انسحب إلى مكتبه ونام على الأريكة هناك، ولأنهما لم يقولا شيئًا آخر لبعضهما، ظن أن كوسي لن ترغب بالذهاب إلى حفل تعميد طفلة صديقه أحمد اليوم التالي. ولكن في الصباح، فرشت كوسي على فراشهما تنورتها الدانتيلا الطويلة الزرقاء وقفطانه السنغالي الأزرق، وبينهما فستان بوتشي المخملي المكشكش الأزرق. لم تفعل هذا من قبل، أن تفرش ثيابًا متماثلة الألوان لهم جميعًا. في الأسفل، رأى أنها أعدت الكعك المحلى السميك الذي يحبه، وحضرت مائدة الإفطار وقد سكبت بوتشي بعضًا من حليب الكاكاو على لبادة الطاولة.

«اتصل بي هيزيكيا»، قالت كومي ببهجة، عن قريبه في أكوا، الذي يتصل حين يريد المال فقط، «أرسل رسالة نصية يقول إنه لا يستطيع الوصول إليك، لا أدري لماذا يتظاهر بعدم معرفة أنك تتجاهل مكالماته».

كان أمرًا غريبًا منها أن تقوله، وهي تتحدث عن تظاهر هيزيكيا في حين أنها هي نفسها منغمسة بالتظاهر. ووضعت مكعبات من الأناناس الطازج في صحنه، وكأن الليلة السابقة لم تحدث أبدًا.

«لكن عليك فعل شيء من أجله، مهما كان صغيرًا، وإلّا لن يتركك وشأنك»، قالت.

«افعل شيئًا له»، تعني أعطه المال، وكره أوبِنز، فجأة، ميل الإيبو إلى اللجوء للتلطيف كلما تحدثوا عن المال، إلى الإشارات غير المباشرة، وإلى الإيماء بدلًا من الإشارة. اعثر على شيء لهذا الشخص، افعل شيئًا لذلك الشخص. لقد أغاظه، إذ بدا جبنًا، خاصة لأشخاص صريحين صراحة لاذعة فيما عدا ذلك. جبان لعين، دعته إفيملو. ثمة جبن في إرساله الرسالة النصية والاتصال بها، موقنًا أنها لن ترد، وكان سيذهب إلى شقتها ويقرع الباب، حتى إن كانت ستطلب منه المغادرة. وثمة جبن في عدم إخباره كوسي ثانية أنه يريد الطلاق، ودخوله في راحة إنكار كوسي. أخذت كوسي قطعة أناناس من صحنه، وكانت هادئة قوية عازمة.

«أمسكي يد بابا»، قالت لبوتشي وهم يدخلون منزل أحمد المرح بعد الظهيرة تلك، وقد أرادت أن تعود الحياة الطبيعية.

أرادت أن توجد زواجًا جيدًا. حملت هدية ملفوفة بورق فضي لطفلة أحمد. في السيارة، أخبرته ما هي، لكنه نسي. انتثرت المظلات وطاولات البوفيه مثل النقط في المنزل الكبير، الذي كان كبيرًا وجميلًا، ويشي بوجود حمام سباحة في الخلف. عزفت فرقة موسيقية، وركض مهرّجان في الأنحاء، ورقص أطفال وصرخوا.

«لقد جلبوا الفرقة نفسها التي جلبناها في حفلة بوتشي»، همست كوسي. أرادت حفلة كبيرة للاحتفال بمولد بوتشي، وقد عام ذلك اليوم، وحالت فقاعة هواء بينه وبين الحفلة. حين قال مقدم الحفل «الأب الجديد» فوجئ على نحو غريب ليدرك أن مقدم الحفل يعنيه، وأنه كان حقًا الأب الجديد، أبًا.

عانقته زوجة أحمد، سيكي، وقرصت خدي بوتشي، والناس يتحركون حولهم، والضحك كثيف في الهواء. أعجبوا بالطفل الجديد وهو ينام في انحناء ذراعي جدته ذات النظارات. وقد أدهش أوبِنز، أنهما قبل بضع سنوات يحضران حفلات الزفاف، وها هما يحضران حفلات التعميد وقريبًا ستكون الجنازات، سيموتون. سيموتون كلهم بعد إجهادهم في حياة لم يكونوا فيها لا سعيدين ولا تعسين. حاول أن يبعد الظل الكئيب الذي خيم عليه. وأخذت كوسي بوتشي إلى حشد من النساء

والأطفال قرب مدخل غرفة المعيشة، وفيها لعبة تلعب في دائرة، وفي وسطها مهرج أحمر الشفتين. راقب أوبِنز ابنته: بمشيتها غير المتزنة والربطة الزرقاء المزينة بزهور حريرية وضعت على رأسها ذي الشعر الكثيف، والطريقة التي ترفع بها نظرها إلى كوسي بالتماس، وتعبير وجهها يذكره بأمه. لم يطق التفكير بأن تكبر بوتشي وهي تكرهه، وأن تفتقد شيئًا يمكنه أن يكونه لها. ولكن لم يكن مهمًا إن ترك كوسي أم لا، بل كان مدى رؤيته لبوتشي. سيعيش في ليغوس طبعًا وسيحرص على أن يراها قدر استطاعته، فقد نشأ كثير من الأشخاص بلا أب. هو نفسه نشأ بلا أب، رغم أنه احتفظ دومًا بالروح المواسية لأبيه، مثالية ومجمدة في ذكريات الطفولة. منذ أن عادت إفيملو، وجد نفسه يبحث عن قصص رجال تخلوا عن زواجهم، متمنيًا أن تنتهي القصص نهاية حسنة. كان الأطفال أكثر سعادة مع أبوين منفصلين مما كانا عليه مع أبوين متزوجين تعسين. لكن معظم القصص عن أطفال مستائين يشعرون بالمرارة بسبب الطلاق، وأطفال أرادوا حتى الآباء التعسين أن يبقوا معًا. مرة، في ناديه ابتهج حين تحدث شاب لبعض أصدقائه عن طلاق والديه، وكم شعر بالراحة لوقوعه، لأن تعاستهما ثقيلة، «لقد حبس زواجهما النعم في حياتنا، والجزء الأسوأ أنهما لا يتشاجران».

قال أوبِنز من الطرف الآخر للحانة «رائع!»، جاذبًا نظرات غريبة من الجميع.

لم يزل يراقب كوسي وبوتشي تتحدثان إلى المهرج الأحمر الشفتين، حين وصل أوكوديبا «ذا زد!»

تعانقا وربت كلّ منهما ظهر الآخر.

«كيف وجدت الصين؟»، سأل أوبِنز.

«الصينيون، يا إلهي، إنهم شعب مراوغ للغاية. هل تعرف أن الحمقى السابقون في مشروعي قد وقعوا كثيرًا من الصفقات الفارغة مع الصينيين، وأردنا مراجعة بعض الاتفاقيات لكن هؤلاء الصينيين، يأتي خمسون منهم لاجتماع ويحضرون الورق ويقولون لك فقط «وقع هنا!» وسينهكونك في المفاوضات حتى يحصلوا على مالك ومحفظتك أيضًا»، ضحك أوكوديبا. «تعال لنذهب للأعلى، سمعت أن أحمد خبأ زجاجات دوم بيرغنون هناك».

في الأعلى، فيما بدا غرفة طعام، أسدلت الستائر باللون الخمري الداكن، صادة ضوء النهار، وتدلت ثريا لامعة، تشبه كعكة زفاف مصنوعة من الكرستال من منتصف السقف. جلس الرجال حول طاولة كبيرة من خشب البلوط، مزدحمة بزجاجات النبيذ والكحول، وأطباق من الأرز واللحم والسلطات. وكان أحمد يدخل ويخرج، معطيًا تعليمات للخادم، مصغيًا للأحاديث ومضيفًا عبارة أو اثنتين.

«لا يهتم الأثرياء للقبيلة، ولكن كلما انحدرت أكثر صارت القبيلة أكثر أهمية»، قال أحمد حين دخل أوبنز وأوكوديبا. أحب أوبِنز طبيعة أحمد الساخرة. كان أحمد يؤجر سطوح المباني في ليغوس حين أخذت شركات الاتصالات تدخل البلاد، وصار يؤجر السطوح لقاعدة محطاتها وجمع ما كان يشير إليه بسخرية إلى الثروة الوحيدة النظيفة في البلاد.

صافح أوبِنز الرجال، الذين يعرف معظمهم، وسأل الخادمة، امرأة شابة وضعت كأس نبيذ أمامه، إن كان يستطيع الحصول على كولا بدلًا من ذلك، لأن الكحول ستجعله يغرق أعمق في مستنقعه. استمع إلى الحوار من حوله، والمزاح والنكز، والسرد وإعادة السرد. ثم بدؤوا، كما يعرف أنهم سيفعلون بلا شك، بانتقاد الحكومة، والمال المسروق والعقود غير المكتملة، والبنية التحتية المتروكة للعفن.

«اسمعوا، من الصعب أن تكون مسؤولًا عامًا نظيف اليد في هذه البلاد. كل شيء معد لك للسرقة، والجزء الأسوأ أن الناس يريدونك أن تسرق، أقاربك يريدونك أن تسرق، وأصدقاؤك يريدونك أن تسرق»، قال أولو. كان نحيلًا ومترهلًا بذلك التنفج السهل الذي جاء مع ثروته الموروثة واسم عائلته الشهير. مرة، عرض عليه ما يبدو منصب وزير وأجاب، وفقًا للأسطورة القروية «لكني لا أستطيع العيش في أبوجا، فليس فيها ماء ولا يمكنني العيش دون قواربي». طلق أولو زوجته مورينيك صديقة كوسي من أيام الجامعة. إذ كثيرًا ما ضايق مورينيك، التي كانت سمينة قليلًا، حول خسارة الوزن،حول إدامة اهتمامه بالمحافظة على وزنها. أثناء طلاقهما، اكتشفت مختزناً للصور الإباحية على حاسوب البيت، كلها لنساء بدينات، والأذرع والبطون كلها طبقات شحم، وخلصت إلى أن أولو لديه مشكلة روحية، ووافقتها كوسي.

«لماذا يتعين على كل شيء أن يكون مشكلة روحية؟ إن الرجل مهووس

فحسب»، قال أوبِنز لكوسي. وها هو، يجد نفسه أحيانًا ينظر إلى أولو بمتعة فضولية، فلا يمكنك معرفة الناس أبدًا.

«ليست المشكلة في سرقة المسؤولين العامين، بل المشكلة في كونهم يسرقون كثيرًا»، قال أوكوديبا، «انظر إلى كل هؤلاء المحافظين الذين يتركون ولاياتهم ويأتون إلى ليغوس لشراء الأراضي ولن يمسوها حتى يغادروا مكاتبهم. لهذا لا يمكن لأحد أن يشتري أرضًا هذه الأيام».

«هذا صحيح! يفسد محتكرو الأراضي الأسعارعلى الجميع، والمحتكرون هم رجال من الحكومة. لدينا مشاكل حقيقية في هذه البلاد»، قال أحمد.

«لكن الأمر ليس في نيجيريا وحدها، محتكرو الأراضي في كل مكان في العالم»، قال إيزي الرجل الأغنى في الغرفة، فقد كان مالك آبار نفط، ومثلما يكون الأثرياء النيجيريون، كان خليًا من القلق، ورجلًا بادي السعادة. جمع الأعمال الفنية وأخبر الجميع أنه يفعل ذلك. ذكر ذلك أوبِنز بصديقة أمه الخالة تشينولو، أستاذة الأدب التي عادت من إقامة قصيرة في هارفارد وأخبرت أمه على العشاء على طاولة طعامهم «المشكلة أن لدينا طبقة برجوازية رجعية جدًا في هذه البلاد، يملكون المال لكنهم بحاجة ليكونوا معقدين، إنهم بحاجة أن يعرفوا عن النبيذ». وردت أمه باعتدال «ثمة العديد من الطرق المختلفة لتكون فقيرًا في العالم، ولكن يبدو بجلاء أنه ثمة طريقة واحدة لتكون ثرياً». لاحقًا، بعد مغادرة الخالة تشينولو قالت أمه «يا للسخافة، لمَ علينا أن نتعلم عن النبيذ؟». لقد أدهش أوبِنز قولها عليهم أن يتعلموا عن النبيذ، وخيبت أمله بصورة ما أيضًا، لأنه أحب الخالة تشينولو على الدوام. وتخيل أن أحدهم قال أمرًا مماثلًا لإيزي -عليك جمع الأعمال الفنية، عليك أن تتعلم عن الفن- وهكذا أخذ الرجل يبحث عن الفن بحماسة الاهتمام المصطنع. وكلما رأى أوبِنز إيزي وسمعه يتحدث بارتباك عن مجموعته، انتابته الرغبة في أن يقول لإيزي أن يتبرع بها ويحرر نفسه.

«إن أسعار الأراضي ليست مشكلة لأناس أمثالك يا إيزي»، قال أوكوديبا.

ضحك إيزي ضحكة تأييد متباه. وقد خلع سترته الحمراء وعلقها على كرسيه. كان يتمايل، باسم الموضة، بالغندورية، ويرتدي الألوان الأساسية دومًا،

وإبزيم حزامه دومًا كبير وبارز مثل الأسنان البارزة. على الطرف الآخر من الطاولة، قال ميكو «هل تعلمون أن سائقي قال إنه اجتاز امتحانات مجلس غرب إفريقيا، لكن ذلك اليوم أخبرته أن يكتب قائمة ولم يستطع الكتابة أبدًا! لا يمكنه تهجئة كلمة ولد وقطة! رائع!»

«بالحديث عن السائقين، أخبرني صديق قبل أيام أن سائقه مثلي يتاجر بالجنس، فهو يلاحق الرجال الذين يمنحونه المال، رغم أن لديه زوجة وأولادًا في البيت».

«مثلي من طراز متدن!» كرر أحدهم، بضحكة عامة عالية. بدا تشارلي بومباي مستمتعًا تحديدًا. كان له وجه خشن بندوب، الرجل الذي سيكون نفسه في وسط جمع من الرجال الصاخبين، يأكل اللحم المتبل بالفلفل ويشرب الجعة ويشاهد آرسنال.

«ذا زد! إنك هادئ جدًا اليوم»، قال أوكوديبا وهو يشرب كأس الشامبانيا الخامسة،» هل أنت بخير؟»

رفع أوبنز كتفيه، «أنا بخير، مرهق فحسب».

«لكن ذا زد هادئ دومًا»، قال ميكو، «إنه رجل مهذب، هل لأنه جاء وجلس هنا معنا؟ الرجل يقرأ الشعر وشكسبير، رجل إنجليزي حقيقي»، ضحك ميكو بصوت عال على دعابته غير المضحكة. في الجامعة كان عبقريًا فيما يتعلق بالإلكترونيات، فيصلح مشغلات الأقراص المضغوطة التي عدت مستهلكات، وامتلك أول حاسوب شخصي رآه أوبنز. ثم تخرج وذهب لأمريكا، وعاد بعد فترة قصيرة، مختلسًا جدًا وثريًا جدًا مما قال الكثيرون إنه احتيال كبير بالبطاقات الائتمانية. كان منزله مكتظًا بكاميرات المراقبة، ولدى رجال أمنه أسلحة آلية، والآن عند أقل ذكر لأمريكا في حديث يقول «تعلم أنني لا أستطيع أبدًا دخول أمريكا بعد الصفقة التي قمت بها هناك»، كأنما لينتزع الوخز من الهمس الذي يجره.

«أجل، ذا زد رجل مهذب جاد»، قال أحمد «هل تتخيلون أن سيكي تسألني إن كنت أعرف أحدًا مثل ذا زد يمكنني أن أعرفه على أختها؟ قلت يا إلهي، أنت لا تبحثين عمن يشبهني ليتزوج أختك وبدلًا من ذلك تبحثين عمن يشبه ذا زد، تخيلوا!»

«لا، ذا زد ليس هادئًا لأنه رجل مهذب»، قال تشارلي بومباي بأسلوب بطيء

ولكنته الإيبو الثقيلة تضيف مقاطع إضافية لكلماته في منتصف زجاجة كونياك وضعها أمامه محتكرًا إياها، «بل لأنه لا يريد لأحد أن يعرف كم يملك من المال!»

ضحكوا، وتخيل أوبِنز دومًا أن تشارلي بومباي يضرب زوجته. لم يكن لديه سبب لتصور هذا، فلم يعرف شيئًا عن حياة تشارلي بومباي الشخصية، ولم ير زوجته أبدًا. ومع ذلك، في كل مرة رأى فيها تشارلي بومباي تخيله يضرب زوجته بحزام جلدي سميك. كان يبدو مفعمًا بالعنف، هذا الرجل القوي المتبجح، هذا العراب الذي دفع لحملة محافظ ولايته ويملك الآن احتكارًا لكل تجارة تقريبًا في تلك الولاية.

«لا تلق له بالًا يا زد، يظننا لا نعرف أنه يملك نصف الأرض في ليكي»، قال إيزي.

أطلق أوبِنز ضحكة قسرية، وأخرج هاتفه وأرسل رسالة نصية لإفيملو «أرجوك تحدثي إلي».

«لم نلتق قبلًا أنا دابو»، قال الرجل الجالس على الجانب الآخر لأوكوديبا، مادًا يده ليصافح أوبِنز بحماس، وكأن أوبِنز قد انبثق للوجود لتوه. مد أوبِنز يده في مصافحة فاترة، فما إن ذكر تشارلي بومباي ثروته، حتى صار مهمًا لدى دابو فجأة.

«هل تعمل في النفط أيضًا؟»، سأل دابو.

«لا»، رد أوبِنز باقتضاب. لقد سمع مقتطفات من حديث دابو في وقت أسبق، وأنه يعمل في قطاع استشارات النفط وأولاده في لندن. كان دابو على الأرجح واحدًا من أولئك الذين ثبتوا زوجاتهم وأولادهم في لندن وعادوا إلى نيجيريا بحثًا عن المال.

«قلت لتوي إن النيجيريين الذين يظلون يتذمرون من شركات النفط لا يفهمون أن الاقتصاد سينهار دونها»، قال دابو.

«لا بد أن تكون مشوشًا جدًا لتظن أن شركات النفط تسدي لنا معروفًا»، قال أوبِنز ومنحه أوكوديبا نظرة مندهشة، فليس من طبعه البرود في نبرته ، «إن الحكومة النيجيرية تمول صناعة النفط أساسًا بطلب الإمدادات، وتخطط كبريات شركات النفط للانسحاب من العمليات على البر على أية حال، يريدون ترك ذلك للصينيين، والتركيز على العمليات البحرية فحسب، إنها مثل اقتصاد مواز، هم يحتفظون بالبحر ويستثمرون في المعدات عالية التقنية فقط، ويضخون النفط من عمق آلاف الكيلومترات، بلا طاقم محلي، ويأتي عمال النفط من هيوستن واسكتلندا، لذا، لا لا

يسدوننا معروفًا».

«أجل!» قال ميكو، «وكلها هراء مشترك، كل هذه المضخات تحت المائية والغواصات في أعماق البحار والأشخاص الذين يعرفون كيف يصلحون آليات التصليح تحت الماء. هراء مشترك، كلهم. تراهم في ردهة الخطوط البريطانية، كانوا على أجهزة الحفر النفطي لشهر بلا كحول، وحين يصلون إلى المطار يثملون على الفور، ويجعلون من أنفسهم حمقى على الطائرة، كانت قريبتي مضيفة طيران وتقول إن الأمر يصل إلى الحد الذي تجعل فيه خطوط الطيران هؤلاء الرجال يوقعون على اتفاقية حول الشرب، وإلا لن يسمحوا لهم بالطيران».

«لكن ذا زد لا يسافر أبدًا على الخطوط البريطانية، لذا لن يعرف»، قال أحمد. ضحك مرة على رفض أوبِنز السفر على الخطوط البريطانية، لأنها في نهاية الأمر ما يسافر عليه الرجال المهمون.

«حين كنت رجلًا عاديًا أسافر في الدرجة الاقتصادية، عاملتني الخطوط البريطانية مثل البراز من إسهال مهلك»، قال أوبِنز.

ضحك الرجال وأمل أوبِنز أن يرن هاتفه ومزح تحت وطأة أمله، ثم نهض.

«علي الذهاب للحمام».

«إنه أمامك مباشرة»، قال ميكو.

تبعه أوكوديبا.

«سأذهب للبيت»، قال أوبِنز، «سأذهب للعثور على كوسي وبوتشي».

«ذا زد، لماذا، ما الأمر؟ هل هو مجرد إرهاق؟»

وقفا قرب السلالم الملتوية، مطوقين بالدرابزين المزخرف.

«تعلم أن إفيملو عادت»، قال أوبِنز، وقد أدفأه مجرد ذكر اسمها.

«أعلم»، قصد أوكوديبا أنه يعلم المزيد.

«الأمر جدي، أود الزواج بها».

«بربك، هل صرت مسلمًا دون أن تخبرنا؟»

«أوكو، أنا لست أمزح، لم يكن علي الزواج بكوسي، عرفت ذلك حتى حينئذ».

أخذ أوكوديبا نفسًا عميقًا وزفر وكأنما ليزفر الكحول جانبًا، «اسمع يا زد، لم

يتزوج الكثير منا المرأة التي أحبها فعلًا، نحن نتزوج المرأة الموجودة حين كنا مستعدين للزواج، لذا انس هذا الأمر، يمكنك أن تظل تراها لكن لا حاجة لسلوك البيض هذا، لو حملت زوجتك من شخص آخر أو لو أنك تضربها، لكان هذا سببًا للطلاق، ولكن أن تنهض وتقول أن لا مشكلة لديك مع زوجتك لكنك تتركها لامرأة أخرى؟ عجبًا، نحن لا نتصرف هكذا، رجاء».

وقفت كوسي وبوتشي أسفل السلم وبوتشي تبكي «لقد سقطت»، قالت كوسي، «وقالت إنها تريد بابا أن يحملها».

أخذ أوبنِز يهبط السلم «بوتشي بوتشي! ماذا حدث؟» وقبل أن يصلها، مدت ذراعيها منتظرة إياه.

الفصل الخامس والخمسون

ذات يوم، رأت إفيملو رقصة ذكر الطاووس، وقد بسط ريشاته كالمروحة في هالة كبيرة. ووقفت الأنثى قريه تنقر شيئًا على الأرض ومن ثم، بعد وهلة، مشت بعيدًا، لا مبالية باللمعان العظيم لريش الذكر. أخذ الذكر فجأة يترنح، من ثقل ريشه ربما أو من ثقل الرفض. التقطت إفيملو صورة لأجل مدونتها، وتساءلت عن رأي أوبِنز بها، وتذكرت أنه سألها إن كانت قد رأت رقص الذكر، وستتذكر في منتصف اجتماع في وكالة إعلانات نتف أوبِنز للزغب على ذقنها بملقط، ووجهها على وسادة، وهو قريب منها جدًا ومنهمك في فحص الشعر. كل ذكرى أربكتها بسطوعها المعمي، وكل منها تجلب معها إحساسًا بالفقد المنيع، وعبئًا كبيرًا يندفع باتجاهها، وتمنت لو استطاعت الانحناء، وخفض نفسها فيتجاوزها، فتستطيع إنقاذ نفسها. كان الحب شكلًا من الحزن، وهذا ما عناه الروائيون بالمعاناة. كثيرًا ما وجدت فكرة المعاناة في الحب سخيفة قليلًا، لكنها فهمت الآن. تحاشت تمامًا الشارع في فكتوريا آيلاند حيث يقع ناديه، ولم تعد تتبضع من بالمز وتخيلت أنه هو أيضًا يتفادى منطقتها من أكويي مبتعدًا عن جازهول. لم تصادفه في أي مكان.

في البداية شغلت «يوري يوري» و«قلبي» باستمرار ثم توقفت، لأن الأغاني تجلب لها ذكريات النهاية، كأنها لحن جنائزي. كانت مجروحة لبروده في الرسائل النصية والاتصال، وقصور محاولاته. لقد أحبها، وهي تعلم ذلك، لكنه افتقر إلى قوة

أكيدة، وقد ألان الواجب عوده. حين نشرت في مدونتها ما كتبته بعد زيارة لمكتب رانينودو حول تقويض الحكومة لأكشاك الباعة الجائلين، كتب معلق مجهول «هذا يشبه الشعر» فعرفت أنه هو، لقد عرفت فقط.

إنه الصباح. تتوقف شاحنة، شاحنة حكومية قرب بناية الشركة العالية، قرب أكواخ الباعة، ويخرج رجال، رجال يضربون ويدمرون ويسوون ويهزون. إنهم يهدمون الأكشاك ويجعلونها قطعًا مستوية من الخشب، إنهم يقومون بعملهم ويرتدون التدمير مثل بدلات أعمال أنيقة. لقد جلسوا هم أنفسهم في أكشاك كهذه، ولو اختفت كل الأكشاك كهذه في ليغوس، لظلوا بلا غداء، عاجزين عن شراء أي شيء آخر. لكنهم يحطمون ويهدمون ويضربون، ويصفع أحدهم امرأة، لأنها لا تحمل قدرها وآنيتها وتهرب. بل تقف هناك وتحاول التحدث إليهم. لاحقًا، يحرقها وجهها من الصفعة وهي ترى بسكويتها قد دفن في التراب. تقتفي عيناها أثر خط نحو السماء الغائمة، لا تعرف بعد ما الذي ستفعله لكنها ستفعل شيئًا، ستجمع أمتعتها وتستعيدها وتذهب إلى مكان آخر لبيع الفاصولياء والأرز والسباغيتي المطهوة حتى صارت عجينة والكولا والحلوى والبسكويت .

إنه المساء، خارج بناية الشركة العالية يخفت ضوء النهار وحافلات الموظفين تنتظر. تصعد إليها النساء مرتديات خفافات منبسطة ويروين قَصصًا بطيئة بلا أحداث، ويحملن أحذيتهن العالية في حقائبهن. من حقيبة مفتوحة لإحدى النساء يبرز كعب مثل خنجر مثلوم. يمشي الرجال بسرعة أكبر إلى حافلاتهم، يمشون تحت مجموعة من الأشجار التي كانت، قبل ساعات فقط، تؤوي نشاط الباعة. هناك، يشتري السائقون والركاب غداءهم، لكنّ الأكشاك قد أزيلت الآن، لقد محيت ولم يبق شيء، ولا حتى تغليف بسكويت ضال، ولا زجاجة حملت الماء يومًا، لا

شيء يوحي أنهم كانوا هنا يومًا.

حرضتها رانينودو كثيرًا على الخروج أكثر والمواعدة، «إن أوبِنز يشعر أنه مفرط الجاذبية على أية حال»، قالت رانينودو. ورغم أن إفيملو عرفت أن رانينودو تحاول أن تروح عنها فقط، لكنها دهشت أن كل الآخرين لم يروا أوبِنز قريبًا من المثالية كما فعلت.

كتبت منشورات مدونتها متسائلة عن رأيه بها. فكتبت عن عرض أزياء حضرته، وكيف دارت العارضة في تنورة من قماش أنكارا، في مزيج أنيق من الأخضر والأزرق لتبدو مثل فراشة أنيقة. وكتبت عن امرأة في زاوية الشارع في فكتوريا آيلاند تقول بمرح «خالة جميلة!» حين توقفت إفيملو لشراء التفاح والبرتقال. وكتبت عن المناظر من غرفة نومها، حط بلشون أبيض على جدار المنزل، منهك من الحرارة، وحارس البوابة يساعد بائعة متجولة في رفع صينيتها على رأسها، في تصرف مفعم بالاحترام وقفت تراقبه طويلًا بعد رحيل البائعة. كتبت عن المذيعين في الإذاعة ولكناتهم المصطنعة جدًا والمضحكة جدًا. وكتبت عن ميل النساء النيجيريات لتقديم النصح، النصح الصادق لكن المغرق بالنفاق. كما كتبت عن أحياء المستنقعات ذات أكواخ الصفيح، وسطوحها مثل قبعات مسحوقة، وعن الشابات اللاتي يسكن هناك، أنيقات وذكيات يرتدين الجينز الضيق، وحياتهن مبقعة بالأمل العنيد، اللاتي يردن فتح محلات لتصفيف الشعر والذهاب للجامعة، وكن مؤمنات بأن دورهن قادم، **نحن على بعد خطوة فقط من هذه الحياة في حي فقير، نحن الذين نعيش حياة طبقة متوسطة تملك مكيف هواء.** كتبت وتساءلت إن وافقها أوبِنز. لم يَقِل ألم غيابه بمرور الوقت، بل بدا أنّه يغوص أعمق كل يوم، ويثير لديها ذكريات أوضح. مع ذلك كانت في سلام، أن تكون في البيت وأن تكتب في مدونتها، وأن تعيد اكتشاف ليغوس ثانية. لقد غزلت نفسها أخيرًا في الوجود كليًا.

حاولت الاتصال بماضيها، فاتصلت ببْلين لإلقاء التحية وأن تخبره أنها وجدته على الدوام شخصًا صالحًا جدًا ونقيًا جدًا بالنسبة إليها، وبدا متكلفًا على الهاتف كأنه مستاء من اتصالها، لكنه قال في نهاية المكالمة سعدت لاتصالك. واتصلت بكيرت وبدا صاخبًا متحمسًا لاتصالها، وتخيلت أن يعودا إلى بعضهما، وأن يكونا في علاقة خلية من العمق والألم.

«هل كنت أنت من يرسل تلك الأموال الكبيرة التي حصلت عليها من أجل المدونة؟»، سألت.

«لا»، قال، ولم تكن واثقة إن صدقته أم لا، «هل ما زلت تدونين؟»

«أجل».

«عن الأصل العرقي؟»

«كلا، إنها عن الحياة فقط، فموضوع الأصل العرقي لا ينجح هنا حقًا، أشعر أنني خرجت من الطائرة في ليغوس وكففت عن كوني سوداء».

«أراهنك».

لقد نسيَت كم يبدو أمريكيًا.

«إنه ليس الأمر نفسه مع الجميع»، قال، وأحبت سماع هذا. اتصل بها في وقت متأخر من الليل بتوقيت نيجيريا، وتحدثا عما فعلاه معًا، وبدت الذكريات باهتة الآن. فذكر إشارات غامضة عن زيارتها في ليغوس وأطلقت أصواتًا مبهمة للموافقة.

ذات مساء، صادفت فريد حين دخلت تيرا كلتشر لترى مباراة مع رانينودو وزيمايي، فجلسوا جميعًا في المطعم بعد ذلك وشربوا المرطبات.

«رجل لطيف»، همست رانينودو لإفيملو.

في البداية تحدث فريد، كما السابق، عن الموسيقى والفن وقد انعقدت روحه بالحاجة لإثارة الإعجاب.

«أود أن أعرف كيف تبدو حين لا تغني؟»، قالت إفيملو.

ضحك، «لو أنك خرجت معي لعرفت».

ران هناك صمت، رانينودو وزيمايي تنظران إلى إفيملو بترقب وهذا ما أسعدها.

«سأخرج معك»، قالت.

اصطحبها إلى ناد ليلي وحين قالت إنها ضجرت من الموسيقى الصاخبة جدًا والدهان والأجساد العارية تقريباً للغرباء القريبين منها جدًا، أخبرها بخجل أنه يكره النوادي الليلية أيضًا، لكنه افترض أنها تحبها. شاهدا الأفلام معًا في شقتها ثم في بيته في أونيرو، حيث علقت رسومات على جداره. أدهشها أنهما يحبان الأفلام ذاتها. أعد طاهيه، وهو رجل أنيق من كوتونو، يخنة حبوب الأرض التي أحبتها. وعزف فريد

على الغيتار من أجلها وغنى بصوت أجش، وأخبرها أنه حلم أن يكون مغنيًا بارزًا في فرقة شعبية. كان جذابًا بتلك الجاذبية التي تكبر داخلك. وأعجبت به وكثيرًا ما مد يده ليدفع نظارته للأعلى دفعة صغيرة بأصبعه، ووجدت هذا محببًا. حين استلقيا عاريين في فراشها، مسرورين ودافئين، تمنت لو كان الأمر مختلفًا، لو أن بوسعها الإحساس بما تريد.

—

ثم في مساء يوم أحد باعث على الاسترخاء، بعد سبعة أشهر منذ أن رأته آخر مرة، وقف أوبِنز هناك عند باب شقتها. نظرت اليه.

«إفيم»، قال.

فاجأتها رؤيته، برأسه الحليق الأصلع واللطف الجميل في وجهه، وبدت عيناه مضطربتين قلقتين ولاحظت حركة الصدر في الهبوط والنزول لأنفاسه الثقيلة. حمل ورقة طويلة مليئة بالكتابة، «كتبت هذا لك، هذا ما وددتك أن تعرفيه لو كنت مكانك، وأين كان عقلي، لقد كتبت كل شيء».

حمل الورقة، ومازال صدره يلهث، ووقفت هناك دون أن تتناول الورقة.

«أعلم أننا قد نتقبل الأمور التي لا يمكن لأحدنا أن يكونها للآخر، وأن نحوّلها إلى مأساة شعرية لحياتنا، أو ربما يمكننا التصرف، أنا أريد أن أتصرف، أريد لهذا أن يحدث. كوسي امرأة طيبة وكان زواجي مثل الرضا العائم. ولكن لم يتوجب علي الزواج بها، فقد علمت دومًا أنني أفتقد شيئًا، أريد تربية بوتشي وأريد رؤيتها كل يوم، لكني تظاهرت كل هذه الشهور وسأغدو يومًا ما مسنًا بما يكفي لأعرف أني أتظاهر. لقد تركت البيت اليوم، وسأسكن في شقتي في بارك فيو وآمل أن أرى بوتشي كل يوم إن استطعت. أعلم أن الأمر استغرق مني وقتًا، وأعلم أنك تتحركين، وأفهم كليًا إن كنت مترددة وتحتاجين وقتًا».

صمت وعدل وقفته «أنا ألاحقك يا إفيم، وسألاحقك حتى تمنحيني هذه الفرصة».

نظرت إليه لوقت طويل. لقد قال ما أرادت سماعه ومع ذلك حدقت به.

«سيلنغ»، قالت أخيرًا، «ادخل».

امتنان

أود أن أتقدم بعميق امتناني إلى أفراد أسرتي، الذين قرؤوا المسودات وحكوا لي القصص، وتمنوا لي الحظ الطيب حين كنت بحاجة إليه، واحترموا حاجتي للمساحة والوقت ولم يهتز إيمانهم الغريب والجميل بالحب؛ جيمس وغريس أدتشي، وإيفارا إيسج وإجيوما مادوكا وأوتشي سوني - إدبوتا، وتشكس أدتشي وأوبي مادوكا، وسوني إدبوتا، وتنيوك أدتشي وكيني أدتشي وأوكي أدتشي ونيكا أدتشي، وأوجي أكيملو، وأوجو إغونا.

منح هذا الكتابَ ثلاثة أشخاص رائعون الكثير من وقتهم وحكمتهم وهم إكي آنيا، أختي الغالية، ولويس إدويزين وتشايناكويزي أونيملوكوي.

كما أود أن أشكر هؤلاء الأصدقاء الأعزاء، لذكائهم وكرمهم البالغ في قراءة المخطوط، لأكثر من مرة أحيانًا، متيحين لي أن أرى شخصياتي في عيونهم، مبينين لي ما ينجح وما لا ينجح: أسالاك سيرا مايهر، وبنيافانغا ويناينا، وتشيوما أوكولي وديف إيغرز، ومختار باكاري، وريتشل سيلفر، وإفيتشو نووكولو، وكيم نوسو، وكولم ماكّان، وفونمي إياندا، ومارتن كينيون (الكتبي المحبوب)، وآدا إتشيتبو وتاندي نيوتن وسيمي دوسكَن، وجيسِن كاولي وتشينازو آنيا، وسايمون واتسن، ودواين بتس.

أتقدم بشكري إلى المحررين روبن ديسرفي كنوبف ، وإلى نيكولاس بيرسن، ومينا فري ومايكل كين في فورث إيستيت، وإلى العاملين في وكالة وايلي وبخاصة تشارلز بوتشان وجاكي كو وإيما باترسن، وإلى المحررة والصديقة سارة تشافلانت، لمنحي الشعور بالأمان الدائم، وإلى معهد رادكليف للدراسات المتقدمة في جامعة هارفارد على المكتب الصغير العامر بالإضاءة.

المؤلف

نشأت تشيماماندا نغوزي أديتشي في نيجيريا. تُرجمت أعمالها إلى ثلاثين لغة مختلفة وظهرت في العديد من المطبوعات الأدبيّة، منها نيويوركر، وغرانتا. حصلت روايتها "زهرة الكركديه الأرجوانية" على جائزة كُتّاب الكومنولث؛ وفازت رواية "نصف شمس صفراء" بجائزة أورانج ووصلت إلى نهائيات جائزة NATIONAL BOOK AWARD بترشيح من النقّاد، لكن التي فازت بها لاحقًا هي روايتها "أمريكانا" التي صُنّفَت ككتاب العام من قبل نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، وشيكاغو تريبون، وإنترتينمت ويكلي. أديتشي حاصلة على جائزة زمالة ماك آرثر، وهي تتنقّل في معيشتها بين الولايات المتحدة الأمريكية ونيجيريا.

المترجم

بثينة الإبراهيم، كاتبة ومترجمة سوريّة. تخرّجت في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة حلب. تكتب مقالات في دوريات عربية حول قضايا النقد الأدبي والثقافي. ترجمت إلى العربية "ليكن الرب في عون الطفلة" لتوني موريسون، و"الأخلاق في الحداثة السائلة" لزيجمونت باومان بالاشتراك مع د. سع البازعي، و"أشباهنا في العالم" من بين أعمال أخرى.

أمريكانا

ما الذي يعنيه حقًّا أن يحاول أحد أن يُصبح "أمريكيًّا"؟ ولماذا توجد هناك مصطلحات ونكات تُطلَق على العائدين من الغرب إلى ديارهم بصفات متغيّرة وأساليب مختلفة تُثير حفيظة أولئك الذين لم يغادروا قط؟ تحكي "أمريكانا" صراع إفيملو وأوبنز، الحبيبان النيجيريّان الجامعيّان اللذان فرّقتهما أحلام الهجرة إلى العالم الجديد متوقّعَين أن يجدا فُرصًا للإبداع والانطلاق والحياة، فيصطدمان بجدران كثيرة تدفعهما إلى الافتراق خمس عشرة سنة يصارعان فيها العالم الذي يتأمْرَك أمامهما دون أن يرفع أحد صوته، باعت إفيملو في أمريكا جسدها مرّة، ونظّف أوبنز في لندن الحمامات. لكنهما حين يعودان إلى ديارهما، يُفاجآن بتعامل الناس الراقي لهما كونهما عائدين من العالم الجديد، فيوضعان في طبقة أعلى، ليلتقيا مجدّدًا ويبدأ في ديارهما قصّة أخرى أشدّ قسوة من الأولى.

"إنها أحد أفضل الكاتبات الصاعدات في نيجيريا"

باراك أوباما

"رواية عن المصائر المتقاطعة بسبب الهويّة، وعطش المرء الأبديّ إلى الانتماء"

مجلّة أوبرا

رشّحها موقع Goodreads لنيل أفضل رواية عام 2015

Artwork: Shutterstock
Cover design: Diana Chamma

ISBN 978-9948-24-171-3

9 789948 241713

روايات
REWAYAT